روايات الهلال

"الحرية أو الموت"

نيقوس كازانتزاكيس

عدد ممتاز

روايات الهلال
Rewayat Al Hilal

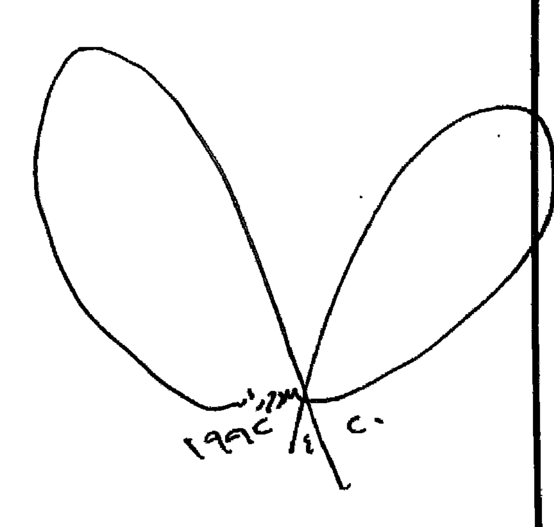
سلسلة
شهرية
لنشر
القصص
العالمى

تصدر عن
مؤسسة دار الهلال

ثمن النسخة

العدد ٥٢٠

إبريل ١٩٩٢ ● شوال ١٤١٢ هـ
No . 520 . AP . 1991



الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ٢١ جنيها فى ج . م . ع . تسدد مقدما نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية ـ البلاد العربية ٢٠ دولارا ـ امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٣٠ دولارا ـ باقى دول العالم ٤٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال .. ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

، الكويت : السيد عبدالعال بسيونى زغلول
. ب ٢١٨٣٣ (13079) ت : ٤٧٤١١٦٤
ة ـ ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان
٣٦٢٥٤٠ (٧ خطوط) المكاتبات : ص . ب :
لقاهرة ـ الرقم البريدى ١١٥١١ ـ تلغرافيا :
اهرة ج . م . ع .
TELEX 92703 hilal u
FAX 3625

اهداءات ٢٠٠١
ا. صلاح راتب
القاهرة

الحرية

أو

الموت

تأليف

نيقوس كازانتزاكيس

ترجمة

سعد زغلول نصار

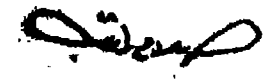
★

دار الهلال

هذه هى الترجمة الكاملة لرواية « كابتن ميخايليس .. التى نشرت
بالفرنسية تحت عنوان
La libertG´e Ou la mort
تاليف

Nikos KAZANTAZAKIS

الغلاف بريشة الفنانة :
سميحة حسنين



الفصل الأول

أخذ الكابتن « ميخايليس » يجز على أسنانه كما هى عادته كلما استشاط به الغضب ، ثم رفع أصابع يده اليمنى وكأنها مخالب ، إلى شاربه الأسود يعبث به ، كان جديرا بلقب « الخنزير البرى » الذى يعرف به فى ميجالوكاسترو ، فقد كان ما يتصف به من ثورات الغضب ، وكانت عيناه العميقتان الداكنتان المستديرتان ، وعنقه القصير الصلب وأصابعه الطويلة كالمخالب وجسده الثقيل العريض .. كل ذلك كان يشبه بحق خنزيرا بريا انتصب على ساقيه فاتحا ذراعيه للربيع .

كان الكابتن مطبقا بقبضة يده على رسالة مالبث أن دسها فى ثنايا حزامه العريض بعد أن أمضى وقتا طويلا وهو يتهجى حروف كلماتها ويبذل جهدا خارقا فى فهم معانيها .. إنه لن يحضر هذا العيد أيضا (هكذا فهم) : وهكذا فإن أمه المريضة التى تحتضر وأخته المسكينة .. لن تتاح لهما رؤيته لأنه ـ كما يقول ـ لايزال يدرس .

بحق الشيطان .. ماهو الذى يدرسه ؟ أسيظل يدرس هكذا إلى الأبد ؟ ! أم أنه لم يعد له وجه يعود به إلى كريت بعد أن تزوج من يهودية ولم يتزوج من امرأة قروية من بلدنا ؟ هذا ما وصل إليه حال ولدك المفضل يا شقيقى كوستا ! آه لو كنت حيا لترى ! آه لو كنت حيا لتمسك به من كاحليه وتعلقه فى دعامة خشبية ورأسه إلى أسفل وكأنه غرارة حبوب ! .

وانتصب واقفا كمارد ممشوق فكادت رأسه تلمس سقف الدكان ، وكانت العصابة السوداء التى يعصب بها جبينه قد ارتخت فوق ظهره فجذبها وأعاد تثبيتها حول جبهته البارزة العظام ثم اتجه نحو الباب باحثا عن نسمة هواء .

وكان الصبي القروي شاريتوس النيت البرى ذو الشعر البني والعينين المرتعدتين الراعشتين والأذنين المطرقتين ، متقوقعا خلف لفة من حبال السفن ونظراته تطوف بأشرعة السفن وألواح الخشب وعبوات الدهان والقار والسلاسل الثقيلة والخطاطيف الحديدية وكل مايلزم السفن من عدد والات ، ولكنه ـ من شدة خوفه ـ لم ير سوى « الريس » الذى كان يقف على عتبة الدكان وقد ملأ كل فراغ الباب وهو يحدق صوب الميناء ، كان الكابتن ميخايليس عمه ، .. ولكنه لم يكن يناديه إلا بكلمة « الريس » .. وكان يرتعد بمحضره .

وقف الكابتن يغمغم فى غضب : « كأنما لا يكفينى مالقيت اليوم من منغصات ما الذى يريده هذا الكلب حين يطلب منى أن أتوجه إلى منزله التعس هذا المساء ، ويجيء ابن أخى أيضا ليزيد طين المنغصات بلة ! سوف تطلب مني أمه أن أكتب إليه .. ولقد سبق أن فعلت ذلك ، ولكنه لم يكلف نفسه عناء الحضور ! » .

ثم التفت إلى اليسار نحو الميناء شاخصا ببصره تجاه البواخر والسفن والبحر ، وكانت الأصوات تتناهى من حاجز الأمواج مختلطة بأصوات الباعة والبحارة ، بينما كان الحمالون المنتشرون بين براميل الزيت والنبيذ وأكوام المخلفات يصيحون ويلعنون أثناء قيامهم بالشحن والتفريغ وهم فى عجلة من أمرهم لينهوا أعمالهم قبل غروب الشمس وقبل أن تُغلق أبواب القلعة ، وكان البحر يشيع جوا حارا رطبا فى المكان الذى تفوح منه روائح البرتقال المتعطن والشلجم (اللفت) والنبيذ والزيوت ، بينما كانت هناك اثنتان أو ثلاث من السيدات المالطيات يثرثرن بأصوات مبحوحة وقد ابتلت ثيابهن برذاذ الماء وهن يلوحن لباخرة مالطية عريضة الصارية كانت قادمة وهى تحمل شحنة من الزجاجات .

واختفت الشمس وراء سماء حمراء ، وانتهى آخر يوم فى شهر مارس ، وهبت ريح شمالية باردة رعشت لها ميجالوكاسترو ، فأخذ أصحاب الحوانيت يدلكون أياديهم ، ويصكون أقدامهم .. ويتناولون الأشربة الدافئة أو « الروم » . وعلى مدى البصر كانت تبدو قمم جبال « استرومبولاس » مكسوة بالثلوج ، وجبل « سيلورتيس » وردى اللون تتخلله زرقة معتمة ، وكتل الثلوج المتجمدة تلمع بيضاء بين الأخاديد العميقة التى تقيها

الرياح .. بينما السماء صافية زاهية .

والقى الكابتن ميخاليليس بنظرة إلى برج « كيول » .. ذلك البرج العتيد الضخم الرابض إلى يمين مدخل الميناء ، وفى مواجهته أسد فينيسيا الرخامى ضاما أجنحته . كانت ميجالوكاسترو محاطة بأكملها بالأسوار المنيعة والأبراج الحربية التى أنشأها حكامها فى العصور الذهبية للبندقية . والتى خضبتها دماء البنادقة والأتراك واليونانيين ، وفى كل مكان كانت بقايا الطابع القديم لاتزال واضحة ، فهذه هى الأسود المنحوتة من الحجارة تحمل الانجيل بين فكيها ، وتلك آثار ضربات الفئوس التركية تبدو واضحة على الحصون منذ ذلك الخريف الدامى الذى سحق فيه الأتراك ميجالوكاسترو بعد أعوام طويلة من الحصار اليائس .. وفى كل مكان ـ وبين الأطلال ـ تنتشر أشجار التين والأعشاب الشوكية والشجيرات الجرداء .

وخفض الكابتن فيخاليليس بصره وأخذ يحدق فى أسفل برج « كيول » وقد نفرت العروق فى جبينه وأخذ يتنهد بعمق : هناك ، وفى داخل هذا القبو الذى تتكسر عليه الأمواج كان السجن اللعين الذى قضى فيه أجيال من المحاربين نحبهم مكبلة أيديهم وارجلهم بالسلاسل : « حقا إن أجساد ابناء كريت قوية ، ولكنها أبدا لاترقى إلى قوة مشاعرهم » .. واسترسل يقول لنفسه وكأنه يهذى : « إننى اتهم الله .. اتهمه بأنه لم يمنح ابناء كريت أجسادا من فولاذ تمكنهم من الصمود مائة عام او مائتين أو حتى ثلاثة حتى تحرر كريت .. وبعدها ليكن مايكون .. حتى ولو تحولنا إلى تراب أو رماد » .

ثم ارتفع غضبه عندما تذكر ابن أخيه الذى يعيش فى الخارج كافرنجى ، يقول إنه متعلم .. ما الذى يتعلمه بحق الشيطان ؟ .. سوف يعود ولاشك مثل عمه تيتيروس المدرس ! .. مخلوقا عليلا .. بعوينات وارداف .. خنزيرا ممتازا .. اللعنة ! .. ميوعة .. ! » .

وبصق بصقة بعيدة .. ثم تردد لحظة قبل أن يتجه إلى حانوت للعطارة يملكه « ديمتريوس » ..

ومضى يحدث نفسه : « لقد جئت إلى هذه الدنيا جسورا .. من صلب جدنا الجسور ميخاليليس المجنون الذى لم يكن يخشى الأتراك ! » .. وقفزت إلى ذاكرته صورة جده التى كانت تبعث الرعب فى القلوب ، كيف

تموت ذكرى هذا الرجل الذى ترك كل هؤلاء الأولاد والأحفاد ؟ . إن كبار السن هنا وهناك يعرفونه ويذكرون كيف كان يقف على شاطىء كريت محدقا مظللا عينيه بكفه ، كان يترقب ظهور إحدى السفن الروسية فى البحر عند خط الأفق وهو يحرك طربوشه فيميله إلى ناحية من رأسه ، ويظل يسير فى تكاسل جيئة وذهابا بحذاء أسوار ميجالوكاسترو وينحنى أمام برج « كيول » اللعين ويغنى فى وجوه الأتراك : « الموسكوف قادمون ! » .. كان شعر رأسه طويلا ولحيته مسترسلة ، وكان ينتعل حذاء برقبة طويلة تصل إلى حزام الوسط ، ويقال إنه لم يكن يخلعه عن قدميه ، ويرتدى قميصا أسود طويلا علامة على الحداد على كريت التى ترسف فى الأغلال ، وكان يخرج عقب القداس فى أيام الآحاد ويتجول هنا وهناك وفى يده قوس جده وعلى كتفه جعبة مملوءة بالسهام .

وزمجر الكابتن ميخايليس ، وقطب عن جبينه وهو يقول : « كان هؤلاء رجالا حقا ، كانوا جبابرة ، ولم يكونوا مثلنا كالديدان . وهكذا كان نساؤهم أيضا ، بل لعلهن كن أكثر منهم توحشا ! آه .. ! ، لكم تنحدر طبيعة الرجل مع الزمان .. تنحدر إلى الشيطان ! » .

وارتسمت صورة جدته ـ بعد صورة جده ـ بأظافرها المتسخة ، كانت قد غادرت بيتها ذا الجدران الخشبية عندما بلغت من السن عتيا ، وخلفت فيه أولادها وأحفادها وأولاد أحفادها ، ومضت إلى واحد من الكهوف العميقة التى فى أعلى القرية .. ودفنت نفسها فيه وظلت بداخله طوال عشرين سنة ! .. وكانت إحدى حفيداتها ـ ممن تزوجن من رجال قرية « يسيلوريتيس » .. تحضر لها كل صباح قطعة من خبز الشعير وقليلا من الزيتون وقنينة من النبيذ (وكان الماء متوافرا بالكهف) ، وكانت تحضر لها فى كل عيد فصح ، بيضتين مصبوغتين باللون الأحمر فى ذكرى السيد المسيح .. وكانت العجوز تظهر كل صباح على مدخل الكهف بوجهها الأبيض الشاحب كالشبح ، وبشعرها وأظافرها الطويلتين وثيابها المهلهلة .. وتظل تحدق فى الشمس ملوحة بذراعيها النحيلين طويلا .. داعية أو لاعنة ، ثم تعود تدلف إلى كهفها فى بطن الجبل .. هكذا .. طوال عشرين سنة ! حتى إذا كان صباح يوم ما .. لم يرها أحد .. وأدرك الجميع ماحدث . فاستدعوا قسيس القرية الذى صعد إلى الكهف وفى يده شعلة مضيئة ليجد عظام العجوز قابعة فى إحدى الحفر وقد تشابكت ذراعاها .. ودفنت رأسها بين ركبتيها ..

وهز الكابتن ميخايليس رأسه وهو يبعد عينيه عن السجن فى محاولة لأن يبعد عن ذاكرته صورة الأموات .

وفى حانوت صغير على جانب الطريق : كان « ديمتريوس » يجلس ناعسا فوق أريكة ضيقة وقد أمسك بمذبة من شعر حمار يحركها فى خمول من ناحية لأخرى ليطرد الذباب عن الأكياس الصغيرة التى تحتوى على القرنفل وجوز الطيب واللادك والقرفة .. وعند الزجاجات الصغيرة المملوءة بزيوت شجر الغار والريحان .. وكان ديمتريوس هذا يبدو دائم الكآبة بسحنته الصفراء وأنفه الذى يشبه الخيارة ! .. وبينما كان يتثاءب ويرمش بعينيه من حين لآخر - إذا لم يكن قد استغرق فى النوم بعد - لاح له الكابتن « ميخايليس » كما لو كان متجها نحوه .. فرفع يده بتحية المساء ملوحا بمذبته ، إلّا أن هذا الجار النشيط أدار وجهه فى الاتجاه الآخر .. فعاد ديمتريوس إلى نعاسه ..

دس الكابتن ميخايليس يده فى حزامه العريض فوجد الخطاب المكرمش ، فانتزعه ومزقه إلى مئات القطع .. وأخذ يحدث نفسه :

- « كان مدرسا واحدا ليس كافيا لكى توصم أسرتنا بالغباء ! الآن أصبح لدنيا الثانى .. وابن من يكون ؟ ! .. إنه ابنك يا شقيقى كوستا - أنت الذى انتزع شعلة وأضرم بها النار فى الحانوت فالتهمت دير « أركادى » بقديسيه وصلبانه ورهبانه وكل من فيه .. مسيحيين وأتراكا ! » ..

وكان « ڤيندوسوس » فى ذلك الحين يقف على رصيف الميناء مرتديا سترة من الصوف .. كان قد أوصى « كيزاموس » أن يوافيه ببرميل من النبيذ لحانته وهو الآن فى انتظار أن يتسلمه ، ولكنه حين رأى الكابتن ميخايليس على بعد وقد أسدل غطاء رأسه على حاجبيه ، تبين ماهو عليه من غضب فاستدار وقال لنفسه : « إن التنين فى حالة هياج هذا المساء .. وخير لى أن أسلك طريقا آخر » ..

وبدأت الشمس تغيب خلف مرتفعات « استرومبولاس » .. وبدأت الظلال تملأ الشوارع .. وبدت المآذن البيضاء فى لون وردى ، وأخذ عمال الميناء والنجارون وعمال الشحن والبحارة ينهون عمل اليوم .. وأخرج الكابتن ميخايليس كيس التبغ من حزامه ولف لنفسه سيجارة .. وبدأ غضبه يهدأ مع نفثات الدخان .. وأخذ يداعب ذقنه الداكنة بأصابعه المخلبية البيضاء وهو يحدث نفسه :

- « يجب أن يعيش ولدى « تراساكى » لكى يعيد وجوهنا نظيفة من جديد .. لابد وأن يضرب مثلا لعمه « تيتيروس » ولابن أخى .. ذلك الحكيم جدا ! الذى لم يخجل من خلط دمائنا بدماء المرابين ، لابد أن يرتفع ولدى بمستوى أسرتنا ! » .

وفجأة أحس بأن الحياة بخير .. وأن الله عادل .. وأنه لا عتبى عليه بعد الآن .

واقترب تركى عجوز حليق الراس يرتدى ثيابا بالية ، ورفع بصره إلى الكابتن ميخاليليس وهو يرتعد .. فبادره هذا فى حدة : « ماذا تريد يا على أغا ؟ » .

وكان « على أغا » أحد جيران الكابتن ميخاليليس الذى لم يكن يطيق رؤية وجهه الذى تشمئز منه نفسه ، فقد كان يبدو له هشا كالقوقعة الرفيعة ، نصف رجل ونصف امرأة .. يقضى أمسياته مع جاراته من النساء اليونانيات ويشاركهن ثرثرتهن .

وتمتم العجوز قائلا :

- سيدى .. لقد أرسلنى « نورى بك » .. وهو يحييك ويسألك ما إذا كان من الممكن أن تسعده هذا المساء بزيارته فى قصره ..

- حسن .. سبق أن تلقيت هذه الرسالة من خادمه الأسود ، وتستطيع أنت أن تنصرف .

- إنه يقول : إن الأمر عاجل للغاية ..

- قلت لك أغرب الآن عن وجهى :

فقد كان يضايقه سماع الصوت النسائى لذلك المملوك ..

وعض « على أغا » على لسانه واستدار لائذا بالحائط .. ثم مضى من حيث أتى .

- وماذا أفعل فى بيوت الأتراك ؟ ! .. ماذا يريد منى هذا الكلب ؟ ! .. ولماذا لم يأت إلىَّ بنفسه ؟ ! .. لن أذهب إليه ! .

والتفت فجأة .. ونادى : « شاريتوس ! ادخل وأسرج فرسى » ..

فقد خطر له فجأة أن يمتطى فرسه فى نزهة تنسيه جدته وجده وابن عمه ونورى بك أيضا ! ولعله بذلك يزيح عن كاهله الكثير .

وبينما هو يمد ذراعه ليلتقط المفتاح ويغلق حانوته ، إذا بصهيل فرح منعش يتناهى إلى سمعه داويا فى الشارع ، إنه ليميز هذا الصوت تماما .. صوت ذلك الجواد الأسود المتألق ذى الملمس الناعم الرقيق ! !

والتفت الكابتن ليرى ذلك الجواد الأصيل الأنيق يتقدم فى خيلاء وقد أمسك بلجامه غلام تركى عارى القدمين ليقوده فى مسيرة بلا سرج فى شوارع ميجالوكاسترو ليهدى من أنفاسه اللاهثة .. لابد أنه كان يعدو قبل قليل ، فلا يزال الزبد ظاهرا على فمه وصوره ، وتحت كتفيه ، ولكن قوته لم تكن تبارى .. كان لايزال ينفر بقوة فيتناثر الزبد رذاذا حول عنقه وهو يقفز متبخترا بين اللحظة والأخرى ضاربا الأرض بساقيه الأماميتين الرشيقتين .. وهو يصهل :

وصاح أحد الواقفين خارج حانوت الحلاق « پاراسكيڤاس » .. الرجل القادم من جزيرة « سيرا » :

ـ انظروا يا أولاد .. ها قد أقبل جواد نورى بك !

واندفع إلى باب الحلاق خمسة أو ستة لم يحلقوا بعد ذقونهم ، وواحد غطت ذقنه رغوة الصابون .. وأخذوا يحدقون فى الجواد بأفواه فاغرة وأعناق مشرئبة .. وصاح شاب رخو ذو لحية شعثاء كلحية الجدى ..

ـ وحق روحى ذاتها ، لو أن أحدا سألنى ما إذا كنت أختار جواد نورى بك أو زوجته .. لاخترت الجواد .

وصاح « ياناروس » معلم البياض ـ والذى كانوا يسمونه بـ « قرون الخنزير » .. بسبب شاربه الكث ـ صاح ضاحكا :

ـ إن لك عقلا مثل عقل فرشاة البياض تماما .. ! أيها الأحمق ، إن أمينة هانم جميلة وفى العشرين من عمرها .. امرأة متوحشة .. فليقع اختيارك إذن عليها هى فقط أيها المسكين حتى تمنح جسدك شيئا من المتعة ! .

وأجاب الشاب :

ـ قلت لك إننى أفضل الجواد .. ولا أحب الدنس .

وتدخل السنيور « پاراسكيڤاس » الذى كان قد اندفع بدوره نحو الباب والمقص فى يده .. وقال بصوت مرتفع :

ـ لا أيها القروى الطيب .. لا الجواد ، ولا الهانم ، إن المتاعب التى تكمن وراءهما أكثر مما يستحقان .

واستدار الشاب ذو اللحية التى تشبه لحية الجدى .. وقال :

ـ أيها التافه من « سيرا » ! إن الحياة كلها متاعب ، وليس يريح المرء سوى الموت .. أنا أريد الخير لك ـ لا تتكلم بهذه الطريقة أمام الكريتيين ، فقد نسىء فهم ما تقصد فندفنك حيا ..

وارتعش رجل « سيرا » المسكين ، إنه ـ وهو العاقل ـ لم يعد يذكر ما الذى قذف به إلى كريت ليحلق ذقون هؤلاء الوحوش ، كل حين يقدم إليه واحد من هؤلاء الكريتيين الذين يعيشون فى الجبال .. ويدلف إلى الحانوت فيقفز هو فى ذعر ليرى ما يريده .. من أين يا ترى يبدأ المسكين ؟ ! لعل شهورا طويلة قد مضت منذ آخر مرة اغتسل فيها أو حلق ذقنه مثل هذا الرجل الجبلى ؟ ولعل سنين كاملة قد مضت منذ آخر مرة قص فيها شعره .. ! وإنه ليعد المنشفة ، ويمسك بمقصه ويتحرك فى نشاط حول المقعد الذى يجلس فيه مثل هذا الكريتى وهو يتطلع فى إعجاب إلى وجهه المضحك فى المرآة : وإنه ليبدو أمامه كما لو كان Wether ، أو كما لو كان القديس « ماماس » الراعى الضخم الذى رآه السنيور « پاراسكيڤاس » مرّة فى إحدى الصور المقدسة بلحية كهذه وعوارض لا يستطيع عشرة من الحلاقين أن ينالوا فيها حقا أو باطلا ! .

إن مقصه ليتضاءل فى يده فجأة .. من أين يبدأ فى هذه اللحية الخنزيرية ؟ .. ثم إنه ليتنهد .. ثم يستقر رأيه فى النهاية على أن يبدأ باسم الله برغوة الصابون ! وتراجع المسكين فى ذعر وهو يتساءل :

ـ حيا ؟ ! .. ولماذا يا صديقى الطيب تدفننى حيا ؟ ! ..

ـ هل تعرف بم نسمى أولئك الذين يتكلمون بهذه الطريقة ؟ ! .. موتى ! ..

وابتلع رجل « سيرا » المسكين لعابه ، وتظاهر بأنه لم يسمع شيئا .. واستدار يدخل حانوته .

وفى تلك اللحظة وصل الكابتن « ستيفانس » ، ربان السفينة « داردانا » التى أغرقها الأتراك خلال ثورة ٧٨ .. كانت إحدى قذائف سفينة تركية قد اخترقت سفينته وحطمت ركبته ، ومنذ ذلك الحين لم يعد يصلح لشىء سوى أن يضغط على الأرض الصلبة بعصاه ويعرج فى مشيته حول حى الميناء ، وكان له عصوان : إحداهما مستقيمة يستخدمها عندما تسير الأمور فى كريت سيرا عاديا ، والأخرى مقوسة يستخدما عندما تضطرب الأمور وتشتم رائحة البارود فى الجو ، وإنه اليوم ليستخدم العصا المقوسة وهو مقبل يستمع إلى ما يقال :

قال « ستيفانس » :

ـ لا تتشاجروا يا شباب .. فالأمر يسير .

ـ قل لنا أنت يا كابتن « ستيفانس » : أيهما تختار لنفسك ؟ ! .

ـ أيها الحمقى ، أنا أختار الاثنين معا ! جواد نورى لكى أمتطيه ، وأمينة هانم لتركب خلفى فوق مؤخرته ـ مثل القديس چورچ !

وصاح الكريتيون ، الحليق منهم وغير الحليق :

ـ ونحن أيضا .. نحن أيضا .. نحن أيضا يا كابتن ستيفانس ، وعسى الله أن يستجيب !

ورفع الكابتن ميخايليس بصره : كان الجواد قد أصبح قريبا منه رائعا .. ناريا كبجعة سوداء بعنقها ترفعه عاليا .. واستدار الجواد نحوه وبرقت عيناه كما لو كان قد عرف الكابتن ميخايليس ، واهتز لحظة وصهل وتقدم الكابتن نحوه بالرغم منه ـ ومرت لحظات وهو واقف أمامه ويداه تتحرقان لأن تلمسه وتتحسس حرارة جسده والزبد حول فمه .. وراءه الصبى التركى ووقف ساكنا .

وبدأت يد الكابتن ميخايليس تجوس خلال الصدر العريض الذى بلله العرق وأحاطته قلادة من الأحجار الزرقاء الخفيفة محلاة بهلال من العاج .. وأخذت يده فى لهفة تربت العنق والخياشيم والرأس ، وتضرب بحنان معرفة العنق ، وتنتقل فى اشتياق إلى الظهر والفخذين (crupper) ، وتدور حول البطن المضطربة دون أن تكتفى ، كانت يده كأنما تريد أن تبتلع الجواد كله .

اما الجواد الرائع المدل بروعته ، فقد أحنى عنقه وهو يحس بمتعة شرهة فى دغدغة اليد الحانية ، ثم أدار رأسه ذات العينين الداكنتين الواسعتين كحبتى خوخ (plum) .. ونفر بحرارة فوق رأس الرجل وبدأ فجأة يتراقص .. واندفع يرفع عصابة رأس الكابتن ميخايليس السوداء ، ويلوح بها فى الهواء دون أن يدعها تسقط ، وعيناه تتابعانها فى غنج ودلال ، وأحس الرجل بقلبه يرق ، أبدا لم ينظر إلى آدمى بهذه السعادة الرائقة ! .. ألفى نفسه وقد بدأ يهمس فى أذن الجواد بكلمات الود والاعزاز ، وخفض الجواد عنقه كما لو كان يستمع ثم مسحه فى كتفى الرجل ، وفجأة رفع الكابتن ميخايليس يده وجذب عصابة رأسه السوداء من فم الجواد .. وقد علاها الزبد ، ووضعها حول رأسه ثم استدار نحو الصبى التركى وأشار إليه أن ينصرف .

وقال وهو لايزال يتابع الجواد ببصره وقد اقترب من البوابة الرئيسية :

ـ سوف أذهب ..

كان قد قرر رأيه فجأة ، واستدار ليغلق دكانه وليأخذ طريقه نحو قصر نورى بك ولكن الكابتن ستيفانس الذى كان يراقبه وهو يربت على الجواد بذلك الاشتياق الزائد .. وقف أمامه متكئا على عصاه المقوسة يرجو له امسية طيبة ، لم يكن ستيفانس يخشى هذا الصنف من الرجال الذين يكرهون الناس ، فقد كان هو نفسه رجلا بمعنى الكلمة .. كلب بحر قويا استطاع خلال ثورات ١٨٥٤ ، ١٨٦٦ ، ١٨٧٨ ، أن يخترق الحصار التركى بسفينته « داردانا » مرات لا يحصى عددها وينقل الطعام والذخيرة لكريتيين فى موانىء طبيعية منعزلة ، وعندما أصابوه وأغرقوا سفينته ، نزفت الدماء من ركبته المنسحقة ولكنه سبح فى خليج القديسة پيلاجيا وهو يمسك بين أسنانه فوق الأمواج بالرسائل التى بعثت بها اللجنة الاثينية إلى القائد الشهير كابتن « كوراكس » .. زعيم مقاطعة « ميسارا » ومنذ ذلك التاريخ .. عاد إلى الأرض أعرج فقيرا مهلهل الثياب منتعلا حذاءه الذى رتق مرة ومرات ، يدور كل يوم حول الميناء وهو يتطلع إلى السفن الأجنبية فى إعجاب ، ولكن بقلب مكلوم ، ويشم رائحة القطران ويسمع أصوات التحية المتبادلة وضجة الخطاطيف المرتطمة بالأعماق البعيدة ، كان الجسد ضعيفا .. والجيوب خاوية .. ولكن الروح كانت شامخة داخل صدره

وهو يحدق فى صفحة البحر كأنه رأس وحش خرافى .

واستند إلى عصاه المقوسة ، ووقف ثابتا فى مواجهة الكابتن ميخايليس وتكلم :

ـ هيه .. كابتن ميخايليس .. هل التقطت أذناك ما يقوله الناس فى الميناء ؟ ! . إنهم يتساءلون ! إذن أنت خُيرت بين جواد نورى بك .. وبين أمينة هانم .. فأيهما تختار ؟ ! ..

وقال الكابتن ميخايليس :

ـ انا لا أهتم بهذه الثرثرة المخجلة :

ثم اتجه إلى دكانه دون أن ينظر إلى ربان السفينة ، ولكن البحار العنيد لم يستسلم .. ظل يتفحص الكابتن .. وقال وكأنه لم يسمع شيئا :

ـ لقد جلبها نورى بك من القسطنطينية ، وهى شركسية كما يقولون ، جمالها يكفى خمس نساء .. متوحشة ـ من أكلات لحوم البشر بحق ! .. إن جاراتى « العوانس العجائز » يسمعن من جاريتها السوداء التى أحضرتها معها ، عما يجرى خلف ابواب القفص الذى وضعها فيه البك ، ثم ينشرن حفظ الله السنتهن الصغيرة ! ـ مايسمعن ..

وقال الكابتن ميخايليس فى شىء من الغضب :

ـ كابتن ستيفانس .. قلت لك إننى لا القى بالا إلى هذه الثرثرة المخجلة .. ولكن البحار العنيد لم يتزحزح .. لا .. لن يجبره على أن يغلق فمه .. إن الخوف لم يعرف إليه طريقا وهو فى مواجهة البحرية التركية ، فكيف يخاف إذن من هذا الرجل ؟ ! .. سوف يسمعه كل مايريد أن يقوله سواء أراد أم لم يرد .. تابع كلامه فقال :

ـ إن نورى بك اخوك فى الدم يا كابتن ميخايليس ، لاتنس ذلك ، ومن ثم فإنه من حقك أن تعرف ما يجرى داخل بيته .. إنهم يقولون إن هذا البك المتوحش يجلس إلى أقدامها محدقا فى عينيها ، وإنها تضغط سيجارتها المشتعلة فى عنقه وهى تقهقه ، ويقولون أيضا إنها تتذكر بلادها أحيانا .. تتذكر الخيام ورائحة الروث واللبن وصهيل الخيول ـ وتستبد بها الذكرى فتحطم أكواب « البورسلان » وتسكب زجاجات العطر على الأرض .. وتلهب ظهر جاريتها بالسوط .. » ..

وأمسك الكابتن ميخايليس بالمفتاح وأزاح بيده الذئب البحرى العجوز عن الباب وهو يهدر مثل كلب مسعور ، حتى يتمكن من إغلاق دكانه .. ولكن البحار لم يكن يستطيع الآن أن يمسك لسانه ، صحيح أنه كان من الأفضل ألا يدخل فى نقاش مع وحش مفترس كهذا ، ولكن الأمر كان قد انتهى وأصبح متورطا فى الحديث .. فلتمض السفينة إذن ناشرة قلاعها وليكن ما يكون ! وليسرع فى إنهاء حكايته ..

ـ ويقولون أيضا .. إن الهانم تغار من جواد نورى بك ، وأنها دفعت نورى بك بعيدا مساء أول من أمس عندما حاول هو أن يحتضنها وقالت له : « افعل أولا شيئا من أجلى » ، وقال هو : « كل ما تطلبينه يا عشيقة قلبى .. كل ما تطلبينه مجاب » .. « أحضر جوادك إلى الفناء ، وأشعل المصابيح حتى أستطيع أن أراه .. وأذبحه أما عينى ! » .. وتنهد البك وأحنى رأسه وانطلق يعدو خارج الحجرة وأغلق على نفسه باب حجرته وظل طوال تلك

الليلة يذرع أرضها جيئة وذهابا وهو يهدر ، أنا أحكى لك ما سمعته حتى يكون لديك به علم ، فقد أرسل يطلبك لأنه محتاج إليك ، لا تحاول أن تنكر فقد أخبرنى على أغا ، ومن ثم فمن الأفضل قبل أن تذهب ، أن تعرف حال الزوجين العاشقين فى تلك المقلاة !

ومسح ستيفانس يديه الجامدتين ، سعيدا بأنه قال كل ما يريد دون أن يغلبه الخوف ..

ـ نعم يا كابتن ميخايليس ، هذه هى الحقيقة ، وإذا كان ما قيل كذبا ، فالأفضل إذن أن تتحرى العوانس العجائز الأمر ! .

وتحرك الكابتن ميخايليس ، وصفق باب الدكان فأغلقه ، ودس مفتاحه فى حزامه ثم استدار إلى الكابتن الصفيق وقال فى غضب :

ـ أنت أيها المخلوق البحرى لا تعرف شيئا عن احترام النساء .

وانطلق فى طريقه :

وصاح ستيفانس يرد فى ضيق :

ـ وأنتم يا فرسان الأرض تعرفون كل شىء فى هذا الصدد ! دائما تجدفون وسط روث الخيل !

.. قالها واندفع يتوكأ ليختفى خلف الناصية وكأنما استبد به الخوف فجأة .

شد الكابتن ميخايليس عصابة الرأس السوداء إلى جبهته حتى غطت ذؤاباتها عينيه كأنما لا يريد أن يراه أحد أو أن يرى هو أحدا ، واتجه نحو الحى التركى وهو يتنفس بقوة .

كانت الشمس قد غابت ، وبدأت الطبول تدق .. وكان الحراس قد أحكموا إغلاق بوابات المدينة الأربع بالمفاتيح حتى لا يخرج أحد خارج حدود « ميجالوكاسترو » حتى شروق الشمس ، وليبقى الأتراك والكريتيون داخل أسوارها معا طوال الليل .

واشتدت الظلمة وامتدت لتغمر الأزقة ، واختفت النساء من الطرقات ، وأضيئت المصابيح داخل البيوت .. وصفت الموائد وهرع الرجال المحترمون إلى منازلهم ليتناولوا العشاء ، بينما توقف الرجال المرحون فى الحانات ليتناولوا كأسا أو كأسين ، وبدت ميجالوكاسترو وسط الظلام كأنها جوعى تهيىء نفسها لوجبة المساء .

وكانت تلك هى الساعة التى تبدأ فيها الشقيقات الثلاث المعروفات بالعوانس العجائز فى الوقوف خلف بابهن متجاورات ، كل تنظر من خلال واحد من الثقوب الثلاثة التى جعلت فى الباب ، يتطلعن إلى المارة ويعلقن على حسن هذا وقبح ذاك ، كن عجائز شعرهن ناصع البياض ، وكذلك حواجبهن ورموش عيونهن الحمراوات منذ يوم ولادتهن وكأنها عيون أرانب ، ولم يكن يخرجن من البيت طوال اليوم ، وقيل إنهن لم يكن يحسن الرؤية فى ضوء الشمس ومن ثم يترقبن المساء بفارغ الصبر حيث يقف ثلاثتهن إلى الثقوب الصغيرة الثلاثة ويشاهدن من خلالها العالم يمر أمامهن ، ومن خلال هذه الثقوب لم تكن ذبابة تستطيع أن تفلت من نظرهن ومن ألسنتهن الحادة المسمومة ، وكان بيتهن يقع على ناصية شارع السوق فى النقطة التى ينتهى عندها الحى التركى ويبدأ حى الكريتيين ومن ثم فقد كن يشاهدن كل شخص .. ويطلقن على كل شخص اسما لا يستطيع بمرور الوقت أن يفلت منه ، هن اللائى أطلقن على الكابتن ميخايليس اسم «الدب المفترس » ، وهن اللاتى أسمين شقيقه المدرس « تيتيروس » ، لأن أباه أحضر معه فى إحدى المرات قطعة جبن كبيرة من القرية ، فسأله ابنه

المتعلم باللغة اليونانية الكلاسيكية It rups eiuai apros , natep (أى صنف من الجبن هذا ، يا أبى ؟ !) .. وسمعته العجائز العوانس الثلاث .. وأصبح الاسم .. « تيتيروس » ! .

وطوال النهار ، كن يطبخن أو يحكن الثياب أو يكنسن ، فلم يكن لديهن شيء آخر يقلقهن ، ليس هناك رجال أو أطفال يولينهم عنايتهن ، أما شقيقهن ، الرجل الذهبى ـ هبة الرب لهن ـ السيد / أريستوطوليس الكيماوى .. فبالرغم من أنه لم يكن متزوجا . فقد كان يقضى اليوم كله مشغولا فى صنع المساحيق أو المراهم ، مريضا ضيق النفس مصفر الوجه متورم القدمين من طول الوقوف .. ثم يعود إلى شقيقاته حاملا معه سلة مثقلة بكل ما فى السوق ، وقد اختيرت له يوما ما ـ أيام كان شابا ـ فتاة من عائلة طيبة تملك دوطة محترمة ، وكان من الممكن أن يصبح السيد اريستوطوليس زوج ابنة ممتازا وسط هذه العائلة ، فقد كانت صيدليته تقع فى قلب ميجالوكاسترو وفى الميدان الرئيسى لها ، وكانت زاخرة بالزجاجات والقوارير والروائح وأنواع الصابون .. وكان المدرسون والأطباء يتجمعون عنده كل مساء يناقشون كل مشكلات الدنيا ، فلا يفعل السيد اريستوطوليس اكثر من أن ينصت إليهم بعينيه الصغيرتين الزرقاوين المرهقتين ثم يهز رأسه الجريئة وكأنما يقول لكل واحد منهم : أنت على حق .. أنت على حق ؟ بينما هو فى الحقيقة لم يكن يفكر فى غير أن حياته على ظهر هذا الكوكب فى الطريق إلى الاختفاء ، كان يريد أن يتزوج حقا ، ولكن ليس لأنه يهتم بالنساء ، فالله لا يحب ذلك ! كلا .. وإنما لمجرد أنه كان يريد أن ينجب ولدا يستطيع أن يدير الصيدلية بعده ، ولكن : .. أين تذهب شقيقاته ؟ ! لابد أولا أن يتزوجن ـ فذلك هو المألوف .. ومن ثم ، فقد مرت الأعوام ، وابيض شعره .. وتخلخلت أسنانه .. وانحنى ظهره وتهدل خداه اللذان كانا يوما ما شابين حمراوين ، أصبح السيد أريستوطوليس عجوزا .. وأصبحت حياته فارغة ، وأصبح لا يشغله سوى مضغ المصطكى .. وهكذا ، أصبح صانع المراهم يمضغ ويمضغ طوال اليوم ، وعندما يأتى المساء يستمع إلى المعلمين والأطباء وهم يتناقشون ويتجادلون حول الإرادة الحرة والروح الخالدة وما إذا كانت عوالم النجوم مسكونة .. بينما هو لا يفتأ يهز رأسه ويقول لنفسه : حتى لو أننى تزوجت الآن ، فليس باستطاعتى أن أنجب ولدا .. لا أستطيع هذا الآن .. لا

استطيع أن أنجب ولدا .. ! ثم يضع الهاون فوق المائدة ، ويتابع مضغ المصطكى .. وهو يدق مساحيقه حتى ساعة متأخرة فى حرص وعناية .

واليوم ، .. بكرت العوانس العجائز فى الوقوف فى مراكزهن ، كان البرد شديدا ، وكانت شعورهن غير ممشطة وأذرعهن وسيقانهن غلب عليها التعب ! .. ولكنهن رغم ذلك ظللن واقفات فى « رجولة » على أقدامهن ينتظرن وقد الصقن أعينهن الياقوتية بثقوب التلصص وثبتن نظراتهن على الباب الأخضر لقصر نورى بك .

وقالت « أجلاجا » ـ وهى أوسطهن :

ـ ثبتن عيونكن هناك .. هناك شىء يطهى ، تذكرن ما قالته المرأة البربرية أمس !

ـ لقد عاد البك من قريته هذا المساء غاضبا مهتاجا ، أنا رأيته كذلك ، رأيته يندفع عبر الباب بعد أن فتحه بعنف بالغ .. وبعدها مباشرة سمعت صيحات وصرخات وتأكدت أنه يضرب خدمه مرة أخرى .

وأدلت « فيروسين » بدلوها :

ـ ومن هناك غيرهم ليضربهم ؟ ! .. الجواد ؟ ! أمينة ؟ ! .. وليس بجسده براغيث فيصرخ ! ..

وبينما كانت العجائز العوانس الثلاث يتهامسن ، بدا الشارع أمامهن فجأة وكأنه قد ازداد ظلمة ، وتراجعن ، وقلن .

ـ الكابتن ميخايليس ! !

ثم اندفعن ثانية نحو ثقوب التلصص .

وفى مواجهتهن فى الشارع ، كان الرجل ذو اللحية الرمادية الداكنة المجعدة يسير فى مهل ولكن فى نشاط وخفة .. يتنفس بعمق ، وقد تدلت ذؤابات عصابة رأسه فوق عينيه ، كان يسير بحذاء الحائط ويده تستريح على حزامه العريض وقد أمسكت فى صلابة بخنجر ذى مقبض أسود ، واحتك جسده أثناء سيره بالباب الذى كانت العوانس العجائز يراقبنه من خلال الثقوب فيه ، وعندها استدار لحظة وكأنما أحس بأن هناك ست أعين تراقبه ، وبرقت عيناه فى الظلام ، وأصابت العجائز رعدة وهن يحبسن

انفاسهن .. ولكن الرجل تابع سيره فى بطء حتى إذا توقف فى مواجهة البوابة الضخمة رمى بنظره حوله ! وكان كل شىء ساكنا ولا مخلوق هناك ، وفى قفزة واحدة عبر الزقاق الضيق دفع بوابة قصر نورى بك .. ودخل .

وتراجعت العوانس الثلاث .. ورسمت « أجلاجا » علامة الصليب وهى تقول :

ـ « كيرى إليسون ! » .. « هل رأيتما كيف دخل ؟ مثلما يدخل اللص ! »

ـ ماذا يريد « الدب المفترس » من البك ؟ ! لابد أن فى الأمر شيئا ، أراهن على أنه يريد أن يبيع له الجواد ..

ـ .. أو أمينة !

وبدأ الثلاث : اجلاجا وثاليا وفيروسين يثرثرن مرة أخرى

تقدم الكابتن ميخايليس يجتاز عتبة الباب بقدمه اليمنى وهو ينظر حوله فى كل اتجاه ، وحدق فى الزنجى الذى كان ينتظره خلف الباب .. ذلك العجوز الأسود الذى ورثه نورى بك عن أبيه ، والذى يظل قابعا خلف الباب كالكلب طوال النهار وحتى منتصف الليل .. ولمسه الكابتن ميخايليس بأطراف أصابعه فتراجع الرجل وسمح له بالدخول ، وسار الكابتن فى بطء بين صفين من الأصص الضخمة المليئة بالورود ، ولابد أنه كانت فى مكان ما من الحديقة شجرة ليمون مزهرة . فقد انتشر أريج أزهار الليمون يعبق الجو مختلطا برائحة الأرض المسمدة بالروث والمروية حديثا وفى أقصى الحديقة حيث يقوم المنزل العتيق متلألئا فى الغسق تناهى صوت مجلجل كان لايزال يشقشق داخل قفصه ، وبدت أضواء من خلال الشباك الخشبى المرتفع وسمعت ضحكات نسائية .. وتنفس الكابتن ميخايليس الهواء التركى بالرغم منه ، وقد أحنى رأسه وهو يحدث نفسه :

ـ ما الذى جاء بى إلى هنا ؟ .. النتن التركى !

ووقف ساكنا لايزال أمامه وقت كاف : لم يره أحد سوى الزنجى ، ولا يزال فى مقدوره أن يعود من حيث أتى ، ولابد أن « شاريتوس » قد أسرج الفرس الآن ، ويستطيع هو إذن أن يمتطى صهوتها ويسابق بها الريح حتى الميدان الكبير لكى يهدىء من غضبه .. ولكنه أحس بالخجل .

ـ سوف يقولون إننى خائف .. تقدم .. تقدم يا كابتن ميخايليس !

وتابع سيره فى خفة حتى أصبح أمام الباب الرئيسى الذى كان مفتوحا ، وقد تدلى من أعلاه مصباح كبير مضاء ذو زجاج أخضر وأحمر اللون وقف تحته نورى بك وقد انعكست عليه الأضواء الخضراء والحمراء ، كان قد سمع صوت الباب الخارجى وعرف لمن الخطوات المقبلة فتقدم ليحيى ضيفه :

رجل جسيم وقور جليل الايماءات ، تطل من رأسه المستدير ، عينان لوزيتان داكنتان ، وقد أضفت عليهما أضواء المصباح بريقا أخاذا .. شاربه الكثيف تتضح فيه الصبغة السوداء ، كانت الأناقة الشرقية ممثلة فيه ! كان يشبه ذلك الأسد ذا الوجه القمرى الذى كانت النساء التركيات فى الماضى يطرزن رسمه فوق الأقمشة الفارسية ، كان يرتدى سروالا طويلا من الصوف الأزرق ، ولكن حزامه كان أحمر قانيا ، وعمامته التى تغطى شعره بيضاء كالثلج ، وكانت كتفاه معطرتين بالمسك وكانت رائحته هو كرائحة وحش مفترس فى حر ربيعى ..

تقدم خطوة إلى الأمام مادا يده بأصابعها القصيرة .. وهو يقول :

ـ لا تغضب منى ، يا كابتن ميخايليس لأننى كلفتك المجىء إلى بيتى ، ولكن الأمر هام ، وسوف ترى بنفسك أنه كذلك ..

وهمهم الكابتن ميخايليس وتقدم خلف البك إلى مجلس الرجال دون أن يتكلم ، ثم توقف لحظة قصيرة عند المدخل وكأنه يفكر فى غضب ثم اختلس نظرة إلى الخلف وتأكد أن أحدا لم يكن هناك .. وكان ثمة مصباح ضخم مضاء أمام الديوان ، وفحم مشتعل داخل جمرة برونزية كبيرة الحجم تنتشر من داخلها رائحة قشور الليمون وعلى المائدة المستديرة فى ركن من أركان المجلس جرة من البورسيلان ذات عنق طويل مليئة بشراب « الراكى » .. وكوبان .. وبعض الحلوى ..

وجلس الاثنان متجاورين فوق مقعد صغير ، وكانت جلسة الكابتن ميخايليس بالقرب من النافذة المطلة على الحديقة ، وأخرج نورى بك من داخل حزامه صندوقا حديديا داكنا مليئا بالطباق ومحلى فى وسطه بهلال منقوش بحبات اللؤلؤ .. فتحه وقدمه لصديقه .

ولف الكابتن ميخايليس لفافة (سيجارة) وكذلك فعل نورى بك ، وأخذ الاثنان يدخنان وقد صمت كلاهما بعض الوقت ، ثم تنحنح نورى بك وكأنه لا يدرى كيف يطرح الموضوع دون أن يجعل ضيفه يخطىء فهمه فيفقد أعصابه ، فقد كان يعرف أن ضيفه هذا ليس بالرجل الذى يقبل أن يدع ذبابة تروح وتجىء فوق سيفه ! وكان يدرك فى الوقت نفسه أن ذلك الذى يريد أن يقوله هذا المساء .. شىء ليس سهلا الدخول إليه ..

ـ هلا شربنا بعض الراكى يا كابتن ميخايليس ؟ إنه صنف معتق وجيد مصنوع من الليمون أحضرته خصيصا من أجلك .

ووضع يده فوق الكوبين علامة على أنه لا يريد أن يشرب .. ثم تساءل :

ـ ماذا لديك لتقوله لى يا نورى بك ؟ .

وسعل البك وسحق سيجارته وسط رماد المجمرة وهو ينحنى فوقها فيبدو وجهه فى مواجهة الفحم المشتعل كالنحاس الأحمر ..

ـ إذا كان لابد أن أتكلم ، فلا تسىء فهمى يا كابتن ميخايليس .

وتوقف قليلا حتى يحث اليونانى الأسمر على أن يقول شيئا ، ولكن الكابتن ميخايليس ظل صامتا فوقف البك واتجه نحو الباب وفتح قميصه عند العنق ثم عاد فجلس ، وأحس فجأة بأن حذاءه أصبح ضيقا .. فتخلص منه بخلعه ووضع قدميه عاريتين فوق الأرض فأحس بالراحة .

واستدار إلى زميله الأبكم ، وقد استقر رأيه على أن يتكلم ، ورفع يده ليبرم شاربه ، ولكنه مالبث أن أنزلها .. الحرص ! فإن الكابتن السريع الهياج قد يسىء فهم هذه الحركة ، أخيرا قال وهو يتنهد :

ـ أخوك مانوساكيس يجعل من تركيا أضحوكة وسخرية : فأول من أمس ـ الخامس والعشرين من مارس ـ كان ثملا كعادته وأدخل حمارا إلى المسجد ، ولقد جئت من القرية فوجدت رجالى وقد تجمعوا ، ورجالكم أيضا تجمعوا مسلحين ، وقد بدت بوادر متاعب خطيرة ، أنا أقول لك ذلك يا كابتن ميخايليس حتى لا تنفجر فيما بعد ، لقد رأيت من واجبى أن أقول لك ومن واجبك أن تسمع ، فافعل ما يقودك إليه الله سبحانه .

وقال الكابتن :

ـ صب الشراب ..

وصب البك الشراب .. وانتشرت رائحة الليمون .

ـ فى صحتك الطيبة يا نورى بك .

وأجاب نورى بك فى هدوء وهو ينظر إليه ..

ـ وفى صحتك .. .

وضربا كأسيهما أحدهما بالآخر ووقف الكابتن ميخايليس وأزاح ذؤابات عصابة رأسه إلى الخلف .

أهذا ما كنت تريد أن تقوله يا نورى بك ؟ ! .. أمن أجل هذا أرسلت فى طلبى ؟

وأمسك به البك من حزامه فى رقة :

ـ إذا كنت حريصا فلا تذهب ، هذه شرارة .. نعم ، مجرد شرارة .. ولكنها قد تسبب نارا يمكن أن تحترق بها قريتنا ، مر أخاك ألا يهين حكومتنا ، نحن أبناء قرية واحدة ، أبناء أرض واحدة ، فاجلس ودعنا نبحث الأمر .

ـ إن أخى أكبر منى بستة عشر عاما ، وله أولاد وأحفاد ويستطيع أن يدرك ما يفعله وأمامه سبع سنوات أخرى على الأقل يحسن فيها التبصر انه يفعل ما يريد ولن تجدى معه أبدا كلماتى .

ـ أنت فارس القرية .. إن الناس فيها ينصتون جيدا إلى ماتقول .

ـ الكلمات عزيزة يا نورى بك .. ولا تخرج بسهولة من بين أسنانى !

عض البك شفتيه ولكن قلبه قسا فجاة ، وأخذ يتفحص الكابتن ميخايليس الذى كان قد نهض وبدأ ينظر نحو الباب متهيأ للخروج ، « هذا الكافر قد جاء سلالة من جذع وحشى منتصب ، ولأبناء جنسى ثارات قديمة عند هذا الرجل ، اليس كوستاروس ـ دنس الله بالقار جثته ! ـ هو اخوه الذى ذبح أبى عند الصخرة ؟ ! كنت لا أزال طفلا .. ووطنت نفسى على أن اصبر حتى أصبح قادرا بعد على أن أثأر للدم ، ولكنى كنت سيىء

الحظ ، فقد قتل الرجل الملعون فى (أركادى) ـ نسف نسفا ، بينما كان أبنه لايزال جروا صغيرا من العار أن أفكر فى قتله ، ولقد انتظرت حتى يكبر هذا الجرو ، ولكنه ما إن طر شاربه حتى هرب ، ذهب بعيدا .. قالوا إنه ذهب إلى الفرنجة لكى يتعلم .. فمتى يعود يا ترى ؟ ! .. إن دماء أبى تصرخ ! » ..

ونهض واقفا واتجه نحو الباب فوقف تجاهه والغضب فى أعماقه يعلو ويهبط وهو لا يدرى من أين يبدأ ، وأضاءت لحية الكابتن ميخايليس الشائكة في ضوء المصباح .. اللحية التى قيل إنه أقسم ألاّ يحلقها حتى تتحرر كريت ، ولمعت عينا نورى بك فى احتقار ، فلينتظر إذن هذا الكافر إذا لم يكن ذلك يضايقه ، ولتطول حتى تصل إلى ركبتيه أو حتى إلى الأرض .. نعم ، .. لتصل إلى الأرض ولتضرب بداخلها جذورا .. ولكن كريت ـ أبدا لن ترى الحرية ! منذ خمسة وعشرين عاما قتل منا من قتل أمام حوائط فيجالوكاسترو قبل أن تسقط فى قبضتنا ، ولن ندعها تفلت ، ولن تدعنا هى تذهب ، لقد أصبحت جزءا من أجسادنا .

وتذكر أباه .. تذكر المسلمين الذين لقوا حتفهم فى الخنادق حول ميجالوكاسترو . إن نهرا من الدماء يجرى بينه وبين الكابتن ميخايليس ..

وقال الكابتن ميخايليس وهو يرفع يده ليزيحه جانبا ويخرج :

ـ دع الموتى يهدأون يا نورى بك وكف عن هذا الفحيح ! ـ إن ما تريد أن تفعله محال تحقيقه .

ولكن نورى بك كان رجلا ثابتا قويا ، فكظم غضبه ، وقال فى صوت رقيق :

ـ لاتذهب يا كابتن ميخايليس .. لاتذهب هكذا بهذه الأفكار الوحشية كما لو كنا قد تشاجرنا ، وإذا كنت ترى كلماتى قاسية فإننى أسحبها ، أعتبر أننى لم اقل شيئا وأنك أنت لم تسمع شيئا ، ألسنا صديقين لها لقد أرسلت فى طلبك لكى نشرب معا ونتذوق معا لقمة لذيذة ، إنها فطيرة من قريتنا ـ أحضرتها معى الآن ، ورأيت أن نأكلها معا ونحن نتذكر الأيام الخوالى .. أيام كنا صغارا .. أيام كنا نلعب معا .. الأيام الخوالى الحلوة فى قريتنا يا كابتن ميخايليس ..

ـ انا لن أكل .. فهى أيام الصيام عندنا .

وأمسك به نورى بك بكلتا يديه وقال فى اعتذار شديد :

ـ أقسم لك بالرسول محمد أننى لم أكن أعرف ذلك ، ولو كنت قد عرفته إذن لكنت أعددت لك بعض الكافيار الأسود .

وملأ الكأسين .. وقال وهو يرفع كأسه :

ـ فى صحتك يا كابتن ميخايليس ، انا سعيد لأنك قبلت المجيء هنا إلى بيتى لتشرب معى بعض الراكى .. انظر .. ! فليسل دمى مثل هذا إذا كنت أضمر لك أى شر .

قالها وهو يسكب بضع قطرات من الشراب على الأرض وتراجع الكابتن ميخايليس وجلس مرة أخرى فوق المقعد الصغير إلى جوار النافذة .

ـ أنا أيضا لا أضمر لك شرا يا نورى بك ، ولكن من الشرف أن يزن المرء كلماته .

ثم أفرغ كأسه فى جوفه .

وساد الصمت مرة أخرى .. وأحس البك بالحرارة فنهض وفتح النافذة ..

وفى الخارج ـ فى الحديقة ـ كانت نافورة صغيرة تنثر رذاذا باردا منعشا فيحمل معه إلى الداخل رائحة الورود وأشجار الليمون ومرة أخرى سمعت ضحكات نسائية من الحرملك ..

وظل الرجلان صامتين ، وأجهد نورى بك نفسه لكى يجد وسيلة يستأنف بها حديثا آخر جديدا بينما كان الكابتن ميخايليس ينصت إلى خرير الماء وإلى الضحكات .. ويستنشق أريج الحديقة ـ ومرة أخرى عاد قلبه يدق بقوة .. أهذه هى كريت ؟ ! ضحكات وعطر .. وأنت تشرب الراكى مع الأتراك ؟ ! .. كان يفكر .. وفجأة أغلق النافذة ..

وقال نورى بك وهو يملأ الكاسات :

ـ لا تغضب يا كابتن ميخايليس ، لقد فتحتها دون أن أسألك .

وانتبه الكابتن ميخايليس .. وحدق فى التركى ، لقد ولدا فى نفس القرية ، الأول بك له كل شيء ، والآخر « رعية » - أدنى من كلب ! .. كان أبوه - كابتن « سيفاكاس » يملك البيت المصنوع من الحجارة ، ولم يكن مسموحا له فى تلك الأيام بأن يمتطى صهوة جواد ، فكان يركب حماره الصغير ويسرع بالنزول من فوق ظهره كلما رأى عددا من الكريتيين - هانى على » والد « نورى » هذا .. لكى يسمح للرجل العظيم بالمرور ! وفى إحدى الأمسيات كان الكابتن سيفاكاس معتل المزاج فلم يترجل ، وهكذا ، رفع « هانى على » سوطه فنزفت الدماء من الرأس التى حاولت التحدى .. ولم يقل الرجل العجوز شيئا ! ولكنه ضم جوانحه على ألمه وظل ينتظر أن الكريتى ليس كالألبانى .. الكريتى يفكر جيدا ! وسوف يأتى اليوم الذى سيدفع فيه الثمن .. ولم يكد يمر عام واحد حتى اندلعت ثورة ١٨٦٦ ، وحتى تصدى ولده الأكبر « كوستاروس » فى إحدى الليالى للسفاح « هانى على » خارج ميجالوكاسترو فذبحه كما تذبح الشاة فوق صخرة فى كهف « بينديقيس » . ولكن : هاهو ذا ولده : يأخذ مكانه على العرش فى ميجالوكاسترو داخل هذا القصر الضخم ذى التحف والنافورات والشبابيك الخشبية ذى الضلف الشبكية ، يأكل ويشرب ويقبل النساء ويمتطى صهوة جواده فى الأمسيات الرائقة عبر الحى اليونانى وحوافر جواده تخرج الشرار من الأرض .

وأخرج صندوق الطباق ولف لنفسه سيجارة ، وامتلأت خياشيمه بالدخان ، ترى ، أهو يكره هذا التركى الجالس إلى جواره ، أم هو معجب به ! ! أهو يشمئز منه ؟ ! لقد طالما سأل نفسه هذا السؤال دون أن يصل إلى إجابة عليه وعندما يتقابل الاثنان مصادفة داخل أزقة ميجالوكاسترو الضيقة ، أو خارجها وهما على ظهور الخيل .. كان الكابتن ميخايليس يتطلع إلى وجه نورى بك الصافى السمح فيحس قلبه بالبهجة ولا يدرى كيف ! .. أيقتله أم لا - أيحتضنه كصديق قديم بأحسن لقاء ؟ !

كانا يوما ما طفلين صغيرين يلعبان معا فى قريتهما ، يثيران غبار الأرض ، ويتسابقان ويتصارعان ويلقى أحدهما بالآخر ويضحكان .. ويتشاجران .. وفى إحدى الأمسيات - عندما أصبحا رجلين - تقابلا وكل على ظهر جواده عند هذا الجانب من إقطاعية نورى بك التى تبعد ساعة عن ميجالوكاسترو وبالذات عند كهف « بينديقيس » .. لحظتها سارا صامتين

بعض الوقت .. ولكن في تبرم وضيق ، ففي تلك الأيام كان الاتراك الكريتيون يقتلون ، وكانت كريت قد اشتعلت نارا مرة أخرى حين حاولت « الرعية » مرة أخرى أن ترفع راسها ..

سارا دون أن ينطق أحدهما بكلمة حتى لاحت للأعين تلك الحوائط الفينيسية المشهورة وقد اكتست بحمرة الشمس الغاربة ، ولحظتها قال الكابتن ميخايليس لنفسه : « هذا الكلب .. لم أعد أستطيع أن أتحمل منظره وهو يمتطيء فرسه ليلهو داخل الحي اليوناني ويفتن النساء فيه » .. ولحظتها أيضا كان نوري بك يقول لنفسه : « لم أعد أحتمل هذا الكافر .. في كل مرة يستبد به السكر يخرج من بيته ، ويمتطي صهوة جواده ، ويهين الأتراك ، في العام الماضي أمسك بي من الوركين ورفعني مثل الغرارة حتى وضعني فوق سقف دكانه ، وجاء الناس يتقاطرون .. ! ووضعوا سلما كيما أنزل بينما ضحكاتهم ترتفع ! .

واحمرت وجنتا نوري بك .. واستدار في غضب نحو الكابتن ميخايليس :

ـ كابتن ميخايليس .. إما أن أقضي عليك ، وإما أن تقضي أنت عليّ ، لا مكان لنا نحن الاثنين معا في ميجالوكاسترو .

ـ اختر إذن سلاحك يا صديقي نوري بك ، هل اترجل حتى نبدأ ؟ !

ولم يجب نوري بك ، فقد استقرت نظراته فوق اليوناني الراكب إلى جواره ، وامتلأت عيناه بمنظره البطولي « ياله من رجل » ! ، ياله من كبرياء ويالها من شجاعة ! إنه أبدا لا ينطق بما لايلزم النطق به ولا يدعي ! إنه لا يتشاجر مع من هم أقل منه ، وهو لا يعرف الغدر ولا يحترم حتى الموت ، سعيد ذلك الرجل الذي عدوه من هذا الصنف من الرجال ! »

أخيرا .. تكلم :

ـ ليس بهذه السرعة يا كابتن ميخايليس ، سوف يكون ذلك مؤسفا ... أنا اسحب ماقلت ، نعم : انا أومن بأنه لا محمد ولا المسيح يريدان ذلك ، انا أومن بأنك محارب اصيل ، وكذلك انا .. وينبغي بالفعل أن تسيل دماؤنا .. ولكن بطريقة أخرى .

ـ طريقة أخرى ؟ !

ـ نعم .. لنصبح اخوين فى الدم ..

وتابع الكابتن ميخايليس سيره وقد أحس كأنما قلبه ينتفخ ويصعد إلى حلقه ، وظل لحظة لا يكاد يسمع سوى اختلاج الدم فى عروقه حتى إذا هدأ .. وعاد يدرك حقيقة ما سمع ، اجتاحه هياج شديد .. ربما كان سرورا لفكرة امتزاج دمه بدم هذا البك الشاب الذى تربى وبسط رائحة المسك ، فكرة الا يصبح بعد مجبرا على قتله ، وأن يقاوم دوما الاغراء الذى ينتابه كلما وقع عليه بصره .. بأن يشدد قبضته على خنجره .

كان الرجل رائعا حقا بصرف النظر عن كونه من الاتراك ، كان حقا فخر ميجالوكاسترو دون أن يعدو أحد الحقيقة فى ذلك ، كان عطوفا ، كريما ، نبيلا .. كان رجلا .. نعم رجلا عليه اللعنة !

ويشد إليه العنان فتوقف الفرس لحظة ، والهب نورى بك جواده فأدرك الفرس وراكبه ..

وقال الكابتن ميخايليس دون أن ينظر إليه :

ـ لا بأس ..

وتابع الاثنان سيرهما دون أن ينطقا بكلمة حتى بلغا اقطاعية البك ، ودخلا إلى فناء أسرع إليهما فيه أحد الخدم فساق الجوادين إلى الاسطبل بينما صفق البك بيديه فظهر خادم آخر .. وانحنى ..

ـ اذبح ديكا .. هذا الديك الكبير الذى يكسوه الريش تماما ، واحضر لنا بعض الخمر المعتقة .. وجهز سريرين وافرشهما بملاءات من الحرير ، سوف نأكل هنا وننام ليلتنا ، واذهب واغلق الابواب ..

وأصبحا وحدهما ، وركع الاثنان متجاورين ومتقابلين تحت شجرة الزيتون المثقلة بالبراعم والتى تنتصب فى شموخ وسط الفناء .. وكانت الشمس قد غابت ، وبدأت النجوم تتلألأ ويلوح لألاؤها خلال أوراق الزيتونة .

ونهض نورى بك واتجه إلى البئر يبحث عن الكوب البرونزى المعلق هناك ليشرب فيه المسافرون ويرفعوا الأكف بالدعاء لبانيه ، هانى على ، ثم عاد وجلس القرفصاء ، وقال وهو ينزع خنجره من حزامه :

ـ باسم محمد وباسم المسيح ..

ورفع الكابتن ميخايليس كم سترته الأيمن وكشف ذراعه المفتولة التى لوحتها أشعة الشمس ، وانحنى نورى بك إلى الأمام وغرس طرف الخنجر فى أحد عروق الذراع الثابتة فانبجس الدم حارا داكنا وتلقاه نورى بك بالكوب البرونزى حتى إذا بلغ سمك أصبع ، رفع عن راسه عصابتها ولف بها الذراع المجروحة ..

ـ وهذا دورك يا كابتن ميخايليس ..

ـ باسم المسيح ومحمد ..

وأخرج خنجره وغرسها فى ذراع البك ، فانبجس منها الدم يتلقاه بالكوب البرونزى ، ثم نزع عصابة راسه ولف بها الذراع ..

ووضعا الكوب بينهما .. وبدا يمزجان الدماء معا بخنجريهما ـ دون أن ينطق أحدهما بكلمة ..

وكان الليل يتقدم ، وارتفع الدخان من مدخنة الضيعة فقد كان الخدم يتناولون طعامهم فى المكان المخصص لهم .. ومسح كل منهما خنجره فى ثنايا شعره ثم وضعاهما فى حزاميهما ..

ـ إننى أشرب فى صحتك يا كابتن ميخايليس يا شقيقى فى الدم ! وأقسم لك ـ نعم اقسم بمحمد اننى ابدا لن أؤذيك ، لا بالكلمة ولا بالفعل ، لا فى الحرب ولا فى الرخاء ، الشرف بالشرف ، الرجولة بالرجولة ، الولاء بالولاء ! أمامى يونانيون كثيرون آخذ بثارى منهم ، وأمامك أنت اتراك كثيرون تأخذ بثأرك منهم !

ورفع الكوب إلى شفتيه وبدأ يشرب الدم المختلط .. قطرة قطرة ، حتى إذا أتى على نصفه مسح شفتيه ، وقدم الكوب إلى الكابتن الذى أمسك به بين يديه وقال :

ـ إننى أشرب فى صحتك يا كابتن ميخايليس ، يا شقيقى فى الدم ، واقسم لك ـ نعم أقسم بالمسيح ، اننى ابدا لن أؤذيك ، لا بالكلمة ولا بالفعل ، لا فى الحرب ولا فى الرخاء ، الشرف بالشرف ، الرجولة

بالرجولة ، الولاء بالولاء ، أمامى أتراك كثيرون آخذ بثأرى منهم ، وأمامك يونانيون كثيرون تأخذ بثأرك منهم !

ثم شرب ما تبقى من دم فى الكوب دفعة واحدة .

فتح الكابتن ميخايليس النافذة وألقى بسيجارته فبدت كنجمة حمراء صغيرة ، فى إصيص ورود ، واضحة وسط السبخة المروية حديثا ، ثم نهض واقفا وقد بدا وجهه كالحا .. بينما مال البك بجسده إلى الوراء ثم نهض واقفا هو الآخر ..

ـ أنا لم أنس ، ولعل ذلك هو السبب فى أن أحدنا لايزال حيا حتى الآن .. فقد عادت إلى ذاكرته كالبرق تلك الأمسية التى أمضياها تحت الزيتونة .. ودور الشراب السعيد مع النبيذ المعتق .. والنوم العميق تحت الملاءات الحريرية .. ورفع الزجاجة ، وملأ كأسه وشرب .. وعاد فملأها وشرب .. ثم جلس وهو يقول :

ـ أليس عندك قزم فى هذه الدار ؟ ! مهرج ؟ ! فاطلبه إذن ومره بأن يرقص لنا أو يدق طبلة أو يغنى .. سوف أنفجر إذا لم يكن ذلك ..

وسعد نورى بك ، فقد رأى أن الهياج بدأ يأخذ مجرى طيبا ، ولعله أن يغرق فى الشراب ويدفن فيه ، لابد من رقية تقذف به بعيدا !

وأحس برغبة فى أن يفعل شيئا كبيرا ، شيئا من أجل شقيقه فى الدم لم يسمع بمثله من قبل .. شيئا يتجاوز الصداقة والحب يستطيع عن طريقه أن يستأنس هذا الرجل المكتئب ويبسط به أسارير وجهه ، وأخذ يعصر ذهنه ويجول وهو فى مكانه بكل ركن من أركان الدار لعله أن يعثر على شىء من أجل شقيقه فى الدم ، ماذا يعطيه يا ترى ؟ ! قطع ذهبية أثرية يخرجها من صناديقها أم أسلحة مفضضة من المعلقة فوق الحوائط ، أم قطع من القماش من الصوف والحرير ، أم دنان خمر معتقة من مخزن الخمور ؟ ! وفجأة استقر ذهنه عند تلك المشربيات التى ضربها حول أغلى كنوزه على الاطلاق ، واستدار إلى ضيفه وهو يضحك :

ـ سوف أفعل من أجلك الليلة شيئا يسرك .. شيئا لم يفعله تركى واحد من قبل إلا لأخيه ..

ونظر إليه الكابتن ميخايليس ولكنه لم يقل شيئا ، وعاد يملأ كأسه من جديد ، ووقف نورى بك ، واتجه إلى الباب القصير الذى يؤدى إلى الحرملك وصاح :

ـ ماريا !

وجاءت امرأة بربرية تهرول هابطة الدرج .. امرأة عجوز بلا أسنان . جافة كقش البقول وحول عنقها صليب .

ـ قولى لسيدتك أن تحضر الماندولين وتنزل إلينا .

ورفعت المرأة البربرية بصرها دهشة فزعة ، وحدقت فيه .

وصاح نورى بك وهو يدفعها :

ـ هيا !

وأعاد الكابتن ميخايليس الكأس التى لم تكد تلمس شفتيه ، واستدار نحو نورى بك وهو يغمغم :

ـ ماذا ؟ !

ـ أريد أن أسعد شقيقى فى الدم .. إننى أثق بك ..

ـ ليس فى هذا شىء يسر ، ليس فيه سوى العار لك ، والعار لزوجتك كذلك .. العار فى أن تسمح بظهورها أمام شخص غريب ، والعار لى أن أيضا حين أرفع بصرى لأنظر إليها ..

وقال نورى بك فى شىء من الاضطراب :

ـ أنا أثق بك .

وكأنى أحس لحظتها بالأسف لما أمر به ، ولكنه خجل من أن يتراجع عن قراره .

ووقف .. ووضع وسادة من الريش فوق أريكة فى ركن المكان ، وأخرى إلى الحائط من أجل الهانم لتستند إلى شىء ناعم ، ووقف الكابتن ميخايليس هو الآخر وخفض ضوء المصباح حتى يغمر الحجرة ضوء

هادىء رقيق ، ثم أخرج من منطقته مسبحة من الأبنوس اخذ يداعب حباتها فى عصبية وقد جعل بصره إلى الأرض .

وتعالت أصوات نسائية فى الطابق العلوى مختلطة بوقع أقدام سريعة وأبواب تصفق ، وهرولة ، وماء يصب .. ثم ساد الصمت لحظة .

ورفع الكابتن عينيه وهو يفكر : « لن تأتى هذه الكلبة ، إنها متوحشة ، شركسية نافرة ، هذا أفضل .. أفضل تماما .. أى روح شريرة تبقينى هنا ؟ سوف أخرج ! » .

وفى ذات اللحظة التى قرر فيها أن ينهض ليخرج ، سمع صرير درجات السلم ، درجة بعد درجة ، ولمع لألاء عقود وأقراط ، وهرع نورى بك ليفتح الباب القصير .. ويضع يديه فوق صدره ثم ينقلها إلى شفتيه وجبهته مرحبا وهو يقول فى رقة :

ـ مرحبا بأمينة هانم .. مرحبا .. مرحبا ..

وفى إطار الباب ، وعلى الضوء الخافت الرقيق ، برزت فى لألائها سيدة شابة وجهها مستدير كالقمر مثل وجه نورى بك كشف لون جسدها الأبيض المشوب بالحمرة ، بعينين واسعتين ناعستين ، ووجنتين وشفتين علتهما الحمرة .. وأهداب مكحولة .. ولوحت أظافرها ويداها مخضبة بالحناء وهى تمسك بماندولين براق كأنه الطفل بين ذراعيها ..

وتقدمت فى خطوات رشيقة بقدميها الصغيرتين بخفهما الأحمر الرقيق .. وهى تدير عنقها لترى ظل الرجل قريبا من النافذة ، ثم تصرخ فى فزع .

وأمسك بها نورى بك فى رقة وهو يقول :

ـ لا تخجلى يا حبيبة قلبى ، إنه شقيقى فى الدم الذى طالما حدثتك عنه ! الكابتن ميخايليس ! إن قلبينا مثقلان الليلة ، فهيا يا حبيبتى ومتعينا بالعزف على المندولين ، وغنينا من أغنيات بلادك من أجل هذا رجونا أن تنزلى إلينا يا حبيبة القلب .

وأنصت الكابتن ميخايليس وعيناه لاتزالان مثبتتين إلى الأرض ، وقد قبض بمخالبه على المسبحة وكأنه يريد أن يفتت حباتها ، إنه طالما سمع

بجمال هذه البنت الشركسية وبوحشيتها وبغنائها فى الأعياد يتسلل عبر المشربيات الخشبية ويثير الاضطراب بين الجيران فيزحف الأتراك والكريتيون ذوو الجرأة إلى إركان الشارع وسط الظلام كى يستمعوا إليها وهم يتنهدون كالمراهقين حتى يبعدها نورى بك عن المشربيات وهو يضم صدرها إليه فيحس كأنه يضم الدنيا بأسرها !

وتنامت إلى خياشيمه رائحة المسك التى غمرت المكان بمجرد أن تقدمت الهانم نحو الركن الذى أعده البك لجلوسها .. ومرت بحذائه وهى ترميه بنظرة خاطفة في نفس اللحظة التى رفع فيها الكابتن ميخاليليس عينيه .. والتقت النظرتان ، ثم انحسرتا على الفور .. كلاهما وحشية !

وجلست الهانم القرفصاء فوق الوسائد .. ثم غمغمت تريد أن يراها الاثنان جيدا :

ـ يا له من ظلام ..

ونهض نورى بك واقفا .. ورفع ضوء المصباح ، وغمر الضوء الحجرة ، وسقط رفيقا فوق وجنتى الشركسية ويديها وأحاطها بهالة من النور الأحمر .. واختلس الكابتن ميخاليليس نظره إليها ، ولكنه سرعان ما خفض بصره وحبات المسبحة تئز تحت أصابعه .

وقالت الشركسية وقد ارتعشت خياشيمها :

ـ مساء الخير يا كابتن ميخاليليس .

وجاء صوت الكابتن من ذات حلقه مرتعشا :

ـ مساء الخير يا أمينة هانم .. معذرة !

وضحكت الهانم ، فهناك فى بلادها تعمل النساء غير محجبات جنبا إلى جنب مع الرجال ، ويمتطين صهوات الخيل ، وهناك يستمتع الرجل بالمرأة وتستمتع المرأة بالرجل حتى يكتفى الاثنان ! .. ولكنها أخذت من هناك صغيرة حين باعها أبوها لأحد الباشوات المسنين فى القسطنطينية ، حتى اشتراها هذا البك الكريتى ، وكانت قد هيأت نفسها لئلا تعيش مع الرجال أو لمرآهم بهذه الصورة ، ومن ثم فإن خياشيمها كانت تهتز كحيوان جائع كلما التقت بأحد الرجال .

كانت طوال النهار ، تقبع خلف نوافذ المشربيات وترقب الشبان من الأتراك أو الكريتيين وهم يروحون ويجيئون فتحس بالألم فى صدرها ، وحينما كانت تخرج للنزهة فى حجابها الحريرى وبجانبها وصيفتها البربرية تتعثر خلفها .. كانت تستمتع بالمرور بحذاء المقاهى المليئة بالناس أو فى منطقة الميناء التى تزدحم بالحمالين والبحارة ، أو عبر بوابات القلعة حيث يمر الفلاحون الشعث الغبر الذين يسيل عرقهم ، وعندها كانت الشركسية تتنفس بعمق وقد احست بأنها لم تعد تحتمل رائحة الرجل أكثر من ذلك !

ومرة استدارت إلى وصيفتها وهى تقول :

ـ وحق الله يا ماريا : لولا نتنهم لما كنت اجىء إلى هنا لأراهم !

ـ من تعنين ياطفلتى ؟ !

ـ الرجال . الرجال ! ترى ، كيف كان حالك معهم أيام كنت شابة ؟ !

وقالت المرأة البربرية وهى تتنهد :

ـ كنت أومن بالمسيح يا طفلتى ! !

ونظرت إلى الكابتن ميخايليس فى صمت ، لطالما حدثها البك عن الكابتن فى لهجة إكبار .. وها هو ذا يجلس أمامها ! أى شىء لم تسمع به عن أعماله الخارقة وسكره ووحشيته ؟ ! .. وعن أنه لا يحب الحديث عن النساء أو الاستماع إلى أحاديث عنهن .. وها هو يجلس أمامها ـ زوجها نفسه هو الذى جاء به إلى هنا ..

وقال نورى بك :

ـ أمينة يا حبيبة القلب ، غنى من أجلنا أغنية شركسية تنسينا هموم الدنيا . نحن رجلان .. فاشفقى علينا ..

وقهقهت الهانم ، وأرست الماندولين إلى حجرها ، وأصدرت عنه نغمات عالية سريعة .. ثم ألقت براسها إلى الوراء وسألها البك فى سعادة :

ـ ماذا ستعزفين لنا يا زوجتى .

ـ سوف ترى .

وبدأت نغمات الماندولين تصبح أكثر سرعة ، وأخذت هى تتمايل وتترنح فى الضوء الخافت مثل وحش حبيس وهى تلهث ، وفجأة ، انطلق من أعماقها ـ وعبر حلقها المنتفخ ـ صوتها الهادر ! .. واهتزت الدار .. وأحس الكابتن ميخايليس بأن شيئا يخترق جسده .. اى ثورة ؟ ! .. اى نار يحس بها فى قبضتيه وفى حلقه وفى كل حنايا جسده ؟ ! الجبال ضحكت ، والسهول غدت قرمزية بالجنود الأتراك الذين يملأونها ، وفوقهم كان ينطلق الكابتن ميخايليس كالعاصفة وهو يمتطى صهوة جواد نورى بك ، وخلفه آلاف من أبناء كريت وحول جباهم عصابات الرأس السوداء ، ولا أحد أمامه ! القرى صاحت ! .. المآذن تقصعت مثل أشجار سرو ساقطة ! .. الدماء ارتفعت حتى بلغت بطن جواده ..

وشد الكابتن ميخايليس بقبضتيه على جسده ، وسكتت الشركسية فجأة ، وفجأة أيضا وقف العالم ثابتا أمام ناظريه ، كانت هناك كريت ، وكانت ميجالوكاسترو ، وكانت ضيعة البك ، وحدق البك هو الآخر فى أمينة .. وتنهد .. وشرب .. لقد نسيت الروح تهويمها ، وعادت مرة أخرى إلى سجنها .

وساد الصمت لحظات ، وأخيرا ، تململت أمينة وهى تربت بيدها على المندولين المستقر فوق ركبتيها ، ثم قالت :

ـ كانت هذه أغنية شركسية قديمة ، الناس يغنونها هناك عندما يمضون إلى الحرب .

ونهض نورى بك واقفا وقد أخذت ركبتاه ترتعشان رعشة خفيفة واتجه نحو زوجته ورفع كأسه :

ـ فى صحتك يا أمينة ، هناك ثلاثة أشياء أحبها ، الرائحة الطيبة ، والمرأة والغناء ، وأنت يا أمينة تسعديننا بها كلها ، فلتعيشى لنا ألف سنة ـ بل ألفى سنة ... !

وأفرغ كأسه فى جرعة واحدة ، ومصمص شفتيه واستدار إلى الكابتن ميخايليس ، وقال وهو يملأ له كأسه :

ـ اشرب يا شقيقى فى الدم ! إشرب أنت أيضا فى صحتها .

ولكن الكابتن ميخايليس وضع أصبعين داخل الكأس المترعة ثم ضغط

بهما إلى الخارج فتحطم الكأس إلى قطعتين : وسالت الخمر فوق المائدة .. وصاح فى ضيق وعيناه مضطربتان :

ـ كفى !

وصرخت أمينة ، وقفزت من فوق الأريكة وهى تحدق فى الكابتن ميخايليس والدموع فى مآقيها ، أبدا لم تر مثل هذه القوة فى يد رجل من قبل . واستدارت إلى زوجها فى تحد وهى تقول لاهثة الأنفاس :

ـ هل تستطيع أن تفعل مثل ذلك ؟ ! .. هى تستطيع ؟ !

وشحب وجه نورى بك ، واستجمع كل قوته فى أصابع يده اليمنى ، وأوشك أن يضع أصبعين داخل الكأس الأخرى ليحطمها ، ولكنه تراجع والعرق البارد يتصبب منه ، فقد أحس بأنه يهان أمام زوجته ، وحدج الكابتن ميخايليس بنظرة حالكة .. ها هو مرة أخرى يجعل منه سخرية ! .. شىء لم يعد يحتمله !

وجذب أمينة من ذراعها وهزها بعنف كالمجنون .. وصاح :

ـ اصعدى إلى غرفتك .

وعادت أمينة تكرر ووجنتاها ملتهبتان :

ـ هل تستطيع أنت أن تفعل ذلك ؟ هل تستطيع أن تفعل ذلك ؟ ! .. هل تستطيع أنت أيضا أن تفعل ذلك ؟ ! .

وعاد البك يأمرها :

ـ اصعدى إلى غرفتك ! .

ثم جذب المندولين وضرب به الحائط فتناثر قطعا ..

وضحكت الشركسية ضحكة جافة ساخرة ..

ـ نعم ، هذا ما نستطيع أن تفعله ـ تحطم المندولين ، نعم ، « هذا » هو ما تستطيعه يا نورى ! .

وانسلت من فوق الأريكة وهى تمس الكابتن ميخايليس وثوبها يلامس ظهر يده ومرة أخرى فاحت رائحة المسك ، وأحس الكابتن ميخايليس كأنما

يده تحترق ، بينما رسمت هى بيدها الساخرة وهى تبتسم ـ دائرة حول نورى ـ مرة ومرتين ـ ثم دفعته مداعبة وهى تضحك .. وفجأة انطلقت تعدو نحو الدرج .. ثم اختفت .

وظل الرجلان واقفين تجاه أحدهما الآخر فى وسط الغرفة ، وداعب البك شاربه وصدره يعلو ويهبط فى عنف بينما كان الكابتن ميخايليس يعض على شفتيه الجافتين عابسا وهو ينظر إليه وقد وضع كل منهما يده على مقبض خنجره .

وأخيرا تكلم نور من بين شفتين حاقدتين نصف مفتوحتين .. قال فى فحيح :

ـ كابتن ميخايليس .. اخرج .

نورى بك .. سوف أخرج فى الوقت الذى يناسبنى .. خذ الكأس الصحيحة واملأها لى ..

وضغط البك على مقبض خنجره ورمى ببصره إلى المصباح ، وفكر لحظتها فى أن يطفئه ليصبح الاثنان وسط الظلام ، ثم يتصارعا حتى يموت أحدهما ، ولكن قلبه لم يحزم الأمر بعد .

وعاد الكابتن ميخايليس يقول فى بطء :

ـ خذ الكأس الصحيحة واملأها لى .. وإلا ، فلن أخرج ..

واستدار نورى بك إلى المائدة .. وتقدم خطوة واحدة ثقيلة كأنما رصاص يثقل ساقيه ، والعرق يغرقه .. ثم ملأ الكأس ويده ترتعش والشراب يسيل فوق الفطيرة .

وأشار إلى الكأس :

ـ اشرب ..

وقال الكابتن ميخايليس .

ـ ناولنى الكأس ..

ورفع البك الكأس وهو يئن من الغضب ، ودفع بها إلى راحة الكابتن ميخايليس الذى رفعها إلى فمه وهو يقول فى فتور :

ـ في صحتك يا نورى بك سوف أفعل ما طلبته منى ، وسوف أخبر أخى بألا يتعرض لتركيا بالاهانة ..

ثم بلل شفتيه ، وأحكم عصابة الرأس فوق جبهته واتجه إلى عتبة الباب ..

وألقى المصباح ضوءا أخضر وأحمر فوق الحديقة الساكنة المظلمة ، بينما كان الكابتن ميخايليس يسير في هدوء وبطء في اتجاه الباب المؤدى إلى الشارع دون أن ينظر حوله .

ساد الظلام .. وكانت ميجالوكاسترو تتناول وجبة العشاء وهى ، تتثاءب وترتعش وتغلق نافذة اثر أخرى .. وترسم علامة الصليب .. وتدلف إلى الفراش ، وكان هناك بعض الذين أخرتهم أعمالهم لايزالون يتحركون فى الطرقات .. وبعض العشاق يتعانقون تحت النوافذ المغلقة .. وهنا وهناك ، كانت الثرثرات المنهوكة تسمع من الأقباء المسكونة ، عمال الليل ..

وكانت العوانس الثلاث قد تجمدن من أثر وقفتهن يتلصصن خلف بابهن بينما كان الكابتن ميخايليس يسير الهوينا عائدا والظلام يشتد حلكة ، أما شقيق العوانس الثلاث فكان قد عاد إلى بيته عابسا منهوك القوى وجلس الأربعة إلى المائدة يتبادلون بضع كلمات قليلة ، ماذا سيأكلون غدا .. ليس هناك فحم كاف .. لازيت للسلاطة .. ولا زيت للمصباح .. كيف ينبغى على أريستوطوليس أن « يرم » عظامه ! .. تكلموا ، وأكلوا ، ثم رفعوا المائدة ، وأعدوا الشاى ليساعد على الهضم ، وارتدوا ملابس النوم الطويلة .. ورسموا علامة الصليب ، ولكن أفكار العوانس الثلاث كانت عند الباب الأخضر !

وتابع الكابتن ميخايليس سيره إلى البيت عن الطريق الأطول ، وقد أحس بأن الجدران الأربعة لن تقدر على احتوائه فى ليلته تلك ، وبأن قلبه منتفخ لم يعد فى جسده مكان له ، وبأنه حتى ميجالوكاسترو أصبحت أضيق من أن تتسع له .. تابع سيره والبيوت والأزقة والناس تبدو كما لو كانت جميعا تخنقه ، ثم أوسع الخطى وقد كشر عن أسنانه كوحش مطارد حتى وصل إلى الشارع الرئيسى الذى كان خاليا ومصابيح البترول على طوله تلقى بأضوائها الحمراء الشاحبة على الأرصفة ، ومر بحذاء السوق

وكان ثمة مطعم تركى لايزال يفتح أبوابه ، وكذلك مقهى وحانة أو حانتان ، وسمع شخصا يناديه ، وبدا الصوت كما لو كان صوت الكابتن بوليكسيجيس فأوسع الخطى أكثر حتى أصبح بحذاء باب قصر الباشا والنافورة المرمرية ذات الطراز البندقى والأسود المنحوتة عليها .. رفع بصره ورأى الأشجار العالية ـ الأشجار اللعينة ! .. واقترب .. ولم يكن ثمة أحد سواء ، ورسم علامة الصليب وهو يغمغم قائلا : « إلى أن نلتقى مرة أخرى فى بهجة أيها الآباء ! » .. منذ أجيال والباشوات يجعلون من هذه الأشجار مشانق للكريتيين الذين تجرأوا على أن يرفعوا رءوسهم ، وطوال الشتاء والصيف كانت الحبال ذات الخية تعلق إلى فروعها القوية ..

وأخذ يحدق فى غضب فى الاشجار وكأنما هى أمامه شخوص أتراك ، ليلة ما .. ككريتى ، سوف أثور ... سوف أرفع فأسا وأقطعك أيتها الأشجار الملعونة .

واختصر طريقه ، ودلف إلى زقاق طويل مظلم حتى وصل إلى الأقباء الثلاثة ، لا أثر لمخلوق ! .. حل أزرار قميصه الذى كان يخنقه وتنفس بعمق وهو يتطلع حواليه ، هناك إلى الشمال . تتلألأ صفحة البحر ويتناهى مديره .. وجبال أيوختاس وسيلينا وبسيلفورتيس تبدو على مرمى البصر ، وفى السماء كانت تتلألأ النجوم ، وظل الكابتن ميخاليليس يروح ويجىء فى دائرة كأنه جواد ترى وصل إلى الخندق الذى يحيط بميجالوكاسترو ورأى أكواخ الطين المتناثرة التى تعلو ذلك التل المنعزل هناك ، تلك كانت « ميسكينيا » .. قرية المجزومين ، وعلى الشاطىء كان ثمة تل واطىء يسمى « تل الفئوس السبعة » وهو التل الذى اندفع منه الأتراك كالعاصفة ليحتلوا ميجالوكاسترو قبل مائتى عام .. وكانت هناك فئوس سبعة من فئوسهم لاتزال مغروسة فى الأرض ، وعلى مرمى البصر خلف هذا التل كانت تبدو جزيرة « ديا » المهجورة كأنها سلحفاة بحرية .

وسمع أصواتا نسائية خلفه ، وحفيف أثواب حريرية ناعمة ، ثم برز تركى أحدب يمسك بيده مصباحا ضخما وخلفه سيدتان تركيتان تثرثران خلف الحجاب الأسود .. وتناهت رائحة المسك .

ـ كل الشياطين يتعبوننى الليلة ..

ثم أدار بصره تجاه البحر حتى لا يرى الهوانم التركيات ..

ـ كل الشياطين ـ ولكنهم لن يفلحوا ..

وأحس لحظتها باشتياق إلى بيته ، ولكنه لم يكن يريد أن يرى أحدا هناك ، لسوف يسمعون وقع خطاه من بعيد .. وسوف يسعل ، فيفهمون ما يريد فيختبئون .. ولسوف يكون ذلك شيئا طيبا ، وما إن يضرب الباب بقدمه فيفتحه حتى يصبح وحده تماما ، لا زوجة ، ولا أولاد ، ولا كلاب .. وحده تماما ! .. ولحظتها ، سوف يتخذ قراره .

وتحت ضوء المصباح كانت زوجته كاتيرينا وابنته « رينيو » تنتظران « خلفهما ـ وعند حافة النافذة التى تأخذ الجانب الأكبر من حائط الديوان ـ المكان الذى يجلس فيه الكابتن ميخايليس ولا أحد سواه ، فعندما يكون خارج البيت لم يكن أحد يجرؤ على الجلوس هناك أو مجرد الاقتراب منه ، لازوجته ، ولا ابنته .. فقد كانا يحسان كما لو أنهما تلمسان جسده إذا هما اقتربتا من ذلك المكان .. فترتعشان وترتدان إلى الخلف فى ذعر .

كانت الأم تحيك جوربا ، وكان ضوء المصباح يسقط منحرفا فوق شعر بنى كث مسترسل ، وحاجبين فيهما كبرياء .. وخدين متماسكين .. ويكشف عن فم حزين ، وذقن عريض عنيد . كانت تلك المرأة تحمل سحرا غريبا ـ سحرا وصلابة وإرادة قوية ، كانت ابنة الكابتن « ثراسيبولوس روڤاس » أحد الأبطال المرموقين الذى لم يرزق بغيرها فتمتعت هى بحرية وخطوة كتلك التى يتمتع بها صبى ، ولكن ما إن تزوجت حتى سقطت فى براثن أسد ، وفى السنوات الأولى لزواجها كانت تبدى تمردا ومقاومة ، ثم مالبثت مع السنين أن أحنت رأسها ، كان الكابتن ميخايليس ! .. ومن ذا الذى يستطيع أن يواجهه ؟ ! أنتهت القوة .. وانتهت الارادة الحرة وأصبحت رقيقة هادئة .

كانت تشتغل فى حياكة الجورب .. وتفكر . كانت حياتها تعبر من بين يديها مثل الماء .. وكانت أحيانا ترفع رأسها وتنظر حولها حيث علقت على الحوائط صفوف أبطال عام ١٨٢١ ـ وحوش برية ، بذقون كأنها فروة الأسد .. وفى منتصف الحجرة ـ وأمام صورة واحد من هؤلاء ـ أضيىء مصباح فضى ..

وهزت كاتيرينا رأسها فى صمت .. حياتها كلها ـ فى بيت أبيها أو فى بيت زوجها ـ عاشتها تحت السلاح ! قبل زواجها ، وخلال ثورة ١٨٦٦ ،

خرجت هي أيضا وقد تمنطقت بحزام رص فيه الرصاص .. وحملت بيدها بندقية واشتركت فى القتال لتمنع الأتراك من اجتياح قريتها ، حتى وهى طفلة ، كانت تمزق الكتب التى أحضرها القساوسة من الابراشيات وتصنع من أوراقها صناديق لطلقات الرصاص مع غيرها من الفتيات الصغيرات ، كانت تعرف جيدا رائحة البارود .. وتحبها .. وكان الكابتن ميخايليس رجلا طيبا ـ نعم الرجل ـ وكانت هى تحبه ، ولكن حياتها التى كانت تحياها رغم ذلك .. كانت حياة قاسية بالنسبة لامرأة .. وكانت تحس فى مكان ما بداخلها أنها غير سعيدة .

وتركت الجورب من يدها ورفعت بصرها مرة أخرى ، فوق الديوان علقت صورة لشمشون مكبلا مهانا من الفلسطينيين ، كان يرى فى الوسط مكبل اليدين والقدمين بالحبال والسلاسل ، وخلفه جمع من الشباب يتجاذبونه ويضربونه ويسخرون منه ، وبأعلى الصورة ـ فى البرج ـ كانت « دليلة » تنحنى خلال فتحة مشربية صغيرة ناهدة الصدر ، تتطلع فى ضغينة واحتقار وتشف .

وكانت كاتيرينا تنقل بصرها من صورة إلى أخرى وكأنها تراها جميعا لأول مرة .. ثم تنهدت وهى تنحنى مرة أخرى على الجورب .

اما ابنتها السمينة النضرة ذات الخمسة عشر ربيعا بحاجبيها الكثيفين مثل أبيها وذقنها العريض العنيد كأمها .. فقد تركت ما بيدها ، ومضت تربت على ظهر القطة العجفاء المتوحشة التى تكومت عند قدميها كالكرة .

ـ لماذا تتنهدين هكذا يا أمى ؟ فيم تفكرين ؟ !

وفيم أفكر يا ابنتى ؟ ! فى حياتى .. وحياتك أيتها المسكينة .. حياتينا اللتين سقطتا فى براثن وحش مفترس .. فى الطفلة الذى ظللت أهدهدها حتى تنام وحتى لاتصيح فتوقظ كل الأرواح الشريرة داخل أبيك .. إ .. ثراساكى .. هو وحده الذى اطمئن إليه ـ لأنه مثل أبيه تماما ! ..

ونظرت إلى الدثار .. وأرهفت السمع :

ـ لقد نام .. الحمد لله ! .. إنه صورة من أبيه ! .. هل ترين كيف يغضب ؟ ! .. أو الطريقة التى يزوى بها حاجبيه ؟ ! .. كيف يضرب أصدقاءه ... ؟ .. كيف ينظر إلى النساء بوحشية ؟ ! ..

ولم تعلق « رينيو » .. كانت تخاف من أبيها ولكنها كانت تحبه وتفخر به ، وكان كل ما يفعله يبدو لها حقا ، وكانت تحس بأنها لو كانت رجلا لفعلت نفس ما يفعله أبوها ، كانت هى أيضا تتمنى أن يكون ابنها وحده هو الذى يجعل الفتيات يزحفن بعيدا كلما سمعن الباب يفتح عندما يحضر هو ! كان والدها قد منعها من أن تظهر أمامه بمجرد أن أصبحت فى الثانية عشرة .. ونما جسمها وتكور صدرها .. ومنذ ثلاث سنوات لم يقع بصره عليها .. وكانت هى دائما تجلس فى المطبخ أو تحبس نفسها فى حجرتها الصغيرة بالطابق العلوى مادام أبوها فى البيت . وأصبحت تميز وقع خطاه على بعد فتختفى على الفور .. حتى القطة كانت تفعل ذلك بأسرع مما تفعل « رينيو » .. ذلك واجب .. وأبوها على حق .. لم تكن « رينيو » تفكر فى كلمة « لماذا ؟ » ولكنها كانت واثقة من أن أباها على حق !

أمها أيضا كانت ترى ذلك ، ولكنها لم تكن ترتاح له ، إن زوجها صورة طبق الأصل من أبيها ، وكم من السنين ظل فيها الكابتن « روفاس » لا يرى ابنته ! كانت فى العشرين ولم تكن قد تزوجت بعد حين اقتحم الجنود الأتراك البيت : وقتل أبوها من قدر على قتله منهم .. ولكنهم كانوا كثيرين أخذوه معهم .. وأخرجوه إلى الفناء ، ثم وصلتهم الأوامر بأن يسلموه لباشا ميجالوكاسترو وخرجت كاتيرينا مع أمها إلى الفناء ورأته ممزق الثياب دامى الجسد .. ويومها رفع يديه وقال : « وداعا » .. ثم قال : « لاتحزن يا نساء .. وأخبزن كعك الجنازة بطريقة طيبة ، إننى أموت فى سبيل الحرية فلا تبكين ! واهتممن بأنفسكن ، اهتمى بنفسك يا كاتيرينا ، واحملى فى أحشائك طفلا ذكرا ـ وسوف يكون عندك إذن ثراسوس .. رجل مثلى ! »

وأخذوه إلى ميجالوكاسترو حيث أوقفوه أمام باب الباشا تحت الأشجار الطويلة ، ثم جاء حلاق تركى حلق له رأسه .. وبعدها ، أصبح مصطفى باشا يملك صندوقا للطباق مصنوعا من عظام جمجمة !

ذلك كله مر بخاطر كاتيريا وهى تحيك الجورب وتتنهد ، إن حياتها تمضى مع الكابتن ميخايليس على ما يرام ولم يكن هناك ما تشكو منه ، كان فارسا شريفا مشرفا .. وكان رجلا جادا .. لم يكن يلهث وراء النساء أو يلعب الورق ، ولم يكن شحيحا .. وكان يسكر مرتين فحسب كل سنة ليطامن من حدة ما يعتمل بداخله ، كان رجلا ، وليس فى ذلك عيب وليس منه ضرر ، الآخرون كانوا يرتكبون الحماقات ، بينما هو يسكر فحسب .. ولكن

الأمور في هذه السنة كانت تجرى صعبة .. الطفلة التى ولدت له فى السنة السابقة ـ رفض الكابتن ميخايليس مجرد النظر إلى عينيها ! وكان يصيح كل صباح وهو يفتح باب البيت متوجها إلى دكانه :

ـ لا أريد أن أراها .. لا أريد أن أسمعها .. أى شيطان جعل لها هاتين العينين الزرقاوين ؟ !

إن أحدا فى عائلته ليس له مثل هاتين العينين الزرقاوين ، ولكن عينى هذه الطفلة زرقاوان ! من اين لها هاتان العينان ؟ ! .. لكأن شاة سوداء قد ضلت فدخلت بيته ولكأن دماءه قد دنست ، والكابتن ميخايليس لا يستطيع أن يحتمل هذه الفكرة ..

وابتلعت الأم سيئة الحظ دموعها ولم تقل شيئا ، فماذا يمكن أن تقول له ؟ ! .. صبرت ، وركعت أمام المذبح ـ أمام القديس ميخائيل ذى الأجنحة الذهبية والسيف الملتهب ، والروح الجديدة التى يقبض عليها بيده تبدو كطفل مرتعد .

.. كانت تنحنى أمامه فى ذل وضراعة ـ أليس هو حامى حمى بيتها ؟ ! ـ وتتوسل إليه أن يحادث زوجها .. أن يقتحم عليه أحلامه بالليل ويعاتبه .. ويطلب منه أن يكون قلبه رقيقا ولو قليلا ..

وكان الكابتن يقضى اليوم بطوله فى الدكان ، وكانت هى تبعث إليه بوجبة الغداء مع شاريتوس صبى الدكان .. ثم تضع الطفلة فوق ركبتيها وتظل تهدهدها وهى تبكى وتصرخ ، وعندما يقترب المساء تطعمها شيئا لتنام وحتى لا تستيقظ قبل صباح اليوم التالى .

وسمعت الأم وابنتها صوت « ثاراساكى » وهو يحلم فى الغرفة الأخرى ، وضحكت الأم :

ـ باركه الله ، إنه لا يريح نفسه حتى وهو نائم ! .. إنه يحلم دائما بأنه يصطاد ويقتل أو بأنه على رأس جنود يشبعون ذبحا فى الأتراك .. عندما يكبر سوف يفعل ما يحلم به الآن .. تماما مثل أبيه ومثل جده .. آه .. ! إن أحزان كريت لا نهاية لها ..

وساد الصمت .. وحدقت « رينيو » فى ظلام الليل من خلال النافذة ، وكانت تهب ريح شمالية تهز إحدى ضلف النافذة .. ولو أن المرء توقف عند

كل بيت من البيوت فى تلك اللحظة لسمع صوت أم تهدهد طفلها ، وأغلقت « رينيو » عينيها .. وأرهفت السمع وصدرها يرتجف .. ثم قالت بعد لحظة وكأنها تريد أن تقطع على أفكارها الطريق ..

- لقد تأخر هذا المساء .

- قالوا إن نورى أرسل فى طلبه ، ترى ماذا يريد منه هذا الكلب ؟ !

وضحكت « رينيو » ..

- سوف يرفعه أبى من حزامه الأحمر مرة أخرى ويضعه فوق السطح !

وهزت الأم رأسها :

- ولكنه بعدها سوف يقتنص عشرة من الكريتيين ويأخذ بثأره منهم ، قلت لك إن آلام كريت لا نهاية لها ..

- لقد قلت نفس الشىء عن أبى ، ولكن فى ليلة من الليالى ...... » .

وتوقفت وقفزت چوسيب - هكذا كان اسم القطة - على كتف رينيو .. ودغدغت أذنها .. وأرهفت الاثنتان السمع .. وسرعان ما التقطت « رينيو » الخيط والابر والمقص بينما كانت القطة قد اختفت داخل المطبخ .

وقالت رينيو :

- لقد وصل ..

ولحظتها سمع سعال خارج الباب .

- نعم .. هو ..

ثم وقفت وقالت :

- سوف أسخن العشاء ، فربما يريد ألا يرى أحدا ، من أجل هذا يسعل .. !

وفتح الباب الخارجى .. وخطا الكابتن ميخاليس إلى الداخل ثم أغلق الباب وراءه بالمزلاج وعبر الفناء ، ودخل وهو ينظر حوله : لا أحد .. رفع عصابة الرأس وخلع سترته التى بللها العرق ، وجلس فى مكانه على حافة

المقعد بالقرب من النافذة المطلة على الحديقة ، ثم أخرج من حزامه منديلا جفف به عرق جبهته وعنقه وصدره ، وفتح النافذة ليتنسم الهواء ..

وسمع صوت زوجته وابنته وهما تشعلان النار لتسخين العشاء ، وخيل إليه للحظة أنه سمع صوت الطفلة .. وأحس على الفور بأن دماءه تفور ، فأرهف السمع أكثر .. ولكنه لم يسمع سوى الصمت ! فأخرج علبة الطباق ولف سيجارة وأشعلها .. ولكنه أحس بمرارة فمه وكأنما هو ملىء بالسم فطوح بالسيجارة من خلال النافذة ..

ودخلت زوجته بالعشاء .. وقال الكابتن ميخايليس دون أن يرفع رأسه :

ـ لست جائعا ، خذى الطبق بعيدا !

ولم تقل الزوجة شيئا رفعت الطبق .. وخرجت .

وساد صمت ثقيل .. ونهض الكابتن ميخايليس وتناول سترته مرة ثانية ، وعاد فوضع العصابة حول راسه واتجه نحو الباب ثم توقف لحظة يتطلع إلى صف المحاربين المعلقة صورهم على الحوائط من أبطال ١٨٢١ .. بسلاحهم .. أحزمة ذخيرتهم .. ومسدساتهم وشواربهم النافرة كالإبر وشعورهم المسدلة إلى أكتافهم ..

نسى للحظة ما كان يريد أن يفعله ، وظل يحدق فى كل واحد منهم ويحييه .. ولم يكن يعرف تماما هذه الوجوه ، ولا الأماكن التى حاربوا فيها .. ولا الأعمال التى قاموا بها .. ولا الأماكن التى جاءوا منها ـ روميليا ، أم موريا ، أم الجزر أم كريت ! ولكنه كان يعرف على وجه اليقين شيئا واحدا ، هو أن كل هؤلاء الرجال حاربوا الأتراك ، وكان ذلك يكفيه ، أما من عداهم فقد كانوا من طراز المدرسين ! .

وخرج إلى فناء الدار .. وأحس بالانقباض وهو يرى البئر وغصون الكرم وأصص الزهور .. واقترب من الحظيرة الصغيرة الملحقة بالفناء حيث الفرس الأبيض يلمع جسده فى الظلام ، وأرهفت الفرس السمع ثم أدارت رأسها ورأت سيدها فصهلت فى سرور .. واتجه الكابتن ميخايليس نحوها وأخذ يمسح على عنقها وبطنها وعجزها بيديه المفتوحتين .. مخلوقة دافئة معبودة .. مستعدة دائما بمجرد أن يأمرها سيدها .. مترفعة ومطيعة

لاتفسد أبدا عليه مزاجه ، معه دائما كما لو كانت جزءا من جسده حتى الموت .

وابتعد عن الفرس .. ثم تحسس حذاءه الطويل ثم رفعه إلى الركبتين ثم الفخذية .. وشد صدره كأنما يستقبل الربيع ، ووضع الحذاء داخل السرج ثم صاح :

ـ شاريتوس !

وخرجت زوجته .

ـ إنه نائم ..

ـ أيقظيه !

ثم لف وانتظر مكانه لا يتحرك ، وأخذ يدخن وهو لايعود يحس بمرارة فى فمه .. وينفث الدخان من أنفه وينتظر فى هدوء ..

وخرج « شاريتوس » يدعك عينيه النائمتين .. بشعره المشعث وعنقه الطويل وقدميه العاريتين مثل عنزة برية فى الثانية عشرة ، كان ابن أخيه ، فانوريوس الراعى ، وكان قد قدم من قريته بعد أن بعث به أبوه ليتعلم القراءة والكتابة ، ولكن الكابتن ميخايليس رأى أن تعلم الكتب عمل الحمقى الأغبياء ، هل تريدنى أن أجعل منك نبيلا جائعا ؟ أم مدرسا ؟ ألا ترى التعاسة التى يعيش فيها عمك المدرس « تيتيروس » الذى جعلت بلاده المدرسة من حياته عبئا ؟ سوف يضعف بصرك أيها الصبى ، وتضع على عينيك عوينات وتجعل من نفسك أضحوكة الناس ، أبق فى الدكان إذن .. وسوف تكبر .. وسوف يكبر مخك ، وسوف أمنحك أنا دفعة إلى الأمام حتى تستطيع أن تفتح لنفسك دكانا خاصا بك وتصبح رجلا » ..

وقال نفس الشىء لأخيه « فانوريوس » الذى أجابه بقوله :

ـ أفعل ما يحلو لك ، لك فيه اللحم ولى أنا العظم ، صفه على النحو الذى يروق لك واجعل منه رجلا » ..

وامسك به الكابتن ميخايليس من قفاه ، وهز قائلا :

ـ اذهب إلى البئر واغتسل وافق جيدا .. ثم عد إلى وتلق أوامرى ..

واتجه « شاريتوس » إلى الفناء ، وأخرج ماء من البئر واغتسل به ومشط شعره بأظافر يديه ثم عاد إلى عمه :

ـ ها أنذا ..

وضرب الكابتن ميخايليس بيده على كتفه ، وقال :

ـ أمض إلى البيوت الخمسة التى تعرفها ، واقرع باب كل منها حتى يفتح لك .. اقرعها بحجر إذا لزم الأمر . مفهوم ؟ !

ـ مفهوم ..

ـ ڤيندوسوس ، وڤوروچاتوس ، وكاچابيس ، وبيترودولوس .. وإلى « التكية » حيث يعيش أفندينا ...

ـ افندينا « روث الخيل » ؟ !

ـ وقل لهم : تحيات عمى إليكم ، وهو يخبركم أن غدا السبت .. وأن عليهم فى صباح الأحد المبكر أن تتفضلوا بالحضور إلى بيته .. مفهوم ؟

ـ مفهوم ..

ـ اذهب .

ثم نادى زوجته :

ـ اذبحى ثلاث دجاجات واطبخيها ، نظفى القبو ، وجهزى المائدة الكبيرة والمقاعد والكئوس ..

وودت زوجته لحظتها لو تكلمت وقالت : « إنها أيام الصيام الأربعة عشر ، ألا تخشى الله ؟ » ، ولكنه رفع يده ، فلم تقل شيئا ، وانصرفت وهى تتنهد .

وقالت لابنتها « رينيو » :

ـ سوف يكون عندنا لسوء الحظر عيد آخر ! .. علينا أن نذبح ثلاث دجاجات ونهيىء القبو كما أمر ..

وقالت رينيو :

- ما الذى حدث له ؟ ! إن الشهور الستة لم تنته بعد !

ولكن قلبها كان يقفز فى سرور ، فقد كانت تحب مشهد البيت عندما يصير كل شىء فيه مضطربا ، وعندما تروح وتجىء لذائذ الطعام وعندما يجلس الرجال فى الحجرة السفلية ويسكرون .

وغمغمت الأم :

- ها هو ذا قلبها مثقل من جديد .. إن الأرواح الشريرة قد دخلته مرة أخرى .

ثم رسمت علامة الصليب وقالت :

- أنا مخطئة يا ربى ، أنا أقول أشياء لم يكن ينبغى أن أقولها ، ولكننى لا أستطيع أن أحتمل أكثر من ذلك ، إنه يمتهن أيام الصيام الأكبر .. إنه لم يعد يخشى الله !

وتذكرت فى ثورة القديس ميخائيل هناك فى المذبح كم مرة قدمت ندمى أمامه وتوبتى ، كم صلاة قدمتها فى حضرته ؟ كم مرة ملأت مصباحه بالزيت وكم شمعة من أجله أشعلت ؟ ! .. وذلك كله ضاع هباء .. حتى « هو » أصبح الآن فى صفه !

ثم غمغمت :

- آه لو أننى كنت رجلا ، أقسم بخلاص روحى ، أننى كنت سأفعل نفس الشىء ، أنا أيضا كنت سأتخذ لنفسى خمسة أو ستة من الأصدقاء ، وعندما يضيق صدرى أدعوهم إلى القبو .. وأسكرهم .. وأطلب منهم أن يغنوا ويعزفوا على القيثارة ويرقصوا .. حتى أبعث السعادة إلى قلبى ، هذا حقا .. ما يفعله الرجل ! » ..

الفصل الثاني

هبط على « ميجالوكاسترو » ليل مشبع بجو ربيعى رطب وحار ، وكانت نسمات الشمال الباردة قد هبت قبيل منتصف الليل ، ثم مالبثت أن حلت محلها ريح رطبة دافئة تخللت فروع الأشجار فانتفخت ، ريح قادمة من الجزيرة العربية ، عبرت البحر الليبى واكتسحت سهول « ميسارا » من « تيباكى » و« جودهاربور » إلى « سانت باراباره » تاركة وراءها كروم « أرشانى » الشهيرة تتسلق أسوار القلعة وتتخلل شقوق الأبواب والنوافذ ، وتهبط فوق النساء كالرجال ، وفوق الرجال كالنساء .. تمنعهم جميعا من النوم . ابريل المؤذى حل بجزيرة كريت مثل لص بليل !

حتى الباشا ـ حاكم « ميجالوكاسترو » الرجل المسن القوى البنية ـ طار النوم من عينيه وهو يحس بالحرارة وبالشهوة تسريان فى جسده ، فصفق بيديه وبرز له خادمه العربى سليمان .

ـ افتح النافذة أو يغمى على ! .. ماذا أصابنى يا ترى ؟ وأى ريح هذه يا سليمان .

ـ ريح قادمة من الجزيرة العربية يا افندينا الباشا .. ريح حارة ولكنها لا تضر . فلا تخش شيئا .. نحن أبناء كريت نسميها ريح « الخيار » .. لانها تنضج الخيار .

ـ ريح الخيار ؟ .. لم أعرف مثلها قط ! اذهب الآن ومر الجارية فاطمة بأن تكون مهيأة إذا احتجت إليها .. واحضر لى معك ابريقا من ماء الحوض ومروحة تمنحنى بعض الهواء البارد .. « كريت » هذه سوف تكون السبب فى موتى !

وحتى مطران « ميجالوكاسترو » المهيب الذى يخشى الله ذو الثمانين عاما واللحية البيضاء الناصعة كان يحترق من شدة الحر .. خلع ملابس النوم ونهض متجها إلى النافذة التى تطل على قصر الأسقف واستند اليها يتلمس بعض الهواء ، السكون موحش وعميق ! وكل البيوت غارقة فى ظلام دامس ، وشجرة الليمون العجوز تقف مزهرة فى الميدان الذى تطل عليه الكنيسة وتنشر حولها أريجا حلوا ، وفى قبة السماء مصابيح لا يحصرها العد تضيىء أمام عرش الرب ، وغاب المطر عن ذاته أمام المشهد المهيب للسماء الزاخرة بالنجوم ، وظل لحظة واقفا بجسده الفارع الثقيل محوطا بسكون عميق من صنع الله ، ثم مالبث أن عاد مرة أخرى إلى الارض ليجد نفسه لايزال متكئا على حافة النافذة ، فرسم علامة الصليب على صدره وهو يحس بأن ريح الربيع الدافئة قد سكتت ، وبأن جسده أصبح باردا خفيفا ، فعاد إلى فراشه ليغرق بلا خطيئة فى أحضان الرب .

جذب الكابتن « ميخايليس » الملاءة وجلس على فراشه غاضبا : لابد أن الوقت الآن قد تجاوز منتصف الليل ، انحنى فى لهفة وأمسك بالابريق القريب منه وضغطه فوق شفتيه وجرع جرعتين كبيرتين او ثلاثا حتى يفيق ويبعد ذلك الحلم المخجل الذى أثقل عليه نومه ، ولكن الحلم ظل يتشبث به كامرأة لايريد أن يطلقه ، ودمدم الكابتن « ميخايليس » : « لعن الله النوم ! .. اللعنة عليه .. إنه يفتح الأبواب للأرواح الشريرة .. ومن خلالها تنفذ » .

ونهض واقفا وهبط الدرج حافى القدمين حتى أصبح فى الفناء فأخرج ماء من البئر وغمر رأسه فى الدلو ليطفىء اللظى ولكن اللعاب الحلو ظل داخل فمه والنعاس يثقل جفونه فعاد ليجلس مرة أخرى فوق الفراش وفتح النافذة القريبة ، ظلام حالك ! .. وأرهف السمع : ميجالوكاسترو ، غارقة فى النوم لا يسمع لأنفاسها صوت .. وريح غربية حارة ترف وهى تمس الأرض والماء وأوراق الكروم وعريشها فى حفيف رتيب متصل .

واستند الكابتن ميخايليس بظهره إلى الحائط وبدأ يدخن وفى نيته ألا يستسلم للنوم مرة أخرى ، كان مخلوقا تركيا ذلك الذى رآه فى الحلم .. مخلوقا مجنونا لا يوثق به ، أخذ يدخن وهو يحدق فى أيقونة « ميخائيل كبير الملائكة » .. حامى قومه : غضب السماء بجعبته فوق ظهره ، وعلى يمين

الصورة تبرق غدارته الفضية التى ورثها عن أبيه وعلى يسارها الكيل الشرف الذى وضعه فوق رأسه يوم زفافه .. إكليل مصنوع من أزهار الليمون المكسوة بالشمع . وسمع للحظة زوجته « كاتيرينا » تتنهد فى الحجرة المجاورة .. ومن أعلى .. ووسط عروق الخشب ـ كان فأر يقرض .. وفجأة اندفعت قطة إلى الخارج تصعد الدرج فى خفة دون أن تحدث صوتا .. ثم ساد صمت عميق .

ظل الكابتن ميخايليس يدخن دون أن يزايله القلق أو الخجل ـ ظل هكذا وهو يتنفس بعمق وقد ثبت نظراته بالنافذة .. ينتظر طلوع النهار ..

وفى الطرف الآخر من « ميجالوكاسترو » قريبا من « البوابة الجديدة » كان العم « يانيس » متجها إلى بيته غارقا فى عرقه وقد شمر أكمامه وأمسك بيده قنديلا يضاء بالزيت تتراقص ذبالته ، ومضى يتعثر على طول الزقاق الضيق وهو ينعى حظه ، فالناس يصرون على أن يحرموه من الشىء الوحيد الذى بقى له بعد وفاة زوجته ، النوم ، فهو لا يفتأ يكد ويكدح منذ الصباح الباكر وهو ينقل الماء لسكان « ميجالوكاسترو » فى الشتاء يوفر لهم مياه « ساليبى » العذبة الصافية لتبعث فيهم الدفء ، وفى الصيف يوفر لهم الشراب البارد ، فهل نعم فى حياته باغفاءة ؟ لقد كان يؤدى أيضا عمل القابلة ! فربما يجىء المخاض إحدى جاراته أو قريباته : « اسرع يا عم يانيس المسكين .. أسرع بتوليدها ! » .. لقد تعلم هذه الحرفة عن أبيه المرحوم الذى كان حدادا .. وكان يقوم بتوليد الأفراس وإناث الحمير ، ولكن العم « يانيس » نقل فن أبيه من الأفراس وإناث الحمير إلى النساء ! ومساء أمس فقط ، قام بتوليد ابنة اخته المسكينة « بيلاجيا » ولم يكن الأمر سهلا ظلت ثلاث ساعات تعانى آلام الطلق ، ولكنه استطاع فى النهاية أن يخرج الطفل ، طفلا ممتلئا أسود فى لون القار .

وها هو الآن يحدث نفسه وهو ماض فى طريقه يلعن حظه ، وتناهى إلى سمعه وقع حوافر جواد خلفه ، ولكنه لم يكن واحدا من هذه الجياد التى نعرفها والتى تأكل الشعير ! ... وقد عرف العم يانيس هذا الجواد من وقع حوافره التى كأنما كانت مكسوة بالقطن ، ومن الشذا المقدس الذى انتشر فى الهواء .. وفهم العم يانيس ، فلم تكن تلك أول مرة ، والتصق بالحائط ورسم علامة الصليب على صدره .. وانتظر ، واقترب الضوء ، واقتربت الخطوات السابحة أكثر واكثر ، وأصبح الشذا اكثر نفاذا ..

وتمتم العم « يانيس » : « اذكرني أيها الرب ، عمت مساء يا قديسى « ميناس » ، عمت مساء ياقديسى » .

وفتح عينيه فى سعادة ، فهناك فى الطريق ظهر القديس « ميناس » حامى « ميجالوكاسترو » ـ البطل ذو الشعر الرمادى ـ ممتطيا صهوة جواد أحمر اللون فى سمرة ، يتلألأ وسط الظلام كعادته كل مساء حين يقوم بجولته وهو يرتدى صديريته المدرعة الفضية ويضع حربته الطويلة الحمراء فوق كتفه ، ففي منتصف الليل ، وعندما تخلد المدينة إلى النوم ، يخطو القديس « ميناس » خارج ضريحه ليطوف بالحى اليونانى يغلق أبواب البيوت إذا كانت مفتوحة ، ويتوقف إذا لمح ضوءا ينبعث من نافذة أحد الكريتيين المرضى .. يدعو الرب من أجل شفائه ، وليس لعيون الناس قدرة على أن تتعرف عليه ، ولكن الكلاب فقط هى التى تهز ذيولها ، ورغم ذلك فهناك رجلان فقط فى المدينة استطاعا أن يرياه رؤية العين : « باربايانيس » ، و« أفندينا روث الخيل » ضعيف العقل .

وعندما كان القديس ميناس ينتهى من جولته عند مشارف الفجر ، كان يعود مرة ثانية إلى أيقونته ومزاره ، ولايشك أحد فى أن أمورا خفية قد حدثت بالليل إذا اكتشف « مورزوفلوس » ـ الذى يضيىء المصابيح وينظف الكنيسة فى الصباح ـ العرق يبلل جسد جواد القديس « ميناس » ..

شاهد العم « يانيس » القديس « ميناس » وهو يختفى فى الظلام فرسم علامة الصليب وهو يتمتم : « الليلة رأيته مرة أخرى ، عظيما فى جلاله ولسوف تتحسن أحوالى ولاشك » .. ثم جذب من سترته كعكة حصل عليها كأجر مقابل جهده في توليد « بيلاجيا » وبدأ يقضمها فى ارتياح حتى وصل إلى كوخه فأطفأ القنديل .

وظل الكابتن « ميخاليس » يدخن وهو يروح ويجيء وذهنه يطن مثل الخنفساء وهو يسترجع كل مارآه وعاناه وأحبه وكرهه فى حياته : قريته ووالده وبيته والناس والأتراك والكريتيون ، ثم استجمع كريت كلها من « جرابوسا » إلى « توبلوموناسترى » .. من الصخرة إلى الأخرى .. ومن تمرد إلى تمرد . ولكن أفكاره لم تكن تتوقف ولو لحظة عند شىء معين ، وإنما كانت تلهث فحسب ثم ترتد كل مرة إلى فم يجلله العار فلا تغادره ..

وظل يذرع الحجرة فى اهتياج وهو يرمق صورة الملاك ميخائيل فى وحشية وكأنه يسأله أن يتخلى عن وجوده السلبى فى الصورة ليخرج ويفرض النظام ، ثم استدار على عقبيه وحدق فى السماء من خلال النافذة وقد بدأ الظلام ينحسر شيئا ما ، ثم قال وكأنه يخاطب السماء : « بدأ الضوء يظهر .. وسوف يكون فى مقدورى أن أرى إلى أين أذهب » .. وأسرع يهبط إلى الفناء ، وغمر رأسه مرة أخرى فى الدلو ، ثم استراح قليلا .. ثم جلس القرفصاء عند عتبة البيت .. وانتظر ..

كان الكابتن ميخايليس فى صراع مع نفسه مثل الثور ، ولكن « نورى بك » هو الآخر أمضى الليل بطوله يذرع جناح الرجال ، ويخرج مرات إلى الحديقة ليشم بعض الهواء ثم لا يلبث أن يعود ، ويدخن سيجارة فى عقب أخرى ، ويشرب كوبا بعد آخر .. ويجأر بصوته ، ثم رفع بصره إلى الباب الخشبى وكانت المرأة الشركسية قد أغلقته دونه ورفضت أن تسمح له بالاقتراب منها وصاحت فيه من خلال ثقب المفتاح : « لا أريدك لقد جللت نفسك بالعار .. ولم تعد تصلح لى » ..

كانت هى الأخرى عاجزة عن أن تغلق عينيها ، فقد اتجهت إلى النافذة وهى نصف عارية ومدت ذراعيها فى لوعة تجاه الحى اليونانى ، ورأت وسط الظلام حاجبى الكابتن « ميخايليس » الداكنين ولحيته ويديه القويتين ، ثم أنت مثل أنثى الخيل .

وغمغم « نورى بك » وقد بدأ يبكى : « إنها على حق .. ولسوف أذهب أنا إلى الكلاب مثل أفندينا ، ولسوف يستدعينى الكافر أنا أيضا كلما أولم وليمة لكى ألعب من أجله دور القرة قوز » .. وفى الصباح وجد الخادم البربرى سيده مكوما على عتبة البيت وقد غاب عن الوعى من كثرة ما شرب ، بينما كان شاربه وصدره وسترته جميعا ملوثة بالقىء والخمر ورماد السجائر المحترقة .

وفى اللحظة التى خطر فيها ببال « نورى بك » كان « أفندينا » نائما على ظهره يبتسم فى سعادة ، فقد تناهت إليه الأنباء فى وقت متأخر من المساء ، هناك عيد آخر سوف يستغرق ثمانية أيام ، وسوف يأكل لحم الخنزير والسجق الذى سينزلق إلى داخل بطنه مثل الزبد ، وسوف يكون هناك خمر .. وسوف ينسى بؤسه طيلة ثمانية أيام .. نعم .. وإلى الجحيم

كل شيء ! .. إلى الجحيم أيضا .. الحرام والحلال ! .. وأغلق عينيه وأخذ يتحسس ذقنه بيده حتى راح في النوم .

وفي نفس اللحظة التي خطر هو فيها ببال « نوري بك » كان افندينا يحلم .. فتح الباب ودخل خنزير سمين أحسنت تغذيته وفوق رأسه طربوش مثل الأتراك وقد تدلت من رقبته مدية كأنها تميمة ، وعندما نظر إليه « أفندينا » وقف على قدميه الخلفيتين وقدم له التحية على الطريقة التركية ، ثم مالبث أن تناول المدية وغرسها في عنقه وأخذ يتدحرج فوق الأرض ، بينما انحنى « أفندينا » فوقه ، ثم مالبث أن رآه مشويا طازجا مكسوا بأوراق الليمون وقد انبعثت منه رائحة شهية ، وأطلق أفندينا صيحة فرح .. واستيقظ من حلمه ولعابه يسيل !

وهناك ، فوق الأرض .. كانت مخلوقات بشرية بائسة تحترق وتبحث متعانقة في عذاب عن وسيلة تخمد بها النيران .. كان قبو السماء يدور ، والنجوم تسبح في مداراتها . وفجأة ، وخلف قمم « لاسيثي » ، قفز نجم الصباح إلى الأمام وأخذ يطن وسط الريح ، وفتح الديك الكثيف الريش في فناء بيت الكابتن « ميخايليس » عينيه ليرى ما يدور في السماء ، ثم أخذ يضرب بجناحيه وينفث بصدره .. ويصيح وهناك ، بعيدا في فناء المزارع الثرى « كراسوجورجيس » كان الحمار القبرصي الشهواني يستنشق الهواء بقوة ويتشمم رائحة العشب اللذيذ المندى .. بينما رفعت الحمارة الكريتية ذيلها في صلابة وبدأت تنهق !

استيقظت « ميجالوكاسترو » من أول الشارع إلى آخره ، ومن بئر « إيدومينا » إلى مخبز « تولوبانا » ، وبدأت الحياة تدب في حي الكابتن « ميخايليس » .

بادئ ذي بدء، حررت زوجة « ماستراباس » زوجها ـ ذلك الرجل المقدس ـ من قوائم السرير الذي تعودت أن تربطه إليها بإحكام كل مساء من شدة غيرتها عليه ولكي تمنعه من الهبوط ليلا يتحسس طريقه إلى الخادمة السمينة « أنيسينا » بصدرها البقري ! حيث تنام في المطبخ الكائن في الطابق السفلي ، كانت تربطه جيدا كل مساء ولا تخفف قيوده قليلا إلا إذا استيقظ لقضاء حاجة بالليل ، وحتى في مثل هذه الحالة كانت

تبقى الحبل حول كاحله وهى تمسك بطرفه جيدا حتى لا يحاول سجينها الإفلات !

وكان الكابتن بوليكسيجيس قد عاد قبل قليل من مغامرته الليلية مرهقا تفوح منه رائحة المسك ، أما السيد « ديمتريوس » فقد كان يتثاءب وهو مستلق إلى جوار زوجته « بنيلوب » التى كان مزاجها معكرا مرة أخرى ! .. وقد ألقت جانبا بملابس النوم وهى تدمدم : « أحقا أنا فى الخامسة والعشرين ؟ أحيانا أحس بأن جسدى يحترق ، وأحيانا أحس كما لو كنت سلحفاة ! » وفى هذه اللحظة بالذات من الفجر الرمادى ، كان جسدها يحترق ! .. وجلست فى حدة وحدجت زوجها المتثائب « ديمتريوس » بنظرة جانبية مليئة بالكراهية .. ثم نهضت .. وخرجت ..

وبدأت صفحة السماء تشحب ، واستيقظت الطيور المغردة فوق حواف الأسطح وتحتها ، وفى بيت « كراسوچورچيس » كان الطائر الأسود يغنى فى قفصه ، وغمغمت « بنيلوب » وهى تتنهد « محظوظة » زوجة كراسو جورجيس .. فهو مزارع غنى .. ولكنه لا يزال يحتفظ بحيويته ونشاطه ، وهو أبدا لا يخيب أمل زوجته ! » ..

وأرهفت السمع ، وتناهت إليها أصوات من البيت القريب حيث كان « كراسو چورچيس » السمين مستلقيا على ظهره وقد ارتفع شخيره وانبعثت من شاربه رائحة النبيذ والبصل ، وارتفعت أنفاسه الثقيلة ، وكأنها صادرة من أعماق قبو ، وإلى جواره زوجته الصغيرة « كاتينيسنا » لاتزال نائمة « كاتينيستا » ابنة « باربايانيس » .. المخلوقة الطروب البادية الصحة والتى تعشق الشراب ، كانت تبتسم وهى تناغى مثل القمرى ، فقد كانت تحلم لحظتها بأنها فى رفقة شاب تمسك هى بيده ويخطران معا داخل حديقة ذات أسوار وهو يضع ذراعه حول كتفيها ، ولم يكن ذلك الشاب زوجها السمين ! ولكنه كان ممشوق القوام .. لبقا .. ذا شارب دقيق وشعر مسترسل أسود ، وفى منطقته غدارتان فضيتان .. ومع أنفاسه تنبعث رائحة القرفة .. كان شبيها بهذه الصورة التى يعجب بها كل من يزور بيت الكابتن « ميخايليس » والتى كتب تحتها « أثاناسيوس دياكوس » ـ وهو اسم بطل مشهور من أبطال النضال من أجل الحرية ـ وكان يضع ذراعه حول كتفيها تحيط بهما مثل سياج أثقلته عناقيد داكنة ، وكانت هى تسير إلى جواره وقد أفعمتها السعادة وهى تبتسم وتناغى كالقمرى .

ولكن الشيطان أفسد كل شيء ! سمعها « كراسوچورچيس » ، فاستدار نحوها وفتح عينيه وصاح :

ـ هيه .. يا زوجتي ! .. ما كل هذا الابتسام والمناغاة في الصباح الباكر ؟ أهي قطعة من خبز الجنزبيل تلوكينها ؟ .. أعطني إذن قطعة منها ! ..

ولكنها أولته ظهرها غاضبة وهي تقول :

ـ لاتقلقني .. دعني لحالي فأنا نائمة !

ثم أغمضت عينيها وحاولت أن تجد حلمها مرة أخرى .. مع رجلها الصغير ! .

وفي مخبز « تولوباناس » ارتفعت سحابة إثر سحابة من الدخان الأول الأزرق الشاحب ، واستيقظ الخباز العجوز المتجهم الوجه الصامت أبدا ، وبدأ العمل وحده في معجنه حتى ينسى متاعبه ، ولكن أيان له النسيان ؟ كان له ولد عزيز وحيد في العشرين من عمره أشقر وسيم تفانى هو دائما في كسوته ورعايته ، وفجأة ، ومنذ ثلاث سنوات ، بدأ يصاب بالأورام ، واكتسى وجهه بالبثور ، وتعفنت أطراف أصابعه .. وسقطت أظافره .. والآن ، بدأت شفتاه تتقيحان ، وأبوه وأمه يرفضان إرساله إلى ميسكينيا حيث مستعمرة المجذومين ، فكيف يطيقان فرقة ولدهما الوحيد ؟ ومن ثم فقد فضلا أن يبقياه رهين حجرته حتى لاتقع عليه عين إنسان .. كيف إذن يستطيع « تولو باناس » العجوز أن يهنأ بالنوم .. ولماذا يفتح فمه ليتكلم ؟ ينحني فوق المعجنة .. ويدفع بالعجين إلى داخل الفرن .. ويخرج الخبز الذي نضج ، ثم يبدأ جولته في الشوارع ليبيع الأرغفة المستديرة كالحلق ، والفطائر المحشوة بالسبانخ ، وليجهد نفسه في عمله لعله ينسى ، ولكن كيف ينسى ؟ كيف ينسى وهو في كل صباح يدخل لرؤية ولده .. فيضطر إلى أن يرى كيف تسوء حالته .. وكيف يزداد التهرؤ والتعفن يوما بعد يوم ؟ !

مضى « تولوباناس » العجوز في عمله أمام الفرن وهو يتنهد ، وعندما رفع بصره لحظة ورأى الضوء لايزال ينفذ من خلال نافذة في طابق أعلى .. هز رأسه وتنهد : « مسكينة أيتها المرأة الفرنسية .. ! أنت أيضا تعانين .. تعانين سوء حظك .. لا.. أبدا لا تستطيع قلوب الرجال أن تجد الراحة » ..

والحق أن الضوء لم ينطفىء طوال الليل ، فالمرأة الفرنسية المسكينة لم تذق طعم النوم ، كانت تسعل وتبصق وتئن ، جاء بها الطبيب « كاساپاكيس » يوما ما زوجة له من باريس ثم زرعها فى هذا العش التركى فى آخر الدنيا ! كانت فى البداية تتنهد ثم أصبحت تسعل .. ثم انتهى بها الأمر الآن إلى أن تبصق دما ، وقيل إن زوجها الطبيب لم يكن يستطيع أن يقربها ، ومن ثم فقد كان على علاقة بخادمته الشابة القادمة من « أوركالوخورى » .. وعندما قدمت المرأة الفرنسية لأول مرة ، ظلت تعول وتصيح طيلة أسابيع : « أين الخط الحديدى الذى قلت لى إنه يمر أمام بيتنا ؟ .. ليس هذا ما وصفته لى ونحن فى باريس ؟ » ، وكان زوجها الطبيب السمين يضحك ويقول : « فى ميجالوكاسترو » نحن نسمى حميرنا .. السكة الحديد ! ! » .

جلس الكابتن « ميخايليس » القرفصاء صامتا ساكنا وسط الفناء .. ينتظر مرة أخرى أن يزداد ضوء السماء ، وعندما سمع صياح الديك رفع بصره ، وكانت السماء قد بدأت تشع بالضياء ، فقفز واندفع إلى حجرته وارتدى ملابسه على عجل ، ولف الزنار الواسع حول جسده عدة مرات ، ودفع بالشىء الأسود الملفوف داخله ، ثم تناول زجاجة الزيت الصغيرة المعلقة أمام إطار الأيقونة وملأ المصباح الصغير الذى كانت ذبالته قد بدأت تخفت ، وحدق فى ميخائيل كبير الملائكة زعيمه ورئيسه .. وهو يقول له : « أنا ماض الآن .. وكل ما ينبغى أن يقال .. قلناه ، وهكذا فأنا ماض الآن .. فتول أنت رعاية البيت ! » .

ثم هبط إلى الفناء وفتح الباب المؤدى إلى الشارع ، وأسرج جواده وامتطى صهوته متجها إلى المستشفى وقد طلع النهار .. وأخذ الجنود المفاتيح ، وتهيأوا لفتح أبواب القلعة الأربعة ، وكانت البيوت لاتزال مغلقة ، ولكن بعض المواقد كانت تخرج دخانها ، وكان « باربايانيس » قد خرج ينادى على ما معه من ماء الشعير الممزوج فى وفرة بالفلفل .

وكز الكابتن « ميخايليس » مهرته وانطلق مارا بالشجرة الضخمة المنزوع لحاؤها ــ آكلة أبناء كريت ! ــ ثم استدار متجها إلى ميدان السوق حتى وصل إلى « الأقباء الثلاثة » فتوقف لحظة وأجال البصر حوله ، كانت خطوط الجبال تتوهج باللون الأحمر الوردى ، وفى مواجهته كان « الجبل

الغاضب » هوة عارية ، وخلفه جبل « سيلوريتيس » السيد الجليل بقمته الثلجية .. وعلى يمينه التنين الرخامي « لوختاس » ، وهناك بعيدا ، لاح البحر أزرق متألقا في شحوب .. مرقطا قليلا هنا وهناك بالزبد الأزرق المخضوضر ، والسفن المالطية السوداء ذات الشراع الأحمر قد بدأت عملها في البحر ، والشمس تبرز من بين الأمواج لترتفع وسط ضباب متوهج ، وأدارت المهرة راسها ورأت الشمس ، فتألقت عيناها ومالت إلى الخلف بعنقها .. وصهلت تحييها .

ارتفعت دقات الطبول وارتفع العلم التركى فوق ساريته ، وفتحت أبواب القلعة الحديدية فى صريف مسموع ، واندفع الفلاحون الذين ظلوا ينتظرون بالخارج منذ لحظات الفجر الأولى .. اندفعوا إلى الداخل على الفور يطأون أقدام بعضهم البعض ، وحميرهم وبغالهم محملة بالأخشاب وفحم الحطب وزجاجات الخمور والزيت وسلال الخضراوات والفاكهة والجرار النحاسية المملوءة بعسل النحل ، وكان عليهم لكى يدخلوا القلعة أن يمروا عبر السرداب المظلم الذى يخترق كل الجدران الفينسية الكثيفة ، وفى داخل هذا السرداب ، وتحت الأقباء الصخرية ارتفعت الأصوات واللعنات والنهيق ووقع أقدام الحيوانات والبشر ، وامتزجت أصداؤها جميعا ، وعادت هذه الرقبة الأرضية تضج بالطنين .

وشق الكابتن « ميخايليس » طريقه وسط هذه القافلة الصاخبة حتى خرج إلى الحقول وامتطى فرسه منحدرا إلى الساحل ، فأصبحت « ميجالوكاسترو » خلفه وسلك طريق الشاطىء متجها إلى « الجبل القاسى » مارا « بالتلال الحمراء » ، وعلى يمينه أرض خضراء داكنة تنشر عبقها ، وعلى يساره البحر والشمس لماتزل قريبة من خط الأفق ملعقة كأنها تميمة ذهبية فوق صدر المدينة .

وغمغم الكابتن « ميخايليس » وهو يرسم فوق صدره علامة الصليب ، « باسم السيد المسيح .. وباسم ميخائيل كبير الملائكة » ..

ارتفعت الشمس وفاضت بأشعتها على « ميجالوكاسترو » فى البداية ، انعكست أشعتها على المآذن ثم على قبة القديس ميناس ثم على أسطح المنازل ، ثم مالبثت حدتها أن خفت وسط الأزقة الرطبة ، وفتحت الفتيات نوافذهن ليستقبلنها .. ومن خلالها نفذت الأشعة ، وانطلقت النسوة

العجائز إلى أفنية دورهن يلتمسن الدفء ، ورسمن علامة الصليب ، وقدمن الشكر إلى الرب على انتهاء مارس .. ذلك الشهر الملعون من الرب والذى تبتلى به العجائز .. لقد بدأت أطرافهن الآن تبث فيهن الدفء ، مرحبا بإبريل .. ومرحبا بالقديس جورج ..

ومرت حمير كريت عبر كل بوابات القلعة وهى مبتهجة خفيفة الحركة ترفع ذيولها ، وتنهق وكأنما تعلن للسكان عن مقدم الربيع .

وعادت « بنيلوب » إلى الفناء .. وتمطت فى قوة حتى « طرقعت » عظامها ، كانت امرأة نصفا ، صدرها وعجزها ذوا حجم مضاعف ! .. تأكل جيدا ـ فهى ممتازة الشهية ! ـ تغسل بنفسها جسد زوجها السيد / ديمتريوس وتحك جلده وتطعمه وتطمره مثل الحصان ، وفى كل مساء تحاول جاهدة أن تنعشه ! ولم يكن لديها أطفال ، فكانت تحب القطط وطيور الكناريا وقبرات الربيع .

وفى هذا الصباح كانت « بنيلوب » تحس بما يشبه وخز الإبر والدبابيس فى ظهرها ، ولو كان لها ذيل هى الأخرى لرفعته مثل الحيوان لتعلن لكاترينا عن قدوم الربيع ! ولتعلنه أيضا لزوجتى كراسو چورچيس وماستراپاس ولزوجة الطبيب ولكل الجيران لماذا لايزلن نائمات إلى الأبد ؟ لابد أن ينهضن لكى يدعن الشمس تلمسهن ، وتجعلهن جميعا ينهقن ويعفرن أنفسهن فى الحقول ! .. الربيع جاء ! واليوم لن تسعها جدران حجرتها الأربعة ، أعدت طبيخها بسرعة .. وأرسلت خادمتها الصغيرة لتطرق باب « كاترينا » زوجة الكابتن التى تسكن فى مواجهتها .. وتقول لها : « تحيات سيدتى بنيلوب زوجة ديمتريوس .. وهى تقول لك ـ إذا أنت أحببت ـ فسوف نحمل غداءنا ونخرج إلى الحقول ونتناوله هناك ..' وهى تقول لك ، لقد جاء الربيع » .. ولكن كيف تغادر زوجة الكابتن بيتها وهى تعده لاستقبال خمسة رفاق بشوشين فى الصباح الباكر لليوم التالى ؟ لقد كانت تعد الدجاج كوجبة لذيذة للمأدبة ، واحدة ستسلق ، والثانية سوف تتبل بالدقيق المسكر ، والثالثة سوف تشوى على السفود .

ـ لن نستطيع ، قول لسيدتك إننا لن نستطيع ذلك اليوم ، ونرجو أن تعذرنا ولكن إذا أحبت أن تتفضل بزيارتنا هذا المساء ومعها أدوات الحياكة ، فسوف الجارات أيضا .. وسيحضر كذلك (على أغا) لكى

يسلينا ، قولي لها إن الكابتن سوف يغيب عن البيت اليوم بطوله ، فلا تخشى شيئا .

وقطبت « بنيلوب » جبينها ، وأرسلت خادمتها الصغيرة إلى جارات أخريات ، إلى زوجة « ماستراپاس » وزوجة « كراسوچورجيس » إلى شقيقه « بوليكسيجيس » .

الكابتن ميخاليس اليوم بطولة .. فلا ينبغى أن تخشى شيئا .

وقطبت بنيلوب جبينها وأرسلت خادمتها الصغيرة إلى جارات أخريات ، إلى زوجة ماستراپاس وزوجة جراسوچورچيس وإلى شقيقة « بوليكسيجس » ولكن الأولى قالت أنها تتوقع قدوم الأسقف ليطرد الأرواح الخبيثة من بيتها ، وقالت الثانية أنها تعانى من الصداع والدوار ، أما شقيقة « بوليكسيجس » فقد قالت أنها تخبز مسبقا للعشاء ، وان قدميها متورمتان ولا تستطيع الحركة ..

وزمجرت بنيلوب فى هياج : « سحقا لكم أيتها الغبيات الفاسدات .. ! الا تفتحن أبدا جحوركن لترين مايدور خارجها ؟ أم أن ذلك يجعلكن تشعرن كما لو أصبحتن عرايا ؟ تعالى يا ماروليو ، واذهبى إلى « مارسيلا » زوجة الطبيب ، بالرغم من أنها فريسة فسوف تفهم ماذا يعنى قدوم الربيع ، وسوف تحضر ! .. »

كان اسمها « مارسيل » وليس « مارسيلا » ولكن بنيلوب كانت تمزح معها بسبب يونانيتها « المكسرة » ! ولأنها كانت تتميز بادعاء أبناء المدينة الكبيرة ، كانت « باريسيا » ـ وهكذا كانت تنطقها ـ أكبر من « ميجالوكاسترو » .. وهناك نهر يجرى وسط شوارعها ، ونساؤها يغشين المقاهي ويتبادلن الحديث في جرأة مع الرجال .. ويظهرن أقدامهن حتى كواحلها ، وكانت تلك حكايات أشبه بالأساطير ، ولكن هذه الفرنسية الضالة لها أسلوب رشيق فى الحديث عن ذلك كله .. اسلوب يدل على أنها هى نفسها تصدق ما تقول ، كثيرا ما رأيت عينيها كابيتين .. ما الذى يمكن أن تأخذه من زوجها هذا الوقح بنعومته وإدعائه ؟ ، يا للعار ! إلى الجحيم هذا الزوج ! إنه لا يخجل من أن تكون له علاقة بفتاة من أركالوخورى .. لابد أن تخرج هذه المرأة المسكينة إلى الحقول ، ولسوف ننطلق فى سرعة القديسة (ايرين) قديسة الجداول الأربعة ، ولسوف يزيل هذا سأمها » .

ولكن الخادمة الصغيرة عادت مطأطئة الرأس : « إنها لاتستطيع .. قالت إنها ظلت تسعل طوال الليل ولم تذق طعم النوم ربما تستطيع فى يوم آخر .. ولتعذريها ! » ..

وسبت بنيلوب ولعنت ، واستعرضت فى ذاكرتها كل جاراتها ، هل ـ لا سمح الله ! ـ تدعو زوجة « كوليڤاس » ؟ ، إن زوجها حفار قبور .. وهى نفسها ممسوسة ترى الأشباح ، وكل الموتى يرفرفون فوق وسادتها ويخدمونها بإخلاص ، لماذا يجردهم زوجها من أكفانهم ويكسوب بها زوجته ونفسه ويترك الموتى عرايا فى رطوبة الأرض غضبانا ولهم كل الحق فى أن يغضبوا ؟ .. كلا .. لا ينبغى أن تدخل بيتها زوجة « كوليڤاس » فهل تبعث مرة أخرى إلى « أركوندولا » .. هذه البندقة المرة لتسألها إذا كان من الممكن أن تتفضل بالخروج مع بنيلوب زوجة البقال ! وهذه أيضا يقولون إن أباها كان ترجمانا فى القسطنطينية ، وكان يلعب الورق مع البطريرك : وعندما مات أبوها أصبحت تتلقى من البطريركية كل عام حقيبة ملأى بالجنيهات الذهبية من البطريركية ، وكانت تأكل الكافيار بالملعقة ! كلا .. إن طعام الآخرين لا يناسب وزيارات الموظفين والباشا لم تكن تفيدها ! .. وعندما كانت لاتزال صغيرة ، وجدت أن رجلا قد تبخر وآخر تعفن ، هذه المخلوقة المغرورة ! فلتنضج الآن فى عصارتها وهى تجلس فوق الصندوق الذى يضم جهاز عرسها ، ولتدفع الثمن عن نفسها .. ولتدفع الثمن عن أخيها أيضا هذا الأصم الأبكم ، فالآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون ، فقد حدث أن سيق كريتى إلى القسطنطينية ليشنقوه هناك حيث قيل أنه قتل رجلا تركيا .. ولقد كان أبوها الترجمان ـ اللعنة على عظامه ! ـ يعرف الحقيقة ، فالقاتل لم يكن ذلك الكريتى ولكنه كان شخصا آخر .. كان أحد البكوات .. ولكن هل هناك شىء يمكن أن يجعل هذا الترجمان الثلاب يفتح فمه ليتكلم ؟ ، كان مذعورا .. وظل كالأخرس لاينطق .. ومن أجل هذا فإن ولده الوحيد أصبح أخرس لا ينطق .. لا .. لن تخرجى مع الآنسة « أركوندولا » .. لا .. حتى ولو أرادت هى ذلك .

وقفزت خواطرها بعيدا عن هذا البيت الكبير المتعالى .. بعيدا .. « فهل ياترى اسأل ڤانجيليو ؟ ولكنها هى الأخرى لن تحضر ولأنها مشغولة ولاشك بإعداد جهاز عرسها ، ففى عيد الفصح سوف تتزوج من « تيتريوس » المدرس بحق الشيطان ، كيف اختارت الفتاة هذا الرجل ؟

هذا الرأس الأصفر .. هذا المعلول ذا العوينات ؟ أحقا هى تحبه كما كانت تقول ؟ ولكن لا غرابة فهناك لعنة حلت عليها هذه المسكينة ، فاخوها هذا الوسيم الفاسد بساعته الذهبية ، قد أهدر كل نقودها على الحلى والفجور » ..

وبعد طول بحث وتمحيص ، وصلت بنيلوب إلى قرار ارتقت حوض الأعلاف وأمسكت قبضة من أوان التكعيبة واتجهت إلى المطبخ ولفت الطعام فى أوراق العنب وملأت سلة بالخبز والزيتون وبرتقالتين وزجاجة صغيرة من النبيذ وبرقوق بيضاء بالكحول وبن وسكر وسكين وشوكة ومنشفة ، ثم خرجت إلى الفناء وصاحت فى خادمتها الصغيرة : « تعالى معى يا ماروليو » .

وأغلقت الباب المطل على الشارع .. وانحدرت نحو الميناء بجسدها السمين وكتفيها العريضين ومشيتها المترجرجة وكأنها نوع خاص من الخراف ذوات « اللية » السمينة التى وصلت أخيرا إلى كريت من آسيا الصغرى ! وتملك الارتباك السيدة المسكينة وهى تحس بنصفها الأسفل يتأرجح ، ولكن ماذا كان بمقدورها أن تفعل ؟ .. هكذا قالت وهى تشعر بشىء من الارتياح ، فحتى هذه « الغريبة » من صنع الله ! ..

من حسن حظى أن ساقى ليستا متورمتين مثل قدمى الآنسة « كريسانتى » شقيقة « بوليكسيجس » ولازلت والحمد لله قادرة على استخدامهما ، ولازلت أصدر أوامرى إلى هذا الخنزير زوجى أنا التى أقوده وليس هو الذى يقودنى ، فأنا أساوى عشر فتيات ، وعشرة شبان لا يستطيعون اسقاطى على الأرض ، أنا حقا كما وصفونى .. السيدة القوية » ..

وبعد طول تعثر وانحدار عبرت الشارع العريض الذى كان يعج بالحمالين والعمال والمزارعين أى ضجة هذه وأى صخب ! يا للكريتين وأعناقهم الغليظة كأعناق الحمير ! هكذا كانت بنيلوب تقول لنفسها وهى تزم شفتيها ، ذلك لأنها كانت من « ريثيمنو » .. وكانت تفخر بذلك : « كايتا » للأسلحة ، و« ريثيمنو » للكتب .. و« ميجالوكاسترو » للكيزاك ! وفى كل مساء لا يكاد أبناء ميجالوكاسترو ينتهون من أعمالهم حتى يترهلون داخل الحانات ويشربون بشراهة ويزدردون الاسماك المجففة واللحوم المشوية

على السفافيد وقد فاحت منهم رائحة النبيذ والعرقي واللحوم ، أما أبناء « ريثيمنو » فهم على النقيض من ذلك بمشيتهم المحترمة وانحناءاتهم العميقة ، واحتفالاتهم الرفيعة ! زوجها ديمتريوس فقط كان يختلف عن باقي أبناء « ميجالوكاسترو » ولكنه ـ باركه الله ! ـ كان نصف جسد ! .. لماذا لا تستطيع أن تبعثه إلى الحياة بالليل ؟ .. كل محاولاتي ضاعت هباء ! .. نعم آه لو كان من أبناء « ريثيمنو » .... » .

تنهدت وتابعت سيرها حتى أصبحت قريبة من الميناء : « سوف يكون جالسا هناك كعادته يلهو بمذبته ، نعم .. » ..

ولكن ديمتريوس كان قد تعب من اللهو بمذبته منذ فترة ، وغرق بين دفتي مجلد ضخم كان يسجل فيه بلونين من الحبر ـ أحمر للحوم .. وأزرق للباقي ـ الطعام الذي يأكله كل يوم . وكان قد استغرق في مراجعته ، يقرأ عن الأطباق .. ويتذوقها بخياله حتى سال لعابه وبدأ يتصفح صفحات بضعة أيام مضت .. يتهجى ماكتب فيها ببطء ويستطعم وكأنه يمضغ الطعام ، ٢٠ مارس ١٨٨٩ فاصوليا طازجة بالخرشوف والبصل الأخضر ، كمية من الزيت تخلط جيدا ، ٢١ مارس ، خيار بالثوم يشويه البائس « تولوباناس » ..

وأقبلت فتاة صغيرة إلى مدخل الدكان :

ـ « سيدي ديمتريوس : أرسلتني سيدتي زوجة كريستوفاكاس » ـ لكي تعطيني ست أوقيات من المصطكي لزوم الطهو » ..

ـ أعرف ما تريدينه يا ابنتي .. ولكنه هناك .. في مكان عال .. !

ومط الكلمة الأخيرة كأطول ما يستطيع حتى يشير إلى أن المصطكي هناك في مكان ما في آخر الدنيا ! ..

وانصرفت الطفلة بينما عاد السيد ديمتريوس ليغرق مرة أخرى في دراساته ، ٢٥ مارس العنوان : السمك البكلاه بالليمون .. البكلاه بالبقدونس ، البكلاه المشوي بالثوم ، سلاطة الخيار ، لذيذ الطعم للغاية » ..

ولكنه الآن كان قد « درس » بما فيه الكفاية ، فعاد إلى المذبة وهو يتنهد

ويغمغم : « أنا ، ابن الكابتن لينبوتوم الشهير ، الأم انتهى بى الأمر ؟ كان جدى يمتلك سفينة حربية يضرب بها سفن الأتراك ، وكان أبى يمتلك بندقية وكان يقتل بها الأتراك ، أما أنا ، فلا أملك سوى هذه المنشة .. أقتل بها الذباب ! لعن الله وجهى ! » .. ثم لطم وجهه الصبوح براحته وهو يرى دكانه قد أصبح ضئيلا بالنسبة إليه بعد أن خطر أبوه بذاكرته .. وبسط ذراعيه ولمس بأصابعه الحوائط يمينا ويسارا ومثل شمشون ، ود لو دك هذه الحوائط حتى يجعل الدنيا أمامه أكثر اتساعا لا يحس هو .. « ديمتريوس لينبوتوم » بالضيق ..

وفى ذات اللحظة التى كان ينذر فيها نفسه ليدك الحوائط إلى شطرين ، أظلم الدكان ، فقد وقفت ببابه « بنيلوب » طويلة مستديرة سمينة لاهثة الأنفاس ، وعندما رآها مستر « ديمتريوس » أغبر وجهه : « ماذا تريد منى بحق الشيطان ؟ .. ألا يكفى الليل بطوله ؟ من أين لها هذا النشاط .. هذه المرأة التى لا تستحى ؟ هل وضع أحد ما بترولا فى أردافها ؟ .. آه ! أين هى من سيدات ريثيمنو المحترمات ! » ..

ثم قال فى صوت عال وهو يفتح الكتاب بسرعة « مرحبا » ! ..

وصاحت زوجته : « انهض يا ديمتريوس .. انهض ! سوف نمضى معا إلى الريف ! لا تتعفن هكذا ، أعط عظامك فرصة الدفء ، بارك الله فيك ! ها أنت مثل الضفدعة بمستنقع هيا وأخرج نفسك من هذا المستنقع ! لقد أحضرت غذاءنا معى .. طبقك المفضل ... » ..

ثم أنحنت نحوه تهمس فى أذنه : « كفته ملفوفة بورق العنب .. وضعت فيها كمية كبيرة من الفلفل .. سوف ترى كيف يلذ مذاقها فى الريف ! » ..

وهز السيد ديمتريوس كتفيه وصاح : « لن أذهب .. لن أذهب .. » . ثم تشبث بمقعده ..

- « قم يا ديمتريوس .. يا عروستى الصغيرة .. قم ! اعمل معروفا ، وأعدك بألا انتهرك » ..

ولكنه أشاح بقوة كما لو كانت « بنيلوب » ذبابة ، أو خادمة يريد أن يطردها من الدكان ، ثم صاح ثانية : « لن أذهب ! لدى عمل كثير اليوم ألا ترين بعينيك ؟ أنا أسوى حساباتى .. مالى وما علىّ حتى أعرف فوق أى أرض نقف .. اذهبى أنت .. فهناك ملاك فى رفقتك ! » ..

وامسكت « بنيلوب » خادمتها من عنقها وصاحت « هيا ياماروليو ! .. سوف تمضين معى وكأنك جارتى وزوجى ! .. هيا بنا .. وسوف نتناول غذاءنا معا تحت أشعة الشمس ، ثم أدارت ظهرها للسيد / ديمتريوس وانسحبت وهى تغمغم :

« كان أفضل لو تزوجت سكيرا ، هاوى محظيات » .. أنجب له دستة أطفال قبل أن يستطيع ترويضى ، وكان أفضل لو عشت فى ريثيمنو ، حيث يعيش عليه القوم ، وليس هنا مع هؤلاء الحمير ، أبناء ميجالوكاسترو ! » ..

... وتحركت فى هياج : وكان الجوع قد استبد بها .. ورأت الشمس ترتفع أكثر فى كبد السماء .. وأحست بخياشيمها ترتعش ـ لقد بدأت تشم رائحة العشب .. وكانت لاتزال ممسكة بخادمتها الصغيرة « ماروليو » من قفاها تجرها معها بقوة والفتاة تتعثر معها وهى تلهث وتئن تحت ثقل السلة الموسوقة .. وبين الحين والآخر ينزلق « شبشبها » من قدميها .. حتى اضطرت إلى أن تخلعه وتضعه فوق الخضراوات فى السلة .. وبعدها بدأت تركض إلى جوار سيدتها ..

وعندما وصلت « بنيلوب » إلى كنيسة القديس « ميناس » توقفت ثم رسمت علامة الصليب وغمغمت : « عزيزى القديس ميناس .. أنت تعرف ما أريده .. ساعدنى ! » ..

وارتفعت صرخات وضحكات ، وامتلأت الساحة بالأطفال .. فقد دق الجرس .. اندفع التلاميذ إلى المدرسة ، وقفز قلب « بنيلوب » . وظلت واقفة مكانها تنظر إلى الأطفال فى اعجاب ، وتقول : « آه .. لو لم يكن ذلك عيب ديمتريوس وليس عيبى أنا ! سامحنى يا رب ! » ..

وغامت عيناها للحظة ، مر بخاطرها أولئك الشبان الذين رأتهم فى الشوارع وفى القرى وفى الأحلام .. وتمتمت لنفسها : « سامحنى الله ، ولكنى اظن أن زوجة باربايانيس برجالها الذين يعدون بالألوف .. على حق .. ترى كم من الرجال انجبت منهم ! الله وحده يعلم وممن أنجبت جارتى كاتينيستا زوجة كرا وجورجيس ! وباربايانيس يحاول أن يسد اذنيه ، ولكن برغوثا يظل يطن فى أذنيه على الدوام ، كان يرى قرينه بعينيه ! ويلمسهما .. ويحس بهما ! .. ولكن .. ماذا كان بوسعه أن يفعل ؟ مرة واحدة فقط ـ عندما كان مريضا ـ استدعى زوجته وقال لها : « يا

زوجتى .. بحق الرب .. وبحق ما تؤمنين به .. أصدقينى القول : هل كل الأطفال الذين أنجبتيهم .. أولادى ؟ » ..

ولكن زوجته لم تحر جوابا ..

ـ « أخبرينى يا زوجتى .. أنت ترين أننى أموت .. مم تخشين إذن ؟ » ..

فقالت الزوجة :

ـ « وماذا لو لم تمت ؟ .. لنفرض أنك لم تمت ؟ » ..

وضحكت بنيلوب وهى تتذكر ذلك .. ثم أفسحت الطريق جانبا لكى يمر أطفال المدرسة ، ونظرت إلى « تارسوس » الصغير ، إبن جارتها زوجة الكابتن ، ونادته وهى تنظر نحو السلة لكى تعطيه برتقالة : « تارساكى .. تارساكى ! » ..

ولكن كيف يستطيع تارساكى أن يسمعها ؟ لقد كان يضع يده فوق كتفى زميليه .. « مانوليوس » ابن « ماسترا‌ياس » عن يمينه .. و« أندريكوس » ابن « كراسوچورجيس » عن يساره .. وكانوا جميعا يغدون وهم يثرثرون ويضحكون وكأنهم لا يتعبون من اللهو ، بالأمس فقط قذفوا خردقة صغيرة على مدخل المدرسة فى اللحظة التى أدار فيها « تيتيروس » ظهره وتهيأ لتعليمهم الأغنية التى كان ينبغى أن يغنوها يوم الأحد التالى : « جاء الربيع ومرة أخرى عادت الزهور ! .... » ولحظتها ارتفع صخب التلاميذ .. ووجد « تيتروس » فيها صوت مادة للدعابة الهامة ، فرفع مقرعته وقال : « يا أولاد .. هيا بنا إلى الفناء .. جميعا .. ولتغنوا هناك ، حتى إذا كان بعد غد وذهبنا إلى الأقباء الثلاثة » .. لم نفضح أنفسنا .. إلى الأمام ! » ..

وقادهم بنفسه رافع الرأس .. ولكن ما أن خطا خطوتين فى صرامة عند مدخل المدرسة تزحلق وسقط فوق الأرض مثل الجرة .. وانسحقت عويناته الى قطع صغيرة ..

وتساءل أندريكوس ألم تتحطم عظامه أيضا ؟ ... وكأنه يريد أن يطمئن على أنها لم تخرج سليمة ! » ...

ولكن كارساكى أجابه مؤكدا : « لقد مات .. أقول لك إنه مات .. ألم

تسمع وقع السقطة ؟ .. لقد كان صوت عظامه » ..

وقال مانوليوس وهو يفرك يديه فى سرور : « وهل سمعت صرخته ... اوه ! .. لابد أن عظام وركه قد تحطمت ـ فهو لم يستطع النهوض ، لقد صرخ .. آه .. آه .. ، ثم أخذ يبحث عن نظارته » ..

ـ « ذلك يعنى أننا أحرار الآن نستطيع أن نفعل ما نريد .. اتفقنا ؟ » ..

وصاح الزميلان « اتفقنا ! » .. ومر بحذائهم كلب ، فالتقطوا حجارة من الأرض وانطلقوا خلفه ..

... وقريبا من « التكية » المجاورة للباب المؤدى إلى القديس ميناس ، سمعوا ضجيجا وصخبا .. فتوقفوا ...

وقال تارساكى : « حميده مولا تضرب أفنديتا ؟ فلننتظر فقد نرى شيئا مسليا » ..

ووقفوا على أطراف أصابعهم ليتمكنوا من الرؤية من خلال الشباك فى الحائط .. وكان الفناء الفسيح المزروع بالأعشاب يمتد أمامهم .. وفى الوسط منه يقوم قبر القديس مزينا بأشرطة من أقمشة ملونة ، وبالقرب من الضريح كانت الأم المرسلة الشعر بأنفها الممتد كطرف حربة .. كانت تقبض على عنق ابنها بإحدى يديها .. وبالأخرى عصا ذات أطراف كالشوكة .. كانت تصيح فيه مهددة :
ـ الا تخاف الله ؟ أنت لازلت تتردد على بيوت هؤلاء اليونانيين حيث يقدمون لك لحم الخنزير ويجعلونك تشرب النبيذ ويدنسونك ، سوف أحبسك أيها الغبى الملعون وسوف أضربك بلا شفقة .. ولن تذهب ! » ..

وحاول أفنديتا التملص والفكاك من مخالب أمه .. وصرخ كما لو كانت مقبلة على قتله وصاحت الأم وهى تهزه بعنف :

ـ « لن تذهب ! أنسيت العار الذى جلبته على نفسك فى كل مرة ذهبت فيها إليهم ؟ وعندما تفيق تعتذر وتعوى ! ثم تلقى قبعتك فتبدو القرحة ، فتلوثها بروث الخيل وتجرى فى الشوارع وتنهق كالحمير ، وهؤلاء اليونانيون يرجمونك بقشر الليمون ويطلقون عليك اسم امرأة .. انهم يسمونك أفنديتا « أفنديتا روث الخيل » ! .. ألا تخجل وأنت أمام هذا القديس .. امام جدك » ..

هكذا كانت تهينه بحدة وهى تشير إلى الضريح بخرقه الملونة البراقة وصاح أفنديتا ويداه مرفوعتان :

ـ أنا أفكر فيه ليلا ونهارا .. أقسم انه لا يغيب عن بالى ليلا أو نهارا .

ـ لماذا إذن تدنس نفسك ! ..

ـ ألا تريدين أن أصبح قديسا ؟ قديسا مثل جدى ؟ كيف بحق الشيطان تتوقعين أن أصبح قديسا إذا انا لم أمارس الخطيئة ؟ إذا أنا لم أقع فى الخطيئة فكيف أعرف الندم ؟ وكيف أبكى ؟ وكيف أتوجه إلى الرب ؟ وكيف أظهر قروحى ؟ كيف إذن بحق الشيطان أصبح قديسا ؟ ..

ووقفت حميده مولا فاغرة فاها ، وبدأت تحدق فى أبنها ، ثم فى الضريح ثم لزمت الصمت ، ربما كان ابنها الأحمق هذا على حق .. ربما كان حقا هذا الذى سمعته عن الرجل العجوز .. القديس .. جد أفنديتا .. لقد سمعت أنه قضى حياته منغمسا فى اللذات وعندما تغض وجهه واصبح عاجزا عن تناول الخمور واللحوم والنساء .. سقط فى القدسية ! .. وقد ارتقى مئذنة « أجاكاترينا » ورفض أن يهبط أو يأكل ويشرب ، وظل يبكى ويضرب نفسه ويبتهل إلى الله ، ظل يصيح سبعة أيام بلياليها ، ثم صرخ صرخة قوية وقف لها شعر سكان « ميجالوكاسترو » وطارت الغربان فى السماء ، وأنزل الله عليه رحمته فأرسل اليه الطعام حتى يبعد عنه الموت .. ألا يمكن أن تكون هذه أيضا هى نفس سبيل ابنها الى أن يصبح قديسا ؟

وأحست « حميده مولا » بالحيرة ولم تعد تدرى أتستمر فى ضرب عزيزها أو تجلس القرفصاء فى ركن فناء بيتها لتستمتع بالشمس وهى التى بدأت ترتعش .. وألقت العصا بالقرب من الضريح ، واسترخت أظافرها التى كانت تقبض عنق أفنديتا ، ثم رفعت قبضتها ملوحة له .

ـ أغرب عن وجهى ! ليتخطفك الشيطان . افعل ما شئت .. كل واشرب وارقص هنا وهناك ، ثم عد وضع روث الخيل فوق قروح رأسك .. !

قالت ذلك واندفعت فى قلق نحو ركن الفناء المشمس ..

وقال « أندريكوس » :

ـ يا لسوء الحظ ، إنها لم تمزقه إربا ..

وقال « تاراساكى » :

ـ فقط انتظر .. وسوف يقوم أبى غدا بهذه المهمة ..

ثم وكز صديقه بكوعه وقال :

ـ هيا .. وغدا عند الغروب سوف نبرم ما اتفقنا عليه أنا أدعوك ، ولا تنس أن تحضر المقلاع وسوف أحضر أنا حبلا ..

قال « أندريكوس » :

ـ سوف أحضر عصا .

وقال « مانوليوس » :

ـ وأنا سأحضر وتدا .

ـ وسوف ندعو « نيكولا » ابن « فورد جانوس » أيضا فإن يديه قويتان ، وتساءل « مانوليوس » وقد توقف مكانه :

ـ ولكن ماذا يحدث لو أن اباها رآنا ؟

وقال « تاراساكى » فى ضيق :

ـ أف .. ! وماذا لو رآنا ؟ .. أهو قادر على أن يضرب أى شخص ! .. إنه ليس كريتيا ولكنه من « سيرا » ..

فقال « أندريكوس » :

ـ ولكن .. هل سنقدر على الإمساك بها ؟ إنها تزن طنا كاملا .. هب أنها صرخت ؟ ..

وعبس « تاراساكى » وقال :

ـ اسمع يا أندريكوس ، أمور كهذه تحتاجج إلى قلب ثابت ، أليس لك قلب ثابت ؟ إذا لم يكن لديك فاخرج من اللعبة .. وسوف أرى من يحل محلك .

فقال « أندريكوس » وقد أحس بأنه قد جرح :

ـ أنا ؟ إن قلبى مثل الجبل ..

فصاح تاراساكى وهو يحث الخطى :

ـ سنلتقى غدا ..

وأصبحوا قريبين من المدرسة فقال « تاراساكى » آمرا :

ـ أهدءوا الآن .. ولا تبح بكلمة واحدة ، وإلّا فسوف تندم ! غدا يسكر أبى ، وأصبح انا حرا وأستطيع الخروج .. وقل انك ستخرج للخدمة المسائية ، وسوف تعطيك أمك نقودا ، توقد بها شمعة ، وسوف نشترى بها حمصا ..

وقال « ماتوليوس » مقترحا :

ـ ونأخذه معنا إليها ..

فصاح « تاراساكى » :

ـ غبى ... ! ولماذا نأخذه لها ؟ .. نأكله .. !

فى نفس اللحظات كان الكابتن ميخايليس يمر بمهرته بحذاء الجبل الظالم والعصابة التى يعصب بها رأسه قد انحدرت حتى حاجبيه ، وعلى يساره البحر المزبد ، وعلى يمينه صخرة .. صخرة كأنها الحديد .. الجبل الموحش العارى .. الجبل الملعون الذى حين يمر به الكريتى فيرسم علامة الصليب وهو يسب تركيا .. ذلك أنه فى أى ثقب منه ، وفى شق تبحث فيه ؟ .. سوف تجد عظام كريتيين ذبحهم الأتراك ..

ورسم الكابتن ميخايليس علامة الصليب على صدره ، فمنذ ثمانية أعوام مضت قتل أخوه « كريستوفيس » وولداه ، وبعدها ظل الناس أياما يتتبعون الغربان حتى وجدوا جثثهم الثلاث داخل ممر صخرى ضيق ملقاة احداها فوق الأخرى ، وكانت ألسنتهم مفقودة .. كانوا يركبون دوابهم كل إلى جانب الآخر فى المساء وهم سعداء ينشدون نشيد موسكو ، كان ذلك يوم تعميد « تاراساكى » وكان الأخوة وأولادهم فى الطريق إلى بيوتهم بعد أن شربوا وسعدوا بوقتهم ، ولحظتها لوحوا نحو الأفق ، وصاحوا يتمنون أن يدركهم الموسكوفيون .. وكان الأتراك فى انتظارهم .. فوثبوا عليهم من كمين أعدوه ، وقطعوا ألسنتهم .

وغمغم الكابتن « ميخايليس » وهو يلكز مهرته : « أيتها المنبوذة كريت !

كم من الأجيال انقضت وأنت تبكين أيتها الأرض سيئة الحظ .. ومن ذا الذى استمع إلى بكائك ؟ حتى الرب محتاج إلى تهديد لكى يصنع معجزته .. إن الأقوياء فوق هذه الأرض يحتاجون إلى تهديد جيد .. اقبض بيدك بندقيتك مرة أخرى أيها الأحمق ، فهى وحدها التى ستصبح الموسكوفيين المنقذين ! .. ولاشىء غيرها ! » ..

وتنهد .. أتابع سيره بعينين كابيتين ، بعيدا وفى بطء عن البحر داخل السهل ، ومن السهل داخل الجبل ، ثم مالبثت خياشيمه أن تمددت ، لقد تعطرت وهاد كريت بالصعتر والمريمية .

وغمغم الكابتن : « كم هى جميلة كريت .. كم هى جميلة ! .. آه .. آه لو لنت فسرا كيما أستمتع بمنظرها الشامل من ارتفاع شاهق .. » ..

والحق أن النسر يمكن أن يشاهد جمال كريت ويعجب به .. يعجب بالطريقة التى يرتفع بها جسدها المحبوك فى اتزان .. الطريقة التى يبرق بها سواحلها .. مرة فى رمل أبيض .. وأخرى بين رمل أحمر كالدم ، جبال خالصة داخل البحر ، ولسوف تغمره البهجة وهو يرى القرى والمزارع الضخمة والأديرة والكنائس الصغيرة التى تتوهج فى مواجهة الصخرة الحديدية الداكنة أو التى تقف ثابتة فوق التربة .. وفوقها كاتيا ، وريثيمنو وميجالوكاسترو .. مدن ثلاث معذبة ظلمها الأتراك بحوائطهم الفينيسية وبأعمالهم التتريك فى الكنائس ..

والله أيضا ـ وهو أعلى من كل بشر ـ لابد أن يرى نفس المشهد إذا لم يكن سبحانه قد نسى كريت أجيالا وراء أجيال وأسلمها روحا وجسدا إلى أيدى الأتراك !

لا .. بل أسلم الجسد فحسب ، فقد قاوم الكريتيون ، وغلوا دائما بالغضب .. ورفضوا أن يضعوا خاتمهم تحت خاتم الله ! فلم يكن ذلك من العدل فى شىء ! ورفعوا أيديهم إلى السماء وصاحوا « ظلم ! » ووطنوا أنفسهم كمسيحيين طيبين على أن يرفعوا ذلك الظلم الإلهى الذى لايحتمل ، والله ذاته محارب أيضا .. أيكون مشغولا عنهم لأنه يدير حربا فى مكان ما ، فوق كوكب ما ، ضد أتراك آخرين ؟ ! .. لسوف نظل نناديه سبحانه حتى يسمعنا ..

هناك شعوب وآدميون يدعون الله بالصلوات والدموع أو بضبط النفس المنظم والمعقول .. بل ربما لعنوه .. أما الكريتيون فقد دعوه بالبنادق ، وقفوا أمام بيت الله وأطلقوا بنادقهم حتى يسمعهم سبحانه ، وأصاب « التمرد ! » السلطان في الصميم عندما سمع لأول مرة صوت الطلقات .. وسرعان ما انتابه الهياج والغضب وأرسل الباشوات والجنود والعصابات ، وصاح الفرنجة « إهانة ! » ، وأطلقوا سفنهم الحربية ضد اللحاء الهزيل الواقع بين أوربا واسيا وافريقيا الذى خاض في شجاعة حرب الموت وأعولت « هيلاس » الأم المتسولة وهى ترتعد ، تذرعوا بالصبر ، ولا تلقوا بى في مذبحة ! » .. وأجاب الكريتيون فى صوت يصم الآذان وهم أمام باب « الرب » « الحرية أو الموت » ..

فى البداية حدث ذلك مرة واحدة في جيل واحد ، ولكن فى النهاية ـ وبعد الثورة الكبرى في عام ١٨٢١ ، ارتفعت حدة الصخب ، وأسرع السخط خطاه ، وابتلع قلب كريت الاهانة والاحساس بالظلم ، والمعاناة حتى اتضح وفاض الكيل فى النهاية فانفجرت كريت في وجه الوحش المخيف الذى تقبض مخالبه على سجينه ، فأفنت جسدها وأحرقت قرارها وخربت حقول زيتونها وعبئها ، وتكومت الجثث فوق سهولها العارية مرتفعة تصل إلى أعتاب الله ، ثم عادت .. تنزف من آلاف الجراح .. عادت إلى مخالب الوحش . كان ذلك في سنة ١٨٦٦ فى زمن أركادى .. ثم حدث انفجار ثان في سنة ١٨٧٨ وعادت كريت لتسقط مرة أخرى فوق الأرض ، وبدأت تصبح أكثر استعدادا لابتلاع الظلم والبؤس .. والآن ـ وفى بداية عام ١٨٨٩ ـ بدأ قلب كريت يقترب من الانتفاض والفيضان ، فى القرى كان الكريتيون يديرون وجوههم ويرفعون قبضات أيديهم ويحدقون فى اتجاه الشمال .. فى اتجاه اليونان .. وإلى أبعد من ذلك فى اتجاه موسكو ، استيقظ الآباء في صدورهم فتململوا ولم يعودوا يحتملون البقاء داخل بيوتهم وقراهم فى راحة وسكون ، كان النوم قد جفاهم ، فى كل يوم أحد كانوا يستدعون المدرس والقسيس وعازف القيثار ليغنى لهم همومهم .. هموم كريت ، ولكى يذكى أوار غضبتهم ويقفز بها إلى الرؤوس ، ودائما عندما كان يهجم الربيع .. وعندما تمتلىء الحقول بالدفء ، وعندما تدفعهم القوة الفائضة .. كانت قلوب الكريتيين تزداد ضراوة .. وكان الأتراك يعرفون ذلك ويبعثون بالأوامر ـ وبالجنود ـ لابقائهم داخل بيوتهم .

وتورم قلب الكابتن ميخايليس ، ولم يعد قادرا على احتمال بؤس « كريت » اكثر من ذلك ، غرس المهماز فى بطن المهرة وركض بها بحذاء « الجبل الظالم » حتى وصل إلى تربة حمراء ، ثم اتجه في طريق الشاطىء ، وأحس بالجوع ، فانحدر نحو فندق الأرملة ، وجاءت صاحبة الفندق ـ أرملة حاذقة طروب كثة سمينة فاحت منها رائحة الرطوبة .. رائحة البصل والكراوية وعبرها الكابتن ميخايليس بنظرته ، فلم يكن يحب النساء المتدللات اللائى يهززن اردافهن ، وظل يحدق فى الطريق أمامه وفى البحر ..

وقالت الأرملة وهى تغمز له بفن : « مرحبا بالكابتن ميخايليس نحن لانراك إلا لماما ! إذا لم تكن على عجلة من أمرك فعندى أرنب مطبوخ بالبصل الطازج والكراوية » ..

وانحنت تجهز له مقعدا فانكشفت خطوط صدرها المرحب .. متدليا رطبا ..

قالت وهى تغمز له مرة أخرى :

ـ يجب أن تأكل لحما يا كابتن ميخايليس ، فأنت على سفر وهذه ليست خطيئة ولكن الكابتن ميخايليس كان غاضبا ، كان يكره هذه المرأة وطعامها .. وكره لحظتها حتى جوعه ، وقال :

ـ لن آكل شيئا لست جوعان !

ثم قفز فوق ظهر المهرة .. وحث الركض أسرع .. ترك الجبال خلفه ، وأصبح فى السهل ، بخضرته الآمنة الجليلة ، وطنين النحل فيه ، وزقزقة الطيور وهى تعود فى ثقة إلى أعشاشها الكريتية نفس أعشاشها فى العام الماضى ، اليوم أول أبريل تشع كريت بالبهجة تحت أشعة شمس الربيع الناعم ، ولكن الكابتن ميخايليس لم يكن يرى ذلك حث الخطى إلى أين يا ترى ؟ من الذى كان يقتفى أثره ؟ لقد غطت مشاعره سحابة داكنة ، كان الساحل الذى تغمره أشعة الشمس مظلما ، وكان الطريق يمتد أمامه وكأنه النهر ، وكانت جبال « لاسيثى » تبدو أمامه متبخرة متماوجة كالدخان ، ومر به فلاحان فوق ظهرى حماريهما ، ورفعا أيديهما إلى صدريهما يحييانه ، « أطال الله عمرك يا كابتن ميخايليس ! » ولكنه لم يرد على نظراتهما

وتحيتهما ، فقد كان ذهنه مشغولا وبقصر « نورى بك » ـ كان ذهنه يحوم حوله يمسح حوائطه العالية مثل اللص .. كان يحسب كيف وأين يستطيع أن يقفز من فوقها ليصبح فى الداخل ، ولكن ذهنه تعب ، ولم يعد يستطيع أن يعرف ماهى خطوته التالية إذا هو قفز وتسلل داخل الحديقة ! .. تحدر العرق على حاجبيه ، ودس يده فى زناره ولمس مقبض الخنجر وغمغم يقول لنفسه : « هذا الكلب على حق ، واحد أو آخر منا يعنى الكثيرين » ..

وعندما استل الخنجر وتسلق السور المرتفع فى جرأة وانحدر إلى الحديقة متسللا بين أوانى الأزهار حيث كان المصباح الأحمر الأخضر لايزال مشتعلا ، سمع فوق رأسه وخلف سلك الشباك ضحكة ، وفى الحال تصبب العرق غزيرا ، فوق عنقه من حاجبيه ومن كتفيه ووضح أمامه شىء أنه لم يقتحم المنزل ليقتل إن شيطانا قد تلبسه ! .. شيطانا جديدا يختلف تماما عن الشياطين من جنسه ، شيطان حقير يجلله العار وتفوح منه رائحة المسك ووجهه ـ يا للعار ! ـ وجه امرأة .

وغمغم فى أنين : « ألا تخجل من نفسك يا كابتن ميخايليس ؟ .. ماذا جئت تفعل ؟ ! » .

ورأى أجداده يقومون من قبورهم ليلعنوه فانكمش إلى الوراء ورفع قبضته وصاح : « أيها الأجداد فلتظلوا داخل حفركم فى الأرض ! أما أنا فحى أنا قائد ! .. لا تصرخوا فى وجهى ! » .

ومسح العرق من فوق حاجبيه بعصابة رأسه وتماسك ، وعادت الجبال أمامه واضحة المعالم ثابتة ، وعاد الساحل يتلألأ ، وانتصب النهر أمامه فأصبح مرة أخرى طريقا كما كان ، وعاد فتذكر لماذا اتجه إلى باب المستشفى وما الذى أراد أن يفعله ، لقد أعطى وعدا للبك ، وينبغى أن يفى ، كان فى طريقه ليرى شقيقه ماتوساكاس فى « آى ـ حانى » إلى هذه القرية الفسيحة بحدائقها والتى تبعد مسيرة ساعة من القرية الكبيرة ، « بيتروكيفالو » التى جاءت أسرته ، ألقت المقادير بشقيقه « مانوساكاس » منذ عدة سنوات مضت ، مثل حبة نبات وهناك ألقى جذوره وأينع ، والآن ـ ومثل شجرة البلوط بفروعها وأغصانها ، أصبح له أطفال وأحفاد يفرخون على طول القرية وعرضها ويستمدون الغذاء من تربتها ..

لى يوم لا ينسى ـ فى الرابع عشر من سبتمبر سنة ١٨٦٦ ـ وكان

« مانوساكاس » يمسح الأرض مع رفاقه بحثا عن الأتراك ، اقتحم قرية « آى ـ جانى » ووجد فى بيت فلاح هناك امرأة صغيرة مسدلة الشعر ، راكعة فوق الأرض ، وكان الأتراك قد ذبحوا زوجها للتو على عتبة البيت ، وكانت حديثة الزواج وكانت تلعن الرب ، إنه ظالم ، إنه يحب الأتراك ، وحدق « مانوساكليس » الذى كان فى الأربعين من عمره وكان قد فقد زوجته منذ سنتين ، حدق في الأرملة الصغيرة .. وأحس بأن قلبه قد ضاع منه ! ترك رفاقه ليستريحوا ويأكلوا فى الفناء بينما اتجه هو إلى البيت وقد لوثه البارود الأسود .. وطال شعره كالمتوحش . وعندما رأته الأرملة تملكها الفزع ، وصاحت وهى ترتعش وتخفى وجهها فى حجرها : « يا إلهى المقدس ! » .

ولكنه حاول قدر طاقته أن يبدو رقيقا .. ثم اقترب منها وقال :

« ابك يا امرأة .. ابك نفسك وخففى عن قلبك ، أنا الآخر كانت لى زوجة وقتلها هؤلاء الأتراك الكلاب ، أنا أيضا أعولت وذرفت الدموع وخففت من قلبى » ..

ثم تهالك بالقرب منها ، ولاحظ كيف أنها كانت تلطم وتعوى ، فانتظر ، ثم حدق فيها وبدأ يحس بقلبه يرتجف بالحنين ، آه .. آه لو استطاع أن يضمها بين ذراعيه ! .. لم يشعر « مانوساكاس » من قبل بشوق إلى امرأة مثلما أحس به وهو يرى هذه المرأة بعنقها العارى الساخن المهتز وهى

راكعة وألقى بيده فوق كتفها فى نعومة وجذر فى رقة :

« حسبك .. حسبك ، سوف تؤذين عينيك يا امرأة .. الست أسفة عليها هاتان الجميلتان اللتان ، لم يخلق مثلهما في الدنيا .. أعلمى يا امرأة اننى عرفت الدنيا ـ أنا الكابتن مانوساكاس ، الذى يركع الآن امامك لن أكون مدعيا ، ولكن تستطيعين أن تسألى عنى أى مخلوق ابتداء من كيساموس حتى سيتيا ، وسوف يخبرونك من أكون » ..

ثم سكت فقد خشى أن تبعد عنه كلمة زائدة واحدة ، هذه الأرملة إذا تملكها الرعب مرة أخرى ، ولكنه لم يكن يستطيع الاحتمال ، فاقترب منها أكثر وانحنى فوقها وبدأ يحكى فى صوت هامس كالغناء عن الأشياء التى رآها والتى عاناها وكيف أن كثيرا من الأرامل واليتامى تركوا يعانون نفس

العذابات ، وكيف أن دموعا عزيزة ذرفت .. من طرف كريت إلى الطرف الآخر ـ دموعا كالنهير .. كانت تلك محاكمات كريت ، وكل من ولد كريتيا ينبغى أن يعلم بها ولا يجفل .

ورفعت المرأة رأسها فى بطء .. وكأنها تاقت إلى أن تسمع عن المحاكمات وعن الآلام التى فى الدنيا ، وكان ذلك قد أسكن من روعها ، فمسحت عينيها ونظفت رقبتها وبدأت بدورها تحكى كيف قتلوا زوجها ، ثم رفعت يدها وأشارت إلى الدماء التى كانت لاتزال على عتبة البيت وقالت انها تنوى ألا تغسل هذه الدماء حتى تظل دائما أمام بصرها .. فتتذكرها .. وتبكى أمامها ..

ولمسها « مانوساكاس » فى رقة .. لمس كتفها .. ثم شعرها .. ثم ركبتها .. فى رقة بالغة ثم قال :

ـ « أنت على حق يا امرأة ، أنا أيضا فعلت نفس الشىء على زوجتى الحبيبة ، لقد اغتالوها فى فناء البيت انتقاما منى لأن زوجها قائد ، وامتلأ الفناء بالدماء ، ولكن الأمطار جاءت وغسلت الدماء ، وعادت الصخور مرة أخرى بيضاء » ..

ثم تنهد وانحنى فوق الأرملة :

ـ « إن روح الرجل أيضا مثل الحجارة يا امرأة ، وشيئا فشيئا ، سوف تغسل الدماء .. وينسى كل شىء » ..

وعندما رأى المرأة وقد بدأت تغضب لمثل هذه الكلمات ، أمسك بعباءته الدافئة التى كانت تتصاعد منها رائحة البارود ، ثم وضعها حول كتفيها ، وقال :

ـ « لقد برد الجو .. دفئى نفسك حتى لاتصابى بالبرد » ..

ونظرت إليه .. وأحست بالخجل كما لو ان رجلا قد وضع نفسه فوقها ، وودت لو ألقت العباءة ولكنها كانت تخشى أن تؤذى مشاعره ، فانحنت وأحست فى البداية برعشة ، وشيئا فشيئا بدأت تحس باهتياج عاطفى عذب وهى تشم رائحة رجل تنفذ إليها من الرداء الصوفى وتتسلل إلى جسدها .. من كتفيها إلى ظهرها .. إلى فخذيها .. إلى كل قطعة من جسدها ، وتذكرت زوجها ، وأول عناق بينهما ، وذراعيه وكيف تسللت فى

نعومة وابتهال داخل جسدها فى الليلة الأولى ، واحست بمزيد من الدفء والارتياح والعباءة تدثر كتفيها ، واحست بأنفاس الرجل فوقها لاهثة بعنف وغلبتها عاطفة حلوة فاستدارت نحوه وقالت :

ـ « ليس لدى شيء تأكله ـ ولابد أنك الآن جوعان ، أنت قادم لتوك من القتال ، ولكن هؤلاء الكلاب الأتراك سلبوا كل شيء » ..

ـ « لا أريد أن آكل يا امرأة .. الله يأبى ذلك ! كيف آكل أنا وأدعك جائعة ؟ إذا لم تتذرعى أنت بالشجاعة وإذا لم نأكل معا فأقسم بالله الذى به أومن ـ أن أموت من الجوع معك » ..

وخشى أن تبعده عنها مثل هذه الكلمات القوية ، فسعل ، وهو يحس بأنه قد عجز عن أن يصلح ما قد يكون أفسده ، ثم مالبث أن قال :

ـ « لاتغضبى منى لحديثى معك بهذه الجراة ، ولكن : ماذا أقول لك ؟ وكيف أقول ما أريد ؟ لن تصدقينى ! » .

ثم عاد فتنهد وبدأ يلف سيجارة ، ولكنه مالبث أن توقف فقد أحس بالحيرة والضياع ، ورفعت المرأة أهدابها الطويلة المبللة بالدموع وحدقت فيه ، كانت تريد أن تسأل ، ولكنها كانت خائفة ، وتاقت نفسها إلى أن تسمع ما يريد ان يقوله ، ولكنها كانت تحس بالخجل .

وعاد « مانوساكاس » يتكلم :

ـ « إنه لشيء مخجل حقا ، ولكنى لا أستطيع معه صبرا ، سوف أقول لك الحقيقة كل الحقيقة .. وبأمانة ، وارجوك بحق الله الا تسيئى التفسير ! وإذا كنت كاذبا فليعجل الله بصاعقة تحرقنى ! بمجرد أن جئت إلى هنا ورأيتك تبكين ، احسست كما لو أن سكينا قد انغرست فى قلبى ، أنا أقول الحق يا امرأة ، لقد أصابنى الشلل فلم أر فى حياتى مثل هذا الجمال ! أنا أعنى تماما ما أقول ، لاتغضبى ، ولاتقومى وتهربى من أمامى ، هاك ، لن المسك ، معى ما اريد ان اقوله هو أن زوجك العزيز قد مات .. انتهى ، وزوجتى العزيزة أيضا ، قد ماتت وانتهت ، ولكن كلينا باق وحده فى هذه الدنيا .. تعالى حتى أرعاك ..

وبكت الأرملة الصغيرة .. ومالت منكبة فوق ركبتيها .. وكانت أسنانها

تصطك وجسدها يرتعش ، ونهض مانوساكيس واتجه إلى الباب ليدع المرأة وحدها لحظة يمنحها فيها الفرصة لتتماسك ورأى رفاقه ممددين فى الفناء ، وقد فتحوا زكائبهم ، وجلسوا يأكلون ، ووراء الفناء ، رأى الحقول الخصيبة ، وأشجار الزيتون ، اثقلتها الثمار ، وطواحين الهواء تدور وهى تئز فى سلام ، وغمم « مانوساكاوس » وقد وصل إلى قرار :

ـ « ... هنا سوف ألقى جذورى ، هذه التربة جيدة ومثمرة ومثلها هذه الأرملة ، هى أيضا جيدة ، رطبة ومثمرة ، وسوف تلد اطفالا أقوياء ، أنا أحب هذه المرأة ، وهنا سوف ألقى جذورى ! فبحق هذه الشمس التى ترى فوقى كل شىء .. لن أتحرك من هنا ! » ..

وعندما عاد ليرى حال الأرملة الصغيرة ، وجدها قد أحكمت ازارها ونظمت شعرها ، وعضت شفتيها وبللتهما بلسانها لتبدوا حمراوين ، بينما العباءة لم تغادر كتفيها » ..

قالت فى خبث وهى تدير عينيها :

ـ « كابتن « مانوساكاس » .. ! هذا الذى قلته لم يكن ينبغى أن تقوله ، كذلك فاصفح عما قلته أنا أيضا ، وإذا كان ذلك صحيحا فهى خطيئة كبرى ، إن دم زوجى العزيز لايزال دافئا على عتبة البيت .. » ..

وتنهد « مانوساكاس » وخطا خطوتين ثم قال وهو يتهرب من ذلك الحديث :

ـ « لو كان لدى فقط قضمة خبز أو جرعة نبيذ ! ـ كذلك ـ إذا سمحت ـ فأنا قادرة على أن افعل ذلك بنفسى ـ ثبتى هذا الزرار المتدلى من سترتى » ..

وصمتت المرأة ، وأحست بالأسى من أجل الرجل ، فنهضت وأحضرت إبرة وانحنى الرجل قليلا أمامها ، ومسحت هى عينيها لترى افضل ، ثم بدأت تثبت الزرار .. وبينما كانت تفعل ذلك كانت تحس بقلب « مانوساكاس » يدق بعنف ورعشة داخل سترته ، وبأنفاسه الملتهبة فوق ركبتيها ..

وأحست بالخجل ، وانهت بسرعة تثبيت الزرار ثم نهضت واقفة ،

وفتحت الصندوق .. لم يكن صحيحا ما قالته ، فلم يسرق الأتراك شيئا !
وأخرجت غطاء منسوجا وبسطته فوق مائدة غطاء أبيض ناصع البياض
كأنما أضاء البيت ، ثم مضت وأشعلت نارا وبدأت تطهو ، أما مانوساكاس
فقد أشعل سيجارا وجذب مقعدا جلس فوقه بالقرب من عتبة البيت كما لو
كان هو رجل البيت ، ثم ألقى بنظرة إلى الخارج ، ولكن أذنيه كانتا مرهفتين
إلى داخل البيت ، سمع المرأة تروح وتجيء في انشغال تقلب النار ، وتطهو
الطعام ، ثم تعود فتجهز السكاكين والشوك والأطباق ، وتعد المائدة سمع
ذلك كله وسر قلبه ، ولم يحس فى حياته كلها بمثل هذه الراحة ومثل هذا
الجوع .. ومثل هذا الصبر . إذن الآن يقينا ؛ أن هذه المرأة التى لوثها
الدقيق .. والتى تطهو من أجله .. والتى سيجلس معها بعد لحظة ليتناولا
وجبة طعام ، سوف تشاركه الطعام والفراش طوال العمر بعد أن تنتهى فترة
الحداد على زوجها الميت ! .

هكذا كسب « مانوساكاس » زوجته « كريستينا » وهكذا ثبت جذوره فى
قريتها ، كانت زوجة صالحة انجبت له أطفالا ، انجبتهم له توأما بعد توأم ،
وامتلأ فناء البيت ، بل أنه الآن أصبح جدا ـ أصبح له أول حفيد ـ وشرب
كثيرا فى الاحتفال بمقدمه .

لاحت « بيتروكيفالو » على بعد ـ فى سفح الجبل وبأعلى المضيق
ظهرت « آى ـ جاثى » قرية « كريستينا » محوطة بالخضرة وحث الكابتن
ميخايليس مهرته ، فصهلت وبدأت تعدو فى الطريق .. فقد عرفت القرية
هى الأخرى ..
كان باب بيت « مانوساكاس » مفتوحا ، واشرأب الكابتن « ميخايليس »
براسه ، واندفع بمهرته ، ثم توقف فى الفناء وصاح :

ـ « أخى مانوساكاس »

وكانت الأسرة كلها تجلس بالداخل حول مائدة منخفضة تتناول الطعام ،
وكان « مانوساكاس » يستند إلى الحائط وقد علق سوطه قريبا منه ، وفى
مواجهته جلست زوجته « كريستينا » القرفصاء سعيدة شاكرة ، وبدت
أسمن قليلا وان كان صدرها قد تهدل ، فقد أرضعت أطفالا كثيرين ، ولكن
وجهها كان لايزال يتوهج مثل وردة كاملة الإزدهار .

سمع « مانوساكاس » صوت شقيقه فقفز واقفا وخرج إلى الفناء مادا

يديه الضخمتين ، وهو يقول : « مرحبا بأخى ، المائدة جاهزة .. زوجة أخيك تحبك .. انزل » ..

فقال الكابتن ميخايليس :

ـ « أنا على عجلة من أمرى ، أغلق الباب وسأتحدث معك .

وأغلق « مانوساكاس » باب البيت ليمنع أولاده وبناته من الاستماع إلى حديثهما ثم اتجه إلى شقيقه .

« استمع إلى ما أقوله يا « مانوساكاس » يا أخى ، إذا لم تكن تستطيع أن تصمد للخمر ، فلا تشرب منها شيئا » ..

واكفهر وجه « مانوساكاس » ..

ـ « لماذا توجه لى هذه الكلمة ؟ » .

ـ « لأن الله لم يخلق الحمار ليركب الرجل .. ولكنه خلق الرجال ليركبوا الحمير .. أفهمت ؟ » ..

ـ « نعم .. لابد أن أخاك فى الدم نورى بك غاضبا ، وقد أرسلك إلى لتقوم بعمله القذر .. أم لعلك أنت أيضا يا كابتن ميخايليس ؟ » ..

ـ « أنا لم أغضب ، ولا تحاول أن ترد كلماتى فى وجهى ـ أنت تعرف حقيقة ما أشعر به ، ولكن ذلك لا يخدم قضية كريت ، فالوقت لم يحن بعد لنرفع الراية » ..

ولكن « مانوساكاس » كان قد استشاط غضبا .

ـ « وعندما تسكر أنت وتغنى أغنية موسكو ، وتقتحم مقاهى الأتراك وتوجه الاهانات إلى البكوات وتطرحهم أرضا فهل تفكر لحظتها فى قضية كريت ؟ .. وهل قدمت الأوسمة إلى بيتى لتقوم بدور المدرس ؟ » ..

ثم انحنى والتقط قطعة من الحجارة قذف بها إلى الأرض بعنف وجذب عنان المهرة وقال :

ـ « ماذا تقول إذن يا كابتن ميخايليس ؟ هل أنا على حق ؟ لاتلعب على دور القديس أونوفريوس ! » ..

وسكت الكابتن ميخايليس فماذا ترى يستطيع أن يقول ؟ لقد كان « مانوساكاس » على حق ، فهو نفسه يسكر وحين يسكر فهو لا يفكر فى كريت ولا فى غيرها . إلى الجحيم هذا الاعتدال اللذيذ ! فى مثل هذه الأحوال يمتطى صهوة فرسه ، ويبدو أمامه العالم كله صغيرا ، وتافها أشبه ما يكون بقشرة بندقه ، ويظل لحظتها يركض هنا وهناك ، ويحس كما لو كان يدوس هذه القشرة بحوافر فرسه إلى الجحيم هذه القشرة !

وقال « مانوساكاس » وهو ينظر إلى الفناء ثم إلى أخيه وقد قطب جبينه وأخذ يحدق فى الجبل :

ـ « لماذا لاتتكلم ؟ ما الذى يضايقك الآن ؟ .. أنا أعلم ما يدور الآن بداخلك ، استقر على رأى ألست ثائرا ؟ قلت لك استقر على رأى .. فذلك هو مصير كريت دعنى أنا أيضا أخذ بثأرى وليحترق هذا العالم ! فى عيدهم الأضحى سوف أخذ بغلتى وأقتحم بها مسجدهم .. ويستطيعون وقتها أن يقتلونى إذا هم أرادوا » ..

ـ أنا لا يهمنى أن يقتلوك .. ولكن يهمنى ألا تنسحق كريت .

ـ أحمق ! لن تنسحق كريت فلا تخف ، نحن الرجال الذين انسحقنا ، وليست كريت الخالدة . انتظر لحظة .

ثم قال بعد تفكير :

ـ « أخى » ...

ثم صمت لحظة وعاد يتكلم ..

ـ « هذه هى الحقيقة . أنا مختنق داخل هذه القرية ، ألا تفهم ؟ ظللت زمنا لا أستطيع أن أفهم سببا لذلك ، ولكن عندما أشرب .. يصفو عقلى .. ويطفح قلبى مثلك ، .أنا لا أستطيع أن أذهب إلى القسطنطينية لأقتل السلطان فدعنى إذن أوجه ضرباتى وأحقق ذاتى كبطل فى قريتى الصغيرة .. دعنى أعمل » ..

وجذب الكابتن ميخايليس عناق المهرة وأدارها نحو الباب الخارجى وهو يقول :

ـ « فكر جيدا فيما قلته لك يا « مانوساكاس » يا أخى ، فكر فيه جيدا

عندما تخلد إلى نفسك ، ثم افعل بعدها ما يلهمك به الله وما تراه مناسبا لكريت ، ليس لدى ما أقوله لك بعد هذا .. وداعا ... » .

ـ « انزل قلت لك ، وكل شيئا معنا ولا تكن متعجلا هكذا ، أى شيطان يتعقبك ؟ أبق الليلة فى بيتى ، انه متسع والحمد لله وفيه مكان لك .. ابق لترى أولادى وترى كريستينا .. ولترى أيضا أول أحفادى .. سأسميه « ليفتيزيس (الحرية) » فلعله يرى الحرية ..

ـ « انقل إليهم عنى جميعا التحية ، فأنا فى عجلة من أمرى » ..

ـ « الن تدخل القرية لتزور أباك العجوز ؟ » .

ـ لا وقت لدى قلت لك أننى فى عجلة من أمرى . لدى عمل أقوم به فى الصباح الباكر .. متعكم الله بالصحة والسعادة » ..

ـ « أنت عنيد صلب الرأس كالخنزير . دائما تنفذ الذى يدور فى رأسك وإلى الجحيم كل شىء ... ! » .

وغطس كابتن « ميخاليس » فوق ظهر مهرته وخرج من الباب الرئيسى وركض بجواده متجها نحو السهل ، كان سعيدا ، فقد أعجبه كلام « مانوساكاس » ، وأعجبه أنه واجهه فى ثبات وكرجل ، ولولا التهاب المشاعر ، لاحاطه كابتن ميخاليس بذراعيه ، نعم ... أنت على حق يا « مانوساكاس » فافعل ما تؤمن به وإلى الجحيم كل شىء .. ومهما كانت النتائج ..

وانطلق مثل البرق حتى عاذ إلى « ميجالوكاسترو » وقلبه يقفز بين ضلوعه ، فقد وضع لحمه ودمه مرة أخرى موضع التجربة ، ووجده كما كان يريد أن يجده ..

كان الوقت قد تجاوز الظهيرة وبدأت الشمس تميل ، وعندما علمت نساء الحى أن الكابتن « ميخاليس » سوف يغيب طوال النهار ، تجمعن فى فنائه ومعهن أشغال الابرة ، والمغازل .. والخضراوات ليقشرنها ، بنيلوب وكريسانتى ، وشقيقه بوليكسيجس ، وكاتينيستا زوجة كراسو جورجيس ، وزوجة ماستراباس كلهن اجتمعن فى أمسية فكهة من أيام السبت ، لقد انتهى اسبوع ، وغدا يوم راحة وطعام جيد ، وحياة اجتماعية حافلة ، والحمد لله سبحانه الذى خلق يوم الأحد ..

بدأت « كتينيستا » الحديث بصوت كالغناء :

- هل سمعت الأنباء الحزينة يا عزيزتي أريتوزا ؟ مرة أخرى في الليلة الماضية كانت هناك صيحات وصرخات عند الجيران .. في منزل « فوروجاتوس » ، كانت زوجته تضربه من جديد ..

وقالت بنيلوب :

- الحمد لله أن زوجي ليس له شارب كشارب فوروجاتوس ، حين تنظرين إليه تحسين بخوف لذيذ - فقد برمه جيدا ، وهذا الشمع الذي يستخدمه يجعله منتصبا مشرئبا .

وقالت زوجة « ماستراباس » التي تبقي زوجها مربوطا من كاحليه طول الليل :

- « لماذا لا يتبادلان مكانيهما ؟ ينبغي أن يعطي شاربه لزوجته ، ويرتدي هو ملابسها .

وضحكت الآنسة كريسانتي وقالت :

- أمس عند منتصف الليل تقريبا ، كان يبكي مرة أخرى ، وأقام الجيران كلهم على صوت عويله ، وكان أخي يمر قريبا منهم .. فسمعه ، وفي الصباح زاره وقال له : يا فوروجاتوس يا أخي ، لماذا تدع زوجتك تشرط جسدك إلى شرائح ، وأنت لاترفع يدك لتلزمها حدودها ؟ أنت تجعلنا نحن الرجال جميعا نبدو حمقى ، ألا تخجل من نفسك ؟ فماذا تظنون كانت اجابته ؟ .. قال : أنا أحس بالخجل يا كابتن أنا أحس فعلا بالخجل ، ولكنني .. استمتع بالضرب ! .

وضحكت النسوة .. ونهضت « رينيو » وأحضرت الطعام والشراب ، قهوة وطعاما محفوظا وبسكويتا بالسمسم ، وبينما كانت تخدم شاهدت على عتبة البيت جارهم على أغا بجواربه وابر الخياطة وحقيبته الخضراء التي أعطته أياها « رينيو » وقد وضعها فوق كتفيه .. كان أصلع - بلا شعرة واحدة - وكان يلمع من كثرة الاستحمام .. وكان قميصه الشاحب المرتق مرارا .. ناصعا ، وساقاه الرفيقتان بقبقابيهما .. تلمعان .. واستقبلته « كاترينا » في أدب وقالت :

- « مرحبا على أغا جارنا العزيز .. تعال وتناول قدحا من القهوة » ..

وأجابها على أغا وهو ينحنى لكل واحدة منهن :

- « شربتها لتوى .. شكرا ، ومعى بسكويت أيضا ومربة كريز ممتازة .. شكرا جزيلا يا سيدى » ..

وصاحت النسوة فى صوت واحد :

- « أوه .. ماذا دهاك يا على اغا ؟ أشرب قدحا آخر معنا صحبة » ..

وكن يعلمن جيدا أنه عفيف بالرغم من فقره .. كان فقيرا مثل فأر الكنيسة ، ولم يكن عنده لا قهوة ولا بسكويت ولا مربة ، ولا شىء ، كل حياته كانت جوعا فى جوع ، وكان الطعام شاغله الوحيد ، كان دائما يتحدث عن أشياء رائعة يأكلها ، وكان يتلمظ دائما وهو يتحدث ، وجذبت النسوة طرف الحديث فورا فى موضوعه المفضل .. ليتفكهن .. سألته « كيت » وهى تلقى بالكرة إلى الأخريات :

- « وأى أشياء جميلة أخرى سوف تأكلها فى الغذاء يا على أغا ؟ يعلم الله أنك ذواقة ممتاز ، وأخالك ستأكل اليوم شرائح من صدور الدجاج » ..

وابتسم على أغا فى ارتياح ، وبلل شفتيه بلسانه وغرس ابرته فى زناره ، ثم بدأ الرجل النظيف العجوز يصف فى شراهة كيف أصبح الدجاج هزيلا هذه الأيام .. وبأى شىء يتبله ، وأى « صلصة » ابتكرها .. وكيف حمرها الفرن جيدا فأصبحت فى لون بنى رائق .. تكلم .. وتكلم .. وبلل شفتيه كثيرا .. ثم تنهد :

وكانت النسوة يكتمن ضحكاتهن : يلحفن فى الأسئلة ، ثم يدعنه يستمر فى كلامه :

- ألا تكف عن أكل اللحوم والصلصات يا على أغا ؟ سوف تفسد صحتك ، تناول أيضا بعض الخضراوات من حين لآخر ، أن كثرة اللحم تضرك ..

وقالت زوجة « ماستراباس » :

- سوف أحضر لك هذا المساء طبقا من الكرنب يا جارى ؟

وسوف ترى كيف سيفيد الهضم ، فهذا الخبز الأبيض الذى تأكله لابد

أن يكون ثقيلا على المعدة .

وأضافت « بنيلوب » بسرعة :

ـ كذلك فان كثرة الكافيار يا جاري تتعب الرجل ، سوف أعطيك أنا أيضا طبقا من الزيتون المشرح ، وسوف ترى أنه أفضل ، وأنه سوف يفتح شهيتك كثيرا .

هكذا كان الرجل العجوز المتعفف الفقير مع جيرة من اليونانيين ، يعيش على مثل هذا الاحسان الممزوج بالفكاهة ، وهكذا أمضى النسوة أمسيتهن ، وعندما انتهين من تدبير عشاء « على أغا » بدأن حديثا طويلا حول بشائر الربيع في الريف .. وحول الرجال وكلهم فاسقون .. و ـ هكذا قالت زوجة « ماستراباس » وهى تتنهد ـ ولا يجدون لذة إلا فى اللحم الحرام ! أما « كاتينيستا » فقد شكت من أن زوجها يأكل كثيرا ويعلو شخيره عند النوم فيمنعها هى عنه ! .

كان « مورزوفلوس » حارس الكنيسة واقفا هناك فى برج الجرس بكنيسة « القديس ميناس » منذ وقت ليس بالقصير ، وقد وضع يديه بالقرب من أذنيه ينصت إلى طنين « ميجالوكاسترو » وكأنه صادر عن خلية نحل ، وكان فى مقدوره أن يميز صيحات الرجال الوحشية وهم ينادون على بضائعهم ، وطرقات مطارق الحدادين ، وأصوات الشحاذين وهم يغنون بطريقة تبعث على الشفقة ويدقون أبواب الدور ، والكلاب وهى تنبح ، والخيول وهى تصهل ، وذكور الماعز الصغيرة قادمة إلى « ميجالوكاسترو » فى مساء السبت لتذبح .

وفجأة أحس بالخجل لانصاته إلى هذه الأصوات والضوضاء ، فقبض على حبل الأجراس الثلاثة المعلقة فوقه وهو يقول لنفسه مدمدما : « كفى ! .. لقد حان الوقت لكي أتكلم : خمسة وسبعون سنة وأنا أستمع إليك حسبى ذلك » ..

كان من النادر أن يفتح « مورزوفلوس » ليتكلم ، فماذا لديه ليقوله ؟ فكل مالم يكن يقدر على أن يقوله كان ينطق به عن طريق أجراسه الثلاثة فهى أفواه ، ولها ألسنة .. وهى تصيح ، وسرا .. ودون أن يخبر أحدا أطلق عليها ثلاثة أسماء مسيحية : فالأوسط وهو أكبرها سماه « القديس ميناس » حامى وسيد « ميجالوكاسترو » وعلى اليمن كان « اليفتيريا »

(الحرية) وعلى اليسار كان « ثاناتوس » (الموت) وكان صوت « أى - ميناس » دائما يدق عميقا آمرا يتبعه على الفور « اليفتيريا » حاثا مستبشرا لعوبا كأنه الماء البارد ، ثم يجىء « ثاناتوس » متثاقلا شديد الوطأة ، وكانت هذه الأصوات الثلاثة تنبعث من جوف هذا الخادم الأشيب ـ لتصب فى جوف كريت وتعلن فوق أسطح الكريتيين ، وشوارع الأتراك وقصر الباشا عن الشوق إلى الانتقام وعن تحفز المظلومين المنسحقين .

كانت روح « موروزوفلوس » بأصواتها الثلاثة من الفضة والبرونز ، تجلجل فى انتصار وتبث الشجاعة فى « كاسترو » برغم عبوديتها للأتراك لتحتفل بالمهرجانات الأربعة فى السنة ، رأس السنة والفصح ، ويوم القديس ميناس (١١ نوفمبر) .. وفى المقدمة يوم القدس جورج .. يوم ميلاد ملك اليونان ..

وجلل « موروزوفلوس » خيالاته ، بأكاليل الغار ليحيى « القديس جورج » وقد وصل إلى « كريت » وهو يمتطى جوادا أبيض مطهما ، ويرتدى ثوبا وصدرية حريرية وحول وسطه حزام جلدى وغدارتان فضيتان ، وينتعل زوجا من الأحذية المنقطة أيضا « بشراريب » حمراء وخلفه على ظهر الجواد جلست فتاة صغيرة .. ابنة الملك .. الحرية ! ، وهى ابنة من أثينا ، وفى كل عام وفى الثالث والعشرين من ابريل على وجه التحديد ، يهبط القديس جورج أرض ميجالوكاسترو ويكون موروزوفلوس هو أول من يراه وهو معلق أجراسه الثلاثة كالراقص .. يراه قادما من الميناء فيحييه برقة يذهل العقل من أجراسه الثلاثة ، القديس ميناس .. والحرية .. والموت .

ولكن « موروزوفلوس » كان مكتئبا اليوم ، فاليوم هو أول ابريل ، وقد مضت خمسة وسبعون سنة ـ كيف مرت يا ترى ؟ ـ منذ أن ولد . وأحس لأول مرة أنه بدأ يكبر ويشيخ ، وخشى أن يدركه الموت دون أن يشهد يوم تحرير كريت ، ترى ايجىء أحد غيره ليدق هذه الأجراس فى مثل هذا اليوم المقدم ؟ .. أبدا .. إن روح موروزوفلوس لا تستطيع أن تتحمل ذلك .. أبدا .. حتى لو قبضنى الشيطان فسوف انطلق فى هذا اليوم من قبرى اللا متناهى العمق وسوف اتعلق بالأجراس وأبدأ الرنين .

ورطب جبهته المجعدة اليابسة الجلد ، عرق بارد ، ترى هل سينطلق فى

وقت مناسب ؟ .. وارتعشت يداه وبدأ يلهث بعنف وهو يدق أجراس المساء .

وهناك فى أسفل .. فى فناء الكابتن ميخايليس حيث كانت النسوة يثرثرن عن الرجال والنساء ، وحيث كان على أغا يشرح للنسوة اليونانيات كلمات النبى محمد .. دق جرس المساء .. وعلى الفور جمعت النسوة معا أدوات الحياكة ! .. وتوقفن عن العمل .. ورسمن علامة الصليب .. ونهضن لتمضى كل واحدة منهن إلى بيتها .. وفى كل بيت فى مساء السبت كانت توقد النيران لتدفئة المياه للاستحمام ، وكانت الفتيات الغضات يدعكن عتبات البيوت وأقدامهن عارية ، ويفركن الأفنية المتسخة ويسقين أوانى الزهور .. وكانت النسوة العجائز يأخذن المباخر من قدس الايقونة ، ليبخرن الدور ويتذكرن الموت وهن يتمتمن بعيون نصف مغلقة .

وفى هذه اللحظة التى تدق فيها الأجراس ، يدخل الأب « مانوليس » لاهثا داخل بيته ، فمنذ الصباح الباكر وهو مشغول بتوزيع البركات فى البيوت فى بداية الشهر .. وهو يزور كل البيوت المحيطة .. وبعد أن يحتسى الزبيب يتخير ألذ ما فى الأطباق من طعام التقدمة اللذيذ ويدسه فى مماحكة داخل أعماق جيبه .. وهو الآن كالمستحم فى عرقه .. ولكن مزاجه كان رائقا ، صفق بيديه وصاح « أنت يا زوجتى » ! ..

وبرزت زوجة المطران الراضية السمينة بلا أسنان فى فمها وهى تجر قدميها اللتين تشبهان جذعى شجرتين ، وتنتعل شبشبا باليا ، وكانت جميلة فى شبابها ، وكانت منشدة عظيمة ، وكان فى ذقنها تؤلول صغير يشبه حبة الزيتون سحر عينى المطران فى ذلك الزمان ! .. أما الآن فقد نما هذا التؤلول وتضخم وبرز منه شعر كثيف ، ولكن عينيها كانتا لاتزالان تشعان بتلذذ وميل للحب ! ونظرت إلى ثوب زوجها المنتفخ وقالت :

- « مرحبا ياعجوز .. هل أخلع ملابسك ؟ » ..

وفى وسط الفناء رفع الأب يديه المشعرتين فوق رأسه وقال :

- « اخلعى .. وأحضرى طبقا .... » .

وأحضرت زوجة الأب طبقا ضخما وبدأت تفرغ الجيوب التى لاتكل والتى تمتد من خصره إلى ساقيه ! .

ومضت الزوجة تعمل .. وتعمل .. تضع فى الطبق اللحوم والسجق والفطائر الملفوفة والخيار واللوز والبلح وكعك البندق والبشملة والحمص المشوى والكعك بالجبن .

ـ « أتسمعين هذا الملعون مورزوفلوس ؟ . إنه يصم آذانى .. اسرعى يا امرأة ! » ..

وامتلأ الطبق وقالت الزوجة وهى ترفع الطبق إلى صدرها فى نهم :

ـ « لقد انتهيت من خلع ملابسك ياعجوز .. والآن أسرع من أجل خير روحك ! » ..

مد الأب ساقيه .. وقد خف حمله .. ثم انطلق ليؤدى خدمة المساء ..

فى هذا الوقت كانت « كريسانتى » شقيقه « بوليكسيجس » قد عادت إلى بيتها ، والقت شالها الهندى المفضل فوق كتفيها القويتين المنحنيتين ، ووضعت نذرين صغيرين ، زجاجة نبيذ صغيرة وزجاجة زيت صغيرة داخل سلة ، وبينما كان « مانوليس » يمر بالقرب منها وجيبه لايزال منتفخا ، خرجت « كريسانتى » من الباب واتجهت إلى الكنيسة فى خطوات ثقيلة .. كانت هى الأخرى لينة رطبة رشيقة فى شبابها ، ولكنها أصبحت الآن ثقيلة العينين ، وأصبحت شفتها العليا وُذقنها وخداها تنبت شعرا طويلا كشعر الحمار ! .

ونظر الأب إلى السلة فى جشع وقال محييا : « باركك القديس ميناس يا آنسة كريسانتى » ..

ولكن الآنسة « كريسانتى » كانت تلهث تحت وطأة جسدها السمين وساقيها الثقيلتين المنتفختين ، وكانت مفاصلها الاثنتان والسبعون قد يبست ! وكان ذهنها يسرح بعيدا ، وقالت لنفسها فى صمت : « أى ـ ميناس » ها أنت ترى أننى أجىء مساء كل سبت وأحضر لك هداياك ، نبيذك وزيتك ، فهلا صنعت لى بدورك المعروف الذى سألتك أياه منذ سنين طويلة ؟ دعنى أمت قبل أخى ، إنه كريم وإذا ظل حيا بعدى فسوف يقيم لى جنازة لائقة ، بل انه سوف يجعل فى مقدمة جنازتى هذه المصابيح الكبيرة » ..

وكانت المصابيح الكبيرة قد أحضرت منذ زمن ليس بالبعيد ، من

القسطنطينية عن طريق المسئولين عن كنيسة « القديس ميناس » ، وكانت رائعة معلقة بسلاسل مفضضة مزينة بزجاج ذى ألوان عدة وحبال من الحرير الأسود ، ولم تكن تستخدم إلا فى جنازات الأثرياء فقط ، وعندما كانت « كريسانتى » صغيرة ابتهلت إلى « القديس ميناس » حتى يبعث لها بزوج طيب ، زوج وسيم ، ورجل بيت نشيط ، وأخيرا ، يمر بعد أمل وراء أمل ، ابتهلت إلى القديس ميناس أن يساعد شقيقها الكابتن « بوليكسيجيس » فى أشغاله ، فعندما كانت الأحوال هادئة ، وكان بوليكسيجيس عاطلا ، افتتح دكانا بالقرب من بوابة كانيا كان يجلب اليها النبيذ والزيت والعنب والليمون واللفت من الفلاحين ليعود فيبيعها مرة اخرى إلى تجار الجملة ، أو التجار الجشعين كماكان يدعوهم ، ويملأ صندوقه بالجنيهات التركية .. وجنيهات نابليون الذهبية .. « كن مع أخى فى تجارته أيها القديس ميناس حتى تزدهر فإذا أنت أديت لى هذه الخدمة فلن تنقطع عنك الشموع ، ولن ينقطع عنك النبيذ والزيتون ، وكل ما يحتاج إليه قديس . ولترزقنا دائما بمزيد من الطعام .. مزيد من أجود أصناف الطعام ، فهو كما تعلم شيء طيب مثل الزوج والأولاد ، يطمئن البشر ، إن على أغا على حق أيضا عندما يقول : « أنا لن أصير ضخما لا تمدد فى النهاية سمينا من أجل الديدان » .. مسكين أنت يا على أغا ! يا خادم الله ، تصوم لأنك لاتجد شيئا تأكله » ..

كانت قد كرست كل حياتها من أجل شقيقها ذاك القوى الشكيمة .. من أجله كانت تغسل وتخيط وتمسح وتطبخ .. وتحن : « ياله من رجل قوى .. وسيد حقيقى لا أحد يستطيع أن يصفه بأنه خامل الذكر لا يصلح لشيء ، أن النساء يصنعهن الرجال ، فليأخذ بحظه من المتعة ! » كانت تعيش معه وحدها ، فقد ولدا لنفس الأبوين فى اليوم نفسه واذا كانت هى تكبر سريعا فذلك لايهم على الاطلاق ـ مادام هو يظل صغيرا رشيقا ! : « نعم ، أنا سعيدة معه ـ مسكينة أنا ، أجلس من أجله طول الليل فأحس بمعنى لحياتى ، حتى ولو كنت أنام فى النهاية وحدى » .. وفى كل يوم كان يصل الى البيت فى غبش الفجر ، عائدا من جولاته ، وكانت الآنسة كريسانتى تحدق فيه فى سعادة وقد طار النوم من عينيها تنزع عنه حذاءه .. وتدفيء المياه ليغتسل .. وتعد له فنجانا من القهوة شديدة المرارة لينعشه ، وعندما تقترب منه كانت تتنشق فى اشتياق شاربه وشعره ، وتتنشق الرائحة التى

تركتها فيهما النساء ، هكذا كانت الآنسة « كريسانتى » تستمتع بالحب فى هذه الدنيا !

ولكنها فى النهاية ـ وقد كبرت فى السن وتضخمت وانتفخت ساقاها أكثر وأكثر ـ كانت تبتهل إلى « القديس ميناس » من أجل شيء واحد وهى تحضر إليه مساء كل سبت هداياها ليرضى عنها ، كانت تبتهل اليه أن يهيىء بفضل منه موتها قبل أن يموت أخوها ، حتى يستأجر فى جنازتها هذه المصابيح الكبيرة التى وصلت أخيرا ! ..

اما أخوها على الطرف الآخر من ميجالوكاسترو بالقرب من بوابة كانيا ، فقد سمع جرس المساء ، فرسم بلا تفكير علامة الصليب على صدريته الحريرية وهو لايزال يعزف على المندولين ، ثم قفز برشاقة ليغلق دكانه .

كان رجلا وسيما قوى البنية « متغندرا يرتدى دائما ملابس شاب فى العشرين ، سراويل من الصوف ، وصدرية حريرية مشغولة ، وزنارا حريريا عريضا وطماقا فى لون القشدة مما يرتديه الأتراك والكريتيون المتأنقون على السواء ..

وكان الطماق مشقوقا فى وسطه من أعلاه إلى قمته ومربوطا بأشرطة حمراء لتضفى قيمة كاملة إلى القدم الرشيقة .. وكان « بوليكسيجيس » يضع طربوشه الكبير على جانب بحيث يسقط زره فى لا مبالاة فوق كتفه الأيسر ، ثم يأخذ طريقه فى خطوات واسعة يقفز من حجر إلى حجر متجها نحو حلاقه الممتاز « بارسكيفاس » حيث كان يحلق شعره كل يوم سبت .

وكان وهو فى طريقه إلى الحلاق يتوقف باستمرار ليحيى أصدقاءه من أصحاب الدكاكين وليلقى باحدى نكاته هنا وهناك أو يشرب « الراكى » ثم يمضى فى طريقه بطربوشه المائل وخطواته الخفيفة .. ولقد كان يستمتع باحساسه بجسده الطافح بالقوة ، وبأن كل أعضائه الداخلية تعمل مثل الساعة ، وكان يستمتع أيضا بأن شيئا فى الدنيا لا يشغل باله ، لقد قرأ يوما فى كتيب شيئا أثر فى نفسه تأثيرا كبيرا ، « كاناريس » المحارب من أجل الحرية : سئل ذات يوم كيف أمكنه أن يحقق كل هذه الأعمال البطولية ؟ فأجاب ذلك الصياد .. وقائد السفن المريبة بقوله : « يا أولادى ، لقد كنت دائما أقول لنفسى : كونستانتس لابد أنك ستموت يوما ما .. ومنذ ذاك اليوم والكابتن « بوليكيجيس » يميل طربوشه إلى جانب وسواء

أكان فى حرب أو فى حفل كان دائما يقول لنفسه : « بوليكسيجس » لابد أنك ستموت يوما ما ، ومن ثم فقد كان دائما أول من يخطو للأمام ، ولقد صاحب العمال ، فهم الذين بنوا له نصبا ذا حجرات من الحجارة والرخام ، فى ساحة الكنيسة ، قبوا تحت الأرض زوده بأرفف ووسائد ، ومائدة منخفضة فى الوسط ، ودولاب غائر فى الحائط ملىء بالزجاجات والأكواب ، وكان حين يدعوه مزاجه ، يملأ سلة بكل مالذ وطاب ويصطحب معه بعض أصدقائه ذوى الجسارة فيذهبون جميعا إلى هذا النصب ، وهناك يبدأون فى الشرب بشراهة ، ويتكلمون عن الحرب والمرأة والموت .

وهكذا .. كان الكابتن « بوليكسيجيس » يمضى فى طريقه ، وريشتان حمراوان تزوقان صدغيه ، متوقعا أن يقضى أمسية ممتعة ، لم تكن هناك ورقة شجر واحدة تتحرك ، ومن صحون الدور كانت تهب رائحة ورود ابريل ، وكانت الميازيب رطبة والأرض ذكية الرائحة ، ولكن ذلك كله لم يكن يكفى « بوليكسيجيس » ان هى الا لحظات حتى يعمل السنيور براسكيفاس فى ذقنه رغاوى الصابون ، ويحلق ويلمع شعره بزيت عطرى ، وبعدها يخرج « بوليكسيجس » من دكانه فلا يكاد يعرفه أحد فسوف ينقلب إلى صبى فى العشرين ! .. ثم بعدها يستدير ليدخل فى أزقة مظلمة ليمر على أصدقائه المرحين وعلى صديقاته العاهرات ..

تنهد الكابتن « بوليكسيجس » وهو يقول لنفسه : « آه .. لو كان هناك إله .. فليضع الآن معجزة .. فأنا أريدها الآن .. فأنا الآن فى عنفوانى .. والآن هو وقت المعجزة ! من سنوات قليلة مضت كنت مهرجا لا أفهم شيئا ، وكيف كان لى أن أدرك ماتعنيه النساء والخمر والحرب ؟ وبعد سنوات قليلة قادمة أكون قد انتهيت تقريبا .. فكيف أستطيع الاستمتاع بالدنيا وليس لى أسنان أو لدى شهية ؟ لسوف أمضى .. أتطلع إلى النساء وأتحدث مثل الثعلب عن عناقيد العنب .. أعتقد أن القديس جورج هو القديس الذى يفهمنى أكثر من غيره .. أنا أعجب بك دائما فوق الأيقونة ، أعجب بطريقة ركوبك صهوة جوادك ، وامرأة تجلس خلفك ، أيها القديس جورج يا قديسى يا بن عمى ، ساعدنى ولا تخف ...

قال ذلك .. ودفع طربوشه إلى جبهته واستدار فى الشارع الرئيسى .. كان الشارع العريض واحدا من شارعين رئيسيين فى « ميجالوكاسترو » . وكان يمتد من بوابة « كانيا » فى الغرب حتى بوابة المستشفى حيث

الميدان الفسيح : ميدان السراديب الثلاثة وحدائق الباشا ، وهناك ، تحت عدد من الأشجار المتربة ، كان يقوم « كشك » خشبى تعزف الموسيقى فيه كل يوم جمعة فرقة موسيقية عسكرية ، أما الشارع الرئيسى الثانى فقد كان يمتد من البوابة الجديدة حتى الميناء ، وحيث كان الشارعان يتقابلان كان هناك الميدان الرئيسى ، قلب المدينة ، وفى الشارع العريض كانت تقوم محال الاسكافية ومحال الزجاج والصينى ، والمخازن ، ومقاهى اليونانيين ومحال البقالة ، ومن داخل هذه المحال كانت تتناهى دائما أصوات المناقشات العالية ، أصحاب محال ، مساعدون وعمال تحت التمرين ، وفكاهات ، كلهم يتبادلون المزاح ويثرثرون ويطلقون الضحكات المرتفعة ، ويشيرون ساخرين إذا مر أفندينا أو شخص مقوس القدمين أو أحول العينين أو مخلوق يساعد على السخرية ، ولحظتها كان الاسكافية يدقون فى آن واحد فوق قوالب الأحذية ، وكان المساعدون والعمال يطلقون الصفير .. ويقذفون قشر الليمون والطماطم المعفنة .. !

ومساء كل سبت ، كان الحب يشيع فى الجو ! .. واليوم ، كما هو المألوف ، كان الشارع العريض يعج بالحركة . فقد كانت أجراس المساء قد أحالته إلى ضوضاء عارمة .. وكان الأسبوع قد انتهى والحمد لله ، ونزع صبية البقالين وعمال الدكاكين ميادعهم (مرايلهم) وانحنوا على الميازيب لكى يغسلوا محالهم .. كما اغتسلوا هم أنفسهم « وتهندموا » وبرموا شواربهم وأخرجوا المقاعد وجلسوا فوقها وهم يشربون القهوة كما يحبونها .. ويدخنون النرجيلة ، وفى هذه الأثناء كانت المرأة البربرية « راشينى » تمر بالشارع ، جبلا من السواد ، وجسدا لامعا بقلادة من خرزات زجاجية غليظة من هذا النوع الذى يوضع حول أعناق الجياد ، وبصدر متدل يكاد أن يصل إلى بطنها ، وضحكة ودودة وعينين خبيثتين ، وأسنان لامعة ، وفوق رأسها طبق من الكعك بالسمسم ، ثم هاهو ذا « تولوباناس » يقوم من اتجاه نافورة « ايدومينياس » وعلى كلتا يديه صينية احداهما ملأى بفطائر السبانخ والأخرى بالكعك الممزوج بالسمسم والقرفة الشارع لم يعد الشارع العريض ! .. فقد تحول الى منزل كبير مسكون امتلأ عن آخره بالظرفاء .

وتأمل الكابتن « بوليكسيجس » لحظة ، وأحس بالفخر وهو يرى هذا الشارع اليونانى الزاخر بالمحال والبضائع وليس فيه تركى واحد ، فالهواء

نقى ، والكريتيون يضحكون ويمزحون بينما دقات الجرس لاتزال دائبة ، هذه هى الجنة ، لا شىء ينقصها سوى العلم ، ولكن هذا آت .. ونحن الكريتيين سنحقق وجوده .. هكذا كان يقول لنفسه وهو يسير ويلقى بالتحية يمينا ويسارا قبل أن يدلف إلى دكان الحلاق .

كانت الظلال تمتد .. وكان المؤذن قد صعد إلى مئذنته يدعو المؤمنين إلى صلاة العصر ، ولكنه قبل أن يقرر اطلاق صوته فى السماء .. تمهل لحظة .. ولف القماشة الخضراء حول غطاء الرأس الأبيض الذى يضعه فوق رأسه .. وألقى ببصره حوله .. وغمغم .. قائلا :

« ياالله يا الله مهما حاول الانسان فلن يستطيع أبدا ان يملأ الأعين التى منحتها له حين ينظر إلى الدنيا » ..

وانحنى على شرفة المئذنة .. وتهلل لمرأى « ميجالوكاسترو » كيف تمتد تحته كثيرة الألوان عديدة الأصوات بمآذنها البيضاء وقباب قديسيها المعدنية ، وبعلم الرسول (صلى الله عليه وسلم) وبحدائق الباشا ، وغلبه الاحساس بالجمال الفائق .. فتنهد .

« السعادة تفيض على الجميع .. الجميع .. الجميع ! .. النساء هناك ، والشباب الوسيم مثل نورى وعندما أراه مندفعا كالعاصفة فوق جواده أعود إلى العشرين .. هناك أيضا شباب ناعم مثل رقائق الخبز الصغيرة يغنون فى المقاهى فى المساء ، فتحس بالدوار فلا تدرى إلى أين تذهب لكى تشكر الله .. إلى المسجد أم إلى المقهى ! وبحق الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) ان الرائحة نفسها لتفتننى ، وعندما أذهب إلى بوابة المستشفى واتنفس بعمق روث حميرنا الكريتية الصغيرة ، يصبح قلبى حديقة السماء أنى لا أعدل بهذه الرائحة الميجالوكاسترونية ! .. كل روائح الدنيا الزكية .. بالنسبة للآخرين قد تكون رائحة نتنة .. ولكنها تمتعنى ! » ..

قال ذلك .. ثم تنفس بعمق .. ووضع يديه فوق أذنيه .. وفجأة ، ومن أعماق جسده ، دوى صوته كالرعد عميقا .. صافيا ، حاملا كل الحب والدعاء فى أقوى صوره ، أى عذوبة فى هذا الصوت ، وأى قوى ! ، وكيف استطاع هذا الصوت أن يغطى على كل أجراس مورزوفلوس ! .. لقد ارتفع على الشمس بقمة أصدائه واقتحم السماء داعيا الله ثم هبط فجأة فوق ميجالوكاسترو مثل البرق الخاطف منتشيا باسم الله .

وفى اللحظة التى كان المؤذن يمتدح فيها « نورى » فى اعجاب شديد ، كان « نورى » عائدا من اقطاعيته وقد غمرته الكآبة .. كان قد ذهب إلى هناك ليخلع ملابسه ، ولكن الخجل كان لايزال عالقا بوجهه وعنقه ويثقل على صدره ويحرقه بلهيبه ، وكان جواده ينفث من فمه الزبد الأخضر فقد كان الأمر فى ذلك اليوم سيئا حتى بالنسبة لجواده ، كانت ركبه متهالكة .. وكان يتعثر فى ركضه ، وكان البحر قد توهجت صفحته وعلاه الزبد وارتفعت صفحته ، ولكن نسمة واحدة لم تكن تهب ، وعبر نهر « جوفيرو » .. وكانت بشائر أوراق الشجر قد بدأت تنبت فى فروع ا لكروم ، وكانت أشجار اللوز قد بدأت تزهر ، وأشجار التين تعبق الجو برائحتها .

ودمدم « نورى » :

- « لاشىء .. لا شىء يستطيع أن يهدئنى لعن الله البحر .. والشجر .. والشمس ! » ..

وأمام ناظره ارتسمت مرة أخرى صورة الكابتن ميخايليس تماما حيث مد اصبعيه الى الزجاجة ، وسمع صوت تكسر الزجاج .. ورأى « أمينة » ترتمى على عنق الكابتن ، فصاح فى ضراوة :
- « العار لى ! أجدر بالأرض أن تنشق فتبتلعنى . اى شىء أريده من الحياة مادمت لم أعد أفضل الرجال هنا ؟ .. اللعنة على ذلك كله ! » ..

ومضى فى طريقه .. ولاتزال ليلة الأمس بطولها فى مخيلته .. كم كانت ليلة مضطربة وكم أسرف فى الشراب حتى انتهى به الحال إلى أن تمدد على عتبة بيته وقد أعماه السكر .. فوق الروث ثم تذكر ، لقد غلبه النوم النوم الذى ملأه الصراع الوحشى .. والنباح ! من ذلك الذى جاءه فى نومه ونادى عليه ؟ عندما جاءه خادمه البربرى فى الصباح .. واغتسل .. تحول الحلم إلى دخان .. واختفى كل شىء .. ولكن سكينا ظلت مغروسة فى قلبه ..

واليوم ركض بجواده عبر مدافن الأتراك ، حيث تنتصب شواهد القبور بالكلمات المنقوشة عليها والعمائم الحجرية الملونة مثل اشخاص من الرخام انشقت عنها الأرض من تناضل من أجل الخلاص ومن أجل أن تبتعد عن هذه النصب وتعود إلى بيوتها فى ميجالوكاسترو .

وحاول أن يميز قبر أبيه هناك فى الركن بعيدا عن البحر وبين شجرتى السرو ، ولكن عندما عثر عليه بدأ جسده يختلج ، خيل إليه أن العمامة الحجرية قد تحركت الى الخلف تماما مثلما كان يفعل « هانى على » الأعمى بعمامته .. عندما يستبد به السخط ، ودارت به الدنيا .. وأحس بالدوار .. وتعثر جواده بقبر من القبور فجذب نورى بك ناصيته حتى لا يسقط فوق الأرض وتشبث بالعنان فتراجع الجواد المعتز بنفسه وهو يرتعش .. فقد كان ذلك أول يوم يتعثر فيه الجواد .. أول يوم منذ ستين طويلة . فأل سيىء ! ! ..

وصرخ البك .. وأراد أن يترجل ليركع على قدميه أمام قبر أبيه ، ولكنه كان يخاف الموتى ، تسلل الخوف إلى قلبه مثل برق خاطف ، وتذكر حلم الليلة الماضية ، كان أبوه يقف فوق وساد مشعث الشعر .. قذرا .. عارى القدمين ، وهو الذى لم يتنازل يوما ويلمس الأرض بقدميه ! .. ورفع يده الطويلة المسودة وقال فى صوت كالرعد : « كم من السنين ظللت أحوم حولك أيها القصر الملعون ؟ .. منذ سنة ١٨٦٦ فلتعدهم ! .. ثلاثة وعشرون عاما ! وكنت أظن أن ولدى .. ولدى الوحيد سوف يظل يفكر فى ليله ونهاره ويشحذ سكينه لينتقم لدمى ، إنما لأطوف ببيتك البائس ، فلا أسمع سوى الضحكات والماندولين والأغنيات ، وأنت هجرتنى .. هجرتنى لتتسكع جيئة وذهابا فى الشوارع والحقول ! لماذا إذن ننجب الأبناء ؟ لكى ينتقموا لدمائنا ! بينما أنت لا تخجل من أن تكون أخا فى الدم لشقيق قاتلى ! بل أنك لتسمح له برؤية زوجتك بدون حجاب ! اللعنة عليك أيها الكافر وعندما سمع نورى تلك اللعنة الثقيلة غلبه الغضب ، وود لو صاح : « ماذا أيها العجوز .. ألا زلت مصرا على متابعة اصدار الأوامر لى حتى وأنت فى قبرك ؟ » .. ولكن الكلمات توقفت فى حلقه ، فضغط بقدميه جبنى الجواد ، ولم تكن الشمس قد غربت بعد ، فعاد عن طريق بوابة كانيا واندفع داخل الحى اليونانى ..

وفى نفس اللحظة وصل الكابتن ميخايليس إلى بوابة المستشفى على الطرف الآخر من « ميجالوكاسترو » وكان قد حث جواده بأقصى ما يستطيع من جهد ، وكانت الشمس قد غربت لتوها وان كانت لاتزال تلقى بآخر أشعتها فوق بوابة القلعة ، ومن بعيد ، كان فى مقدوره أن يرى المجذومين ينهضون كعادتهم بعد أن ظلوا طوال النهار مستلقين على يمين

البوابة ويسارها فوق التراب والروث وقد بسطوا أطراف أذرعهم يتسولون ، وفى الغروب كان عملهم اليومى ينتهى ، فيقفون ويتحركون فى صف واحد وراء أحدهم الآخر متجهين صوب « ميسكينيا » قرية المجذومين ولم يكن أحدهم ينظر إلى الآخر ، بل كانوا يتدافعون متتابعين دون أن ينطق أحدهم بكلمة ، كانت خدودهم متآكلة وأنوفهم وآذانهم غير موجودة ، وكان كثيرون منهم عميا ، وكان بعضهم يبدون كمن يبتسمون لأنهم بلا شفاة ، وبالتالى فان أسنانهم كانت ظاهرة على الدوام ، كلهم كانوا يركضون كما لو أن يوم الدينونة قد بدأ وكما لو كانوا قد سمعوا طبول الملاك ، أو كما لو كانت الأرض قد انشقت عنهم فخرجوا بعد أن نسوا أجزاء من أجسادهم فى عجلتهم !

وأدار الكابتن ميخاليليس وجهه بعيدا فقد كان يكره منظر المرضى ، وكان يقول دائما : « الأصحاء فقط هم الذين ينبغى أن يعيشوا ، أى فائدة لمثل هؤلاء ! » .. ثم لكز جواده وعبر بوابة القلعة فى اللحظة التى بدأ فيها الحارس العسكرى يدق طبلته فى نوبة الغروب .. والعلم التركى ينزل من فوق ساريته ..

الفصل الثالث

الليلة .. تلك الليلة .. هبطت ثقيلة فوق المدينة ، كان الجو ساكنا ولم يستطع الكابتن ميخايليس النوم ، فقد كانت الرطوبة شديدة.. وفتح سكان « ميجالوكاسترو » رجالا ونساء نوافذهم وخرجوا إلى افنية دورهم وفكوا ازرار أردية نومهم طلبا لنسمات الهواء .. وأحست بعض العجائز من النسوة كأن كارثة توشك أن تحل ، فجلسن على عتبات بيوتهن ، ولكنهن لم يجرؤن على فتح أفواههن حتى لا يفضحن أفكارهن ! كن خائفات من ان قدر « ميجالوكاسترو » الشرير قد يسمعهن ويحقق ماكن يتصورن انه لم يتقرر بعد نهائيا .. وهكذا كن يهمسن مع إحداهن الأخرى ويحاولن أن يظل الحديث المتناثر قائما ـ وإن كان حديثهن برغم ذلك يعود إلى القلق الخفى الذى لا يمكن التصريح به : « هل تذكرن المرة الأخيرة ؟ لم تكن هناك ورقة شجر واحدة تتحرك » « هدوءا ! » « ألا تسمعن الطنين تحت أقدامكن ؟ » ، « هدوءا ! » .

وعدن فحبسن أنفسهن داخل أرواحهن وترقبن مطلع النهار ثم برزت الشمس من خلف جبال « لاسيثى » معتمة ساخطة تحجبها مزق من السحائب النحاسية اللون ، وتوهجت المآذن ، وتوردت صفحة البحر ، ودق « مورزوفلوس » الأجراس الثلاثة ، واستيقظ الحى اليونانى من سباته ، وفتحت الأبواب وخرج سكان البيوت ، اغتسلوا جميعا وارتدوا سترات وقمصان أيام الآحاد ذات الياقات : الزوج والزوجة وخلفهما الحماة وأمامهما الأولاد، الصبية يمسكون بمناديل بيضاء مطوية ، والفتيات يضعن مشابك فى أوشحة أعناقهن .

كانوا جميعا فى طريقهم لكى يقدموا مظاهر التشريف للقديس الراكب « أى ميناس » وليستمعوا إلى خطاب المطران ويتزودوا بالغذاء بين يديه ،

كان اليوم يوم الأحد ، ولم تكن هناك مشاغل ، فالمحال مغلقة ، والشيطان ـ التاجر الأكبر ـ نائم طيلة يوم كامل ، ومن ثم فالناس سعداء بأن يتلقوا كلمة الرب ـ فذلك لم يكن ليكلفهم شيئا ، ولم يكن أحدهم ليفقد شيئا إذا هو فعل ذلك ، وغدا سيكون هناك ـ كالمعتاد ـ وزن وقياس ومساومة ، وسيحاول كل واحد منهم أن يلتهم الآخر ، ستة أيام للشيطان .. ويوم واحد للرب ! : اشعل المصابيح للاثنين ، وسوف يكون كل شيء بعدها على مايرام !

كانت الكنيسة تتلألأ مثل سماء زاهرة بالنجوم ، وتفوح منها رائحة القناديل والبخور ويشيع فيها الدفء ويعلو طنين كأنه صادر عن خلية نحل .. طنين ملائكة وقديسين وبشر . ولم يكن هناك مكان لكل المسيحيين المؤمنين ـ فقد وقف كثيرون منهم في الممرات ، ووقف المطران البدين بالقرب من عرشه بجسده العملاق ولحيته البيضاء الثلجية وصليبه الذهبي وتاج الأسقفية الملوكي ، وكأنه وحش مفزع هبط من السماء إلى الأرض ليطرح الناس أرضا ويدخل في قلوبهم الذعر .

وعلى باب التماثيل وقف الأب « مانوليس » بملامحه الهادئة وملابسه المذهبة ، يرتل الانجيل في ذات اللحظة التي فتح فيها « كاجابيس » باب بيته ليلحق بالكنيسة هو وزوجته ، وكان زفافهما قد تم يوم الأحد الماضي ومن ثم فقد كان عليهما ـ حسب التقاليد ـ أن يؤما الكنيسة لمدة ثمانية أيام وهما بملابس الزفاف ليبتهلا ، إلى القديس « ميناس » حامي البلاد ، وليقدما له كعكا كبير الحجم ممزوجا بالقرفة والمصطكي والسكر .

كان بيتهما الصغير قريبا من الميناء ، تماما حيث يبدأ الحي اليهودي . وداخل أزقة ضيقة متعرجة ابتليت بالرياح الحارة وهواء البحر المضني .. تعلقت « جاروفاليا » بذراع زوجها ، وسار الاثنان في بطء واعتزاز ويستقبلان معا في ود عالم الزواج الحديث . كم تشع هذه الشوارع المثقلة بالريحان ، وما أعذب ما تشيعه من رائحة ! وما أحلى ما تبتسم هذه الصخور ! وما أروع ما اقتربت الدنيا ـ برغم كل شيء ـ من « جو » الزواج ! نعم ، فهذه بعض شجيرات الشوك في سور إحدى الحدائق .. وقد ازهرت ! .... أكانت هذه هي « ميجالوكاسترو » التي يستعبدها الأتراك ؟ أكانت هذه هي أزقة الحي الفقير وروائح نفاياتها ؟ .. أكان هذا هو البحر الكريتي المهيأ دائما لأن يعامل الرجال في وحشية وبعيدا تماما عن كل

معانى الرقة ؟ ، رفعت « جاروفاليا » خلسة .. عينيها الناعستين ، وحدقت فى زوجها : « يا إلهى .. أى معنى لكل هذه الأحاديث التى يلقيها القساوسة ؟ .. الجنة هنا يارجلى الطيب ، يا إلهى ، أنا لا أبغى جنة أخرى سواه ! » ..

وكانا قد وصلا إلى ميدان السوق قبل أن يقتحما الشارع المؤدى إلى الكنيسة .. واستدار « كاجابيس » ونظر إلى زوجته وقلبه مفعم بالسعادة ، وخيل إليه فجأة كأن العالم لم يعد موجودا وأنه لم يبق فى كل زحام هذه الحياة سوى هذه المخلوقة التى تسير إلى جواره دافئة معطرة محبوكا حول جسدها هذا المشلح وهذه التنورة المليئان بالأزرار والأشرطة الملونة ، وفمها الطيب الرائحة فى عذوبة ودفء .. لقد كان القلق يستبد به منذ الليلة قبل الماضية ، عندما قيل له إن عليه أن يتوجه إلى بيت الكابتن ميخايليس بعد ثمانية أيام فقط مع زوجته ، وأحس بالغضب ، وتوقف عن السير عند السوق ، ماذا ترى يهمه من « أى ميناس » قديس « ميجالوكاسترو » بعاداته المحلية وهو الرجل الغليظ القادم من « سفاكيا » ؟ ولماذا يضيع وقته داخل الكنيسة بدلا من أن يعود إلى بيته بأسرع ما يستطيع ؟ إنهما حديثا الزواج ، وسيغفر الله لهما .. لم يعد أمامه غير وقت قصير ، فلابد أن « الكابتن ميخايليس » ـ هذا الوحش الضارى ـ فى انتظاره الآن فى قبو بيته ، وسأل زوجته :

ـ « مارايك فى أن نعود يازوجتى إلى بيتنا الصغير ؟ » .

وحبس أنفاسه يترقب .. واحمر وجه المرأة وارتعش جفناها ، ثم أجابته بعينين مسبلتين :

ـ « الأمر أمرك يا صغيرى يا نيس » ..

ثم استدار فى لهفة وكأن أحدا يقتفى أثرهما وعبرا السوق فى سرعة ، وسارا مخلفين وراءهما الشجرة العارية وقصر الباشا ثم دخلا زقاقا ضيقا حتى وصلا إلى الميناء ، وفتح « كاجابيس » الباب بركلة من قدمه ، ودخل الاثنان البيت ، وأغلقا الباب بالمزلاج .. وقذفا نفسيهما فوق الفراش .

فى تلك اللحظات ، كان « الكابتن ميخايليس » يجلس فى القبو فى غبش الفجر وإلى يمينه ثلاث « براميل » ملأى بالخمور تستقر فوق عارضتين

متينتين ، وإلى يساره إناءان أحدهما ملىء بالزيت والثانى بالدقيق ، وفوق رأسه تدلت صفوف من التين والرمان والسفرجل والشمام الشتوى الأصفر المعروف باللون الأخضر .. وعلى الحائط علقت حزم من الأوانى المصنوعة من أعشاب المريمية والحبق .. وكانت رائحة النبيذ والسفرجل تعبق جو القبو .. ولكن ما أسرع ما ستغطى عليها رائحة الدجاج الساخن وسمك « أم الحبر » والمقانق (السجق) .

جلس الكابتن ميخايليس فوق مقعد مرتفع ، وقد أسند إلى الحائط رأسه الثقيل وقد عصبه فى إحكام بقماش داكن ، وحدق بعينيه فى الباب المنخفض القائم فى مواجهته دون أن ينظر إلى شىء بعينه ، ولم يكن كذلك يفكر فى شىء ، جلس دون حراك ، وإن كان من حين لآخر يضغط بمخالب يده حافة المائدة أمامه فيحنى خشبها .

كان ذهنه ساكنا ، ثقيلا ، ولكن قلبه كان يدق فى عنف ، لقد كانت الحياة كريمة معه ، ولم يكن يفتقر فيها إلى شىء كان رجلا قويا صحيح البدن ، له زوجة طيبة وأسرة .. وكانت الدنيا تكن له كل التقدير وكان ابنه مثله تماما ـ يخشى الموت ـ فإذا مات هو فسوف يمضى ابنه على دربه وكان لابنه ـ مثله تماما ـ علامة فوق عنقه ، وحاجبان غليظان كثيفان ، وعينان صغيرتان شديدتا السواد ، فما بال قلبه إذن ؟ .. وأى شيطان هذا الذى يجعله يضطرب هكذا ؟ لم يكن يحس بالسرور ، ولم يكن يقدر حتى على الابتسام أو على أن تبدر عنه فكاهة أو كلمة ودودة تريحه حين تجرى على شفتيه ، فهو متحفظ دائما .. قليل الكلام .. عنيف .. زاره يوما وفى قريته الرجل طيب القلب « مانولاكيس » الخياط ، وقال شيئا وضحك ، ولحظتها قطب « الكابتن ميخايليس » جبينه وعبس ، فكأنما شل « مانولاكيس » المسكين الذى مالبث أن نهض وغادر البيت ، وبعدها استدار « الكابتن ميخايليس » نحو ابنه وقال فى اسلوب مهين : « انه لا يخجل ! .. إنه يضحك ! » ..

ولقد كان يقول لنفسه أحيانا ، « عندما تتحرر كريت ، فسوف يتحرر قلبى أيضا عندما تتحرر كريت فسوف أضحك » ومنذ وقت ليس بالطويل كان يراوده حلم كأنه الحقيقة بعينها : سمع الأجراس تدق لأن كريت نالت حريتها ، ورأى الشوارع وقد غطيت بالغار والريحان ، وسفينة حربية بيضاء ألقت مراسيها فى الميناء ، ومن السفينة خرج ابن الملك قادما من

أثينا ، وقفز إلى المرسى ثم انحنى يقبل تربة كريت ، وعلى الرصيف كان هو نفسه ـ الكابتن ميخايليس ـ يقف ممسكا بمفاتيح « ميجالوكاسترو » فوق طبق فضي ليسلمها لابن الملك ، كريت تحررت ، تحررت ـ ولكن قلبه لم يتحرر بعد .

ودمدم في غضب : « ماذا دهاني بحق الشيطان ! بل ماذا ينقصني بحق الشيطان ؟ ! .. سوف أسقط على أم راسي ولاشك ! » ..

وغلى الدم في عروقه وخيل اليه أن مخه قد تضخم ، واحمرت عيناه ، لقد نهضت كريت ثم سقطت في أعماقه لم تعد بعد جزيرة .. وإنما أصبحت وحشا مفترسا يحدق في البحر ـ أصبحت « جورجون » شقيقة الاسكندر الأكبر ، وكانت تنتحب وتضرب الماء بذيلها الذى مثل ذيل السمكة .. وتثير مياه البحر ، وعندما تناهى صوت نحيبها إلى سمع « الكابتن ميخايليس » سرت رعشة في رأسه فما لبثت أن بدلت من صورتها فتحولت إلى شجرة عارية ضاربة جذورها في أعماقه تغتذى من أعضائه الحيوية ، ومن أغصان هذه الشجرة تدلى الأسلاف بشعرهم الأشيب وأقدامهم العارية وقد اكتست وجوههم بالزرقة وأخذوا يعضون على السنتهم .. بينما ريح عاتية تقول وتئن .. وعندما بسط الكابتن ميخايليس ذراعيه ليصلي من أجل هؤلاء الأسلاف .. اختفى كل شيء وعادت مخيلته فارغة .. ولم يعد باقيا سوى قنديل بزجاجه الأحمر الأخضر ، وتحته « نورى بك » وشراب الليمون وطائر القطاة المطبوخ ثم .. ضحكات مكتومة .. وامرأتان شركسيتان .

وقفز الكابتن ميخايليس واقفا ، وضرب الحائط بقبضته في عنف حتى لقد ارتج البيت ، ورفع بصره إلى الباب المنخفض ، وفجأة ، بدأ يغضب ويلعن لأن رفاقه البشوشين قد تأخروا .

وفي اللحظة التي كان الكابتن ميخايليس يضرب فيها الحائط بقبضته ، كان هؤلاء الرفاق ينطلقون من أركان « ميجالوكاسترو » الأربعة . كان أول من استيقظ منهم في الصباح الباكر .. « فيندوسوس » صاحب الحانة الذى رسم علامة الصليب ووقف أمام الأيقونة ذات المصباح الموقد أبدا وهو يصلي لحاميته عذراء حقول الكروم المقدسة ، حتى تمنحه القوة على الاحتمال ، كان في طريقه إلى المبارزة الكبرى ، المبارزة التى ستستمر ثمانية أيام بلياليها .. من الأحد إلى الأحد ، وإذا لم تساعده العذراء

فسوف تكون أياما وليالى ضائعة .. ومنذ سنوات قليلة مضت عهد إلى الراهب « نيكوديموس » بأن يصنع له عذراء .. لا كما يصورها الرسامون كأم .. ولكن كما رآها هونفسه فى الحلم : امرأة مثل النساء اللائى يجمعن الكروم فى شهر أغسطس مجنونة بالرجال ، غليظة الشفتين تعصب رأسها بعصابة كريتية ، وتحمل فوق ذراعيها ـ بدلا من الطفل ـ عناقيد عنب ، ولقد رفض الراهب فى البداية ، وقال إن أمرا كهذا لم تنص عليه الكتب المقدسة وان ذلك سيكون خطيئة ولاشك ، فلابد لها أن تحمل المسيح فوق ذراعيها ، وليس حزمة من عناقيد العنب ، ولكن « ڤيندوسوس » نفحه بزجاجة من الزبيب ، وبضع أوقيات من سمك « البكالاه » فهدأت نفس الراهب ، ورسم علامة الصليب ، وتناول الفرشاة وسم الأم المقدسة أم الكروم المقدسة .

وقف « ڤيندوسوس » أمام صورتها وقد ارتدى جواربه ولما يضع قدميه بعد فى الحذاء .. وقال :

ـ « سيدتى .. سيدة حقول الكروم التى تحرس الحانات وأصحاب الحانات ، تحياتى اليك ، أنا ماض الآن ، ماض إلى قبو الكابتن ميخايليس ، وأنت تعلمين جيدا ماذا يعنيه ذلك ، أنا محتاج إلى مساعدتك ! أنت تعرفين أننى قدمت النقود والبكالاه والزبيب من أجل أن صورتك ، ساعدينى ! ساعدينى على أن أحتمل وإلا أسكر هذه المرة فينقلب حالى وأحيل الجدران إلى فوضى شاملة . وأسألك أيضا يا سيدتى أن تطامينى من حدة هذا الوحش الذى لا ينضبط ، الكابتن ميخايليس ، حتى يسمح لنا بالخروج بسرعة ، إن ثمانية أيام بلياليها شىء كثير ، أيتها العذراء المقدسة .. شىء كثير ! » ..

واغتسل وأرتدى ملابسه وتناول ڤيثارته من أمام الايقونة وخرج إلى صحن البيت وودع زوجته وابنتيه وطلب منهم أن يذهبوا إليه كل يومين ليطمئنوا على ما يحدث هناك ، ثم ترك معهم نقودا ليشتروا طعاما يكفيهم الأسبوع كاملا ، وأخبر ابنته الكبرى التى كانت تحسن الكتابة لأنها كانت مدرسة ، بأن تكتب له على ورقة كل ما ينبغى أن يقوله ، ثم وضع الورقة فى جيبه وأجال بصره حوله فى أرجاء البيت وكأنما يودعه .. ورسم علامة الصليب .. واجتاز عتبة البيت .

اتجه أولا إلى الحانة وأخرج من جيبه الورقة وثبتها فوق الباب حتى يراها الناس : « صاحب الحانة مضطر إلى أن يتغيب ثمانية أيام فى بعض شئونه الخاصة ، وبعدها أحس بشىء من الراحة ، فانطلق مسرعا إلى بيت الكابتن ميخايليس سوف يصل متأخرا ، ولن يبدى التنين ملاحظة حول تأخيره ، ولكنه فقط سيقطب جبينه .. وذلك وحده يكفى !

وعندما مر بحذاء بيت شقيقه الأكبر تاجر الجملة ، اغذ السير : « لا ينبغى أن يقع بصره على فسوف يشك فى أننى ذاهب إلى هناك ، وسوف أتعرض لمزيد من التعنيف ، إلى الجحيم هذا الحمار العجوز ! » ومسح بيه انفه الذى يشبه الخيارة والذى ينمو كل شهر قطعة حتى لقد أدرك الآن فمه ! وعاد يغمغم « آه ! .. فليذهب إلى الجحيم ! ، إنه يطيب له دائما أن يمنحنى الدروس ، أليس كذلك ! ولكنى أول أمس أعطيته كل ماقدرت عليه ! أنا أعرف ماذا ينتابنى ـ واللعنة على ذلك كله ـ وأنا أدور وأقوم وانحدر بين الجدران عندما جاء رب العائلة السمين هذا ، ورفع عقيرته خارج بيته هذا الأنيق الملعون وقال : أيها المخروب مانوليس ! ألم تكتف بعد ؟ ألا تكف عن الشرب .. الشرب ؟ .. ووقفت أنا لحظتها فى مواجهته قريبا من الحائط .. وقفت مثل الشمعة المنتصبة وفتحت فمى الصغير وقلت له : وأنت يا تاجر الجملة ألم تكتف بعد ؟ .. ألا تكف عن عدم الشرب .. وعدم الشرب ؟ .. ولحظتها توقف رجل أو رجلان كانا يسيران .. توقفا وضحكا فى صوت مرتفع ، أما هذا الحمار العجوز ـ فقد اختفى .. اختفى ! » ..

ومضى فيندوسوس فى طريقه يحدث نفسه : كانت مشيئة الله ، لقد ولدت يوم الجمعة الطيبة وكان أبى قسيسا ، وأريد لى أن أكون قسيسا مثله ولو ليوم واحد (والشيطان له أرجل كثيرة) ولكن كيف كان لى أن أظل جامدا فى المدرسة ، وكيف كان لى أن أسلم عنقى للعبودية ؟ فمنذ كنت طفلا صغيرا وأنا أعزف على القيثارة فتسمعنى حتى الأحجار .. وترقص .. وحيثما كانت تجرى احتفالات أو مجالس أنس ، كنت أوجد أنا .. وكنت أبقى ، ولم يكن أحد يستطيع أن يبعدنى عنها ، ومن أجل ذلك اسمونى (فيندوسوس الحاذق) وشيئا فشيئا تعودت على أن اشرب بحرية ولم أعد أستطيع أن أعيش بدون رائحة الخمر ، ومن ثم فقد انشأت الحانة وطلبت أن ترسم لى العذراء المقدسة التى تناسبنى ، والتى لا مثيل لها عند مخلوق فى العالم المسيحى كله ! وعندما أناديها تلبى ، ولا تشغل نفسها بأن تجرى هنا وهناك فى أمور شاذة مختلفة ، فهى لاتفارقنى وتجيب أملى فى

الساعة التى أحتاج فيها إليها ، إنها ملكى أنا فقط ، ولن أقرضها لأى مخلوق سخيف أحمق . فى العام الماضى طلبها منى هذا المجدف كابتن بوليكسيجيس حتى يأمر برسم واحدة مماثلة له ، ولكن كيف كان يمكن أن أعطيها له ؟ سألته يومها : أيمكن لك أنت أن تعطينى فرسك يا كابتن بوليكسيجيس ؟ كلا - فأنا أيضا لا يمكن أن أعطيك عذرائى » ..

وفى هذه اللحظة من حديثه لنفسه اصطدم عند نافورة « ايدومينياس » بكل من « بيترودولوس » و« فوروجاتوس » الذين كانا فى طريقهما لاهثين إلى وكر التنين ، وكانا فى عجلة من أمرهما حتى لقد كادت قيثارة « فيندوسوس » أن تتحطم لحظة الصدام ، بينما سقطت قبعة « بيترودولوس » إلى الأرض .

وصاح « فوروجاتوس » :

- « فيندوسوس .. لماذا تهرع هكذا نحو فك الأسد ؟ قف ! دعنا نلف سيجارة حتى تمنحنا الشجاعة » ..

ثم جلس الثلاثة فوق الدرج الرخامى للنافورة وأخرجوا صناديق الطباق جلس « فوروجاتوس » فى الوسط بقامته المديدة كالمتوج ، وكان قد ازداد صلابة مع الكبر ، وكانت ساقاه طويلتين كساقى عملاق حين تبدأن فى الرقص تطرب وتنتشى تربة كريت ، ولو لم تكن له هاتان الساقان ، لما حياه إنسان ، فأنت لا تحيى إنسانا يضرب زوجته ، وكان له حاجبان كثيفان وشارب منتفش نافذ مباشرة إلى الأمام يبدو معهما حقا كأنه قطة متوحشة (فوروجاتوس) . وانحنى فى ود نحو زميله « بيترودولوس » وغطاه بعباءته التى كانت قد سقطت عند الاصطدام ، كما نطف قبعته الصغيرة الناشفة ، المتآكلة وثبتها فى قوة فوق شعره الرمادى الطويل .

كان « بيترودولوس » رجلا عجوزا بريئا ضئيل الجسم ، ذا فم رفيع وذقن ناتئة ، حديثة الحلاقة وعارضين حانيين قصيرين تنبعث منهما رائحة مرهم عطرى . وكان أول رجل فى « ميجالوكاسترو » وربما فى كريت كلها - لا يخشى الله أو الناس .. ويحلق شاربه تماما .. وفى أول الأمر ظن الكريتيون أن بشرته حليقة بطبعها فلم يغضبوا ، ولكن عندما تأكدوا من أنه يحلق شاربه انتابهم غضب شديد ، مستحيل ! فهو يدمر نظام الأشياء ! وهو يخلط النساء بالرجال ، ولقد قذفه البعض بالحجارة وبقشر الليمون ،

بينما اكتفى آخرون بأن يمتنعوا عن الترحيب به ، ولقد صاح فيه « باربايانيس » يوما ما وهو يبرم شاربه : « هنا فى كريت يا بيترودولوس ، هناك صنفان من الآدميين وليس ثلاثة ، الرجال والنساء ، وليس عندنا رجال نساء ! » .

وفى يوم من ايام الأحاد ، كان بيترودولوس يمر بحذاء الأقباء الثلاثة ، أنيقا خفيف الخطوة باسم الوجه ممسكا بقيثارته استوقفه فوروجاتوس ، وقد غيبه السكر عن وعيه ، وأمسك به وحاول أن يخلع عنه سرواله أمام الجميع حتى يرى كما قال ، ما إذا كان بداخله « بترودولوس » أو « بيترودولينا » ! ولكن بعض الرجال ممن لم يكونوا سكارى وقتها .. تدخلوا فى الأمر بينما انفجر فوروجاتوس باكيا واحتضن بترودولوس وضمه إلى صدره وربت عليه وقبله ولحظتها صرخ بترودولوس انت تحطم أضلعى ! .. حل عنى ! ثم ركله بعنف ومنذ ذلك الحين والاثنان صديقان لا يفترقان .

ولقد كان قدرا أن لا يكون كريتيا ، فهو من « زانتى » وهو « كونت » كما كان يقول ، ولكنه لم يعد يذكر كيف قدم إلى « ميجالوكاسترو » وسط هذه الوحوش المفترسة ليصبح معلما فى العزف على القيثارة ، كذلك فإن « بيترودولوس » لم يكن اسمه ، ان اسمه كان « الكونت مانجيافينو » ، والآن فقط ـ لأنه يظل يرتعش طوال الشتاء والربيع ويدثر نفسه فى عباءته السميكة الخضراء ، ولأنه كان متغض الجلد مقوس الساقين ، ولأنه كان يقول أشياء غريبة مضحكة ، ولأنه كانت تسهل إضافته ـ أطلق عليه الكريتيون اسم « بيترودولوس » ... ولصق الاسم به ! ..

ولكن عدد تلاميذه قل بمرور السنين ، فما الذى يستفيده أبناء « ميجالوكاسترو » من وراء الجيتار وهم ذوو أصوات حميرية لا تلائمها مثل أغنيات الحب .. اغنيات « زانتى » .. وبدأ « بيترودولوس » المسكين يتضور جوعا ، فكان يغشى المقاهى ويتحدث فى جاذبية مؤثرة عن حياته وعن أيام كان فيها لامعا وعن سيدات مرموقات وعن حفلات « للسيرانادا » والمندولين فى « زانتى » وكان يضع جيتاره فوق ركبتيه ويعزف بعض المقطوعات القديمة حتى يحس صاحب المقهى بالخجل ويقدم له قدحا من القهوة وبعض البسكويت أو « سد الحنك » أو قشور البرتقال المسكرة ، بعدها يخفف « الكونت » من جوعه ، بل انه كان يحصل فى بعض الأحيان على إذن فى أن يلف « سد الحنك » فى قطعة نظيفة من الورق ويأخذها

معه ، فقد كان مفتونا بصاحبة البيت ذات الشعر الأبيض ، العجوز كالتلال ، ويخجل من أن يستمتع وحده بالحلوى ، فهو يعرف جيدا كم تحب هذه المسكينة « سد الحنك » الذى لا يحتاج أكله إلى أسنان !

ويوما ما فكر الكابتن ميخايليس : « سوف يصلح تماما لقبوى » ! فقد سمعه يروى بعض حكاياته الحقيقية والخرافية فى مقهى « تريالونيس » .. وكان يتحدث فى ذلك اليوم عن « زانتى » ـ زهرة الشرق ـ التى لم تطأها أبدا أقدام تركية ، وحيث ولد شاعر أغنية الربيع اليونانى ، وناداه « الكابتن ميخايليس » وقال : « استمع إلى ياسيد بيترودولوس ، أنت شخص ممتاز ، وانه لمن سوء طالع ميجالوكاسترو الا تستطيع توفير الحياة لك ، لهذا فسوف أمنحك مرتبا شهريا حتى لاتعانى ، ولكنك ستأتى معى إلى قبوى كلما أرسلت فى طلبك » وأجاب الكونت وهو يقذف بقبعته إلى الأرض : « بكل سرور يا سيدى عبدك يا كابتن ميخايليس الشهير ! » .

ولف « فوروجاتوس » الرجل العجوز الصغير فى عباءته كالطفل ، فقهقه هذا شاكرا كما لو كان أحد قد دغدغه .

وقال « فيندوسوس » :

ـ « تجلد يا بيترودولوس فنحن مقبلون على عاصفة هوجاء يا صديقى المسكين ، ففى هذا القبو سوف تولد الحرية اليونانية » .

وأجابه « بيترودولوس » فى تيه وهو يخرج من عباءته ربطة كان يحملها تحت ذراعه : « لا تقلق يا سينيور فيندوسوس ، فقد اخذت احتياطاتى لكل الاحتمالات » .

وتحسس « فيندوسوس » الربطة بأصابعه وقال : « ماذا بداخل هذه الربطة يا سينيو بيترودولوس ؟ » .

وأجابه الرجل العجوز النظيف وقد أحمر وجهه : « غيار .. قميص ! » .. وصاح « فوروجاتوس » وهو يقذف بسيجارته بعيدا : « حسبكم ! .. لقد دخنا بما فيه الكفاية ، الآن هيا يا أولاد ، هيا امضوا إلى المشكلة العويصة ! .. إلى الأمام .. والله معنا ! » ..

واشتبكت أذرع الثلاثة ، واتجهوا إلى باب الكابتن ميخايليس ، و« بيترودولوس » فى الوسط .

رجل متوسط العمر ، ذو لحية شقراء متماسكة ، وعينين براقتين وحشيتين مستديرتين كالبيض ، ورأس تحتويه لفائف عمامة تركية عريضة بيضاء تركت أذناه فيها علامتين حيث لاتكاد تغادر رأسه حتى يكون مهيأ على الدوام للدخول بها إلى الجنة ، ذلكم هو أفنديناً ، كان منذ سنوات مضت قد زار « مكة » ، ومنذ تلك الأيام المقدسة امتلأ عقله بحرها وعطشها وباللهب والفزع ، وعاد إلى « ميجالوكاسترو » ليصبح درويشا فى إحدى التكايا التى كان أحد أسلافه يوما ما وليا من أوليائها ، وظل ردحا من الزمن يستقبل عددا من الأطفال الاتراك يعلمهم القراءة والكتابة ، يضربهم أحيانا .. وأحيانا يضربونه ، حتى كان يوم شج فيه رأسه ابن اخت « نورى بك » .. إبراهيم .. وكانت نهاية المدرسة .

وكانت « التكية » قريبة من كنيسة القديس ميناس ، ساحة منبسطة مستطيلة مزروعة بالكرنب ، فى أقصى نهايتها ثلاثة أقباء صغيرة خربة ، وفى وسطها يقوم قبر الولى ، قبر خشبى ذو شاهد قائم من الرخام تعلوه عمامة خضراء محت الأمطار والشمس الكلمات المذهبة المنقوشة فوقه ، وحول القبر .. وقريبا منه مقاعد صغيرة وكبيرة يجلس فوقها المريدون كل يوم جمعة يحدقون فى الولى ويدخنون « النرجيلة » ويحتسون القهوة التى تعدها لهم قارئة التعاويذ « حميدة مولا » والدة أفندينا .. أما العمامة فقد كانت فارغة من الداخل ، وكان المريدون يضعون العملات النقدية الصغيرة بداخلها لكى يضمنوا مساعدة الولى لهم فى شئون دنياهم .. وفى أخرتهم .. ولم يكونوا يهتمون بهذه « التشكيلة » من الأشياء التى يتوسل من اجلها المسيحيون إلى قديسيهم ، فبحسبهم فى الدنيا والآخرة ، طعام جيد .. وامرأة جيدة .. وشجاعة جيدة ! ومن ثم كانوا يقذفون داخل العمامة بهداياهم طلبا للشفاعة .

وفى كل صباح ، وعندما تشرق الشمس ، كان أفندينا يجلس فى الساحة وقد شبك ساقيه ووضع فوق ركبتيه مصحفا ضخما واخذ يهتز إلى الامام وإلى الخلف حتى يصيبه الدوار .. ثم يبدأ فى الترتيل ، وإذا أحس بالبرد نهض واقفا وبسط ذراعيه ودفن رأسه فى كتفيه وبدأ يرقص مثل الدراويش وهو يصفر ويبصق ويدق بقدميه حتى يسرى الدفء فى جسده ، فإذا انتصف النهار واستبد به الجوع أخذ يجرى كالمجنون من طرف الساحة إلى طرفها الآخر وهو ينفث مثل الكير وقد تصبب عرقه وهو لا يضع

فوق جسده سوى عمامته وسرواله ، وتجمع الجيران ليشاهدوه عن كثب من خلال النافذة المطلة على الشارع ، بعضهم يضحك ساخرا منه ، والبعض الآخر يشفقون عليه ويقولون : « بحق الله يا أفندينا .. ماذا دهاك ؟ » .. فكان يجيبهم على الفور : « أحس بلهيب داخلى يا جيرانى » .

وعندما كان يترك مكانه لأمه العجوز وينطلق إلى الخارج ، كان الأطفال اليونانيون يقذفونه بالحجارة فيطلق لساقيه العنان محاولا أن يقفز من فوق ميزاب إلى آخر فلا يقدر ، فقد كان الشارع يبدو أمامه وكأنه يود لو استطاع أن يقفز إليه ولكنه لم يكن يجرؤ على ذلك ، فكان يتراجع مرتعشا عاجزا عن السباحة .

وكان الكابتن ميخايليس يدعو افندينا كلما أعد لجلسة شراب ، فقد كان يحب أن يضم إلى مجلسه سقطا تركيا ، وكان أفندينا يستقبل الأنباء فى خوف وشغف معا ، فقد كان يعد الشهور التى تمر قبل أن يعود إليه « شاريتوس » وهو فى « التكية » ليهمس فى أذنه : « تحيات عمى الكابتن ميخايليس ، وهو يرجوك أن تذهب إليه فى القبو » ..

وطوال العام كله .. كان « أفندينا » يتحرق شوقا إلى لحم الخنزير والخبز الأبيض والمقانق والخمر ، ولكن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يسمح له بأن يشرب الخمر أو يأكل لحم الخنزير ولا أن يرفع بصره إلى عينى امرأة ، ولو أن ذلك حدث .. لأصابت الرعشة جسده .. وقد حدث مرة أن كادت له واحدة من هؤلاء النساء الصغيرات .. فتظاهرت بأنها وقعت فى غرامة ، وساعتها ، ارتمى هو فوق الأرض وقد علا الزبد فمه .. ولكن متعة واحدة فقط بقيت له فى دنياه ، متعة تحمل معها الخطيئة ولكنها متعة ثمينة ، دعوة الكابتن ميخايليس له كل ستة أشهر ليشرب الخمر ويأكل لحم الخنزير وليملأ كيانه الهزيل للأشهر الستة القادمة ، وقد تعود أن يقول له فى كل مرة : « بحق ما أؤمن به يا كابتن ميخايليس ، هددنى ضع سكينا فوق عنقى وصح فى وجهى ، التهم لحم الخنزير وعب من هذه الخمر أو أقتلك ! أجبرنى على ذلك يا كابتن ميخايليس حتى لا أكون قد ارتكبت خطيئة ، وهكذا ، كان يأكل ويشرب ويمارس كل كفر وتجديف حبس بعيدا عنهما فى الأشهر الستة الماضية كذلك فقد كان يكشف ما كان يعرفه عن « جاره » ـ وهكذا كان يسمى « القديس ميناس » فلم يكن يفصله عنه

سوى حائط ، وكان بمقدوره أن يراه كل ليلة يخرج من الكنيسة ممتطيا صهوة جواده فينتابه الذعر ويدفن رأسه فى الوسادة حتى إذا أصبح الصباح سرق الزيت من مصباح جده ليملأ به سرا قنديل « القديس ميناس » المسيحى .

وطوال ستة عشر يوما فى العام ، كان أفنديتا يشرب ويكفر فى قبو « الكابتن ميخايليس » كرجل حقيقى ، ثم يبدأ ذهنه فى العمل مثل الساعة فلا يحس باللهيب داخل جسده ، ويظل يقفز من رصيف إلى رصيف بلا خوف ، ولكن الأيام الجميلة كانت تمرق مثل البرق .. لتعود إليه الولاية والتضحية مرة أخرى !

وطوال الليلة الماضية أعجزته سعادته عن النوم ، فقد قام فى الظلام وانسل إلى الفناء حافى القدمين وفتح الباب فى هدوء حتى لاتسمعه أمه ، وانطلق خارجا ، وسار مستترا بسور « القديس ميناس » واجتاز المدرسة اليونانية حتى وصل إلى مسجد « سانت كاترين » ، وهناك .. توقف ، وأحس بعرق بارد يتساقط من جبهته ، إن عليه الآن أن يعبر الطريق إلى الرصيف الآخر ليستدير متجها إلى بيت « الكابتن ميخايليس » وقدم رجلا .. ولكنه مالبث أن أخرها وقد بدأت تستبد به الرعشة ، لم يكن ذلك الذى أمامه شارعا ، ولكنه كان مياه عميقة تدير فى دواماتها صخورا متناثرة وهى تجرى هادرة فى طريقها مابين الرصيفين .

واستند افنديتا إلى الحائط ، ومسح عرقه وظل يحدق فى الشارع : ألن يمر بى الآن شخص ما ـ تركيا كان أو مسيحيا ، أو حتى يهوديا ـ لكى يشفق علىّ ؟ » .

وظل افنديتا ينتظر لاهث الأنفاس ، هناك على الطريق الآخر للمشاة .. يوجد النبيذ ولحم الخنزير والمقانق ، تشجع يا قلبى ، قفزة واحدة !

ومرة أخرى هيأ نفسه لكى ينطلق جريا ، ولكن ما إن انحنى إلى الأمام حتى رأى الشارع يرتد وينكمش إلى الخلف ، فعاد يلوذ بالحائط .

ومن فوقه بدأت مئذنة القديس كاترين تومض متوهجة فقد أدركت أشعة الشمس بالفعل عتبات البيوت وبدأ فرن « تولوباناس » يشيع رائحته ، وتناهت من كنيسة القديس ميناس ترتيلات عذبة عالية .

أما من مسيحى واحد فى طريقه إلى الكنيسة يمر بهذا الطريق ويرحمنى ؟ أما من أحد يمر بى ؟ أأصبح العالم مهجورا ، وأى صحراء هذه ياترى ؟ .. لقد انتهيت ! .

وفجأة صاح وهو يرتجف أيها المسيحيون النجدة !

وفتح باب فى مواجهته ، باب مرتفع مزين بقارع برونزى ثقيل ، وبرز منه السيد « شاريلاوس ليونداراكيس » الصراف الجشع ـ القزم ذو الأرداف الثقيلة واللحية الوحشية والأصابع القصيرة التى يكسوها شعر كثيف ، كان ينتعل حذاء سميك النعل ، ويرتدى سترة قصيرة فى لون القهوة ويمسك بعصا مقبضها فضى على شكل رأس أسد ، كان « شاريلاوس ليونداراكيس » ينتمى إلى إحدى عائلات البندقية ذات المكانة والتى أصبحت من عائلات كريت ، وكان لأسلافه علم عليه رسم أسد ، كما كانوا يحفرون نفس الرسم فى قصورهم .

كان فى طريقه إلى الكنيسة ، ونظر إلى أفنديـنا وبدأ يضحك فى سخرية كان يحب رؤية المخابيل والمجذومين والعميان والشحاذين وذوى الحظوظ السيئة ، فقد كان ذلك يبعث الارتياح إلى قلبه بسبب منظره هو نفسه ، وصاح :

ـ « أفنديـنا ، تشجع أيها الأحمق المسكين ! اقفز ! » .

وصاح الرجل المسكين :

ـ « الا تخش الله يا مستر شاريلاوس ؟ بحق هذا اليوم الذى يشرق علينا الآن إلا اقتربت ! مد إلى يدك وساعدنى على العبور ! اريد أن أذهب إلى بيت الكابتن ميخايليس فلا أستطيع ! » .

وبرزت من الباب فتاة ذات شفتين ممتلئتين ووجه صغير أسود ، وكان « شاريلاوس » يمارس معها الحب ويصعد فوق مقعد صغير حتى يستطيع أن يقفز إلى فراشها ، وفى إحدى الليالى قدمت له احدى نصائحها : « سيدى ابتلع كل صباح (على الريق) بيضة طازجة ! .. ابتلعها والله يساعدك ! » .. وهكذا ، كان القزم الصغير يبتلع كل صباح بيضة .. لكى تجعله قويا !

وقالت الفتاة الخبيرة وهى تدس بيضة فى يده :

- « سيدى لقد نسيت البيضة ! لقد باضتها الدجاجة الآن فقط ! » .

وأخرج « شاريلاوس ليونداراكيس » مدية الجيب الصغيرة ، وأحدث ثقبا بالبيضة من أحد طرفيها وثقبا فى طرفها الآخر ، واحنى عنقه القصير البدين إلى الخلف وابتلع البيضة .

وصرخ افنديناً من جديد :

- « ساعدنى يا سيد شاريلاوس إذا كنت تؤمن بالله ! » .

وضحك القزم الصغير وقال وهو يداعب عصاه :

- « سوف تعود فتأكل لحم الخنزير يا مسكين وتدنس نفسك ! » ..

- « سأذهب حتى لو تخطفنى الشيطان ! مسكين أنا ! تلك هى المتعة الوحيدة لى فى هذه الدنيا ، وسوف تكافأ على مساعدتى ، مد عصاك يا سيد شاريلاوس حتى أمسك بها » ..

وأشفق الله على « أفنديناً » ، فقد برز من الناصية عجوز أقرع ينتعل قبقابا ، قادما من الحديقة العامة حاملا فى يده غرارة ملأى باللفت البرى ، ومد « أفنديناً » ، ذراعيه وصاح :

- « يا عزيزى على أغا .. يا عزيزى على أغا ، أنت رجل طيب ومسلم صادق ! إن أمامى ماء كثيرا ونارا مستعرة ! خذ بيدى خلالها ! » ..

ودون أن ينطق بكلمة ، أخذ الرجل طيب القلب بيد « أفنديناً » وقاده فى بطء وحرص إلى الرصيف الآخر ثم استدار اليه ليقول شيئا ، ولكنه فكر جيدا - ماذا ترى يقول له ؟ وضع الغرارة تحت ذراعه ومضى فى طريقه ، ماذا يمكن أن يقول له ؟ إن الله رحيم ... رحيم وقوى .. وقادر على أن يحيل الخنزير إلى حمل داخل الفم ويحيل الخمر إلى ماء .. إن الله يفعل مايشاء .. كل واشرب يا أفنديناً وثق بالله ..

وعندما وصل « أفنديناً » لاهثا إلى بيت « الكابتن ميخايليس » كان كل ضيوفه قد نزلوا إلى عرين الأسد .. وكان « شاريتوس » يروح ويجىء بين المطبخ والقبو يبحث عن المشهيات ، وارتعشت خياشيم « أفنديناً » فى شغف ، وتناهت إلى سمعه أصوات الأكواب الزجاجية من تحت الارض ،

وتسللت إلى خياشيمه رائحة المقانق ، فاستند إلى الباب حتى لا يغمى عليه ! ولحظتها خيل إليه أنه يسمع صوتا : « يا أفندينا روث الخيل ! اتبيع روحك مقابل لقمة من لحم الخنزير ؟ تذكر مكة ، والصحراء ، والجمال والبخور والحجر الأسود .. تذكر جدك الذى طالما أذن فى الناس بالصلاة من المأذنة أياما وليالى طوالا وهو فى صيام دائم لا يأكل ولا يشرب ، وتذكر رقدته الآن فى وسط كهف من نور يجرى أمامه نهر من لبن وقشدة .. أنت من عائلة كلها أولياء صالحون ، لاتنس ذلك ، يا أفندينا روث الخيل ، أنت ماض هذه الساعة إلى الجحيم ، ولكن الباب لايزال مفتوحا .. فاهرب ! » ..

وارتعش « أفندينا » واتجه ببصره إلى باب الخروج .. ثم إلى باب القبو حيث تخرج رائحة المقانق .. وما أن بدأ يتخذ قراره ، حتى خرجت « كاترينا » إلى صحن البيت ورأته فقالت :

ـ « أهذا أنت يا أفندينا ! انزل بسرعة حتى لا تندم » .

ـ « هل الطعام جاهز يا سيدتى كاترينا ؟ » .

ـ « نعم .. أسرع » ..

وغمغم « أفندينا » :

ـ « هذه مشيئة الله ، هو سبحانه أرسل إلى السيدة كاترينا ، فلا ينبغى لى بعدها أن أقاوم : المقاومة الآن خطيئة كبرى ، افأعصى الله ؟ يا الله .. يا الله .. أنى أتوسل اليك أن تنعم على بنعمة واحدة : دعنى أرتكب كل الخطايا ، ودعنى أيضا ـ انا المسكين ـ استمتع بهذه الدنيا فوقى ، وقبل أن يدركنى الموت بنصف ساعة فقط ، امنحنى الوقت كيما أتوب إليك ! الا تكفى نصف ساعة ؟ إنها تكفى ولاشك .. أتوسل إليك ! » ..

ثم قفز ودفع الباب الصغير وهبط إلى القبو ...

جلس الكابتن « ميخايليس » فوق مقعد مرتفع فى مواجهة الباب وقد بدا وجهه عابسا غارقا فى سحابة من دخان سيجارته ، وقد تدلى سوطه من مسمار بالحائط فوق رأسه ، وإلى اليمين واليسار منه مقعدان طويلان جلس فوقهما أربعة من ضيوفه : « ڤيندوسوس » و« كارجابيس » إلى ناحية ،

و« فوردجاتوس » و« بيترودلوس » فى الناحية الأخرى ، وفوق المائدة المرتفعة كانت المشهيات لاتزال ينبعث منها بخارها ، وكانت الخمر تتلألأ حمراء قانية كالدم فى أكواب ضخمة ، وكان « ڤيندوسوس » قد أسند قيثارته إلى ركبتيه وقرب منها أذنه وهو يضبط أوتارها بينما تدثر « بيترودولوس » فى عباءته مرتعشا سعيدا فى حماية « فوروجاتوس » ـ وهو يأكل بلا توقف ، أما « كاچابيس » فقد كان يأكل ويشرب .. ويفكر فى زوجته ..

وظل الكابتن « ميخاليس » يملأ كوبه مرة تلو الأخرى ويشرب دون أن تمنحه الخمر أدنى متعة . كان يكرهها ، وفى كل مرة كان يرفع كوبه إلى فمه فيحس أن شفتيه تقاومانه وترفضان ، ولكنه كان فى كل مرة كان يفرغ الكوب فى معدته على الرغم منه ليخمد هذه المردة التى تلبسته ، والتى كانت هى الأخرى تخاف الخمر ، كانت مردة من أصوات وحشية ، أكثرها ليست أصوات بشر ، بل أصوات وحوش تزأر بمجرد أن تنفتح المتاريس بداخله وتدع الخيالات القديمة تقفز أمام ناظريه ، نمر ، وذئب ، وخنزير برى ، وبعدهم جميعا أجداده الذين يكسو الشعر أجسادهم .. خارجين من أعماق كهوف « بسيلورتيس » .

أما الآن ، فقد كان هناك مارد من نوع جديد يعلن عن نفسه فى أعماقه ، لم يكن يجأر كغيره .. ولم يكن يهدد ، بل كان يضحك ، ولم تكن أنفاسه منتنة ، ولكنها كانت عذبة ، ولأول مرة أحس « الكابتن ميخاليس » بالخوف فظل يملأ كوبه ثم يعود ليملأه .. ويشرب .

وعندما انصفق الباب مفتوحا ، وظهر « افندينا » ، رفع « الكابتن ميخاليس » رأسه بينما فرك « أفنديناا » يديه فى ذهول وهو يخطو خطوة إلى الأمام دون أن يهبط الدرج كله ، وهربت منه الكلمات وسط اضطرابه ، كان يريد أن يقول : « تحياتى يا كابتن » ، ولكنه لم يستطع أن ينطق بها فقد تلعثم .

ورفع « الكابتن ميخاليس » يده وأشار إلى مقعد منخفض فى مواجهته وقال « أجلس ! » .

وسأله « ڤيندوسوس » دون أن يرفع أذنه من فوق قيثارته :

ـ ماذا تريدنى أن أعزف يا كابتن ميخاليس ؟ .

وكان « فوروجاتوس » قد نهض واقفا وازاح المقاعد جانبا ليهيىء لنفسه مكانا ، كان متلهفا على أن يبدأ ، وكان يحس كما لو أن نعليه يحترقان ويدغدغانه ، ربما كانت الخمر تؤدى بالآخرين إلى الغناء أو المزاح أو حتى البكاء أو النعاس ، ولكنها كانت تدفع هذا الرجل الطويل الغليظ « فوروجاتوس » .. إلى الرقص ، كان يشرب ، ثم يرقص فيعود إلى وعيه ، ولكنه فى الحقيقة لم يكن يعود إلى وعيه ، كل مافى الأمر أن حالة السكر كانت تأخذ شكلا آخر : كانت تتحول إلى محاولة يائسة غير مثمرة لمنح جسده جناحين ليقهر بهما القوانين التى لاتقهر .. ولم يكن يستطيع ، ومن ثم فقد كان يعود إلى الشراب ليتزود بقوة جديدة تساعده على التحليق .

وأجال الكابتن « ميخايليس » بصره فى ضيوفه الخمسة : لا الغناء ولا الرقص ولا القيثارة يمكن أن تخفف ما بقلبه اليوم ، واستقرت نظرته على « أفندينا » .

وصاح « أفندينا » محذرا :

ـ « سيدى ، لا تطلب منى أن أبتسم وارتكب الدنس ، هددنى أولا ! .. أجبرنى على أن أفعل ماهو ضد رغبتى فآكل وأشرب ، وبعدها ستكون لدى الشجاعة ! » .

ولكن « بترودولوس » وقد أكل وشرب وواتته القوة تدخل وقال فى صوت كالغناء :

ـ أيها النبيل كابتن ميخايليس ، هل لى ـ لكى نقطع الوقت ـ أن أحكى لك حكاية قديمة مشهورة من قصص البندقية ، لقد رأيتها بعينى راسى وأنا فى الشرفة ، ومنذ ذلك الحين لم يقر لقلبى قرار ، ما أقل مانسيت مرارة الحياة ، لأننى كنت دائما أحمل فى مخيلتى صورة ابنة هذا الرجل النبيل .. التى قتلت قتلة فاضحة .. صورة ديدمونة .

وسأله الكابتن ميخايليس وقد زوى ما بين حاجبيه :

« من ؟ » .

ـ « ديدمونة يا سيدى الكابتن المحترم ، ابنة هذا النبيل من البندقية ، ألم تسمع عنها ؟ لقد أحبها بربرى ، كان جنديا عظيما ، ولكنه كان غيورا

فقتلها بلهيب الحب ، تناول منديلا ..... » .

ورفع الكابتن ميخايليس قبضته ليوقف الفم الذى جلله العار ، وقال :

ـ « بمحضرى ، لن يكون هناك حديث عن النساء يا بترودولوس » .

وتغضن وجه « بيترودولوس » ، واحتبست الحكاية الفينيسية فى حلقه ورفع « ڤيندوسوس » قوسه ذا الجرسين فى الهواء وتساءل :

ـ « ماذا إذن ؟ » .

واستند الكابتن ميخايليس إلى الحائط بكل ثقله وقال :

ـ « إعزف ماشئت بحق الشيطان ! » .

وأفرغ « كاچابيس » كأسه ومسح شفتيه ، ورفع « فوروچاتوس » قدمه اليمنى وقد ثبت عينيه فوق القيثارة .. وتهيأ للتحليق ..

ولكنه لم يحلق ، فقد اهتز البيت و« طقطقت » الجدران وقبض « بيترودولوس » البرميل خلفه بقوة على لا يسقط .. بينما هوت صفوف السفرجل والرمان والشمام المرصوصة فوق الأرفف .. هوت إلى الأرض وتدحرجت فى كل مكان وقفزت حتى وصلت إلى مستوى المائدة ..

وصاح « ڤيندوسوس » : « زلزال ! » واندفع يريد الخروج إلى العراء ، بينما كان « كاچابيس » قد مد يده نحو الباب وفكره يعدو نحو الميناء .. نحو كوخ متواضع ، يبحث عن « جاروفاليا » ، أما « افنديتا » فقد سقط على أنفه فوق الأرض وهو يحاول أن يتشبث بشىء ..

ومن أعلى ، تناهت صرخات امرأة ووقع أقدام ، واضطراب وانتحب « فوروچاتوس » وهو يصرخ :

ـ « بحق الله ! .. افتحوا الباب لنخرج ! » .

ولكن « الكابتن ميخايليس » جذب السوط من فوق رأسه وصاح :

ـ « ألا تخجلون من أنفسكم ؟ » .

ووجد « فوروچاتوس » فى نفسه شجاعة ليقول :

- « ولماذا نخجل ؟ إنه زلزال يا كابتن ميخايليس . إنه ليس بشرا تستطيع أن تتغلب عليه ! » .

وبينما هو يقول ذلك قرقعت من باطن الأرض أصوات رعد كأنها خوار ثور ، وبدأت أجراس « القديس ميناس » تدق دقاتها المألوفة .

وصاح « بيرتودولوس » وقد لف رأسه بعباءته :

- « النجدة يا قديس ديونيسس ! أنا الكونت مانجيافينو ! » .

وفرقع « الكابتن ميخايليس » بسوطه فى الهواء وصاح :

- « لا أحد يتحرك ! ارفعوا افندينا من فوق الأرض وأسندوه إلى البرميل » .

ثم جذب العباءة عن « بيرتودولوس » وهو يقول :

- « ليس الزلزال شيئا ذا بال يا بيرتودولوس ، كريت شىء حى ، وهى تتحرك ويوما ما سوف أرى كيف تجد طريقها لترتبط باليونان » .

فجأة اعتدل مزاجه وتكلم ، كان لايزال صبيا يوم خرب الزلزال الكبير نصف قريته ، ولقد رأى يومها النساء والرجال أيضا حيارى يصرخون ويصيحون .. ويدفنون تحت أنقاض بيوتهم .

أبوه « الكابتن سيفاكاس » وهو وحده - ودون أن ينطق بكلمة واحدة - رفع ذراعيه ويديه ليدعم إطار باب البيت ، وظل رافعا كوعيه عاليا حتى استطاعت زوجته وأطفاله وزوجان من الأبقار وفرسهم الرمادية أن يجتازوه إلى الخارج ، وبعدها قفز هو قفزة واحدة ليلحق بهم ، ثم انهارت جدران البيت ، ومنذ ذلك اليوم لم يعد « الكابتن ميخايليس » يخشى الزلازل ، فقد أدرك أن الرجل الحق يمكن أن يسيطر عليها ، وملأ الأكواب ، وشربوا ، وعادت قلوبهم إلى أماكنها .

أما هناك على السطح فوقهم ، فقد اندفعت الجارات خارج بيوتهن يصرخن ، حتى « أركوندولا » - هذه العجوز « الناشفة » الحامضة - خرجت إلى الشارع هى وشقيقها الأصم الأبكم فى ذراعها ، كانت هى الأخرى قد اختلطت بجاراتها وأصبحت واحدة بينهن ترتجف وتصرخ كما لو لم تكن تنتمى إلى أسرة ذات مكانة .

وكان المطران فى تلك اللحظة يقدم عظته داخل الكنيسة ، وقد تحدث فى البداية عن الرب ، ثم مالبث خطابه أن انحرف فترك السماء لحالها وهبط إلى كريت ، ووقف الكاهن أمام عرشه المموه بالذهب وحلق صوته العميق تحت القبة المرسوم عليها صورة السيد المسيح وهو يحدق فى غضب ، ومن هذه الصورة كان الصوت يستمد قوته ثم يهبط ليدوى فى أرجاء الكنيسة بينما كان المسيحيون يقتربون أحدهم من الآخر كما لو كان هو حقا السيد المسيح يبعث إليهم صوته من أعلى الكنيسة ، ويحنون رؤوسهم وهم يرتعشون .

قال الرجل العجوز :

« يا أولادى ، الآن يجيء الصيام الأكبر ، وتقترب آلام المسيح ، ولابد أن يسيطر الخوف على الانسان ويركز أفكاره فحسب فى ذلك الدم الذى أريق فوق الصليب ، سامحنى الله ! .. إننى أتحدث عن آلام المسيح بينما أنا أفكر فى كريت » ..

ورفع يديه إلى قبة الكنيسة حيث صورة المسيح ، وصاح :

« كم مرة .. وكم جيلا .. وكم ألفا من أبناء كريت مثلى ، رفعوا أيديهم إلى السماء صارخين ، (حتى متى يا إلهى .. حتى متى ؟) نحن لسنا حجارة أو خشبا مسندة يا إلهى ! نحن أرواح .. أرواح أنت وهبتنا إياها ، نحن رجال ونساء ، فإلى متى إذن تهرق دماء كريت ؟ إن البحر كله ابتداء من شواطيء كريت حتى Hellespont حتى القسطنطينية .. أحمر اللون » ..

وتأمل ماحدث بعد ذلك ! .. بينما كان الرجل العجوز يقف منتصبا محدقا فى القبة ، وبينما ران الصمت لحظة كما لو كان الجميع فى انتظار الاجابة : اهتزت الكنيسة كلها وتراقصت الأضواء ودقت الأجراس دون أن يلمسها انسان .

وارتفعت الصيحات « زلزال ! زلزال ! » وهرعت النساء من الجانب المخصص لهن فى الكنيسة وتزاحمن ووطأن بأقدامهن الواحدة الأخرى مندفعات نحو الأبواب ، ووقف المطران جامدا مذعورا بلا حراك ، وهو لايزال يحدق فى صورة المسيح ، بينما اندفع « مورزوفلوس » نحوه وألقى

ذراعيه حوله واتجه به بعيدا عن عرشه خلال باب جانبى يؤدى إلى ساحة الكنيسة ، ثم ربت على كتفيه فى ود وهو يقول :

« لاتخف يا سيدى ، إنها هزة أرضية وستنتهى » .

وغمغم المطران وقد امتلأت عيناه بالدموع .

« لقد أخطأت يا إلهى ، لقد اخطأت ، فبدلا من ان اتحدث عن الامك تحدثت عن كريت » ..

اما الكابتن « بوليكسيجيس » فقد كان يسير وسط الحى التركى ، وبينما كان المسيحيون يؤدون صلواتهم كان هو قد تهيأ للخروج ، حليقا ، قد بلل شعره بكثير من ماء اللاوندا ، وفوق راسه طربوشه المائل إلى جانب . كان يسير وحده وحِذاؤه يئز كلما لامس الأرض ، ويحس داخل جسده بسعادة غامرة ، كان فى قمة قوته .. مثل حصان .. مثل ثور يجوس خلال الحقول فى الربيع .. كانت كل أعضائه تعمل بلا أدنى صوت : قلبه .. معدته .. وامعاؤه .. كانت كلها تؤدى وظيفتها دون أن تتشاجر احداها مع جارتها ، وكانت جميعا ـ فى طاعة وروح جماعية سعيدة ـ تكون بناء الكابتن « بوليكسيجيس » ! !

وغمغم يقول لنفسه :

« إنه لمؤسف حقا ان الشباب فى الكائن البشرى لا يدوم ألف سنة ! أيمكن أن يكون السبب أن الله يخشى ان نأخذ منه عرشه ؟ ألهذا السبب يا ترى يجردنا فى حذق من أسلحتنا .. قطعة فقطعة ؟ فهو يخلع أسناننا ، ويلولب مفاصلنا ويضعف كلواتنا ويلقى العتامة فوق عيوننا ويجعل أنوفنا وأفواهنا تقطر الوحل والبصاق ... إن الموت لا يقلقنى ، بحق روحى إنه لا يقلقنى ، فهناك شىء ينبغى أن يقال فى صدد التغلب تماما على هذا القلق ، ولكنى لا أطيق صبرا على أن انحدر شيئا فشيئا لأصبح مجرد صورة .... » ..

كانت العبارة الأخيرة لاتزال معلقة فوق شفتيه عندما بدأ الحى التركى بأكمله يترنح .. وتهاوت الأبواب وارتفعت صرخات النساء ممتزجة بطرقعة الكتل الخشبية فى أفنية الدور ، وبرزت « روهينى » .. المرأة البربرية من إحدى النواصى وهى تصرخ « الرحمة يارب ! » ، والصينية المستديرة

تتأرجح فوق رأسها والكعك الممزوج بالسمسم يتساقط من فوقها إلى الأرض ليختلط بالقاذورات والروث .

وباعد الكابتن « بوليكسيجيس » ما بين قدميه ليقف ثابتا فوق الأرض فلا يسقط ، بينما استند على جدار ـ شاء حظه أن يكون قريبا من منزل « نورى بك » .

اكتسى وجهه بعرق خفيف وغمغم « زلزال ! » . إنه يستطيع أن يواجه اى شىء ـ المرضى والأعداء .. والنساء ، ولكن كيف يمكن أن يواجه زلزالا ؟ .. فكيف له أن يعرف ما سيفعله هذا الزلزال ؟ وشحب وجهه ودار حول نفسه وادرك أنه كان يقف أمام الباب الأخضر لبيت « نورى بك » وكان فى مقدوره أن يسمع الأصوات المذعورة بداخله .. فأرهف أذنيه وانتظر : هل ستنشق الأرض وتبتلع الناس أم أن ذلك كان مجرد موجة ذعر وتنتهى ؟ « ميجالوكاسترو » كلها .. انتظرت حابسة الأنفاس . حتى الكلاب التى كانت قد بدأت تنبح ، سكنت ذيولها وانتظرت هى الأخرى وقد قف شعرها ، وبدا ينتشر ضوء أصفر معتم بينما تناهت من تحت الأرض أصوات كأنها نفخ فى مزمار ، ثم مالبثت البيوت أن اهتزت مرة أخرى وتأرجحت المآذن مثل أشجار السرو ، وانهار الجدار الذى كان يستند إليه الكابتن « بوليكسيجيس » ، وتناهت من داخل منزل « نورى بك » أصوات تكسر الزجاج والأطباق والمصابيح وهى ترتطم بالأرض وتتدحرج فوقها وتتحطم .

وفجأة .. فتح الباب الأخضر ، واندفعت من خلاله « أمينة هانم » تصرخ ، وقد خرجت مسدلة الشعر حافية القدمين ، ثم سقطت مغشيا عليها وسط الشارع وخلفها خرجت المراة البربرية المسيحية وهى تحمل لها شبشبها الأحمر الصغير ، وانحنت المراة فوق سيدتها ونادت عليها ، ولكن « أمينة هانم » ظلت ملقاة فوق الصخور ورأسها مائل إلى الخلف أبيض مثل الشمع .

وأبصرها الكابتن « بوليكسيجيس » .. وغمغم « أمينة هانم ! » . ثم ابتعد عن الحائط واقترب منها فما لبث ان أحمر وجهه الشاحب ، فطالما اشتاق إلى أن يرى هذه المرأة الشركسية المتوحشة .. وها هى ذى ملقاة أمامه .. فماذا يهمه الآن من الزلزال ؟ ـ بشعرها المسدل وقدميها العاريتين .. تماما كما تمنى أن يراها من قبل ..

وانحنى نحوها فى شغف ، ولكن المرأة البربرية أمسكت به فى عنف ودفعته بعيدا وصاحت متوعدة :

ـ « لا تقترب ، فهذه زوجة نورى بك ! » ثم جذبت بعنف وشاح سيدتها لتغطى به وجهها » ..

وقال الكابتن « بوليكسيجيس » :

« إذا لم تشم ماء اللاوندا فسوف تموت هذه المسكينة » ..

ثم أخرج من جيب صدريته زجاجة عطر صغيرة يحملها دائما ، ففتحها وانحنى فوق ركبتيه وقربها من فم المرأة الشركسية .

وكانت الأرض قد عادت ثابتة كما كانت .. وبدأ قلب « ميجالوكاسترو » يدق من جديد دقاته العادية ، كما وجدت الكلاب هى الأخرى فى نفسها الجرأة لكى تعود فتنبح فى وجه الزلزال !

وتنفست الشركسية بعمق ، وفتحت عينيها فأبصرت رجلا لا تعرفه ينحنى فوقها فصرخت وهى تغطى فمها بكلتا يديها .

وقالت المرأة البربرية للرجل :

« ابتعد ! .. ابتعد عن هنا إذا كنت تهتم بحياتك ، فسوف يكون نورى بك هنا فى لحظات » ..

ولكن الكابتن « بوليكسيجيس » كان يحدق فى عينى الشركسية ، كيف يستطيع أن يقرر الآن ما إذا كان يفضل الموت أو الحياة ؟ كانت العينان السوداوان فى البداية قاسيتين مليئتين بالاحتقار ، ولكن الشركسية مالبث أن لانت فى بطء وهى تدع أنفاس الرجل الثقيلة ورائحته النفاذة تهوم فوقها ، ثم استدارت نحو خادمتها وسألتها :

ـ « من يكون هذا الكافر ؟ » .

وأجابها هو بنفسه :

« الكابتن بوليكسيجيس .. خادمك يا سيدتى .. احتفظى بهذا العطر حتى تذكرينى » .

ولكن المرأة الشركسية قذفت بالزجاجة فى وجهه ونهضت واقفة وقد عادت عيناها غاضبتين مرة أخرى .

وقال الكابتن « بوليكسيجيس » وهو يتنهد :

ـ « سوف أمضى .. لا تغضبى » .. وهنا .. قالت المرأة الشركسية فى احتقار : « خائف » ؟ ..

ـ « ممن ؟ » .

ـ « من نورى بك » .

ـ « أنت ياسيدتى .. الانسان الوحيد الذى أخافه ، وإذا أنت طلبت منى الآن أن أقتل نفسى ، فسوف افعل ولا أقترب منك مرة أخرى » .

ولكنه خشى كلماته ذاتها .. فردها إلى صدره ثم قال فى جرأة :

ـ « إذا كان هناك اله فى السماء ، فسوف اقترب منك يوما ما يا امينة هانم ، يوما ما ، سوف اقترب منك ، وليفن هذا العالم كله ! » ..

وتفحصته الشركسية بعينين غاضبتين نصف مغلقتين ، كما لو كانت تحاول أن تقيمه ، كما لو كانت تقيمه قبل أن تشتريه ، ووقف الكابتن « بوليكسيجيس » فى ثبات وقد وضع يده اليمنى فوق زناره الحريرى .. وانتظر ..

وقالت الشركسية وهى تغطى وجهها بوشاحها بلا عجلة :

ـ « إن إلهى يرى اليونانيين أشياء تثير الاشمئزاز » ..

ورد الرجل :

ـ « إن إلهى يحب النساء الشركسيات .. وهو عظيم قادر » ..

وتناهت إليه أصوات ، فاستدار ورأى رجلين تركيين يبرزان عند إحدى النواصى .. وفتحت أبواب .. وأحاطت المرأة البربرية سيدتها بذراعها وأسرعت بها داخل البيت ، واغلق خلفهما الباب الاخضر .

وتهيأ الكابتن « بوليكسيجيس » للسير ، ولكن ركبتاه كانتا

كالمشلولتين .. وغمغم يقول : « لقد انتهيت .. انتهيت ! .. تماما كما لو كنت لم اقبل امرأة أو عرفت اللهو أو لمست امرأة .. من لى الآن بنار أقتحمها لكى أبرد الآن جسدى ؟ » ..

وتلفت حوله .. وأحس بالنشوة .. وأحس بأن الشوارع قد اختلفت صورتها وبأن الوجوه قد تغيرت ، وبدت « ميجالوكاسترو » تحت قدميه كشبكة مرقشة لاصطياد طيور القطا .. رسمت فوقها بيوت ومآذن .. وحدائق وبحار ..

وسار فوق الشبكة ، ومضى إلى بيته وقد أستبد به القلق ، وعندما أصبح عند مدخل البيت اندفعت إلى ذراعيه شقيقته السمينة الأسفنجية وهى تصيح : « الزلزال ! » .. وجسدها يرتعش .. وهى تنتظر كلمة طيبة من شقيقها .

ولكنه ازاحها جانبا وطوح بطربوشه فوق الأريكة وهو يحس بأن البيت قد أصبح ضيقا .. لا يتسع له .

كان الحفل داخل القبو قد تقدم كثيرا ! فعند بداية المساء تسللت « رينيو » لتنظر من خلال ثقب فى الحائط وترى حال ضيوف أبيها الحمقى !

كان « فورد جاتوس » قد خلع حذاءه : كانت قدماه قد التهبتا ، فقام يرقص وحده وقد أعماه السكر وتملكته روح شريرة ، وأخذ يخبط السقف برأسه فى قفزاته العالية ، والدماء تسيل فوق أذنيه وعنقه وهو ماض فى سعادة .. يتابع رقصته ويقفز ، أما أفنديتا فقد نسى كل شىء عن العار والخجل ، وخلع عمامته فبدت القرحة فى راسه بيضاء ناصعة ، وانحنى فوق البرميل الأوسط حيث انحنى « كاچابيس » هو الآخر وقد زين رأسه بأوراق الخرشوف ، وكانت لاتزال هناك بضع بيضات فى الطبق الفخارى يرهق « فيندوسوس » أعصابه فى بطولة لكى يأتى عليها بقشرها وهو يسعل وعيناه مليئتان بالدموع اثر محاولاته ابتلاع قشر البيض ! » بينما جلس « بيرتودولوس » المسكين فى الركن خلف الأباريق ، وقد عقد ساقيه ورمى بمعطفه بعيدا حتى لايتسخ .. وكان المسكين فى تلك اللحظة يدس أصبعه فى حذر داخل حلقه حتى يتقيأ ، وبعد كل دفعة .. يتجه إلى زملائه وينحنى ليقول فى صوت منغم :

« معذرة يا سادتى النبلاء .. معذرة » ..

وكانت « رينيو » سعيدة وهى ترى كيف يهين هؤلاء الناس أنفسهم لكى يسلوا أباها ، ثم اتجهت ببصرها إلى نهاية القبو حيث جلس الكابتن ميخايليس .

كان يستند إلى الحائط فى صمت وقد ألقى براسه إلى الخلف وهو يحدق فى فراغ ، ولم تكن الخمر قد أحدثت أثرها فيه بعد ، فلم يكن فى حالة سكر ، كما أنه لم يكن يتكلم ، بيد أنه أيضا .. لم يكن مبتهجا ، كانت شفته العليا فحسب ترتعش قليلاً فتبرق أنيابه وسط شعر شاربه المشعث الكثيف .

وابتسمت « رينيو » . كانت تحب أباها وتفخر بمظهره الشرس وبصمته وكبريائه وتقول دائما لنفسها : « لو أننى كنت رجلاً لأحببت أن أكون مثله ، وإذا أنا تزوجت ، فأنا أريد رجلا مثله ! » ..

غابت الشمس ، ونسيت « ميجالوكاسترو » أنها تعيش فى لجة ، ... فتألقت سعيدة موردة تحت أشعة الوداع .

وامتلأت « الأقباء الثلاثة » بالناس ، وخرج الرجال والنساء إلى الشوارع ليرى بعضهم البعض ، تماما مثلما يخرج النمل والديدان من باطن الأرض إلى الشمس بعد انقطاع المطر ، كانوا قد أفلتوا من خطر داهم ، لقد انشقت القبور لحظات تحت أقدامهم .. ولكنها مالبثت أن أغلقت ، ولايزالون أحياء على ظهر الأرض .. وشكرا لله ، كانوا يهنئون بعضهم البعض وهم يرفعون قبعاتهم ويتصافحون فى مرارة ، فقد وحدهم هذا المساء حب مفاجيء ، كانوا ينظرون فى رقة أحدهم إلى الآخر وهم يروحون ويجيئون ويحدقون فى البحر كما لو لم يكونوا قد رأوه من قبل ، ويتوقفون عند « كشك » الباشا فى وسط الميدان حيث أزهرت إحدى شجيرات زهر العسل المتسلقة لكى يتنشقوا عبيرها وكأنما أصابهم الذهول من فرط رقتها .

« ماهذا يا صديقى ؟ » .

« زهر العسل » .

« اللهم باركنى ! » .

وشيئا فشيئا بدأ الناس يتوافدون على المقهى الكبير بعد أن تعبوا من السير هنا وهناك .. بدأوا يتوافدون على مقهى « ليونيداس بابا لاروس » ويصفقون بأيديهم ليهرع إليهم السقاة عراة الأقدام يقفزون كالزنابير ، فيطلبوا منهم شراب الكرز والمياه الغازية وفطائر الصيام وكعك العنب .. وخرج الأطفال الأتراك وفى أيديهم فطائر اليقطينة والياسمين ، حتى « روهينى » ، هذه المرأة البربرية التى تلمع مثل فرس سوداء ، ظهرت هى الأخرى بعقد من الخرز الزجاجى حول عنقها ، وبثدييها العريضين المتهدلين وقد نظفت « الكعك أبوسمسم » مما علق به من الروث حين سقط فوق الأرض بفعل الزلزال ، ظهرت تسير هنا وهناك ضاحكة تتمايل وتنحنى وأسنانها البيضاء الناصعة .. وعيناها الخبيثتان تلمع تحت أشعة الشمس الغاربة .

لحظتها قال أبناء المدينة :

« يالها من سعادة ! .. يالها من جنة ! وهذه روهينى أيضا .. وكعكها أبو سمسم ! » .

وبينما كان المزيد والمزيد من الأماكن القريبة من « ميجالوكاسترو » يتوافدون معا ويخلقون البهجة فى « الأقباء الثلاثة » بملابسهم الجديدة ، كانت الشمس قد اختفت وراء « سترومبولاس » تاركة وراءها وهجا رقيقا بنفسجيا تحددت تحته معالم وجوه الرجال والنساء .

ترى ، من من أبناء « ميجالوكاسترو » تبحث عنه فلا تجده فى « الأقباء الثلاثة » مرتديا ملابس يوم الأحد ؟ بل من من نسائها كن هناك لسبب من الأسباب ، فلم تجلس عند مقهى « ليونيداس باربالاروس » لتشترى كعك اليقطينة وتضع عويناتها وتتأمل فى الدنيا ؟

كان « تيتيروس » هناك مع خطيبته « فانچيليو » ومعهما كانت « كريسانتى » مصففة الشعر مبدرة الوجه تضع فوق رأسها قبعة بمناسبة زيارتها « للأقباء الثلاثة » هى وابنة أخيها وحفيدها الجديد ، وكانت تسترق النظر خلسة إلى « فانچيليو » وتبتسم فى ارتياح وتقول لنفسها « أنا أفضل منها .. وأجمل ، وعندى شىء يمكن أن يمسك به الرجل ، أما هذه المخلوقة المسكينة ! الجلد على عظم ! فسوف لايجد تيتيروس فيها لحما يمكن أن

يملأ قبضته ، ولكن ماذا يهمنى فى الزواج ؟ لدى أخى ، ولست فى حاجة إلى مخلوق آخر ! » ..

وظهر الطبيب أيضا هو و« مارسيل » . كان رجلا « عاملا » ذا اكتفاء ذاتى ، سمينا ، يضع فوق رأسه قبعة باريسية جافة ، ويرتدى قفازين ويمسك بعصا ، أما « مارسيل » فقد لطخت وجهها بالمساحيق وبالغت فى تلوينه كى تخفى تعاستها .. كما حمرت شفتيها .. وكانت نسوة « ميجالوكاسترو » يتطلعن إليها فى سخرية ، يا للقناع يا عزيزتى ويا للغرور ! ذلك ما يستحقه هذا الطبيب المتحذلق ! كان الأجدر به أن يتزوج من بلده الأصلى !

غرق البحر فى الظلمة ، واختفت من أفقه جزيرة « ديا » ، وتنهدت نسائم قادمة من الشاطىء تطايرت معها شعور النساء وجعلتهن يضعن مراوحهن جانبا ، ومر جمـاعة من الصيـادين المالطيين ومعهم « الكونسرتينا »★ ، وقد وضعوا فى آذانهم أقراطا وفتحوا صدور قمصانهم لتظهر صدورهم العارية كثيفة الشعر التى صبغها البحر والشمس ، وكانوا يغنون بأصوات مبحوحة دون أن يستديروا لينظروا إلى نساء « ميجالوكاسترو » ، بل ساروا قدما متجهين إلى الميناء حيث تنتظرهم هناك النساء المالطيات المتمددات وسط حبال الشباك وسلال السمك .

وفى وسط الظلام وجد الصغار الجراة على أن يبدأوا مرة أخرى جولاتهم ، ويقتربوا من الفتيات ويسترقوا اليهم النظرات وقد ارتعشت فوق وجوههم رياح حب دافئة ، وإلى جانب تقع الجبال ، وإلى الجانب الآخر يقع البحر الكريتى ومن فوق .. سماء معتمة زرقاء ، وفوق كل رأس لشاب أو فتاة لم يتزوجا بعد .. ترقص « فينوس » نجمة المساء بألف ألعوبة خبيثة ! .

وبينما كان رجال « ميجالوكاسترو » ونساؤها يتجمعون فى « الأقباء الثلاثة » كان « تاراساكى » ابن « الكابتن ميخايليس » وأصدقاؤه الثلاثة يحثون السير إلى « البيرفولا » ، تلك الحديقة غير محددة المعالم بلا سياج فى طرف « ميجالوكاسترو » ، والمليئة بالصبار والحشائش ذات الأطراف

★ آلة موسيقية .

المدببة ، وكان « تاراساكى » يحمل معه حبلا لفه حول خاصرته ، و« مانوليس » ابن « ماستراباس » يحمل هراوة ، و« أندريكوس » ابن « كراسوچورچيس » يحمل مقرعة .. و« نيكولاس » ابن « فورد جاتوس » يحمل صفارة .

وقال « نيكولاس » :

- « إذا رأينا اباها يخرج ، فسوف أصفر لنهرب » .

وسأله « أندريكوس » :

- « هل قلت إن بيرفولا تجلس دائما عند عتبة الباب ؟ » .

ولم يكن « پيرفولا » هو اسم ابنة « باراسكيڤاس » ، ولكنه كان الاسم الذى أطلقه عليها هؤلاء الأوغاد الصغار لأنها كانت سمينة غضة دائمة الابتسام .

وقال « تاراساكى » :

- « إنها تقف عند عتبة الباب كل يوم أحد بشرائطها فى شعرها ، أعطنى صفارتك يا نيكولا ، وسوف أطلقها عندما تبدأ الهجوم عليها » .

ثم أمسك به وأخذ منه الصفارة وقال :

- « أنت تأخذ الحبل ، ألست أنا الكابتن ؟ حسنا ، فلابد أن تكون الصفارة معى ، هيا بنا الآن ! » .

كانت هناك بضعة بيوت بائسة متناثرة ، تكون الحى غير المطروق الذى يسكنه فقراء الأتراك والأرمن ، وكان الأرمن يطحنون البن فى هاونات ضخمة من الحجارة ثم يبيعونه ، وكان الأتراك يعملون بالنهار حمالين وفعلة .

وبدأ الأصدقاء الأربعة الذين كانوا يعدون منذ لحظات .. يتحركون فى حذر لصق الحوائط فى صف واحد يقودهم « تاراساكى » بصفارته ، وفجأة توقفوا ، فقد ظهرت « بيرفولا » السمينة الفكهة واقفة إلى باب بيتها والشريط الأحمر فى شعرها الأشقر وهى تمضغ اللبان .

واستدار « تاراساكى » إلى رفاقه وقال هامسا :

ـ « انظروا ! ها هى ذى ! سوف أطلق الصفارة واندفع أنا فى البداية ، ليس هناك أحد قادم » .

وتقدم الأربعة قليلا ، وظهرت « بيرفولا » المزهرة أمامهم فارعة الطول ساكنة ضخمة ، وكانت تدير وجهها بعيدا عنهم تراقب قطتين تقتتلان فى صحف فوق الحائط خلفها .

وسار الأقزام الأربعة ملتصقين بالحائط وقد حبسوا أنفاسهم ، وجال « تاراساكى » ببصره فى الشارع هنا وهناك ، لا أحد ! ، وضع الصفارة بين شفتيه ، ونفخ فيها ثم اندفع نحو الفتاة واندفع خلفه الآخرون مثل القطط ، وأمسك « تاراساكى » بها من جانب بينما أمسك « نيكولاس » بها من الجانب الآخر ، وتشبث « أندريكوس » بقدميها بينما أطبق « مانوليس » بيده على فمها لكى يمنعها من الاستغاثة ، ولكنها لم تقاوم ، ثم مالبث الأربعة أن حملوها وهم يلهثون بعنف ـ فقد كانت ثقيلة ـ دون أن يعرفوا ما يمكن أن يفعلوه بها بعد ذلك .

وقال « تاراساكى » آمرا :

ـ « هيا إلى البيرفولا ، امسكوا بها بقوة حتى لاتهرب منا ! هيا ! »

ثم أخذوا يتعثرون وهم يندفعون بها من البوابة المحطمة إلى بضع خطوات خلفها ، ثم وقفوا حولها وهم ينظرون إليها ، وكان الشريط الأحمر قد انزلق فتهدل شعرها فوق كتفيها ، بينما تمزق ثوبها من فوق ركبتيها ، وأخذ صدرها يعلو ويهبط فى عنف تحت المشد الشفاف ، كان الذعر قد تملكها فى البداية ، أما وقد عرفت الآن من الذى فعل ذلك بها فقد بدأت تقهقه ، ثم تمددت فوق الحشائش وهى تنظر إلى الصبية بعين متحدية نصف مغلقة .. وانتظرت .

وأخذ نيكولاس يتفحص فى إمعان بيرفولا الممددة من قمة رأسها إلى أخمص قدمها دون أن يصل فى شأنها إلى قرار .. فتساءل :

ـ « ماذا سنفعل بها الآن ؟ » .

فقال « مانوليوس » :

ـ « لنبصق عليها » .

وبدأ الأربعة يبصقون عليها ، ولكن ذلك لم يبعث الراحة إلى نفوسهم ، فلم يكن ذلك ليكفى ، وتوقفوا عن ذلك وأخذوا يحدقون فيها بعيونهم ، يجب أن يفعلوا شيئا آخر ، نعم .. شيئا آخر ، ولكن .. ماذا ؟ ..

قال « أندريكوس » وهو يرفع الهراوة التى أمسك بها : « فلنضربها ! » . واندفع الأربعة فوقها وبدأوا يضربونها ـ بالهراوة والحبل ، بينما أخذ « نيكولاس » ـ وهو أقواهم بنية يضربها بقبضة يده ، وعاد الذعر يستبد بالفتاة وبدأت تصرخ :

وقال « ثاراساكى » مقترحا :

ـ « هيا ندوس فوقها حتى نمنعها من الصراخ » ..

وسأل « مانوليوس » :

ـ « ما رأيكم فى المقرعة ؟ » ..

ثم أخرجها من حزامه .. فقال « ثاراساكى » :

ـ « هذه يجىء دورها فى النهاية » .

وقفز الأربعة فوق ظهر الفتاة وفوق بطنها وهى تتدحرج فوق الحشائش تحاول أن تهرب من أقدامهم ، ثم استطاعت أن تقف فى النهاية وهى تحاول الهرب ، ولكنهم ارتموا فوقها مرة أخرى ، وأسقطوها إلى الأرض .

وبدأ عرقهم يتصبب ، وأحسوا بالتعب ، فتوقفوا مرة أخرى وهم ينظرون إلى الفتاة وقد تملكتهم الحيرة فيما يمكن أن يمارسوه فيها من أنواع جديدة من التعذيب ، ماذا يمكن أن يفعلوه فى الفتاة غير ذلك ؟ كانوا يتوقعون أن يحسوا بالسرور حين يختطفونها ويعاملونها بقسوة ، ولقد ظلوا شهرا بطوله يدبرون خطتهم وهاهم الآن يرون الفتاة ملقاة أمامهم دون أن يحسوا بالرضا ، ووقفوا يحدجونها بنظرات مليئة بالبغض والكراهية .

وقال « ثاراساكى » :

ـ « كان لابد أن تحضر معنا مطواة جيب نغرسها فى جسدها لتسيل دماؤها ، كان لابد من ذلك ! » .

فقال « ثاراساكى » :

ـ « هل أعضها ؟ أستطيع أن أنزع قطعة من لحمها ! » .

وقال « مانوليوس » :

ـ « نعم ، لنفعل ذلك بالدور » ..

ولكن « ثاراساكى » أصدر أوامره :

ـ « لا .. بل نفعل معا .. ودفعة واحدة ! » .

وفك « نيكولاس » الحبل ، وألقى الأربعة أنفسهم فوق الفتاة ليكبلوها بينما أخرج « مانوليوس » المقرعة من حزامه ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يكملوا ما أنتووه ، فقد تناهى من عند الباب المحطم صوت حاد يتميز غيظا :

ـ « أيها المتشردون الملاعين ! » .

واستدار الأربعة ليروا السنيور « باراسكيفاس » واقفا بباب البيرفولا نصف عار ، ومسلحا بعصا مكنسة ، كان مساء السبت قد أرهقه بعد أن حلق رءوس وذقون كثيرين من الكريتيين ، وكان قد نام اليوم بطوله حتى يستجمع قواه لأسبوع آخر قادم ، ولم تكن المقصات والأمواس تبدو له بمثل الحدة التى تبدو بها فوق جزيرة الشيطان هذه .. وفجأة ، وأثناء نومه ، سمع صرخات ابنته ، فقفز من فوق فراشه واختطف عصا المكنسة وهرع إلى الشارع وهو لا يرتدى سوى سرواله ، صاح رافعا صوته قدر طاقته وهو يرفع عصا المكنسة :

ـ « أيها المتشردون الحمقى ! » .

ولكنه تراجع فجأة ، فقد رأى بين الأربعة ، ابن الكابتن « ميخايليس » فغمغم يقول لنفسه :

ـ « أوه ، هذا يعنى متاعب ! .. كن حريصا أيها المسكين باراسكيفاس ! » . واكتفى بأن يلوح بالعصا فى الهواء مهددا ..

وقال « ثاراساكى » :

ـ « هيا بنا .. اتبعونى » ..

واستدار نحو « باراسكيفاس » ، وهو يقول :

ـ « أنت .. يا سيد باراسكيفاس ، ابتعد عن الباب ودعنا نخرج ، واقذف بعصا المكنسة هذه ! » ..

وقال « باراسكيفاس » :

ـ « معذرة ! » .

وألقى بعيدا بعصا المكنسة .

الفصل الرابع

ما أروع ما رتّب الله سبحانه الأمور فى هذه الدنيا ! ستة أيام فى الأسبوع ليجرى الناس وراء المال ، واليوم السابع يوم لله ..

أشرق صباح الاثنين ، ودارت العجلة دورة أخرى ، ونسى سكان « ميجالوكاسترو » ـ الذين كانوا بالأمس خائفين مهذبين ـ نسوا الزلزال .. ونسوا الله ، وعادوا لينغمسوا فى « الأخذ والعطاء » وفى « أن يأكلوا أو يؤكلوا ! .. »

أشرقت الشمس ، وحمل الجنود مفاتيحهم الغليظة ، وفتحوا الأبواب الثلاثة على العالم الخارجى ، ومن بعيد اندفع الفلاحون يصيحون برفقة حميرهم وبغالهم الموسوقة بالأحمال . وفتح كذلك باب الميناء واندفع عبره الحمالون وملاحو الزوارق وعمال الميناء ، وارتفع مرة أخرى ضجيج البشر فوق الرصيف ، وملأ ضجيج مماثل آذان الرجال فى السوق بينما بدأت طرقات مطارق الحدادين تعلو فى حى الغجر المجاور .. ووقف المنادى فى وسط الميدان وجلجل صوته كالجرس ، وهو يعلن أن بقرة سيجرى ذبحها فى المذبح الاسماعيلى ، وأن لحمها سيكون أرق من الحلوى التركية ! .. وأن الذى يسبق ، سيكون له حظ اختيار أفضل أجزاء الذبيحة ..

وفى الشارع العريض بدأت حوانيت الاسكافيه تفتح أبوابها الواحد بعد الآخر ، وأخذ « المعلمون » أماكنهم فوق كراسيهم المرتفعة وبدءوا يقطعون الجلود بينما بدأ المساعدون و« الصبيان » يخرجون مقاعدهم الصغيرة وآلاتهم ليبدءوا العمل وهم يتطلعون إلى الشارع لعلهم يرون شخصا يسمح لهم مظهره بالسخرية منه ، فتلك كانت أفضل الوسائل بالنسبة لهم لقتل الوقت !

وكان الكابتن « ستيفانس » أول القادمين متكئا على عصاه الملتوية ،

فقد سمع بأن سفينة صديقه الكابتن « جاكوميس » قد وصلت مساء أمس من « سميرنا » فأراد ان يرحب بقدومه ويعرف منه ماكان يحدث هناك فى اليونان ، وماذا كان يفعل الملك وماذا كان الناس يقولون عن الاتحاد ، ففى « سيرا » كانت هناك « لجنة كريت » التى كانت « كريت » شاغلها الأكبر فى الليل والنهار .. كانت تجمع الأموال وتشترى البنادق والذخيرة وتنتظر ، وكان أعضاؤها يقولون إنه إذا لم يكن هناك تقدم فإن كريت سوف تثور مرة أخرى ، لهذا ، فقد أسرع الكابتن « ستيفانس » ليعانق صديقه وليعرف منه فى الحانة شيئا عما كان يحدث فى العالم ..

وصفر أحد « الصبيان » الاسكافيين بفمه ، وكانت تلك إشارة ! .. وتطلع الجميع .. وحدقوا ، ولكنهم مالبثوا أن اداروا عنه ابصارهم فى ذعر وضيق فلم يكن أحد منهم على استعداد لأن يصطدم « بكلب البحر ! » هذا الذى نال على يديه أحد « الصبيان » أول أمس « علقة » قاسية لأنه سخر منه ! ، حين أخذ يصيح فيه « أيها القملة الضئيلة .. ! هل تسخر منى ؟ ! هل تعرف أيها الأحمق السبب فى هذا العرج - ومتى وأين اصابنى ؟ حسن .. فاسأل إذن يا خسيس الأنف ! ... » ثم أمسك به وظل يضربه بعصاه دون أن يجرؤ « معلمه » على الدفاع عن صبيه - بل على العكس ، قال : « صدقت يا كابتن ستيفانس .. فأنت (ميادليس)* الكريتى .. ا .. زده ضربا ! » ..

أحنى الاسكافيون إذن رؤوسهم ، ولم ينبس احدهم ببنت شفة ، وتركوا الكابتن « ستيفانس » يمضى فى طريقه ، وحين اختفى عن الانظار ، قال أحدهم : « وحق كل مقدس يا أولاد .. هذا الرجل بندقة صلبة .. صلبة تعز على الكسر ! » وبينما كان لايزال يتكلم ، .... ظهر « شاريلاوس » ذلك القزم مقوس الساقين وفى يده عصاه الهزيلة .. بشاربه المبروم .. وحذائه الضخم .. ومر بحذاء حوانيت الاسكافيين وهو يضرب الأرض بعصاه ، ورفع أصحاب الحوانيت أيديهم إلى صدورهم يتمنون له يوما طيبا ..

وحين كان أبناء « ميجالوكاسترو » يرون السيد « شاريلاوس » مارا بهم ، كانوا يحسون بالاحترام والرهبة معا وكانما لم يكن بشرا ، بل شيئا ما بين البشر والعفاريت جاء من دنيا الأساطير .. كان الأطفال يلزمون أماكنهم ويحدقون فيه وقد أصابهم الذعر .. كان حارس كنز من الذهب

مطمور فى الأرض ! كان يسيطر على قوى الظلام ! .. كانت عيناه شريرتين ، فإن هو نظر إليك فسوف يتقلب جلدك على الفور أخضر اللون .. وسوف ينتفخ جلدك ويتورم وكأن أفعى قد لدغتك ! وكانوا يحكون عنه أنه حدق فى يوم من الأيام فى شجرة ليمون مزهرة .. وعلى الفور ، ذبلت زهور الشجرة !

من أجل ذلك ، أحنى الاسكافيون رؤوسهم فى صمت .. وتركوه يمر بهم فى سلام !

وقال الصبى الذى صفر بفمه من قبل :

ـ « بداية سيئة لهذا اليوم يا أولاد ! لاشىء نضحك منه اليوم ! أين أفندينا يا ترى ؟ ! وأين باربايانيس ! هل مات الاثنان ؟ ! »

وصاح صبى آخر فى دكان مقابل :

ـ « جاءت سيرة القط ، فجاء ينط ! هذا هو باربايانيس ! » .

وأدار الكل رؤوسهم فى سعادة يتطلعون إليه وهو يصيح على بضاعته وهو يحمل صفيحته البرونزية بيده اليمنى ، وسلة مملوءة بالثلج بيده اليسرى .. ويتقدم برأسه المدبب ومظهره البشع ..

وكان فى نيتهم أن يثيروا ضجة تغطى على صوت « باربايانيس » ، ثم يقذفونه بعد بقشور الليمون ويتهكمون عليه وهم يساومونه على بضاعته ، وسأل أحدهم : يا زوجتى الصغيرة ! .. هل كل الأولاد فى البيت من صلبى ؟ ! اصدقينى القول ! .. فكرى جيدا .. فأنا أموت يا زوجتى العزيزة ! » .. وأجابه آخر من الجانب الآخر للشارع فى صوت مرتفع منغم :

ـ « وإذا لم تمت يا باربايانيس ؟ » .. وانفجر الشارع كله بالضحك ، ووقف بعدها لكى يسمعه الجميع وصاح : « يا أولاد ، هذه المرة سوف نلعب معه لعبة جديدة لن نصدر صوتا ، وعندما يمر بنا ويحاذينا تماما ، سوف نتظاهر بأننا جميعا لانراه .. ثقوا أن ذلك سيبعث به إلى الجنون وسوف تكون لعبتنا هذه مسلية حقا » ..

★ « ميادليس » .. بطل قرصان كريتى ..

ووصل « باربايانيس » .. وبدأ يصيح على شرابه ، ونظر يمينا ويسارا إلى حوانيت الأحذية ، وتوقف لحظة ينتظر ، ما الذى يجرى ؟ ! رحمتك يارب ! .. ألا يرفع احدهم راسه وينظر إليه ؟ ! ألا يفتح أحدهم فمه ليناديه عليه ؟ ! هل أصبح ضئيلا إلى هذا الحد ؟ ! .. أأصبح سواء أن يمر بهم كلب أو حمار أو « باربايانيس » ؟ ... لماذا لا تصدرون صوتا يا أولاد ؟ ! .. مازلت انا كما كنت .. باربايانيس ! .. اين إذن قشور الليمون ؟ ! ..

صمت ! .. الكل ينحنى على الجلد أمامه فى صمت ، يدقون بمطارقهم ، ويصبغون الأشرطة ، ويمررون الخيوط فى الإبر ، ويخيطون الجلود ، وارتعش « باربايانيس » ومسح بيديه عينيه ، ترى هل يحلم ؟ ! .. ووضع الصندوق والسلة فوق الأرض ثم صاح :

ـ « وحق الرب ! .. قولوا شيئا يا أولاد ! .. سوف أجن ! .. لا .. لست أحتمل ذلك ! .. أين قشور الليمون ؟ » ..

ولكن أحدا لم ينظر إليه .. ولم يصدر عن أحدهم صوت ، وعاد « باربايانيس » يتوسل إليهم :

« الرحمة يا أولاد ! انا اموت ، وانتم لاترحموننى بنظرة .... !

« أحقا انا لاازال حيا ؟ ! أم اننى مت ؟ ! .... قولوا ولو كلمة واحدة ! » .. لاشىء ! .. سكون كسكون الموت ! وأصاب « باربايانيس » فزع شديد ، وتمتم يقول : « سحر ! ... هذه نهاية العالم ، والموت يحوم فوقنا ! إما أن الاسكافيين قد ماتوا ، وإما انا الذى مت » .. ثم مالبث أن صاح : « النجدة يا قدمى ! » ثم أمسك بالصندوق والسلة فى عنف وضرب بهما قدميه .. وهنا ، انفجر الشارع كله ضاحكا .

وسمعت الضجة حتى فى الأسقفية . ونهض كبير الأساقفة من سريره حيث كان يرقد مصابا بنزلة برد وكان « مورزوفولوس » قد ابعد لتوه كاس الحجامة وامسك به يمسحه بقطعة من القماش ، وتساءل وهو يرهف أذنيه : « اتكون عاصفة تقترب .. أم انه زلزال آخر ؟ » ..

وأجاب « مورزوفولوس » فى غضب :

ـ « لابد أنهم الاسكافيون يا سيدى » .. يسخرون من شخص مسكين

سيىء الحظ ، هؤلاء الضالون ! الدنيا أصبحت للكلاب ! .. ولكنهم يوما ما سيستغيثون ! .. اللعنة عليهم ، فقد قطعوا حديثنا يا أسقفنا المحترم .. » ..

وكان كبير الأساقفة يحدثه عن روسيا ـ عن « كييف » حيث عمل « أرشيمندريتا » سنوات طويلة ، عن العواصف الثلجية ، عن القباب الذهبية فى قمم الكنائس وعن الأديرة تحت الأرض .. التى تزخر بالقديسين ، قال :

ـ « لاتخش شيئا يا مورزوفولوس طالما بقيت روسيا .. إن الإيمان الحق سوف يعيش ويسيطر إلى الأبد ، هناك فى روسيا وجد المسيح له ملجأ .. هناك رأيته بعينى هاتين ! .. هناك رأيته يامورزوفولوس فى إحدى امسيات الشتاء ، كان يذرع الثلوج وقد اكتسى بمعطف طويل من الجلد وانتعل حذاء طويلا برقبة ، ووضع يديه فى قفازات سميكة ، وظل يطرق الأبواب دون أن يسمح له أحد بالدخول ، ثم رأيته من خلال النافذة فاندفعت اهبط الدرج لأفتح الباب له وأنا أصيح « ياسيدى المسيح ! » .. ولكنه كان قد اختفى .

ورسم « مورزوفلوس » على صدره علامة الصليب ، وقال فى اكتئاب :

« اما أنا .. فلم أره ابدا » ..

وأجاب كبير الأساقفة :

« إذهب إلى روسيا .. وسوف تراه » ..

ثم أدار وجهه نحو الحائط واستسلم للنعاس .

ولكن الباشا هو أيضا كان فى ضيق بعد أن استيقظ هذا الصباح وهو يرى أن صحته ليست على مايرام فى هذه الأيام ، ويحس فجأة بأنه يطعن فى السن ، أول أمس ، وكان يدخن غليونه الطويل فى « كشك الباشا » بالقرب من الأقباء الثلاثة ، وكان الجنود يدقون طبولهم ـ لمحت عيناه وسط جموع اليونانيين التى كانت تمر بالقرب من الفرقة الموسيقية .. فتاة ذات شعر كثيف وفم شهوانى أعجباه كثيرا ، فاستدار نحو خادمه العربى سليمان وقال :

« من تكون هذه الفتاة اليونانية التى ترتدى ثوبا أحمر ؟ » ..

ـ هل تعجبك يا أفندينا الباشا ؟ ! إنها ليست من ميجالوكاسترو إنها قادمة من « كروسون » هذه القرية المتوحشة .. وقد تزوجت يوم الأحد الماضى من « كاچابيس » البقال المشهور بإجادته للغناء .. أنت سمعته من قبل .. بحق الشيطان يا أفندينا الباشا ! .. دعها وشأنها » ..

ـ هل هى امرأة محترمة ؟ ! .. فلتذهب إلى الجحيم إذا كانت كذلك !

ـ محترمة جدا يا أفندينا الباشا .. محترمة جدا .. وزوجها من أبناء « سفاكيا »

وهز الباشا رأسه الصلعاء وهو يتمتم :

ـ امرأة محترمة .. امرأة محترمة .. هى كذلك لأننى أصبحت عجوزا .. آه .. إنها النهاية .. ماذا ينتظر المرء بعد من الحياة ، إذا لم يعد فى مقدوره أن يرتكب الحماقات ، حينما لا يستطيع ان يفعل برجل شيئا إذا أراد ، أو أن يقبل أية امرأة حين يشاء ؟ اى باشا انا إذن ؟ هذه الشيخوخة الملعونة ! كم كان لى من أوقات حلوة فى أماكن يونانية أخرى حيث تعودت

أن أبعث بجلادى ومعه تفاحة ملفوفة فى قماش هدية للعروس ، ورصاصة هدية للعريس ليخبرهم أن الخيار بأيديهم ، فكيف كان بمقدورهم إذن أن يختاروا الرصاصة ؟ .. كانوا دائما يختارون التفاحة ، وكانت العروس تجيء عندى غارقة فى دموعها فى ثوب زفافها ، وكانت تقاومنى وتصارعنى كما أحب فى النساء دائما .. ثم لاتلبث أن تجلس فوق ركبتى ، ولكننى الآن اصبحت عجوزا ، الدولة أيضا اصبحت عجوزا ، والسبب هو هذه الملعونة « كريت » ..

ثم استدار نحو خادمه العربى وقال وهو يغمز بعينيه :

ـ مارأيك يا سليمان ؟ ..

ـ كأنك لم ترها يا أفندينا الباشا .. تذكر .. نحن فى كريت ! هنا سوف نلقى المتاعب .. لا تتنهد .. هل أبحث لك عن الفتاة الأرمينية ؟ ! ..

كانت « ماروسيا » الأرمينية مشهورة فى كريت حتى لقد ورد اسمها فى

إحدى الأغنيات بالجزيرة .. كان زوجها أرمينيا فظا ضخم الجسد يملك دكانا فى الميدان الرئيسى يقف بداخله طوال اليوم منحنيا فوق الهاون الحجرى العميق يطحن البن الذى تنتشر رائحته فى كل مكان حوله .. وكانت ذراعه مفتولة صلبة من كثرة ما يستخدمها فى إدارة عصا الهاون حتى ليستطيع أن يضرب بها الحائط فيخرقه .. وكانت زوجته الأرمينية الساحرة الصغيرة تبدو من خلفه كما لو كانت مؤلفة من مجرد كرتين تهتزان كلما سارت ، أما رائحتها الجنسية المثيرة كرائحة الحيوان ـ فقد كانت تتسلل إلى أنوف الشبان حتى وهم فى أطراف المدينة البعيدة .. وفى المساء ، كانوا يتسللون متجهين إلى كوخها القريب من « البيرقولا » حيث كانت تقف على مدخله بجسدها المنهك ، خداها تكسوهما المساحيق الكثيفة وشعيرات خفيفة فوق شفتها غارقة فى العرق ، كانت تقف هكذا صامتة ساكنة مبتسمة وعيناها شبه مغلقتين حتى إذا أظلم الليل وكان زوجها المتعب لايزال نائما ، بدأت هى تفتح دكانها الخاص وتبيع الحب بالميزان بينما شخير زوجها يعلو من الحجرة المجاورة .. وكانت تتعمد ترك الباب مفتوحا ، فقد كان يمتعها أن تحس بأن زوجها قريب منها ، وبأن ترتعش من الخوف بينما زبائنها من الترك والمسيحيين والأرمن واليهود يحتضنون جسدها .

وكان الخادم العربى سليمان يحضر الأرمينية الساحرة كلما أحس الباشا بالضيق حين يعنفه الوزير لسبب ما .. بعدها كان الضيق ينتهى ويزول .

وسأله سليمان مرة ثانية :

ـ هل أبحث لك عن المرأة الأرمينية ؟ !

وبصق الباشا فى تقزز وصاح :

ـ يارجل .. أنا لا أريد أية امرأة .. المنافقون مثلهم مثل القسس ـ يسببون لى الغثيان ، بستة عشر أو سبعة عشر عاما لم أفعل غير ذلك ، وأنا الآن أتنهد لأننى أصبحت عجوزا .. ولأن تركيا أصبحت هى الأخرى عجوزا .. نحن الاثنان نمضى حثيثا إلى الشيطان .. على أية حال ما اسم هذه البنت ؟ !

ـ جاروفاليا .

ـ فليتعفن جسدها ! قل لباربايانيس ان يحضر إليّ هذا المساء ليسليني ، إن قلبي مثقل يا عزيزي سليمان .. افندينا قادم هو الآخر .

وضرب بغليونه على الحجارة وغمغم لنفسه في صوت خفيض حتى لا يسمعه سليمان : « إنها تحبني .. إنها لاتحبني .. الله جعلني كذابا ، ولكنني واثق من أن تركيا هي أيضا قد وصلت إلى مرحلة أصبحت تقول فيها : إنها لاتحبني .. أملأ غليوني واشعله يا سليمان ولا تتكلم ! » ..

ومر فارس بالقرب منهما : فارس مهيب المنظر تختفي جبهته تحت عصابة عصب بها رأسه ، يلهب فرسه بسوط ، وينهب الأرض مثل البرق الخاطف حتى اختفى في الحقول عبر بوابة المستشفى وتساءل الباشا في دهشة :

ـ من يكون هذا الكافر يا عربي ؟ ! إنه دائما يستعرض نفسه فيما يبدو ! ترى أين رأيناه قبل هذه المرة ؟ !

وحدق العربي بعينيه مأخوذا يتبع الفارس الذي كان يدور في تلك اللحظة حول التحصينات .

وعاد الباشا يسأل وهو يشعل غليونه :

أين فطنتك يا غبي ؟ ! .. الم تسمع سؤالي ؟

ـ تسألني من يكون يا أفندينا الباشا ؟ .. ألا تذكر إذن استدعاءه إلى القصر في العام الماضي وتجريده من ثيابه لسخريته من نوري بك ؟ إنه لم يفتح فمه يومها ليعتذر وحين خرج فقد أمسك بالسلم وكاد أن ينتزعه من مكانه .

وغمغم الباشا :

ـ الكابتن ميخايليس !

واستغرق في التفكير لحظات .. ثم قال :

ـ اسمع يا سليمان ، سوف أقف يوما ما بالقرب من الأقباء الثلاثة أمام

كل الناس من أتراك ويونانيين ، وأدعك تصارعه وتطرحه أرضا .. ثم نتخلص منه بعدها .. هل تسمعنى ؟ !

وتطلع العربى إلى البحر .. وكان بياض عينيه شديد الاصفرار تشوبه حمرة معروقة .. ولم يجب ..

وأشار الباشا .. فتوقفت الطبول ، ونهض ثم استدار مرة أخرى نحو خادمه وقال :

ـ إذا كنت تخاف من هذا الكافر يا عربى .. فقد انتهى أمرك .. انتبه جيدا إلى ما قلت .

ولم يقل شيئا آخر ، ولكنه ظل طوال ثلاثة أيام يفكر فى المرأة ذات الثوب الأحمر ، وفى قلب تركيا المريض .. وها هو اليوم ـ صباح الاثنين ـ يستيقظ وقد استبد به الهياج من حلم سيىء رآه تلك الليلة . فى وسط السوق كان هناك وحشان يصطرعان : كابتن ميخايليس والعربى سليمان ، كان الاثنان عاريين يكسو الشحم جسديهما ، وليس فى يد كل منهما سوى فأس ، وقد تجمع حولهما ابناء ميجالوكاسترو ، على الجانب المشمس تجمع المسيحيون ، وعلى الجانب الآخر ـ فى الظل ـ تجمع الأتراك كانوا يقفون ليشاهدوا ما يجرى دون أن يتكلم واحد منهم .. كلهم كانوا يشاهدون مايجرى بوجوه شاحبة وافواه مفتوحة . وكان هو نفسه يجلس القرفصاء تحت مظلة حمراء ، وقلبه يرتعش مثل قصبة فى الهواء .. إذا فاز الكابتن ميخايليس سقطت تركيا ، وإذا فاز سليمان العربى سقطت المسيحية .

وتصارع الاثنان وهما يزأران واهتزت الأرض تحت ثقلهما وامتلأت ثقوب الأرض بدمائهما حتى غربت الشمس واختفى المسيحيون والأتراك فى الظلام ، ولم يعد الباشا يرى سوى الوحشين وهما يزأران ويتعثران ويعودان فيقفان على اقدامهما من جديد وقد حلت جسديهما خيوط الدم التى كانت تنبثق تحت ضربات فأسيهما .. وفجأة صاح الباشا فى يأس : « الله ، الله ، إنه مجرد حلم ، وسوف أطلق صرخة توقظنى من نومى حتى لا أرى النهاية » ..

وأطلق الصرخة .. واعتدل فوق سريره العريض فى حزن وأغرق فى التفكير .. ثم مالبث أن صفق بيديه فبرز سليمان :

ـ أخرج وابحث لى عن الكابتن ميخايليس ... !

لم يكن يعرف ماذا يريد منه ، ولكن .. لابد أن يحضر ! ربما تفلت منه إهانة واحدة .. بعدها يثور غضبى واتخذ قرارى ! لا ينبغى أن يرتكب حماقة فى مملكتى ! .. أنا الباشا ! وهو ينهب الأرض بفرسه وأنا اسمع موسيقى الجنود !

وحك العربى رأسه وهو يقول :

ـ الكابتن ميخايليس ؟ ! ولكنى علمت يا أفندينا الباشا أنه نزل إلى القبو مع صحبته الأغبياء يشربون ويسكرون .... » .

ـ وماذا لو كان يشرب ؟ ! سوف يفيق .. ويحضر إلى هنا !

وتردد العربى .. وقال فى صوت خفيض :

ـ يا أفندينا الباشا .. هل تريد أن تغرق كريت فى الدماء ؟ ! هل لديك أوامر من القسطنطينية ؟ !

ووضع الباشا يديه كلتيهما فوق رأسه الأصلع وهو يحس بالدوار وقال :

ـ ماذا ؟ ! ....

ـ حسن .. نفترض أنه قال لى : لا .. لن أحضر .. فماذا تقترح إذن أن تفعل به ؟ ! هل ستبعث الجنود فى طلبه وتمنحه فرصة ضربهم ؟ ! إنه ليس بشرا عاديا ، وخاصة حين يشرب ، إنه يصبح حينئذ أكثر من زلزال ، حينما سكر فى العام الماضى ، ألم يقتلع بيديه بوابة الميناء ؟ ، ثم ماذا لو أنك أعددت كل شىء بحذق واستطعت أن تقتله .. ألن تشتعل النار فى كريت ؟ ! دعه يذهب إلى الشيطان يا أفندينا الباشا ..

ـ دعه يذهب إلى الشيطان ، لأنه Polikase وهى دعها تذهب إلى الشيطان لأنها سيدة محترمة ـ نعم .. فأى صنف من الباشوات إذن أنا ؟ !

ثم صمت قليلا .. وفكر فى الاحتمالات الممكنة .. لو أن الجزيرة المترامية الأطراف ، اشتعلت بالنيران ، وقدم إليها جنود جدد من الأناضول ، وقدمت إليها المدافع والمشانق والباشوات الجدد ، فسوف يتدخل الفرنجة فى الأمر ، اللعنة عليهم هم أيضا ! وذلك كله لن يعود إلا

بالضرر عليّ ـ الأمر ببساطة مزيد من المتاعب ..

أخيرا صاح وهو يبرم شاربه فى غضب :

ـ أسرع وأحضر لى إناء من القشدة والسكر واحش غليونى أيها العربى الخسيس .

ـ والكابتن ميخايليس ؟ !

ـ فليخطفه الشيطان !

فى الوقت الذى كان الباشا يتحدث فيه عن الكابتن ميخايليس ، كان هذا يرقب طلوع النهار من خلال نافذة القبو الصغيرة وقد تدلت عصابة راسه على كتفيه وبدت جبهته كالبرونز تلمع فى الضوء .. وشعر رأسه ولحيته يبرق وعيناه السوداوان المستديرتان العميقتان لا تتحركان وهما تحدقان عبر النافذة .. لم ينم طوال الليل .. ولكنه ظل يرقب .. ويسمع .. ويشرب وما أكثر ما حاول قلبه أن يهدأ .. وفى كل مرة كان يصرخ فى ضراوة وحرارة فيعود القلب ليضطرم من جديد ، ماذا أريد بحق الشيطان ؟ ! .. كان يسأل نفسه مرة ومرات ، ضاعت هدرا كل الخمر التى سكبتها فى جوفى : أنا إذن أسلب بطرس لأنقذ بولس .

لم يكن ثملا ، وقد كان بينه وبين نفسه يفخر بأن الخمر لا يمكن أن تؤثر فيه ، كان يقف من حين لآخر يذرع أرض القبو جيئه وذهابا ثم يعود فيجلس .. كان يحتقر هؤلاء الذين تسكرهم الخمر ، فيترنحون ويتعثرون ويكشفون عن أفكارهم أو يبدأون فى النباح .

ولحظة ما .. استدار إلى « بيترودولوس » وسأله فجأة :

ـ من هذه العفريتة التى كنت تتحدث عنها ؟ !

ـ ديدمونة يا كابتن .. ابنة أحد أمراء البندقية .. كان شعرها أشقر بلون العسل ، ملفوفا ثلاث مرات حول رأسها مثل التاج الملكى ، وكانت بخدها شامة مثل الزيتونة الصغيرة ..

ـ أكمل ..

ـ وهكذا ، يا كابتن .. ولا داعى للتفاصيل .. فإن هذه الأميرة الرقيقة ـ

وما أعجب النفس الإنسانية ـ أحبت رجلا مغربيا ضخما عملاق الساقين والذراعين .. ولكنه ـ وحتى يكمل الشيطان لعبته ـ كان رجلا غيورا .. وآه لو علمت كيف حدث أنها أحبته ؟ ! فى إحدى الليالى جلس الوغد الكبير إلى جوارها يحكى لها عن حياته ، وكأنه كتاب فحرك فيها أحاسيسها ، وأحسب بعطف بالغ نحوه من كثرة ما عانى ، وبدأت تبكى وقد ارتمت فوق كتفه وقالت : أواه أيها المغربى العزيز لاتحزن ، سوف أعوضك وارسم البسمة فوق شفتيك ..

وزفر « بترودولوس » بعد أن أفرغ كأسه .. وصاح الكابتن ميخايليس يأمره مرة أخرى :

ـ أكمل .

ـ معذرة يا كابتن .. لقد فرغ راسى ..

وأخذ يحك راسه المدببة وكأنما يستحضر ذاكرته .. وأخيرا صاح بصوت مرتفع :

ـ وحدثت أشياء مذهلة .. لم يمكثا فى البندقية ، ولكنهما سافرا إلى قبرص حيث تزوجا على ما أتذكر ، وكان لأحد الضباط البيض ذوى الأشرطة الذهبية صلة بهذا الأمر ، وأخيرا .... آه ، نسيت مرة أخرى ! .... الحكاية تتعلق بمنديل .... !

ـ منديل ؟ ! .... ها أنت تعود فتتذكر يا بيترودولوس ! ..

ـ كلا ... كلا ... أنا لم أتذكر يا سيدى ، منديل ... نعم منديل ولكن ربما كان مسموما أو مسحورا .. كيف لى أن أعرف ـ آه ، .... تلك الليلة أعادت إلى ذاكرتى كل شىء ـ وضع المنديل داخل فم ديدمونة و ....

وانتابه بكاء ... فخلع وشاح عنقه وجفف دموعه وجبهته ثم صاح ......

ـ ...... وخنقها .... !

وانفجر الأربعة السكارى ضاحكين بعد أن كانوا مشرئبى الأعناق ينصتون .. ولكن الكابتن ميخايليس صاح بغضب : « هدوءا ! » ، ثم استدار نحو « بترودولوس » وقال :

ـ ليس الخطأ خطأك أنت .. إنه خطأى أنا إذا سألتك ..

ثم أسند رأسه إلى الحائط وأغلق عينيه ، لقد كان المغربى على حق « هكذا كان يفكر ... إنه فعل ما كان ينبغى أن يفعله » ..

أما الآخرون حوله فقد نسوا تماما أحزان الغرباء ... وقال « فوروجاتوس » :

ـ لاتبك يا صغيرى بترودولوس ... إنها مجرد قصة من قصص الجنيات ! « نحن » فقط .. الحقيقة ، هيا يا فيندوسوس ، اعزف على قيثارتك ، ساقاى تهتزان تريدان أن أرقص .

وكأنما القيثارة ذات الأجراس كانت سكرى هى الأخرى ، فما لبثت أن قفزت فوق ركبتى « فيندوسوس » كامرأة تفيض حياة .. أو عروس زفت لتوها ، وتنهد كاپابيس بعمق وهو ينظر إليها ويسند رأسه التى استبد بها السكر إلى راحة يده ، وبدأ يزفر ترنيمة متصلة طويلة ..

اما افنديتا ذو الرأس الأجرب المطوق بأوراق الخرشوف والمعدة المنتفخة بالنبيذ ولحم الخنزير ، فقد صفق بيديه وجلس منتصبا كالشمعة ثم قفز فجأة وطوح ذراعيه ليحيط بكتفى « فوروجاتوس » وبدأ يرقص كالمجنون ـ وليذهب التعقل إلى الجحيم ! ..

وقال له « فوروجاتوس » متوسلا :

ـ انقلب مسيحيا يا أفنديتا .. انقلب مسيحيا تدخل الجنة راكبا ظهر خنزير !

وأجاب أفنديتا محزونا :

ـ لا أستطيع يا رفاقى ، لا أستطيع .. ولتسامحونى أيها الأصدقاء ، أنا ولدت تركيا وسوف أموت تركيا ..

وكان البيض قد نفد هو والمحارات وكل ما كان موجودا من طعام ، وضرب الكابتن ميخاليليس آنية البيض الفخارية بقبضة يده وقدم حطامها لضيوفه ليأكلوها .. وتملك بترودولوس الذعر ! وأمسك بقطعته وقذف بها إلى برميل بجواره وهو يلهث بينما عيناه تحدقان فى فزع إلى الكريتين عند

أقدامه يقضمون القطع التى فى أيديهم ويمضغونها حتى تصبح رملا وحصى ثم يبتلعونها وهم يضحكون ضحكات مكتومة .

وبدأ بترودولوس يفلسف الأمر نفسه فى هدوء : هناك ثلاثة أصناف من الرجال ، هؤلاء الذين يأكلون البيض بدون قشرة ، وهؤلاء الذين يأكلونه بقشرة .. أما الصنف الثالث فهم الذين يلتهمون البيض وقشر البيض والاناء الذى يحمل البيض ! ، وهم الذين يسمون بالكريتين ! آه يا كونت ما نجياڤينو ، ترى ما الذى جاء بك إلى هنا ؟ ! .. قالها لنفسه وهو يتطلع نحو الباب !

ومع غبش الفجر كانوا جميعا قد أرخوا أذرعهم ، بعضهم انكمش على نفسه فوق الأرض وقد علا غطيطه ، وآخرون استندوا برؤوسهم إلى البراميل وقد استبد بهم الانهاك فأخذوا يئنون وهم يتقيأون كل ما فى أمعائهم .. بينما كان بترودولوس قد انتهى من القيء ووجد ماء يغتسل به ، ثم دفن رأسه فى عباءته ولفها حول جسمه مرتين وتمدد فى ركن من المكان كدجاجة ابتلت بالماء وانتثر ريشها حولها فى كل مكان .

أما الكابتن ميخايليس ـ برغم كل ما شرب ـ فقد كان رافع الرأس منتبها ، يحدق عبر النافذة فى الصباح الذى بدأ يطلع .

وبدأ الضوء يتسلل إلى القبو ويكشف عن نفايات الطعام وبرك النبيذ والقيء ، واستدار الكابتن ميخايليس وحدق فى الخمسة الحمقى المهزومين وكأنما يراهم لأول مرة ، وأحس فجأة بأن قلبه بدأ يشعره بالاحتقار ، أرهف أذنيه ، وسمع صوت زوجته فى الفناء وكانت قد استيقظت من قبل وبدأت ترفع الماء من البئر ، وسمع صوت صياح الديكة عند الجيران .. وبدأت أصوات المخلوقات البشرية والحيوانات ترتفع من فوق سطح الأرض .. وصهلت الفرس فى الفناء وتهيأ « شاريتوس » ليحضر لها دلو الماء البارد والعلف ، وارتفع الصهيل ليملأ الجو كما يملؤه الندى منتعشا كماء الربيع .. واحس الكابتن ميخايليس بروحه تنتعش هى الأخرى .. وغمغم يقول لنفسه :

ـ « لقد بدأت أظن أننى لا أصلح صديقا إلا للجياد . نعم ، إذا كان فى كريت ذئاب وخنازير .. فالآدميون يبدون فى نظرى كما لو لم يكونوا سوى حمقى يستحقون الرثاء » .

ونهض واقفا واخذ يتمطى حتى قرقعت عظامه ، ثم ركل كل واحد من رفاقه وسكب نبيذا فوق رؤوسهم وصاح :

- هيا .. انهضوا .. إلى الأمام ! .. إلى العمل !

واستمر الاحتفال طوال اليوم الجديد والليلة التالية .. وكان السوط يفرقع كلما حاول أحد أن يسترخى ، بينما « شاريتوس » يصعد السلم ويهبطه حاملا مالذ وطاب ، واخذ كل من أفنديتا وبترودولوس - كالاخوة - يحشو أحدهما معدة الآخر ! ويبديان دهشتهما لأنهما وقد عاشا سنين طويلة فى ذات المدينة .. لم يعرف أحدهما الآخر ويحبه إلا الآن فحسب ..

قال بترودولوس :

- سوف أعلمك العزف على « الجيتار » ، وسوف تنسى معه متاعبك ، سوف تلعب على أوتاره وتشق طريقك فى الشوارع دون أن تهتز فيك شعرة ..

وقال أفنديتا :

- وسوف أعلمك كيف تحمل المشاعل معك يا عزيزى بترودولوس فتبترد بها !

كان الكونت قد بدأ يألف الجو الكريتى ويسعد بأن يحب ويحتضن الجميع . ولكنه كان يستحى فقط أمام الكابتن ميخايليس ، لقد كان - وهو رجل « زانتى » المرح - يحس أحيانا برغبة فى أن يطلق فكاهة وهو معه ، ولكنه لم يكن يلبث أن يحس بالحرج فلا تنفرج شفتاه عن كلمة ..

واستدار إلى « ڤيندوسوس » وقال :

- نحن الاثنين .. يا سيد ڤيندوسوس - ترى هل أدركت ذلك من قبل ؟ - نحن الاثنين لسنا رجالا .. إنما نحن فنانان ..

- فنانان ؟ .. وماذا تعنى هذه الكلمة بحق الشيطان ؟ !

- نوع من الملائكة ، ليس هكذا بالضبط ، هناك فرق بسيط سأشرح لك :
هناك فى المخلوقات صنف الحيوانات - كالحمير والبغال - وهناك

آدميون ، وفوق هذين الصنفين يوجد الفنانون .. ونعرف هؤلاء تجىء الملائكة ، ونحن الاثنين يا عزيزى ڤيندوسوس .. من الفنانين .

ـ وبعد ... ؟ !

ـ وبعد ، فإنك إذا مت فى هدوء وسلام ، فلا تنسى أن تصطحب معك قيثارتك إلى القبر مثلما سأصطحب انا الجيتار ، نعم ، فلنمت سويا يا فيندوسوس ، يا صغيرى فيندوسوس ! إن الملائكة هى أيضا تعزف على القيثارة والجيتار ، وعلى باب الفردوس سوف نهدى معزوفة للمايسترو الذى يسميه الذين لا يفهمون الموسيقى ... الله ، أنا سأعزف « الكانزونى » .. أما أنت فاعزف « المانتينادا » الكريتية حتى يخرج المايسترو ضاربا على الصنج .. ويسمح لنا بالانضمام إلى جوقته الخالدة .

وضحك ڤيندوسوس وقال :

ـ كلمات ضخمة هذه يا صغيرى بيترودولوس ، كيف تتصور أن تعزف أنت على قيثارتك ، وأن أعزف أنا على جيتارى بلا أياد .. بلا أصابع ؟ ! الا ترى ماتفعله الأيادى والأصابع على وجه الأرض ؟ !

وصرخ الكونت وهو يلم أطراف عباءته ويحكمها حول جسده !

ـ هدوءا أيتها النفس ! أنت تجعل شعر راسى يقف ! ... هل تعنى أنه حتى الأيدى التى تعزف على القيثارة ؟ ...

ـ كلها ، كلها ، يا صديقى فى سوء الحظ ، كلها ....

وصاح « فوروجاتوس » وهو يملأ الأكواب :

ـ حسن ، فلنشرب إذن حتى نسكر ، ما دامت لنا أيد ورقاب ! .

ثم قال :

ـ والنساء يا فيندوسوس ؟ هل يتحولن هن أيضا ؟ ...

ـ كلهن .. كلهن ..

ـ حتى ولو كن جميلات كالشمس ؟ !

ـ حتى إذا كن كذلك .. ولكن ماذا جرى للكابتن ميخايليس ؟ !

كان الكابتن ميخايليس مقطبا جبينه .. ثم مالبث أن قال :

ـ الأفضل أن تتكلم يداك بدلا من فمك يا فيندوسوس ، .... وأن تتكلم قدماك يا فوردجاتوس .. ولتكف السنتكما !

ـ أمرك ، يا كابتن ميخايليس ..

وقفز فورو جاتوس واقفا على قدميه ! .. ترى ماذا بقى ليسأل عنه ؟ !

وقفز فوروجاتوس واقفا على قدميه ! .. ترى ماذا بقى ليسأل عنه ؟ !
ووضع فيندوسوس قيثارته فوق ركبته اليمنى بينما رفع « كاجابيس » يده إلى خده وبدأ يرقص .. وبدأ الغناء مرة ثانية .. وكان اليوم قد بدأ خارج القبو والشمس ترتفع حرارتها ، ولكن الحياة ـ حياة الرفقة البشوشة ـ كانت تمارس وجودها داخل القبو ، وجاءت الظهيرة ، واختفت الشمس . وحل الليل مرة أخرى ، وفي وسط المائدة وفوق البراميل أوقدت الشموع الغليظة ، ومع انبلاج صبح آخر كانوا لايزالون ممددين فوق الأرض صفر الوجوه في لون الزعفران .. في إعياء كالنساء الحوامل اللائى أجهضن ! ومرة أخرى تلوثت الحوائط ، واختفت ملابسهم تحت بقع الخمر والدهن .. وارتفعت الرائحة الكريهة من أفواههم وشعورهم ..

وكان الكابتن « ميخايليس » يراقبهم دون أن يتحرك من مكانه ، وعندما ينبثق الفجر كان يدير رأسه نحو النافذة الصغيرة حتى لاينظر إليهم وقتا أطول ، لم يكن يفكر في شيء ، بل كان يحس فقط ـ ولمدة يومين وليلتين ـ بأمعائه تتلوى وترتعش وبأنه لم يعد يقف على أرض ثابتة تماما ! .. جلس هكذا صباح الثلاثاء ، ورأسه مستند إلى الحائط ، وأدهشه أنه ينام للحظات خاطفة .. خاطفة لا أكثر ! ولكنها كانت كافية لأن يسيطر عليه فيها عفريت من الجن ، وبدا له لأول وهلة بأنه يسير وسط سحاب ربيعي بارد ظل بداخله وهو مخطوف البصر من أثر الحرارة والخمر والإرهاق ، وأحس كما لو أن هذا السحاب يعانقه ويحتضنه ، ثم يحتويه تحت ذراعه ويرفعه ، ويدغدغ في حنان جسده ، ولكن هذا السحاب مالبث أن تحول ببطء ، فأصبح كثيفا .. ثم استحال إلى وجه : في البداية تكونت شفتان ، ثم تلألأ بريق عينين وحشيتين مخزيتين مليئتين بالخبث والازدراء .. ثم تكون في النهاية جسدان حمراوان ويدان بيضاوان كالثلج ، وتحركت الشفتان .. ورن صوت مثل خرير المياه :

« كابتن ميخايليس ، كابتن ميخايليس ... ! » .

ونفض الكابتن « ميخايليس » نفسه من الحلم بانتفاضة انقلبت لها المائدة فقد خرج كل شىء كان فوقها ، الأكواب والأطباق ، والشموع وصناديق الطباق ، وقفز الخمسة النيام ! .. واقتحم ضوء الصبح القبو ، ونظر بعضهم إلى البعض الآخر ثم حدقوا فى الكابتن ميخايليس الذى كان قد نزع السوط من فوق الحائط ثم اندفع نحوهم وهو يصيح كالممسوس :

ـ « اخرجوا ! .. اخرجوا ....

ثم ضرب الباب ففتحه على مصراعيه .. وعاد يصيح « اخرجوا ... ! » وكان « كاچابيس » أول المصغين للأمر ، فقفز خارجا متخطيا عتبة الباب بحركة واحدة واندفع عبر الفناء إلى الباب المؤدى إلى الشارع ، وفى ثوان .. أصبح خارج الدار ، الصباح الثالث فحسب ! كانت « جاروفاليا » نائمة ولاشك ، أطلق ساقيه للريح متجها إلى الميناء ، أما الأربعة الآخرون فقد اندفعوا متعثرين أحدهم فى إثر الآخر خارج القبو وهم يتخبطون فى جدرانه ، وعندما أصبحوا فى الخارج بدت على وجوههم الملوثة المغضنة صفرة مشوبة بالاخضرار ، واتجهوا عبر الفناء نحو البئر انصاف سكارى .. ثم منه إلى عريشة الكرم ثم إلى الباب الخارجى حتى إذا أصبحوا فى الشارع ، لم يدروا إلى أين يذهبون .. وتحرك « فوروجاتوس » ... وسار مهموما وشاربه مرتخ وهو يحاول جاهدا أن يصلح حزامه ، ولكن حزامه ظل يهرب من وسطه منزلقا إلى الأرض حتى أن « فيندوسوس » الذى كان يتبعه وقيثارته فوق كتفه .. كان يدوس على طرفه بقدميه .. وخلفهما سار « أفندينا » واحدى يديه تمسك ثوبه الذى تقطعت حمالاته ، والأخرى تحاول فى ضيق أن تمسك بظهور باقى الرفقة ، وهو يصيح :

ـ قفوا .. قفوا أيها الحمقى ! إلى أين تذهبون ؟ ! إن الكابتن يمزح ، سوف يطلب منا العودة حالا ، عدوا فحسب إذا كنتم تعتقدون فى الله حقا ، الثلاثاء ، الأبعاء ، الخميس ، الجمعة ، السبت ، الأحد ـ ستة أيام .. لاتزال أمامنا ستة أيام ! ..

كان يحس بأنه من الظلم ان يطردوا هكذا بسرعة ، وهو لما يكد يغرق

فى الخطيئة إلى أذنيه .. إن الخطايا هى وحدها التى تجلب الرضا الحقيقى عندما يمارسها المرء كما ينبغى .. حتى أذنيه ! وقتها فقط يبدأ المرء فى الاستمتاع بها ، ثم لايلبث بعدها أن يجد شيئا يندم عليه ، إن الخطيئة ينبغى أن تكون جبلا من لحم الخنزير لابد من الاحاطة به .. وبحيرة من الخمر يسبح فيها المرء ـ وليس مجرد قطعة فقطعة .. أو نقطة فنقطة !

وظل يعد الأيام على أصابعه مرة بعد أخرى : الثلاثاء ، الأربعاء ، الخميس ، الجمعة ، السبت ، الأحد .... من المؤسف حقا أن يضيع عليه هذا العدد من الأيام « لا ، ليس هكذا يا كابتن ميخايليس ، لا تظلمنا هكذا ، مرنا بأن نعود ! » ..

وخيل إليه أن أحدا يناديه ، وأن يدا لمسته ، لابد أنه الكابتن ميخايليس ! واستدار فى سعادة ، ولكنه كان « بترودولوس » الذى يخبط على كتفه وهو يسير متعثرا منتحبا ..

ـ يا عزيزى أفنديتا ، لقد نسيت كيس نقودى هناك ، هلا عدت فجئتنى به ؟ ..

وكان « فوروجاتوس » قد أدرك الباب المؤدى إلى الشارع وحزامه لايزال ينزلق عن وسطه وهو يجرجره خلفه ، وكان يحس بأن يديه وقدميه ثقيلة كما لو أن شللا قد أصابها فاستعصت على خدمته .

ـ سوف أذهب لاحضر زوجتى لكى تقوم بتدليك أطرافى ، إلى اللقاء يا أصحابى ، لقد انتهى كل شىء بسرعة !

وصاح « بترودولوس » :

ـ إلى أين أنت ذاهب ؟ ! لا تتركنى وحدى يا فوروجاتوس ! .. انتظرنى !

وقال بترودولوس وهو يحيطه بذراعيه :

ـ تعال يا صغيرى بترودولوس ، أنت تسندنى ، وأنا أسندك !

وتعلق المايسترو بالحزام المتدلى .. وهو لايزال يتوسل :

ـ لقد نسيت كيس نقودى .

ولكن « فوروجاتوس » تظاهر بأنه لم يسمعه .. وكانت الشمس قد غمرت

الطرقات ، وتناهى صوت « باربايانيس » من بعيد وهو ينادى على his sulepi وكان الفلاحون ينادون على ما تحمله ظهور حميرهم من أخشاب الوقود ، ومر الاثنان بمخبز « تولوباناس » فتوقفا ، وكانت هناك صينيتان مليئتان بالكعك المكسو بالسمسم عند فتحة الفرن .

وتطلع « بترودولوس » إلى الكعك وقد أصابه الشلل ! .. ودس « فوروجاتوس » يده فى جيب صدريته وأخرج عملة صغيرة واشترى كعكة ..

ـ خذ .. كل ، لا أريد شيئا لنفسى ..

كان يفكر فى المجذومين .. وأحس بالغثيان ..

وكان افنديناً يتعثر خلفهما ورأسه تدمى من أوراق الخرشوف متجها إلى التكية ، متسللا كاللص حتى لا تراه أمه فتضربه .

واتجه فيندوسوس إلى بيته والقيثارة فوق كتفه وقد تقطعت أنفاسه واصفر وجهه ، وهرعت زوجته لاستقباله وهى تسنده بذراعيها ، وهرعت ابنتاه أيضا لتساعداه ، وتعاون الثلاثة فى وضعه فوق الأريكة ، ومسحوا وجهه بزيت من مصباح أم الكروم المقدسة .. وترنم الثلاثة وهم يدورون بالبخور فوق رأسه ، ودثروا جسده بكل ما يملكونه من أغطية لأنه كان يرتعش ، ثم هرعوا إلى جارتهم العجوز « فلا مبوريارينا » وسألوها أن تحضر لكى تحجمه بالكاسات .

أما الكابتن ميخايليس فكان قد سرج فرسه ، ودس الشىء ذا المقبض الأسود فى حزامه ، وخرجت زوجته إلى الفناء لتسأله عن وجهته ولتذكره باحتياجات البيت ، ولكنه عندما رأت وجهه خانتها شجاعتها بينما استدار نحوها الكابتن ميخايليس وسألها فى فظاظة وغضب :

ـ ماذا تريدين ؟ !

ـ هل أعد لك بعض القهوة ؟ !

ـ أنا ذاهب الآن إلى المقهى ، وسوف أتناول قهوتى هناك ، ادخلى وعادت « كاترينا » إلى المطبخ وقد أصابها الرعب ، وكان « رينيو » قد ذهب ليعد القهوة ، فقالت أمه :

ـ إنه ذاهب أسرج الفرس ، وسوف ينطلق به إلى الحى التركى ، إنه وحش مفترس ، مؤكد ، إنه وحش مفترس خال من المشاعر ..

وضحك « رينيو » وقال فى فخر :

ـ إنه ذاهب إلى مقاهى الأتراك مرة ثانية ..

ثم سكت الاثنان وارهفا السمع ، وتناهى اليهما صوت أقدام الفرس على عتبة الباب .. ثم صهيله فى الشارع ..

وتمتمت الأم وهى ترسم علامة الصليب :

ـ لعل الرب يبسط عليه يد رعايته .

وقال « رينيو » ضاحكا :

ـ هل رأيت كيف يهرب منه الحمقى ؟ ! .. كنت أتطلع من خلال النافذة .. وكان الواحد منهم بعد الآخر يصرخ ويجرى ، بينما أبى واقف هناك .. واعيا .. هازئا ، رافعا السوط بيده ضاربا به الهواء ، لماذا تتنهدين يا أمى ؟ ! أكنت تريدين زوجا مثل « بترودولوس » أو « فيندوسوس » ؟ ! .. ينبغى أن تسعدى بحظك يا أمى ! ..

ـ من الممكن أن يكون المرء زوجا متزنا « وكسيبا » دون حاجة إلى أن يكون أحمق مثلهما ! ..

وقال رينيو وقد عبس بوجهه :

ـ نعم .. ذلك ممكن ، ولكنى لا أحب « الكسيبة » earners ولا الحمقى ، أنا أحب من كان « كابتن » مثل أبى ..

أوسع « كابتن بوليكسيجيس » الخطى مارا بنافورة « ايدومينا » وخلفه « على أغا » بالسلة المثقلة على كاهله التى كان يجمع فيها هدايا عرس ابنة أخيه « ڤانچيليو » ومنذ يومين ، كان « الكابتن بوليكسيجيس » مضطربا كأنما قلب عقله زلزال ، كان لا يكف عن الجرى فى الشوارع ، ولم يكن يتناول طعاما أو شرابا .. وإنما كان يكتفى بالتدخين وهو يخور من وقت لآخر مثل الجاموسة المريضة ، وكان تجواله ينتهى به دائما إلى باب أخضر ، توقف ، وقاس ارتفاع الحائط بنظرة سريعة ، ثم شب على أطراف

أصابع قدميه كما لو كان يريد أن يطير فوقه .. ولكنه مالبث أن استدار وعاد أدراجه .

ومن أجل أن يزيل الشك لدى الجيران (فقد كان يحسب حساب الشمطاوات والسنتهن الحداد الخبيثة) ، قام بزيارة النحاس التركى فى الحى واشترى قدرا فى المرة الأولى ، وطبق غسيل و« كنكة » قهوة أو طاسا وأقداحا وفناجين للقهوة فى المرة الثانية ، ولم يكن يعرف فى البداية ماذا يفعل بها ، ثم مالبث أن تذكر أن ابنة أخيه سوف تتزوج ، ومن ثم فقد ملأ السلة بالأوانى النحاسية واثقل بها كاهل « على اغا » ثم اتجه إلى حى « الكابتن ميخايليس » حيث بيت ڤانجيليو .

وبينما هو يمر بجوار نافورة « ايدومينا » ، لاح الكابتن ميخايليس ممتطيا صهوة فرسه ، والسوط معلق فى رسغه ، وأطراف عصابة رأسه تغطى عينيه .

وتوقف الكابتن « بوليكسيجيس » فى دهشة ، لأنه كان يعلم أن الكابتن « ميخايليس » كان قد بدأ صباح الأحد أسبوعا آخر من أسابيع السكر ! ولكن ، ها هو ذا فى يوم الثلاثاء ممتطيا صهوة فرسه مرة أخرى ، وكان واضحا أنه الآن فى طريقه إلى الحى التركى مندفعا إلى فوهة المدفع ! وهز الكابتن بوليكسيجيس رأسه وهو يفكر فى يوم ما من الأيام يدفع فيه الكابتن ميخايليس حياته ثمنا لهذه الجسارة ، وينهدم ركن من أركان المسيحية فى ميجالوكاسترو ، ولكن من ذا الذى يستطيع أن يرده إلى صوابه ؟ ! لا الله ولا الشيطان ! إن الرجل الذى لا يخشى الموت ـ يخشاه حتى الله ! ...

واقترب الكابتن ميخايليس ، ووقع بصره على الكابتن بوليكسيجيس فوكز فرسه .. لأنه لم يكن مستعدا للنقاش معه ، إن تأنفه وحديقته ومكانه السحيق واسلوبه المستهين فى الحياة .. كل ذلك يثير أعصابه ، إنه واحد من هؤلاء الرجال الذين يصفرون ويغنون كل صباح عندما يستيقظون .. وهم صنف لا يرتاح له الكابتن ميخايليس ومع ذلك ، فقد كانا صديقين شريفين عندما يجد الجد وينتفض المسيحى لكى يخلقوا شجارا مع الأتراك ، ثم ان الاثنين كانا من القادة .. وكلا منهما كان يحس بأنه مسئول ، ولكن ما إن تهدأ الأحوال حتى يفترق الاثنان كل فى طريق مضاد

لطريق الآخر ، كان الكابتن « بوليكسيجيس » يرى أن الكابتن ميخايليس يشبه الدب المتوحش ويقول لنفسه دائما « أنا لا أحبه » .. وكان الكابتن ميخايليس يقول لنفسه عن الكابتن بوليكسيجيس : « إنه حلاق ، وليس من ذوقى » .. وهكذا فقد حث الفرس حتى يتجاوزه دون أن يكلمه ..

ولكن الكابتن بوليكسيجيس أدرك حين رأى ذلك الوجه الكالح ، انه ماض إلى مالا تحمد عقباه ، وأن النتيجة لن تكون سوى متاعب للمسيحيين ، ومن ثم فقد استجمع شجاعته وصاح :

ـ إلى أين يا كابتن ميخايليس ؟ !

ثم مد ذراعيه كما لو كان يعترض طريقه .

ودمدم الكابتن ميخايليس :

ـ ابتعد عن طريقى إذا كنت تريد ألا يطأك الفرس يا كابتن بوليكسيجيس .

ولكن الكابتن بوليكسيجيس وقف فى وسط الطريق وذراعاه ممدودتان ولم يتزحزح ..

ـ بحق المسيح يا أخى ، لا تهدر قوتك ، أنت ركن من أركان المسيحية ، إن كريت تحتاج إليك ، إن حياتك ليست ملكا لك ، انها ملك لكريت وقد تحتاج إليها قريبا ..

ولكن الكابتن ميخايليس لم يشعر بازدراء لهذا ، الكاپيناپتو ! » مثلما شعر فى تلك اللحظة ، بالأمس هرب فوروجاتوس من القبو لحظة خرج فيها إلى الباب المؤدى إلى الشارع لمجرد أن يستنشق الهواء ، وفى تلك اللحظة تبادل بضع كلمات مع جارتهم .. زوجة « كراسوچوريس » وسمع عن لهو الكابتن « بوليكسيجيس » فى الحى التركى ، وحين عاد إلى القبو قص ما سمعه على مسمع الكابتن « ميخايليس » وتظاهر هذا بأنه لـ يستمع ما قال إلّا بالكاد ولكن ما سمعه كان أشبه بضربة عنيفة لقلبه

ولم يعد يحتمل الآن ، فانحنى من فوق فرسه وبدأت شفتاه ، تقذفان بالحمم .

ـ اذهب ومارس إغراءك على من تعرف من النساء ! ، ودعنى وحدى

اتجه أولا إلى مقاهى الأتراك .

واحمر وجه الكابتن بوليكسيجيس وأجاب فى تحد :

ـ عندما نكون فى سلام فأنا أغرى الهوانم ، وعندما نكون فى حرب فأنا أقفل الأغوات ، وتلك طبيعة الرجل فى رأيى .

ثم استدار نحو « على أغا » وقال :

ـ امض من فورك إلى بيت فانجيليو وافرغ حمولتك .

ثم دفعه بيده حتى انطلق ، ثم تقدم خطوة .. ووضع يده فوق عنق الفرس الساخن وقال فى صوت خفيض :

ـ كابتن ميخايليس ، أستحلفك بمسيحيتك ، ما الذى يخيفك منى ؟ ! أنا لا أحب نظراتك هذه اليوم ، إنها تخترق جسدى كما لو كنت أننى تركى ..

ـ ابتعد عن طريقى إذا كنت لاتريد أن يطأك فرسى .

ـ قل لى .. ما الذى تأخذه علىّ ؟ ! لماذا تدير رأسك عنى هكذا ؟ !

وصاح الكابتن ميخايليس للمرة الثالثة :

ـ ابتعد عن طريقى إذا كنت لاتريد أن يطأك فرسى .

ـ هكذا أنت دائما .. لا أحد يستطيع أن يتحدث معك ، لا أحد يعرف كيف يتعامل معك وصاح الكابتن ميخايليس فى غضب .

ـ يا لذكائك .. يا كابتن « هنومة » ! .

وهمز فرسه .. فرفع ساقيه الخلفيتين عاليا حتى انها اخطأت الكابتن بوليكسيجيس بمقدار شعرة .

وتمتم الكابتن « بوليكسيجيس » وهو يعض شاربه :

ـ ماذا أفعل لهذا الرجل ؟ ! .. إنه بعد كل شىء .. مسيحى .. وفارس .. ولو لم تكن كذلك لعرفت كيف أعاملك أيها المجنون .... !

ثم بصق ثلاث مرات .. كما لو كان يريد أن يتخلص من هذا اللقاء الشرير ثم تابع سيره إلى بيت ابنة أخيه .

كانت « فانجيليو » تجلس إلى نولها وقد انتهت لتوها من العمل فى آخر قطعة القماش الحنطية المزدوجة العرض والتى ستصنع منها سراويل العريس وملابس نوم العروس ، ودست المكوك وسط القماش فى عجلة ، كان فى عجلة من أمرها لأن موعد العرس اقترب وأصبح يواجهها كحيوان اسود ضخم ، كما أنها هى ذاتهاكانت تتحفز كالحيوان ـ كدب منتفش ـ لكى تحمى نفسها منه .. من ذلك الحيوان الكريه ، لأن ذلك الزواج كان يبدو كذلك بالنسبة إليها .. بذلك العريس المتعب المنهوك half - helping بعويناته ، وبصوت القسيس (الكاهن) ذى الطراوة المقززة .. الرخيصة .. أولدت هى من أن تكون من نصيب هذا الجزء من رجل ؟ أمن أجل متعته كانت تسمن نفسها سنين طويلة حتى امتلأ صدرها وأردافها ، وحتى طال شعرها ليصل إلى ركبتيها ؟ كل هذا من أجل « تيتيروس » ؟ ! « تزوجته هكذا همس عمها « بوليكسيجيس » فى أذنها « قولى نعم يا فانجيليو ، إن الزوج وسادة ذات رغب dowrny تبعث الدفء فيك » ... آه .. أين الله ، حتى ينطلق صوتها ليخرق السموات السبع وهى تصيح : « أنا لا أريده ، أنا لا أريده ؟ » .... فكم سنة أمضتها وهى تحلم فى نومها بشاب بطل متشح بعباءة من الصوف حول كتفيه .. شاب مهضوم الأرداف ، عربيد يحب الخمر والنساء والشجار ، ويبعثر أمواله فى عظمه .. شاب لا يبارى مثل شقيقها ، « ياماندس » ! ... آه .. ! كم مرة وبالأخرى كلما أشعلت المصابيح مع مواجهة حرم الايقونة ، iokon shrires التى كان يتوجه اليها والداها ـ كم مرة توجهت بالضراعة إلى القديس نيكولاس « راعى البنات اليتيمات ، وإلى القديس « فاموريوس » الذى يجىء بالعرسان ، حتى يهباها زوجا مثل شقيقها ! .. نعم مثل شقيقها وليس مثل عمها « بوليكسيجيس » ، هذا الثرثار الضئيل الكالح ! وليس مثل الكابتن ميخايليس الذى تعبق أنفاسه برائحة الكبريت ، والذى ترتعش أمامه حتى كلاب الجيران ينبغى فحسب أن يكون مثل شقيقها دياماندس ، جسدا مثل شجرة السرو ، ووركان مثل وركى كلب من نوع البوكسر أو مثل وركى ملاكم Boxer وصدر مثل القلعة ، وإلا فإنه من الأفضل لها أن تبقى بلا زواج ، وان تصبح عجوزا تعيش مع شقيقها ، هو أيضا ينبغى أن يبقى بلا زواج ـ ان الزوجة سوف تدمر كل هذه الرقة فيه ، آه لو ماتا معا فى نفس اللحظة .. ودفنا معا فى قبر واحد تنمو على جانبيه شجرتا سرو ، واحدة منهما نحيلة رقيقة مثل شمعة ، والثانية أنثوية متفرعة الأغصان !

وجذورهما تحت الأرض تتشابكان !

ولكن .. ها هو ذا العم « بوليكسيجيس » قد جاءها ليقول إن عليها .. أن تقبل « تيتيروس » شقيق الكابتن ميخاليليس ، زوجا لها ، فتصبح بذلك زوجة رجل من عائلة ذات قدر .. رجل يعولها بعد أن بدد دياماندس أشجار الزيتون وحقل الكروم التى خلفا لهما والداهما ، ولم يعد باقيا لها سوى هذا المنزل .. وهو « الدوطة » اليتيمة التى أصبحت تملكها .. ولكن .. ! قد لاتمضى شهور قليلة قبل أن يأتى عليه هو الآخر ذلك الشقيق الأصغر الشره .. فماذا بعد ؟ ! ..

وتمتمت فى عناد وهى لاتزال تنسج على نولها : « الخطأ كله خطأ بوليكسيجيس هو الذى أوصلنى إلى هذا كله ! هو الذى أغرانى بأن أقبل ، ولكن الله عدل ، ولسوف يعاقبه على ذلك ، وإذا لم يفعل ، فإن زفرات الرجل الأعزب سوف تنقض على بوليكسيجيس مثل الرعد .. ولعلها أن تحرقه ! » ..

وضرب الكابتن بوليكسيجيس الباب الخارجى ففتحه ودخل ثم استدار نحو « على أغا » الذى كان ينتظر بالخارج وأشار إليه أن يدخل وينزل حمله ، وقال له فى بشاشة وهو يلقى إليه بقطعة من العملة الفضية .

ـ جوزيت خيرا يا على أغا ، فلتقض وقتا طيبا بهذه القطعة .

وتلقى على أغا قطعة العملة وأمسك بها فى قبضته بشدة كما لو كانت طائرا سوف يطير بعيدا عنه ثم انحني ليقبل اليد الكريمة .. ولكن بوليكسيجيس سحبها وهو يضحك قائلا :

ـ أنا لست أبا أو إماما يا على أغا .. إلى الملتقى !

ثم اخترق فناء الدار فقفز الكلب فى الركن الذى كان يقبع فيه وهو يشمشم .. ثم مالبث أن انزوى فى مكانه بعد أن عرف القادم الجديد ..

وعبر باب المنزل المفتوح رأى الكابتن بوليكسيجيس النول ـ ذلك الحيوان المنزلى الأليف ذا الأقدام والسيقان والبدالات والريش المعدنى والألسن والأمشاط والصوت الرقيق إذ يلف ويدور وكأنه صوت سفينة تشق الماء ..

واستدارت « فانجيليو » ورأت عمها ، فاستجمعت كل قواها لكى تبتسم ابتسامة ترحيب ، ولكن من بين شفتيها ، وأنفها وذقنها بدا أن الابتسامة لا تخرج إلا سما ! كان الحال قد انتهى بها إلى أن تصبح جامدة قليلة الكلام بصفة دائمة ، تحس دائما كما لو أن دورة مستترة تنهش أحشاءها ، وبدأت الصفرة تكسو وجهها وبدأ صدرها يهبط ويرتخى ..

ورأت على أغا خلف عمها ومعه السلة .. وأدركت كل شىء ، فقالت وهى تختلس نظرة إلى السلة ، ورأت مابداخلها من الأوانى المعدنية .. وأضاء وجهها للحظة ..

ـ أنت شديد الإسراف يا عمى جورج .

وضحك الكابتن بوليكسيجيس وهو يحاول أن يعيد الدم إلى وجنات أبنة أخيه :

ـ « لابد من يوم يتزوج فيه كل امرىء يا ڤانيليو ، وإذا كان حقل الكروم قد ضاع .. فلا بأس .. الناس يقولون إنه ليست هناك متعة أكبر من الزواج »

وانفجرت ڤانجيليو :

ـ « الناس يقولون .... » ..

ثم سكتت فجأة :

وجلس الكابتن بوليكسيجيس فوق الأريكة الصغيرة ورفع عن رأسه طربوشه (فقد أحس بالحرارة) ووضعه على إفريز النافذة ، بينما انحنت فانجيليو على ركبتيها وبدأت تخرج ما فى السلة من أوان معدنية واحدة بعد الأخرى .. وامتلأ البيت بالأوعية والأطباق والأباريق .. وبدأت تشع من وجه فانجيليو حمرة الدفء وهى منحنية تخرجها كلها ..

وقالت بنصف قلبها ! :

ـ جزاك الله خيرا ياعمى ، أنت فى مكان الأب بالنسبة لى .

ـ أنت تقولين ذلك بنصف قلبك يا فانجيليو ! ها أنت ستتزوجين ، ورغم ذلك فأنت يا طفلتى تكادين أن تبكى ، ارفعى هاتين العينين وانظرى الى ..

هيا .. ابتسمى .. ابتسمى ولو مرة واحدة .. اطلقى ولو صيحة واحدة تسرع بعدها انفاسك أكثر ! عندما تنسج العرائس آخر قطعة من ثيابهن ، فإنهن يغنين وهن يفعلن ذلك فتهتز بيوتهن - نعم ، بل أن الجيرة نفسها تهتز كما أن زلزالا أصابها ، إنها تسمى أيام العرس ! ولكنك تتصرفين كما لو كنت تنسجين كفنا لا ثياب عروس ! .

واهتاجت فانجيليو ، كلمات كهذه تثير الغضب من رجل نال كل ما يريد ، عادت لحظتها فى خطيبها ، او كان من الممكن حقا أن تغنى به من أجل هذا الوجه الشاحب ؟ وأحست بطعم غريب داخل فمها ، وبأنها على وشك أن تنفجر مرخية العنان لنفسها .. ولكنها ترددت .. ماذا كان يمكن أن تقول ؟ ! إن الأمر سيان على اية حال .. إذا كان المرء سعيدا ، فلماذا إذن يصيح ؟ ! وإذا لم يكن سعيدا .. فلماذا أيضا يصيح ؟ ليس بمقدوره أن يغير من قدره شيئا ، والأفضل إذن أن يبقى ساكتا ..

ولكن الكابتن بوليكسيجيس لم يستطع أن يتحمل تلك الشكوى الخرساء من ابنة أخيه ، كان يوم العرس يقترب ، فى عيد الفصح سوف يكون الاكليل ، وقبل أن يأتى ذلك اليوم كان لابد أن يوضح الأمر لابنة أخيه ، كان يحس بأنها تنظر إليه بعينين رافضتين كارهتين منذ أن أتم خطبتها ، لابد أن يدعها تعرف - قبل أن تتزوج - إن الأمر كلفه شيئا يغرى به عريسها حتى يقبل الزواج منها ! لقد كان مترددا حتى آخر لحظة ، واضطر الكابتن بوليكسيجيس يوما إلى أن يفتح حافظة نقوده ويخرج منها خمس جنيهات ذهبية ويعطيها له وهو يقول : « خذ .. يا مدرس ! .. واعتبرها دوطة إضافية .. ولا داعى لأن تخبر أحدا - ولا حتى الكابتن ميخايليس أو العروس .. أو شقيقتى .. ها أنذا أطلى ابنة اخى بالذهب .. وأعطيها لك ! » .. هكذا استطاع أن يدبر الأمر .. فماذا حدث ؟ ! الآنسة العروس تشيح بوجهها كما لو كانت تشرب الكينين ! إن عريسها مقزز ! لعلها تريد لنفسها أميرا من الأمراء ؟ !

وخرجت فانجيليو من المطبخ وبيدها صينية مستديرة فوقها أقداح القهوة وكوبا من الماء البارد وبعض الكرز المحفوظ ، ووضعتها فوق مقعد فى مواجهة عمها .

- استمعى إلى يافانجيليو .

ثم ألقى بنظرة نحو الباب ...

ـ ألم يعد دياماندس بعد ؟ ! ألايزال شقيقك هذا السليم فى جولاته العابثة ؟

وردت فانجيليو فى اعتزاز :

ـ إنه شاب .. ووسيم .. وذلك من حقه .

ـ من حقه ؟ ! ماذا ؟ ! هل من حقه أن يسبب لك الخراب يا فانجيليو ؟ ..

ـ يسبب لى الخراب ؟ ! ولكن .. لو لم يكن معى .. إذن لكنت قد مت .. ماذا كان لدى بعد لكى أحيا من أجله ؟ دعنى اقل لك يا عمى ، إننى أحنى عنقى الآن .. وأقبل القيد الذى وجدته من أجلى ، أقبله حتى إذا ماتزوجت لم أجد شيئا يفرقنى عن شقيقى ، وإلا .. فليخطف الشيطان تيتيروس !

وابتلع « بوليكسيجيس » الماء البارد .. وكتم غضبه ، وتعمد أن يقضى وقتا أطول فى مضغ حبات الكرز المحفوظ كيما يمنع نفسه من أن يمد مخاليه فيمسك بابنة أخيه من شعرها ويطوح بها عرض الحائط .. واخيرا .. بدأ يبرم شاربه وهو يقول :

ـ اللعنة ! .. إنه شقيقك وليس حبيبك ، هو أيضا سوف يتزوج ويكون أسرة .. ويومها لن يعود فيفكر فى الحانات ... !

وقفزت فانجيليو واقفة وقد توهج خداها وصاحت :

ـ أدعو الله ألا يكون هذا مكتوبا .. فإذا كان مكتوبا ، فإننى أدعو الله أن يمسحه ! ..

وصاح بوليكسيجيس وقد استبد بَه الذهول :

ـ ماذا دهاك يا فانجيليو ؟ ! أتحبينه أكثر من زوجك ؟ ! ولكن هذا أمر شائن ! أبعد كل الجهود التى بذلتها .....

وصاحت فانجيليو وهى تبصق بين أسنانها فى حنق :

ـ أنت بعتنى بقطعة خبز ...

ولم يعد فى مقدور الكابتن بوليكسيجيس أن يسيطر على نفسه بعد ..

ـ بقطعة من الخبز .. اللعنة ؟ ! .. ربما يبدو لك الأمر تافها يا أميرتى ؟ .. يا لذكائك ! .. وماذا بالله يمكن أن يجد العريس ليرغبه فيك ؟ ! الشباب ؟ الجمال ؟ الثروة ؟ ! .. لقد بلغت الخامسة والثلاثين وتجعد وجهك مثل عنب الثعلب الجاف وأصبحت عجوزا بشارب ! وهذا الكلب السلاقى ـ أخوك ـ قد نهبك فلم تعودى بعد أكثر من خرقة بالية ! من الذى سينظر إليك الآن .. بل من الذى يمكن أن يرغب فى النظر إليك أيتها المسكينة ؟ ! لقد أعمى الله عينى تيتيروس ، فقبل الزواج منك ..

ودفنت فانجيليو وجهها بين يديها وبدأت تبكى دون أن تتحرك .. واهتز قلب الكابتن بوليكسيجيس ، كيف خرجت هذه الكلمات من فمه ؟ ! وماذا يمكن أن يفعله الآن ؟ ! كيف يمكنه أن يهدىء الفتاة المسكينة ؟ !

وضع يده فوق شعرها الكثيف وقال :

ـ كفى كفى يا عزيزتى فانجيليو .. كفى بكاء ، سوف يكون كل شىء على مايرام بمشيئة الله ، إن رجلا طيبا سوف يرعى شئونك ، ثقى من هذا ، ما أسرع ما تزهر هاتان الوجنتان ويشيع فيهما الاحمرار وتعودين صغيرة من جديد ! وعندما يصبح لك أطفال ظرفاء .... »

وقالت فانجيليو فى احتقار وهى تمسح الدموع من رموشها ..

ـ هر ! « تيتروسات » صغيرة !

ـ ربما لا يصبحون مجرد « تيتروسات » صغيرة ! سوف تجرى فيهم أيضا دماؤنا نحن ، وربما يصبح أطفالك مثل شقيقك !

وأصابتها الدهشة ! ... واحست بالدماء تجرى فى عروق صدرها الخابى .. وقالت وهى ترتعش .. « أسكت » ..

ونهض الكابتن « بوليكسيجيس » واقفا .. ومد يديه ليحتضن ابنة أخيه ولكنها ابتعدت عنه .

ـ حسن .. سوف نتحدث فى يوم آخر يا فانجيليو ، سأخرج الآن قبل أن يعود شقيقك السكير ، فليست لدى رغبة فى رؤيته هنا ..

ووضع طربوشه فوق رأسه واتجه نحو الباب ، وفى نفس اللحظة تناهى صوت خطو ثقيل ، وفتح الباب الخارجى بعنف وظهر الشقيق على عتبته لاهثا منهكا وقد وضع خلف إحدى أذنيه مسلوح حبق أصفر .. وخلف الأذن الأخرى سيجارة .. بينما تدلى معطفه متهدلا حول كتفيه ، وعندما رأى عمه عبس وجهه وزمم شفتيه « هنا مرة ثانية .. هذا الخاطبة ؟ ! فليتخطفه الشيطان ! » .. وتماسك ، ورفع قبعته واجتاز الفناء ودخل دون أن يرى الأوانى المعدنية فوق الأرض ، فتعثر فيها وسب ولعن !

وأشاح الكابتن بوليكسيجيس بوجهه متقززا .. وقال فى احتقار :

ـ الناس يشربون النبيذ .. ولكنهم لا يسكرون ! خذنى أنا مثالا .. الناس يجرون وراء النساء ولكنهم لا يهينون أنفسهم ، وخذنى أيضا مثالا .

ونخر « ديامانديس » باحتقار .. فلم يكن يحتمل كلمات عمه .. وكان أيضا يعرف نقاط الضعف فيه .. وخرج لسانه عن سيطرته : فاندفع يدمدم ..

ـ نعم الرجال يشربون النبيذ ولا يسكرون ، وهم ايضا لا يمضون إلى فراشهم ، ولكنهم يمتطون صهوات جيادهم ويركضونها ـ لانحو حى الأتراك جريا وراء إحدى الهوانم ، ولكن نحو مقاهى الأتراك بحثا عن الأغوات .. خذ أنت نفسك مثالا يا عمى .. خذ مثالا فى الكابتن ميخايليس !

واخترقت الكلمات قلب الكابتن ميخايليس ، فقد أحس بأن هذا الشقيق السكير كان على حق ..

ـ اللعنة عليك أيها التافه ! أنت تصلح فقط فى تبديد دوطة أختك فى الخمر والنساء والساعات والسلاسل .. لو أنك فقط تحسب حسابا للزمن ! .. ولكنك لاتصلح لشىء من هذا أيها الفاشل !

وصاح ديامانديس .. وقفز فوق الأوانى والأقداح يريد أن يمسك بخناق عمه ـ ولكنه تعثر وسط فوق الأرض محدثا صوتا داويا ..

وضحك الكابتن بوليكسيجيس فى احتقار وقال وهو يجتاز عتبة الباب ..

ـ أرجو لك أن تسعدى بشقيقك الصغير يا ڤانجيليو !

ـ يعلم الله اننى سأظل سعيدة به حتى آخر يوم فى عمرى ..

وانحنت تساعد شقيقها على النهوض من وسط الأوانى النحاسية المبعثرة وأجلسته فوق الأريكة ووضعت وسادة خلف رأسه وربتت عليه فى رقة ..

وفى منتصف النهار عاد « ثراسوس » من المدرسة فى اضطراب شديد وصاح وهو يطوح فى الهواء بقبعته الحمراء التى صنعتها له شقيقته :

ـ ماما ! .. فرس أبى يثير الشرار بوقع حوافره على الأرض ! .. رأيته يمتطىٰ صهوته على طول الشارع العريض وأصحاب الدكاكين والاسكافيون واقفون يشيرون إليه ، قال بعضهم انه قادم من الحى التركى ، وقال آخر ، إنه متجه إليه ، ووقفت أنا هناك ورفعت قبعتى ولوحت له ، ولكنه لم يلتفت إلىَّ ؟ ! كان الشرار يتطاير من حوافر الفرس !

وقالت الأم وقد أفزعها إعجاب ولدها بأبيه ..

ـ كان السيد باراسكيفاس هنا يشكو إلى ، قال لى إنك أنت وأصدقاؤك اختطفتما ابنته أول من أمس .. ألا تخجل من نفسك ؟ !

وضحك « تراسوس » .

ـ لماذا فعلت ذلك ؟

وهز الصبى الوقح كتفيه .

ـ أحببنا أن نفعل ذلك ، وبالأمس كدنا نفعل شيئا بتيتيروس ! دبرنا أن نختبىء خلف الباب ومعنا حبل .. ونلقى أنشوطة حول عنقه عندما يدخل كما يفعلون عندما يمسكون بجواد برى وكما عرفنا منه هو نفسه أول من امس .. كنا نريد أن نلعب لعبة مروضى الخيول !

وصاحت الأم :

ـ أشرار ! وماذا فعل بكم هذا الرجل الطاهر ؟ لماذا تريدون قتله ؟

ـ قتله ؟ ! .. نحن ؟ ! .. ولكننا نحبه ، كانت مجرد لعبة فكرنا فيها ، ولم يكن فى نيتنا أن نجذب الأنشوطة بسرعة ، كنا نريد فقط أن يخيفه لنرى كيف يتصرف !

ثم أخرج من تحت إبطه حبلا كان الغسيل ينشر فوقه فأعاده إلى مكانه ، ثم عبس بوجهه وشدد قبضته كما يفعل أبوه !

ـ ... وفي الدقيقة الأخيرة خاف الآخرون ، كانوا كثيرين جدا .. وكان منهم كثيرون من الجبناء ، ولكن لابأس .. مرة أخرى سوف انتقى انا بنفسى ـ أقل عدد منهم وأكثرهم استعدادا ، وربما فعلتها وحدى ..

ودق الباب .. وظهر « على أغا » ..

ـ بالله عليك يا سيدتى ، أفندينا أصابه الجنون من جديد ، إنه يجرى وسط الحى اليونانى قادما إلى هنا ، أغلقى الباب ولا تدعيه يدخل .

ولم يتم كلماته حتى اندفع افندينا يعوى إلى داخل الفناء .. وتألمت « كاتيرينا » لمنظره ، لم يكن يبدو على المخلوق المسكين مظهر بشرى . كانت ملابسه المصنوعة من الخيش ممزقة تهدلت منها خيوطها ، وكانت عيناه حمراوين منتفخين من البكاء ، وكان قد خلع عمامته ولوث فروة رأسه بطبقة كثيفة من روث الخيل ، وركع فى منتصف الفناء وبدأ يصرخ معولا :

ـ لقد دنست نفسى ، لقد أكلت لحم الخنزير وشربت الخمر وتفوهت بكلمات دنسة .. أيها الرجال والنساء .. سامحونى ! وعسى الله أيضا أن يرحمنى ويغفر لى ! سيدتى ، إذا سألك الرب غدا ، فقولى له إن الكابتن ميخايليس هو الذى دفعنى إلى ذلك بالرغم منى ..

وزحف على ركبتيه نحوها ليمسك بيدها ويقبلها .

ـ كونى رحيمة بى يا سيدتى ، أنا فى عجلة من أمرى .. أريد أن انشر عذابى وعارى ، وها قد بدأت بك أنت ، وبعدها سوف أهرع إلى باب الباشا وإلى بيوت الأتراك الأخرين ، لابد أن يروا فروة راسى .. لابد أن يعرفوا خطيئتى .. لابد أن يبصقوا على ، ولكننى أضع ثقتى فيك أنت ، إذا سألك الرب غدا ، فقولى له أن الكابتن ميخايليس هو الذى أجبرنى على فعل ذلك على الرغم منى ..

وضحك تراسوس ، وكان قد أخذ حبل الغسيل خفية ، وجعل منه انشوطة ، بينما خرجت « رينيو » من المطبخ ووقفت تنظر إلى افندينا وضنحكة هى الأخرى .. ولكن « كاتيرينا » أحست بعينيها تبللهما الدموع .. وقالت فى رقة ..

ـ قف يا أفندينا .. قف .. سوف أفعل ما تريده ، سوف أشهد أمام الله أننى رأيت بعينى راسى كيف أجبرك الكابتن ميخايليس على ذلك ضد مشيئتك ..

ـ جزاك الله خيرا يا سيدتى ! والآن .. أسألك أن تقدمى لى معروفا .. هلا بصقت علىَّ ؟ !

ـ لا .. لن أفعل ذلك يا أفندينا ، قف واذهب مع بركات الله السبع ..

ـ إذا لم تبصقى علىَّ فلن أخرج ..

ثم استدار نحو على أغا ..

ـ ودورك أنت بعدها يا على أغا ـ نعم أنت .. كمسلم مؤمن .. وبعدها يجىء دور ميجالوكاسترو كلها .. قبل أن أغادر التكية ، نهض جدى من قبره وبصق على ، وأنت أيضا يا سيدتى لابد أن تفعلى إن كنت تؤمنين بالله !

واستدارت زوجة الكابتن بعيدا ..

ـ لا أستطيع لن أفعل .. انصرف .. وإلى الملتقى !

وصاح أفندينا فى ألم :

ـ لن انصرف ، نعم ، وحق الرسول محمد سوف أبقى هنا حتى تبصقى على وجهى .

وقالت الزوجة وهى تعود إلى المطبخ ..

ـ سوف أفعل ما أريده أنا لا ما تريده أنت يا أفندينا .

وصاح أفندينا باكيا ..

ـ فسوف أبقى إذن راكعا فوق هذه الحجارة حتى يطلع الفجر .

ثم بدأ يضرب راسه فى الحجارة وهو يرفع صوت بكائه ويعوى مثل الكلب ..

واشار « ثراسوس » إلى شقيقته ، ففهمت ما يريده منها وأخذت مكانا

قريبا منه خلف ظهر أفنديا ، وبينما كان أفنديا يضرب على صدره بقبضة يده ويعوى وعيناه معلقتان بالمطبخ ، ألقى « ثراسوس » الأنشوطة حول عنقه وأمسكت « رينيو » هى الأخرى بطرف الحبل ، وجذبه الاثنان .

وأطلق أفنديا صيحة مخنوقة ، وهوى إلى الخلف وقد علت الزرقة وجهه وجحظت عيناه .. وطوح بيديه يريد أن يمسك بالأنشوطة حتى لايختنق ، ولكن يديه كانتا عاجزتين من شدة الرعب .

وصاح « على أغا » :

ـ بالله عليكما يا أولاد .. أنتما تخنقان هذا المخلوق البائس :

وسمعت زوجة الكابتن صرخة المسكين فعادت تجرى ، وجذبت الحبل من أيدى أبنائها .. وأرخت الأنشوطة ، ثم دفعت بأفنديا نحو الباب المؤدى إلى الشارع وقالت :

ـ أخرج .. أخرج أيها التعس .. اخرج ! أخرج مع أطيب تمنياتى !

ثم دفعته بشدة فانكفأ على أرض الشارع ، وأغلقت دونه الباب .

وانفجر ثراسوس ورينيو بالضحك ، وقال الأول :

ـ أرأيت يا أماه ؟ ! .. هكذا يمسكون بالجياد ..

ثم عاد يقول وهو يعلق الجبل مرة أخرى بالقرب من مرجل الغسيل .

ـ الآن .. لن يستطيع تيتيروس الإفلات !

اندفع الكابتن ميخاليس كالعاصفة داخل الحى التركى وهو ممتط فرسه ولم تستطع الخمر أن تغطى على ذهنه بسحائبها ، وضغطت ركبتاه بقوة على جانبى الفرس وهو يحس بقوة لاحدود لها فى أطرافه وعضلاته ، قوة كانت أغلب فى تأثيرها عليه من الخمر التى عبها ، قوة لم يكن يعرف كيف يطلق نفسه من إسارها ..

لم يكن يستطيع أن يميز بوضوح أولئك الرجال الذين كان ينطلق بفرسه بحذائهم وبدت البيوت أمامه كما لو كانت أقصر .. وبدت الشوارع أضيق وسمعت (الجوارى) صوت فرسه ، فاندفعن إلى الطاقات ينظرن من

خلالها ، كن يعرفن الكابتن ميخايليس ولكن الشمس كانت تخطف أبصارهن فلم يستطعن تمييز وجهه جيدا ليتأكدن من أنه هو نفسه ، وتساءلت « أجلاجا » :

ـ ما الذى ينويه هذا الدب فى هذه الليلة المقمرة ؟ ! .. أيكون سكرانا ؟ ! » .

وقالت « ثاليا » وهى تحرك أنفها كما لو كانت تتشمم شيئا :

ـ « انظرى جيدا .. هناك شىء ما يحدث هنا .. لماذا ظل الكابتن بوليكسيجيس يتلصص داخل حينا منذ أمس ؟ ! لقد رأيته فى نفس اللحظة التى بدأ فيها الزلزال عندما اندفعت « أمينة » إلى الخارج وقد تظاهرت بالاغماء .. اليست صدفة عجيبة حقا أن يظهر فى نفس اللحظة ؟ ! .. أكانت صدفة حقا ؟ ! أم أنها كانت مرتبة من قبل ؟ ! وهكذا أفاقت من أغماءتها على يديه ... ! ومنذ ذلك اليوم تلطخ حينا بالعسل ! وها قد جاء دور الكابتن الدب البرى .. هذه الخنزيرة الملعونة ! إن كلا الفاسقين يستطيع ان يشم رائحتها على بعد ميل كامل ! » .

وقالت « فروسين » :

ـ صمتا ! صمتا ! .. أتسمعون صهيل جواد نورى بك ؟ !

وكان صوت الجواد المطهم النبيل يتناهى من الـ Konak التركى يحيى الفرس الشهوان .

وقالت « ثاليا » وهى تقهقه :

ـ أمينة تتأوه ! ..

ولكن سرعان ما احتبس لسانها داخل حلقها .. بينما صرخت شقيقتاها ، فعندما سمعت الفرس صهيل الجواد الفحل ، تراجعت كما لو كانت تريد أن تبدأ فى الرقص .

وصاح الثلاثة معا :

ـ سيقتل الكابتن ميخايليس !

ولكن الكابتن مالبثا أن ضغط بقوة على ظهر الفرس .. وغرس المهمازين فى جسدها ، فأحست بسيدها القاسى فوق صهوتها ، فأحنت رأسها وعادت تتحرك من جديد .. وغمغم الكابتن وهو يضرب رأسها بقبضته :

ـ اللعنة عليك ، وعلى هذا الدم الخار الذى يجرى فى عروقك !

وعندما أصبح قريبا من البحر ، أرخى لها العنان لتنطلق حرة على طول الأسوار الحصينة ، وأحس بهواء البحر يملأ صدره ، وهو يقتحم بها المتاريس التى كستها الأعشاب .. وبدأ يحدق فى البحر الأزرق العميق المزبد تلمع صفحته تحت أشعة الشمس .. وأطلق ذاته خلال الضباب إلى الشمال فى اتجاه اليونان .. وتنهد وهو يحدث نفسه :

ـ يا إلهى .. بك أنت سبحانك .. أستطيع أن أتحمل هذه الحياة .. بك أنت .. وليس بالناس .

ثم تابع سيره .

كان لايفتأ يجادل ربه كلما تذكر « كريت » التى تخلى عنها الكل .. وكادت عبارات الكفر تقترب من طرف لسانه .. لم يكن ينوح أمام الله ، بل كان غاضبا منه سبحانه ، لم يكن يطلب الرحمة ، ولكنه كان يطلب العدل .

وارتفعت من جهة الجنوب سحابة قاتمة لاتزيد فى حجمها على حجم زجاجة ماء .. ثم مالبثت أن أصبحت أكبر فأكبر حتى حجبت السماء وخنقت الشمس وجاءت ريح رطبة ناعمة من جهة البحر مست وجهه الشاحب .. فرفع بصره إلى السماء .. ودمدم فى حنق :

ـ ولكننى لا أستطيع أن أحارب بك أنت سبحانك .. فسوف أحارب إذن بالناس ..

وغرس كعبيه فى جنبى الفرس ثم اندفع مرة أخرى عبر الشارع العريض وكأنه البرق .. ووقف الكريتيون لكى يروه جيدا ، ومضى هو لا يلوى على شىء حتى بلغ « بوابة كانيا » حيث المقهى التركى الكبير والأغوات الأتراك المرموقون يسترخون بداخله .

من هذا المقهى كان الأتراك يتبادلون الرأى والمشورة كلما لاحت فى الأفق ثورة .. ومنه كانوا ينطلقون إلى المذبحة والمدى بين أسنانهم وفى

الأمسيات الربيعية ، وعندما تغيب الشمس : كانت أرضه تستقبل قطرات المطر .. فتشيع فى الجو رائحة الرطوبة ..

فى هذا المقهى كان يجلس وجهاء الشباب التركى فى حلقة فوق مقاعد مرتفعة وهم ينشدون أغانيهم الرتيبة ، وفى ليالى الشتاء ، كان قصاصوهم الموهوبون يضحكونهم .. وكان المؤذن هو الآخر يتردد على المقهى .. يمتحن الشباب التركى وينصت إلى أغانيهم الرتيبة ويشاركهم فى أمانيهم وحنينهم ، ويختلط عليه الأمر فى النهاية فلا يدرى ما إذا كانت هذه هى الجنة أم مجرد مقهى ، لم يكن هناك شىء ينقص المقهى ليكون جنة على الأرض ، الطباق الجيد للنارجيلة ، والنسائم الرقيقة من الحديقة المحيطة .

كان النهار قد جاوز نصفه ، وكان الأغوات قد انتهوا من طعامهم وجلسوا القرفصاء فى استرخاء فوق أبسطة من القش فرشت بها أرض المقهى ، وهم يدخنون النارجيلة ، وعيونهم نصف مغلقة من النعاس .. ويحتسون القهوة فى سعادة .

كان كل شىء قد رتب نفسه من أجل أن يمنحهم هذه السعادة ! فمنذ أجيال بعيدة ، كان آباؤهم الأول قد قسموا كريت فيما بينهم .. وأصبحت كرومها وزيتونها وأرضها الخصبة تركتهم لأبنائهم ، بينما تركت الأرض الجرداء لليونانيين ، وبين الحين والآخر كان الكريتيون يرفعون رءوسهم ، ولكن جنود الاناضول كانوا يتصدون لهم ويجبرونهم على الانحناء بالقوة الطاغية .

وظهر نورى بك حليق الذقن ، أنيقا رشيقا مثل الأسد بشاربه الدقيق الأطراف المصبوغ بالصبغة السوداء ، المسحوب كالحديد وهو ينحنى يمنيا ويسارا فى تحية صامتة ، ثم اتجه إلى داخل المقهى ليجلس إلى جوار المائدة التى تهيأ فوقها بضاعة المقهى .. ليكون وحيدا ..

ومنذ ذلك اليوم الذى تعثر فيه جواده وسط المقابر .. وظهر أمامه شبح أبيه بشعره الأشعث الأحمر كالدم ، لم يكن نورى بك يهنأ بنوم أو طعام أو حديث ، كانت دماء أبيه تصرخ طالبة الثأر ، وكان ابناء القاتل وأخوته وأحفاده لا يزالون على قيد الحياة .. يتزوجون .. وينجبون ، ويحتفلون ويمرحون ، بل إن واحدا منهم تجرأ منذ وقت ليس بالبعيد على أن يدخل

حمارا إلى صحن مسجد القرية ! إلى متى يا ترى يمكن أن تحتمل هذه الاهانات ؟ ! وإلى متى يظل أبوه يهيم عارى القدمين بين الأرض والسماء ؟ ! .. لقد آن الأوان لأن يتخذ قرارا .. إذا كان رجلا حقا ..

وقال لصاحب المقهى :

ـ هات نارجيلة يا حسين ولا تدع أحدا يقترب منى .

وسمعت جلبة كالرعد على بعد .. وأدار الأغوات وجوههم تجاه الباب كانت السماء مغطاة تماما ، ولاح برق أصفر وأخذت الريح تصفر وقال أحد الأغوات :

ـ « الحرارة هى السبب ، سوف تمطر السماء »

وقال آخر :

ـ « من حظ المحاصيل » .. وقال ثالث :

ومن حظ أشجار الزيتون واللوز ـ الحرارة تعجل بنضجها » ...

ثم اتجه ناحية الباب يراقب الطقس .. وما أن بلغ عتبة الباب ، وقبل أن يرفع يده ليحمى نفسه .. قفز إلى الخلف فى ذعر بينما ظهر الكابتن ميخايليس فوق صهوة فرسه على مدخل المقهى وهو ينحنى ليرى الأغوات جالسين فى استرخاء يدخنون النارجيلة وهم شبه نيام ، واندفعت الدماء إلى رأسه .. ودارت الدنيا أمام عينيه ، فهمز فرسه ، فتراجعت لحظة ثم اندفعت داخل المقهى ..

ولم تكن هذه أول مرة يفعلها ، وكانوا هم يعرفون نزوات هذا السن ! .. أطاحت الفرس بعدة مقاعد فحطمتها .. وقلبت إحدى الموائد ، وتحطمت بعض الأوانى الصينية ، ثم اندفعت نحو المكان الذى كان يجلس فيه نورى بك ، وحيث كان يقف صاحب المقهى كعادته أمام الفحم المشتعل يضع أوانى القهوة أو يرفعها .. ثم توقفت :

وساد المقهى اضطراب .. وطوح الأغوات النارجيلات جانبا وهبوا واقفين ، الأكثر جراة منهم تحسسوا بسرعة خناجرهم تحت أحزمتهم الحمراء ، بينما رفع الشيوخ منهم أياديهم صائحين :

- احذر يا كابتن ميخايليس ، لاتثرها مذبحة !

ولكنه لم يتحرك .. وطرقع بسوطه فى الهواء وهو يصيح :

- اخرجوا جميعا .. أريد أن أشرب قهوتى وحدى !

ورغم أن المؤذن كان رجلا مسنا ، إلا أنه قفز من حيث كان يجلس القرفصاء .. وصاح بأعلى صوته :

- لن تجدى لعبتك هذه المرة يا كابتن ميخايليس ، لن تسخر منا كل عام ، هذه المرة لن تخرج من هنا حيا أيها الكافر !

وتقدم تركى جسور يحمى المؤذن وقد أسف لحاله ، ثم استل من منطقته خنجرا ذا حدين واندفع نحو الفارس ، ولكن الكابتن ميخايليس انحنى وأمسك برسغه حتى شلت يد الشاب التركى وأفلتت الخنجر فدسه الكابتن فى جيبه ثم رفع سوطه من جديد وصاح :

- إلى الخارج .. إلى الخارج !

وصاح الرجل العجوز :

- « الله الله ! » ..

ولم يدر لحظتها ماذا يفعل هل يبعث رسولا إلى الباشا يطلب جنودا ، أم يبتلع المرارة ويستسلم تجنبا لمذبحة ؟ ! .

ولم يتحرك نورى بك ، وظل يدخن نارجيلته وقد أحنى رأسه ، ولكنه كان يمسح المقهى بطرف عينه حتى غاب كل شىء أمام بصره ، لم يكن يرى لحظتها سوى صدر الفرس وبطنه الذين يتصبب منهما العرق .. وحذاء الكابتن ميخايليس .. وكانت أولى قطرات المطر قد بدأت تتساقط فى الخارج .. ورعدت السماء ، وأز زجاج الأبواب .. وصرخ المؤذن :

- « إذا كنتم تؤمنون بمحمد فدعونى أمزقه إربا كالسردين ! » ..

ولكن بعض كبار السن أمسكوا به من وسطه ومن أسفل أبطيه وأبعدوه ..

وظل نورى بك كما كان ، ينفث دخان النارجيلة من أنفه ، ها قد جاءت

الساعة ، لقد وعدت أبى ، ولقد كنت أصلى من أجل أن تحين فرصة كهذه .. وها هى قد لاحت ! هذا شقيق القاتل .. أبى نفسه هو الذى دفعه إلى هنا ، أمامى ، أمام فوهة غدارتى .. الآن نعم ! » ..

ولكى يثق أكثر .. تعمد ان يثير غضب قلبه :

« الآن تحرك يا قلبى ! تحرك .. واضرب ! أم تراك خائفا ؟ ! » .. وأحس بقبضتى يديه تكادان أن تحترقا كما لو كانت قد أصابته حمى ، ورفع بصره .. ورأى الكابتن ميخايليس يحدق فيه مباشرة ، ووضع نورى بك جانبا أنبوب النارجيلة ، ووقف فى بطء وتثاقل ثم اتجه إلى الفرس فأمسك بزمامها ، ثم استدار نحو صاحب المقهى الذى كان قد اختبأ تحت المائدة .. وقال :

ـ حسين .. هات قهوة للكابتن ميخايليس وسوف أدفع أنا الحساب ..

ورفع يده فى أسلوب آمر .. وأشار إلى الشباب التركى الذى كان يحيط بالفرس أن ينصرفوا .. وقال الكابتن :

ـ نورى بك ، أريد ان أشرب قهوتى وحدى ، لا أريد صحبة ، أخلوا المقهى تماما ، وقال نورى بك وهو يحاول أن يرسم الرقة على وجهه :

ـ أليس لى أنا الآخر ما أريده ؟ ! .. طلب بسيط يا كابتن ميخايليس ! .. طلب واحد .. لاتحاول إهانتى .

وانزلقت العصابة البيضاء من فوق رأسه ، فانحنى يرفعها ويضعها متأرجحة فوق رأسه .. وانتشرت فى جو المقهى رائحة المسك ، وارتعشت على الفور خياشيم الكابتن ميخايليس وتضخمت عروق رقبته .

وتسللت رائحة المسك فى أحشائه مثل السكين ، وأربكته !، الليل ، سياج الليمون ، الحجل ، الضحكات خلف الشباك ، صرير درجات السلم ، ثم فجأة .. جسد داخل إطار الباب ، جسد يتمايل ويملأ الهواء بأريج المسك .. وهذا الـ نورى نفسه .. وأطلقت عينا الكابتن ميخايليس بريقا كالشرار .. وأزاح نورى جانبا ، ثم همز فرسه وتحرك إلى وسط المقهى وصاح كالممسوس :

ـ أخرجوا .. أخرجوا .. أخلوا المقهى ! ..

وأحكم نورى بك العصابة حول شعره ، وعض شفتيه بقوة حتى أسال دماءهما ، وكان الأغوات قد غادروا أماكنهم وأحاطوا به وبينهم اثنان متحفزان خلف الباب وقد أمسكا بخنجريهما بينما تسلل كبار السن خارج المقهى الذى بدأ يخلو ..

وأحس « نورى بك » بالخجل .. وقال للأغوات فى هدوء :

ـ أخرجوا .. إنه سكران ، فلا تجادلوه ، سوف أبقى أنا حتى أطمئن إلى أنه لن يتمادى وحتى أطمئن إلى انه لن يرتكب ما يخجلنا ..

ولم يتحرك واحد منهم . وكان سليم أغا أعقل الأتراك لم يتحرك من مكانه حتى تلك اللحظة ، وظل يدخن نارجيلته دون أن يتكلم .. ولكنه الآن نهض واقفا ، كان شيخا وهبه الله الثراء والعلم والأسرة الطيبة .. والأولاد .. وسيما نفس وسامته فى شبابه .. اشار إلى الأغوات وقال فى لهجة واثقة :

ـ لا تفقدوا سيطرتكم على أنفسكم ، لن يخدم شيئا أن تستحم كريت بالدماء ، سوف تأتى الساعة حتما ـ إننى اراها رأى العين ـ حين تدفع اليونان الثمن .. وأستطيع مقدما أن أرى رأسه معلقة بالمسامير أعلى باب الباشا .. صبرا .. وهيا بنا الآن ..

ثم اتجه نحو الخارج فى خيلاء .. يتبعه الأغوات .. وأصبح المقهى خاليا ..

وبرم الكابتن ميخايليس شاربه وهو ينظر إلى نورى بك ، وضحك وبرزت أصابعه المخلبية .. ودق قلبه فرحا ، واستدار نحو صاحب المقهى الذى كان قد بدأ يطل من خلف المائدة .. وقال :

ـ حسين .. ضع الاناء على النار .. واصنع لى قهوة .. بلا سكر !

الفصل الخامس

كانت العاصفة قد انتهت ، وأسقطت السماء حملها ، وبدت « ميجالوكاستro » كأنما قد ارتفعت فأصبحت جزءا من السماء ، وغمرت مياه الأمطار الشوارع وأظلمت الدنيا إلا من خيوط البرق هنا وهناك ، تبدو حول المآذن ، وفى الشارع العريض كان يلمع وجه الكابتن ميخايليس فيبدو عبوسا جريئا وهو يمضى إلى بيته والفرس من تحته يلمع صدرها الذى بلله العرق والماء .

وكانت « نوة » من ذلك النوع الذى لايدوم أكثر من نصف الساعة ، ثم تلتها ريح قادمة من الجبال تحمل سحائب متفرقة تبدد من خلالها زرقة السماء الداكنة ، وأشعة الشمس فى مولدها الجديد تتحدد فوق المدينة التى بللتها الأمطار ، وبدت كأنها تضحك ، وأخذت فوق الأسطح تضرب أجنحتها المبللة بينما المدينة تخرج من العاصفة نشيطة شابة من جديد ، وأريج أزهار العسل والحبق يغمر الجو .

وفتح « الكابتن ميخايليس » الباب بضربة واحدة ، وساقت زوجته الفرس إلى خطوته دون أن تتكلم بينما اندفع هو إلى الحجرة وعلق الخنجر التركى فوق مذبح وأمام أيقونة « القديس ميخائيل » .

كان الكابتن ميخايليس يغلى بالخجل والعرق والمطر .. وأحضرت له ملابس جافة أرتداها فأحس بالانتعاش وتمدد فوق فراشه وقد أغمض عينيه ، وسرعان ما عانقه نوم هادىء شفوق .

وبينما كان هو يستريح ، كان أبناء « ميجالوكاسترو » يتجمعون ، أتراكا وكريتيين ، مبكرين فى بيوتهم ذلك المساء ، كان الرجال يتهامسون ، وكانت النساء يجلسن وهن يستمعن ويتنهدن ولا يقلن شيئا ، ترى ، أقدر لكريت ـ التى تخلى الجميع عنها ـ ألا تستريح ؟ ! أتعود المذابح من

جديد ، ونعود نحن فنفقد رجالنا ؟ ! .. كذلك كن يفكرن ، وأين نذهب نحن ؟ ! مرة أخرى بأطفالنا وأوانينا وأوعيتنا وثيابنا فوق الظهور ؟ أما الكريتيون الحذرون من أصحاب الحوانيت وحقول الكروم فقد كانوا يلعنون الكابتن ميخايليس وانتهاكاته السكيرة التى تجر معه كثيرا من الرجال إلى المتاعب ، وأما الآخرون ـ المغامرون ـ فكانوا على العكس .. فخورين بهذه الاثارة الجديدة لتركيا ..

وتجمع الأتراك من ناحية أخرى ، بعضهم فى التكايا ، والآخرون فى قصر نورى بك ، كانوا يلعنون ويهددون دون أن يعرفوا كيف يغسلون الاهانة ، وأخذ المؤذن يحرك النار الكامنة فى صدورهم بينما كبار السن الأكثر تعقلا يحاولون أن يخمدوا هذه النار ، أما « نورى بك » فقد جلس فى الركن .. يفكر .. دون أن يقول شيئا ، وأخيرا تعبوا من الضجة ومن ذبح الكريتيين فى مخيلتهم ، فاختاروا من بينهم ثلاثة ليتجهوا فى صباح اليوم التالى إلى « الباشا » ليطلبوا منه أن يشدد وطأته على الكريتيين ، أهو « باشا » أم قطعة من الـ Halva ؟ كم مضى من الزمن منذ أوقف شنق الكريتيين على الشجرة الجرداء او وضع رءوسهم وأيديهم فى خشبة التشهير ؟ ! إذا استمر على ذلك فسوف يجرؤ هؤلاء الكفار إذن على كل شىء وسوف يجرؤ هذا الكابتن المجنون ـ وليعاقبنا الله إذا كنا نكذب ـ على اقتحام المساجد ذاتها بجواده ليخرج الناس منها بسوطه ، يجب أن يشنق أو يوضع فى خشبة التشهير حتى لو كان ذلك لمجرد تحذير أتباعه ووضعهم على الجادة ، هكذا ينبغى أن تتصرف تركيا ! ولكن هذا الباشا يعالج الأمور مع هؤلاء الكريتيين بأسلوب ناعم ، إن هذا المخلوق الضعيف يتحدث عن العدالة ! إنه يلعب « الدامة » مع المطران ، ويشرب معه المصطكى ويأكل « البقلاوة » ويجلس الاثنان طوال الليل وهما يتهامسان بالأسرار !

وفى صباح اليوم التالى ، اتجه الثلاثة إلى القصر وآذانهم لاتزال يدوى فيها طنين التعليمات التى حملها إياهم الآخرون ، سار المؤذن فى الوسط ، وإلى يمينه « سليم أغا » وإلى يساره ـ غارقا فى أفكاره ـ سار « نورى بك » كانت خطواتهم كأنها محسوبة .. ولم يكن أحدهم يتحدث إلى الآخر ، فقد كان كل منهم يحاول أن ينسج خيوط أفكاره ـ ما الذى سيقوله للباشا .. وكيف ؟ ! ..

كان « سليم أغا » صاحب دخل سنوى كبير من الزيت والقمح واللوز والعنب ، ومن ثم فقد كان إلى جانب السلام ! وكان المؤذن يحتضن القرآن إلى صدره .. وكان نورى بك موزعا لا يستقر على رأى ، كان أبوه قد ظهر له مرة أخرى فى نومه وهو لايزال فى الثياب المهلهلة وقد كسته الأقذار ووضع تحت وسادته خنجره الثمين ذا المقبض الأسود ، ولكنه حين استيقظ فى الصباح لم يجد شيئا ، كان قلبه على وشك أن يتحطم ، إن الرجل العجوز لا يثق بى ، لقد كان يتنهد ، وأخذ الخنجر مرة أخرى ، إنه يخشى ألا أشرف هذا الخنجر .

وجلس الباشا عابسا متوعك المزاج ينتظر الثلاثة فى الديوان الكبير ، متاعب جديدة ! الكلاب والقطط سوف تتقاتل من جديد ! هؤلاء « الكفار » يريدون الحرية ـ عليهم اللعنة ! والآخرون يدفعوننى إلى ذبح كل الكفار ـ عليهم اللعنة هم أيضا ! إن العبودية يا كفار يا محترمون ، أمر قرره الله ! إن عبيدى ـ أغواتى ـ هم أيضا شىء قرره الله ، إنهم يحرثون الأرض ، وينظمون أمور التجارة ، ويجمعون الضرائب ، فمن ذا الذى يريد أن يذبح الدجاج الذى يبيض ذهبا ؟ !

وظهر الخادم المغربى : « لقد وصلوا يا أفندينا الباشا » ..

ورد الباشا بصوت مرتفع : « فليدخلوا .... » .

ودخل الثلاثة واحدا إثر الآخر ، وانحنوا .. ثم أخذوا أماكنهم فى الديوان دون أن يتكلموا .. جالسين القرفصاء ..

وكان المؤذن أول المتكلمين ، فتح فمه الواسع وأخذ يتكلم ويتكلم ، كان ذا وجه رخو ناتئى العظام ، بصدغين غائرين ولحية بيضاء شعثاء كحزمة قش ، وتؤلول بين حاجبيه فى حجم ذباب الخيل يكسوه الشعر ويبدو كأنه عين ثالثة فى وجهه ، أخذ يتكلم ويتكلم ، وكلما سمع صوته زاده حدة ، ثم أخرج القرآن من صدره وأخذ يدفع به إلى الأمام وإلى الخلف وهو يقرأ ، وأحس الباشا بشىء كالدوار ، فرفع غليونه عن فمه وقال :

ـ يا أفندينا الشيخ ، أنت أصبتنى بالدوار ، تكلم ببساطة حتى أستطيع أن أفهمك ، أنا من الأناضول ، بطىء الفهم ! فى كلمة واحدة ! ماذا تريد ؟ ! .

وقال المؤذن وقد وقف شعر تؤلوله :

- أريد عملا ..

وتنهد الباشا واستدار إلى « سليم اغا » ..

- وأنت يا « سليم آغا » .. ما رايك ؟ ! هل ترى ذلك أنت أيضا ؟ !

وأجاب الملك ذو الشعر الرمادى :

- نحن نريد السلام يا افندينا الباشا ولانريد مذبحة ! إن عامنا هذا عام طيب ، شهر مارس قد جاء بمزيد من الأمطار ، منحت المحاصيل قوة ، الزيتون أيضا يبشر بخير وسوف يكون لنا محصول طيب وزيت وفير هذا العام والحمد لله على ذلك كله ، السلام مطلوب إذن يا افندينا الباشا ! « كريت » هذه ، وحش ضار ، فلنحرص على الا نوقظه من جديد - إنها وحش يفترس الرجال ! وماذا إذا كان مجنون قد اقتحم مقهانا ؟ ! ثم إنه كان ثملا ، فلنغلق عيوننا - فإن من مصلحتنا أن نفعل ذلك . نحن إن بادلنا ضربة بضربة مثل الخنازير ، فسوف نضيع ، إن تناطح الخنازير ينقلب فى النهاية إلى مأساة يا افندينا الباشا ، افتح سجلاتك وضع فيها اسم هذا الكافر ! إن اسمه « الكابتن ميخايليس » وسوف تجىء حتما ساعته ، أنت الباشا ، وأنت الذى تقطع الرءوس ..

ثم استدار إلى المؤذن وهو يقول :

- ذلك هو رأيى يا أفندينا الشيخ ، ومعذرة إذا قلت لك : أنت لاتملك أشجارا ، ولا كروما ولا حقولا ، وإنك لاتعرف أحزان الأرض والرجال والنساء ، ولكن سلنى أنا .. سل الأشجار والزرع ، اتراها تريد مذبحة ؟ ! كلا .. إنها لاتريد إلا السلام ..

وصاح المؤذن وهو يشير إلى القرآن ..

- أنا لا أسأل الاشجار والزرع ولا اسأل الناس ، ولكننى اسأل الله سبحانه !

ثم عاد فأخرج القرآن وفتحه ، ولكن الباشا رد يده وهو يقول :

- تستطيع - مادمت تقصد - أن ترى لكل سؤال جواب فى القرآن ..

تريد مذبحة ؟ ! افتح المصحف وستجد ـ مادمت تقصد ـ تبريرا لها ، وإذا فتحه سليم أغا فسوف يجد كلمات أخرى عن السلام .. وكلا الأمرين من عند الله .. كلاهما من عند الله .. فاهدأ إذن ..

ثم استدار إلى نورى بك :

ـ وأنت يا نورى بك .. ماذا ترى ؟ ! مذبحة أم سلاما ؟ ! ..

وحك نورى بك ساقيه عدة مرات بقبضة يده ، وهو يفكر فى إجابة سديدة ، وكان قد استغرق وقتا طويلا لكى يصل إلى رأى ، لم يكن بالقطع يريد السلام ، فقد صبرت تركيا طويلا ، وازداد اليونانى وقاحة ، وقد جاءت اللحظة التى ينبغى أن تفصل فيها رأسه عن جسده ، ولكنه هو أيضا لا يريد مذبحة ـ فلم يكن شرهاً للدماء ، ولم يكن شيخا يقرأ القرآن ويعتسف فيه النار ..

وضايق انتظاره الباشا :

ـ حسن ؟ ! ، إننى أسألك مرة أخرى ، اتريد السلام أم تريد مذبحة يا نورى بك ؟ !

وقال نورى بك وهو يحاول أن يكسب مزيدا من الوقت :

ـ لقد ضاع منا الطريق المباشر والسهل يا افندينا الباشا ..

ـ إنه لم يضع يا رجل ، ولكننا نحن الذين أصابنا العمى فلم نعد نراه ، أم ترى وجدته أنت ؟

ـ أعتقد ذلك يا افندينا الباشا .

ـ أرجو ذلك ! تكلم إذن وأطلقنا من إسار هذا العمى .

ـ لا سلام .. ولا مذبحة .. المذنب يدفع وحده الثمن ..

ـ الكابتن ميخايليس ؟ ! .. هل تقصده ؟ !

ـ امنحنى الحرية يا أفندينا الباشا فى ألا أذكر من يكون هذا الذى اقصده . أنت الباشا ، وان أنت تدخلت فسوف تتكلم الأسلحة وسوف نسبح فى الدماء ، دعنى أنا آخذ بالثأر نيابة عن تركيا ! وقريبا .. سوف

تعرف من يكون المذنب .

ـ هل سنقتله ؟ !

ـ سوف أقتله .. نعم ، ولكن ، لن يعرف أحد من يكون القاتل ، ثق بى .

وقفز المؤذن فى غضب وهياج وصاح :

ـ ليس المذنب رجلا واحدا ! .. إنهم ألوف ، وكلهم يستحقون المشهرة ، هذا فقط هو الذى يعينه الحفاظ على السلام ! إن اليونانى لا يفهم غير ذلك اقطع رأسه إذا أردت ، وبعدها ـ وبعدها فقط ـ سوف يهدأ ! ..

ولكن عقل « سليم أغا » كان مليئا بالاشجار والكروم ! .. فقفز هو الآخر وبدأ يصيح .. وأصبح صوت المؤذن كالجرس ـ فكيف يوقفه ؟ وتحول الموقف بينهما إلى ضربات يتبادلانها ، وحال « نورى بك » بين الاثنين بينما ظل الباشا جالسا فوق الديوان لا يتحرك .. إن هؤلاء الأتراك الكريتيين يديرون رأسه ، كلهم على حق .. وكلهم على باطل ! وأنى له إذن أن يدرك الحقيقة ؟ ! .. ثم إنه ـ وهذا هو الأهم ـ يحس بحاجة شديدة إلى النوم ، فلم تكن ليلته طيبة ـ لقد أكل وشرب أكثر مما ينبغى أن يأكل ويشرب ، وأصبح من الضرورى الآن أن ينتهى من هذه الحكاية ، ومن ثم فقد نفض عن نفسه التعب وصاح :

ـ أنتم ؟ ! ! ألا تخجلون من أنفسكم ؟ كفوا عن الشجار ، قلت لكم كفوا ! نورى بك .. أنت على حق ، تلك طريقة الجمل ، الطريقة المثلى ، افعل إذن ما يلهمك به الله سبحانه ، إننى أمنحك الحرية فى أن تفعل ذلك ..

والتقط « سليم آغا » عصابة راسه البيضاء من فوق الأرض ثم استدار نحو نورى بك قائلا فى ضراعة :

ـ إننى أباركك فيما أنت مقدم عليه إن أنت تصرفت بحذر ، وقتلت بحكمة ، لاتثر علينا وحشية اليونانيين واحفظ السلام من أجلنا .

وصاح المؤذن :

ـ لن أدع قانونى يوطأ بالأقدام ، سوف أخطب فى المسجد وأوقظ تركيا !

ولكن كلماته أعادت الحياة إلى الباشا الذى رفع قبضته وصاح :

ـ يا شيخ ! أنا هنا مسئول عن « ميجالوكاسترو » وحق النبى الأشرف لألبسنك كمامة مثل الكلب المسعور ! اسمع ! لن تكون هناك مذبحة ـ فاطرح هذه الفكرة عن رأسك ـ طالما اننى لم أتلق أوامر من القسطنطينية .

ثم وقف وأدار رأسه جانبا (لأنه أحس بتعب فى معدته) وعاد يصيح :

ـ اذهبوا ، فأنا مشغول ، أفعل ما اتفقنا عليه يا نورى بك ، ولكن كن حريصا ، الحرص يا أولادى ، لأن هؤلاء يونانيون .. اللعنة عليهم ! ولولا وجودهم فى طريقنا لكانت تركيا قد ابتلعت العالم كله .

ثم صفق بيديه فبرز الخادم المغربى .

ـ أوصل البكوات إلى الخارج .

وبينما كان يجرى هذا اللقاء ، كان هناك ثلاثة آخرون بارزون ـ يونانيون هذه المرة ـ يحثون الخطى فى طريقهم إلى المطران : هادچيسيفاس ، والكابتن الياس ، والعجوز ما فرودس الشهير باسم « البقة الوردية » .

كان الأول أعرج شاحب اللون متأنقا ذا لحية رمادية علتها صفرة دخان التبغ ، سافر فى شبابه إلى فرنسا ليصبح طبيبا ثم عاد وقد دارت رأسه ، وأصبح مجنونا بالتنقيب عن الآثار حيث ينقد العمال ليحفروا الأرض من أجله فى الأماكن التى توجد بها الأطلال أو فى أماكن مهجورة من الساحل ، وحتى فى كهوف « بسيلوريتيس » . ولقد ظل يحفر ويحفر ، وعثر على أياد وأقدام من الرخام وأطباق غطتها كتابات غريبة ، وأوان فخارية .. كان ينقلها جميعها إلى مقر الأسقف حتى ملأ بها حجرة ضخمة ، ولكن الحجرة لم تعد تتسع لهذه الكنوز ! ومن ثم فقد بدأت تخرج إلى ساحة الكنيسة وهدد المسيحيون بأنهم لن يرسلوا زوجاتهم أو بناتهم إلى الكنيسة حتى لا يشاهدون هذه التماثيل القديمة المخجلة .. العارية تماما ! .... لقد كانت نصيحة طيبة تلك التى تلقاها .. « هادچيسيفاس » الكبير بألا يرسل ابنه إلى فرنسا حتى لا تتلف روحهُ هناك ، وها قد ثبت بالفعل أنها كانت

نصيحة فى محلها ! فقد عاد الابن بمعول معه أخذ يحفر به ويحفر ويحفر . ولقد قيل أنه كان يبحث عن الخنزيرة الذهبية ذات الثمانية أولاد ، ولكن كيف له أن يجدها وقد انفق كل ما يملكه أجورا للعمال ؟ ها هو ذا يجرى الآن فى ردائه الشاحب وبحذائه البالى ، يحدث نفسه فى الطريق ، وعن قريب ولاشك ، سوف يقذف الناس بالحجارة . والوحيد الذى كان يحترمه - وتأمل ! - هو المطران الذى أعطاه مكانا بالقرب من مكانه هو بالكنيسة ، والذى يقدم له خبز التضحية قبل أن يقدمه لأى شخص آخر . وهكذا ، فإن المسيحيين فى الجزيرة كانوا يختارونه متحدثا باسمهم لدى المطران والباشا .. وعندما حدث مرة وألقت بعض السفن الأفرنجية مراسيها فى الميناء ، كوجه هو إليها وظل يثرثر مع الفرنجة طويلا دون أن يفهم الكريتيون كلمة واحدة مما قال ، هذا المسكين ! - أم أنه كان حقا يتكلم بلغات أجنبية ؟ !

أما الثانى فهو الكابتن « إلياس » الذى كان من تذكارات عام ١٨٢١ ! .. إنسان متغض الوجه .. طويل كبرج بلا نافذة أو باب ، ذو جسد جعلته طلقات الرصاص مثل الغربال ، عريض المنكبين ناتىء العظام صوته مثل قصف الرعد - إذا قال لأحد « طاب يومك » فكأنه يلقى إليه بصاعقة ! وكانت عينه اليسرى قد انتزعت من محجرها بشوكة على يد أحد الباشوات الأتراك ، ولكن اللجنة الوطنية الأثينية بعثت إليه بعين زجاجية - أول عين زجاجية تراها كريت ، وكان الكابتن يستخدمها بديلا عن عينه المفقودة ، فيتطاير منها الشرر إلى هؤلاء الذين لا يملك لهم ضرا ، وكان يخلعها فى المناسبات الرسمية ويبقيها داخل كوبة من الماء ويمثل بحضرة المطران أو الباشا بعين واحدة ليذكرهما بعام ١٨٢١ ، وكان الاثنان الآخران قد جعلا مكانه بينهما .. وسار معهما منحنيا فوق عصاه فى طريقه مرة أخرى إلى المطران بعين واحدة ..

وأما الثالث - « مافروديس » العجوز .. البقة الوردية - فقد كان أعزب مشاكسا كريها وبائسا ، جائعا طوال الوقت .. فإذا تناول طعاما ظل يئن ويرتعش من البرد ويلعن ويسب إذا ارتدى معطفا يدفئه ، وكم من أرامل ويتامى ألقى بهم فى قارعة الطريق عندما كانوا مدينين له ببعض النقود ، كان يجمع المال ويجمع : الذهب والجنيهات ومزارع الكروم والحقول

والبيوت والسفن البخارية ، وحين يسأله أحدهم ، لماذا لايتناول وجبات منتظمة ، كان يقول :

- « وماذا أكل ؟ وأين أكل ! لا شيء من هذا كله لى ، كل شيء ملك الأمة ، وليس من حقى أن أقسى شيئا منه » .

وعندما اندلعت ثورة ١٨٧١ ، توجه إلى المطران ومعه وثيقة مختومة وقال « سيدى الأسقف ، خذ هذه الورقة ، أننى أهب كل ثروتى لمجلس شيوخ ميجالوكاسترو ، إن الثورة تحتاج إلى أموال ، فبع إذن كل ما أملكه وحوله إلى أسلحة » .. وسأله المطران والدموع فى عينيه : « وأنت يا مافروديس ؟ كيف ستعيش » .. « ولماذا تقلق على يا سيدى الأسقف ! ! سوف أطرق الأبواب وأتسول » .. واهتم به المطران بعدها وجعل له مخصصات شهرية ، ولكنه مالبث أن بدأ يعود كعادته إلى الحرص ، فكان لا يأكل ولا يشرب ولا يرتدى ثيابا لائقة .. وبدأ يقرض الناس بالربا الفاحش وينمى رأسماله من الأرامل واليتامى حتى كون ثروة جديدة ، وها قد أصبح عجوزا .. إحدى قدميه فى القبر ! .. وقد كتب وصية جعل فيها أمواله مرة أخرى للأمة ، ولكن عقله كان مثل الفأس فى حدته ، فإذا ادلهمت الأمور أخذ ينبش يمينا ويسارا حتى يجد المخرج ، ومن أجل هذا بعث به المسيحيون لكى يكون متحدثا باسمهم .

كان المطران ينتظر الثلاثة جالسا فوق ديوان مريح فى مقر الأسقفية وأمامه انجيل مفضض فوق قاعدة من خشب السرو على هيئة ملاك بأسطر جناحيه ، وفوقه علقت ثلاث صور : إلى اليمين صورة بطريرك القسطنطينية ، وإلى اليسار صورة القيصر ، .. وفى الوسط صورة مسجد ايا صوفيا ، وكانت الشمس تتسلل خلال ألواح النوافذ الزجاجية الملونة وتلقى بأضواء زرقاء وبنفسجية على الحائط المكتظ بصور المطارنة والأساقفة الموتى والأحياء بلحاهم البيضاء كالثلج أو السوداء كالقار ، وبقلنسواتهم وتمائمهم وعصيهم التى يتوكأون عليها ، وكان البعض منهم يبدو بشوشا ذا عينين سمحتين ، كثيف الشعر مثل كبش لم يجز صوفه ، بينما كان البعض الأخر يبدو بشعا بعينين جاحظين وفم واسع ورقبة غليظة يمسك بعصا .. كما لو كانت عصا شرطى ! وكان من بينهم أيضا المطران الحالى أيام كان أرشيماندريتا فى « كييف » .. كم كانت نظراته أيامها

تعكس القوة والنبل ! هذا البطل الصغير .. يبدو فى الصورة وكان الله سبحانه قد خلقه لكى يصبح قائدا عظيما أو نبيا ، أو لكى يصبح رجل دين مرعبا فى إقباله على الحياة ! ولكن المسيح قد اختاره لنفسه بكلمات كانت بالنسبة إليه أكثر عذوبة من العسل المصفى .. وقاد خطاه على مهل لكى يصبح ما وصل إليه ـ مطرانا .

والقى بنظرة إلى صورته وهو شاب .. ثم تنهد وقال :

ـ لقد تقدمت بى السن ، وعلتنى الصفرة مثل الكرنبة ، واقترب اليوم الذى سوف اقف فيه أمام مقعد الحق ويداى فارغتان . كم من مطارنة لكريت سوف يقفون امام القاضى الأبدى الأزلى يحملون فى أيديهم عدة الشهادة ـ المدى والفئوس والسياط والخوازيق ، وأنا وحدى الذى سيقف خالى اليدين .. يا إلهى .. امنحنى شرف أن أموت من أجل شرفك ، ومن أجل شرف ابنتك المسكينة !

ودخل « مورزوفلوس » بوجه شاحب :

ـ لقد وصل الكبار ياسيدى ، وهم ينتظرون .

ـ فليدخلوا ! وخذ أنت الصينية الفضية الكبيرة وادرها عليهم ، أنهم سادة .. كما تعرف ..

وتردد « مورزوفلوس » لحظة على عتبة الباب ، ونظر إليه المطران فى دهشة :

ـ هل هناك شىء آخر يا مورزوفلوس ؟

وقال مورزوفلوس ووجهه يعكس القلق :

ـ سامحنى ياسيدى .. سامحنى على مافعلت يا سيدى .

وابتسم المطران وقال :

ـ هون عليك يا مورزوفلوس ، سوف يسامحك المسيح ، فاعتمد على رحمته !

ـ إن ذنبى كبير ..

ـ ولكن رحمته أيضا واسعة .. اذهب الآن !

ودخل الثلاثة الكبار ، وقبلوا يد المطران .. وجلسوا فوق الديوان ، وأخرج كل واحد منهم مسبحته وانتظروا حتى يكون المطران هو البادىء بالكلام .

وتكلم المطران ، وهو ينظر عبر النافذة :

ـ الطقس رائع يا أولادى ، يا لها من أيام طيبة ! يا لروعة الشمس ! إنها تحية خاصة من الله ! الربيع ! القديس جورج ! كيف حال المحاصيل الآن يا مورزوفلوس ؟ .

ـ الحمد لله ..

وقال الكابتن الياس :

ـ حال المحاصيل طيب يا سيدى ، ولكن حال الرجال سىء ، أنا مع العمل البطولى حين تكون هناك حاجة إليه ، فإذا لم تكن هناك حاجة إليه .. فهو حماقة !

وقال هادچيسافاس :

ـ كبار السن يقولون ...

ولكن الكابتن الياس رفع يده فى غضب وقاطعه قائلا :

ـ دع كبار السن فى حالهم يا هادچيسافاس ، لقد ماتوا وانتهى أمرهم ، نحن نتحدث عن الأحياء ، فى هذه اللحظة يعقد الأغوات الكبار مؤتمرا مع الباشا ، والله وحده يعلم ما انتهى إليه ، الكلاب حتى الآن ، فلنكن إذن على حذر .. ما رأيك أنت يا سيدى المطران ؟ ! ..

وقال المطران :

ـ أنا أيضا سمعت بانتهاكات الكابتن ميخاليس الجديدة ، ولكم أنا آسف على هذا الفاس .. آسف من أجل هذا الرجل ، لسوف تحطمه الخمر ..

ـ ولسوف يحطمنا هو ! ينبغى أن نكبح جماحه وإلا ..

وقال هاچيسافاس :

ـ لا تثوروا بحق الله ! إن أمامنا الكثير لكى نفعله فى كريت . إن الأرض مباركة وتخفى من الكنوز أعظمها ـ تماثيل ، صور ، قصور ملكية ، .. فكيف بالله يستطيع أحد أن يواصل اكتشافاته وسط ثورة ؟ .. ينبغى علينا إذن أن ....

وقال الكابتن إلياس مقاطعا :

ـ قلت لك دع أناس الماضى فى حالهم ، فلتتخطفهم الشياطين ! .. دعهم يتركوننا فى سلام ! تكلم يا مافروديس . إن عقلى المسكين لا يستطيع أن يصل إلى حل .. أما أنت بعقلك مثل الفأس .. قاطع حاد ، فاقطع لنا إذن حلا ... !

وأسعدت هذه الكلمات البقة الوردية ! .... فضحك وقال :

ـ إذا سمح لى سيدى المطران ..

وقال المطران :

ـ ما الذى يضحكك بحق السماء ؟ إن عقلك مثل عقل المرأة ، إن مصلحة مملكة المسيح تعمل الآن عملها ..

وأجاب مافروديس العجوز :

هللويا .. مزمور قصير يا سيدى المطران ! انهض الآن يا سيدى واذهب إلى الباشا ، إنه رجل طيب ، واناضولى على خلق ولا يحب المتاعب ، قل له كل ما يمن الله به على لسانك كذبا كان أو صدقا ، كن معه ناعما ... اطلب منه أن يسامحنا لأن الكابتن ميخاليس كان ثملا ، وأننا نحن سنجبره على أن يلزم النظام وأنه لن يعود إلى مثل ما فعل . واحمل له معك شيئا من الهدايا أيضا ، صندوقا للطباق مثلا .. أو قطعة كبيرة من العنبر من أجل غليونه الطويل ، إن الأسقفية لديها من مثل هذه الأشياء الكثير يصلح لهذه الأوقات الصعبة ! اعطه شيئا .. إنه مثل الكلب ، الق إليه بعظمة ليعض فيها ما شاء له العض ! وسوف يكف معها عن النباح .. أما محاربنا الشهير هنا .. فسوف يكون له حديث مع الكابتن ميخاليس ، وعسى الله أن يكون معه وهو يؤدى هذه المهمة !

وصاح الكابتن « الياس » وهو يهز رأسه :

ـ على باب الأصم .. تستطيع أن تدق ما شاء لك الدق ، فإنه لن يسمعك ، إنه مثل الحائط ، ولكننى سوف أحادثه على أية حال ، أنا رجل عجوز حاربت عام ١٨٢١ ، وربما ينصت إلى ما سوف أقوله له .. وبصرف النظر عن ذلك يا سيدى المطران ، فأنا أظن أن مستشارنا المحترم يصدر فى رأيه عن عين العقل ، خذ عصاك واذهب إلى الباشا .. وبسرعة ! .. بسرعة قبل أن تنزل الضربات !

وجاءت الصينية الفضية المستديرة ، القهوة ، والكعك والمربى ، وصمت الكبار ... وتناهت عبر النافذة رائحة أشجار الليمون المزهرة ، وطارت نحلة وحومت فوق الرءوس الأربعة .. ثم اختفت حين أدركت أنهم ليسوا أشجارا مزهرة ، وبدأ الثلاثة الكبار يشربون قهوتهم فى جرعات كبيرة وهم يمصمصون شفاههم ، لقد أنهوا مهمتهم بسرعة ، ووصلوا إلى قرارهم بسهولة ويسر .. وها قد جاءت القشدة فى موعدها المعتاد تماما ! وسأل « هادچيسافاس » المطران أن يسمح له بأن يلف لنفسه سيجارة .. وفعل الاثنان الآخران مثله ، وما لبثوا أن بدأوا يدخنون وعيونها نصف مغلقة .. وبدأت سحائب الدخان ترتفع .. وتحجب صور البطريرك والقيصر وأبا صوفيا ..

ومد المطران يده وفتح أحد الأدراج ثم قال :

ـ يا أولادى .. سوف أطلعكم على صورة هامة ، لاتذهبوا بعيدا ، فأنتم تعرفون صديقنا مورزوفلوس ، إنها من صنعه ، إنه شديد الخوف ، ولكنه جامح الخيال أيضا ، إنه يرى أشياء لا نستطيع نحن أن نراها ـ ليس لأنها غير موجودة .. ولكن لأن الله سبحانه أسدل على عيوننا أستارا كما نفعل نحن بالخيول حتى لا تنحرف يمينا أو يسارا وحتى تبقى مثبتة فى وجهتها إلى الأمام فحسب ، ولكن الله سبحانه ـ وهو وحده يعلم السبب ـ قد رفع الحجاب عن أمثاله من أصحاب الرؤى ..

ثم أخرج من الدرج صورة ملفوفة فى قطعة من الكتان الأبيض ، ومد بها يده إلى المتحدثين الثلاثة .

وتناولها الكابتن « الياس » وأسندها فوق ركبتيه وحدق فيها بعينه الواحدة .. ثم قال :

- إنها صورة الصلب .. الصلب ، ولكنى لا أستطيع ان أميزها جيدا وانحنى « مافروديس » لينظر .. ثم صاح :

- سامحنى الله .. إن عينى ترتعشان .. ولكن ... ؟

وصاح « هادچيسافاس » وقد أخرج من جيبه عدسة مكبرة :

- شيء مدهش ! .. إنها فكرة رائعة ! بارك الله فى يديك يا مورزوفلوس ! ، إنه الصلب ، واقسم بشرفى ، لو اننى كنت أسقفا لعلقتها فى مذبح ا لكنيسة .

وضحك المطران بمرارة وهز رأسه الطيب الذى يشبه رأس أسد .

وقال « مافروديس » العجوز :

- يا إلهى .. ولكن الذى فوق الصليب ليس هو السيد المسيح ! .. لقد أخطأت ، إنها امرأة تحمل أحزمة من الرصاص وغدارات فضية وقال المطران بصوت هزته المشاعر :

- إنها كريت .. كريت يا أولادى . وهذا الصليب يرتفع فوق كومة من الجماجم والعظام ، السماء ملبدة بالغيوم السوداء .. وثمة برق تكشف أشعته الدير فى خلفية الصورة إلى اليمين ، انظروا إلى برج الدير .. وانظروا إلى طواحين الهواء أمامه وإلى القباب والحوائط ذات الأبراج حولها ، إنها « اركادى » ، وها هى ذى « كريت » مصلوبة على صورة أم معذبة ترتدى السواد وينساب دمها إلى أسفل فوق بقايا عظام أبنائها ، وإلى الأسفل من الصليب - وعن يمين ويسار - يقف اثنان من الفرسان ، واحد منهم ذو شعر أشيب رمادى ، والآخر فى شرخ الرجولة يضع فوق رأسه طربوشا عريضا ..

وقال « مافروديس » العجوز :

- هناك كلمات تخرج من فمها .. إنها تقول ...

وتساءل الكابتن الياس وهو ينحنى أكثر إلى الأمام ليقرأ :

- ماذا تقول الكلمات ؟ !

وحرك « هادچيسافاس » عدسته المكبرة فى بطء وقرأ : « إلى .. إلى .. لما شبقتنى ...... » .

وقال المطران مترجما ...

ـ يعنى ... إلهى .. إلهى .. لم تركتنى ..

وظل الأربعة صامتين وهم يحدقون فى صورة الصلب الجديد وأخيرا صاح « مافروديس » وقد فغر فمه :

ـ أليست هذه خطيئة يا سيدى ؟ ! .. كريت كأنها المسيح ؟ !

وقال المطران وهو يتنهد :

ـ إنهما واحد .. إنهما واحد .. ولكن ...

ـ ولكن ماذا ؟ !

ـ ولكنها تستحق ذلك ..

قالها المطران وهو يحدق فى المرأة المصلوبة .. كريت ..

وكم كان « مورزوفلوس » رائعا حين رسمها : المعاناة التى ترتسم على وجهها ! خداها المثلومتان ! عيناها السوداوان المعذبتان ! .. شفتاها الدقيقتان الملتويتان تكادان أن تسمع الانات منهما قدماها العاريتان اللتان تناثرت بقع الدم فوقهما .. وفى أسفل الصورة يبدو حذاؤها فى لون القشدة ! ...

وفجأة ، طوح الكابتن « الياس » بطربوشه جانبا فى حركة عنيفة ـ وكأنما قد وصل إلى قرار بالغ الأهمية ـ ثم رفع الصورة وقربها من شفتيه .. وظل هكذا لحظات طويلة وكأنهما لا يستطيعان الفكاك ! بينما كان صدره العريض يعلو ويهبط فى عنف ، ولم يستطع « مافروديس » العجوز أن يحتمل أكثر من ذلك .. فقد اختطف الصورة ودموعه تنحدر من عينيه وانحنى فوقها يقبلها وهو ينتحب ،بينما كان « هادچيسافاس » يجفف الدموع من عينيه هو الآخر ، ويقف ناظرا عبر النافذة إلى أشجار الليمون المزهرة .

وأخذ المطران الصورة .. ورسم علامة الصليب وقال وهو يقبل القدمين

العاريتين الداميتين .. قدمى كريت :

ـ إننا نقدس عذابك هذا..

ثم استسلم الأربعة لأحزانهم ...

وكان المطران أول من تمالك نفسه ، فلف الصورة بقطعة القماش ووضعها فى مكانها داخل الدرج ثم استجمع قواه ونهض واقفا ، وقال :

ـ انصرفوا محفوفين بالبركة .. والله يبسط فوقكم يد العناية ..

وقال الكابتن الياس :

ـ ينبغى علينا نحن أولا أن نبسط هذه اليد يا سيدى ، إذا لم يجد الله سبحانه يدا بشرية تمتد ، فلن يمد هو يده لأحد .. تذكر ذلك !

ـ صدقت .. صدقت يا كابتن الياس ! سوف أذهب الآن لأقابل الباشا على الفور . وأسأل الله أن أجده معتدل المزاج !

وانحنى الثلاثة يقبلون يد الباشا السمينة البيضاء ، وأخذ الكابتن « الياس » عصاه واتجه نحو الباب وخلفه زميلاه ، وسار الثلاثة عبر فناء الكنيسة .. وهز الكابتن رأسه وهو يرى أرض الفناء مكدسة بالأيدى والأرجل والرءوس من بقايا التماثيل المصنوعة من الرخام ، وبالأطباق التى رسمت عليها صور ساذجة وغمغم فى غضب :

ـ الرجال القدامى .. الرجال القدامى !

وانحنى « هادجيسافاس » وبدأ يقرأ فوق الصخور ، فصاح الكابتن « الياس » فى زميله الأشيب :

ـ دعهم فى حالهم .. إنهم السبعة والسبعون حماقة ! سوف أمضى الآن إلى الكابتن ميخاليس ، أما أنتم فلكم أصدقاؤكم الأتراك .. و« سليم أغا » بالذات .. تحدثوا معه الآن وعلى الفور .. وأسأله الله أن يجنبنا ثورة أخرى قبل أن يحين موعدها المناسب . إن كريت قد خسرت كثيرا ، وهذا يكفيها الآن !

وعلى باب المطران وقف « باربايانيس » ينتظرهم وقد وضع على الأرض سلته المليئة بالثلج الملفوف بالقش والصفيحة الملأى بالشراب وهو يصيح

بين الفينة والفينة وكلما مر به أحد :

ـ « بارد كالثلج .. بارد كالثلج اشتر شراب الجنة ! » .

كان رجلا عجوزا بائسا ذا رأس أصلع وعينين مستديرتين رماديتين صغيرتين براقتين ، وعنق طويل ملأتها التجاعيد والكهوف ، وصوت حاد يخرق آذان الناس . وكان الأتراك والمسيحيون يرونه مجنونا لأنه لم يكن يخشى هؤلاء أو أولئك ، ويقول ما يعتقده بصراحة ، يلعن ويكفر مرة في حق المسيح وأخرى في حق محمد وثالثة في حق السلطان ، وقد حدث مرة في أحد أعياد الفصح قبل بضع سنين أن وقف أمام مصطفى باشا ذلك الرجل الدموي يعد له شرابا مثلجا لينعشه ، وفي تلك اللحظة بدأت روحه تصاب بما تصاب به فجأة من اختلاط ! فأخذ يندب قتلى الكريتيين في « أركادي » ويقفز في الهواء كأنما تلسعه النيران ولحظتها كان الباشا والأفندية الجالسون معه في الكشك القريب من الأقباء الثلاثة يدخنون غلايينهم الطويلة .. كانوا جميعا يستمتعون بتلك التسلية ! أما الذين سمعوا ذلك العويل فقد أسرعوا بالهرب .. كريتيين وأتراكا .. وذلك ضايقه ! فانحنى والتقط غصنا أخضر أخذ يلوح به في الهواء في جنون وكأنه يمسك بسيف في يده ، كان يريد أن يثير الباشا ويخرج عينيه من محجريهما ، وأن يتوعده .. وفجأة بدأ يغني بصوت حاد : « إيه يا سيفي اللامع المطيع .. لسوف تذبح كل الأتراك ... » .

وأصاب الذهول الكريتيين والأتراك معا ، ولم يعرفوا لحظتها ماذا يفعلون ، وظلوا يحدقون في الباشا وكأنهم يستلهمونه مايمكن أن يفعلوه ، ولكن الباشا ـ لدهشتهم ـ صفق بيديه وقد انفجر ضاحكا ، يالها من تسلية ـ هذا الحطام الآدمي الذي يتوعد الأتراك بغصن أخضر !

صاح الباشا :

ـ براڤو كابتن باربايانيس ، تعال هنا ...

وانفجر الأفندية ضاحكين هم أيضا .. وبدأ الناس يشاركون بدورهم في الضحك ، بينما تابع « باربايانيس » رقصه وغناءه وصياحه ..

وصاح الباشا :

ـ هذا يكفي .. أنت الآن فعلت بنا كل شيء ، وها هي ذي تركيا ملقاة

فوق الأرض ! تعال هنا .. قلت لك تعال هنا أيها الفارس الأحمق .. أنا أحبك ، وسوف أهديك سيفا حقيقيا وأضع فوق صدرك وساما .. فاصغ إلى الآن جيدا ، سوف أمنحك الحرية كل عيد فصح فى أن تتمنطق بسيفك وتضع الوسام فوق صدرك وفى أن تخطر فى شوارع ميجالوكاسترو مثل الباشا من أول « كانيا » وحتى بوابة المستشفى .. ومن الجديدة حتى بوابة الميناء ، ولك الحرية كل يوم فى أن تقول كل ما يتفتق عنه رأسك الأحمق .. حتى فى أن تلعننى أنا .. فأنت أحمق .. وكلماتك لا قيمة لها .. منذ أعوام يا باربايانيس وأنا لم أضحك مثلما ضحكت اليوم .. ومن أجل هذا فإننى أشكرك ..

ومنذ ذلك اليوم زادت جرأة باربايانيس ، وأصبح الأتراك يتحملونه فى نفس الوقت الذى يجدون فى تصرفاته التسلية ! وهكذا أصبح باربايانيس هو الرجل الوحيد الحر فى ميجالوكاسترو ، وكان هو أول من يشم رائحة المتاعب إذا بدا أنها مقبلة ، وكان هو الذى يصيح بأعلى صوته مع الشراب فى الصيف والساليبى فى الشتاء ، بكل ما يدور فى أذهان الكريتيين ولا يجرأون على الافصاح به ، وعندما كان يتمادى فى ذلك كان يتلقى أحيانا لكمة فوق أذنه ، وربما يقذفه الأتراك بقشور الليمون والطماطم الفاسدة ، ولكن ذلك كله لم يكن يمنع لسانه عن العمل .

ومنذ أمس .. بدأ باربايانيس يشم فى الجو رائحة البارود ، وقد رأى الكبار الثلاثة يتجهون إلى مقر المطران فى الصباح الباكر ، وذلك أمر بدا معه وكأن برغوثا يلعب فى صدره ! ومن ثم فقد حط رحاله هذا الصباح أمام باب مقر المطران .. وانتظر .. لابد أن يعرف ماذا يجرى ! .. لقد اقترب عيد الفصح ، وسوف يتمنطق بسيفه ويصنع فوق صدره الوسام إياه وينفث كل غضبه هناك بالقرب من الأقباء الثلاثة عندما يجلس الباشا والأفندية ليستمعوا إلى الفرقة الموسيقية .. ولحظتها سوف يكون فى مقدوره أن يمنح بعض الرضا والراحة لهؤلاء الكلاب المساكين الذين لا يستطيعون أن ينطقوا بحرف واحد !

وعندما رأى الإثنان الكبار يظهران ، رفع سلة الثلج بيده ووضع الصفيحة تحت إبطه وتقدم نحوهما ، وقال :

ـ طاب يومكما يا كبار ، انتظر لحظة حتى أعد لكما شرابا يغشكما ،

فالجو حار وقال الكابتن « الياس » :

ـ دعنا في حالنا ياباربايانيس ، فنحن لانريد شرابك .

ـ لاتكن وقحا هكذا يا كابتن الياس ، فأنا لا أخاف منك ، أنا أحمق كما تعلم ، ولست أخاف من الباشا أو حتى من السلطان ، فكيف أخافكم أنتم أيها الأعيان والفرسان وأنتم تتبولون في سراويلكم ؟ ! باربايانيس معه سيفه ، ومعه أيضا خطاب حريته .. وكل الذى يدور في أذهانكم يستطيع هو أن يقوله بلا خوف .

وقال « البقة الوردية » في رقة :

ـ ارجو أن تكون بخير يا باربايانيس : إكبح لسانك فالوقت لم يحن بعد ، وسأله باربايانيس برقة مثله :

ـ ومتى سيحين الوقت ؟ ! أريد أن أعرف .

ورفع الكابتن اليسا عصاه .. فجمع باربايانيس بضاعته وابتعد .

وضع المطران التميمة الذهبية حول عنقه ، جانب منها يمثل الصلب مصنوعا بالميناء الملونة ، والجانب الآخر يمثل القيامة ـ ووضع في جيبه صندوق الطباق الفضى العتيد المصنوع في أشهر محال « جانينا » حيث مطرانها الذى أهداه أياه .. صديق له ، ثم التقط عصاه واتجه نحو مقر الباشا سائرا على قدميه يتبعه أحد الشمامسة .

وكان الباشا في ذلك الحين قد استسلم للنعاس ، وتمدد فوق بعض الوسائد اللينة ، وبدأ يحلم : رأى انه يسير داخل حديقة بيته في مدينة « بروسا » والأشجار تمد فروعها المثقلة فوقه وقد أزهر بعضها وبدت الأخرى محملة بالثمار ، وخيل إليه وهو يدخن غليونه الطويل ويتجول داخل الحديقة أنه في الجنة وأن الرسول محمدا سوف يرحب به في أى لحظة .

ولكنه رأى نفسه فجأة في جانب آخر حيث شجرة زيتون عارية أحرقتها صاعقة ومالت بها وجردتها من أوراقها وبراعمها ، وقد علقت بغصونها ثلاث ثمرات لفاكهة غريبة ، بنادق ورصاص وخناجر وعصابات للرأس سوداء .. يالها من شجرة زيتون ملعونة تلك التى تحمل السلاح بدل الفاكهة ؟ .. وصاح الباشا فزعا وارتد إلى الخلف ليعود إلى داخل حديقته

المزهرة المثمرة ، ولكنها كانت قد غاضت بعيدا ولم يعد يرى حوله سوى صحراء موحشة ، وصخور تكدست خلفها أحراش من البنادق والفدارات الفضية ..

وصرخ الباشا وهو يصحو من نومه منتفضا :

ـ كريت ! .. كريت !

وفى نفس اللحظة فتح « العربى سليمان » الباب ، وقال :

ـ أفندينا الباشا .. باشا اليونانيين الكبير قد وصل ، وهو الآن يصعد الدرج وقال الباشا وهو يمسح العرق البارد عن جبهته :

ـ لقد رأيت حلما سيئا ..

ـ هل أخبر هذا الوحش الكبير بأن ينصرف ؟ !

وانتبه الباشا وقال :

ـ كلا .. دعه يدخل أيها الغبى ، أئمة الكفر هؤلاء أحسن من يفسر الأحلام .. وسوف يفسر لى حلمى .. دعه يدخل ..

ودخل المطران .. وتبودلت التحية .. والتقى الرجلان ذوا المكانة فى ميجالوكاسترو .. كانا أشبه بملكين أشيبين داخل هذا المجتمع .. ولكل مملكته ! هذا الحى التركى ، وهذا الحى اليونانى وكلاهما يلعن الآخر ، والهلال والصليب مرتبطان .

جلسا جنبا إلى جنب فوق الديوان العريض ، وأشعل الباشا غليونه بينما أخرج المطران مسبحته وبدأ يلعب بحباتها الأبنوسية السوداء وهو يفكر كيف ينبغى أن يبدأ الحديث ، ومن خلال النافذة المفتوحة بدت مبانى الحرس إلى اليسار .. وإلى اليمين ، بدت الشجرة العتيقة الجرداء إلا الأوراق الصغيرة ، وعلى مقربة منها بدت النافورة الفينيسية الشهيرة بأسودها المصنوعة من الرخام ..

وتمطى الباشا وبدأ :

ـ إنه الصيف يا أفندينا المطران ، يا الله ! .. ما أسرع ما تمر الأيام !

أنها عجلة ولا تتوقف عن الدوران ونحن معها ندور ، يجيء الصيف فيقول المرء .. ما أشد حرارته ! .. أنني أختنق ! » ، ولا يكاد المرء ينتهى من هذه الكلمات حتى تهب الزوابع وينهمر المطر ويدفن المرء نفسه فى عباءته ماذا يقول دينك عن هذه الأمور الغريبة يا أفندينا المطران ؟ !

وقبل أن يجيب المطران .. عاد الباشا يسأل :

ـ هل تؤمن بالأحلام يا أفندينا المطران ؟ ! من أين تجيء ؟ ! ومن الذى يبعث بها ! !

واجاب المطران :

ـ بعضها يبعث به الله .. والبعض الآخر من الأرواح الشريرة .

ـ وكيف يفرق المرء بينها ؟ ! أى منها من الله ؟ ! وأى منها من الأرواح الشريرة ! !

ـ لابد أنك حلمت يا أفندينا الباشا ، إن الحلم لا يزال باديا على جفنيك واستطيع أن أراه .

ـ بلى .. من أجل هذا أسألك .

ـ عسى أن يكون خيرا يا أفندينا الباشا .. دعنى أسمعه منك .

ـ هل تعرف شيئا عن الأحلام ؟ !

ـ أحيانا يلهمنى الله سبحانه .. حسن ؟ !

وتنهد الباشا .. وقص حلمه .. وأضاف بعض الزخارف حول شجرة الزيتون ، فقد ذكر أنه كانت هناك رءوس عدة معلقة على غصونها !

وأحنى المطران رأسه ، فقد كان يفكر فى طريقة يستخدم لها ذلك الحلم ليدعم هدفه ..

وتساءل الباشا قلقا :

ـ أهو من الأرواح الشريرة ؟ !

وأجاب المطران :

ـ بل من الله .. ولكن كيف لى أن افسره يا افندينا الباشا ؟ قد يقلقك هذا التفسير ؟ !

وصاح الباشا فى دهشة :

ـ فأنت لاتعلم إذن أن المسلم الحق لا يهزه شىء ؟ .. إنه يعرف أن كل شىء يحدث فى هذه الدنيا مكتوبا من قبل .. وأن أحدا لا يستطيع أن يدفع هذا المكتوب ، ولو أن الباشا أرسل إلى الآن فرمانا يطلب فيه راسى لما هزنى ذلك أو ضايقنى .. ربما أعولت وانتحبت ، بل إننى كنت سأفعل ذلك بالقطع ، ولكننى لم أكن لأهتز او أتضايق ، فذلك يكون هو أيضا مكتوبا ومقدرا من قبل ، فهل اعترض على مشيئة الله ؟

تكلم إذن بلا خوف يا افندينا المطران ، ولكن حذار من الكذب ، قل الحقيقة كلها .

واستجمع المطران نفسه لحظات ثم قال :

ـ الحقيقة التى رايتها فى الحلم هى قلب الرجل الطيب .. إن قلبك هو الحديقة يا افندينا الباشا ، وهى مفتوحة بالليل لتدخلها وتجوس خلالها ، والذى رأيته فى نومك هو الاجابة على طبيعتك : أن تجوس فى طمأنينة وسلام وسط الأشجار المورقة المزهرة فى « بروسا » .. المدينة التى ولدت فيها .. أن قلبك حديقة ، ولكن المكتوب والمقدر هو أن تصبح باشا وأن تتولى هذا المنصب فى كريت ...

وتنهد الباشا وقال :

ـ ماذا أقول لك يا أفندينا المطران ؟ ! هذه هى الحقيقة .. كأنك تقرأ ما بقلبى ، ولكن أكمل ..

ـ عندما تكون قرية المرء أمامه يا أفندينا الباشا ، فإنه لايحتاج إلى دليل يقوده إليها ، اشجار الزيتون المثقلة بالاسلحة ـ تلك التى رأيتها فى الحلم ـ هى كريت .. وأنت ذهبت ووقفت تحت الشجرة العارية المحترقة فأظلم وجهك ، وهنا بدأ مصيرك يضطرب .. وانه لأمر مثير للشفقة حقا انك استيقظت دون أن تعرف ما حدث بعد ذلك ، ولعل الله قد كتب لك بعد أن

يمنحك سبحانه حريتك من الآن لتفعل ما ترغب فيه ، فالمسئولية الآن إذن مسئوليتك أنت ..

وقال الأناضولى الطبيب :

ـ نعم .. لعل الأمر ما تقول يا افندينا المطران ، وأقسم بالشمس التى تضيىء فوقنا إنه يمكن للمسيحيين وللأتراك أن يعيشوا كالأخوة .. اليونانيون يعملون والاتراك يأكلون .. والاثنان معا يعيشان عيشة سعيدة ..

وصاح المطران وقد وجد لنفسه نقطة البداية التى كان يريدها :

ـ وذلك أمره فى يديك أنت ! بمقدورك أن تهيىء الحب لهذه الجزيرة ، إن الله جعلك تحلم بهذا الحلم فى الوقت المناسب !

ـ ماذا تعنى بذلك يا افندينا المطران ؟ ! لست أفهم !

ـ انت سمعت ولاشك أن المسيحيين والأتراك فى ميجالوكاسترو قد بدأوا يستجيبون للاثارة لان فارسا ثملا ـ كما قالوا ـ اقتحم بجواده مقهى تركيا ..

وصاح الباشا وقد برقت عيناه :

ـ وهل يبدو لك ذلك الأمر تافها ؟ ! هذا الكافر قد أهان تركيا !

وقال المطران بلهجة حماسية :

ـ إن تركيا لاتهان بهذه البساطة ، إنها دولة قوية يا افندينا الباشا .. دع جانبا هذا البطل السكير ، فقد كنت تسألنى عن حلمك ، وأعتقد ان الله سبحانه يلهمنى أن أفسره لك .. ولكن إذا كان ذلك يضايقك ..

وقاطعه الباشا فى ابتهال وهو يضع يده على ركبتيه :

ـ كلا .. واقسم لك بالنبى ! .. فأكمل بحق ما تؤمن به ..

ـ إن السموات السبع فتحت ، وقد جاءك الرب فى منامك يا افندينا الباشا وأراك الطريق .

ـ اى طريق .

ـ الطريق الذى تختاره ، هناك طريقان ، واحد أخضر .. والآخر أحمر .. وبمقدورى أن أراهما معا فى ذلك الحلم ، وبمقدورك أنت أن تختار بينهما كما تشاء .

وقال الباشا معترضا:

ـ لا .. ليس كما أشاء أنا ، بل كما يشاء الله ..

ـ ولكن ربما يكون الله سبحانه قد منحك حرية الاختيار فتستطيع من ثم أن تختار الطريق الأحمر فتبدأ عمليات الاعدام وتحيل كريت إلى شعلة من اللهب ، أو أن تختار الطريق الأخضر فيتحول كل شىء إلى لبن وعسل ، يصبح الأتراك والمسيحيون اصدقاء مرة أخرى ، وتبارك الدنيا اسمك ، عليك الآن أن تختار !

وقال ذلك وهو يخرج من جيبه صندوق تبغ ثمينا حتى لا يدع للباشا وقتا للتفكير .. ثم قال فى رقة :

ـ أنت خبير يا أفندينا الباشا وتعرف الشىء الكثير عن التحف ، وهذا الصندوق من روائع مدينة « چانينا » .. على جانب منه نسر ذو رأسين ، وعلى الجانب الآخر هلال محفور بفن رفيع ، وكأنما يرمز إلى نفس ما تعمل أنت من أجله المسلمون والمسيحيون يعيشون معا إخوة .. ولأننى أعلم ما بقلبك ، فقد أردت من زمن أن أقدم هذا الصندوق هدية لك ، وها قد جاء الوقت .. وعسى أن يمنحك الحظ السعيد !

ثم وضع الصندوق الفضى فى راحة يد الباشا الممدودة ..

وقال الباشا وهو يبدى إعجابه بالهدية :

ـ والله إن اليونانيين هؤلاء .. جنس خالد ، أنتم تصيدون الذباب .. مرة بالعسل ، وأخرى بالخل ! .

ثم انحنى وربت بأصابعه السمينة على الصندوق برقة :

ـ نعم .. دعني أقل لك يا أفندينا المطران ، لقد أمطر هذا الصندوق من « چانينا » قلبى سعادة ورقة .. كانت زوجتى الأولى ـ وعسى أن تكون سعيدة فى عالمها الآخر ، حيث هى الآن ـ على قدر فائق من الجمال وكأنها

« السيدة فروسين » .. وكانت هى أيضا من « جانينا » ..

ثم تنهد وقال :

ـ ولكن .. كيف يمكن أن تفهم ذلك ؟ فأنت لم تعرف النساء فى حياتك ، وساد صمت .. وأخذ المطران يداعب حبات المسبحة وينظر من خلال النافذة إلى الشجرة العارية الضخمة التى بدأت فى بطء تحرك أوراقها تحت السماء الزرقاء ، وأخيرا فتح فمه ليعيد الحديث مرة أخرى إلى الأرض :

ـ إن المحاصيل تبشر بخير يا أفندينا الباشا ..

وانتزع الباشا نفسه من الماضى العذب .. وعاد إلى ميجالوكاسترو !

ووقف المطران ، ووقف الباشا أيضا وقد مد يده .

ـ إلى اللقاء يا أفندينا المطران ، كلانا امرؤ يخاف الله ، وقد قسمنا كريت فيما بيننا بحكمة ، فلتحكم قبضتك على المسيحيين ، وسأفعل أنا نفس الشىء مع الأتراك ..

ثم سكت لحظة .. وقفزت إلى طرف لسانه عبارة ، فسعل ، وحك رأسه .. وقرر فى النهاية أن ينطق بها :

ـ إن الضجة فى وقت الأعراس أمر مألوف ، ولكن .. حتى إذا سمعت فى الأيام القادمة صوتا يبدو معه وكأن هناك عملية قتل ، ... فتظاهر بأن هذا الصوت لم يصل إلى أذنيك ..

ـ قتل ؟ ! ..... قتل يا افندينا الباشا ؟

ثم قال وهو يحدج التركى الأشيب بنظرات حادة :

ـ إن الله ينهى عن القتل !

ـ لا تهتم ! .. فلعل تركيا سكيرا هو الآخر أن يقتل فارسا يونانيا .. مثل هذه الأشياء يمكن أن تحدث ! .. إن العالم ملىء بالحمقى .. ولكن ، عليك أنت يا مطران أن تتصرف كالأطرش .. تماما كما تصرفنا نحن كالعميان عندما لم نر يونانيا بعينه يقتحم مقهى تركيا ليهيننا ، الآن تتصرف أنت

كالأطرش يا افندينا المطران ، مع أطيب تمنياتى !

واحس المطران لحظتها كأن ثعبانا يلتف حوله .. ولكنه تظاهر بأنه لم يفهم ..

ـ الله كبير .. وهو يحاسب حتى السلاطين والباشوات ..

وقال الاناضولى العجوز وهو يبتسم بخبث :

ـ ... ويحاسب المطارنة أيضا يا أفندينا الباشا ..

وافترق الاثنان الكبار فى ميجالوكاسترو .. افترقا قبل أن يحتدم بينهما النقاش ..

ومضت الأيام .. وأدرك ابريل منتصفه ، وبدأت الأشجار تكتسى ببراعمها وأزاهيرها بينما كان بعضها يهب ثماره ، وتبعثرت ميجالوكاسترو تحت شمس الربيع ، وبدأ الرجال والنساء يقاسون داخل جدران بيوتهم ، فقد وقعوا فريسة عصابتين غاضبتين لكل منها إله ، وكان الرجال والآلهة يشحذون مداهم ! لم ينتبه واحد منهم إلى البحر الرطب البارد الذى كان يبتسم مثل الدراق ، ولا إلى الشمس التى كانت تزدهر كل صباح مثل عباد الشمس .. ولا إلى النجوم ..

وعاد « الكابتن ميخايليس » إلى دكانه صامتا منقبض الصدر ، ولأول مرة عجزت الخمر عن أن تبهج قلبه ، فقد نهض بعد كل ما شرب وهو يحس بالتوتر وبمزيد من الغضب ، ومن ثم قد تجنب الشرب من جديد وبدأ يكتفى بكسرة من الخبز سرعان ما يغادر المائدة بعدها ، ولم يعد يفتح فمه فى البيت طوال اليوم .. وامتنع أيضا عن النوم .. كان يجلس طوال الليل فوق سريره وهو يدخن ويتطلع من خلال النافذة الضيقة .. ويظل هكذا مفتوح العينين لأنه كان يعلم جيدا إن نام فسوف تقتحمه الأحلام المهينة .. لا .. حلم واحد لا يتغير ، ... شيطان واحد لا يتغير يأتيه كل ليلة .. ألم تعد الخمر كافية لأن تقهر هذا الشيطان وتقهر معه مهانته ؟

ولم يكن نورى بك هو الآخر قادرا على أن ينام ليس لأن فكره غسل إهانة تركيا والانتقام لأبيه كانت تنهش جسده فحسب ، ولكن لأنه كان أيضا قلقا على زوجته ، فمنذ ذلك اليوم الذى جاء فيه الكابتن ميخايليس إلى بيته ..

وأمينة ترفض أن تضمه بين ذراعيها . كانت تقول له فى عناد : « لقد أهانك ، لقد أهانك الكابتن ميخايليس ، ومن ثم فسوف أهينك أنا أيضا ، تلك هى العادة بين النساء التركيات » ..

وانتقل نورى بك إلى ضيعته الريفية عسى أن يلهى نفسه عما يستبد به .. وكان الطقس دافئا ، ولعل الهانم أن تخرج كعادتها كل عام لتقضى فصل الصيف وسط الحدائق والمياه الجارية .. ولا شيء يستعصى على الله سبحانه ، فلعلها كذلك أن تتغير أفكارها وينمو حبها يانعا من جديد ! من أجل ذلك كله كان يستحث العمال كيما ينتهوا من طلاء الأبواب والنوافذ ، وينشئوا مظلة من الأخشاب .. ومن أجل ذلك أيضا أمر بشراء مجموعة من طيور الكناريا من « سميرنا » .. وعدد من الببغاوات من الاسكندرية لكى تسلى « أمينة » .. ولعل ذلك أن يرقق مزاجها !

ولكن أمينة ظلت ملازمة لوسائدها الناعمة خلف ستائر الشرفة المطلة على الشارع .. تشرب « الشربات » ! وتمضغ اللبان وتتطلع إلى المارة لا فرق بين يونانى وتركى .. فكلهم بالنسبة إليها رجال فحسب !

وسألت مربيتها العجوز :

ـ وما المسلم أو المسيحى أو اليهودى يا ماريا ؟ ! هناك فقط صنفان من الرجال : عجوز وشاب .. ذو لحية بيضاء وذو لحية سوداء ، وأنا أحب الصنف الأخير ..

وفى كل أمسية وحين تغيب الشمس وتبدأ الأزقة فى الاظلام ، كان يمر رجل يونانى يضع فوق رأسه طربوشا ضخما ، وينتعل حذاء برقبة طويلة ، ويقترب من المكان .. ويلقى بنظرات الحب من خلال ستائر الشرفة ..

وفى أحد الأيام سألت « أمينة » مربيتها المغربية :

ـ من يكون هذا اليونانى يا ماريا ؟ ! ترى أين رأيته قبل الآن ؟ ! يبدو لى أننى رأيته فى أحلامى !

وأجابت المربية :

ـ إنه الرجل الذى أفاقك من اغماءتك يوم الزلزال .. كابتن « بوليكسيجيس » .

ـ إنه يبدو وسيما ! وبحق روحى ! إن على وجهه ترتسم امارات الزهو . إنه يتمايل .. ويشرئب .. ويضرب الأرض بحذائه ! .. اسمعى ! .. إن المسكين يتنهد مثل العجل ! .

وضحكت « أمينة » وهى تمضغ اللبان وترشف « الشربات » وقد انتابها شغف نحوه ، واغمضت عينيها بأهدابهما الطويلة ثم ابتسمت فى سعادة وهى تقول لنفسها :

ـ « سوف افعل ما أريد .. وإذا أردت ، فسوف أدخله إلى فراشى ، وإذا أردت فسوف أبقيه فى الشارع يتسكع فيه مثل الكلب .. ألست امرأة ؟ سوف افعل إذن ما أريد » ..

وفى منتصف ليلة من الليالى وقد خلا الشارع من المارة ، أخذ الكابتن « بوليكسيجيس » مكانه المعتاد أسفل الشرفة ، وكان القمر ساطعا بضوئه ، ورائحة الياسمين وزهر العسل تعبق الجو ، والبلابل فى حديقة نورى بك تطلق اغاريد اشتياق يائس للحب ! ، وصوت أمواج البحر تتناهى من الميناء وهى تتنهد هى الأخرى وتمسح صدرها بجدران القلعة ..

ولم تكن أمينة ليلتها قادرة على النوم ، كانت تحس بالحرارة ، فخلعت ثياب النوم وتسللت إلى الخارج .. فرأت الرجل تحت ضوء القمر مضطربا مستندا إلى أحد أعمدة الباب الخارجى ، وعرفته على الفور ، واغرقت فى الضحك وهى تلكز المربية التى تكومت نائمة مثل الارنب .. وقالت :

ـ المسكينة ! تعالى والق نظرة ! يكاد أن يغمى عليه ، وأنا أريد أن أنزل لكى افيقه من اغماءته تماما مثلما فعل معى ! مارأيك ياماريا ؟ ! إن نورى بك فى الضيعة الآن !

ـ يا طفلتى امينة .. تلك تكون خطيئة كبرى ..

ـ انزلى اليه واطلبى منه أن يصعد ..

وقالت المرأة فى توسل :

ـ أمينة ! .. يا طفلتى ...

ـ تأكدى أولا من أن المغربى الذى بالباب نائم ..

وتنهدت « ماريا » وهى تقول :

ـ إنه نائم .. لقد سمعت شخيره ..

ـ والكلب ؟ ! .. هل هو موثق ؟ هيا .. اسرعى أيتها الدجاجة الحمقاء .. لاترتعشى وأظهرى شيئا من الحماس وأنت تؤدين عملا ! إن الله خلق الرجال والنساء من أجل هذا أيتها المخلوقة التعسة ! آه .. ما أروع القمر هذه الليلة .. وما أدفأ الريح ! الياسمين مزهر .. والبلبل مجنون ! هيا .. قوديه إلى هنا .. لقد طالما كنت أقول لنفسى : بوسع المرأة أن تكون محترمة فى الشتاء .. أما فى الربيع ... ؟

وانحنت « أمينة » إلى الأمام ورأت أن الكابتن « بوليكسيجيس » لايزال فى مكانه يحدق إلى الشرفة « لا يهمنى الآن نورى .. ولا يهمنى والكابتن ميخايليس صعب المنال .. ويكفينى الآن هذا الرجل ! » .. وأسرعت إلى مشطها ومرآتها لتصلح شعرها فى لهفة .. وعطرت أبطيها بالمسك .. ثم دفعت المربية بيدها : « قلت لك اذهبى ! » ..

وأمسكت المرأة المغربية برأسها بكلتا يديها وهى تتعثر هابطة الدرج ..

ونثرت « أمينة » ما تبقى من المسك فوق جسدها ، ووقفت لتجذب المصباح خلف الباب وهى تغمغم : « كنت أريد رجلا آخر .. ولكنه متوحش وصعب المنال ، لا يهم .. فهذا الرجل يلائمنى » ..

وأرهفت السمع ، وتناهى إلى أذنيها صوت الباب يفتح ببطء ، ونبح الكلب مرة واحدة .. وبدأ وقع الخطوات يصبح واضحا فى الفناء .. ثم فى مكان الرجال .. ثم فوق الدرج .. وانحنت إلى الخلف فوق وسائدها وهى تتهيأ لارتداء ثياب النوم ، ثم مالبثت أن صرفت النظر ، فتركت ضوء القمر يسبح بلا عائق فوق صدرها وجسدها ، واقتربت بخطى وتناهت إلى خياشيمها المرتعشة رائحة رجل ! فبللت بلسانها شفتيها عدة مرات ، وأغمضت عينيها .. وانتظرت .

ووصل الكابتن « بوليكسيجيس » .. وأصبح على عتبة الباب ، وحدّقت أمينة من خلال أهدابها الطويلة ، ورفع هو يده إلى عينيه وكأنه أصيب بالدوار ، وبدأ قلبه يدق فى جنون ، وبسطت الشركسية ذراعيها ، واستلقت

على ظهرها ، وكأنما كانت تلك هى الاشارة المتفق عليها ، فقد قفز الكابتن بوليكسيجيس نحوها قفزة واحدة ... وأطفأ المصباح .

اقترب ابريل من نهايته ودخل المسيحيون أسبوع الآلام وهم فى خوف شديد ، ولم يكن فى مملكة المسيح مثل الكريتيين من يشاركون فى عمق وبدموية وباسلوب خاص فى آلام السيد المسيح ، كان المسيح وكانت كريت يمتزجان معا داخل قلوبهم ، فآلامهما واحدة ! اليهود صلبوا المسيح ، والأتراك صلبوا كريت ، وكان الكريتيون يحسون فى اعماقهم كيف كانت آلام المسيح تعظيم يوما بعد يوم وهم يحسون بالضعف أكثر واكثر من شدة ما يعانونه من الصلاة والصوم حتى بدأ ينمو فى قلوبهم اتهام غاضب يبحث لنفسه عن مخرج بالقوة .. كانوا يتطلعون إلى الأتراك بنظرات وحشية ، وكانوا يمنعون أنفسهم بصعوبة بالغة من ضرب اليهود القلائل ـ من الصاغة والمرابين ـ الذين تزدحم بهم حارة اليهود بالقرب من الميناء ، والذين كانوا يغلقون أبوابهم على أنفسهم فى ساعات مبكرة أثناء الأمسيات المقدسة والخطيرة فى أسبوع الآلام .

وكان الجو العام فى ميجالوكاسترو فى هذه المرة أكثر خطورة وتهيدا من ذى قبل ، لأنه ـ فى مواجهة المسيحيين الغاضبين ـ كان هناك الأتراك الذين لم ينسوا بعد الجرح الذى أصابهم به الكابتن ميخايليس والذين تجمعوا ليلا أمام كنيسة « القديس ميناس » حيث كان المسيحيون ينتحبون من اجل المسيح ، وكانوا فى تجمعهم هذا يرفعون عقائرهم بالسباب واللعنات ويحاولون بالغناء المرتفع أن يهينوا الكريتيين ويحقروهم ، أما هؤلاء فكانوا ينتظرون كل ساعة ليعرفوا متى وكيف سيضرب الأغوات ضربتهم ، ومن ثم ، فقد بدأ يرتفع وميض النار تحت الرماد .

وهكذا مرت من الأسبوع المقدس أيام الاثنين والثلاثاء والاربعاء .. وكانت ساعات المساء ناعمة سماوية تفتحت فيها زهور البنفسج فناء كل بيت ، وفى الجمعة السعيدة خرجت الفتيات يقطفنها ليضعنها فى باقات من ورود آخر ابريل فوق ـ قطعة القماش التى تحمل صورة المسيح ـ وأغلق المسيحيون حوانيتهم بمجرد أن بزغت شمس اليوم التالى وانقضوا على اللحوم والأسماك والزيتون وحساء السمسم والخس والخرشوف ، واخذوا يذرعون ساحات بيوتهم ، ينصتون وينتظرون ، ودق جرس كنيسة « القديس

ميناس » في تردد ونحيب مع الشفق الشاحب .. ذلك الكلب يعرف أننا في أسبوع الآلام ؟ .

وقال « ديمتروس » وهو يتنهد :

ـ هذا محض جنون ! أو نحن الآن مقبلون على الوقوف في وجه الباشا ؟ ..

أضرب البيضة بالحجارة تذهب إلى الشيطان .. واضرب الحجارة بالبيضة تذهب البيضة أيضا إلى الشيطان .. هذا رأيي ..

وطوال تلك الأيام كان الكابتن ميخايليس بعيدا عن الكنيسة ، كان يمجد الله ويصلي له ، ولكنه لم يكن يحتمل القسيس ، وكانت عادته أن ينتظر حتى تخلو الكنيسة من القسس وأرديتهم والنساء وثيابهن والرجال وسراويلهم .. وحين كان المكان يخلو تماما من كل هؤلاء ، كان هو يقوم بالزيارة ويشعل شمعة ، ولكنه كان يدخل الكنيسة صباح كل خميس القربان قاصدا أو بدون قصد حتى في وجود كل هؤلاء وكان يرسم علامة الصليب ويفتح فمه ليتلقف جسد المسيح ودمه فيحس بأن نارا تتأجج بداخله .

ولكنه ـ ولأول مرة في هذه السنة ـ خرج ممتطيا صهوة فرسه بلا هدف ، وانطلق إلى مقربة من ضيعة « نوري بك » .. ثم توقف وعاد وهو يستنشق هواء البحر بقوة .. ولكنه لم يعد إلى العشاء المقدس وظل يردد لنفسه مرة بعد أخرى : « طالما أن هذه الروح الشريرة لاتزال في أعماقي .. طالما أن هذه الروح الشريرة باقية بداخلي .. فلن أعود إلى العشاء الرباني » ..

لم يكن هناك في السنة أطول من يوم الجمعة السعيد : لقد كان يمتد طوال خمس أمسيات . ورسم المسيحيون علامة الصليب وفتحوا أبوابهم واندفعوا صامتين خاشعين في أزقة ميجالوكاسترو ليتعلموا مرة أخرى في هذه الأمسية كيف يقاسي الرب على أيدي البشر .

وحين كان أسبوع الآلام يمضي ازداد اضطراب الكريتيين فعندما بدأت قراءة دروس الانجيل الإثني عشر يوم خميس القربان وبينما كان المطران يتبعه البابا مانوليوس ثم الشماس يقرأون في أصوات خشنة قصة يهوذا

وكيف خان المسيح ، كان الأثر يشتد عليهم فيحسون وكأنهم يلهثون خلف المسيح من « أناس » إلى « قيافا » إلى « بيلاطس » .. تماما كما لهث « عمر قريونى » وهو يجرى إلى مصطفى باشا وإلى السلطان يطلب العدل .

واستمعوا فى صبر نافذ إلى الدروس السبعة الأولى ثم مالبثوا أن انطلقوا إلى فناء الكنيسة حيث أقيمت دمية من القش والخرق القذرة المهلهلة تمثل « يهوذا » اندفعوا نحوها بسكاكينهم ومشاعلهم ليمزقوها ويحرقوها ، ومنحهم ذلك بعض الراحة التى استطاعوا بعدها العودة إلى الكنيسة لسماع باقى الدروس .

وفى صباح الجمعة السعيد بدأت الأجراس تدق دقاتها الحزينة ، ونشرت قطعة القماش التى تحمل صورة المسيح فوق القبر المقدس الذى يتوسط الكنيسة .. وفتحت أبواب الكنيسة على مصاريعها .. وظل الكريتيون يدخلون ويخرجون ..

ووقف « مورزوفلوس » فى ساحة الكنيسة وقد أرهقه الصيام والصلاة .. وحوله وقف « ديميتروس » و« كاچابيس » و« فيندوسوس » والسينيور « پاراسكيفاس » الحلاق ، وكانوا جميعا قد أحنوا رءوسهم وهم يستمعون إلى كلمات « مورزوفلوس » وهو يحكى لهم كيف أن الباشا قد بعث أمس بخادمه سليمان إلى المطران وهو يحمل معه أرنبا ، هدية منه إليه ، وكيف أن المطران غضب وأعاد الأرنب مع الرسول وحمله إلى الباشا رسالة تقول : « نحن فى أيام الصيام ، إن اليهود قتلوا المسيح .. ونحن نبكيه » .

وقال باراسكيفاس :

ـ لم يكن ينبغى أن يعيده إليه .. إنها إهانة ..

وقال « كاچابيس » :

ـ بل كان ينبغى أن يفعل ذلك ، إن هديته هذه هى الإهانة ، ألم يكن

لم يكن هناك نهار فى السنة كلها أطول من نهار الجمعة الكبيرة ، لقد طال بما يزيد على خمس مرات ، وضل طريقه ، وتوقف لايريد أن يتحرك ، يأخذ خطوة إلى الأمام وخطوة إلى الخلف كأنما لا يريد أن ينتهى إلى

مساء .. واحس المسيحيون الذين أضعفهم الصيام بمزيد من الضعف وهم يمرون بروائح المخابز وكانت النساء يؤدين أعمال البيت وكأنهن ممسوسات ، كن ينظفن الحجرات ويبقين النار مشتعلة ، وكانت ساحات البيوت مهيأة .. وكانت القلوب تدق ! .. كان الكل ينتظر غروب الشمس ، ويترقب حلول الليل الداكن الزرقة كيما يهتف من أعماقه : « المسيح قام ! » .

وظلت زوجة « كراسوچورچيس » تتطلع إلى الشمس وهى تحسب الوقت . وبدا لها كأن نجم التبريك لن يظهر فى السماء ، وكادت رائحة الدجاج المطبوخ وفطائر « الكسترده » تؤدى بها إلى الإغماء ! .

وكانت « بنيلوب » قد بدأت في تلوين البيض منذ خميس القربان فخرج من بين يديها كأجمل مايكون ، وبدأت الآن تعد الحساء فى المطبخ ، بينما السيد « ديميتروس » يجرى بناء على أوامرها حاملا الأوعية والأوانى بين البيت والمخبز : « أسرع يا عزيزى ديميتروس ! تجلد يا بطلى العزيز ! المسيح يقوم هذا المساء ، وسوف احتاج إليك هذا المساء يا كنزى ! هل تسمعنى ؟ كل هذه اللحوم وهذه الفطائر لا ينبغى أن تضيع سدى » !.

واستجاب الله لدعاء زوجة « كراسوچورچيس » .. وغربت الشمس ، وغمرت رائحة الفصح ميجالوكاسترو كلها فى الغسق . وامتلأت احياء المسيحيين بالضجة والبهجة وبدأت النساء فى تجميل انفسهن .. حتى « ڤانچيليو » بدأت هى الأخرى تهندم نفسها ثم جلست فى الفناء تنتظر اخاها ، ترى هل سيأتى ؟ أم أنه لن يأتى ؟ ترى .. أيصحبها وحدها للمرة الأخيرة إلى احتفال الفصح ؟ فى العام القادم سوف يكون معهما « تيتروس » ..

واقترب الليل من منتصفه ، وبدأ المسيحيون يتجمعون فى ساحات بيوتهم ينتظرون دقات الأجراس ، فالمسيح كان قد بدأ يتحرك من قبره ويستجمع قواه ليحرك الصخرة الثقيلة ، وقفواجميعا على أطراف أصابعهم فى ساحات بيوتهم إلى نوافذها وقد أرهفوا السمع وانتظروا .. إثنان فقط فى ميجالوكاسترو كلها لم يكونا مع الله فى أفكارهم تلك الليلة ، واحد منهما كان فى تلك الليلة المقدسة يحتضن المرأة الشركسية ، والآخر كان يجلس فوق سريره وسط الظلام يدخن سيجارة أثر أخرى وأفكاره كانت تجرى مثل

الكلب خلال أزقة المدينة .. وتتوقف لتنبح أمام باب أخضر ..

وتجمع المسيحيون فى الفناء الأمامى للكنيسة ، وهم يحدقون فى مطرانهم ولما يشعلوا بعد شموعهم .. وكان المطران قد صعد إلى المنصة المزخرفة تحت شجرة الليمون المزهرة وقد ارتدى ملابس عيد الفصح ، وفتح الانجيل الفضى ، وتوهجت الجباة والوجوه وقد داعبتها أنفاس الليل الرطب .. وفجأة انطلقت الأصوات كالرعد : « المسيح قام » .. وأضاءت الشموع : وقام المسيحيون كلهم مع المسيح .. وأطلق البعض رصاصات غداراتهم الفضية ، وبدأ « موروزوفلوس » بكل البهجة والفرحة يدق الأجراس الثلاثة - القديس ميناس ، والحرية والموت .. وكأنها تتمايل جميعا لتقول : « كريت لم تمت ، كريت حية لاتموت ! » ..

وأمسك « باربايانيس » بسيفه الطويل ، ووضع وسامه المصنوع من الصفيح ! وبدأ يروح ويجيء والأتراك والمسيحيون ينحنون له ساخرين ضاحكين ، ليرد هو على كل تحية بإيماءة الباشوات ! وكان قد استأجر صبيا من الشارع ودهن وجهه بالسخام : الآن أصبح له عبد يتبعه خطوة خطوة !

وانطلق « شاريلاوس » بشاربه المدهون حديثا بالشمع .. يزور الناس راكبا عربة وواضعا فوق رأسه قبعة من القش اشتراها له البعض أخيرا من أثينا ، ومسندا ذقنه على عصا رأسها رأس أسد .. ومتطلعا إلى الناس بنظرات حاقدة ، فلن يكن بمقدوره أن ينسى أن لهم أجسادا صحيحة ليس له مثلها ..

وعندما اقترب المساء خرج المسيحيون رجالا ونساء وقد ارتدوا ثياب الفصح يدورون حول « الأقباء الثلاثة » ، وتطايرت الضفائر الحريرية فى شعور الفتيات ، وإلى الشمال ، كان البحر هادئا فى حمرة الورد ، إلى الجنوب كانت الجبال تتألق وأشجار الزيتون تتوهج فضية اللون وفوق الجميع ألقت السماء سترها البنفسجى الحريرى الناعم ، ثم مالبثت الظلال أن امتدت .. وبدت وجوه أبناء ميجالوكاسترو المغذاة جيدا .. آمنة مسالمة وهى تجول من أجل غذائها .. وفجأة تألق كوكب الزهرة فى ضحكة منتصرة .. عاليا عاليا فوق الرءوس ..

الفصل السادس

استيقظت عائلة « الكابتن ميخايليس » نتية مع الفجر فى القرى الأربع التى ضربت فيها بجذورها منذ عهد الأسلاف ـ « بيتروكيفالو » ، و« آيانى » و« كروسون » و« البرج الأحمر » ـ واتجهت كلها إلى ميجالوكاسترو لتحضر عرس الشقيق الأصغر « تيتيروس » تجمعت كلها فى القرية الأم للعائلة ـ بيتروكيفالو ـ حيث يعيش الكابتن « سيفاكاس » الجد الأكبر والبالغ من العمر مائة عام ، بعضهم جاء راكبا بغلته والبعض الآخر جاء ممتطيا صهوة جواده وكلها محملة بالثياب الحمراء وبهدايا العرس : خراف مشوية ، وخنازير رضيعة وجبن من كل صنف وزقاق من الجلد لحفظ النبيذ والزيت ، وأوعية ملأى بالعسل ، وبالزبيب ، والتين .. وحقائب من اللوز ..

وظهر الكابتن « سيفاكاس » على عتبة الباب فى أحسن ثيابه الصوفية الثقيلة وقد انتعل حذاءه الأسود ، برباطه الأسود الطويل وعصاه ذات المقبض المزدوج ، وتدلت لحيته لتغطى كل صدره ، وبرقت عيناه تحت حاجبين كثيفين ، وبرزت من الأكمام الواسعة لقميصه الأبيض الناصع ـ ذراعان نحيلتان معروقتان كساق شجرة زيتون عتيقة ، وجال ببصره حوله ، فرأى الشارع كله مزدحما بالأبناء والأحفاد وأبناء الأحفاد .. فأحس بالسعادة ..

وصاح فيهم وهو باسط ذراعيه :

ـ « مرحبا بكم ألف مرة يا أولاد ! » حقل ملىء بالزهور والأعشاب ! » ..

وأجابته صيحة فرح واحدة من كل الجمع البشرى الخارج من صلبه :

« نحن سعداء برؤيتك ! ... فلتسعد فى مملكتك أيها العجوز ! » ..

وتقدم اثنان من أحفاده بفرس ليمتطيه وقد أمسك واحد منهما بزمامه وأمسك الآخر بالركاب ، وأوقفا الفرس قريبا من حافة النافورة القائمة فى الفناء ليسهل عليه امتطاؤه ، ولكنه أزاح بيده الحفيدين ضاحكا وهو يصيح :

ـ هل تظنون أننى هرمت فلا أستطيع أن أمسك بالركاب ؟

ثم قبض على ناصية الفرس بيده .. وبقفزة واحدة أصبح فوق السرج .. وصاح الجميع ..

ـ متعك الله بالصحة والسعادة يا كبير ! فلتعش الف سنة ! ...

ورد العجوز ذو اللحية الرمادية وهو يثبت عصابة الرأس :

ـ تكفى خمسمائة سنة !

كان قد أنجب اثنى عشر ولدا وأربع بنات .. وكلهم وحوش مفترسة ! كان الشارد وحده هو الشاذ ، فهو نحيف هزيل يعجب المرء كيف خرج من صلب هذا الرجل .. ولقد بحث مع زوجته مرة حال هذا الولد :

ـ « إنه لن يصلح راعيا ، فليست لديه القدرة على التسلل ، ولن يصلح فلاحا ، فليست لديه القوة على حرث الأرض ، ولن يصلح بحارا ، فالبحر يسبب له المرض ، إنه لن يصلح لشىء على الاطلاق !

وقالت المرأة العجوز التى كان الابن الأصغر أثيرا لديها :

ـ يمكن أن يكون قسيسا .

ـ قسيسا أو معلما ، ولدينا قسيس فى القرية ، ولكن ليس لدينا معلم بعد ..

وبعث به إلى ميجالوكاسترو ليتعلم ، وهكذا أصبح ابن الكابتن « سيفاكاس » هو المعلم « تيتيروس » ..

ولقد أستراح الكابتن « سيفاكاس » لخروجه من البيت بعيدا عنه ، فقد كان يخجل أن يدعوه بابنه ! وظل فى مزرعته مع وحوشه العشرة الآخرين الذين كان يفخر بهم فيقول دائما :

ـ « عندما يتناول أولادى طعامهم يهتز البيت حتى ليسأل الغرباء : أحدث زلزال ؟ ! كلا .. إن أولاد سيفاكاس يتناولون طعامهم فحسب !

ولكن ملك الموت جاء ووقف على عتبة البيت وأجال بصره حوله ، هنا ، يبدو المكان مزدحما بالفرسان أكثر من اللازم ! وهكذا أخذ ملك الموت نصيبه منهم : بعضهم أخذه أخذة شريفة وبأساليب مختلفة فى الحرب ، والآخرون اختطفهم فى خبث وهم فوق أسرتهم ، ورغم ذلك فقد بقى عدد كاف منهم كما كان يعتقد « سيفاكاس » ، فقد انجبوا له أحفادا وأنجب الأحفاد أولادا ، ان الواحد يترك خلفه مئة ، والمئة تترك خلفها ألفا حتى تمتلىء بهم كريت ، ترى ، كم سيختطف منهم الأتراك ؟ مهما بلغ عدد من يختطفونه فسوف تبقى منهم على أية حال خميرة يعلو بها العجين .

ورفع « سيفاكاس » يده وقال :

ـ باسم الله ياأولاد .. إلى الأمام ، حتى تزوج الابن الأخير ..

وفى مقدمة الموكب كان الرجل العجوز .. وخلفه قليلا وإلى اليمين وإلى اليسار منه ركب أكبر أولاده الذى تقدمت بهم السن ولكن ما تخلت منهم القوة ، « مانوساكاس » الفلاح الثائر أبدا من « أيانى » ، و« فانوريوس » قائد حرب العصابات وراعى القطعان ، ذو الوجه القاسى والذى تفوح منه دائما رائحة الجبن والماعز ، وكانت مملكته هى كل جبال « لاسيثى » ، وعندما كانت وحشة الجبال تضايقه كان يهبط من القمم الجرداء إلى السهول ويبحث عن الثور الذى يملكه « جاجى نيكولاس » من « بيتروكيفالو » ، فإذا عثر عليه أطلقه من وثاقه إلى شجرة الزيتون العتيقة ومضى يصارعه حتى ينتهى ما ينتابه من الضيق .

ولكنه ـ بالرغم من ذلك كله ـ كان يخاف من وحش واحد فى هذه الدنيا ، زوجته « ديسبوانيا » ! كانت امرأة صفراء البشرة زرقاء العينين لو أنك نفخت فيها لسقطت إلى الأرض ، ولكن « فانوريوس » المتوحش كان يرتعد أمامها ، وفى كل مرة كان يهبط فيها إلى القرية ليقضى بضعة أيام فى بيته وينجب من زوجته طفلا .. كان يتصرف أمامها برقة ويتمثل السلوك الانسانى ! كانت الرغبة فى الشراب يستبد به ، ولكنه لم يكن يشرب ! كان يود لو انطلق على سجيته فى السباب ، ولكنه لم يكن يفعل ، وكان يشعر

بالرغبة فى أن يبصق فى الحائط كعادته ، ولكنه لم يكن يبصق ! فكان يضبط أعصابه وينتظر إلى ان يحل الليل وإلى أن تتوجه زوجته إلى فراشها ، وبعدها كان يخرج مخلبه من النافذة ويجذب أى رجل عابر بالصدفة من قفاه ويدخله إلى الحجرة ثم يجلس فى مواجهته يشرب معه على مهل ، ودون آن يحدث أدنى صوت ، فإذا مر آخر كان نصيبه كالأول ، يجلس معهم .. ويضع كل منهم أصابعه على حواف كأسه حتى يضمنوا الا تحدث الكئوس أصواتا وهم يمسكون بها .. ويظلون فى شرب متصل حتى يقرر « فانوريوس » أنه قد اكتفى ، فإذا به يمسك بهم من أقفيتهم ويعيدهم إلى الطريق بنفس الاسلوب الذى أدخلهم به ، وعندها فقط يزور زوجته فى فراشها ، وهكذا ـ وبهذه الطريقة ـ انجب أولاده الكثيرين !

وارتفع الغبار فى الطريق عاليا تحت حرارة الشمس ، وكان الكابتن « سيفاكاس » يدير وجهه الملتهب إلى الخلف بين الفينة والفينة ليلقى نظرة خاطفة إلى الركب الذى يتبعه .. خلفه يجىء « مانوسـاكاس » و« فانوريوس » ، وخلفهم يجىء الأحفاد ـ الرجال منهم ـ وبعضهم كان متزوجا ، وخلف هؤلاء يجىء أبناء الأحفاد وقد نبتت لحى بعضهم ، وإلى اليمين خلف كل هؤلاء يجىء موكب النساء يقاقين ! .

ثم عاد ينظر أمامه فى اتجاه « ميجالوكاسترو » دون أن يخوض فى حديث مع أولاده ودون أن يبتسم وكان يحس بالرضا والطمأنينة ، فى مكانهما المناسب ، ولم يكن يحتاج بعد لشىء أو لأحد ، وكانت الكلمات فى الأيام الأخيرة تبقى محبوسة فى أعماقه ، فإذا أحس بسر يقلقه ، وينهش فى داخله لم يفض به لمخلوق .. ولكنه كان يفضى به لله وحده .

والحق أنه منذ زمن ليس بالبعيد كانت تنتاب تفكيره تأملات غريبة ، لأول مرة بدأ « سيفاكاس » العجوز يفكر فى الموت لقد اقترب اليوم الذى سيقف فيه أمام الله ، وقد كان العجوز يرتعد كلما فكر فى ذلك .. كان الموت فى تصوره أشبه بجبل أسود تحيط به أمواه مندفعة يشده إليها العطش ، ووحوش مفترسة يشده عنها الخوف ، وتذكر كيف أنه انزلق مرة فى إحدى الثورات فوق « الجبل القاسى » خارج « ميجالوكاسترو » ، وامضى هناك ليلة واحدة والأتراك منتشرون حوله .. وكيف تقدم فى بطء وهو يتسلل منحنيا والسكين بين أسنانه ، حتى تناهت إلى سمعه أصوات خافتة ، ولمح بريق سجائر مشتعلة ، وسمع أصوات قعقعة الأسلحة ورآها تلمع وسط

الظلام .. وتذكر كيف ظل يتسلل هاربا وسط الظلام وهو يرتعش .. الآن ، يبدو له الله سبحانه مثل ذلك الجبل ..

كانت « فانجيليو » قد عادت لتوها من حمامها الساخن وأخذت « رينيو » تصفف لها شعرها بمشط عاجى أعطاه لها عمر أباها « إيدومينياس » وتضع الاحمر فوق خديها ليخفى الصفرة التى تعلوهما ، والمساحيق فوق أنفها حتى يبدو أقل طولا ، بينما العروس صامتة أمام المرآة ، وكانت « بينيلوب » وزوجه « كراسوجورجيس » تقومان بتزيين سرير العريس وهن يرددن أغنيات الزواج وينثرن أزاهير الليمون فوقه وهن ثملات بعض الشىء .. وكانت الزوجتان .. ربتا البيت الحاذقتان ـ « كاتيرينا » زوجة الكابتن « ميخايليس » و« كيريسانتى » شقيقة « بوليكسيجيس » .. تجهزان الذ أنواع الطعام بينما « على أغا » يعد الأطباق والسكاكين والشوك بعد أن يجمعها من الجيران .

ودخل « دياماندیس » وقد علق عباءته فوق كتفيه فى غرور ، وألقى بتحية نائمة ، ثم حدق فى البيت بعينيه الواسعتين المستديرتين ، وهو يزم شفتيه ويلعب بسلسلة ساعته فى عصبية ، لم يكن مرتاحا لكل هذا الذى يجرى ، فقد تم كله على خير وجه دون الاستعانة به ، وهو شقيق العروس ! لماذا بحق الشيطان يجىء هذا المخلوق ذو المعطف الطويل والعوينات المتثاقلة ليقتحم حياتهم ؟ وصعد الدرج فى خطى متثاقلة ، ونظرت إليه زوجة « كراسوچورچيس » نظرات ذات مغزى ، كانت تعلم أنه ما اشترى الساعة إلا ليستعرض بها ، فلم يكن يعرف بعد كيف يحدد بها الوقت ، حتى لقد كان أصدقاؤه يتندرون معه بذلك .. وهكذا سألته فى سخرية ..

ـ كم الساعة الآن ياديامانس ؟ !

والتفت خلفه فى غضب وقال :

ـ لقد توقعت الساعة يا امرأة .. إنها لاتعمل ..

ـ لقد توقفت الساعة يا امرأة .. إنها لا تعمل ..

ثم ابتعد عنها .. ورأى كيف يدللون شقيقته ، يدللون الضحية ويعدونها للتضحية ! وتهيأ للنزول ، ولكن شقيقته أحست به فاتجهت نحوه وقد

امتلأت عيناها بالدموع .

وتدخلت « بينيلوب » :

ـ نحن نزين العروس ، فالرجال الآن فى الطريق إلينا ..

وجذب الرجل الأنيق شعرة من شاربه وقذف بها فوق السرير وهو يقول :

ـ عسى أن تجلب الحظ ..

ثم هبط الدرج متثاقلا وهو يتنهد .

ارتفعت أصوات الصهيل وقعقعة السرج فى المساء ، وامتلأ الشارع الضيق بالفرسان ، فقد وصل الكابتن « سيفاكاس » وقطاره خلفه ، وفتحت أبواب بيت « ڤانجيليو » على مصاريعها وملأت الجو على الفور رائحة الرجال والأجساد التى بللها العرق ممتزجة برائحة اللحوم المطبوخة والجبن .. وأخذ الرجل العجوز « ڤانجيليو » بين ذراعيه وقبلها ، واندفع إليها كل أقاربها الجدد يقبلونها بدورهم ويغرقونها فى رائحة العرق والماعز ، والأنفاس المخمورة .. وزال الطلاء من فوق خدى العروس من كثرة ما مسحته الشوارب واللحى التى لامست وجهها ، فأسرعت إلى غرفتها لتطليهما من جديد بالأحمر والمساحيق .

ولم يكن المكان ليتسع للضيوف فى حجرات الطابق الأسفل ، ومن ثم فقد ذهبت النسوة إلى غرفة النوم ، بينما ذهبت البعض منهن إلى المطبخ ليضعن الهدايا ، أما غالبية الرجال فقد انتشروا فى ساحة البيت .. وساد الطنين المكان ..

وصاح الكابتن « بوليكسيجيس » وهو يصعد ويهبط محييا ابنة أخيه :

ـ لا تحدثوا هذه الفوضى يا أولاد .. لاتحدثوا هذه الفوضى ، نحن هنا فى ميجالوكاسترو .. ولسنا فى الجبال !

وتخلص « تيتيروس » و« إيدومينياس » من العناق والتحية ، وبدأ الاثنان يتهامسان وقد جلسا إلى ركن من الأريكة ، وأخبر « تيتيروس » سراب زوجته فى حماس وإخلاص كم من تقاليد الزواج القديمة لاتزال تحيا بين هؤلاء الناس ، هؤلاء اليونانيون جنس خالد لا يموت .. وكان سعيدا ،

لا لأنه سيتزوج ، ولكن لأنه سيتزوج وفقا للعادات القديمة ، وأخبره « ايدوميناس » بأنه قد بعث بالأمس انذارا إلى ملكة انجلترا ، وأنه سوف يتلقى بلاشك ردا على هذا الانذار بعد أيام قليلة ، ثم قال في اطمئنان :

ـ الله نسأل ياولدى أن يكون يوم زواجك يوم فأل حسن ، وأن تتحرر كريت .

وظهر الكابتن "ميخايليس" الذى رفع قبعته فى احترام وانحنى يقبل يد أبيه ثم صافح أشقاءه وأبناء عمومته ، وتظاهر بأنه لم ير الكابتن "بوليكسيجيس" ، ثم دخل البيت وجلس إلى جوار أبيه وانحنى العجوز ليهمس في أذن ولده .

ـ تبدو لى نظرات العروس حزينة ياميخايليس .

وأجاب الكابتن ميخايليس :

ـ لتناسب نظرات العريس !

وهز العجوز رأسه وضحك ضحكة جافة .

ولكن حديثهما صادف من يقطعه . فقد دخل القسيس بجيوبه الواسعة . والشماس بلحيته التى تشبه لحية دب وحشى . و"مورزوفلوس" بمبخرته الفضية . ونهض الجميع واقفين .. ونزلت العروس مع عرابها الذى أمسك بيدها ، وملأ "مورزوفلوس" مبخرته .. وبدأ الترتيل ، وأحنت العروس رأسها وقد وقف أفراد العشيرة الوحشية كلهم بأنفاسهم ودمائهم الحار وشواربهم ـ وقفوا بالقرب منها يحدجونها بنظراتهم . هذه المرأة النحيلة سوف تدخل عشيرتهم وسوف تمتزج دماؤها بدمائهم . أتكون النتيجة طيبة ؟! كلهم رعاه وفلاحون يعرفون جيدا عن الماشية : أى جدى أو ثور يناسب هذه العنزة أو البقرة ليخرج نتاج قوى يثرى القطيع . وكانت النساء يعرفن كل شيء عن الديوك والدجاج والأرانب ، ويقيمن الزوجين الصغيرين .

ـ إن العروس نحيلة جدا . وصدرها ضامر . كيف يمكن لمثل هذه أن ترى أطفالها ؟

ـ لاتنزعجى ، سوف تدر لبنا ، هل تذكرين ـ العام الماضى ـ تلك العنزة "ماقرادا" . كانت جلدا على عظم ، ولم يكن أحد يرى ضرعها إلا بالكاد !

.. ولكنها انجبت ، وأصبحت تعطى فى "الحلبة" الواحدة ـ قد لاتصدقين ! ـ ربع جالون من اللبن !

ـ ليست لها أرداف .. كيف تحمل هذه طفلاً ؟

ـ لاتنزعجى ، سوف تسمن الآن . كلهن يسمن بعد الزواج .

وهكذا مضت النساء ، تهمسن بينما القسيس "مانوليس" يرد كلمات العرس : "رقص اشعيا ....." .

وعندما انتهت الطقوس ، تولى العراب استبدال التاجين واندفع الأقارب مرة أخرى نحو العروسين يتمنون لهما حياة طويلة وشيخوخة كريمة .. ثم بدأ القضم والنهش حول المائدة الموسوقة بالطعام . ولم يذكر العريس بعد ذلك كيف حدث ذلك كله ، فقد غطت أفكاره سحابة فلم يعد يذكر إلا أنه كان يميز بصعوبة تلك الوجوه والأصوات ـ وأباه وهو جالس وقد أمسك بيديه خنزيراً مشوياً أسنده إلى ركبتيه ، والى يمينه الكابتن "ميخايليس" وإلى يساره الكابتن "بوليكسيجيس" ، وأخيرا تذكر أن "ديامانديس" شقيق زوجته دخل دون أن يحنى أحدا وقد أرخى قبعته إلى عينيه ، ثم إتجه مباشرة إلى المطبخ ليشرب ويحتفل بداخله ، وأن الكابتن "بوليكسيجيس" قفز من مكانه وخرج ، ثم مالبث الجميع أن سمعوا أصوات نقاش حاد وزجاج يحطم .

وجز الكابتن "ميخايليس" على أسنانه وكاد يقفز من مكانه هو الآخر ولكنه عدل عن ذلك وظل جالساً ودماؤه تغلى بينما جاءته ابنته "رينيو" بالطبق وقدمت له شراب كرز طازجاً أحس بالهدوء بعد أن شربه ، فتفضل على الفتاة بنظرة ودوده وهو يحس بأنه رأى هذا الوجه من قبل فى مكان ما .. من تكون ياترى ؟ لقد ظلت طوال المساء تخدمه دون تطفل وتحضر له كل مايريد : الماء ، والنبيذ ، والطعام والسجائر ، وتسرع فى احضار ذلك كله . وأشار الى زوجته التى كانت توزع اللحم على الضيوف وسألها وهو يومىء ببصره إلى "رينيو" :

ـ من تكون هذه البنت اللطيفة ؟ لقد رأيتها من قبل فى مكان ما .. ولكن أين ياترى ؟! .

وتنهدت كاتيرينا :

- إنها ابنتك !

وأحنى الكابتن "ميخايليس" رأسه ولم ينطق بعدها .

وعاد الكابتن "بوليكسيجيس" غارقا فى عرقه ، واتجهت كل العيون اليه وحاول هو أن يرسم على شفتيه ابتسامة وهو يقول :

- إنه سكران ، فاعذروه .

ثم جلس إلى جوار الكابتن "ميخايليس" وكأنما يريد أن يتقرب اليه لينسى تصرف ابن اخيه . واهتزت خياشيم الكابتن "ميخايليس" بالرغم منه : رائحة المسك تفوح من صاحبه . ولكن الكابتن "بوليكسيجيس" مضى فى محاولته تخفيف حدته ، فمنذ أيام وهو يصده بجفاء . لماذا ؟ وبعد أن شرب عدة كئوس من النبيذ لتمنحه الشجاعة ، انفجر معاتبا فى اتهام :

- ماذا فعلت ياكابتن "ميخايليس" حتى تكرهنى هكذا ؟

وجاءت الاجابة :

- أشم فيك رائحة تركية !

وتساءل "بوليكسيجيس" وقد احمر وجهه خجلاً :

- وكيف عرفت ؟

وحدق الكابتن "ميخايليس" مباشرة فى عينيه ، وأحس بقلبه فجأة يقفز إلى حلقه حتى ليكاد يخنقه . فقد فهم . وضغط بقدميه على المقعد الذى احضرته له "رينيو" ليضع قدميه فوقه حتى سمع صوت صرير ثنايا الخشب ووصلاته . وقال من بين أسنانه :

- الآن أعرف . ألا تحس بالخجل ؟ .. ومع امرأة تركية ؟

وقال "بوليكسيجيس" :

- سوف تصبح مسيحية .

وقفز الكابتن "ميخايليس" وقد أحس بالبيت يدور أمام عينيه .

- وبدلا من أن تصبح هى مسيحية ، لماذا لاتصبح أنت تركيا ؟ إذن

لاستطعنا أن نتخلص منك .

... ثم اتجه إلى الفناء ليشم الهواء النقى .

وكان اليوم التالى قد بدأ يتسلل ، ولكن الجميع كانوا لايزالون يأكلون ويشربون وارتفعت اغنيات الحب على انغام آلات بدأ البعض يعزفون عليها ، بينما راح البعض الآخر يرقص رقصة الصفوف الخمسة وهو يغنى . أما العروسان فقد جلسا صامتين غائبين على حافة الأريكة دون أن يحس أحدهما بالرغبة فى النهوض إلى سرير العرس المزين بالورود . وتمدد الجد العجوز بالقرب منهما وقد أسبل جفنيه دون أن ينام ، ولكنه كان يستمع إلى ضجة أحفاده حوله . وإلى كل الأصوات والأغنيات والضحكات الصاخبة . وكان يحس بالسعادة وكأنه شجرة ضخمة من أشجار السهوب تسقط فوقها الأمطار وتمتص جذورها السعيدة الماء .

وبعينين ناعستين أشار الكابتن "ميخايليس" إلى زوجته :

- هيا بنا !

وجاء يوم جديد ، وسطعت أشعة الشمس فوق ساحة العرس فكشفت عن أكوام من العظام وفتات الخبز والرجال النائمين المتكومين بلحاهم وعباءاتهم الصوفية الواسعة . وارتفعت فوق "ميجالوكاسترو" حيث اليوم يوم الثلاثاء التالى للفصح .. وسوف تفتح الدكاكين أبوابها ويتمنطق أصحابها كل بمئزرته . ومست أشعتها فى رقة أشجار الزيتون والحقول وتوقفت عند ضيعة نورى بك وكأنها تبتهج لمرأى النوافذ المطلية حديثا والياسمين المزهر . اليوم أيضا قد وصلت من الأسكندرية أربعة ببغاوات : اثنان داكنا الخضرة ، والأخران فى لون خضرة البحر وفى صدورهما صفرة . كما أن نورى بك كان قد استقدم "الابراهيمى" ، ذلك الطبال الاعمى الذى قد يعجب امينة هانم . وها قد مر أسبوعان لم يعد فيهما نورى بك الى "ميجالوكاسترو" .. وظل يعد فيهما - كطير عاشق - العش الذى ستقضى فيه وليفته فصل الصيف . كان مشتاقا اليها ، وكان قد بعث اليها أول أمس برسالة يقول لها فيها إنه قادم إليها وإنه لم يعد يحتمل فراقها أكثر من ذلك ، ولكنها أجابت العربى الذى حمل إليها الرسالة ، بأنها تشك فى أنها حامل : وأن نوبات الألم تنتابها وأنها من ثم لاتستطيع أن ترى

أحدا سوى "حميده" العجوز الحكيمة التى تتردد عليها وتمارس معها فنون العلاج فتحس بعدها بالارتياح ، وأنه إذا كان يحبها حقا فعليه ألا يعود قبل أن تضع حملها .

ولكن ذلك وحده لم يكن مصدر قلقه : أن يظل بعيدا عن محبوبته أكثر مما ابتعد ، فقد ارسل اليه الباشا مساء أمس خادمه العربى يخبره فيها أنه مر وقت أطول من اللازم .. ولم يف بعد بوعده ، وأن الاهانة لم تغسل بعد ، وأن الأغوات يتهامسون وأنه مهما كانت طبيعة الأفكار التى تراوده فإن عليه أن ينتهى من هذا الأمر على الفور .

ثم إن أباه أصبح الآن يزوره فى نومه بانتظام دون أن يتكلم ودون أن يبقى طويلا واقفا أمامه ، كان يكتفى بأن يمر إلى جواره بقدميه العاريتين وفى خطوات متثاقلة ووسط اسماله المهلهلة دون أن يستدير لينظر اليه ، ثم لايختفى ، بل يظل موجودا طوال الليل بوجهه الحزين .

ولقد تصادف فى ذلك الصباح أن تلك القبيلة اللعينة التى قتلت أباه مرت بحذاء ضيعته وهى فى طريقها بعد عودتها من العرس . وقد أغلق باب الضيعة بعنف وصعد إلى الطابق الأعلى .. ودخل غرفة نومه واتجه الى النافذة يحدق من خلال ستائرها الخشبية فى العجوز ذى المائة عام ، رب الأسرة التى تسير خلفه فى فخار .. جيش كامل ! .

وبينما كانوا يسيرون بحذاء باب الضيعة ، جذب "مانوساكاس" عنان فرسه واخرج غدارته الفضية وأطلقها فى الهواء وهو يصيح :
- إننى أطلق النار على درعك يانورى بك ..
وخلف النافذة كان نورى بك يعض شفتيه دون أن يقبل التحدى واستدار "مانوساكاس" الى رفاقه وصاح :
- إن الكلب أثار الضجة لأننى أدخلت حمارى إلى المسجد مع المصلين ، حسن بعد غد يجىء عيدهم الأكبر ، وبحق ثقتى فى أن اسمى هو "مانوساكاس" لسوف ادخل هذه المرة خنزيرا !

وارتفعت صيحات ضيوف العرس وضحكاتهم .. ثم خفتت وسط سحابة الغبار .

وأحس نورى بك بالدم يملأ عينيه ، فهبط الدرج وفتح زجاجة ثم جلس فى الخارج أمام الباب ليهدىء من ثورته بالشراب . ولكنه لم يستطع أن يظل هكذا جالسا . ولاحظ الفوضى التى أثارتها تلك البغال والخيول اللعينة فى الأرض أمام الباب ، فاتجه الى وسط الطريق ورمى ببصره نحو الشمس حيث كان اعداؤه قد اختفوا وسط سحابات الغبار . وأمال الزجاجة وأسال منها قدر خمس أو ست جرعات على الأرض وهو يغمغم قائلا :

- فليهدر دمى هكذا إن لم أفعل ما قررت فى هذه الساعة أن أفعله .

ثم أحنى عنقه إلى الخلف وظل يشرب حتى بدأت الريح تشتد ، فعاد إلى الداخل ووضع غدارتيه فوق الوسادة وحشاهما واطلق طلقتين اطمأن معهما على أن غدارتيه تعملان على مايرام ، واخرج خنجره ذا الحدين من غمده واختبره فى رسغه فوجده قاطعا كحد الموس . وظل طوال نهاره يروح ويجىء داخل البيت أو يقتفى آثار البغال والخيل على الطريق ثم يعود وقد تجدد غضبه وهياجه .. وعندما حل الليل ذبح أرنباً وأمر بإعداده على الطريقة المفضلة لديه ، ثم مضى يلتهمه بشهية مفتوحة ، حتى اذا انتهى من الطعام جمع حفنة من زهور الياسمين نثرها فوق وسادته . ولأول مرة منذ زمن طويل راح فى غيبوبة نوم هادىء لايقطع هدوءه شىء ، كما أن أباه كذلك لم يزره فى تلك الليلة .

واستيقظ فى الصباح منتعشا مبتهجاً وأخذ يصفر بفمه . وكانت الديكة قد استيقظت هى الأخرى وبدأت تحيى شمس الصباح . وتساقط الضوء من السماء فوق أوراق الشجر ، وأخذت النافورة المقامة فى مواجهة الباب تحدث أصواتا شبيهة بأصوات الدجاج ، وخرج الجواد من حظيرته يستقبل النهار بصهيله وكأنما قد رأى مهراً أمامه . وكذلك كان نورى بك يتهلل للنهار الوليد .

نزل إلى فناء البيت فاستقبله كلبه العجوز "كارتسوميس" بالنباح مرحباً ، واتجه الى الفرس فربت عليه وأمر بأن يغسل جسده بماء دافىء واتجه هو بنفسه ليملأ له دلوا من البئر ليشرب منه كما أعد له كمية من العلف ثم عاد إلى الداخل فأمر الطاهى بأن يعد له بعض الأصناف الطيبة من الطعام وأن

يملأ له زجاجة من شراب الليمون .. وبسرعة .. لأنه سوف يخرج على الفور قبل أن تشتد حرارة الشمس .

وسألته المرأة العجوز :

ـ هل أنت ذاهب إلى ميجالوكاسترو ؟! وهل ستحضر معك سيدتنا ؟

ودون أن يجيب على سؤالها اتجه الى غرفة النوم ونثر بعض الصبغة السوداء فوق شاربه ثم ارتدى ملابسه الرسمية وطيب شعره وأذنيه بالمسك ، ثم دس الغدارتين الفضيتين والخنجر ذا الحدين فى جيبه ونزل إلى فناء البيت مرة أخرى ووقف عند الباب مشعاً متألقاً كالشمس .

وتقدم اليه تركى عجوز يحمل كيساً فوق ظهره : كان مصطفى بابا ، الذى يجمع الأعشاب ويعد المراهم لمداواة الجروح ، والذى يعالج اليرقان والقوبة ويشفى من الرقى الشريرة ، ويظل ينتقل بين القرى اليونانية والتركية وهو ينادى : "طب ممتاز ، وأدوية مفعولها لايخيب .. وحياة طويلة !" ثم يخرج من كيسه ـ حسب نوع المرض ـ حبوب العرعر ، والخربق الأخضر ، والسذاب ، والشيبة والماندراجورا : كان رجلاً مباركاً يتنقل مداوياً دون أن يأخذ على عمله أجراً سوى أن يأكل كسرة خبز أو يشرب جرعة ماء ويكتفى بهذا من الحياة .

وعندما أبصر نورى بك ، أمام الباب ، توقف وأخذ ينظر اليه بفزع وسأله نورى بك ، وهو يبعد الكلب ويشده من سلسلته المربوطة بعنقه .

ـ ماذا أصابك يامصطفى بابا ؟ لماذا تنظر إلى هكذا ؟

وانحنى الرجل العجوز وقال فى اعجاب :

ـ أنت اليوم غاية فى الأناقة يانورى بك ..

ثم أضاف فى صوت خاشع ..

ـ .... أكثر من اللازم

وضحك نورى بك ، فقال الرجل العجوز :

ـ لاتضحك يابك ، إن هناك حدوداً للرجال والنساء ، وخرق هذه الحدود خطيئة ..

ـ أناقة فائقة ، وعطف بالغ ، وشرف مكين .. هل ذلك كله خطيئة
وتنهد الرجل العجوز :
ـ إنها خطيئة يابك .
ـ كيف ؟ لست أفهم ذلك يامصطفى بابا ؟
ـ ولا أنا ياولدى ، ولكن ، هكذا قانون الخالق ، كن حريصاً يانورى
ومرة أخرى رفع يده إلى صورة ثم إلى شفتيه فجبهته وقال :

ـ الى اللقاء يابك .
وتراجع بضع خطوات .. ثم توقف . وضحك نورى بك .
ـ هل تريد شيئا يامصطفى بابا ؟ هلا تناولت الإفطار على مائدتى
ـ لست جائعا يانورى بك .. معذرة ، ولكن فقط ..
ـ ولكن ماذا ؟ تكلم بصراحة يامصطفى بابا ..
ـ أود أن أقول شيئا ، ولكنك ستضحك .
ـ أنت رجل مبارك . تكلم فلن أضحك .
ـ لطخ وجهك بالدخان وارتد ثياب كل يوم وانتعل حذاء مرقعا ! كان لدي
حذاء مرقع .. ودع جانبا غدارتيك الفضيتين .. خفف من اناقتك يانورى
وانفجر البك ضاحكا .. وارتسم الأسف على وجه الرجل العجوز النحيل
وغمغم يقول :

ـ طالما أن الله فوقك ، فلا تضحك ينورى بك !
ثم انحنى مرتين .. واستأنف سيره .
وعاد نورى بك تياهاً بنفسه إلى الفناء حيث كان جواده ينتظره ، وكانت
الخادم العجوز تمسك بحقيبة سرج مليئة بالأطعمة وشراب الليمون ، وأجال
نورى بك بصره حوله ورأى البيت يتلألأ كأنه حديث البناء ، وأشجار
الزيتون واللوز والرمان مثقلة بالثمار ، وأشجار التين تنتشر عريضة
بأوراقها الداكنة الخضرة ، والببغاوات تنفض ريشها فى اقفاصها وسط
عرائش الكروم .. ولا هبة ريح واحدة .

وتردد قلب نورى بك لحظة . إلى اين سيذهب ؟ ولماذا ؟ لماذا يترك
وراءه كل هذه الهبات الالهية ؟ كانت ضيعته جنة لاينقصها شىء . ثم

المرأة سوف تلين وترق ، وسوف تعود .. وسوف يردد الفناء أصداء ضحكاتها المتألقة ، وسوف ينضج الرمان وتزداد حلاوة التين وتضع الببغاوات بيضها فى حجم اللوز لتفقس أفراخا ذوات أجنحة صفراء خضراء وردية .

وتنهد ! ورأت الخادم العجوز سيدها . كانت تتبعه كظله يوما بعد يوم وساعة بعد ساعة . لقد تربى على يديها ، وهى لم تتزوج ولا عرفت فى حياتها رجلا .. ولكنها لم تندم يوما على ذلك ، فقد كان هذا الرجل بالنسبة اليها زوجا وابنا .. وكان بالنسبة اليها ايضا .. إلها ! لم ترفع يوما بصرها لتسأله ، فكل ما كان يفعله هو الصواب ، وكل ما كان يأمر به هو الحق .. والسعادة كل السعادة فى أن تطيع وليس أمامها سعادة أفضل من ذلك . ولكن قلبها اليوم مثقل ، عادت تسأله :

ـ إلى أين أنت ذاهب ياسيدى ؟
واستدار نورى بك فى دهشة .
ـ ماذا حدث لك ياأمى الصغيرة ؟ لماذا تسألين ؟
ثم وضع أطراف قدمه فى الركاب وقفز فوق السرج . ووضعت المرأة العجوز يديها المعروقتين فوق عنق الجواد وغمغمت فى فزع :

ـ إلى أين انت ذاهب ياسيدى ؟
وأجابها :
ـ اهتمى أنت بشئون البيت !
ثم نخس الجواد بالمهماز .
ـ كان الله معك ياولدى ..
ورأت سيدها ينخس جواده مرة أخرى ويختفى وسط أشجار الزيتون فضية الأوراق ، وأحست لحظتها بغصة فى حلقها .. ولكن قلبها رغم ذلك كان صلبا كالحجارة . وقالت بصوت مرتفع وهى تغلق الباب بالمزلاج :

لقد شرب ماء الخلود .. وهو لايعرف الخوف !

بعد أيام الفصح عاد "مانوساكاس" إلى الحظائر القائمة على سطح

جبل "سيلينا" ، وكانت الحرارة شديدة ، وقد بدأ جز الصوف ، وكان ذلك يعنى إحتفالاً رائعاً فى الجبال : كان الرعاة يجزون أصواف الماعز والأغنام ويطلقون النكات وهم يقومون بعملهم ، وكانت النساء يصعدن الجبل ويشعلن النيران لتسخين الماء الذى ينظفن به الصوف ، وكان "مانوساكاس" هو واولاده والرعاه الصغار قد اقاموا فى ذلك اليوم حفرة خارج الحظيرة وضعوا فيها حملاً ميتاً بكل جلده وغطوها بكمية من الفحم المتوهج .. وانتظروا حتى ينضج اللحم داخل الأرض .

وأمسك "مانوساكاس" كبشاً ضخماً وضعه فوق ركبتيه وأخذ ينزع خصلة إثر خصلة من الصوف الملبد وإلى اليمين منه أكثر من عشرين من الخراف التى انتهى جز صوفها وإلى اليسار منه خراف لم يجز صوفها بعد وأمامه كومة الصوف تفوح منها رائحة الدهن . وكان "مانوساكاس" يدندن وهو فى رائق البال ، وهبت ريح باردة من الجبال .

كانت سنة طيبة ، فقد ازداد عدد القطيع . وكان ولداه الأكبران "تودورس" و"ياناكيس" يعدان الجبن داخل كوخ قريب من الحظيرة ويضعانها داخل جرار عميقة من النحاس توضع بعد ذلك إلى جوار أكداس من الجبن الجاف والطرى محفوظة داخل مخازن الجبن الرطبة .. والشكر لله .. فهناك أسفل السطح فى "آيانى" ، تنمو المحاصيل والكروم .. كما أن فرسه قد وضعت مهراً صغيراً .

واستراح "مانوساكاس" قليلا وجال ببصره حوله .. ثم إلى أسفل فى السهل : بلى .. الأرض مثل الأرنبة ، دائما حبلى فالحيوانات فيها حبلى ، والأشجار حبلى ، والنساء حبلى .. كريستينا ! كونى فتاة لطيفة واحضرى لى شيئا من شراب الليمون أبرد به جسدى ! .

وكانت زوجته كريستينا تقلب النار وسط الحظيرة . كانت لاتزال إمرأة قوية العضلات ثابتة المفاصل والعظام .. ولكنها كانت زاوية مجففة ! .

ولم يكن فى مقدورها بعد أن تنجب اطفالاً .. ومن أجل ذلك كانت تشكو إلى الله ، فالنساء لايستطعن الانجاب إلا بعد أن يتعدين سن السبعين !

كانت تردد ذلك وهى تشكو إلى الله . ولقد تريد واحدة من النساء أن تنجب دستتين من اطفال حتى يهدأ بالها ، ودستتان من الأطفال عدد يكفى ! عشرون ولداً ، وأربع بنات ، وعندما يصبح لها أول حفيد ، ينتابها شعور اشبه بدغدغة النوم ، وترسم علامة الصليب وتبتهل : ياإلهى .. آه لو كنت إلى جوارك وأنت سبحانك تخلق هذا العالم ! إذن لكنت قد كشفت لك عن أسرار لايعرفها إلا نحن النساء .

وسمعت صوت زوجها .. وأجابته على الفور :

ـ بكل سرور ياعزيزى "مانوساكاس" . هل تريد شيئاً تأكله ؟ لقد اعددت بعض لحوم الضأن .

ـ هاتيها معك .

وبدأ يأكل وهو سعيد بالدنيا .. ثم مالبث أن سمع وقع حوافر .. وصوت حجارة تتدحرج .

من ياترى يأتى الى الجبال فى هذا الوقت ممتطيا صهوة جواده ؟ ونهض "مانوساكاس" فى دهشة وفمه لايزال ممتلئاً بالطعام ونظر عبر الحائط الحجرى للحظيرة وهو يحجب بيده ضوء الشمس عن عينيه .. ورأى جواداً أسود يتسلق الجبل فى خطوات قصيرة والحجارة تتطاير إلى الجانبين منه .

وقفز "مانوساكاس" وهو يغمغم :

ـ عاقبنى الله إذا كنت أكذب ، ولكنى اعتقد أنه هو نفسه الكلب فنورى !

ثم اتجه مندفعاً إلى الحظيرة وتوقف عند مدخلها :

ـ إنه يريدنى !

وبقفزة واحدة أصبح داخل الحظيرة وأخذ حقيبته من فوق الحائط ، وكانت زوجته قد عادت تنحنى فوق الوعاء وهى تؤجج النار تحته . ولم تلاحظ شيئاً .

وأخرج هو من الحقيبة سكيناً قصيرة ثبتها إلى وسطه ، وشد الحزام جيداً ثم جذب عصاه المصنوعة من خشب البلوط وعاد ليقف عند مدخل الحظيرة .

وكان الفارس في تلك اللحظة قد تجاوز السنديانة الضخمة ذات الأوراق الكثيفة والتي تقف داكنة وحدها . وكان يضع حول رأسه عصابة رأس بيضاء والغدارتان تلمعان تحت أشعة الشمس ولم يستطع مانوساكاس أن يميز جيداً وجه نوري المستدير المتألق بشاربه الأسود .

وعاد يقول :
ـ انه يريدني ! مرحبا إذن بالكلب ، إذا كان قد جاء لهذا ونادى زوجته :
ـ كريستينيا ! أعدي المائدة فقد جاءنا ضيف !
وتناهى اليه صوت زوجته من الداخل وهي تسأله في دهشة :

ـ من ؟!
وأجاب "مانوساكاس" :
ـ شيطان ! قلت لك أعدي المائدة !
وتقدم ليستقبل الفارس . ورآه "نوري" فرفع يده .. ومن بعيد تناهى صوته المتقطع الساخر :
ـ طاب يومك ياكابتن "مانوساكاس" .
ـ مرحبا ياكابتن "نوري بك" .. من تريد ؟
وأجابه "نوري بك" ضاحكاً وقد برقت أسنانه وانقبضت وجنتاه :
ـ أريد الكابتن "مانوساكاس" .. هل تعرفه ؟!

وبرقت عينا "مانوساكاس" في غضب .. ولكنه تمالك نفسه وقال :
ـ ومن ذا الذي لم يسمع عن أعماله البطولية ؟
وحاول أن يضحك ولكن شفته العليا وحدها التي تحركت وكشف عن أسنانه .. ثم استطرف يقول :
ـ منذ أيام قليلة مضت فحسب ، أدخل حماراً إلى المسجد ليشارك المصلين .

ـ أنا أيضا سمعت بذلك . أخبرني به طائر نحس ، وقد جئت خصيصاً لأرى هذين الكتفين اللذين حملا هذا الحمار .
ـ ولكنك لن ترى كتفي يانوري بك ، فلا تفكر في ذلك ، مانوماساكس لايكشف عن كتفيه .

وضحك نورى وهو يقول :

ـ عندما يرى الخطر محدقاً به فسوف يكشف عن عجزه وليس فقط عن كتفيه !

ثم الهب بسوطه أذن الجواد فتراجع مستجمعاً قوته وقفز نحو مانوساكاس الذى لم يتحرك من مكانه ولكنه أحس بالدماء تجرى فى رسغيه وثبت مكانه .. إن نورى بك قادم لزيارته . فصبراً إذن ! وشد قبضته ، ولم يستطع ان يكبح جماح لسانه :

ـ لم يستطع كلب بعد أن يعضنى إلا إذا كان مجنوناً يانورى بك .. فانتبه جيدا لنفسك .

ـ ولكننى وحش مفترس يامانوساكاس ، ومن ثم فلست أحب أن أتغنى بمدائح عن نفسى .. إننى أظل صامتاً .

ـ حسن ؟! فلماذا جئت إذن الى مملكتى ؟! ماذا تريد ؟!

وعض نورى بك شاربه ولم يقل شيئاً . وظل "مانوساكاس" ينظر اليه بدوره وهو واقف مكانه دون أن يقول شيئاً ، ولكن قلبيهما كانا يدقان .. ويكادان يقفزان خارج صدريهما .

واخيرا قال نورى بك بصوت هادىء بطىء يزن كل كلمة :

ـ مانوساكاس .. انت أهنت تركيا إهانة بالغة .. ويجب أن تدفع الثمن .

ـ كنت أسلى نفسى ! فدع إذن جامع الضرائب يحضر وحدد أنت مايجب أن أدفعه له .

ـ لقد حضر بالفعل .

ـ أنت ؟!

ـ نعم .. أنا ، تركيا التى أهنتها . هى التى أرسلتنى . ومن العالم الآخر تلقيت رسالة من أبى الذى اغتالته قبيلتك . هناك حساب ضخم سوف نسويه مع قبيلتك يامانوساكاس . منذ يوم أو يومين اقتحم أخوك مقهى تركيا وأخرج منه الأغوات . ان ميجالوكاسترو تصرخ طالبة الثأر . وربما لا أمس أخاك بسوء ـ فهو شقيقى بالدم ـ ولكننى سأمسكك أنت .

وتحسس مانوساكاس حزامه وإطمأن على الخنجر ، وقال :

ـ فلنبتعد قليلاً عن هذا المكان ، حتى لاتسمعنا الزوجة .. ثم إن أبنائى أيضاً داخل الكوخ .

وترجل نورى بك ، فقد رأى أنها ليست رجولة منه أن يظل ممتطيا صهوة جواده بينما عدوه راجل على قدميه . ولف زمام الجواد حول ذراعه .

ـ هيا بنا ..

وتحرك الأثنان .. وأخذ الجواد يصهل بشدة وهو ينثر الحجارة بضربات حوافره .

كانت السكينة تلف الجبل ، والشمس فى كبد السماء ، وكان أبناء مانوساكاس خارج الحظيرة مع الصبية الرعاه قد كشفوا الحفرة وأخرجوا الحمل المشوى الذى كان قد نضج تماماً ، وأحاطوا بهم : بعضهم جلسوا القرفصاء والبعض الآخر انحنى جالساً على ركبتيه ، وبدأت أسنانهم تعمل كالطواحين ، والوعاء الخشبى يدور من فم إلى فم ولا أحد منهم يعير الجبل اهتمامه . حتى الأغنام التى تخففت من الصوف ، كانت هى الأخرى قد انتثرت فى الظل وقد خرجت ألسنتها وأخذت تحدق فى دهشة فى أصوافها المجزوزة .

وتوقف الرجلان عند شجرة السنديان الطويلة كثيفة الأوراق ، وألقى كل منهما بنظرة خاطفة إلى الأرض المنبسطة حول جذعها الضخم .. وقالا معاً :

ـ المكان هنا يصلح ..

وربط نورى بك جواده إلى شجرة سنديان أقصر من الأولى وإلى جانب منها فى مكان لايستطيع الجواد أن يرى منه شيئاً مما سيجرى ، أما "مانوساكاس" فقد نظف المكان من الحجارة والأغصان الرقيقة المتساقطة ، وحين عاد "نورى بك" أسعده أن يجد المكان نظيفاً وقال :

ـ لقد أحسنت تنظيف المكان فأصبح الآن كافياً .

ـ نعم .. إنه كاف جدا . ونستطيع أن نقيم فيه وليمة إذا نحن أردنا ، ونستطيع أيضا إذا نحن أردنا أن يقتل أحدنا الآخر ، فأيهما تختار يانورى ؟

واجابه نورى بهدوء :
ـ أن نقتتل ، فالشرف يطلب ذلك يامانوساكاس .
ـ نعم .. فإن أحدهما لايحجب الآخر .

وردد نورى بك بهدوء :
ـ هيا نقتتل ..
ـ كما تشاء

وشد حزامه أكثر حول وسطه ، وشمر أكمامه ، بينما شد "نورى بك" عصابة الرأس البيضاء ، وأخرج مسدسيه من جرابيهما الجلديين وعلق أحدهما فوق أحد أغصان الشجرة ، بينما أمسك بالثانى ، وكان "مانوساكاس" يراقبه .

ـ علقه جيداً ، فأنا أحب هذين المسدسين ، وسوف أخذهما لنفسى بمجرد أن أقتلك .. كتذكار !

وأعد نورى بك مسدسه للإطلاق ، ووقف "مانوساكاس" فى مواجهته دون أن يتحرك . وقال "نورى بك" :

ـ مانوساكاس .. بالأمس مرت قبيلتك بضيعتى وتوقفت أنت وأخرجت مسدسك وأطلقته فى الهواء وأنت تقول لى : إننى أطلق النار على درعك يانورى بك ! وها أنذا أقبل التحدى .. ولو تخطفنى الموت !

وأطلق رصاصة مرت فوق رأس "مانوساكاس" ثم شب واقفاً على أطراف أصابعه وعلق المسدس بجانب الآخر .. والدخان لايزال يتصاعد من فوهته .

أوخذ كل منهما مكانه فى مواجهة الآخر وقد باعد مابين ساقيه .. وغلى الدم فى عروقهما .. وانتظرا . وحاول كل منهما أن يثير الآخر بالسباب والتعريض ، ولكن ذلك لم يكف لتهيئة الإثارة الكافية .. وأخيراً قال "مانوساكاس" :

ـ قد يحضر إلىَ هنا الكابتن "ميخايليس" ليتعامل معك ، هل تذكر كيف امسك بك يوماً من حزامك ورفعك فوق السطح ؟ ولكننى أنا أيضاً سوف أقذف بك الآن بنفس الطريقة .

واندفع إلى الأمام ليمسك الآخر من وسطه ، ولكن "نورى بك" راغ منه ، وخطا خطوة إلى الخلف ثم استل خنجره ذا الحدين ، وأخذت عينا الأثنين وهما ترميان بالشرر :

- كافر !

- كلب !

وقفز نورى الى الأمام رافعا خنجره ، ولكن "مانوساكاس" انحرف جانباً حتى كاد نورى بك يسقط على الأرض ، واندفع مانوساكاس منحنياً نحو نورى بك وضربه فى بطنه برأسه ضربة كادت تفقده وعيه ولكنه تماسك واستجمع قوته . وبينما كان غريمه لايزال منحنياً ، دمع بالخنجر عميقاً فى جسده .. وطقطقت العظام ! وانبثق الدم غزيرا ليلوث "نورى بك" وهو يخرج الخنجر من جسد "مانوساكاس" وأطلق نورى صيحة فرح طاغ وهو يلعق حد الخنجر بشراهة حتى كسا الدم شفتيه ولحيته :

- هذه من أجل والدى ، إننى أثأر لدمه .

وانحنى "مانوساكاس" وهو يتمايل مستنداً إلى جذع الشجرة ، غمغم يقول :

- كلب ! .. لقد نلتنى .

وأجاب نورى

- لقد انتهى الحساب .

ثم بدأ يقترب فى خطوات وئيده متعرجة مثل الأسد ، وقد أخذت خياشيمه ترتعش .

وغمغم "مانوساكاس" .. وهو يحس بأن قواه تخور وتمنعه من الاندفاع إلى خصمه .

- اقترب من هنا .. اقترب من هنا ..

وأثار صوته نورى بك .. فاقترب أكثر وقد رفع خنجره ثم صاح هادراً :

- وهذه أخرى .. ضربة أخرى فى القلب ياكافر ، من أجل تركيا التى أهنتها أنت وأخوك الكابتن "ميخايليس" .

وعندما أصبح أكثر قرباً منه ، قفز كالبرق ليغرس الخنجر فى قلب عدوه ، ولكن "مانوساكاس" إنحرف جانباً فاصطدم الخنجر بجذع الشجرة وتحطم

، واستجمع مانوساكاس ماتبقى لديه من قوة ودفع سكينه القصيرة عميقة فى الجسد الآخر .. وإلى الأسفل .

وصرخ البك مثل الثور .. ولكنه غالب الألم ، وانتزع السكين من يد عدوه التى كانت قد شلت تماما .. ثم صاح وهو يغرسها فى قلبه :

ـ من أجل تركيا !

وانهار مانوساكاس أسفل جذع الشجرة .. ومرت بخاطره كالبرق الخاطف صورة زوجته كريستينيا" وصور أطفاله ، والحظيرة والقطيع .. وفجأة غطت عينيه سحابة سوداء داكنة ، لم يعد يرى شيئاً ، وتهاوى وسط بحيرة من دمائه .

وتقوقع "نورى" بجانبه والدم يتفجر من سرواله ويسيل إلى الارض إلى جانب راس "مانوساكاس" واحس فجأة بآلام رهيبة تعذبه ، فوضع كلتا يديه فوق خصيتيه الداميتين وهو يهدد ويجيل البصر حوله ، وكانت الشمس تميل إلى المغيب والجبل قد إمتلأ بأصداء أجراس القطعان .. وهبت الريح .

وصاح نورى وهو يحاول النهوض على قدميه :

ـ يارب .. يارب ، ساعدنى على الوصول إلى جوادى لكى ابتعد عن هذا المكان ! .

وتشبث بجذع الشجرة ، ووضع غدارتيه الفضيتين فى منطقته ، وتناول عصا مانوساكاس ليستند اليها ، وألقى عليه نظرة وهو يحاول أن يركله بقدمه ، ولكن الألم منعه عن ذلك فاكتفى بأن بصق عليه وهو يغمغم :

ـ لقد بررت بقسمى ، ولكنك انت أيضاً نلتنى أيها الكافر !

ووضع يده اليسرى بين فخذيه وهو يئن :

ـ كان افضل لى لو أنك طعنت قلبى أيها الكافر !

وفتح مانوساكاس إحدى عينيه الداميتين الكابيتين ، وتحركت شفتاه داكنتا الزرقة يحاول أن يتكلم ، ولكنهما تجمدتا وبقيتا مفتوحتين ، واتجه نورى إلى جواده متعثراً يئن من شدة الألم ، وتناهى صوت أنينه إلى سمع الحيوان فاستدار وقد برق بياض عينيه .

آه لو اننى استطعت ان أمتطى صهوته وابتعد ، مصطفى بابا لديه من الأعشاب مايشفينى .

ورسم الدم خلفه خيطاً . وبدا الظلام أمام عينيه حالكاً بعد أن أدرك جواده ، ثم انهار بجواره . واحنى الجواد رقبته يتشمم سيده ـ عنقه وشعره وظهره ، ثم مالبث ان رفع راسه الذكى وصهلل كأنما يطلب المساعدة .

وحاول نورى أن يرفع قدمه إلى مستوى الركاب ، ولكنه لم يستطع وكاد الألم يغيب به عن وعيه ، وتهاوى قريبا من قائمى الجواد الذى تطلع اليه برأس خفيض ، ثم مالبث أن أدرك مايريده سيده ، فتحرك إلى الأمام ثم ركع بقائميه فوق إحدى الصخور .. وعاد ينظر إلى سيده الذى أخذ يتعثر .. ووجهه فى المقدمة حتى استقرت ذراعاه حول عنق الجواد ، وبدأ يتحامل حتى استطاع أن يرفع جسده وساقيه فوقه ويستقر فوق السرج . وظل يجز على أسنانه لكى يكون قادراً على تحمل الألم ، ولكنه لم يستطع أن يفتح مابين ساقيه حيث الجرح الدامى .. ومن ثم أخذ فوق ظهر الجواد وضع السيدة حين تمتطى صهوته ، وبدأ يربت عنق الجواد وهو يغمغم :

ـ إنهض .. إنهض ياشقيقى ! ابتعد عن هذا المكان .. على مهل .. على مهل ..

وتحرك الجواد وهو يراقب الأرض فى عناية وحرص حتى لايتعثر ، ويتجنب الحفر ، والأماكن المنحدرة وهو يهبط التل فى غبش المساء .

كانت الشمس قد غابت خلف الجبل حمراء دامية . وثمة بضع نسوة يصعدن الجبل ليزرن رجالهن ، وعندما أبصرهن نورى جز على أسنانه ورفع راسه عالياً .. ولكن الدماء كانت تسيل فوق السرج وتنحدر إلى بطن الجواد ثم إلى الأرض الصخرية لترسم أثراً فوقها دامياً .

كانت ساعة مباركة زالت فيها الحرارة واصبح أديم الأرض أكثر انتعاشاً ولاحت نجمتان أو ثلاث فى كبد السماء ، وتراقصت ذبالة مصباح من كوخ عند سفح الجبل ، وتناهت منه اغنية ، ثمة أم تهدهد طفلها فى رقة لكى ينام ، وكان نورى بك قد اغمض عينيه فلم يعد يرى شيئا . ولكنه كان يسمع

طنين الحشرات عالياً كالأجراس .. تشبث بزمام الجواد ، إلى أين ؟ إنه يعرف طريقه ، وسيده على ثقة كاملة به .

وتوقف الجواد أمام باب بيته الريفى ، وفتح نورى عينيه وصاح ، وهرع الخدم وحملوه إلى الداخل ، ومدده خادمه العجوز فوق الأريكة التى سرعان ما اكتست ملاءاتها بالدماء .. وحرك نورى يده وهو يهمس :

ـ مصطفى بابا .. مصطفى بابا ..

ثم تهاوى مرة أخرى إلى الوسائد .

وكان الليل قد أوغل قبل أن يصل مصطفى بابا إلى البيت لاهث الأنفاس وهو يحمل فوق كتفه كيساً مليئاً بالأعشاب والمراهم . وجاء الخدم بالمصابيح والشموع . وانحنى مصطفى بابا فوق نورى بك وهز رأسه .

وظل نورى بك ممدداً فاقد الوعى مغلق العينين .. ووضع الرجل العجوز بضع قطرات من خل الورد داخل أنفه .. ومسح صدغيه . وفتح البك عينيه ونظر اليه وسأله فى صوت مرتعش :

ـ هل سأعيش ؟

وأجابه الرجل العجوز :

ـ أنت بين يدى الله .. وهو قادر على شفائك .

وسأله نورى فى رعب :

ـ ومن أيضا ؟ الا يستطيع أحد ؟ الا تستطيع أنت يامصطفى بابا ؟

ـ الجرح بالغ يانورى بك .. وفى مكان حساس .

وصاح نورى بك :

ـ اللعنة !

وقال الرجل العجوز :

ـ لاتكفر .. إن الله هو الذى وجه السكين حيث أراد سبحانه أن تستقر

وهمس البك فى تعاسة وهو يحدق فى الرجل العجوز فى ذعر :

ـ لماذا .. لماذا .. لماذا ؟

ولكن الرجل العجوز لم يجب . لقد كان يحس بأن شيئا ما سيحدث منذ ان رأى البك فى الصباح واقفا فى لألائة أمام مدخل البيت .

– لاتتحرك .. ولاتسأل ، إذا كنت تريد أن يتحسن حالك .

وغسل الجرح وأوقف النزيف ووضع الأربطة ، ثم أخرج من كيسه قبضة من الأعشاب أعطاها للخادم العجوز لكى تغليها ، وكانت تلك جرعة لينام نورى بك ، ثم صرف الخدم جميعا وفتح الكيس مرة أخرى وأخرج زجاجة وبعض المراهم .. وكانت الخادمة العجوز تراقبه وهى تبكى :

– مصطفى بابا .. هل جرح سيدى خطير ؟ ألن يشفى ؟

وغمغم الرجل العجوز : – يمكن أن يشفى .. لكن ماذا سيصنع بالحياة بعد ؟

– ماذا سيصنع بالحياة ؟ .. لماذا تسأل هذا السؤال يامصطفى بابا ؟

وينظر الرجل العجوز حوله ثم قال بهدوء :

– لن يصبح رجلاً بعد اليوم .

وصرخت المرأة العجوز وهى تغطى وجهها بكلتى يديها .

وفى اليوم التالى ، وقف الكابتن ميخايليس أمام مدخل دكانه والشمس فى مطلع شروقها .. وظل يحدق تجاه بوابة الميناء وكانت السفن لاتزال تشحن وتفرغ بينما أمواج البحر حمراء داكنة الحمرة ، ولكنه لم يكن يرى شيئا ، كانت نظرته مقصورة على ذاته هو ، كان جسده قد ازداد ارتخاء فى الأيام القليلة الأخيرة ، وفمه مغلقا مليئا بالمرارة ، وكان المارة من الأتراك يحدجونه بنظرات شريرة ، وكان كثيرون من أصدقائه المسيحيين يتجنبونه ، كانوا يعرفون أن قوة سوداء تملك عليه أعماقه ، ولم يكن أحدهم ليجرؤ على الاقتراب منه .

وأخرج الكابتن ميخايليس صندق الطباق من حزامه وهو يحس بأنه لا الخروج فى جولة فوق صهوة فرسه .. ولا الخمر نفسها يمكن أن يعيدا الهدوء اليه .. ولا حتى سجائره التعسة ، أشعل سيجارته . وجذب بضعة أنفاس ثم بصق فى ثوره . انها لتسمم فمه اكثر واكثر ، والقى بها الى الأرض وسحقها وهو يغمغم : الى الجحيم أنت ايضا .. ثم استدار ليدخل الدكان ويجلس هناك حتى ينتهى اليوم فيغلقه ويهرب .

وفجأة ظهر "تيودوروس" الابن الأكبر لمانوساكاس ، وقد كساه الغبار

وتصبب عرقه والجم الرعب لسانه ، وتوقف أمام عمه فاغر الفم وأخذ يحدق فيه وهو يحاول عبثا أن يتكلم .. ولكن قلبه كان مثقلاً .. وأنفاسه لاهثة . وجذبه الكابتن ميخايليس من ذراعه وهزه بعنف وهو يقول :

ـ تكلم !

وانحنى فوقه وقد قفزت إلى خاطره صورة أخيه مانوساكاس .

ـ لقد قتلوا أبى ياعمى !

ـ من ؟ .. من قتله ياولد ؟

ـ نورى ..

وترك الكابتن ميخايليس ذراع ابن اخيه ، ودفع بإبهامه بين أسنانه بعضها فى ضراوة حتى ليحس بملوحة الدم فوق شفتيه .

ـ متى ياولد ؟ وأين ؟ استرجع أنفاسك !

واسترجع "تيودوروس" أنفاسه وأخبره وسط دموعه ولعناته انه عثر على أبيه فى المساء ملقى تحت شجرة البلوط الضخمة ، وقد أصيب بجرحين غائرين ، أحدهما فى جنبه والآخر فى القلب تماما ، وأن إمرأتين صعدتا للجبل فى مساء الأمس ـ زوجة "حاجى جورجوس" وابنته ـ وقالتا إنهما قابلتا "نورى" متشبثاً بجواده شاحب الوجه مرهقاً ، وأنهما وجدتا اثار دماء على طول الممر الجبلى .

وظل الكابتن ميخايليس صامتاً بضع لحظات ودون أن يتحرك من مكانه ، ولبث يحدق فحسب الأرض وهو ينصت إلى مايقوله ابن اخيه وأحس بأنه يستطيع أن يرى شجرة البلوط الضخمة فى الفراغ وقد تمددت عند جذورها جثة ضخمة مهيبة ملطخة بالدماء ، وعندما اكتملت تلك الصورة أمام عينيه ، رفع رأسه ، وجذب ابن اخيه من كتفه وقال : هل انت أمرأة حتى تعوى هكذا ؟ الأبواب لاتزال مفتوحة وأمامك وقت كاف لأن تعود إلى القرية . قل لهم : انتظروا .. ولاتدفنوه وأنا قادم .

وعندما خلا إلى نفسه ، عاد إلى الدكان وأخرج منه "شاريتوس" فلم يكن يريد أن يراه أحد فى تلك اللحظة ، وركل بقدمه المقعد الذى تعود أن

يجلس فوقه فتناثر حطاماً .. وارتمى فوق لفة من الحبال وقد ضغط رأسه بقبضتيه . وضاعت معالم الدكان من أمام عينيه بل وضاعت "ميجالوكاسترو" كلها .. ولم يعد منتصباً أمام ناظريه سوى شجرة البلوط ، داكنة .. براقة تحيط بها الأشواك ، ويتمدد عند جذورها جسد أخيه "مانوساكاس" . لم يكن ميتاً أمام ناظريه ولم يكن دماً ذلك الذى يسيل من جسده .. ولكن كان خمراً ! .. كان يصفق بيديه ويغنى : قريبا سوف يحضر الموسكوف ! .

وهز رأسه ثم نهض واقفاً وقد استقر على رأى . أغلق دكانه ودس المفتاح فى حزامه . ولم يسر فى الطريق العريض ، ولكنه اتجه عبر الأزقة الضيقة فى الحى اليونانى التى مالبثت أن قادته إلى الحى التركى ، وكانت العوانس الثلاث بعيداً لحظتها عن ثقوب التلصص .. فلم تره واحدة منهن وتوقف أمام الباب الأخضر ، وسرد نظره كالصقر الى أعلى الدار : الى الحوائط العمياء .. ثم اخترقت نظرته الشرفة الصغيرة بستائرها المسدلة . ولكنه مالبث أن أشاح ببصره عنها وقد انتابه الغضب والتقزز وكأنما أحس بأنه قد دنس نفسه .. وعاد ببصره الى الحوائط الصماء . لم يكن مهتماً فى ذلك المساء بالنساء والشرفات ، ولكن روح البازى فى صوره كانت تحوم فوق رأس "نورى" وهى تتلهف على أن تنشب مخالبها فى عينيه ورأسه .

وملأه فجأة سرور وحشى . وأحس أن روحه انطلقت وتحررت ، وأن جسداً مختلفاً تماماً قد احتل كيانه .. جسد رجل ، جسداً لايتزين ولا يتألم ولاينضح برائحة المسك .. جسداً ينضح برائحة عرق الرجال . واتجه الكابتن ميخايليس إلى بيته وعيناه تقدحان شرراً .. وظل يغمغم طوال طريقه : أخى .. مانوساكاس .... أخى مانوساكاس .

وهبط الليل .. وتلألأت النجوم ، وتألق قمر نصف فى كبد السماء . وغلقت البيوت فى "أى جانى" أبوابها .. وانطفأت المصابيح فى الدور واحدة إثر أخرى .. وغرقت القرية فى الظلام . ولكن باب بيت "مانوساكاس" ظل وحده مفتوحاً على مصراعيه .. وظلت المصابيح بداخله موقدة وفوق نعش فى وسط الغرفة الرئيسية ، كان جسد رب البيت ممدداً

من أجل حفل الجناز . كان قد تم غسله بالنبيذ ، وكفن بالكتان .. ورسم بالشمع صليب فوق شفتيه ، ووضعت ايقونة صغيرة "للمخلص" فى يديه المصلوبتين . وكان ثمة مصباحان كبيران مضاءان ، احدهما عند قدميه .. والآخر عند رأسه . وكانت عيناه مفتوحتين تبدوان كالزجاج ، فلم يكن هناك وقتها من يسبل جفنيه وهما لاتزالان دافئتين وقبل أن يستعصى ذلك .

ومنذ الصباح ، كان الاقارب والاصدقاء يتوافدون ، ومع العويل والنحيب دقت الأجراس تعلن حضور الموت المفزع ، ومن "آى جانى" ومن "بيتروكيفالو" ... ومن كل القرى المجاورة كان المسيحيون يتوافدون ليقبلوا الجسد .. ويودعوا "مانوساكاس" .

وكانت زوجته "كريستينيا" قد ارتمت فوق الجسد تنتحب وتضرب صدرها بيديها ، وكانت الجارات قد جئن ايضا ـ الأرامل ، والأمهات التى سرق منهن ملك الموت ابناءهن ، والفتيات اليتيمات ـ وكلهن اعاد الاحزان إلى قلوبهن مرأى الزوجة المكلومة ... فأسدلن شعورهن وشاركن فى المصيبة . وجاء "سيفاكاس" العجوز من "بيتروكيفالو" سائراً على قدميه .. مدججاً بالسلاح كما لو كان ماضياً إلى الحرب . كان يحمل غدارات من طراز عتيق وسكيناً ذات مقبض ابيض ، وشاحن البارود الذى كان يملكه ابوه بفتحته الواسعة . وتوقف عند مدخل البيت بلا حراك وقد رأى ابنه مسجى فوق نعشه .. ثم تقدم نحوه مادا يديه الضخمتين ليمسك بيدى الرجل الميت .. ويقول :

ـ كل شىء على مايرام يا"مانوساكاس" ، ولكنك تعجلت .. كان الدور دورى أنا .. فأحمل سلامى إذن إلى من سبقونى . قل لهم إننى قادم ايضاً .

ثم جلس عند مدخل البيت لحظات .. وقف بعدها ، وعاد صامتاً ، بعينين جافتين .. متجهاً إلى قريته .

وهدأ العويل والنحيب شيئاً فشيئاً ، فقد بدأت أجساد الناعيات تحس بالتعب .. وبدأت كل واحدة منهن تجد السكينة والراحة فى الكلام والإعياء

.. وتسللن ، واحدة إثر أخرى .. كل إلى بيتها لتأكل وتنام ! كن لايزلن أحياء ، وغدا ينتظرهن عمل شاق جديد . وحزن الآخرين هو فى البداية والنهاية حزن الآخرين وحدهم ! بل لعله أن يكون أحيانا مصدر سعادة حين يضرب الغدر ضربته فيوجهها للجيران دونهن ! وهكذا فلم يعد باقياً داخل بيت "مانوساكاس" سوى أصدقاء ثلاثة فحسب ، أخوه "فانوريوس" رجل المراعى ، وابنه بالعماد "سترايتس" ، رجل قوى الجسم فى الخامسة والثلاثين من عمره ، من سلالة صحيحة البنية .. ذو لحية مدببة وشفتين دقيقتين وجبهة عريضة . كان غريبا من "كيسامو" يبحث فى مقاطعة "لاسيثى" عن سوق "كروستالينيا" ، وهناك كان القدر قد هيأ له فى الانتظار فتاة من "آى جانى" رآها ترقص فأحبها قلبه .. وتزوجها ووضع "مانوساكاس" بيديه اكليل الزواج فوق راسيهما .. وبعد تسعة أشهر أنجبت الزوجة طفلها الأول وتم تعميده ، وهكذا أصبح "مانوساكاس" أبا وأخا فى العماد ، أما الثالث فكان "باتاسموس" عازف القيثار آخر سلالة من عائلة مستها السحره ! كان أبوه قد انجب تسعة من الأولاد ، وكان هو آخرهم ـ أنجبه فى شيخوخته . ولكنه كان رجلاً يتحرك بداخله سخط الله . لم يكن فى مقدور أحد أن يجاريه حين تبدأ مساجلات الهجاء فى الأسواق .. فما إن يصيبه أحدهم بضربة فوق معصمه حتى يبدأ أشعار الهجاء . وكان يعرف كل أسرار الآخرين وأوجه الضعف فيهم ، ومن ثم فقد كان الذعر يستبد بالرجال والنساء عندما يتوسط حلقات الرقص ويضع القيثارة فوق ركبتيه ، ثم يسرد نظراته الى الواحد منهم بعد الآخر قبل أن يفتح فمه ويبدأ فى الانشاد . وكان يعيش بمفرده كفارس عجوز .. دن أن يهتم به أحد ، كان الأول والأفضل عند كل سوق أو عرس أو حفل تعميد أو شراب ، وكان الجميع يتسابقون فى دعوته إلى الولائم والمجالس حتى يسلم من لسانه ،

وكان يعرف باسم "باتاسموس" أو "بعلزبول" (كبير الشياطين ـ المترجم) و"الحربة" و"الدبور" ! وكان قد وصل بالأمس إلى "آى جانى" من أجل تعميد الابن الثالث لـ "سترايتس" ، ولكن الذى كان فى انتظاره هو الشر والموت الذى كان يقيم بدوره هناك .

كان "باتاسموس" صديقاً لمانوساكاس لايفارقه ، وطالما افرغا سوياً

زقاق الخمر .. وأحالا الخراف المشوية إلى هياكل عظمية . كان يحبه .. ولم يحاول مرة أن يسخر منه أو يهجوه .

انحنى ينظر الى الجسد المسجى .. ثم تنهد وقال :
ـ حقا .. إن الرجل ليس أكثر من مثانة ـ تنتفخ وتنتفخ ، ثم فجأة ـ بوووف .. تنفجر وتذهب إلى الشيطان ... اقصد .. إلى الجنة .

.... قالها بسرعة يصحح كلماته ! فقد أحس بالخجل أمام الجسد وأحنى "سترايتس" راسه دون أن يقول شيئاً ، بل اخذ منديله واخذ يهش به الذباب بعيداً عن أنف الميت وشفتيه . أما "فانوريوس" فقد وقف واضعاً ذراعه حول كتفى "كريستينيا" يساعدها على الوقوف .. ولم ينس طبعاً أن يرفع باليد الاخرى بقية الحاضرات :
ـ إلى الخارج يانساء .. هذا يكفى ! إلى الخارج والزمن الصمت ياشقائق النحس . نحن الثلاثة سنحرس الجثة طوال الليل .

وانفجرت النسوة متحدات فى صرخة واحدة محاولات المقاومة ، ولكن الراعى رفع مخالبه وساقهن مثل القطيع إلى ركن داخلى بالبيت ، ثم عاد وجلس الى قدمى الرجل الميت .

وظل الثلاثة يحدقون فى جسد القتيل دون أن ينطق أحدهم بكلمة ، فقد كان كل منهم يفكر ، سترايتسس فى زوجته .. وفى بغلته التى ابتاعها أول امس واتضح له أنها غاية فى الوحشية ، ترفس دائماً .. وقد تقتل أحد أولاده يوما ما . أما "باتاسموس" فقد كان ينشىء فى ذاكرته قصيدة جديدة ، ترنيمة هى مزيج من الحقيقة والكذب .. كيف أن "مانوساكاس" صارع سبعة من الأتراك وقتل منهم ستة !

وأما "فانوريوس" فقد كان الجوع يستبد به . وكان قد رأى فوق حائط حجرة الكرار فى منزل شقيقه بعض نقانق لحم الخنزير معلقة فى الركن الى جوار "حمدانة" صغيرة من شراب الراكى . كما أن كريستينيا كانت قد أعدت امس خبزاً لايزال إلى اليوم طرياً فى السلال ينشر رائحته اللذيذة

... وإمتلأ فمه باللعاب وعيناه لاتزالان مثبتتين على الجسد وعقله مشغول بالتفكير كيف يدير الحديث فى اتجاه النقانق والراكى ؟! .

كان الليل قد انتصف ، وثمة ريح شمالية بدأت تحرك أوراق أشجار الليمون فيسمع لها حفيف فى فناء الدار وتبرد أجفان حراس الميت . وكانت النسوة قد أخلدن إلى الهدوء . وبدأت بومة فوق السطح تنعق ، كما بدأت كلاب الجيران تنبح وهى تتشمم رائحة الموت .

وكان "فانوريوس" قد بدأ يحس بوخز الجوع فى أحشائه ، ولم يكن قد استطاع أن يصل بعد إلى طريقة يدير بها الحوار نحو النقانق والراكى . وفجأة انفجر صارخاً :
- يارفاق .. مارأيكم ؟ لقد وقع بصرى على بعض حبال النقانق وعلى "جمانة" من الراكى فى الكرار . مارأيكم فى أن نشرب من أجل خلاص روحه ؟ .

وتساءل "باتاسموس" وهو يحك بطنه التى بدأت تضطرب :
- ولم لا ؟ الموتى وحدهم هم الذين لايشربون . هيا يا "فانوريوس" والله معك ! هيا الى الكرار ! مارأيك يا "سترايتس" ؟

- أمام الجسد ... اليس ذلك خطأ ؟
- أولا .. نحن سوف نشرب خارج الحجرة ، لا لشىء إلا لكى يمنحنا الشراب القوة حتى نواصل حراسة الجثة إلى الصباح . ثم إننا سوف نشرب من أجله هو ... هيا يا "فانوريوس" .. اسرع إلى الكرار بالله عليك !

وكان "فانوريوس" قد نهض بالفعل ، وأمسك بالمصباح الذى كان يضىء عند قدم الميت واتجه نحو الكرار ... ثم مالبث أن عاد يحمل فى يديه حبل النقانق وجمدانة الراكى ، ويعلق ايضا فى حزامه ثلاثة اقداح .
وقفز "باتاسموس" وقطع بضع أطوال من حبل النقانق واتجه بها الى ساحة الدار حيث أوقد ناراً ليشويها ... وأصبحت رائحة الدنيا أحلى !!

وقال "باتاسموس" وهو يلف القطع المشوية اللذيذة فى أوراق الليمون :

- ناشدتك الله أن تغلق الأبواب يا"فانوريوس" حتى لاتشم النسوة الرائحة وكان "فانوريوس" قد ملأ الأقداح حتى الحافة ، بينما اتجه "سترايتس" إلى الكرار ليحضر رغيفاً من الخبز .

وأمسك كل منهم بقدحه .. وتلامست أصابعهم بدلاً من الأقداح خشية أن يحدث تلاقيها صوتاً .

وقال "سترايتس" : بارك الله روحه ..

وقال "باتاسموس" : فى صحته ياأصدقاء ! ونحن أيضا !

وقال "فانوريوس" : اشربوا فى جرعة واحدة . لقد أرسل الله الجمدانة من أجلنا - ملأى الى نصفها . وداعاً ياشقيقنا "مانوساكاس" .

وشربوا حتى آخر قطرة ، ثم بدءوا يأكلون النقانق . واستل "فانوريوس" مدية الرعى وقطع الرغيف الى ثلاث قطع .. وكانت الشهية قد أصبحت مفتوحة تماما ، فبدءوا يشوون البقية الباقية من النقانق بينما أحضر "فانوريوس" جبناً أبيض من الكرار ، وأخذ يداعب الجمدانة وقال "باتاسموس" :

- فلنشرب فى صحة الأرملة ، كم أنا حزين من أجلها . وسوف أنظم قصيدة لها .

- فى صحة الأرملة !

وشربوا ..... وقال "سترايتس" :

- وفى صحة الكابتن "ميخاليس" ! هو الذى سوف ينتقم لدم أخيه . فى صحته !

وقال "فانوريوس" :

- هيا يا أصدقاء ، هيا نشرب فى صحة كل من نعرفهم ، سواء اكانوا موتى أو أحياء !

وشربوا فى صحة الأقارب ، ثم الأصدقاء ، ثم الموتى من الآباء ، ثم فى صحة الجيران .. وبعدها بدءوا يشربون فى صحة مقاتلى كريت العظماء - كوراكس ، حاجى ميخاليس ، كرياريس ، داسكالويانيس ... وشربوا وبعدهم شربوا ثلاثة اقداح فى صحة دير "اركادى" .. ثم مالبثوا أن

رجعوا إلى عام ١٨٢١ وشربوا في صحة "لولـولوتـروينس" و"كاريسكاكيس" و"مياوليس" و"أوديسوس أندروفوس" .... وفرغت الجمدانة أو كادت وقال "باتاسموس" مستنداً إلى قليل من التعليم :

ـ فلنشرب في صحة هيلاس القديمة

وقال "فانوريوس"

ـ نخب كئيب

وقال "سترايتس" معارضاً :

ـ هذا غير صحيح وحق المسيح .

ـ بهدوء .. بهدوء ، وهمس ولن يسمعنا أحد ، هكذا .... ثم بدأ يقلد حركة قوس الرباب في الهواء .. وهو يغني في رقة :

ـ ياعديمة الوفاء ، فيك ..
تتلألأ حمرة الشفق

وردد الأثنان وراءه بسرعة :

ـ تتلألأ حمرة الشفق
حينما قبلتك ، وحين قلت لي
الوقت ليل .. والليل وقت الحب

وصاح "سترايتس" بعد أن أغلق فمه وتوقف عن الغناء فجأة :

ـ أهذا هو الشعر الذي نظمته في الأرملة ؟ ألا تخشى الله ؟ .. ألا تعرف أغنيات مقدسة ؟

ـ تريد أغنيات مقدسة ؟ بكل سرور !

واستدار إلى الرجل الميت .. ورسم علامة الصليب ، ثم بدأ : هلم الى القبلة الأخيرة ... وما كان يبدأ حتى غلبهم البكاء .. وانهاروا جميعاً فوق الجسد .. يقبلونه وسط دموعهم .

وردد البيت أصداء ترنيمات الصلاة . وفتح باب أطل منه رأس إمرأة معصوب . ولكن "باتاسموس" أشار اليها غاضباً .. فأختفت على الفور .

ثم أحس الثلاثة أن النحيب طال بما فيه الكفاية ، فنهضوا واقفين صفاً

أمام الرجل الميت ينظرون اليه وقد احسوا بأنهم أكثر راحة . وبأن قواهم قد تجددت بفعل "الراكى" والنقانق .. والبكاء . وبصق "فانوريوس" فى راحتيه ، وقال وهو يشير إلى عينى الرجل الميت :

- ياأصدقاء ... هلا قفزنا من فوقه ؟

وصاح "سترايتس" و"باتاسموس" معاً :

- نعم الرأى ! هيا نقفز من فوقه !

وجذب كل واحد منهم أطراف سرواله حتى تصبح سيقانه طليقة ، ثم رفعوا النعش ووضعوه فى ساحة الدار ليتسع المكان اكثر ..

وقال "فانوريوس" :

- انا أولا .. فهو شقيقى !

واتخذ مكانه بالقرب من الباب المؤدى إلى الشارع ، ثم عاد يبصق فى راحتيه وانطلق يعدو حتى إذا اصبح قريباً من جسد الميت ، قفز قفزة واسعة حتى ارتطمت رأسه بخشبة الباب العليا دون أن يحس هو بذلك .. ثم توقف فى منتصف الحجرة ، وقال مزهوا :

- لقد قفزت من فوقه .. هذا دورك يا"ستراپتس" !

وانطلق "ستراپتس" يعدو بجسده الممشوق وقفز فوق الجسد ثم استقر على أطراف اصابع .

- جاء دورك يا"باتاسموس"

ولكن قلب "باتاسموس" اهتز .. وظل يحدق في النعش .. كيف بحق الشيطان يمكن أن يقفز المرء إلى هذا الارتفاع ؟ .. وقال فى خوف :

- لن اقفز ..

وصاح "فانوريوس" :

- الا تخجل من نفسك ياكابتن "دبور" ! أنت كريتى أم لا ؟ إقفز !

- لن اقفز .. قلت لكما . انا عازف قيثارة فحسب .

- اليس لديك إحساس بالشرف امام الميت .. أيها الوثنى ؟ إنها إهانة ! أم أن هذه هى كل حدود صداقتك و"مانوساكاس" ؟ اقفز حتى ولو سقطت فوق الأرض ميتاً .

وحك "باتاسموس" صلعته ، وتذكر كم كان يحب "مانوساكاس" واستيقظ فيه الإحساس بالشرف ، فصاح :

- حسن ، سوف أقفز ! هوب ! هوب !

قالها يحاول أن يمنح نفسه الجراءة ! ثم بدأ يعدو ليصل إلى اقصى سرعة مطلوبة ولكنه ما أن أصبح قريبا من رأس الرجل الميت حتى خيل اليه أن النعش قد ارتفع فأصبح يطاول السقف ! وتعثرت ساقاه فى قوائم النعش .. وانتقلت قوة اندفاعه الى الجسد المسجى فتدحرج إلى الأرض ووراءه "باتاسموس" نفسه .

وقال "فانوريوس" :

- لقد أهنتنا .. قم إذن وأحلق لحيتك .

ثم ركله بقدمه وهو يصيح :

- "سترايتس" ! .. تعال وساعدنى !

ورفعا جثة الميت وأعادا لفها فى اكفانها من جديد ، ثم وضعاها داخل النعش المفتوح بعد أن ثبتا الأيقونة مرة أخرى فى يديه .

وقال "فانوريوس" وهو يمر بيده على شعر اخيه ولحيته :

- يا أخى .. مهما كان الأمر فأنت الآن ميت ، ولم يلحق بك ضرر من هذا الذى حدث .

ثم انحنى والتقط الجمدانة ورفعها الى شفتيه ، وكانت لاتزال بداخلها بقية من "الراكى" ، وشرب الثلاثة ، وعادوا فجلسوا حول جثة الميت .. وبدأت رءوسهم تميل الى صدورهم ، وأجفانهم تسبل شيئا فشيئا ، حتى احتضنهم النوم .

وفى اليوم التالى - وقبل أن ترتفع الشمس كثيرا - كان الكابتن "ميخايليس" قد وصل إلى ساحة دار "مانوساكاس" وقد ارتدى قميصاً أسود ، وانتعل حذاء أسود برقبة ، وعصب رأسه بعصابة سوداء .... وكأنه ملك الموت ، وازاح النساء جانباً وهن مجتمعات حوله ينتحبن ، ثم اتجه الى الداخل وقبل الرجل الميت وظل واقفاً أمامه يحدق فيه فترة طويلة . وكانت

النساء من الجارات قد أحضرن من الحقول فى ذلك الصباح ، زهور البازلاء والحبق والنعناع والمرجريت وغطين بها الجسد المسجى .

وظل الكابتن "ميخايليس" واقفا يحدق فى أخيه دون أن يتكلم ، وكذلك كان الرجل الميت يحدق فى الكابتن "ميخايليس" بعينين مفتوحتين ، بينما وقفت كريستينيا وأولادها وبناتها ، و"فانوريوس" و"سترايتس" و"باتاسموس" والجارات .. فى دائرة حولهما ينظرون جميعاً إلى الأخوين : كيف يتحادثان معاً بلا كلمات .

واستغرقت تلك المحادثة الصامتة الفريدة لحظات طويلة ، حتى إذا أحس الكابتن "ميخايليس" بأن احزانه اشتدت ، دخل إلى المنزل واجتاز المطبخ الى الساحة ، وزار الحظيرة ، ولمس قطيع الرجل الميت وفرسه ، ثم اتجه إلى غرفة نومه ورأى السرير العريض وطقم السلاح والصور المقدسة ، ثم اتجه ببصره عبر النافذة إلى أسطح القرية التى تقوم فى وسطها كنيسة القديس جون الصغيرة ووراءها تلوح "بتروكيفالو" قرية أبيه التى تقع فى حضن الجبل السامق . كان الكابتن ميخايليس يحتضن أخاه من كل جانب .. يحتضنه فى خياله .. ويستحضره فى مخيلته فى أعماق نفسه . وبدأ يهمس مرة بعد أخرى خلال تجوال بصره : وداعا ياأخى "مانوساكاس" .

وجاء القس ورفع النعش .. وتشبثت به النساء يحاولن منع الخروج به وتهاوت "كريستينيا" الى الأرض مغشياً عليها . وبينما كانوا يحضرون الماء والعطر لافاقتها من اغماءتها ، كان حاملوا النعش قد اجتازوا عتبة الباب .. واقتربوا من المدافن الخضراء فى أقصى القرية .

وتوافد الرجال والنساء من "بتروكيفالو" والقرى الأخرى المجاورة ـ الرجال مدججين بالسلاح ، والنساء فى السواد ـ ليلقوا نظرة الوداع على كبير القرية الذى هوى . وغادر الأتراك قرى المنطقة يوم الدفن . وأخذت النساء يمزقن شعورهن ، ويحكين الحكايات عن فضائل الرجل المقتول بينما وقف "سيفاكاس" العجوز قابضاً الرأس المزدوج لعصاه .. ثم سار خلف رأس الرجل الميت وقد جفت الدموع فى عينيه . كان يدرك تماماً مايقصده ملك الموت : فليس هناك مايدعو إلى التوسل إليه وهو الذى

لايملك أن يجدى المخلوقات نفعاً ، فهو الموت ، جامع الديون .. الدواء الذى يبعث به السلطان ، الذى يجلس فى السماء ويمسك بسجلات الضرائب ! . وهكذا فقد سار فى طريقه بلا كلمة أو دمعة ، ضاربا بعصاه الحجارة .. حتى توقف أمام حفرة القبر بلا إحساس .

وردد القس الكلمات الأخيرة أمام القبر فى عجلة ، ثم رفع يده مانحاً البركة وتناول قبضة من التراب ألقاها فى القبر أنزل الجسد بعدها .. وانحنى الجميع ليتناول كل منهم بدوره قبضة من التراب يهيلها داخل القبر .

وتقدم الكابتن ميخايليس الى حافة القبر .. وقال فى صوت خفيض وقد برقت عيناه دون أن تدمعا : وداعا ياأخى "مانوساكاس" ولتسمع جيداً ما سأقوله لك . لاتزرنى فى نومى لتتهمنى وتثيرنى . أنا أعرف واجبى جيدا ، فلا تقلق .

ثم صمت لحظة يفكر ... ولكنه لم يجد شيئاً جديداً ، فعاد يقول :

ـ أنا أعرف واجبى ... فلا تقلق وكن صبوراً !

وأحس فجأة بأن قلبه قد ثقل .. فصاح :

ـ وداعا "مانوساكاس" !

وقبل أن ينفض الجميع ، كان هو قد عاد وحده الى دار "مانوساكاس" ، وهناك امتطى صهوة فرسه . وفى ذات اللحظة أسرع نحوه "تيودورس" الابن الأكبر لـ "مانوساكاس" ولحق به عند الباب المؤدى إلى الطريق .. وسأله وهو يتشبث بزمام الفرس :

ـ الديك أوامر لى ياعمى ؟!

وانحنى الكابتن "ميخايليس" قليلاً وهو ينظر اليه .. فعاد يسأله :

ـ أقصد .. كيف أثأر لدمه ؟

ـ كم عمرك ؟

ـ سبعة عشر عاما ..

ـ فابق إذن فى عشك !

ثم إنطلق عبر الطريق الرئيسى العريض .. متجها إلى "ميجالوكاسترو" .

الفصل السابع

.. ومضى ابريل بما حمل من متع ومخاوف بشرية وبأعياد المسيح . وجاء مايو بما يحفل به من محاصيل تنضجها الشمس ـ البطيخ والكرز وعناقيد الكروم المنتفخة وتلك التى لاتزال قطافاً لم تنضج بعد . وارتفعت حرارة الجو ، وسال عرق الأتراك والكريتيين معاً ... وجففوا عرقهم فى النسمات الباردة . وظل "نورى" طريح الفراش وحبيس آلامه . وظل "مانوساكاس" مخبوءا فى قلب الكابتن ميخايليس . وكانت الثورة ف "ميجالوكاسترو" كوميض النار خلل الرماد ، وفى الليل كان كبار الس يجتمعون فى المطرانية ليتناقشوا حول الموقف الذى يتهدد اليونانيي بالخطر ، بينما يجتمع البكوات ورجال الدين المسلمون فى قصر الباشا فر الظهيرة .. يدرسون انجع الوسائل لسحق اليونانيين .

ومرة أخرى أصبح قدر كريت معلقاً بشعرة .

وفى يوم من آخر أيام مايو ـ فى التاسع والعشرين على وجه التحديد ـ بدأت الأجراس تدق فى رتابة وحزن وسط غبش الشفق ، واستيقظ المسيحيون من النوم ـ لقد عرفوا دائماً مايعنيه هذا اليوم من غم للمسيحية ـ واتجهوا إلى الكنيسة . وفى وسط الكنيسة وفوق صينية ضخمة ، استقرت كعكة تذكارية علق على جانبيها مصباحان كبيران مجللان بالسواد ، ورسم على طبقة السكر الرقيقة التى تكسوها باللوز والقرفة إسم رجل ميت : قسطنطين باليولوجوس ، فقد كان ذلك يوم ذكرى وفاته . ففى صباح يوم مظلم كهذا قتله جنود السلطان وسقطت القسطنطينية فى أيديهم .

وأحاط المسيحيون بالكعكة وهم يستمعون الى الموعظة الجنائزية

وتجمع أشهر أبناء ميجالوكاسترو فى ذلك المكان . فقد كان هناك الثلاثة الكبار - الكابتن الياس . وحاجى سافاس .. وبقة الورد ، معهم الكابتن بوليكسيجيس ، وشاريلاوس القزم ، والمثقف ايدومينياس ، وستيفانيس قبطان البحر ، وكاساپاكيس الطبيب وارسطوطاليس البقال ، وخلف هؤلاء وقف الأقل أهمية : ديمتروس ، وكراسوچورچيس ، وماستراپاس وكاچابيس وڤيندوسوس ، وڤوردجانوس وبترودولوس ، والسنيور پارسكيڤاس الحلاق .. وقد وقف معهم الباقون : العامة .

حتى الكابتن ميخايليس كان موجوداً - ولكنه لم يدخل الكنيسة ، وإنما إكتفى بالوقوف فى الفناء مرتدياً قميصه الأسود .. وفى حنايا أضلعه قلب أسود ، فهو لم يكلم إنسانا منذ شيعت جنازة أخيه ، وكانت دماؤه لاتزال تغلى ، وكان عقله لايزال بالضغينة يدير آلاف الأساليب ويفكر فى آلاف الفرص التى يستطيع ان يقتنص بها "نورى بك" ويثأر للجريمة التى اقترفها : فلم يعد نورى بك بالنسبة اليه شقيقه بالدم ، فقد استحال ذلك الدم الى ماء وانقطع الخيط الاحمر الذى كان يربط بينهما . وكان قد عرف أن نورى بك أصيب بجرح بالغ وأنه لايزال فى ضيعته الريفية يغالب الموت ، وكان قد أرسل "على أغا" إلى هناك ليتجسس ويوافيه بأخباره بعد أن يسترق السمع بين الخدم ويعرف ما إذا كان جرحه خطيراً حقاً وما إذا كان لايزال طريح الفراش . ولقد عاد اليه "على أغا" فى ذلك اليوم لاهث الأنفاس يحمل آخر الأنباء : "تلك هى الحقيقة ياكابتن ميخايليس ، إن الرجل المسكين مصاب بجرح خطير" .. "أين ؟ .. وكيف عرفت ذلك ؟" ... "فى الخصيتين ياكابتن . ويبدو أن أخاك قد طعنه فى هذا المكان ، وقد دهن مصطفى بابا الجرح وضمده ولكن الألم يعذبه حتى ليظل يئن ليلاً ونهاراً . وقد سمعت أنينه بنفسى وأنا بالباب الرئيسىّ ياكابتن" وأصيب الكابتن ميخايليس لحظتها بخيبة أمل . فهو لن يمسه بسوء طالما هو على هذا الحال ، وعليه أن ينتظر إذن حتى يستعيد نورى قوته ، ترى هل سينتظر طويلاً ؟ إنه كفى عجلة .. ولهفة ! وإنه ليعذب عقله كل ليلة . وحين سمع نحيب الأجراس فى هذا الصباح قرر أن يذهب إلى الكنيسة "سوف يلقى تيتيروس خطابا ويجعلنا أضحوكة أمام الناس" ، وارتدى ملابسه فى

عجله وأسدل ذؤابات عصابة رأسه فوق عينيه فلم يكن يريد أن يرى أو يحيى أحدا ، ترى أيمكن أن تكون لدى هذا المدرس الصغير - قطعة الجبن - أدنى فكرة عما يمثله سقوط القسطنطينية وعن معانى البطولة والنضال ؟ .

واستند الى نافذة بالمدخل يستطيع من مكانه عندها ان يرى المطران من فوق رءوس الحاضرين وهو يجلس مرتدياً الملابس السوداء وقد لف حول قبعته وشاحا أسود طويلاً .

وفجأة انتهت طقوس الاحتفال بالذكرى ، وأشار المطران الى "تيتيروس" وازداد قلق الكابتن ميخاليس وهو يرى أخاه يعتلى المنصة المرتفعة ويخرج من جيب سترته الداخلى حزمة من الأوراق .

وبدأ "تيتيروس" يتكلم . تنحنح وسعل فى البداية حتى أصبح صوته مسموعاً بالكاد . ولكنه مالبث أن "سخن" شيئاً فشيئاً وامتلأ صوته بالقوة والتعبير حتى كادت ابراج القسطنطينية تستبين لأعين السامعين واصوات أجراس "اياصوفيا" تتناهى الى اسماعهم فى توسل مثير ، وحتى كاد الحاضرون يرون المعركة الأخيرة رأى العين ويتابعون تفاصيلها : المعركة التى ملأت قبور المدينة الواسعة بالدماء ، وبدا كما لو كانت رأ الأمبراطور قسطنطين الدامعة تلوح من خلال سحائب البخار حول الصيد التى تحمل الكعكة . كلهم رأوها ! .

وجفف الكابتن ميخاليس دموعه التى سالت فجأة ، وأخذ يتطلع الى اخيه فى ذهول : كيف يمكن أن يختفى هذا اللهيب خلف هذه العوينات الزجاجية ، وفوق هذه السراويل الضيقة .. وتحت هذه الأكتاف المعقوفة ؟

وعندما انتهى "تيودورس" من إلقاء خطابه مسح عويناته وأجال بصره فى النسوة الحاضرات واللائى كن يقفن خلف الرجال ، باحثا عن زوجته "فانچيليو" وحين تأكد من أنها ليست بينهن جلس وهو يتنهد بعمق .

واتجه الكابتن ميخاليس الى أخيه بعد أن انتهى الحفل وقال :

- أنت لم تجلب لنا العار
ولم يسمع "تيودورس" جيداً ماقاله أخوه ، فقد كان اللهب لايزال مستعراً فى قلبه ... فسأله :
- ماذا تقول ياميخايليس ؟
وجاءه الجواب :
- لا شىء .

وسار الأثنان بضع خطوات ، وكان المدرس متعباً وهو يسير فى بطء فى الطريق الى بيته بينما الكابتن ميخايليس ينظر اليه بطرف عينه . كم تغير منذ أن تزوج ! فقد زاد انحناء ظهره كما بدأت ساقاه تتقوسان .
وسأله فى رقة :
- كيف الحال فى البيت ؟

ولم يجبه "تيودورس" على الفور ، ولكنه ما إن سمع السؤال حتى احس بأن اللهيب فى صدره قد زال ... واخيرا قال :
- انها ليست حياة ابدا ياميخايليس .
- لماذا ؟ ماذا يفعلان بك ؟
- لاشىء ، انهما لايتبادلان معى الحديث ، ولا يلتفتان الى ... ولايقولان شيئا ، وعندما أدير لهما ظهرى اسمع ضحكاتهما .
- الست اذن سيدا فى بيتك ؟! اى صنف من الرجال انت ؟ اقذف به الى الخارج !
- إذا انا فعلت ذلك خرجت هى معه .

ووصلا إلى بيت "تيودورس" ، وتوقف الكابتن ميخايليس وهو يسأل :
- هل هما معا بالداخل ؟
- إنهما لايفترقان ، انه لم يذهب الى الكنيسة وهى ايضا لم تذهب . اهذه حياة ياميخايليس ياأخى ؟

واحس الكابتن ميخايليس بالأسى من اجله .
- اسمع يامدرس : سوف ادخل الآن واعزف للاثنين لحناً سترى كيف يتراقصان عليه !
وصاح المدرس فى هلع :
- بحق السماء لاتفعل ، إذا انت فعلت ذلك ضعت انا ! اصبر قليلاً ..

وسوف افعل انا شيئا .. وسترى بعد مايكون .
- وماذا سنرى ؟!

وادار "تيودورس" راسه بعيدا وقال :
- سوف نرى
ثم اتجه نحو الباب وامسك بمطرقته . وصاح الكابتن ميخايليس فى دهشة :
- ماذا ؟! اليس معك مفتاح ؟!
- كلا .. إنهما لم يسمحا لى بذلك

وانتزع الكابتن ميخايليس المطرقة من مكانها بجذبه واحدة ، ثم طوح بها في عرض الشارع وهو يقول :
- اريد ان ارى معك مفتاحاً ابتداء من الغد ..
ثم اتجه فى خطوات متثاقلة نحو بوابة الميناء

كان الكابتن بوليكسيجيس ينتظر فى حانوت الكابتن ميخايليس ، وقد وصل الى هناك بمجرد ان انتهى الحفل التذكارى ليتحدث معه . وكـ موضوع الحديث يبدو امامه صعباً للغاية حتى لقد ظل يذرع المكان جيـ وذهابا . وكان قد ارسل "شاريتوس" ليحضر له قدحاً من القهوة ، كيف يمـ ان يبدأ دون ان يتوقع غضبه متفجرة من غضبات الكابتن ميخايليس ؟ إ ليحبه ويحترمه .. وانه لحريص على الا يفقد صداقته ، بل على العكس ذلك إنه ليحرص على ان يقوى اواصر هذه الصداقة ، ومن اجل ذا سيتحدث اليه اليوم . وكان قد ربط قطعة قماش حريرية سوداء بطربوشـ علامة الحداد على فقد ابن عمه "مانوساكاس" ..
- اسرع يا"شاريتوس" الى البيت وانظر ما إذا كان عمك هناك . قل له .

وقبل ان ينتهى ، كان الكابتن ميخايليس عند مدخل الحانوت .. كانت كلمات "تيودورس" لاتزال تعمل اثرها فى صدره ، ولكن كان يثيره اكثر هو حكاية المفتاح الذى يرفضان ان يحمله اخوه ! .
وحدق فى الضيف المبكر غير المتوقع وزم شفتيه ... ثم قال فى برود :
- صباح الخير ياكابتن بوليكسيجيس .
- سعيد لرؤيتك ياكابتن ميخايليس .

والقى الكابتن ميخايليس جانبا بعصابة الراس ، وخلع معطفه ثم امسك

بدفتر حسابات كان ملقى فوق المنضدة . واتخذ منه مروحة لنفسه .. ولم يقل شيئا .

وقال الكابتن "بوليكسيجيس" وهو يحاول ان يكسر الصمت :

- يالشدة الحرارة ... !

ولكن الكابتن ميخايليس لم يقل شيئا ، ولكنه اخرج صندوق الطباق من حزامه وبدا فى بطء وبرود يلف سيجارة ، كما لو انه ليس مستعداً لسماع الآخر . والقى الكابتن "بوليكسيجيس" بعيداً بسيجارته .. وسعل وهو يزيح مقعده إلى الخلف .

- كابتن ميخايليس .. اريد ان اقول لك شيئاً .

- انا منصت ..

- إننى اتوسل إليك باسم صداقتنا القديمة ياكابتن ميخايليس . ان تنصت فى صبر . قد يطول حديثى حتى تفهم كل شىء .

- انا منصت ...

- لقد حاولت ان اقول لك ذلك من قبل ولكنك كنت تنفجر فى كل مرة ولاتدعنى أكمل حديثى ، ولكن الأمر اصبح الآن هاما ... فانصت إلى فى صبر ياأخى .

- قلت لك إننى منصت .. فلا داعى إذن للمقدمات .

وصاح الكابتن "بوليكسيجيس" فى محاولة للتخلص من الصبى الشرير الذى كان قد اعتلى لفة الحبال .. وارهف اذنيه الكبيرتين !

- شارنيوس .. اسمع ايها الرجل الصغير .. إذهب واحضر لى بعض الطباق وورق السجائر .

وتزحلق شاريتوس فى تافف من فوق لفة الحبال .. وخرج .

- لدى شىء اريد ان اخبرك به ياكابتن ميخايليس .

- حسن .. فهاته إذن .

- عن أمينه !

- كف عن هذا الحديث المخجل ياكابتن بوليكسيجيس فانت تعرف انه لايعجبنى ، إن حكايا الحب وحديث النساء هو شانك انت وليس من شانى ، لقد جئت إلى هنا فانا إذن لا استطيع طردك . ولكن عليك أن تغير الموضوع .

- انا لا اخجل من الحديث فى هذا الأمر ، ارجوك ان تهدا ياكابتن ميخايليس دعنى اكمل حديثى .. امينة تريد ان تصبح مسيحية .

والتقط الكابتن ميخايليس حبة لوز كانت ملقاة بالصدفة فوق المنضدة .. وسحقها بين اصابعه .

ـ لو انك كنت من الفرنجة لتحولت هى كذلك ، ولو انك كنت يهودياً لتحولت هى الى اليهودية ، حتى المسيحية تجعلها موضوعا للهزء ؟

ـ ولكنها تريد ان تكون مسيحية ، وسوف اتزوجها .

ـ تتزوجها ؟!

وتحرك فى تشنج وهو يبصق على الأرض كما لو كان احس فجاة بالمرض ورفع الكابتن "بوليكسيجيس" طربوشه ـ وقد جعله الغضب يحس أنه كبير كبير ! وسحق الطربوش بين يديه وهو ينظر إلى الكابتن ميخايليس الذى كان لون وجهه يتغير .. "فلتثر زوابعك بداخلك إيها الدب العجوز .. سوف تسمع ما اريد ان اقوله سواء أردت ام لم ترد" .

ووقف الكابتن ميخايليس وكانه يعطى إشارة الخروج لضيفه . ولكن هذا لم يتحرك .

ـ انا هنا ياكابتن ميخايليس لأسالك ان تبعد العروس .

وامسك الكابتن ميخايليس بلحيته وهو يقول :

ـ انا ؟! إنك لتجعلنيى اخجل من هذه اللحية ! عليك "بافنديناروث الخيل" فهو الذى يصلح لهذه المهمة .. إنه يناسبها تماماً !

وقفز الكابتن بوليكسيجيس واقفا فلم يعد يحتمل اكثر من ذلك ، ووضع طربوشه مائلاً فوق راسه وامسك بالمقعد وضرب به الأرض وهو يصيح :

ـ لقد تماديت ياكابتن ميخايليس ، انت رجل .. هذا صحيح ، ولكننى انا ايضا رجل ، انت قاتلت فى الحرب ، وانا ايضا فعلت ذلك ، انت تقتحم مقاهى الأغوات وانت فوق صهوة فرسك ، وانا اقتحم بيوتهم . والجراة متوافرة إذن فى العملين ! وإذا كنت لاتضحك ابدا فذلك لايعنى انك رهيب قاس ! وإذا كنت انا اضحك فذلك لايعنى اننى مهزار ، وعندما اكلمك عن المراة التى انوى الزواج منها فإننى اتوقع منك ان تظهر ولو شيئا من الاحترام .

وكبح الكابتن ميخايليس جماح نفسه ، وحدق فى قوة فى عينى الكابتن بوليكسيجيس وهو ينصت اليه . ولم يحاول ان يرفع يده ليغلق فمه ، ولكنه ظل ينصت ، وكلما انصت اكثر .. قلت حدة احتقاره له . لقد كان يحس فى البداية انه يود لو امسك به من قفاه والقى به الى الخارج مع سيل من الاهانات لو انه استمر يتوسل اليه ويصفه بانه اخوه .. ويتمسح فى قطعة

القماش الحريرية السوداء فى طربوشه ليستميله . اما وقد بدا الآن يتكلم كالرجال في قوة ، فإن إحساس الأخوة القديم نحو هذا الكابتن المتهور استيقظ في صدره . وعادت امام عينيه ذكريات يوم اقتحما صفوف الجنود الأتراك دون أن يلتفت واحد منهما الى الحلف ليرى ما إذا كان احد يتبعه . ثم إنهما لم يكونا شبيهين من قبل ابدا ، ورغم ذلك فقد اصبحا صديقين وقد قال له الكابتن بوليكسيجيس يوما وهو يضحك : "انت تريد أن تحرر كريت بالزئير ، وانا أريد أن أحررها بالغناء" .. ولكنهما افترقا بعد الحرب ، وكان الكابتن ميخايليس إذا رآه من بعيد ادار وجهه او شاتمه . ولكنه يراه اليوم رافعاً راسه عاليا .. يقاوم ! ومن ثم فقد عادت الصداقة من جديد . فرفع يده وامسكه من وسطه باصبعين وقال :

ـ كابتن بوليكسيجيس .. انت محارب ، وانا اعرف ذلك جيدا ، لاباس إذن ، انا لا اريد أن اتشاجر معك .

ـ ولا انا ياكابتن ميخايليس ، ولكنك فى بعض الاحيان تكاد تجعل روحى فى انفى .. حتى لأكاد انفجر !

ـ لا باس الآن ..

ثم دفعه بذات الأصبعين نحو الباب .. فى رقة ، ولكن فى حزم .
وصاح الكابتن بوليكسيجيس .. وهو يتشبث بالأرض :
ـ انت تطردنى ؟!

ولم يكن مستعداً للخروج ، فقد احس بان هناك شيئاً لم يقله بعد ويقفز الى شفتيه :

ـ مازال عندى ما اريد ان اقوله لك ياكابتن ميخايليس . شيء واحد فقط ثم اخرج .

ـ حسن .. قلة إذن واسرع ..

ـ امينة نفسها هى التى ارسلتنى لأسالك ان تتفضل بتهريبها .

وانفجر الكابتن ميخايليس :

ـ هى نفسها ، هذه الـ

واحس بالتقزز ، فانشب مخالبه فى صدر الكابتن "بوليكسيجيس" وقد اصبح صوته فجاة عميقاً رهيباً .

كفى ! قلت لك كفى ! ولا كلمة واحدة !

وكانا واقفين بالباب ...

وقال الكابتن "بوليكسيجيس" :

أدعو الله ان تندم على هذا اليوم ياكابتن ميخاليليس !

. رفع راسه إلى السماء التى كانت تتوهج بيضاء ناصعة فى اشعة الشمس .

بينما كان سكان المدينة فى مساء ذلك اليوم يعلقون ابوابهم ويتحلقون موائد العشاء ، كان ثمة سيدة تقترب فى خطى ثابتة وهى تمسك بمظلة مفتوحة من باب قصر "نورى بك" .. تدقه . وفتحت المراة المغربية الباب الذى كانت تختفى خلفه .. فتحته على الفور وسمحت لها بالدخول .

وقالت العوانس الثلاث اللائى كن خلف ثقوب التلصص "امينة لاتزال مريضة ، فقد جاءتها الآن حميدة مولا لتعودها" .

وتقدمت المراة المغربية واجتازت الساحة وهى تحس بالبهجة والانطلاق . كانت روحها فى حديقة ! فقد كان الحارس هناك فى الضيعة الريفية يخدم سيده "نورى بك" وكان المصباح الأخضر الأحمر بالتالى مطفا وكانت الورود والفاكهة تنشر عبقها وسط الظلام بينما السيدة المغربيه ترقص من البهجة لأن سيدتها قد اختارت المسيحية . ولسوف تدخل الجنة يوما ما . وإذا كان الرب رحيما بها فسوف ينظر اليها هى الأخرى بعين العطف ويدخلها من ذات الباب الذهبى حتى تستطيع ان تخدم سيدتها فى الأبدية .

والقت السيدة الأخرى عباءتها . ورفعت الغلالة عن وجهها . وطوحت بالمظلة . . وكشفت عن نفسها . وإذا هى الكابتن بوليكسيجيس" !

وقالت المراة المغربية :

- سيدتى بالطابق الأعلى تنتظرك فى شوق ياكابتن ، ولديها شىء ممتع تريد ان تخبرك به .

ولكن الكابتن بوليكسيجيس" لم يكن طيب المزاج فى تلك الليلة . فى ليال اخرى كان يمازح المراة المغربية ويداعبها بمجرد ان تفتح له الباب ويحمل لها شيئا يكون قد احضره خصيصا لها . منديل راس حريرى او حزام مطرز أو حتى صندوقا مليئا بالحلوى التركية . أو كعكا معجوناً باللوز . ولكنه فى هذه الليلة خالى اليدين .. لايتكلم .

وصعد الدرج فى بطء - وكان من قبل يقفز كل ثلاث درجات منه فى خطوة

واحدة - وتتبع رائحة المسك لتقوده إلى سرير عشيقته الصغير ..

وسمعت امينة وقع خطاه وهي مسترخية فى الحر الشديد نصف عارية فوق الديوان وقد فتحت النافذة المطلة على الحديقة لتجيء نسمة هواء . ترى كيف كان جواب الكابتن ميخايليس .. هذا الدب المفزع ؟ كان الجواب يغلقها .... ثم ضحكت فجاة وهى تتذكر الانباء التى حملها اليها مصطفى بابا فى الصباح : "لن يصبح بعد رجلا . سوف يظل حاملاً لحيته ، ولكنه رغم ذلك لن يكون رجلاً . لقد فقد رجولته . لقد تحول نورى إلى نورينا !" ولم تستطع امينه ان تكتم الضحك وسوف يتحول صوته إلى صوت نسائى يامصطفى بابا ؟ .. وهل سيصبح له مع الزمن ثوريان ؟ "ربما" قالها الرجل وقد ادهشه ضحكها "ولكنه على اية حال لن يصبح إمراة" مسكين نورى بك .. صائد النساء الرائع ، اسد تركيا .. يالمصابه !؟ .. ثم صاحت ضاحكة : ماا سيصبح !؟ .. بغل !؟ .. ونظر اليها مصطفى بابا فى فزع ، ثم التقط كيسه الصغير وانطلق خارجاً .

واصبح الكابتن بوليكسيجيس" امامها الآن ..

وصاحت امينة وهى تهز كتفيها المعطرين :

- مرحبا ياكابتن .. يانجم مسائى ! .. مرحبا يازوجى ، عندى شيء ممتع ساخبرك به .

- وانا ايضا لدى مااقوله لك .

ثم استلقى إلى جوارها يحتضنها فى حرارة ويتنشق عطر صدرها العارى ، واختفت الدنيا . ولكنه كان ثقيلاً وجافاً ، واحست المراة بثقله .. وتمردت ، ودفعت راسه فى رقة ، وقالت :

- اريد اولا ان اسمع مالديك من اخبار . كنت عبوساً عندما قدمت هل رفض ؟ .

وابتعد بوليكسيجيس" عنها . وعادت الدنيا من جديد .. بكل متاعبها .

- نعم .. رفض

- هذا الدب المتوحش الملعون ! ولكن لماذا ؟

- لم يقل لماذا ، فقط مزق دفتر حسابات كان ممسكا به ، ثم امسك بى من خاصرتى والقى بى خارج الحانوت ، ولكن الغضب جعلنى اقول له كل ماأردت ان اقوله . ولم اتركه دون ذلك ! .

وضربت امينة الأرض بقدمها المخضبة بالحناء وهى تصيح :

ـ هذا لايكفى لا يابوليكسيجيس" ، هذا لايكفى ، كان ينبغى ان تقتله ! .
وقال الكابتن بوليكسيجيس" فى رعشة :
ـ اقتله ؟!
ـ بالطبع تقتله ! هكذا يفعل الرجل . لا تكتفى بان ترد الإهانة بالاهانة .. النساء يفعلن ذلك . اما الرجال فيقتلون !

ـ الكابتن "ميخايليس" ؟!
ـ وهل هو إله ؟ إنه وحش مفترس ، وانت تخشاه . الا تخجل من نفسك ؟!

ثم امسكت بقميص نومها .. ومزقته من اعلاه إلى اسفله بحركة واحدة . ولمع جسدها الملفوف الممشوق فى ضوء المصباح ، وبرق خيط من العرق بين ثدييها .

وقالت فى همس وقد انفجرت فجاة فى البكاء :
ـ هكذا اريد ان امزقه . يا إلهى !
وتالم الكابتن بوليكسيجيس" وحاول ان يحيطها بذارعيه ليهدىء من غضبها ، ولكنها تصلبت بذراعيها ولم تدعه يقترب منها ، وتكومت فى ركن الحجرة مثل الوحش المفترس . وكانت قد كفت عن البكاء وبدات الضحكات العالية الجافة تهز جسدها هزا .

ثم بدات تضرب الحائط بقبضتى يديها الصغيرتين وهى تقول :
ـ بوليكسيجيس" ، لقد احتقرنى نورى منذ اليوم الذى رايت فيه الكابتن ميخايليس يكسر كاس الراكى الى نصفين باصبعيه ، الأمر الذى لم يقدر نورى على الاتيان بمثله .. فحذار .. حذار ان تدفعنى إلى ان اسامك ، إن الرجل الذى يحتضننى لاينبغى ان يكون له شبيه .
ـ انا لا اريد .
ـ بل انت لاتستطيع .
ـ لا اريد .

واصبح هو الذى يدق الأرض بقدمه وقد تحول لون وجهه وهو يسرد إلى امينة نظرات حادة كالسكين .

ورات المرأة ثورته فأحست بالسعادة ، وانسابت رائحة نفاذة من عرق الرجل وجسده المهتاج ، وارتعشت خياشيم أمينة فى بهجة .
ـ يافارسى ، ياكنزى ، دق الأرض واغضب .. فهكذا أريدك دائماً ..

وفتحت له ذراعيها ..

ومع الكابتن "بوليكسيجيس" انهارت الدنيا كلها فوق صدر أمينة ، وعندما نهض الرجل مرة ثانية بعينين مطفأتين وشعر مبتل .. كان كأنما خرج بأنفاسه المتقطعة من قرار بحر مظلم .

وقالت "أمينة" فى تودد وارتياح وهى تربت على جسده :

- ياحبيبى .. يازوجى .. يابطلى

وتمدد الكابتن "بوليكسيجيس" مستنداً بظهره إلى الحائط وهو ينظر إلى المرأة بعينين نصف مغلقتين مترعتين بالنشوه ويسمع فى نفس الوقت ضجة المدينة ونباح الكلاب وأغنيات مسافرى الليل ، ولحظتها قال لنفسه : "لاشىء فى هذه الدنيا يعادل المرأة" ، وأحس بالسعادة وشكر الله على أن هيأ لجسديهما معا مثل هذا التوافق . وضحك فى ارتياح وهو يداعب ذراعها الملفوفة ويقول :

- "أمينة" لاتقلقى سوف نعثر على رجل آخر أفضل ليتولى تهريبك .

- ولكنك لم تسألنى عن الأنباء التى أريد أن أخبرك بها . هل نسيت ؟

- وكيف يمكن أن أتذكر وانت تتمددين هكذا أمامى والنهار يوشك أن يطلع ؟

وضحكت "أمينة" ثم همست فى أذنه ببضع كلمات صاح "بوليكسيجيس" على إثرها وعيناه محدقتان : "ياإلهى يااللمسكين !" ولحظتها أحس بالاشفاق على الرجل السىء الحظ ، وبأن ضحكة "أمينة" ضايقته . ونهضت "أمينة" وأطفأت المصباح .

.. ولكنه نهض جالساً فى مكانه .. وظل يحدق فى الظلام .

كان السيد "إيدومينياس" فى طريقه إلى بيته بعد أن انتهى الحفل الكنسى ، وكان قد ارتدى فى هذا اليوم ثيابه السوداء ووضع شريطاً أسود حول قبعته وآخر عريضاً بعض الشىء حول كم سترته . كان فى حداد .

وكان الوقت يقترب من منتصف النهار حين وصل إلى بيته وجلس إلى مكتبه وقال لخادمته "دوكسانيا" : "لن آكل اليوم .. لا الآن ولا فى المساء

، أنا صائم ، ثم أمرها بالخروج من الحجرة والتقط قلمه وأخرج ورقة .. وبدأ يكتب وهو يتنهد بعمق . وكانت رسالته اليوم مكتوبة كلها بالحروف الكبيرة وبالحبر الأحمر .. فالحكام فى المدن الكبيرة يكتبون أيضا بالحبر الأحمر ، وهو اليوم كأنما يكتب باسم "قسطنطين بالايولوجوس" الذى اقيمت من أجله احتفالات اليوم بالكنيسة .. وإلى الملكة "فيكتوريا" ملكة انجلترا .. ابنة عمه العزيزة "فيكتوريا" ..

لقد مرت اربعمائة وست وثلاثون سنة منذ أن قتلت .. وأنا الآن فى التراب مدفون انتظر العدالة على يد الملكة المسيحية للعالم العلوى . فإلى متى سأنتظر ياعزيزتى فيكتوريا ؟ .

وانحدرت دمعتان كبيرتان فوق الورقة .. وأوقفتاه عن الكتابة . لايمكن أن يرسل الى الملكة رسالة كهذه ! وأخرج ورقة أخرى ، وكتب بيد ، بينما كانت اليد الأخرى تمسك بمنديل يجفف به دموه ويمنعها من التساقط فوق الرسالة . وظل يكتب .. ويجفف دموعه .. وهو صائم ..

وعندما حل وقت النوم ، جاءه صديقه "تيتيروس" الذى مر به نهار كئيب هذا اليوم .. فعندما تركه الكابتن "ميخايليس" وجد هو زوجته وشقيقها جالسين فى فناء البيت وقد أعدا المائدة وبدءا يتناولان إفطارهما المكون من القهوة واللبن وبعض بسكويت الفصح .. ويضحكان .. وحياهما ، ولكنهما نظرا اليه دون أن يردا التحية . ولم تنهض زوجته .. ولم تحضر له قدحاً . وبدأ الأخ واخته يغمزان أحدهما للآخر ويضحكان .

وأغلق "تيتيروس" على نفسه حجرته . لابد أن تكون هناك نهاية لذلك كله . وإنه ليحس بالشجاعة بعد ذلك الخطاب البطولى الذى القاه اليوم فى الكنيسة . ولابد أن يخرج الآن اليهما فى نشاط ويطرد هذا الطفيلى "هذا البيت هو القسطنطينية بالنسبة لى ، وهو الأتراك .. وأنا قسطنطين !" .

وأسرع فى ضجة يهبط الدرج إلى ساحة البيت . وبدأ يصيح وذقنه ترتعش :

- علام تضحكان ؟! .. كفا عن الضحك !

واستدارت المرأة وهى تضع يدها فوق فمها حتى لاتنفجر مرة أخرى بالضحك ونظر اليه الأخ نظرة جانبيه وهو يتثاءب ، وكان لايزال فى ثياب النوم عارى القدمين لم يحلق ذقنه بعد . وسأله فى استهزاء :

ـ وهل الضحك ممنوع يامدرسى ؟!

ورد المدرس :

ـ لايحق لك هنا أن تتكلم ، انا سيد هذا البيت !

وتملكته الشجاعة .. فأخذ يدق الأرض بقدمه وهو يقول :

ـ .. وأنا أريد مفتاح البيت ، فسيد البيت هو الذى يحتفظ بالمفتاح وقال "ديامانديس" فى دهشة وهو يمد ساقيه ويضعهما فوق مقعد أمامه :

ـ هيه ! وماذا أيضا يامدرسى ؟

ثم استدار إلى اخته وهو يشير بإبهامه إلى المدرس الذى كان واقفاً خلفه وقد امتقع لون وجهه .. وقال :

ـ انظرى الى هذه الذبابة !

وأمنت "ڤانجيليو" على كلماته بسيل من الضحكات ، وصاح "تيتيروس" وهو يندفع نحو زوجته ليغلق فمها :

ـ علام تضحكين أيتها المخلوقة التى لاتخجل ؟!

ولكن الأخ ، ركل المقعد جانبا وقفز ليساعد أخته وهو يهدر :

ـ انزل مخالبك يامدرسى وإلا رميت بك الى الأرض .

ثم لوح بقبضته فوق رأس "تيتيروس" الذى تراجع وعاد "ديامانديس" يلوح بقبضته متوعداً وهو يصيح :

ـ أخرج من هنا ! اخرج وإلا عجنتك عجناً . ياللوقاحة ! تريد ان تمثل دور السيد وتطلب المفتاح ؟ أنت أيها الثعبان ذو العوينات ؟ أنت ياهزيل ؟ .. اخرج من هنا وإلا أعطيتك السيقان التى تجرى بها !

ثم خذ به من سترته وأخذ يهزه بعنف ، ثم دفعه إلى الحائط بينما أسدلت "ڤانجيليو" شعرها الطويل وتناولت مشطها العاجى وبدأت تمشط شعرها فى شهوانية وهى تبتسم وتنظر الى أخيها فى إعجاب وتملأ عينيها بمرأى صدره العريض المكسو بالشعر من خلال قميص نومه ، وجسده

الممشوق كشجرة سرو ـ وتنظر فى ذات الوقت باحتقار واشمئزاز إلى زوجها العليل .

وتخلص "تيتيروس" من يدى شقيق زوجته وأسرع الى الباب المؤدى الى الشارع ، ولكنه صاح فى زوجته قبل أن يفتح الباب :

ـ ليست هذه أبدا حياة .. ولابد أن تكون لها نهاية .

وقال "ديامانديس" وهو يبرز صدره الى الأمام :

ـ نعم .. لابد أن تكون لها نهاية ، فأنا لم أعد أحتملك يا"تيتيروس" ، لم أعد أحتمل تعثرك بقدمى صباحاً وظهراً وليلاً ! إن البيت لايسعنا جميعا .. لا يسعنى أنا وأنت .

ثم استدار إلى أخته وقال :

ـ اختارى بيننا ياڤانجيليو !

وكادت أنفاس "تيتيروس" أن تتوقف ، وحدق فى زوجته ، وانتظر . وكانت "ڤانجيليو" تمسك لحظتها بأسنانها شريطاً أخضر حريرياً . وتمهلت قبل أن تجيب .. مرت بيديها على شعرها تتأكد من نعومته ، ثم ربطته وهزتا حتى انسدل فوق عنقها وإلى ركبتيها . ثم قالت :

ـ أنا لن افترق عن أخى ، حتى ولو كان ذلك يعنى نهاية العالم .

وقال "تيتيروس" :

ـ هذا يعنى أننى ......

ثم توقف ...

وهزت ڤانجيليو كتفيها وضحك "ديامانديس" ضحكة جافة ثم عاد يمد ساقيه ويضعهما فوق المقعد وهو يقول :

ـ لقد قالت كلمتها .. وصرفتك أيها التافه ، ألم تخرج بعد يامدرسى ؟!

ولم يهدأ "تيتيروس" بعدها إلا لمرأى البحر ، جلس فوق صخرة قريبة من الحائط وامضى بضع ساعات هناك بلا حراك ، يحدق فى امتداد المياه .

وكانت الشمس قد غابت عندما نهض "تيتيروس" من جلسته وتأمل حاله فى دهشة . كان الغضب قد زال .. وكانت دموعه قد جفت . كان طوال

تلك الساعات يحدق فى البحر دون أن يفكر فى شىء . ولكن شيئا ما بداخله كان يتحرك . ووصل أخيراً ـ بدمه وليس بتفكيره ـ الى قرار ، لقد كان عاجزاً عن أن يجعله صريحاً واضحاً ، ولكنه أحس .. بأنه فى أمان فى نطاق إصراره وثقته .. ولحظتها همس لنفسه : "كل شىء سيصبح على مايرام ، أنا سيد البيت" .

ثم نهض واستدار متجهاً عبر الأزقة الملتوية بالغرب من الميناء ، واخترق الحى اليهودى ثم توقف عند مكانه الخاص فى المدينة فى مواجهة منزل "إيدومينياس" الكبير وكان ثمة ضوء لايزال يلوح من نافذة صديقه . لابد أنه يكتب رسالة أخرى الى الملكة ! أى ضياع للورق ! سوف أدخل وأتبادل معه الحديث بعض الوقت ، فذلك سوف يهدئنى ويهدئه هو ايضا .

وطرق الباب ، وارتسمت السعادة على وجه العجوز "دوكسانيا" حين رأته .. وقالت :

ـ إنه لم يأكل شيئاً منذ الصباح ، حاول أن تقنعه بتناول شىء من الطعام حتى يبارك الله لك ! إن الله قد أرسلك الآن !

وكان السيد "إيدومينياس" كذلك سعيداً لرؤية ضيفه ، فقد كان فرغ لتوه من كتابة رسالته ووضع فوق المظروف خاتمه ـ اثينا المسلحة ، وغدا تكون الرسالة فى طريقها إلى لندن .

... وقال وهو يشير بفخر الى الخطاب المختوم :

ـ البعض يحاربون بالأسلحة ، أما نحن الاثنان ـ وثالثنا فى ميجالوكاسترو هو "حاجى سافاس" ـ فإننا نحارب بعقولنا ، وسوف نحرر كريت .

وهز المدرس رأسه ، فلم يكن يصدق أن كريت يمكن أن تتحرر بكتابة الرسائل وببقايا الرخام ، وغطس فوق مقعد مرتفع متعباً وجائعاً . ثم تساءل وهو يتنهد :

ـ ومن ذا الذى سيحررنا نحن يا"إيدومينياس" ؟

ـ من ؟! كريت هى التى ستحررنا بمجرد أن نحررها نحن يامدرس ! إن

سعادتنا الشخصية مرتبطة تماما بذلك . فنحن فى نضالنا لتحرير كريت ، إنما نناضل ايضا من أجل تحرير أرواحنا .

ولكن المدرس هز رأسه وهو يمسح عويناته من رزاز أمواج البحر ، وظل "إيدومينياس" يذرع الحجرة وهو يؤكد رأيه :

ـ هل ترى طريقاً آخر للسعادة ؟ ولكى تتأكد من صدق رأيى فإننى أسألك : ما فائدة حديثى معك الآن ؟ أنت حديث الزواج .. ولاتزال غارقاً فى النشوة ، ولكن سرعان ماستزول هذه النشوة .. وبعدها سوف تتبع أى طريق آخر .. أقول لك : إنه ليست هناك للرجال أمثالنا سعادة شخصية ، فنحن لانجد مثل هذه السعادة إلا فى سعادة المجموع .

ثم توقف وأحس برغبة فى أن يلف لنفسه سيجارة ، ولكنه تذكر أنه اليوم صائم وفى حداد .. فعاد وأزاح صندوق الطباق جانباً وهو يستمد السعادة من تضحيته فى سبيل المجموع . ورفع وجهه الطيب المتغض فى أعزاز وهو يقول :

ـ هذا هو السر يامدرس ! وأنا الوحيد الذى أعرفه فى ميجالوكاسترو .. وربما "حاجى سافاس" ايضا .. وسوف تفهمه أنت كذلك فيما بعد ..

ثم توقف مرة أخرى وإن كان قلبه يختلج فى صدره . اليوم ينبغى عليه ان يتكلم .. فاليوم يفرض عليه ذلك ، ولابد أن يعرف صديقه السر الذى ظل يحتفظ به فى صدره سنين طويلة :

ـ هل تعرف لماذا أظل أكتب للملكة ؟! لماذا أظل حبيس هذا البيت الكبير الذى كان يملكه أبى ـ وكأننى جثة حية ـ وأظل أصرخ ! إن كريت هى التى تصرخ بأفواهنا نحن . أنت ربما تلومنى وتقول : "أنت تصرخ ولا فائدة ولا من مجيب" .. ولكننى أقول لك : إن الصرخة لايمكن أن تضيع هباء ، فالصوت يسبق الأذن التى تسمع ، والأذن لم تخلق إلا لتسمع النداء والصراخ ياسيدى المدرس ! ولسوف يسمعنى يوما ما كل الملوك والأقوياء ، الذين أكتب اليهم وإذا لم يسمعوا هم فسوف يسمع أبناؤهم وأحفادهم .. وإذا لم يسمع هؤلاء ، فإن الله سوف يسمع . وإلا فلماذا يوجد الله ؟! .. إنه موجود ليسمع ! لاتضحك . نعم ، نعم أنا أعرف أن الكل يتهمنى

بالجنون .. وإننى لأسمعهم يتهامسون من وراء ظهرى : "أى ضياع للورق !" ، فليقولوا إذن مايشاءون ، فما الذى يعرفه هؤلاء عن الله وعن كريت وعن واجب الرجل ؟ إننى أنادى واستصرخ الله من وسط هذا الحطام ، ولسوف يسمعنى يوما ما .. ولسوف يتطلع يوما ما من عليائه الى كريت خجلان من تركه إياها فى العبودية كل هذا الزمن ، ولسوف يسألنى ـ أنا "إيدومينياس" ـ العفو وفجأة ، ستدق أجراس القديس "ميناس" عاليا .. ولسوف ينطلق المسيحيون كالمجانين فى الشوارع المفروشة بالرياحين والغار ، ولسوف تنطلق النساء الى الميناء ليحيين ابن ملك اليونان . ولسوف يقبل الناس بعضهم بعضا وهم يصيحون : "كريت نهضت من جديد ! حقا لقد نهضت من جديد ..

ثم جفف عينيه اللتين بللتهما الدموع .. فقد اراح قلبه .
ولكن أفكار المدرس كانت بعيدة عنه ، ولم تمس قلبه شعله صديقه .
ـ ويومها ، سنكون أنا وأنت ياصديقى أوراقا ذابلة جافة .. وسوف نموت عبيداً ولاندرك هذا اليوم .. يوم الخلاص .

وضحك "إيدومينياس" .. وقال لصديقه فى إشفاق :
ـ أنت لاتزال عاجزاً عن أن تفهمنى ، ليس شرطاً أن ارى وان أعاين لكى أتحرر ، إننى أصبح حراً حتى فى رق العبودية حين استمتع بحرية المستقبل .. حرية الاجيال القادمة ، وعندما أقاتل فى سبيل الحرية طوال حياتى ، فإننى سأموت إذن رجلاً حراً .

وقال المدرس الذى كان يفكر فى زوجته وفى أخيها الذى يجلله العار وفى مفتاح البيت الذى طالب به ولم يحصل عليه :
ـ حقا . أنا لااستطيع أن افهم .
ـ ولكنك ستفهم قطعاً فى يوم من الأيام . ربما تشدك الان وتستأثر باهتمامك بعض الأمور الصغيرة التى تغتذى بأرواح الرجال . إن الروح لبؤة ، والمتاعب هى القمل فى جسدها ! ولكنك سوف تتخلص يوما ما من هذه الأمور الصغيرة .

وظهرت "دوكسانيا" على عتبة الباب وأشارت الى المدرس بينما كان

"إيدومينياس" يوليها ظهره ، لابد أن يكون الآن راغباً فى الأكل ... فقد أمضى اليوم بطوله دون أن يمضغ بأسنانه شيئاً . وقال "تيتيروس" :

- إن الدب الجائع لايرقص ! .. أنت تتحدث عن أفكار عظيمة ، ولكن ذهنى مشغول بالطعام . منذ الصباح وأنا لم أزق طعم الأكل ، ولقد أمضيت الليلة الماضية بطولها وأنا أكتب .

وقال "إيدومينياس" :

- أنا ايضا لم أذق الطعام ! فأى ضرر فى ذلك ؟ إن الطعام هو ايضا قمله .

وضحك المدرس وهو يقول :

- ولكن اللبؤة يمكن ايضا أن تموت جوعاً لو افتقدت هذا القمل .

وصفق "إيدومينياس" بيديه ، وبرزت "دوكسانيا" على الفور وقد بدا السرور على وجهها .

- المدرس جائع يادوكسانيا ، أعدى صينية مما لدينا واحضريها .

وصاحت دوكسسانيا وهى تسرع :

- بكل سرور .

وقال المدرس :

- سوف نأكل معا ، اليس كذلك ؟ لا استطيع أن آكل وحده ، قد تتحمل أنت الصيام . ولكن ينبغى أن تثبت ايضا انك تستطيع أن تتحمل الطعام إن الصيام والحياة المرهقة والزهد .. هى ايضا نوع من القمل .

وضحك الصديقان .. وقد خفف مابهما ذلك المزيج من الفكاهة والأفكار العظيمة . وجاءت الصينية ، وارتسمت البهجة على وجه دوكسانيا المتغض ، فمنذ أن غربت الشمس و"إيدومينياس" الجائع يحنث بقسمه وهو يسلى صديقه حتى أصبحت شهيتهما معا جاهزة فانكبا على الطعام ، وشربا بعض النبيذ المعتق من قنينه مخزونة بالبيت من زمن طويل .

وصاح الاثنان وهما يقرعان كئوسهما :

- نخب الحرية !

وعندما ساد الظلام فى الخارج ، عادت أفكار المدرس تحوم حول بيته .
وسأله صديقه :
- لماذا أنت مهموم ؟
ولم يرد "تيتيروس" .. فعاد يسأله :
- كيف ترى حياتك الجديدة ؟ أمن السهل أن يعيش الرجل مع إمرأة ؟
واتجه المدرس نحو النافذة وهو يقول :
- الليل أقبل .. وينبغى الآن أن أعود .

كان القمر قد اختفى .. القمر المضيء الذى تزوج "تيتيروس" تحت ضيائه ، واقتربت من نهايتها أيام الحداد الأربع عشرة على "مانوساكاس" والتى أمضاها ولد "تيودورس" فى غضب هستيرى داخل تلك القرية الغنية بحدائقها . لقد أهانه عمه الكابتن "ميخايليس" إهانة بالغة حين عامله وكأنه لايزال صبياً لايقدر على استخدام مديته ولايقوى على قتل الأتراك "كم عمرك الآن؟" - "سبع عشرة سنة" - "فالزم إذن عشك !" اليست السبع عشرة سنة تكفى فى نظر الكابتن "ميخايليس" ؟! إنه الآن رجل قادر على استخدام المحراث والثيران وقادر على فلاحة الأرض . وإنه قادر كذلك على تحدى "حسين" ابن شقيق "نورى بك" .. الفارس التركى الصغير فى "بيتروكيفالو" .. فهو يطرحه أرضاً عندما يتصارعان - ويستطيع بالتالى أن يغرس مديته فى عنقه .

وقال لأمه "كريستينيا" التى كانت ترتدى ثياب الحداد :
- لقد أهاننى عمى ..
... وكانت أمه قد توجهت إلى قبر زوجها والصقت رأسها بالأرض وأخذت تبكى وتنتحب كعادتها منذ أن دفن زوجها قبل ثلاثة عشر يوما .. وتناديه وهى تنبش التراب بأظافرها .

وأجابته أمه :
- أنت لاتزال صغيراً يا"تيتيروس" ، فدع الثأر لعمك .
- ولكن متى ؟! .. متى ياأمى ؟! غدا يكون قد مرر على قتله اربعة عشر يوما ونحن لانزال نأكل ونشرب وننام ولانفعل شيئاً ! الا يظهر لك أبى فى نومك ؟! وألا يشكو لك ؟! .. إنه ليعيرنى كل يوم ياأماه .

ولف العصابة السوداء حول رأسه واتجه ببصره نحو سفح الجبل حيث تقع القرية الأم "بيتروكيفالو" وحيث تستحم بضوء الشمس الساطعة التى لونت جسده القوى ... القرية التى تمتلىء بالسادة الأتراك وبالمسيحيين المنسحقين . وكان ثمة شعر قد نبت على صدغيه وصدره البارز . لقد عاش وسط هذه الجبال مع قطعان أبيه وقلما كان يذهب الى القرية ليرى الآدميين ولكن حياة الوحده بدأت منذ العام الماضى تثقل عليه ، ومن ثم فقد كان يتوجه إلى كنيسة القرية يوم السبت من كل أسبوع حتى يرى النساء ، فقد بدأت دماؤه هى التى تدفعه . ومنذ مقتل أبيه وهو يلزم البيت ولا يذهب الى الجبل ، بينما بقى هناك أخوه "كوستانديس" الذى يليه فى العمر . أما هو فقد انتعل حذاء ابيه وسترته وعصابة رأسه ، واستخدم كذلك صندوق الطباق الخاص به وعصاه المصنوعة من خشب أشجار البندق ، ومضى الى "آى يانى" .. وقليلاً ما كان يذهب الى "بيتروكيفالو" .. فى حزن وصمت .

ونهض من فوق قبر أبيه وهو يمسك بالعصا .. وقال :
- أنا ذاهب ...
- إلى أين ياولدى "تيتيروس" ؟!
- إلى بيتروكيفالو ، الم تقولى إنك فى حاجة إلى بعض حب الرمان لتنثريه فوق كعكة الجناز ؟ سوف أحضر لك ماتريدين . فهناك بعض الرمان فوق سطح بيت جدى .

ثم أخرج من حزامه مدية أبيه التى كانت لاتزال ملوثة بالدماء . ولقد أرادت امه يوماً أن تنظفها ولكنه رفض وهو يقول : "إن الدماء لاتغسلها المياه ياامى ، بل تغسلها الدماء مثلها" . ولقد كان يحتفظ دائماً بهذه المدية قريبة منه حتى ليضعها بالليل تحت وسادته ، وكانت أمه تتوسل اليه دائماً : "اعطنى هذه المدية ياولدى ، فطالما هى هكذا تحت وسادتك فإن اباك سيجىء ليعذبك أثناء نومك" - "وهذا هو بالضبط ما أريده ياأماه ، أن يعذبنى" ... ثم رسم علامة الصليب .

وانطلق فى طريقه ممسكاً بالعصا .. يدق بها الأرض الصخرية وصاحت فيه أمه وهى تراه يدق الأرض بعنف :

- كن حذراً يا "تيتيروس" .. دعواتى وبركاتى لك !

ولكن الابن كان قد اختفى عن بصرها . وانطلق ارنب من الحظيرة ، فأتبعه "تيتيروس" عصاه وأمسك به من أرجله ، ثم ضرب رأسه فى صخرة فحطمه وهو يقول :

- سوف آخذه معى هدية لجدى ، ولعلها علامة طيبة ، فالأرنب يجلب لى الحظ ، وهكذا سوف أمسك بحسين وأضرب برأسه الصخور . ولكنه ليس ارنباً على اية حال ، اقصد أن يكون بيننا صراع قاس .

وكان قد تحداه قبل يومين ، وجاء "حسين" على صوت الصفير الذى أطلقه "تيتيروس" بفمه .

- حسين .. بعد غد يكون قد مر أربعة عشر يوما على ابى الذى قتله عمك "نورى" .

- القار والكبريت على جسده !

ثم ضحك ضحكة قصيرة .. واصفرت عينا "تيتيروس" وهو يرتعش بالغضب :

- لماذا تحد فى ياكافر ؟ لماذا تصفر ؟ هل عميت عيناك ؟ الا ترى أننى مشغول بالتذرية ؟

- إذا كنت حقا فارساً فتعال وصارعنى ، وسوف أموت تركياً إن لم اجعل ظهرك هذا يتمرغ فى التراب !

- ظهرى أنا ياخائن ؟! .. متى واين ؟!

- فى نفس المكان الذى قتل فيه أبى - عند شجرة السنديان . بعد غد .. فى يومه الرابع عشر ، وفى الصباح الباكر حتى لايرانا أحد .

- هل نحضر المدى ؟!

- نعم ..

ثم افترقا "حسين" يتابع عمله ، و"تيتيروس" عائداً الى بيته ، وهناك انحنى عند مدخل البيت واخرج المدية من حزامه وشحذها دون أن يغسل الدماء الجافة من فوقها ثم أعادها مكانها واتجه نحو شجرة السنديان الضخمة حيث جلس مستنداً بظهره الى جذعها .

وعند مدخل "بيتروكيفالو" رأى فتاة بالقرب من البئر ، فأحمر جسده على الفور ، كانت تمسك بجرة فى يدها وتتهيأ لرفعها فوق كتفها ، وعندما رأت "تيتيروس" قادماً من بعيد وقفت فى مكانها لاتتحرك .. وتنتظر . ياللفتاة الرائعة التى تشع جمالاً ! إن جسدها لمشدود ، وإن كان لايزال لين الأعطاف . وفوق عينيها اللوزتين المشعتين أهداب كأنها المدى . كانت أشبه بحيوان اشتمت خياشيمه رائحة فهو يختبرها بإمعان .

وتعلق بها بصر "تيودورس" من بعيد . كل شىء اليوم على مايرام واحس بقلبه يقفز داخل صدره : "إنها فروساكى !"
وأدار بصره حوله : لا أحد .. كانت الفتيات الأخريات قد ابتعدن بجرارهن عن البئر ، والفلاحون فى الأجران يقومون بدراس القمح وتذريته وغربلته ، لم يكن فى الدنيا كلها أمامه سوى "فروساكى" والشمس ترتفع فوقها كالتاج فى كبد السماء .

أحس بضعف لذيذ فى ركبتيه وهو يتوقف أمام البئر ، وقال فى صوت مرتعش وقد أرخى بصره :
ـ نهار سعيد ..
وتلألأ رسغها تحت أشعة الشمس التى تدفقت فوقهما .. ومسحته بنظرتها فى جرأة وهى تضحك فى سخرية :
ـ لماذا تحمل هذا الأرنب يا كابتن "تيودورس" ؟! .. هل أصبحت تصطاد الأرانب ؟

ورد الشاب وهو يرفع عينيه :
ـ بل أصطاد الأتراك .
وظلت نظراتهما لحظات تتساجلا كالخناجر ، حتى عاد الشاب فخفض رأسه وقد زاد اضطرابه .
وسدت الفتاة جرتها بغطاء خشبى وجالت ببصرها حولها فى سرعة ، ولم يكن هناك أحد : "هل أنت عطشان يا"تيودورس" ؟!" .

ـ نعم ، أنا عطشان يافروساكى . ولكنك أنت التى ستقدمين لى أنا ـ الابن اليتيم ـ الماء الذى يبل عطشى .

وخفضت الفتاة بصرها فى صمت ، وإن كانت الحمرة قد كست عنقها وأذنيها وهمس "تيودورس" :

- غدا يكون قد مر على وفاة أبى أربعة عشر يوما ، تعالى غدا الى بيتنا وساعدى أمى فى صنع كعكة الجناز ، وسوف تحضر ايضا فتيات كثيرات من القرى المجاورة .

- سوف أحضر إذا سمحت لى أمى .

ثم قالت بعدها على الفور :

- وحتى لو لم تسمح ، فسأحضر مادمت أنت قد دعوتنى . إن أحدا لايستطيع ان يرفض رغبة للكابتن "تيودورس" !

قالتها فى ضحكة تخفى بها انعطافها نحوه . وظلت تنظر اليه وهى تكاد تبتلعه بنظراتها . لقد كانت تظل كل ليلة مستيقظة تفكر فيه ، وتود لو كانت أرضاً تبسط نفسها تحت قدميه ، ولكن ها هى ذى تضايقه وتثيره وهى تراه أمامها بلحمه ودمه - إنها لتحس الآن برغبة فى أن تخمشه .. وتؤذيه .

وأسند "تيودورس" ذقنه إلى عصاه وظل يحدق فى الأرض وهو يتذكر كيف أن عليه غدا أن يصارع حسين . ثم قال :

- آه .. فروساكى ، هل تبكين إذا حدث لى شىء ؟!

ولم يعد فى مقدور الفتاة أن تضبط أعصابها أكثر ، وانحدرت الدموع فوق خديها وهى تهمس :

- ليس لى فى الدنيا سواك يا "تيودورس" !

وصاح الشاب فى فرحة وهو يرفع رأسه :

- حسن ! .. فأعلمى إذن يافروساكى أن سوءا لايمكن أن يلحق بى !

وظهرت فتاتان تحمل كل منهما ابريقا ، وأسرعت فروساكى تجفف دموعها وترفع ابريقها فوق كتفها وتتظاهر بأنها تتطلع إلى بعيد ، ولكنها لم تستطع أن تطامن من اختلاج صدرها . وأسرع "تيودورس" يجرى فى اتجاه القرية وهو يصفر بفمه ويؤرجح الأرنب الميت بيده .

وفى اليوم التالى - الأحد - عندما انتهت فترة الحداد وبدأت مراسم حفل الذكرى من أجل روح "مانوساكاس" ، اعتلى الأب "جريجورس"

المنصة التى اقيمت فى الفناء الأمامى للبيت ، ووقف إلى جواره صبى راع أسود اللحية يحمل طبقاً ثقيلاً فوقه كعكة الجناز المكسوة بطبقة من السكر يزينها اللوز وحب الرمان وكتب فوقها اسم "مانوساكاس" بمسحوق القرفة . ومر الفلاحون واحدا اثر الآخر وكل منهم يبسط راحته ليملأها الأب ، فيتمتم : "رحم الله روحك" ثم يتحرك ليخفى بعد ذلك وجهه بين مخالبه ليلتهم القطعة بشراهة ويلوث شاربه بالقرفة والسكر .

ولأن الأيام الأربع عشر قد انتهت ـ والحقيقة أنها تمضى فحسب من حياة الرجال والنساء ـ فإن فضائل "مانوساكاس" بدأت تلقى مديحاً خاصاً وعريضاً . ولقد ظهر شخصياً للعجوز "كاتيرينيو" ـ أم حارس الحظيرة ـ وهى عائدة فى الليلة الماضية إلى القرية ! كذلك فإن كلبها ـ هو أيضا ـ رأى "مانوساكاس" ففقد شعره ! . ولقد حاول لحظتها أن ينبح ، ولكن فمه ظل مفتوحاً ولم يستطع حتى الآن أن يغلقه .

وقال واحد من الرجال المسنين وهو يرسم علامة الصليب : "إن الفقيد أصبح يتجول شبحاً ، لقد قتل فى قمة قوته .. ولايزال كأنه بيننا ، إنه يستعصى على الموت" .

وقال أخر : "إنه يريد دماء ، لماذا تأخر الكابتن "ميخاييليس" كل هذا الوقت ؟!" .

وبينما كانوا لايزالون يثرثرون ، إقتحم الساحة "كوكوليوس" حارس الحظيرة وقد تدلى لسانه ، وهو يمسك بوقه بيده المرتشعة ، كانت الكعكة قد انتهت . وكان الأب يغادر المنصة . وكان صبية الرعاة لايزالون يلعقون الطبق .

واتجه الأب نحو الحارس بينما تجمع الباقون حولهما :

ـ ماذا بك ياكوكوليوس ؟ التقط انفاسك . هل لديك أخبار سيئة أخرى ؟ اللهم اشملنا برحمتك !

ـ حسين ، ابن شقيق نورى بك ، وجد مقتولاً !

ـ أين ؟!

ـ تحت شجرة السنديان الضخمة ..

ـ من .... ؟!

- علم ذلك عند الله .. "بيتروكيفالو" تغلى . وقد اغلقت البوابات وبدأ المسيحيون يتسلحون بينما وضع الاتراك الجثة فى صحن المسجد وأخذ كل واحد منهم ينحنى أمامها . وقد أخذوا يطلقون النار ويهددون بحرق "آى - چانى" ! .

- كيف نتحمل ذلك ؟!

- يقولون إن القاتل لابد أن يكون من "آى - چانى" - واحداً من عائلة مانوساكاس . وهم يطالبون بدم "تيودورس" !

وأصدر الأب أوامره :

- ليمضى أحدكمْ على الفور ويخبر الأرملة ، لابد أن يهرب "تيودورس" إلى الجبال ! بسرعة !

ولكن "تيودورس" كان قد أخذ بندقية أبيه وغدارتيه الفضيتين وملأ غرارة بالخراطيش ، وفتح صندوق أبيه واخرج العلم اليونانى من قاعدته المزدوجة فطواه وانطلق الى الجبال دون أن يغسل الدماء من يديه وصدره ومر فى طريقه بالحظيرة واعطى تعليماته لشقيقه "كوستانديس" وترك معه رسالة لأمه حين تذكر أنه لم يودعها .. قال لها فيها ان كل شىء على مايرام وسألها أن تمنحه بركتها ، ثم وضع فى الغراره قطعة من الجبن وانطلق يتسلق "سيلينا" - أعلى قمة فى جبل "لاسيثى" : وكان ثمة رعاة كثيرا ما كان يسرق أغنامهم ويسرقون أغنامه - وذلك جعلهم أصدقاء ! - وقرر "تيودورس" أن ينام فى حظيرتهم ، فإذا أدركه الجنود رفع العلم ووقف على رأس الرعاة وحارب وهو يهتف : "فى سبيل الوحدة مع اليونان !" .

وقبيل المساء ، جاء الأرملة اثنان من الاغوات المسلحين فدقا بابها ، دون أن يجيب أحد . وتابعا الدق بعنف . ولا أحد ! .

واتجه نحوهما تركى عجوز كان قد صعد الجبل لجمع الأخشاب وقال :

- مرحبا بالسادة . هل تبحثون عن "تيودورس" ؟ لقد طار الطائر ! . انطلق الى الجبل" .

- انتبه جيداً لما تقول ياابراهيمى ! هل رأيته بعينيك ؟!

- نعم .. واقسم بمحمد أننى رأيته بعينى . كان الكافر يجرى كما لو كان

حصاناً .. ولقد إرتميت فوق الأرض فى ذعر ، وعندما رفعت رأسى لأنظر ، كان قد اختفى .

وصب الأغوان اللعنات وهما يضربان الباب بخناجرهما ، والتقيا فى طريق عودتهما ـ وعند الوادى الذى يفصل بين القريتين ـ بالعجوز "كاتيرينيو" التى ظهر لها شبح "مانوساكاس" وكانت تجمع بعض الخس والأسبرجس الذى تملأ به غرارتها الصغيرة قبل أن تتهيأ للعودة راضية لتعد العشاء لأبنائها .

واندفع نحوها الأغوان .. واغتالاها بقسوة ..

وبدأ الصدام بين الأتراك والمسيحيين فى القرى المجاورة ، واستعر القتل بينهم ، يعثر الناس فى مرة على جثة مسيحى فى قارعة الطريق .. ثم يعثرون بعده على جثة تركى مخبأة فى حديقته أو ملقاة فى بئر مهجورة نضب ماؤها ، وارتفع المد فى سرعة خاطفة واشتعلت القرى واحدة بعد الأخرى حتى بدأ المد يصل إلى "ميجالوكاسترو" ذاتها .

وفى الظهيرة ، كان سليمان ـ خادم الباشا العربى ـ قد استبد به السكر ـ ليس برغبته ، ولكن الأغوات كانوا قد أترعوا له كئوس .. الراكى" ثم أطلقوه بعد أن سكر فى الحى اليونانى وقالوا له : "اجتهد أن تعثر على الكابتن "ميخايليس" وتقضى عليه ـ إذا كنت حقا رجلا" .. وأخرج هو الخنجر الذى كان الباشا قد منحه اياه فى عيد الأضحى السابق .. واندفع يهدر عبر شوارع اليونانيين والمسيحيون يهرعون بأطفالهم إلى بيوتهم لدى رؤيته .. ويغلقون أبوابها على أنفسهم .

وصاحت النساء فى فزع وهن يحكمن اغلاق أبوابهن بالمزاليج :

ـ العربى ! العربى !

وحين رآه بعض المسيحيين وهم فى طريقهم إلى دورهم لتناول الغداء ، قفزوا يدخلون أول باب يفتح لهم .. وقال بعضهم لبعض فى غضب أحيانا .. وفى فزع أحيانا : "كريت التى هجرها الجميع .. تشتعل من جديد !" واندفعوا جميعا الى صناديقهم التى أخفوا بها أسلحتهم .. وأخرجوها ليزيلوا الصدأ من فوقها .

وتوقف العربى عند نافورة "إيدومينياس" وقد اشتعل رأسه بحرارة الراكي وشمس الظهيرة وتصبب العرق من حاجبيه وعنقه وسيقانه . ودفع برأسه تحت النافورة ليبترد وهو يهدر كالثور . وأصابت الرعدة الحى كله وبينما هو ينحنى تحت ماء النافورة أبصر بين ساقيه بالكابتن "ميخايليس" يقترب قادماً من آخر الشارع ، فصاح صيحة وحشية وهو يستل خنجره ويندفع نحوه .

وتوقف الكابتن "ميخايليس" . وخطر بباله للحظة أن يعود أدراجه ، ولكنه خجل من أن يفعل ذلك ، وفتح بابا عن يمينه وأطلت برأسها زوجة "كراسوجورجيس" مسدلة الشعر .

- ناشدتك الله يالكابتن "ميخايليس" أن تدخل .. لماذا تقف هكذا !؟

ولكنه كان قد أخرج منديله العريض ولفه حول قبضة يده .. وفتح كذلك باب بيته هو ، واندفعت "كاتيرينا" نحوه وهى تصيح :

- ميخايليس ! .. كابتن "ميخايليس" ! ارحم أولادك .

لقد رأت العملاق يواجه زوجها .. تبرق أسنانه وتدور عيناه ويصيح وقد رفع الخنجر فى يده :

- أنا قادم لتمزيقك ياكابتن "ميخايليس" .. ياكافر !

وحاولت الزوجة أن تفتدى زوجها بأن تقف أمامه ، ولكنه كان قد استجمع قواه فى قبضة يده وغرسها فى بطن العربى الذى سقط وهو يخور ، ثم انحنى يستخلص الخنجر من بين أصابعه ، واستدار إلى زوجته : مكانك فى البيت .. عودى !

ودخل بيته وخلفه زوجته التى أحضرت له قميصاً جديداً أحس وهو يرتديه بأن جسده بدأ يهدأ ، فابتسم من تحت شاربه الكث وهو يحدق فى الخنجر المشحوذ .. وقال :

- يازوجتى .. أعط هذا الخنجر لابنك "ثاراساكى" ليبرى به قلمه .

وفى ذات المساء ضرب شابان تركيان - ابنا المؤذن - "بترودولوس" المسكين ووطأ بقدومهما قبعته المصنوعة من القش ، وكانا على وشك أن

يمزقا عباءته لولا أنه صرخ فانطلقا هاربين . وفى صباح اليوم التالى ، وجد المؤذن مشدود الوثاق إلى الشجرة الضخمة وهو عار تماما ويكاد يتجمد من البرد ، فأطلقوه ودلكوا ساقيه وسقوه شراباً ساخناً . وحين استطاع أن يتكلم وصف لهم كيف أن اثنين من المسيحيين ـ واحد منهم ذو شارب مثل لحية جدى جبلى ، والآخر أعرج ـ أمسكا به وجرداه من ثيابه وربطاه إلى الشجرة بحبال المشنقة . وكان فى نيتهم أن يحلقوا له لحيته لولا أنهما نسيا الموس ، ومن ثم فقد اكتفيا بعد ذلك بأن بصقا فوقه واسرعا نحو الميناء .

وكان الباشا بنفسه إلى جواره ، وأمر بأن يقبض على كل أعرج فى ميجالوكاسترو ويودع السجن ، وبدأ البحث أيضا عن الكابتن "سيفاكاس" ، ولكنهم لم يعثروا عليه . وألقت الشرطة القبض على كل أعرج فى المدينة وأودعتهم السجون وأجبرتهم على تجرع زيت الخروع .. ولكنهم تصرفوا جميعا كالفرسان ولم ينبس احد ببنت شفه . وبعد ثلاثة أيام كان الباشا قد اكتفى بما أكلوه وتجرعوه من زيت الخروع (وكانوا ثلاثين تقريبا) فأمر بإطلاق سراحهم .

ولكنه أمر بوضع سليمان العربى فى القيود الحديدية عندما سمع بفشله .

ومر يومان أو ثلاثة .. وهبت ريح جنوبية شديدة قادمة من الجزيرة العربية خلخلت ألواح جدران البيوت ، وتسلل الغبار الكثيف الحار إلى أنوف الناس وآذانهم وأفواههم . وأصبحت "ميجالوكاسترو" تئن كالمحموم ، وكانت الكلاب تتقوقع فى الظل وأفواهها مفتوحة . وكان الرجال والنساء يلهثون وهم يلزمون دكاكينهم ويحركون الهواء بمراوح من القش ويحتسون الشراب البارد ، وكان "باربايانيس" يقف فى قمة مجده ! فقد كان يجرى هنا وهناك فى القيظ الشديد ، يبيع المشروب المثلج ـ ولقد كانت نار الصيف وصقيع البرد بالنسبة له سواء ـ فإن أرباحه تبرده فى الصيف ، وتدفئه فى الشتاء ، وهكذا يظل بارد الأعصاب طوال السنة .

وكان البطيخ قد انتفخ فى الحدائق حتى ليكاد ينفجر ، وفى كل صباح

كانت هذه الحدائق تنقل الى الميدان الرئيسى بالغرب من الشجرة العارية والى الأقباء الثلاثة جبالاً من البطيخ وتلالاً من الخيار . وكانت بواكير العنب تلوح وسط التكاعيب فى ألوانها الأولى ، وكانت بشائر التين فى طريقها إلى الأسواق . كانت الأرض تتفجر بخيراتها ـ فكيف كان يمكن لزبائن الفاكهة أن يسبقوا سيل ماتخرجه هذه الأرض ؟! كان الأتراك والمسيحيون يقفون أمام أكوام الفاكهة ، وكان البائعون يغنون على بضائعهم بملء أفواههم .. وحينما يقبل المساء يتركون كل ماتبقى فى مكانه فيندفع الأطفال والعجائز والنسوة المحتاجات من كل جانب ويجمعون كل مايقدرون على جمعه .

وعندما تغيب الشمس ، تتنفس الأرض .. وتبرد ، وتنتشر الظلال الحانية فوق "ميجالوكاسترو" ، وترش ربات البيوت ساحات بيوتهن ثم يتجمعن بعد ذلك في بيت إحداهن ليتبادلن الأحاديث ، وكن قد تجمعن يوم الأحد فى ساحة بيت زوجة "كراسوچورچيس" يسلين أنفسهن ويأكلن ويتبادلن الفكاهات عندما اندفعت "پنيلوب" فجأة إلى داخل الساحة وقد شحب وجهها وجمدت نظراتها وهى ترتدى ملابس البيت التى كانت تغطيها البقع .. وتصيح باكية . وقفز الجميع من أماكنهن ، وقدمت لها زوجة "كراسوچورچيس" بعض عصير الكرز فشربته وهى تنتحب وتئن .

ـ ماذا حدث يا"پنيلوب" ؟ ولماذا تبكين ؟! .

وابتلعت پنيلوب البقية الباقية من العصير .. ثم صاحت :

ـ ديميتروس .. ديميتروس !

ـ بحق الله ... ماذا حدث له ؟! هل هو مريض ؟!

ـ لقد ذهب ..

ـ ذهب ؟ إلى أين ؟!

ـ وأخذ معه المظلة !

ـ إلى أين ياعزيزتى ؟!

ـ إلى الجبال مرة ثانية ..

ـ ولكن لماذا ؟ لماذا ياپنيلوب ؟ ما الذى أصابه ؟!

ـ أنا قلقه عليه .. لقد خرج ومعه المظلة .. لقد هرب منى مرة من قبل

ومعه نفس المظلة ايضا .. خلال أحداث عام ١٨٧٨ .

وصاحت "كريسانتى" شقيقة "بوليكسيجيس" وهى تدق بيدها على ركبتها :

ـ هذا أمر ينذر بالسوء ، وانتبهن جيدا الى ما أقول ياعزيزاتى .. هذا يعنى أحداثا جديدة ـ عاقبنى الله إن كنت كاذبة .

ـ لاتقولى هذا ياعزيزتى ! عسى أن تكون آذان الشيطان صماء الآن !

وعادت كريسانتى تقول :

ـ عاقبنى الله إن كنت أكذب ! أتعرفون كيف يحس الفأر بالزلزال فيهرب ؟ هكذا فهل ديميتروس .. أحس بالأحداث فهرب ومعه المظلة ..

وهمست پنيلوب :

ـ وليس معه نقود ، ومن الذى سيطهو له طعامه ويغسل له ثيابه ويرتقها ويعد له فراشه ويدثره بالليل ؟! أنا أعرف أنه سيعود إلى مثل المرة الأخيرة والثقوب تملأ سرواله ! .

ـ لاتحدثى كل هذه الضجة ياعزيزتى ، فقد بدأت أحس بالقرف من زوجى وأردافه السمينة الثقيلة !

ولكن پنيلوب لم تهدأ ، وعادت تفتح فمها لتستأنف العويل ولكن سيدة البيت دست فى فمها ملعقة مليئة بمربى اللوز ، ثم تساءلت فجأة وهى تحاول أن تغير مجرى الحديث :

ـ ما أخر أنباء الكابتن "ميخايليس" ؟! منذ أيام طويلة وأنا لا أراه ! .

وقالت زوجة الكابتن :

ـ بخير والحمد لله ، ولكنه يغادر البيت فى ساعات الفجر الأولى ولايعود إلا فى الليل ، فكيف تتوقعين أن يراه أحد ؟

ثم تنهدت .. وأخلدت إلى الصمت .

والحق أن الأمور بالنسبة للكابتن "ميخايليس" كانت تسير على مايرام وإن كان العالم كله يبدو بالنسبة اليه ضيقاً وكإنه السجن .. كان يصلصل القيود التى تكبله ، ويمتطى صهوة فرسه متوغلاً بها عبر الحقول إلى بيت "نورى بك" الريفى الذى تحيط به أشجار الزيتون والسرو .. فيحس بقلبه

يختلج داخل صدره ويغمغم قبل أن يعود أدراجه :

ـ الصبر ... الصبر ياقلبى ، لاتكن هكذا عجولا ، انتظر حتى تتحسن حاله .

وفى الليل كان يأتيه "على أغا" معفر الوجه والثياب قادماً من بيت "نورى بك" الريفى يحمل آخر الأنباء :

ـ اليوم .. حاول أن ينهض ولكن الألم غلبه فعاد يتدحرج فوق فراشه ـ اليوم ... نهض ، وساعده خادمه المغربى على الخروج إلى الفناء ، وقد وقفت أنا فى الركن خلف البئر وأنا أشاهده .. وحق دينى ياكابتن إننى لم أعرفه لأول وهله . إنه شاحب الوجه .. نحيل ! أين ذهبت هذه الخدود وأين ذهب الشارب المشذب الأنيق ؟! إن التجاعيد لتملأ بشرته ـ اليوم ، خرج إلى الفناء دون مساعدة الخادم المغربى ، وقد وقع بصره على فاتجهت نحوه أحييه ، ولكنه صرفنى ـ لم يكن يريد أن يتكلم . وقد خرجت لتوى ـ اليوم ، عاونه خادمه على أن يمتطى صهوة جواده وخرج معه فى نزهة وكان الخادم يجرى خلفه حتى يتلقاه إذا هو أغمى عليه وسقط من فوق السرج ... وكان الجواد يسير فى حرص شديد كأنما يفهم كل شىء .

وأخيرا ـ وبعد أيام وأسابيع ـ جاء "على أغا" إلى الكابتن "ميخايليس" وهو فى دكانه وكأنه ينتظر وسط الظلام . وقال الرجل العجوز :

ـ إنه بخير الآن .. فقد غادر "مصطفى بابا" البيت وقال لنورى بك إنه لم يعد فى حاجة اليه ، إن الباقى بين يدى الله . وقد خرج اليك بعد ظهر اليوم فى جولة فوق صهوة جواده دون أن يصاحبه الخادم المغربى .

ـ وكيف يبدو ؟ صحيحاً معافى كما كان ؟ قويا ؟ خطاه ثابتة ؟

ـ إنه لايزال شاحب الوجه ياكابتن ، أصفر كالليمونة .. مكتئب ، صامت دائماً إنه لايأكل ـ قالت لى المربية العجوز إنه لايشرب ولا ينام .. يتنهد دائماً .

وعندما سألته الخادم العجوز أمس عن موعد عودة آمينة هانم الى الضيعة تشبث بالدرابزين حتى لايسقط فى إغماءه . وظل يحدق بالخادم

العجوز دون أن ينطق بكلمة .

- انت تتكلم كثيراً ياعلى أغا .

ولكن "على أغا" ظل واقفاً حيث هو .. يريد أن يقول المزيد ، ولكنه تردد :

- لماذا تهرش رأسك ؟ ألا يزال لديك المزيد ؟!

وانفجر "على أغا" من جديد :

- إنهم يقولون ياكابتن ...

- تكلم ياغبى ! .. علام أنقدك أجرك إذن ؟!

- إنهم يقولون إنِ المسكين أصبح خصياً .

- ماذا تقصد ؟!

- إنه لم يعد رجلاً ، وقد علمت بذلك أمينة هانم .

- أخرج ...

واستدار "على أغا" يتعثر بين حبال السفن وأوعية الطلاء وخرج من الدكان .. ثم مالبث أن اختفى .

ونهض الكابتن "ميخايليس" واقفاً .. ثم صاح وهو يروح ويجيء وسط ظلام الدكان :

- لايجب أن يكون هذا صحيحاً ! .. أنا لا أحتمل ذلك ! .. ليس هذا ممكناً .

لم يكن يتصور أن رجلاً يمكن أن تصيبه هذه المصيبة ، وظل يردد لنفسه ويعيد وهو يعض على شاربه فى تشنج :

- مستحيل ! ولكن ماذا لو كان هذا صحيحاً ؟! ماذا لو كان صحيحاً ؟! كيف إذن يمكن أن آخذ بثأرى من رجل خصى ؟ أى صنف من الثأر يكون هذا ؟! وماذا يمكن أن يعنى الموت بالنسبة اليه ؟

وفجأة وصل الى قرار : سوف أذهب لأرى بنفسى !

وانتظر بضعة أيام . فلابد أن يستريح الرجل فترة أطول ليستعيد قوته القديمة .

وفي صباح يوم من أيام الآحاد ، امتطى صهوة فرسه وانطلق عبر السهل الممتد والمسترخي تحت وطأة قيظ الصيف ، وحقول الكروم مثقلة بالعناقيد ... والشمس تتوهج في كبد السماء وهمس الكابتن : "الصيف ، والكروم ، والحرب ..." ـ "آه ياأمنا التي تعاني !"

كانت روحه تحتضن كريت في إشفاق بالغ .. كان يحب كريت كما لو أنها مخلوق حي دافيء يتكلم امامه بفمه وبعينيه الباكيتين ، كان يحب كريت التي لاتتكون فحسب من الصخور والسحب والجذور وإنما تتكون أيضا من آلاف الأسلاف من الآباء والأمهات الذين لم يموتوا أبدا والذين يتجمعون في الكنائس أيام الآحاد تمتليء صدورهم بالغضب يوما بعد يوم ، فيرفعون لواء يندفعون من خلفه الى الجبال : لواء تنحني فوقه الأم التي لاتموت .. يكتبون هم على صفحته بشعرهم الأسود والرمادي والأشيب في لون الثلج .. كلمات هي أيضا لاتموت :

الحرية .. أو الموت

واغرورقت عينا الكابتن "ميخايليس" بالدموع . فحين يكون وحده .. فالبكاء لايخجله وهمس لنفسه : أيتها الأم التعسة الحظ ...
وبرق من خلال أشجار الزيتون البيت الريفي للبك .. واستحث الكابتن "ميخايليس" فرسه .

فتح الباب ، ودخل الكابتن .. وترجل عن فرسه ثم أجال البصر حوله ، ما أسرع ماتمضي السنون ! هنا في هذا الفناء بالقرب من شجرة الزيتون هذه الملتفة الأغصان ، ركع الرجلان معا وسالت دماؤهما ، كانا قد اختارا بين الموت والأخوة .. فاختارا أن يصبحا أخوين . وها هو ذا يعود إلى ذات الفناء بعد سنين طويلة وكأنما عارض الله ما فعلاه .. وعليهما أن يقتل كل منهما صاحبه ..

وهرع خادم نحوه : مرحبا بالكابتن "ميخايليس"
ـ أين البك ؟
ـ بالطابق الأعلى
ـ إذهب واخبره أنني أريد أن أراه .

واشتم جواد "نورى بك" رائحة الفرس ، فأطل برأسه النبيل خارج باب الحظيرة وبدأ يصهل ، ولكن الفرس لم تستجب له .. فقد كانت حاملاً .

وعاد الخادم :

- يقول البك : مرحبا بالكابتن . هلا تفضلت بالانتظار حتى يرتدى ملابسه ؟ ... هل أقدم للفرس بعض الحشائش ياكابتن ؟

- كلا ..

واتجه نحو النافورة ورفع الكوب النحاسى من الخطاف المعلق فيه .. وشرب وكان ثمة كتابات باللغة التركية حول حافة الكوب - ذات الكوب الذى امتزجت بداخله دماؤهما ، وكان نورى بك قد ترجمها له يومئذ : "ارفع رأسك أيها المسافر واشرب . حتى الدجاج يرفع رأسه عندما يشرب .. ويشكر الله على نعمته ! .

وبرز الخادم مرة أخرى :

- هلا تفضلت بالدخول ؟ .. البك فى انتظارك

وشد الكابتن "ميخايليس" عصابة الرأس حول جبهته وأخفى مقبض خنجره .. ودخل .

كان نورى بك يجلس فوق الجانب الظليل من الديوان وهو فى كامل أبهته كعريس فى ليلة زفافه ، وكان يعرف الغرض من مجىء زائره اليه ويشعر بالخجل من أن يبدو أمامه شاحباً مهيضاً . لذلك فقد صبغ شاربه ووضع مسحوقاً أحمر فوق خديه .. وبعض الكحل فى أهداب عينيه كيما تجلوان بريقهما . وكان هو الآخر قد أخفى خنجره فى حزامه ..

قال وهو يمد يده :

- مرحبا بالكابتن "ميخايليس"

ولكن الكابتن كان قد دس يديه عميقاً داخل حزامه ، ولم يلمس اليد التى قتلت أخاه . وعاد "نورى بك" يستند إلى الحائط فى خجل .

ولم يجلس الكابتن "ميخايليس" بل ظل واقفا يحاول أن يقيس القوة التى بقيت لنورى بك ويزن على أساسها كلماته .

- هل أنت فى عجلة من الأمر ياكابتن "ميخايليس" حتى لتظل واقفا هكذا ؟ وهل قطعت كل هذه المسافة ..

وقاطعه الكابتن متسائلاً :

ـ ألا تستطيع أنت الوقوف يانورى بك ؟! إن الأمر الذى جئت من أجله إلى هنا لايسوى من فوق الدواوين .

ـ أعرف هذا ، فلماذا تذكرنى به ياكابتن "ميخايليس" ؟! لاتكن عجولاً . فلنشرب القهوة أولا .. ثم ندخن سيجارتين .. ونتحدث معا قليلا .. وبعدها يحدث ماتريد ياكابتن "ميخايليس" ..

كان صوته ينطق بالتعب والمرارة .

ـ لابأس يانورى بك . مادمت تريد ذلك فلن أتعجل الأمر .

ثم جلس فى مواجهته وهو لايزال يتمعن فى وجهه .. بينما تراجع نورى بك أكثر فى الجانب الأشد إظلاماً .

ـ قالوا إنك قد جرحت يانورى بك ـ جرحا بالغا ..

ـ أنا بخير ياكابتن "ميخايليس" .. تماما كما كنت من قبل ، فلا تقلق .

ثم استطرد فى تحد :

ـ مازالت عظامى حيث ينبغى أن تكون ..

ـ ذلك يسعدنى

ثم ساد الصمت ..

وجاءت القهوة ، ولف كل منهما لنفسه سيجارة وهما لايزالان جالسين وسط الصمت .. وقد أحنيا رأسيهما . "لقد جاء ليقتلنى وينتقم لأخيه" كان نورى بك يقول ذلك لنفسه دون أن يختلج له جفن . "إنه يرتدى السواد مثل ملك الموت . محيا به ! أى معنى للحياة الآن ؟! إن الحياة والعار سواء الآن" .

ثم قال فجأة بصوت مرتفع :

ـ مرحبا .. لقد انتظرتم يوما بعد يوم ..

وأنا شربت قهوتك .. ودخنت سيجارتى يانورى بك .. ولم يعد لدينا ما نتحدث فيه . قف إذن !

ـ كما تريد .

ووقف البك فى صعوبة بالغة وهو يغالب الألم ، ثم اتجه نحو المدخل المؤدى إلى الفناء وهو يعرج عرجاً خفيفاً . وسطعت فوقه أشعة الشمس .
وحينما رآه الكابتن "ميخايليس" فى ضوء الشمس أحس بالارتياع ! أهذا هو نورى بك الوسيم : شبيه القمر ، أسر تركيا ؟ كانت وجنتاه غائرتين .. وعيناه كابيتين ، وشفته السفلى متقلصة تنبىء عن ألم رهيب . وخلف الصبغة والمساحيق الحمراء كانت تلوح دلائل الموت . وقطب الكابتن جبينه . كيف يمكن أن أقاتل كسيحاً ؟ أى عار ! .... وتوقف فى مكانه وقال :

ـ نورى بك ، أنت لاتزال مريضاً .

ـ هل أبدو أمامك شاحباً ؟ .. كسيحاً ؟ تعال ! وسوف تتضح الحقيقة فوق أرض الجرن .

وتقدم يعرج بركبتين مرتعشتين من شدة الألم حتى إذا أصبح فى وسط الفناء استدار ، وكان الكابتن "ميخايليس" لايزال واقفاً فى مكانه يراقبه .

وأحس نورى بك برعدة تملك عليه جسده . إن الكافر يخترق جسدى بنظراته .. ويرفضنى ! وحاول عبثا أن يتكلم فى قوة ولكن صوته ظل كما هو .. حزيناً .

ـ كابتن "ميخايليس" .. لقد انتظرتك طويلاً ! .. أنت وحدك لاغيرك .. فهل تريد بعد أن جئت .. أن تعود أدراجك ؟

ولم يقل الكابتن شيئا .. بل أحس نحوه بإشفاق أكثر ..

ـ لماذا تنظر الى هكذا ؟! إن المرض قد غاض بوجنتى حقا .. ولكن قوى لاتزال كما هى . لاتصدق أقاويل الناس ياكابتن "ميخايليس" . إن قوتى لاتزال كما كانت . تعال وامض معى .

ولكن الكابتن ميخايليس لم يتحرك .

ـ هل آمرهم بإحضار جوادى حتى ترى كيف استطيع أن امتطى صهوته ؟!

هل أطلق غدارتى على هدف ؟! .. فأرسم إذن دائرة .. وسوف أصوب رصاصى إليها .. تعال معى إلى أرض الجرن وسوف ترى هناك من الرجل .

ودفع عصابة رأسه إلى جانب .. ووضع يده فوق غدارته متحدياً .. ولكن العرق البارد تصبب من جبهته .. وأحس بأحشائه تضطرب وامتلأ قلب الكابتن "ميخايليس" بالاشفاق .. وقال فى هدوء :

ـ نورى بك .. الكلام بصوت مرتفع سوف يتعبك .. عد إلى الداخل .

وفجأة إنحدرت دمعتان ثقيلتان من عينى نورى بك وهو يستدير متجهاً نحو الباب الخارجى ليخفى ألمه "إنه حزين من أجلى .. كم انحدر بك الحال يانورى بك .. أنت لاتثير الآن إلا الشفقة ! .

وعاد الكابتن "ميخايليس" يقول :

ـ عد الى الداخل .. ولنؤجل الأمر الى وقت اخر ..

وكف نورى بك عن التظاهر ، وهمس لزائره فى نظرة واجمة :

ـ كابتن "ميخايليس" .. لقد جئت لتقتلنى .. فلماذا لاتقتلنى ؟

ـ هيا الى الداخل يانورى بك .. أخشى أن يسمعنا أحد .

ثم اتجه اليه ، وامسك بذراعه فأحس لحظتها كيف يرتعش جسده الواهن . وعاد نورى يقول فى أنين :

ـ أنت شقيقى بالدم . لاتنسى ذلك . نحن مزجنا دماءنا هنا فى هذا البيت ، وإنى لأتوسل إليك الآن أن تسدى الى معروفاً ! اقتلنى .

وأجاب الكابتن :

ـ لاتغضب يانورى بك .. يوم آخر .. ـ أنت تشعر نحوى بالأسف ؟

ثم جلس فوق الديوان .. فى الجانب الأكثر إظلاماً ، وعاد يسأله :

ـ أتشعر نحوى بالأسف ؟!

ولكن الكابتن "ميخايليس" لم يجبه ، فلم يعد يحتمل بلواه أكثر من ذلك ، إنها لتشده بعيداً . ماذا بقى لديه ليفعله فى هذه الإقطاعية التركية ؟ ليس هناك الآن حساب يمكن أن يسويه مع هذا المخلوق التعس . وماذا يمكن أن يعنى الموت بالنسبة له الآن ؟!

ونهض واقفاً وكانت الشمس قد غابت .

ـ إلى اللقاء يانورى بك .. أنا ذاهب الآن ..

وردد المكان صوت البك وكأنه قادم من مكان سحيق .. يقول فى شك :
ـ معك حق ياكابتن "ميخايليس" .. فى رعاية الله .

ووقف الكابتن لحظة يتطلع إلى الرجل ويتذكر وسامته السابقة .. وقوة احتماله البطولية وسجاياه .. وضربات حوافر جواده التى تطلق الشرر وهو ينهب به الطرقات نهباً ..

وعاد صوت البك يتردد مرة أخرى :

ـ كابتن "ميخايليس" ، إذا رأيتنى رجلاً فى يوم من الأيام فأمد لى يدك .. وإن لم تكن .. فوداعاً .

ومد الكابتن "ميخايليس" يده .. وشد .. فى رفق حتى لايؤذيه ـ على اليد الممتدة اليه ، وقال :

ـ فى رعاية الله يانورى ..

ـ ربما يعنى ذلك وداعاً الى الأبد يا"كابتن ميخايليس" . هل تفهم ما أعنيه ؟!

ـ أفهم ..

ثم اجتاز المدخل . وأحس هذا الوحش المفترس فجأة بتصلب شديد ومؤلم فى عنقه .

وانتظر نورى بك وهو جالس فى مكانه من الديوان ، يرهف السمع الى وقع حوافر فرس "الكابتن ميخايليس" فوق الصخور .. حتى ساد الصمت . وكانت أشعة الشمس الغاربة تتسلل إلى الحجرة وتلون جدرانها باللون الذهبى .. ثم مالبثت أن أختفت .. وساد الظلام .

وانسل فى بطء متجهاً نحو المرآة حيث اغتسل أمامها بالصابونُ المعطر بالمسك ، واستبدل قميصه بآخر نظيف . ورش ثيابه كلها بزجاجة صغيرة من عطر اللاوندا ، وأمضى وقتاً طويلاً يصفف شعره ، ثم خرج الى الحظيرة وظل يربت جسد الجواد فى رقة .. وأحنى الجواد عنقه ومر بفمه فى اشتياق فوق رأس سيده وعنقه ، ثم أخذ يصهل فى بهجة

وغمغم البك وسط دموعه :

ـ وداعاً ياطفلى العزيز .

وافترقا . وعاد هو الى حجرة نومه ، وأخرج ورقة وبدأ يكتب :

"حينما أموت ، فإننى أطلب أن يقتل جوادى فوق قبرى" ... ثم وضع خاتمه أسفل الورقة .

وانحنى فوق ركبتيه فوق السجادة الاناضولية الأثرية التى كان أبوه يصلى فوقها سبع مرات فى اليوم متجهاً إلى "مكة" ، واتجه ببصره عبر النافذة الى السماء المتلألئة بالنجوم ، وهبت لحظتها ريح قوية .. وعوى كلب فى الحظيرة ، ومن بعيد تناهت أغنية لسائق عربة يبث فيها حنينه الى زوجته .. ولحظتها فكر نورى بك فى "أمينة" ، وأغلق عينيه .. وتنهد بعمق :

ـ أيتها الدنيا الخائنة .. وداعاً !

ثم أخرج خنجره ذا المقبض الأسود ورفعه فى الهواء عالياً .. وبكل ماتبقى فى جسده من قوة .. غرسه فى قلبه .

الفصل الثامن

فى الصباح الباكر من اليوم التالى ، وعندما فتحت بوابة "كانيا" وصلت إلى المدينة أنباء سوداء . لقد وجد "نورى بك" ميتاً فى بيته الريفى ! وبدأت المقاهى التركية تعج بطنين كطنين النحل ، وأكد البعض فى صياح مرتفع أن اليونانيين هم الذين اغتالوه ، بينما قال البعض الآخر إنه انتحر . ولقد أدى هذا الحادث بالمؤذن فى المسجد الى أن يفقد اتزانه فى حديثه ، كان كل ما استطاع أن يفعله هو أن يصيح بفم يملؤه الزبد ـ "مذبحة ! الكافر ! .. محمد !" . أما اليونانيون فقد تركوا أعمالهم وبدأوا يتداولون الأمر فى بيوتهم طوال اليوم فى مجموعات من اثنين أو ثلاثة .

كان الأمر ينذر بالسوء ، والوجوه مضطربة ، وكان الجنود يحملون أسلحتهم فوق أكتافهم ويجوبون الشوارع والأسواق فى صفوف . وظهر الباشا شخصياً فى المدافن لكى يشهد دفن "نورى بك" . وسار المؤذن خلفه ، ووراء الأثنين جمع صاحب من الأغوات المسلحين ، حتى العربى "سليمان" كان حاضرا يرافق الباشا الذى أطلقه من قيوده الحديدية بعد أن اكتفى بصراخه وصياحه . وحمل الخدم الجثة إلى القبر .. وتبعهم جواد "نورى بك" يطأ الأرض فى خفة وهو يصهل وقد فتح عينيه على اتساعهما وأخذ ينفث الهواء بمنخاريه .

وتجمع الأتراك فى مكان الدفن ، وتلا الإمام كلماته الأخيرة فى صوت رتيب وهو يودع الميت العالم الأخر ، ونزع المؤذن عصابة الرأس البيضاء الملوثة بالدماء عن جبهة الميت ودسها فى ملابسه ، واستودع الكل فى خشوع "نورى بك" الذى دفن الى جوار ابيه ، ثم أعطى الباشا إشارة

ليقتربوا بالجواد من القبر وهو يحمل فى يده الورقة التى سلمها اليه خادم "نورى بك" .. وقال :

- "أيها الأغوات ، فى يدى الآن ورقة مكتوبة وممهورة تحمل آخر وصية للميت .. فاستمعوا جيدا !" :

ورفع الورقة ليقرأها فى الضوء : "عندما أموت ، فإننى أطلب أن يقتل جوادى فوق قبرى" .

وذهل الأغوات ، وظلوا يحدقون فى الجواد الذى أحنى رأسه فوق القبر حتى لامس عنانه الأزرق الأرض ، وهو يتشمم التراب .. ثم يبدأ بعد ذلك ينادى سيده الذى وورى التراب فى صهيل حزين .

وسمعت أصواتاً من كل ناحية : إنه عمل لايرضى عنه الله ولا الناس !

وقال الباشا معترضاً :

- أيا كان الأمر ، فهذه وصية الميت . إن الأمر يمزق قلبى أنا ايضا - والله يعلم ، ولكنها وصية الرجل الميت .. أن يذهب جواده معه . ولو كنت مكانه لفعلت نفس الشىء . من منكم إذن يقسى قلبه ويستل سكينه ؟

ولم يتحرك واحد منهم من مكانه وكأنهم جميعاً تحولوا إلى تماثيل من الحجارة .. وظلوا يحدقون فى ذعر وإشفاق بجسد الجواد الممشوق الذى يلمع تحت أشعة الشمس . إنه ليس رجلاً يونانياًولا ثوراً أو خروفاً يسهل ذبحه هكذا لقد كان زينة الدنيا وفخر ميجالوكاسترو ، وكان الخبراء يأتون من "ريثيمو" و"كانيا" ليشيدوا معه . فمن ذا الذى يستطيع أن يرفع سكينه على هذا العنق ؟

وزفر الباشا فى غضب :

- من منكم على استعداد لأن يستل سكينه ؟!

وكرر السؤال مرة أخرى وهو ينظر حوله .

ولكن أحدا لم يتحرك من مكانه ، بينما كان الجواد قد تقوقع فوق القبر وهو ينخر فى فزع وصهيله يرتفع كما لو كان صوتاً آدميا يندب إنساناً ميتاً .

واستدار الباشا الى خادمه العربى :

ـ سليمان .. أنت الذى ستذبحه !

واستل العربى سكينه وتقدم إلى الأمام خطوة .. ثم تعثر وسقط على إحدى ركبتيه بينما نهض الجواد وحدق فيه دونما صوت . وتردد العربى .

وصاح الباشا آمراً .. والدموع تجول عينيه :

ـ تشجع ياسليمان .. أغلق عينيك واقفز فوقه !

وركز الجميع نظراتهم فوق العربى ، وغمغم واحد منهم وعيناه تطلقان الشرر : "إذا ذبحه ، فإننى أقسم بجسد أبى أن أسحقه .

واقترب العربى من الجواد وقد رفع سكينه وبدأ يطلق اللعنات ويتوعد حتى يبث فى نفسه الجراءة . ومرة أخرى أحنى الجواد عنقه وصهل فى أسى ، وسقطت ذراع العربى إلى جانبه .. وصاح فى فزع :

ـ لا استطيع ياأفندينا الباشا .

وارتفعت صيحات الاستحسان والارتياح :

ـ براڤو ياسليمان .

وعاد العربى يصيح :

ـ لا استطيع .

وصاح الأغوات :

ـ خذ الجواد لك أنت ياأفندينا الباشا ، ابق على حياته إذا كنت تؤمن بالله !

وقال الباشا وهو يحدق فى الجواد الشهير باشتياق :

ـ أخاف الرجل الميت ..

ورفع يده ليربت على ظهره ، ولكن الجواد تقهقر مهدداً .. ولم يدع أحداً يقترب منه ، وقال الباشا :

ـ فلنذهب إذن ، ودعوه حتى يهدأ حزنه فوق القبر . فإن له روحاً مثلنا . وبعدها لاتقلقوا ، فسوف يستبد به الجوع . وسيبقى خادم المرحوم المغربى قريبا من هنا ليراقبه ويقدم له العلف والماء ، وعندما يهدأ .. فسوف يحضره إلى ..

وتحرك الكل تجاه المدينة وفى مقدمتهم الباشا وهو يحس بالارتياح .. لقد كان الله عظيما وكريما وصديقا للباشا ! لكم كان يتوق الى هذا الجواد ! لكم اشتاق الى أن يعتصر صهوته بين ركبتيه ويتذكر أيام الشباب ! ولو وهبوه كل نساء ميجالوكاسترو وخيروه بينهن وبين هذا الجواد لاختار الجواد دونهن جميعا ، ولتذهب النساء جميعا الى الشيطان ° وها أنت يا إلهي .. ياما أكرمك ! أنت قتلت نورى بك .. وقدمت لى هذا الجواد هدية منك ! .

واجتاز الجميع التحصينات القديمة خارج ميجالوكاسترو حيث زرعت المنطقة بالخضراوات وأشجار الفاكهة . ولاح تمثال لأسد فينيسى أحمر فوق القلاع الصخرية .. يبرق تحت أشعة الشمس .. وكان ثمة سرب من الغربان عائد فى صمت من صيد يوم ليستقر خلل أطلال الأبراج .. وبدت ميجالوكاسترو فى سكون المساء .. وتناهت من بعيد أصواتها المختلطة بزئير البحر .

وتوقف الباشا ، وقال للأغوات الذين تجمعوا حوله :

ـ تذكروا جيدا . إن مصير كريت يتعلق فى شعره . إن نورى ـ واقسم بالله ـ هو الذى قتل نفسه ، فلا تجعلوا منه لواء ترفعونه إيذاناً بحملة تركية لاتعنى سوى بداية جديدة لمذبحة . وأقسم بالنبى إننى سوف لا أشنق الكفار وحدهم فوق الشجرة العارية ـ وانتبهوا الى كلماتى جيدا ـ المسلمون ايضا سوف أفعل بهم نفس الشىء . فحذار ! .

ثم صاح : "هيا ياسليمان"

وتابع السير وهو يتنفس بعمق .. وإلى جانبه خادمه العربى

وهز المؤذن رأسه . وتبادل الكبار نظرات خاطفة . إن الباشا رجل لا أصل له ـ يونانى ابن زنا ـ فأى مصلحة له إذن فى كريت ؟ وهل هناك عرس أناضولى لاتذبح فيه بعض الخراف ؟! .

ولم يكن الباشا قد اختفى بعد وراء بوابة القلعة حين أخرج المؤذن من ثيابه عصابة رأس نورى الملوثة بالدماء .. ورفعها فوق طرف عصاه وصاح :

- سحقاً للكفار ! ياأولادى ، الا سحقاً للكفار !

ومع هذه الصيحة المحمومة جعل نفسه على راس هذا الجمع من الاغوات ، وكان ثمة رجلان مسيحيان فى الخندق يخرجان الماء من النافورة ويغسلان مواشيهما . وصاح المؤذن :

- هاكم اثنان منهما .. إليهما يافرسان ! واستل اثنان من الأغوات خنجريهما .. وعاد المؤذن يصيح :

- وبركاتى معكم !

وانحدر الأثنان عبر زهور عباد الشمس حتى وصلا الى النافورة ، وامسكا بالعجوزين الضئيلين ، واحنيا راسيهما إلى حافة النافورة .. ومالبث الراسان أن تدحرجا إلى داخلها .

وصاح المؤذن :

- إلى الامام يا أخوانى !

ورفع عصاه .. وانتفخت عصابة الرأس الدامية برياح البحر .. وانفدعت الجماعة داخل ميجالوكاسترو .

أما المسيحيون الذين تناهت الى اسماعهم أصوات الجنازة العائدة .. فقد بدأت قلوبهم ترتعد بشدة ، فأسرعوا بإغلاق دكاكينهم ومتاجرهم وهرعوا إلى بيوتهم يحتمون خلف أبوابها .

ووقف المؤذن أمام المقهى التركى عند بوابة "كانيا" .. ورفع عصاه وهو يصيح :

- يا الله .. يا الله ! .. دع الكفار يذوقون طعم خناجرك !

ولكن العجوز .. "سليم اغا" ، وبعض العقلاء من أصحاب الأملاك ، ادخلوه إلى المقهى وطلبوا له قهوة وحلوى تركية ونرجيله لكى يهدئوا من ثائرته ، ثم مالبثوا أن أرسلوا فى طلب "أفنديناً" وأجلسوه فوق مقعد فى منتصف الحجرة ليبدأ فى حكاية عن النساء والصبية ذوى الملاحة - حتى يصرفوا ذهن المؤذن عن الدماء والمذابح .

ومرت بضعة أيام .. فى كل ساعة منها يرتعش الكريتيون من فكرة أن ينتبهوا يوما فى الظهيرة فيجدوا أن بوابات القلعة قد أغلقت وأنهم أصبحوا كالصيد فى الفخ .. ولم يكن ثمة كثيرون منهم ، وكان بمقدور الأتراك بأغلبيتهم الساحقة فى المدينة أن يبيدوهم عن بكرة أبيهم .

.. ثم مالبثت أن بدأت أحداث جديدة . فقد اقتحم الأتراك أبروشيه "أجاراثو" وقتلوا "أبوت أجاثانچيلوس" الشجاع . هبطوا عليه كالليل وهو ينام فوق سطح الأبروشيه بعد أن عاد من "ترابساموس" ليفتتح كنيسة ويباركها .. وبعد أن أكل وشرب كثيراً . نام فوق السطح نوماً عميقاً لم يستيقظ منه أبدا ، فقد فصلوا رئسه عن جسده وهو نائم . وقادت جريمة الى أخرى ، فبعد أربعة أيام ، هبط ابن عم "أجاثانچيلوس" ـ وهو قسيس من "ڤرونديزى" الأبروشيه المعروفة عند سفح جبل "سيلوريتيس" ـ .. هبط إلى قرية "سيروس" التركية وقتل الأغا التركى السفاح الذى كان قد انتهى لتوه من ربط اثنين من المسيحيين إلى رأس البئر فى حديقته ليديرا عجلتها .

وسرى الرعب بين الأتراك فى القرى اليونانية ، وحملوا حميرهم وبغالهم بكل ما أمكنهم حمله من الأهل والبضائع ـ الملابس والنحاس والأوانى ـ ومن الحريم والأطفال والرضع فى ثيابهم الغالية .. واسرعوا هاربين فى اتجاه ميجالوكاسترو ليكونوا فى حماية الجنود الأتراك . كذلك فإن المسيحيين المسالمين والمذعورين هرعوا هاربين بدورهم الى أسرهم وأموالهم فى الجبال .

وكانت نهاية فراسة الباشا ، لقد وجد نفسه لأول مرة أمام ثورة كريتية . ولم يكن بالرجل الذى يستطيع أن يواجه مثل هذه الزلزلة ، كان أناضولياً طيباً من "بروسا" يحب اللهو والطعام ويعشق النوم . فلماذا بحق الشيطان يتشاجر هؤلاء الكريتيون ؟ ولماذا الآن بالذات .. وبعد أن وضع يده على جواد "نورى" الشهير ؟ كان يريد أن يطعمه السكر ويسقيه الماء بيديه حتى يألفه . وها هى ذى الملعونة "كريت" تثور ! ولم يكن يدرى ماذا يمكن أن يفعل .. ولقد ذهب إلى المطران وقال متوسلاً : "ياأفندينا المطران ،

أعلن الصيام ، وقل إن الذى يقتل رجلاً تركياً فلن يجد السلام فى قبره" .. ثما مالبث أن اتجه إلى القرى التركية : "لاتهربوا وتتركوا بيوتكم أيها الحمقى" وصاح فيهم بأعلى صوته : "أقسم لكم أن أنفاً واحداً من أنوفكم لن يدمى . لقد بعثت بتقرير الى القسطنطينية ولن تلبث القوات التركية أن تصل لإقرار النظام" .

ولكنه لم يتمكن من إيقاف النار بهذه الكلمات . ففى ذات الأحد ، وصلته انباء جديدة : "لقد أشعل الكابتن تيودورس ظهر اليوم النار فى قرية تركية بمنطقة لاسيثى" .. وانطلق الأغوات الكبار ثائرين مدججين بالسلاح .. إلى الباشا : "ياافندينا الباشا ، إن العصيان ينتشر ، وقد فقد الكفار كل إحساس بالخجل . إنهم يحرقون قرانا . هل علمت بما حدث فى لاسيثى ؟"

وقال الباشا وهو يداعب حبات المسبحة فى ضيق :
ـ ومن يكون هذا الكابتن تيودورس ؟ .. إنها أول مرة أسمع فيها بإسمه .

وقفز أغا بيتروكيفالو :
ـ إنه مجرد غلام من جنس ملعون ! إنه ابن مانوساكاس الذى جعل نورى خصياً ! وعمه هو ميخاليليس ، الكابتن الدب الوحشى . إن هذا الغلام قد بلغت به الوقاحة الى حد أن يهاجمنا ! وإذا لم تقبض عليه وتقطع رأسه ، فسوف نقوم نحن بدورنا بحرق الحى اليونانى فى ميجالوكاسترو . هذا مانريد أن نحيطك به علما ياافندينا الباشا ، وفكر كيف ستوضح الأمور بعد ذلك للسلطان ! .

وصاح الباشا :
ـ بحق الرسول لاترتكبوا هذه الحماقة أيها الشياطين ! إن رأسى يدور ! وإذا سمع السلطان بما فعلتموه .. فهى نهايتى !
ـ فاقبض إذن على تيودورس وضعه فى آلة التشهير . فإن لم تفعل أحرقنا نحن ميجالوكاسترو .
ـ وكيف اقبض عليه ؟! أين هو ؟!
ـ فى جبال لاسيثى . ارسل الجند وراءه .

وارسل الباشا الجند الذين بدءوا يجوسون خلال المنطقة . وانتهى أمر محاولتهم إلى تيودورس الذى جمع أصدقاءه حوله وكلهم من الفتية الصغار الذين استبد بهم الحماس . وكان تيودورس قد بدأ يغرر بأغوات "بيتروكيفالو" ويسحبهم خلفه من جبل إلى آخر .. كانوا قد قسموا على أن ينالوه لينتقموا لدم "حسين" . وكان هو وحده فى أغلب الأحيان .. وأحيانا كان يحيط به بضعة من رفاقه ذوى الجراءة .. وكثيرا ماكانوا يبدأون فى إطلاق النار ، فإذا انقلبت الأمور فى غير صالحهم هربوا إلى القمم . وكان تيودورس قد حمل معه بندقية أبيه وانتعل حذاءه وعصب راسه بعصابته التى كانت لاتزال تحمل اثار عرقه ، وكان يحس بأنه هو وأبوه الشهير شىء واحد ، وأن رجولة أبيه قد انتقلت اليه عبر ثيابه وأن أباه بالتالى قد عاد من جديد . الأب والابن أصبحا الآن شخصاً واحداً .. وأصبح هو مع الأيام ـ تيودورس ـ اشد صلابة وأكثر نضجاً واصبحت لكلماته وزنها .. واصبحت لأعماله هى الأخرى وزنها.

ويوما بعد يوم ازداد التفاف اليونانيين حوله .. وخاصة فى تلك الأيام القاسية التى كان الجنود فيها يجوسون خلال الجبال . كان ثمة عشرون فارساً قد استجابوا لندائه .

صاح تيودورس :

ـ إن تركيا تريد دماءنا من أجل هذا أناديكم ياأخوتى ! هل تعرفون ماذا حدث ؟! إن الشرارة قد انتقلت من القرى إلى ميجالوكاسترو ، ولسوف تنتقل من هناك إلى "ريثيمنو" ومنها إلى "كانيا" وان هو إلا زمن قصير حتى تشتعل كريت كلها . فلا تفقدوا شجاعتكم ! تذكروا فقط أن هؤلاء الكلاب لايقتفون مجرد اثر قاتل . وحتى لو أنهم استطاعوا الإمساك به ، فإنهم لن يلقوا بعد ذلك بأسلحتهم ، إن فريستهم هى المسيحية ذاتها ! ولقد كان أجدادنا وآباؤنا يعرفون ذلك . والآن جاء دورنا نحن . قبل أن أهرب ، فتحت خزانة أبى وأخرجت منها راية كتبت عليها : "الحرية أو الموت" ... من أجل الوحدة مع اليونان ! ..

ثم نشر الراية .

وعندما سمع الباشا بذلك انتابه الغضب الشديد ، وأسرع يبحث عن المطران . لابد لأب هؤلاء الكفار من حساب يسوى معه . واصطحب معه خادمه العربى وظل يفكر فى حظه السىء طوال الطريق ، لم يكن قلقه على كريت هو كل شىء .. فقد حملوا اليه صباح اليوم خبراً سيئاً . لقد جاء خادم نورى بك يلهث .. قادماً من المقابر : "ياأفندينا الباشا ، الجواد ميت فوق قبر سيده !" - "ألم تطعمه وتسقيه ؟" - "بل قدمت له الطعام والماء ياأفندينا الباشا ، ولكنه أبى أن يلمس شيئاً . أراد أن يموت ياسيدى .. وقد مات" .

وارتفعت الشمس فى كبد السماء ، واشرأب المؤذن بعنقه من فوق المنارة وأذن للصلاة ! وكان المطران ساعتها يجلس فوق الديوان العريض ومسبحته بين أصابعه يتحدث الى "حاجى سافاس" فى صوت خفيض وهو يفكر فى أيام الشباب أيام كان "ارشيمندريتا" فى "كييف" وممثلاً للضريح المقدس .. كان رأسه الذى يشبه راس الأسد .. يفكر فى روسيا . كم كانت بلداً باركه الله - أى غلال ، وزبد ، وسمك مملح ، وكافيار !! ثم هذه القباب المذهبة فى قمم الكنائس .. وهذا المذبح الفضى وذاك . واللآلىء والياقوت تزخرف الأناجيل ! "إننى لا أخشى شيئا ياحاجى سافاس .. طالما أن روسيا قائمة . ولسوف تفتح فمها يوماً وتبتلع تركيا ، ويومها سوف ترى كريت الحرية ، لا أمل لنا فى غير ذلك" .

ولكن "حاجى سافاس" كان ينظر عبر النافذة غائب الذهن . وهبت ريح حارة .. كان قد هبط منذ أيام الى أرض أبيه بالقرب من "آجا - آيرينى" على مسافة ساعة من ميجالوكاسترو .. وقفزت الى ذهنه فكرة - لعلها كانت أشبه برسالة من الله ، ولعلها قفزت فحسب من خلال الأيام الخوالى التى كان يدرس فيها - ... فكرة تقول ! إن هذه البقعة من الأرض تخفى تحتها آثار مدينة قديمة شهيرة . وهناك ، فى الحقل والى ضفة غدير ، كان ينبش الأرض بطرف عصاه الحديدى .. وتكشفت الأرض فجأة عن شىء يتدحرج .. عن خاتم ذهبى ! .

ولقد أطلع المطران على الخاتم . وكان ثمة نقش فوقه : إمرأة ذات

أرداف ثقيلة تمسك بيدها فأساً ذا رأسين ، وإلى جوارها رجل عار ممشوق القوام ـ مثل أبناء كريت فى هذه الأيام ـ وقد رفع قدمه وكأنه يرقص . وفوق الأثنين كان ثمة قمر فى نصفه .

قدم الخاتم للمطران وهو يقول :

ـ بحق الرب ياسيدى إلا اخفيت هذا الخاتم . لاينبغى أن يعلم أحد بأمره . كم من الكنوز لابد وأن الأرض هناك تخفيها ، وكم من حلى ذهبية للأقدمين ! ولكننا عبيد ، ولو أننا كشفنا سرها لسرقها الأتراك . فلنصبر إذن ، وما إن تتحرر كريت حتى يجيء يونانى آخر لينقب عن المدينة القديمة ويحظى بالشهرة .

وهز المطران رأسه . ذلك كله كان شيئاً طيباً، ولكن ما أكثر الأرواح التى هو مسئول عنها . وماذا تهمه هذه الأشياء التى تدفنها الأرض منذ آلاف السنين ؟ كان يستمع الى "حاچى ـ سافاس" فى أدب ، ولكنه كان يحاول أن يدير دفة الحديث مرة أخرى إلى كريت الحاضرة .. وإلى موسكو ..

وقال "حاچى ـ سافاس" :

ـ نيافتكم تنتظرون الحرية من موسكو ؟ .. ولكن الناس هنا ينتظرونها من فوهات البنادق .. وأنا أنتظرها من هذا الخاتم الذى تحتقره انت ياسيدى .

وفتح "مورزوفلوس" الباب .. وقال :

ـ الباشا .. ياسيدى المطران .

وضحك "حاچى ـ سافاس" بشده :

ـ ألم يعرف هذا الأناضولى الكريتيين بعد ؟!

ثم قبل يد المطران واختفى عبر باب جانبى .

وصاح الباشا فى غضب بمجرد أن دخل :

ـ ياأفندينا المطران .. الحق أننى لا أفهم ! إن الكريتيين قد رفعوا الأعلام يطالبون بالحرية . أية حرية ؟! أنا لا أفهم . إذا كنت حقا تطيع الله الذى تؤمن به وتعمل بما يأمر به ، فهل ترفع علماً وتطالب بالحرية ؟! .. بالطبع لا .. لا ! ، أوليس ذلك يصدق أيضا على ظل الله فى الأرض ..

السلطان ؟! أى لعبة شيطانية هذه التى تجرى إذن فى كريت والتى تسلبنى الراحة والسلام ؟! .

وسأله المطران بدوره :

ـ وماذا يحدث إذن ياأفندينا الباشا إذا كنت تطيع إلها لاتؤمن به ؟! إن ابناء كريت لايؤمنون بالسلطان ، من أجل هذا فإنهم يشعرون بأنهم عبيد ... ومن أجل هذا أيضا يبحثون عن الحرية .

ووضع الباشا يديه فوق خاصرتيه ـ لم يكن قادراً على أن يفهم ذلك ، فضرب الباب بقدمه وخرج . وهناك ـ فى بيته ـ جلس الى جوار النافذة وظل يحدق من خلال منظار مقرب صغير فى اتجاه البحر ليرى ما إذا كانت السفن التركية التى تحمل الجنود .. قد ولت . ذلك وحده كفيل بأن يجعل الأمور كلها واضحة وبأن يعيد النظام .

انتظر الكابتن "ميخايليس" خلف الباب وقد حبس أنفاسه وهو ممسك بغدارتيه . كان يبعث بزوجته كل مساء وهى تحمل طفلها فى يدها .. ومعها "ثاراساكى" و"رينيو" ليقضوا الليل عند زوجة أحد الجيران . ويبقى هو وحده داخل البيت . ولكنه قال "لثاراساكى" بعد بضعة أيام : "سوف تبقى هنا معى ، فلابد أن تعتاد ذلك" ، وهكذا كان الأب والأبن يبقيان معاً . وظل الهدوء سائداً بضعة أيام أخرى .. وأصبح فى مقدور الكابتن "ميخايليس" أن ينام فوق سريره ... بل إنه كان يستمتع بالراحة فى يوم الأحد ذاك . وبينما كان مستغرقاً فى تأملاته .. تناهى اليه صوت ضربات ثقيلة فوق باب الدار ، وأحس بأن أحدا قد دخل ، ثم مالبث الصراخ والعويل أن ملأ المكان .. وعرف على الفور صوت العجوز "مارجورا" إحدى القريبات ..

وكان "تيتيروس" قد استقدمها من الريف لتساعد زوجته فى شراء مايلزمها من السوق وفى الطهو ، فقد كان يحس بالارتياح لوجود شخص من اقربائه داخل البيت . وأطل الكابتن "ميخايليس" من النافذة الصغيرة ، وكانت العجوز "مارجورا" تقف فى وسط ساحة الدار وتصرخ وتشد شعرها . وصاح آمراً :

ـ مارجورا .. ما هذاالصراخ ؟" إصعدى !

ووقفت "مارچورا" أمام سرير الكابتن "ميخايليس" .. وفكاها يرتعشان وحاولت أن تتكلم ولكن الكلمات اختنقت فى حلقها .

وصاح الكابتن "ميخايليس" :

- ماذا تقولين ؟! .. ديامانديس ؟! .. ماذا حدث له بحق الشيطان ؟!

وقالت المرأة المذعورة :

- لقد مات .. وجدناه الآن فقط فوق سريره . جامداً . إن ڤانچيليو تصرخ وتضرب صدرها . لقد هزته .. واخذته بين ذراعيها ، ودلكت جسده بالزيت وماء الورد والخل ، ولكنه ظل متيبس الجسد ! لقد مات مسموماً .. مات ..

- مسموم ؟! وكيف عرفت ذلك ؟! ومن الذى سمه ؟!

- إن وجهه الأخضر الداكن يؤكد ذلك ..

- إذهبى ..

وقال لزوجته وهو يتهيأ للخروج :

- لاتنبسى ببنت شفة عن ذلك !

ثم اجتاز الباب الخارجى .. وتبع العجوز "مارچورا" .

وعند نهاية الشارع ، وقريبا من نافورة "إيدومينياس" .. كان بيت أخيه . ودلف من الباب الذى كان مفتوحاً ، وسمع صوت ڤانچيلو تصرخ وتضرب صدرها .. أما "تيتيروس" فقد كان فى الحجرة السفلى جالساً فوق الديوان فى الركن وأسنانه تصطك .

ودخل عليه الكابتن "ميخايليس" ورفع المدرس عينيه .. ثم مالبث أن خفض رأسه .

وقال الكابتن "ميخايليس" :

- انظر الى يامدرس !

ورفع "تيتيروس" راسه . وبرقت عيناه المذعورتان خلف عويناته وهمس الكابتن "ميخايليس" :

- أنت قتلته .. أنت فعلتها !

- أنا ؟!

ـ نعم ! لو أن رجلاً آخر هو الذى قتله .. لكان فعلها بسكين . ولكن أنت قتلته بالسم .. فعل الجبناء .

ـ لم أكن أستطيع أن أحتمل ذلك أكثر مما احتملته .

ـ لست الومك على قتله أدنى لوم ، ولكننى الومك لانك قتلته على طريقة النساء .. بالسم ! لاتستطيع أن تنكر ذلك .

وعاد المدرس يقول :

ـ لم أكن أستطيع ان احتمل اكثر مما احتملت . ولم يكن فى مقدورى ان افعلها بطريقة أخرى ، لقد كان هو الاقوى

ـ وهل تعرف زوجتك ؟!

ـ ربما ، إنها لاتخاطبنى ، وعندما أصعد إليها فإنها تدفعنى بعيداً . وها أنا جالس انتظر .

ـ تنتظر ماذا ؟!

ـ لاشىء .. انتظر فحسب .

وخرج الكابتن "ميخايليس" إلى ساحة البيت . وكان نحيب "فاسيليو" يتناهى رتيباً مثل صوت الماء الجارى .. وعاد الكابتن "ميخايليس" إلى الداخل :

ـ ماذا تنتظر إذن ؟!

واحس "تيتيروس" فجأة بالبهجة :

ـ فليحدث ما يحدث ! .. ليحدث مايحدث ! فلم أعد اخشى شيئاً

ـ ولكن زوجتك قد تشكوك .

ـ فلتفعل ماتشاء . لقد فعلت أنا ما أردت ، والأمر الآن متروك لها .

ـ إنهض ، والتزم الهدوء . إذا هى اتهمتك فقل الحقيقة . حتى ولو كان ذلك يعنى أن تسجن مدى الحياة . فإن لم تفعل .. فلا تقل أنت شيئاً ! ولاتجعل الرجل الميت يثقل على ضميرك ! هل تسمعنى ؟! إن الرجل السوى يقتل مرة وإلى الأبد ! إنهض !

واوقف أخاه وهو يقول :

ـ هيا نعد للجنازة !

وعندما حملت الجثة خارج البيت فى صباح اليوم التالى ، لم ير أحد وجه الرجل الميت ، فقد كانت مغطاة بالزهور التى أفرغت منها "فانچليو" حديقتها الصغيرة .. كما أن زوجات الجيران كن قد بعثن اليها بالكثير من باقات الورود وزهور البازلاء وكان الكابتن "بوليكسيجيس" ـ عم الميت ـ هو الوحيد الذى أزاح الزهور جانب وألقى نظرة على وجه الرجل الميت .. وحين رآه منتفخاً أسرع فغطاه من جديد .. ثم حدج "تيتيروس" بنظرة حادة وهو يقف فى مواجهته .

وعندما أبصرت "فانچيليو" بالقسيس داخلاً . نزلت من غرفة نومها بشعرها مسدلاً ، والقت بنفسها فوق جسد أخيها ، ومنعت الكل من الاقتراب منه . وظلت هكذا بلا حراك دون أن تبكى أو تعول كما لو كانت نائمة . وحين تقدم الأربعة الذين سيحملون النعش وامسكوا بها ، لم تبد أدنى مقاومة ، بل وقفت وقصت ضفائرها وجدلتها فى ضفيرتين كبيرتين وعقدتهما حول يدى الرجل الميت ، ثم تركت الأربعة يحملونه فى هدوء ..

وحين اجتازوا به عتبة باب البيت رفعت يدها ملوحة بالوداع ، ثم عادت إلى داخل البيت وأحضرت كل ثياب اخيها وجعلتها فى كومة واحدة بالفناء واشعلت فيها النيران . وبعدها قامت بتنظيف البيت .. وأصلحت من حالها وجلست فى فناء البيت وعيناها تحدقان فى النيران .

وبعد أن انتهت مراسم الدفن عاد عمها الكابتن "بوليكسيجيس" وجلس إلى جوارها وتناول يدها وسألها عما إذا كان أحد يشتبه فيمن يكون القاتل ، فنظرت اليه دون جواب .. بل اكتفت بأن هزت رأسها يميناً ويساراً وهى تضغط شفتيها فى تحد .

وخشى "تيتيروس" ليلتها أن ينام فى بيته أو فى بيت أخيه ، فأمضى ليلته عند صديقه "إيدومينياس" ، وظل الأثنان يتحدثان عن الموت والخلود والروح .. قبل أن يستسلم الأثنان للنوم .

ومرت أيام ثلاثة لم تكن "فانچيليو" خلالها تعيره أى اهتمام حين يمر إلى جوارها وكأنه شبح داخل البيت . وكانت تغلق على نفسها حجرة أخيها

وتضيىء مصباح الميت وتضعه إلى جوار كوب تملوءه بالماء القراح حتى ترتوى روحه إذا أصابها ظمأ . كانت تعلم أن روح الرجل تحوم حول بيته طوال أربعين يوما . وكانت تحس بهذه الروح فوق شعرها وعنقها ويديها الراعشتين .. وكانت تحس بها فى الليل وكأنها فراشة فوق شفتيها .. ولم تمنحها الدنيا من قبل شيئاً فى مثل ذلك الجمال .

ظلت ثلاثة أيام لاتنطق بكلمة .. نظراتها جامدة وعيناها بلا دموع ، وهى ترتدى ملابسها السوداء إلا من شريط أصفر تعقص به شعرها .

ولقد توسلت إليها عمتها "كريسانثى" أن تصحبها معها الى بيتها الريفى الصغير القريب من البحر ـ فقد يغير ذلك من حاله ـ ولكنها هزت راسها ... وعادت لتحبس نفسها فى حجرة أخيها . ولم تذهب إلى قبره أبداً كانت هادئة تماماً . وفتشت فى صندوقها وسط دوطتها الهزيلة ، ثم عادت تنظف البيت وكأنها تتأهب لرحلة .

وفى مساء اليوم الثالث قالت للعجوز "مارچورا" :
ـ أعدى المائدة ، وأخرجى المفرش المنقوش ، والأطباق والسكاكين والشوك ، وقولى لسيدك إننى سأتناول الطعام معه هذا المساء . ولا تضيئى اية مصابيح فيما عدا اثنين .. مصباحى الموت .

وكاد المدرس يسقط مغشياً عليه من شدة الخوف حين رأى مصباحى الموت مضاءين ، وجلس فوق حافة المقعد دون أن يجرؤ على النظر فى عينى زوجته التى جلست فى مواجهته شاحبة جامدة كالجثة وهى تتذوق الأطباق دون أن تنطق بكلمة وقد غطت بشرتها بطبقة كثيفة من المساحيق البيضاء كالطباشير وارتدت ثياب العرس ووضعت زهور الليمون فى ثنايا شعرها .

وظلا جالسين هكذا وقتاً طويلاً يواجه أحدهما الآخر دون أن يصدر عنهما صوت . وكان "تيتيروس" يفتح فمه أحيانا ليتكلم .. ولكن الكلمات كانت لاتلبث أن تحتبس فى حلقه بينما العرق يتصبب من وجهه . وبدأت نسمات المساء تهب عبر النافذة فترتعش لها زؤابات لهب المصباحين .

وفجأة مدت المرأة يدها وملأت كأسين إلى حافتهما بنبيذ "كيساموس" الأحمر والذى كان هدية يوم عرسها من مانوساكاس .. يرحمه الله .

ورفعت كأسها .. ودفعته فى عنف نحو كأس "تيتيروس" فحطمته وهى تقول فى صوت عميق أجش كصوت الرجال دون أن ترفع كأسها إلى شفتيها :

- إننى أشرب نخبك أيها القاتل !

ثم نهضت .. واتجهت إلى فناء البيت وظلت فيه لحظات قبل أن تصعد إلى غرفة أخيها لتغلقها عليها . وفى الليل ، لم يسمع أحد صوتاً ، وفى الصباح وجدوا "ڤانچيليو" معلقة من عنقها بحبل غسيل يتدلى من سقف الغرفة .

ووصلت الأنباء إلى الكابتن "بوليكسيجيس" وهو داخل حجرة "أمينة" فى الصباح الباكر . كانت الأرملة قد تهيأت لكى تتنصر .. ولكنها فضلت أن تنتظر حتى يسود الهدوء كبريت ، وحتى لاتثير الأغوات .. وكانت سعيدة بأنها ستصبح نصرانية يتاح لها أن تخرج لتسير فى الطرقات بدون حجاب وأن تحدق حولها وهى داخل الكنيسة .. وأن يراها الناس ، وأن تداعبها الشمس ويداعبها الهواء فى حرية . وأن ترتدى الثياب اليونانية وأن تظهر شعرها الأسود لتستمتع الدنيا بمرآة ! كان المسيح بالنسبة اليها باباً تفتحه وتعبر من خلاله إلى الطرقات بلا حجاب ! .

وبينما كانت تتأمل وهى مسترخية فوق سريرها إلى جانب الكابتن "بوليكسيجيس" .. فى كل فوائد الحياة كيونانية ، اقتحمت خادمتها الباب مشعثة الشعر ، كانت قد هرعت إلى العوانس الثلاث لتعرف آخر أنباء اليوم ، ثم ها هى ذى الآن تعود وقد شل لسانها .

وقالت وكلماتها تتعثر :

- كابتن .... ! ابنة أخيك "ڤانچيليو" شنقت نفسها .

وترك الكابتن "بوليكسيجيس" يد "أمينة" ونظر إلى المرأة :

- شنقت ؟! .. متى ؟! من قال لك ؟

ـ العوانس الثلاث ، الليلة الماضية فى بيتها . بحبل الغسيل .

وكانت "أمينة" أثناء ذلك قد تناولت مرآتها الدائرية الصغيرة من فوق الوسادة .. وأخذت تتفحص لسانها وأسنانها ورموش عينيها . ثم قالت :
ـ ووو ! لسانى أحمر هذا الصباح ، أين اللبان ياماريا ؟

وقالت المرأة وهى تبحث عن اللبان :
ـ يقولون إنها تركت زوجها وتبعت أخاها .
ولحظتها كان الكابتن "بوليكسيجيس" يفكر وهو يتنهد بعمق :
ـ يالسلالتنا وما أصابها ! ولا أطفال عندى .. !

ثم انحنى فوق "أمينة" التى كانت تتملى من جمالها فى المرآة .. وتحسس جسدها فى رقة وهو يقول :
ـ سوف يكون ولدنا نصف كريتى ونصف شركسى . أعنى أنه سوف يكون خالداً !

وأحس بأن صدره يمتلىء بالثقة وكأنه أدرك تلك الحقيقة لأول مرة . ونهض ليخرج . ولكن ركبتيه كانتا ترتعشان .. ومن ثم فقد عاد يغوص فى الفراش . لابد أن ينجب ولداً تجرى فى عروقه الدماء الشركسية .. ليستطيع الوثوب إلى صهوة الجواد قبل أن تصل بصقته إلى الأرض ! .

كان قد حكم منذ زمن طويل بأن هذان الأخ والأخت ، ليسا من جنسه . كانا أحط من أن يكونا من هذا الجنس : فالأخ سكير عربيد لايصلح لشىء ، والأخت إمرأة مشاكسة عقيم . ولم يكن هناك أبناء أخ أو أخت غيرهما .. كان خيط العائلة يوشك أن ينقطع . ولكن هذه الشركسية التى تجلس الآن وهى تمضغ اللبان وتنظر فى مرآتها .. والتى تفوح رائحة المسك من فمها ، سوف تمنحه الولد .. الذى سيصبح رجلاً خالداً ـ والذى سيبقى على سلالة الكابتن "بوليكسيجيس" إلى الأبد .

ولكنه عاد فتذكر كلمات المرأة البربرية .. وأحس بالخجل .
فغمغم يقول : "أمينة .. ياطفلتى .. يجب أن أخرج الآن" .. ونهض

واقفاً وتمنطق بحزامه ووضع طربوشه فوق رأسه .

ورفعت "أمينة" ذراعها العارى ، فطرقت مفاصلها ، وقالت فى ضيق : "إذهب" ..

ثم نظرت إليه بعينين ناعستين .. وتثاءبت .

وخلال الأيام الثلاثة التى انقضت بين موت "ديامانديس" وانتحار "ڤانچيليو" ، جرت أحداث عنيفة فى كريت . ففى القرية ، اغتال المسيحيون كثيراً من الأغوات واحداً بعد الآخر ، وفى ميجالوكاسترو فعل الأتراك نفس الشيء مع المسيحيين ، ففى مقابل كل رجل اغتيل فى الريف على يد المسيحيين كان يسقط اثنان من اليونانيين فى نفس الليلة ووسط أزقة المدينة . وبدا أن الزمام أفلت من يد الباشا ، ولم يعد أمامه سوى أن يمسك بمنظاره المقرب ويتطلع من خلال النافذة يفتش فى البحر عن حملة تركية قادمة .

وفى اليوم الثالث ، وفجأة عند الظهر ـ أغلقت بوابات القلعة .. ولم يعد بمقدور أحد أن يدخل إلى المدينة أو يخرج منها .

ومع ذلك اليوم بدأ شهر رمضان . وصام الأتراك عن الطعام والشراب والتدخين طوال اليوم . وعندما كان الليل يحل ويتلألأ أول نجم فى السماء ، كان كل شيء يحل لهم ، وكان ثمة طبلة ضخمة أمام بيت كل تركى من الأغنياء . وكانت تدق دقات كئيبة وعنيفة كأنها إشارات بدء الحرب . وما إن كان المسيحيون يسمعوها حتى يتجمعون فى بيوتهم وهم يرتعشون خشية أن يخرج الأغوات إلى الشوارع بعد أن يتناولوا إفطارهم ويقتحموا عليهم الأبواب .

وكان الجيران كلهم يتجمعون كل مساء فى بيت الكابتن "ميخايليس" يلتمسون الحماية فى القرب منه . وكانوا يسترخون فى الفناء ـ فالوقت صيف ـ أو فى الشرفة ، بينما النساء منهم يتمددن فى حجرات النوم وكان الكابتن "ميخايليس" يظل داخل حجرته الصغيرة يراقب الموقف ، وفوق رأسه بندقية معلقة على الحائط .

وفى إحدى الليالى كان ثمة تجمع بين المتحدثين وقادة المسيحيين فى

ميجالوكاسترو عند المطران فى مقر المطرانية ، وكان الكابتن "ميخايليس" واحداً من بين المجتمعين ، كما كان من بينهم أيضاً ذلك الدب البحرى "ستيفانيس" الذى كان ينتعل حذاءه البحرى كما لو كان متأهباً للقيام برحلة من رحلاته ، كان يفكر فى تلك الأيام الخوالى وكأنما نسى أنه أصبح أعرج .

وتحدث المطران فى إيجاز ولكن فى اهتمام وحذر . إن كريت تمر من جديد بأيام مظلمة لايعرف أحد مايمكن أن تسفر عنه .. وإن مملكة المسيح لفى خطر .

وعاد "البقة الوردية" يدلى من جديد باقتراح :

- سيدى المطران : .. امض لفورك الى أثينا" وقابل الملك . لابد أن يبعثوا إلينا بالمؤن والذخائر ، فلسوف نضيع إن هم لم يفعلوا ذلك . ولكن اذهب إلى هناك بنفسك ياسيدى ، فإن وجه الرجل هو سيف .

ولكن المطران هز رأسه وقال :

- أنا لا أدع غنمى فى الساعة التى تتعرض فيها للذئاب . فليذهب الكابتن "إلياس" .

ولكن الكباتن "إلياس" قال غاضباً :

- إن زهرى لايزال قادراً على أن يتدحرج ! أنا لست عجوزاً ! وفى مقدورى أن أقود فى الحرب ، أنا لن أذهب .. فليذهب حامل القلم "حاجى - ساڤاس" .

ثم استدار إلى "حاجى - ساڤاس" الذى كان حاجباه الكثيفان لايزالان مشدودين من الغيظ .

وقال المطران :

- لاتورطوا أمنا التعيسة المسكينة .. اليونان معنا فى هذا الأمر ، وذلك لايعنى سوى الدمار لها ، ولنثق بالقوى الكبرى وفى مقدمتها روسيا التى تؤمن بالحق مثلنا .

وقال الكابتن "ميخايليس" :

ـ فلنثق فى القوى الصغرى ـ قوانا نحن . هذا رأيى .
وصاح الكابتن "إلياس" :
ـ ورأيى أنا أيضا .. ! لماذا خلق الذئب بعنق قوى ؟! .. لكى يسحب فريسته بنفسه !

وقال السيد "إيدومينياس" :
ـ فلنسلك أكثر من طريق ..
ولكن أحداً لم يستمع اليه ، وتفرقوا جميعاً قرب منتصف الليل دون ان يصلوا إلى قرار .

وتتابعت الأيام .. ليلة إثر نهار .. وكلها يملؤها الفزع . كان الأتراك الجوعى يؤمون المساجد بالنهار تلبية لأذان المؤذن .. ويندفعون خارجين منها بعيون كأنها زجاجية .. أو كأنهم قوم من العميان .. وفى الليل ، كانوا يهرعون بعد أن شبعوا أكلاً وشرباً إلى المقاهى .. ويجولون الأجزاء اليونانية من المدينة وهم يطلقون النار فى الهواء ليرعبوا أولئك المتقوقعين خلف أبوابهم المغلقة .

وكان "على أغا" يتسلل بحذاء الجدران كل ليلة بينما الأغوات الأتراك لايزالون على موائد الإفطار .. متجها إلى بيت الكابتن "ميخايليس" ليحيطه علما بآخر الأنباء : هذا ماقاله الإمام اليوم فى المسجد .. هذه هى الكلمات التى ترددت فى المقهى ، المؤذن حرضهم على العنف ، ولكن هذا البك أو ذاك عارضه ـ انباء طازجة ساخنة .. أولاً بأول .. وكل مساء .

وسمعت ثلاث دقات ناعمة فوق باب البيت .. ودخل "على أغا" مهموماً ليجلس فوق مقعده بالقرب من الحوض بينما تحلقه الجيران كلهم . ثم قال وهو يتنهد :
ـ هذ "التلغراف" الملعون ! إنه كلب رأسه فى كريت ؟ وذيله فى القسطنطينية .. إن أحدهم ليشد الذيل فى القسطنطينية فلا يلبث الرأس أن يعوى بعد ساعة واحدة فقط فى كريت .. ثم تبدأ المتاعب .

وسأله كراسوچورچيس" فى قلق :
ـ المتاعب ياعلى أغا ؟! تكلم بوضوح ! ماذا تقصد ؟!

ـ لقد تلقى الباشا برقية اليوم تقول إن الجنود سوف يصلون غداً الى ميجالوكاسترو ! .. ومعهم المدافع ، والفرسان يحملون علم الرسول الأخضر .. هكذا يقولون .

وصاحت "بنيلوب" وهى تدفن رأسها بين ركبتيها المنتفختين :
ـ آه ياديميتروس ! .. أى جحر سوف تزحف اليه حتى لايدركك الجنود !
وبدأ "على أغا" يصف الأحتفال الذى جرى فى المقاهى ، وكيف قرروا هناك أن يتجهوا غدا الى الميناء وهم مدججون بالسلاح ليكونوا فى استقبال راية الرسول ، وكلما استرسل فى حديثه .. اختفى الأسى فيه بالتدريج : كان قد ارتفع كثيراً ! لم يعد ذلك الرجل المسكين المتواضع الذى يقبع فى الركن فلا يلتفت اليه أحد .. بل أصبح رجل الأحداث ! .

وقال "ماستراباس" وعيناه الطيبتان يملؤهما الذعر :
ـ فلندع الكابتن "ميخايليس" ولنسمع مايقول . أنا لن أطأ بقدمى أرض الشارع غدا .

وقالت "كريسانتى" :
ـ ولا أنا .. ولا حتى لزيارة المساء ، وليسامحنى الله .
كانت تحل كل مساء فى بيت الكابتن "ميخايليس" تلتمس حمايته مثل باقى النسوة الجارات ، فأخوها يقضى كل لياليه مع أمينة .. وبدلاً من أن تصبح هى مسيحية .. فقد أصبح هو تركياً" .. هكذا كانت تقول لنفسها .. دون أن تجرؤ على التصريح به بصوت مسموع .

ونام الجيران تلك الليلة مثل الأرانب وهم لايكادون يقدرون على النوم .. ويفكرون كيف يمكن أن يقتحموا أسوار سجنهم لينطلقوا هاربين منه .

وتناهت فى الصباح دقات الطبول فى الميناء .. ووقف الأتراك : طربوشاً إلى جوار طربوش ، فصبغوا الحوائط باللون الأحمر . وصعد "ثاراساكى" ـ الذى كان قد هرب من البيت ـ إلى قمة الصخور المطلة على مدخل الميناء وظل يجول بنظرات عينيه . وكانت الباخرة الصدئه قد القت مراسيها .. وبدأت تخرج من جوفها أناضوليين منتفشى الأوداج ذوى وجوه مجدرة ،

ومدافع وجياد ، تبعتهم أسراب من الدراويش فى ثيابهم الخضراء الزاهية .. وبقبعاتهم البيضاء المدببة ، والخناجر فى أحزمتهم ، ومالبثوا أن صعدوا إلى رصيف الميناء ونشروا راية الرسول الخضراء فى مواجهة بوابة الميناء وبدءوا يرقصون حولها فى بطء وهم يصفقون بأيديهم .

واقترب "ثاراساكى" أكثر .. وفجأة بدأت رقصة الدراويش تصبح أكثر عنفاً .. وبدأ كل واحد منهم يدور حول نفسه وكأنه الدوامة .. حتى لقد أصبحت ثيابهم تصبح فى شكل الأجراس .. وبدأت عيونهم تحمر .. وانتزعوا خناجرهم وبدأوا يجرحون بعضهم البعض حتى لقد تناثرت الدماء حولهم وهم يصرخون فى ضراوة ـ ثم بدأت الرقصة تعود إلى بطئها وهدوئها .. وعادوا يدسون خناجرهم فى أحزمتهم .. وبدأت صرخاتهم تصبح نصف حديث .. ثم كلمات واضحة ثم همساً .. ثم نحيباً ناعماً رقيقاً .

وعاد "ثاراساكى" فى الظهيرة وقد أثاره ما رآه .. وقص كل شىء على مستمعيه الذين استبدت بهم الدهشة .

وسأله أبوه عابساً :

ـ ألم يستبد بك الخوف ؟

ـ لم أخف من الجنود .

ـ من الدراويش ؟

ـ ولا من الدراويش .

ـ ممن إذن ؟!

وتردد "ثاراساكى" ....

وحثه أبوه على الكلام وهو يرفع ذقنه إلى أعلى :

ـ .. هيا .. تكلم ..

وقال ثاراساكى :

ـ من الراية الخضراء .. ياأبى !

غرقت "ميجالوكاسترو" فى الظلام وسادها سكون عميق فى الأيام القليلة التى أعقبت وصول فصائل الجنود ، وكان المسيحيون من الكبار يخرجون الى مقر المطران ويعودون منه . وفى ذات الوقت كان الأغوات

يعقدون اجتماعات فى مقر الباشا أو فى الثكنات المليئة بالصخب والضجة . وفتحت بوابات القلعة الثلاث ساعة واحدة كل يوم .. وعبرها ، تدفق الفلاحون الأتراك بحريمهم وأمتعتهم وقد بدا عليهم الاضطراب والخوف . وإمتلأت بهم المساجد والتكايا .. وبدءوا يفتحون بيوت المسيحيين بعد أن يقذفوا بسكانها إلى الخارج .

وبعث المطران بالسيد "حاجى ـ ساڤاس" إلى أثينا يحمل رسائل تهيب بالأخوة اليونانيين أن يبعثوا بالسفن لإنقاذ الكريتيين المسيحيين من الخناجر التى استلها الأتراك وشحذوها .

وفى إحدى الأمسيات ، تجمع الجيران فى بيت الكابتن "ميخايليس" ليتدبروا أمرهم ويصلوا إلى قرار . ولم يتخلف منهم أحد . حتى الكابتن "بوليكسيجيس" و"إيدومينياس" ، و"تولوپاناس" الخباز وكوليڤاس حفار القبور ، والدكتور كاساباكيس وزوجته الفرنسية ... كلهم كانوا موجودين . لم يتخلف سوى "أركوندولا" وشقيقها الأصم رغم أن الدعوة وجهت إليهما . لقد كانت تعيش فى حماية الباشا ، ولم يكن ثمة ما يدعو إذن لأن تكون حاضرة ، وكان أخوها قد انتهى فى تلك الأيام من رسم صورة بالزيت للباشا ، وكان يترك نافذته المطلة على الشارع مفتوحة عمداً حتى يظهر المارة إعجابهم بصور الباشا المعلقة على الحائط فى إطارها الذهبى .. وكانت الصورة طبق الأصل من الباشا .. لم تغفل شيئاً من تفاصيلها ، حتى ذلك التؤلول فى أنفه .. أو تلك الشعيرات فى أذنيه والتى تشبه شعر الخنزير ... لم تغفلها الصورة .

كان التجمع هذه المرة داخل البيت وليس فى فنائه حتى يامنوا المتلصصين . وكان الكابتن "ميخايليس" يبدو عبوساً : فقد ضايقه أن يكون بين المجتمعين .. تلك المراة الشركسية ... مع الكابتن "بوليكسيجيس" .

وكان "ڤاراساكى" يجلس مع الرجال : فقد قال له ابوه :
ـ انت تجلس معنا .. فانت رجل .
وساد الصمت طويلاً لأن رب البيت لم يتكلم . وضاق الكابتن

"بوليكسيجيس" بهذا الصمت ولم يعد يستطيع ان يتحمله اكثر مما تحمله . فقال موجهاً نظراته الى اخته التى جرته الى هذا الاجتماع :
ـ هل حضر كل الجيران ؟!

لقد ذكرت له اخته أن الجيران سوف يقررون ما يفعلونه لينقذوا انفسهم من أيدى الأتراك . ولكنه هو لايستطيع ان يقرر شيئا بدون "امينة" ، وكل ماسيفعله المجتمعون الآن لايهمه إذن فى شىء .

وكاد الكابتن "ميخايليس" أن يرفع رأسه ويقول : "لماذا انت هنا يا"بوليكسيجيس" بك ؟! إن جيرانك يسكنون فى الحى التركى .. وبيتك هناك حيث الباب الأخضر" .. ولكنه تمالك نفسه . إن الرجل ضيفه على أية حال ، وليس من السلوك الطيب ان يفعل ذلك معه .. ومن ثم فقد لزم الصمت .

ودخل تيتيروس . وكان قد أحس بالقوة والشجاعة منذ ان ماتت زوجته . ولم يعد يشعر بانه اقل من غيره من الرجال . لقد اثبت انه يستطيع أن يقتل .. وأن يقتل ببراعة حتى أن القتيل لم يزره فى الليل ! كذلك فإن زوجته الميتة لم تضايقه يوماً أثناء نومه ، وكان التلاميذ هم أول من جرب فيهم تيتيروس قوته : فلم يعد يسمح بأن يستثيروه كما كانوا يفعلون من قبل .. وكان يضربهم بقسوة .. وهكذا ...... بدأ يتكلم بدلاً من شقيقه :
ـ لقد اجتمعنا لكى نقرر مايمكن أن نفعله لإنقاذ انفسنا من ايدى الأتراك ، وامامكم حل من ثلاثة حلول : إما أن تظلوا داخل بيوتكم .. وربما تتجنبون بذلك المجازر ، وإما أن نهرب عبر بوابات القلعة وننتشر فى القرى .. وإما أن ننتظر حتى تصل السفن اليونانية التى أرسل المطران فى طلبها من اليونان . دعونا الآن إذن نختر واحداً من هذه الحلول .. أيها أكثر أملاً لنا . وبعدها نحزم امرنا والله يساعدنا ! .

وطرقعت مفاصل المقاعد ! .. وانحنت الرءوس .. وكل واحد يزن الكلمات لكى يقول رأيه . ولكنهم جميعاً رأوا العقبات فى طريق كل واحد من هذه الحلول ... ومن ثم فقد كان القرار صعباً .

وكان أول الذين كسروا حاجز الصمت .. كاساباكيس الطيب ـ ذلك السمين ابن الريف المجدر الوجه ، والذى بعث به ابوه الى باريس ليدرس الطب .. وهناك ظل طيلة ثلاثة أشهر يواظب على حضور محاضرات فى القانون وهو يظنها محاضرات فى الطب ! وعندما اكتشف خطاه .. وبعد ان أتى تماماً

على حقول ابيه ، عاد إلى ميجالوكاسترو وهو يضع على أرسه قبعة عريضة الحواف ومعه ابنة صاحبة الفندق الباريسية التى كان يسكن عندها . وافتتح بقالة فى المدينة وها هو الآن يتكلم بعد تيتيروس :
ـ هناك حل رابع ايضا يامدرس : ان تلجا إلى قنصليات الدول الكبرى !

وعقب كراسوچورچيس متسائلاً :
ـ وهل هناك متسع فيها لنا جميعاً يادكتور ؟! انت تتكلم عن القنصليات وتبدو سعيداً .. ولكن حتى القنصليات .. هى مجرد بيوت بحوائط أربعة . لكم من الناس تتسع ؟ لعائلتين على الأكثر .. فماذا يفعل الباقون ؟!
وفتح ماستراباس ، الرجل المقدس ـ فمه ليتكلم ولكنه سرعان ما اغلقه من شدة العصبية والقلق .

وصاح فيه تيتيروس مشجعاً :
ـ تكلم ايها الجار
ـ كما ترون ...
قالها .. وقد إحمر وجهه .

ووقف كراسوچورچيس بمعدته المليئة وجسده الذى يحتاج للاغتسال فقد غرق فى عرق القلق والاضطراب طوال اليوم واصبح جسده يبعث بكل الروائح التى يمكن ان تنبعث من الرجل .. ونظرت اليه زوجته فى افتخار وزهو : كانت تعشق زوجها حين يكون مضطرباً هكذا ..

وساله تيتيروس :
ـ كلنا آذان صاغية ياكراسوچورچيس .
ـ فاستمعوا إذن إلى ما افكر فيه .. إن افضل الطرق إلى الامان هو الطريق إلى القرى . أم اننا سنظل محبوسين هنا كالفئران فى المصيدة ؟!
كثيراً ماذبح الاتراك اليونانيين قبل هذه المرة ، فعلام ننتظر السفن ؟ ام اننا ننتظر المعجزة ؟ انا لا اثق فى اثينا . هم يتمنون ولاشك ان يساعدونا ولكنهم لايستطيعون لانهم يخافون تركيا ويخافون الفرنسيين . كم مرة كان اليونانيون"

وقاطعه كولياس :
ـ ولكن .. كيف الهرب ياجارنا ؟ .. هذا هو المهم ! إن معنا كومة من الأطفال .
فقال كراسوچورچيس :

- انا لا أثق باثينا .. ولكنني اثق بنفسي . اتركوا لي القيادة وانا اقسم بالخبز الذى أكله انني سوف اقودكم جميعاً الى الجبال - انتم وزوجاتكم وأطفالكم وكل أمتعتكم ! .

وعلت الهمهمات .. واقترب الجميع من كراسوچورچيس الذى صمت لحظات وهو يراقب فى زهو اثر كلماته على جيرانه . انظروا ! لقد كانوا دائماً يحتقرونه لأنه مختال عاطل ينتعل حذاء مرقعاً .. والآن سوف يعرفون قدره ! .

وقال الطبيب الذى كان قد ساءه الا يعير احدهم إهتماماً لما طرح من حلول :

- فلنسمع إذن خطتك ! إن ماتعد به امركنير ياجارنا . ولست أرتاح لذلك .
- ولا انا ياطبيب . ولكن اسمع : إن علاقتي طيبة بالجنود الذين يحرسون بوابة المستشفى . لاتسالونى كيف ولماذا ! .. عملية تهريب صغيرة - جمدانتان أو ثلاث من الراكى .. صندوقان او ثلاثة من الطباق ، خيط او خيطان من النقانق .... اشياء تعودت ان اقدمها لهم كهدايا حتى يغلقوا عيونهم ... لاداعى الآن لمزيد من التفاصيل ... المهم انني سوف اشحم العجلة من جديد .. وبعدها سوف ننزلق جميعاً دون ان يمسنا اذى .

وصاح كولياس :
- عشت ياكراسوچورچيس ! .. إننى ائتمنك على اولادى بكل سرور ..
وقال ماستراباس وهو يختلس نظرة إلى زوجته ليرى ماإذا كانت توافقه :
- وأنا ايضا ..

وفى تلك اللحظة .. سمعت ثلاث دقات ناعمة على الباب .
وقال تيتيروس وهو يتجه الى الباب ليفتحه :
- على اغا !
ولكن الكابتن "ميخايليس" رفع راسه وقال :
- اقذف به إلى الخارج !

وفتح تيتيروس الباب وقال :
- على اغا .. لاتغضب منا ، نحن مجتمعون هذا المساء .. فعد غدا .
ولكن على اغا ظل بالرغم من ذلك واقفاً عند الباب :
- جئت اقول لكم إن الاغوات يدبرون قتلكم .
- متى ، بحق الله ؟!

ـ قريبا .. اثناء احتفالات عيد الفطر
ـ ادخل

ودخل الرجل العجوز واستند إلى الباب من الداخل وقال فى نبرات متعالية :
ـ عمتم مساء ايها الجيران .
كان يحمل انباء مخيفة تستحق ان يختال الآن بها ! ولكنه اجفل حين وقع بصره على الكابتن "ميخايليس" .. فقال :
ـ معذرة .. انا فى عجلة من امرى . ولكن ، كان لابد ان اجيء ، إذا كنتم تؤمنون بالله فحاذروا ايها الجيران ! إن الأغوات يعدون العدة لمجزرة قبل عيد الفطر . وقد قسموا بالفعل مختلف اجزاء المدينة . وقد عهد بهذا الجزء الذى يسكنه الكابتن "ميخايليس" إلى افضل فرسانهم .

وقال الكابتن "ميخايليس" وهو يشير بيده :
ـ حسن ... فانصرف الآن .
ولكن ماستراباس قال :
ـ حاول ان تعرف كل مايمكنك ان تحصل عليه من معلومات يا على اغا واقدم علينا بها مساء غد .. إلى اللقاء !

واجتاز الرجل العجوز ساحة البيت إلى الخارج .. وما إن اصبح فى الشارع حتى اسرع متجهاً نحو المقاهى التركية .
ووقف الكابتن "بوليكسيجيس" :
ـ معذرة فلدى مشاغل هذا المساء . وسوف تخبرنى شقيقتى بكل ما يستقر عليه رايكم . كل ما اريد ان اضيفه هو اننى سوف اذهب إلى الجبال ـ فذلك مايتطلبه الشرف .

فقال الكابتن "ميخايليس" :
ـ جميل انك تذكرته !
واسرع الكابتن "بوليكسيجيس" يحث الخطى . كان الوقت متاخراً ولابد ان "امينة" قد اوت إلى فراشها .. وانها تمضغ الآن اللبان حتى لاتستسلم للنوم وهى تنتظر عودته .

واتجه الكل بابصارهم إلى الكابتن "ميخايليس" ليروا ماسيقول . وكان هو قد احس بالارتياح بعد ان خلا الجو من رائحة المسك ورائحة تركيا .
ورفع يده وقال :

- ايها الجيران ، كلنا هنا رجال ومعنا سلاحنا . إننى لأحس بالخجل إن أنا غادرت كريت وتركتها فى مثل هذه الأيام الصعبة . فلنخرج النساء والأطفال . لقد تكلم كراسوچورچيس وكان كلامه طيباً ، أما بعد ذلك فليس أمامنا إلا حل واحد : سلاحنا ! أنت أيضا يامدرس سوف تكون معنا .. وكذلك أنت ياسيد إيدومينياس ..... كلكم ! .

وكان العجوز تولوپاناس لحظتها يداعب إبهامه بعصبية وقد احنى رأسه مفكراً في ولده الذى لم يعد في وجهه أنف أو أذن أو شفة .. أين ذهب هذا ياترى ؟ ومن الذى يرضى بأن يصحبه معه ؟! إن منظره أصبح بشعاً ، وقد يعدى من يلمسه ، وقد جاءته الشرطة أول أمس لتأخذه إلى قرية المخذومين فصرخت أمه واضر الرجل العجوز إلى أن يدس بضع عملات فضية فى أيدى الجاويشية ليعودوا أدراجهم .

وبالرغم منه ، أفلتت عن صدره تنهيدة عميقة حتى لقد استدار نحوه الجميع وسألوه فى دهشة :

- ماذا حدث ياجارنا ؟!

وقال والدموع تجول فى عينيه :

- لاشىء .. لن أذهب معكم .. إلى أين أذهب ؟! ومن الذى سوف يرضى بإيوائى ؟!

ونهض واقفاً . ولم يرفع واحد من الحاضرين يداً تمنعه ، وظل يتعثر فى مشيته حتى وجد طريقه فى الشارع .. واختفى .

وقال تيتيروس :

- اتفقنا ... وصلنا إذن إلى قرار ، مارأيك ياسيد إيدوميتياس ؟ أنت لم تفتح فمك حتى الآن .

- أنت تعرف رأيى .. كلكم تعرفونه . ولقد عبرت عنه مراراً كل ماتقولونه وتفعلونه ليس إلا زبداً وجفاء ... طالما بقى خليج "سودا" ..

وصاح الطبيب وهو يغالب الضحك :

- اتفقنا !

ثم أمسك بقبعته الضخمة متهيا للإنصراف ، فقد أوشك الليل أن ينتصف .

وقال الكابتن "ميخايليس" :

ـ ياطبيب .. سوف تكون معنا في طريقنا إلى الجبال ..
ـ ولكن ...
ـ ليس هنا ولكن ! .. سوف تصحبنا .. لهذا اصبحت طبيباً . وسوف يكون هناك جرحى .

ونظر الطبيب إلى زوجته التى كانت تجلس إلى الطرف الآخر من الديوان وهى لاتفهم بالضبط مايدور ومايقال . وضغطت على فمها بمنديلها وسعلت . كانت المسكينة قد تغضنت واصفر جسدها . وكانت تتلهف على ان ترى السكك الحديدية الكريتية تمر ببابها وتهز عتبات الدار . لم تعد باريس الآن سوى اسطورة بعيدة عنها كل البعد .. آه .. لو كانت تستطيع ان تستقل باخرة او زورقاً ... او حتى محارة ـ اى شىء لتهرب بعيداً . اى شىء لتهرب بعيداً ...

ووقف الكابتن "ميخايليس" وقال قبل ان يصعد إلى غرفته الصغيرة :
ـ ما قلناه الآن ... سوف ينفذ .
.... لقد تكلم كثيراً .. واحس بحاجته إلى ان ينفرد بنفسه .
وتنفس الجيران بارتياح .. وانحلت عقدة الألسن .. حتى النساء شاركن فى الحديث ، ودخلت رينيو باطباق الراكى والمرئى والقهوة .

وقال كراسوچورچيس وهو يرفع راسه محيياً زوجة الكابتن "ميخايليس" :
ـ فى صحتك ياسيدتى .. متعك الله بمن تحبين .. وفى صحتك ايضا يارينيو .
وقرعت الكئوس ، وشرف الجميع ، وعادت رينيو تملؤها من جديد .. كان الجميع سعداء .

وصاح كراسوچورچيس وهو يزم شفتيه فى قبلة إعجاب :
ـ ماروع ماتفعله قطرة شراب واحدة ! كاس واحد من الراكى ليس اكبر من الكشتبان .. روحى فداه ـ ولكن تركيا كلها تغرق فيه ! نعم .. استطيع ان ارى فى قاعه السلطان نفسه .. غارقاً .. ميتاً !

وقال تيتيروس :
ـ ليس ذلك مايفعله الراكى .. بل ماتفعله الصحبة .
وقال ماسترابس وقد بدات عقدة لسانه تزول بتاثير الشراب .
ـ معك حق يامدرس ! إن الرجال مثل الاجراس ، الموت نفسه لايخيفهما او يفزعهما إذا كانت تدق .

وكانت أذنه حساسة للغاية ، ففي الصيف الماضي لم لكن يستطيع النوم في قريته في الليلة الأولى : فقد كانت أجراس احد قطعان الأغنام في الجبل لاتتفق جميعاً في انغامها ، ولقد ازعجه ذلك لدرجة انه غادر فراشه في غبش الفجر .. وصعد الجبل : وبحث عن القطيع حتى إذا وجده أصلح الأجراس وضبط أنغامها .. ثم عاد إلى بيته .. ونام في ارتياح .

وعاد يكرر ماقال :

- الرجال مثل الأجراس سواء أكانت خشبية أو نحاسية .. او اجراس كنائس ، صغيرة أو كبيرة - كل واحد منها له صوته الخاص ، وما اشد سعادة القطيع عندما تكون دقات جرس سيدها منتظمة ! .. بعدها لايمكن تخشى الذئب نفسه .

ولكن السيد إيدومينياس هز رأسه ، كان يقول لنفسه : "ما الذى يدعونى إلى البقاء هنا ؟ وأى معني لهذا الحديث ؟" .

ونهض واقفاً وقال موجهاً الحديث الى تيتيروس :

- هيا ياولدى .. نم معى فى البيت وكن فى صحبتى .

كان قد أحس بحاجته إلى حديث أكثر ارتفاعاً في مستواه .. ويستطيع الاثنان أن يتبادلا الحديث معاً حول النجوم أو حول خلود الروح . فلم يكن هناك أمر يحيره فى الدنيا سوى هذين الأمرين ! .. ولسوف يكون هناك بجواره خليج "سودا" فحسب .. اما ماعدا ذلك فضجة ودخان .

وتفرق الجمع .. عاد إلى بيته كل من منحه شراب الراكى بعض الشجاعة ، أما الآخرون فقد استلقوا فى ساحة البيت وفي شرفته . اما النساء فقد دخلن غرفة النوم . وكان الوقت قد تجاوز منتصف الليل .

وكان ثاراساكي قد استمع إلى كل مادار من أحاديث دون أن ينطق بكلمة ، ولكن الايماءات التى صدرت عن الجيران كانت قد أنطبعت تماما فى ذهنه - الخائفين منهم ، والأكثر تمالكاً لأعصابهم .. ثم - بعد الراكي ! - السعداء الفرحين . وكان أكثر ما أثر فيه هو أبوه الذى ظل محنياً رأسه طوال الوقت .. ولم يرفعها إلا للحظة واحدة حين قال كلمة أو كلمتين .. ثم عاد فاحناها من جديد . كان ذلك يعني أنه لم يشأ أن يقلد الرءوس الأخرى الثرثارة حوله . ومن خلال كل تلك الأحاديث والمناقشات كان ثاراساكى يزداد نضجاً .. ويدلف إلى الرجولة دون أن يدرى .

كانت المدرسة قد اغلقت ابوابها ، وكان هو يستيقظ من نومه مبكراً لينضم إلى أبيه في الدكان ويظل يتابع بعينيه كل انفاسه . وكان قد بدأ

شيئاً فشيئاً السبب في ان اباه لايكثر من الإشارات والايماءات .. ولايتكلم أو يضحك ... وفي انه يحتقر الرجال والنساء جميعاً ، ويعرف ايضا انه سوف يصبح مثله تماماً في يوم من الأيام وليس مثل الكابتن "بوليكسيجيس" أو كراسوجورجيس أو تيتيروس . وبينما كان ذلك كله يدور في اعماقه اتجه نحو الميناء ، وهناك تناهت إلى سمعه صيحات ولعنات ، فاوسع الخطى حتى إذا أصبح امام محل حلاقة السنيور "باراسكيفاس" ، راى جمعاً من الاتراك واقفين ببابه ، وقد تحلقوا الحلاق المسكين وهم يسبونه ويبصقون عليه .. ويرفعون خناجرهم في ايديهم . وكان المسكين يقف وسطهم وهو يرتعش وقد تمزق قميصه ولطخته الدماء واكتسى وجهه باثار البيض الفاسد والطماطم . وهو يؤكد للاتراك انه سوف يهرب عائداً إلى "سيرا" ، وانه لن يطا كريت بقدميه مرة اخرى .. ويتوسل إليهم كي يرحموه ويرحموا ابنته التي يجب ان يجد لها زوجاً .

واحسس ثاراساكي بالاسى من اجله ، واسرع عائداً إلى ابيه الذى كان يجلس إلى المائدة وقد انحني يكتب رسالة لابن اخيه "كوزماس" الذى اصبح فرنسياً : "إذا كنت رجلاً حقاً ، وإذا كان لايزال فيك بقية من خجل ، فإترك ارض الفرنسيين وفكر في بلادنا نحن . إنها تحتاج إليك .. فقد حانت الساعة ، من اى مادة ولدت ؟! ولماذا تنتسب إلى كريت ؟! إحضر فوراً .. واحمل السلاح مثلما يحمله غيرك من الشباب . هناك شيء آخر ينبغي ان اقوله لك يا ابن اخي ....." .

... وهنا اقتحم عليه "ثاراساكى" المكان وقد بدا عليه الاضطراب الشديد .... وصاح :

ـ أبى ... إنهم يحاولون قتل باراسكيفاس ـ امام دكانه .. انقذه ياأبى ! ..

ونهض الكابتن "ميخايليس" واتجه إلى عتبة الدكان ليرى مايحدث . كان جمع من عمال الميناء قد شدوا وثاق باراسكايفاس ، ولم يكن ثمة مسيحى واحد في الشارع وكان معظم المسيحيين قد أغلقوا دكاكينهم واختفوا . واستطاع الكابتن "ميخايليس" أن يلمح الخناجر تلمع تحت أشعة الشمس .

ـ أبى ... ! ... أنت لست خائفاً ؟

وحدق الكابتن "ميخايليس" البصر أمامه ، وكان عدد الأتراك ضخماً .. والهجوم عليهم يعنى الموت المؤكد ، ولكنه أحس بالخجل أمام ابنه .. ولم يكن الكابتن "ميخايليس" متهوراً .. بل كان يكره التصرفات المندفعة . أما الآن .... !

وعاد ابنه يسأله :

ـ ألن تذهب ياأبى ؟ .. هل أنت خائف ؟

ـ بل سأذهب ..

.... ثم اقترب من الجمع ..

سار فى بطء وهدوء ، ووجهه لاينم عن غضب أو خوف .

وعندما أبصر به الأتراك قادماً نحوهم ، وقفوا ساكنين . ماذا يريد هذا الكافر ؟ ألا يخشاهم ؟!

وحين وصل الكابتن "ميخايليس" ، رفع يده مشيراً إليهم بأن يدعوه يدخل وسطهم ، وتحركوا جانبا وهم فى ذهول ، ماذا سيفعل ياترى ؟! حتى أشدهم غلظة خفض خنجره .

واتجه .. الكابتن "ميخايليس" نحو السنيور پاراسكيڤاس وجذبه من أذنه وقد بدا الاحتقار على ملامحه ، ولوى الأذن وهو يهزه بعنف ويقول بلهجة قاطعة :

ـ سر ! إلى البيت ! لاتدع بصرى يقع عليك مرة أخرى ! .

وأخفى پاراسكيڤاس رأسه بين كتفيه وسار متعثراً مع الكابتن "ميخايليس" الذى كان لايزال يلوى أذنه . وتركهما الأتراك يمران دون اعتراض .

وعاد الكابتن "ميخايليس" يقول فى احتقار :

ـ عد إلى بيتك ! بسرعة .

وبدأ پاراسكيڤاس يعدو ، حتى اختفى فى أول منحنى قابله ، بينما وقف الأتراك يحدقون فى الكابتن "ميخايليس" دون أن يفعلوا شيئا .. وهو يسير ببطء بنفس الطريقة الهادئة حتى وصل إلى دكانه .

وأخذ ثاراساكى يتابعه ببصره فى دهشة وهم بأن يوجه اليه سؤالاً ولكنه ظل ساكناً بينما أبوه يعود فيجلس إلى المائدة ويمسك بالقلم .. وينحنى لينهى الخطاب الذى كان يكتبه ..

".... ياإبن أخى .. وهو أن عملك مانوساكاس ......"

الفصل التاسع

إنتهى شهر الصيام .. وجاء الاحتفال بعيد الفطر ، وارتدى الأغوات أحسن ملابسهم وامتلأت بهم المقاهى حيث كانوا يجلسون متوجين فوق الوسائد الطرية الناعمة . وأخذ الصبية المرد الأتراك يلوون أعناقهم ويغنون ألحانهم ذات النغمات الطويلة الرتيبة . وطلب باربايانيس – نظراً للحرارة الشديدة – أن يحمل إليه الثلج من سيلورتيس ثلاثة حمير وبدأ يجرى هنا وهناك حاملاً صفيحته البرونزية ويقدم للأغوات الشراب البارد المنعش .

وبدأت الطبول فى الثكنات القريبة من الأقباء الثلاثة تدق منذ الصباح الباكر ، كما بدأت المدفعية تطلق طلقاتها تحية بهذه المناسبة . وأخذ الباشا مكانه بين المصلين فى المسجد الجديد ومعه الضباط فى ثياب الرسمية المزركشة ، وظلت دوائر المصابيح مضاءة فوق المآذن . وفى ت "حميده مولا" اكتسى ضريح ولى الله بالورود وزهور البازلاء ، بينما جا افنديتا أمامهم متربعاً يقرأ القرآن وهو يهز نصفه الأعلى إلى الأمام و الخلف .. والمصلون من المشايخ حول الضريح يركعون فوق حصرهم ر احضروا معهم أراجيلهم يدخلونها بعيون نصف مغلقة .. وينصتون إ القرآن ويهمهمون له استحساناً فى أصوات تشبه طنين النحل .

كانوا سعداء .. فقد دخلوا الجنة وهم لايزالون أحياء . لم يكونو يفتقرون إلى شىء طيب فى الحياة . ومن خلال الشقوق فى الباب ، كانت تتناهى ضجة ميجالوكاسترو وصخبها فى رتابة متصلة كأنها حفيف الماء .. ومن البحر ، كان يتناهى صوت هديره من بعيد . وكانت العجوز حميده مولا تجرى حافية القدمين هنا وهناك تقدم الحلوى للأتراك ، أو تحمل جمرات

مشتعلة من الفحم تنعش بها هذه النارجيلة أو تلك فى حرص ، حتى تظل تبقبق فى بهجة مثل حمامات تهدل حول ضريح الولى .

وبينما كانوا غارقين فى غيبوبتهم الفردوسية ، سمعت فجأة صيحات عالية وأصوات أبواب تصفق ،ونساء تصرخ .. وطلقات غدارات تمزق الهواء . وطارت البركة المقدسة .. وقفز المشايخ واقفين .

ووضع أفندينا القرآن فوق كومة الزهور ، ثم اندفع نحو الباب وفتحه ، وإذا به يرى جمعاً من الأتراك وقد وضع كل منهم سكينة بين أسنانه وهم يهدرون مارين بحذائه وقد تلوثت صدورهم وأسلحتهم بدماء الكفار .

وكان على رأس هؤلاء : سليمان ، خادم الباشا العربى ، عارى الصدر والقدمين إلا من برنس أصفر اللون حول كتفيه ، وعيناه تقذفان بالشرر .. والزبد يكسو شفتيه الغليظتين .

وكان يلوح بسيفه المعقوف فى عنف فيحدث فى الهواء صفيراً .. ويصيح هادراً :

ـ فليسقط الملاعين ... ! فليسقط الكفرة .. !

واشرأب افندينا بعنقه خارج الباب وصاح :

ـ إلى أين أيها الأخوة ؟!

وصاح العربى :

ـ لنذبح هذا الشقى اللعين ونشرب من دمه !

ـ من تقصد ياسليمان ؟!

ـ الكابتن "ميخايليس"

وصاح افندينا وقد امتقع وجهه من الألم :

ـ ألا تخاف الله ؟

ولكن صوته ضاع وسط الهدير الذى كان يرتفع من ساحات بيوت المسيحيين ، فقد اقتحمت أبوابها . وهرعت النسوة إلى الأسطح ، بينما ألقى بعضهن نفسه من الذعر وأطفالهن بين أيديهن ، وأسرع الرجال إلى

اسلحتهم للحظات ـ ولكن مالبثت الطلقات والضربات والصيحات أن خفتت ثم ابتعدت .

وكان الكابتن "ميخايليس" لحظتها يقف خلف باب بيته قابضاً على سلاحه ، بعد أن أمر أسرته بأن تصعد إلى غرفة النوم وإن كان قد أبقى معه ابنه ثاراساكى .. وقال له :

ـ اقترب .. واستمع جيدا إلى ما سأقوله لك .. إذا حاولوا أن يفتحوا الدار ويشقوا طريقهم إلى داخل البيت بالقوة ، فسوف اقتلكم جميعاً حتى لاتقعوا فى أيديهم ، وستكون أنت الأول ياثاراساكى .. هل فهمت ؟!

ـ فهمت يا أبى ..

ـ وهل توافقنى ؟!

ـ أوافقك

ـ فلا تخبرهم إذن .. فهن نساء .. وسوف يستبد بهم الذعر .

ـ لن أخبرهم .

وصمت الرجلان .. ووقفا يسدان الباب من خلفه وهما ينصتان فى استغراق شديد للأصوات فى الطريق .

وكان ثمة جيران قد هربوا فى الأيام السابقة . كان أولهم "كراسوچورچيس" و"ماستراپاس" و"كوليڤاس" ومعهم كل أطفالهم وفى اليوم التالى هربت "پنيلوپ" و"كريسانتى" شقيقتا بوليكسيجيس اللتان تخفيتا فى زى الهوانم التركيات . كذلك هرب "تيتيروس" الذ ارتدى ملابس تركى فضفاضه ووضع على رأسه عمامة بيضاء وأخف عويناته فى صدره وانسل من بوابة المستشفى . أما "تولوباناس" فقد بق هو وابنه ، وأما الطبيب فقد رفع علم فرنسا فوق داره ، بينما أعلر "إيدومينياس" أنه لن يهرب ، وثبت أعلام القوى الكبرى فوق النافورة

وكان ثاراساكى يتوق إلى الخروج الى الحقول والجبال ، وقد سأل أبا بالأمس :

ـ ومتى نخرج نحن ياأبى ؟!

ـ سوف نكون آخر من يخرج بعد كل الجيران .

ـ ولماذا ؟!

ـ ابحث بنفسك عن الجواب .

قالها .. ولم يقل بعدها كلمة أخرى !

كان الوقت ظهراً ، وكانت صرخات ميجالوكاسترو تحت وطأة خناجر الأتراك وسكاكينهم .. تعلو فزعة مرعبة شيئاً فشيئاً ، واعتلى المؤذنون مأذنهم ليعلنوا حلول موعد صلاة الظهر .. ولكى يعلنوا الشكر لله والحمد .

... وفى ذات اللحظة كان ثمة خمسة أو ستة من عمال الميناء الأتراك يهرعون إلى حديقة "بيرڤولا" ويدكون باب بيت السنيور باراسكيفاس بقضيب من الحديد ، ثم يندفعون إلى الداخل ليجدوا ابنته تختبىء تحت الديوان .. فيسحبوها بعنف ويطرحونها على ظهرها .. .. بينما اتجه اثنان منهم ليخرجوا الحلاق التعس من وراء بعض الجرار ، جذباً من العنق إلى عتبة الدار .. ثم يذبحوه ذبحاً وبعدها ، يحملون معهم بيرڤولا المسكينة التى كانت تنزف دماً ... ويندفعون بها إلى الخارج .

وسمع الكابتن "ميخايليس" أصوات الطلقات من ناحية نافورة إيدومينياس عند نهاية الشارع . وغمغم وهو يعد بندقيته :

ـ ها قد وصلوا ..

ثم استدار ينظر الى ابنه ويقول مرة أخرى :

ـ ها قد وصلوا ..

وقال ثاراساكى وهو يعد غدارته الصغيرة :

ـ ها قد وصلوا ..

... وكان ابوه قد علمه فى الأيام القليلة الأخيرة كيف يطلق النار ..

وقال الأب وهو يحدق طويلاً فى ولده :

ـ يبدو أنك لست خائفاً .

ـ ولماذا أخاف يا أبى ؟! لقد تعلمت كيف أطلق النار .

وباعد مابين ساقيه مثبتا أقدامه فى صلابة فوق صخور ساحة الدار ... وانتظر ...

وبدأت الطلقات تخفت شيئاً فشيئاً ، كان الأتراك قد اسرعوا نحو

النافورة ، واندفعوا يضربون باب الدار بأكتافهم حتى هوى الباب الصدىء القديم .

وكان السيد "ايدومينياس" يجلس منذ الصباح الباكر إلى مكتبه يدبج رسالة وجهها الى القوى الكبرى .

".. ياأقوياء العالم ! فى هذه اللحظة ، وأنا أكتب هذه السطور فوق الورق ، يجرى ذبح أبناء ميجالوكاسترو المسيحيين . ومرة أخرى يمتلىء الجو بطلقات الرصاص ، وتقتحم عصابات الأتراك بيوت المسيحيين .. يغتصبون نساءهم ، ويقتلون الرجال ويلقون بالأطفال فوق الأرض ويسحقون رءوسهم" .

"إننى أرفع صوتى .. أنا لاشىء .. رجل لاقيمة له ، ضائع عند أطراف أوروبا .. بعيد عنكم ياأقوياء الأرض ! ورغم ذلك فإن الله منى قريب ! إنه غاضب ، يهز الحجرة التى أكتب فيها رسالتى هذه ، إنه لايتكلم .. ولكنه سبحانه يضم شفتيه وينتظر جوابكم على رسالتى . وينبغى أن تعرفوا ـ أننى لن ابعث برسائل مرة أخرى بعد هذه المرة ، فقد صحت وصرخت فى البرية بما فيه الكفاية .. وإذا أنتم لم تجيبونى هذه المرة .. فسوف أتجه إلى الله و ....."

وهنا ، توقف "ايدومينياس" ، فقد سمع صوت الطلقات فاشرأب بعنقه يتطلع من خلال النافذة ، ورأى الأتراك وهم يضربون باب البيت بأكتافهم .. وصاح :

ـ ماذا تريدون ؟! ... هل أصابكم العمى ؟! ألا ترون أعلام القوى الكبرى فوق النافورة ؟!

وارتفعت الصيحات الساخرة ، ومرق حجر ليصيب أذنه وذقنه ، ثم ليحطم بعد ذلك مرآة فينيسية قديمة كانت معلقة خلفه فوق الحائط .

وقفز إيدومينياس إلى الخلف ووضع يده فوق أذنه الدامية ، وصبغ كفه بالدماء ثم ضغطها فوق الخطاب الذى كان يعده للقوى الكبرى !

وصاح :

ـ هكذا .. هكذا .. هكذا ينتهى هذا الخطاب ، ولعل دماء كريت أن تقع فوق رءوسكم ورءوس أولادكم وأولاد أولادكم في انجلترا وفرنسا وايطاليا والنمسا والمانيا وموسكو !

وفتح الباب بعنف ، واقتحم الأتراك ساحة الدار والخناجر بين أسنانهم ، وطرحوا "دوكسانيا" العجوز أرضا بينما كانت تقف عند عتبة الدار تحاول أن تسد طريقهم بذراعيها الممدودتين .. ثم داسوها بأقدامهم واندفعوا يصعدون الدرج وهم يصيحون ، والمنزل كله يهتز من أساسه .

وسمع إيدومينياس أصوات الجمع الهمجى يقترب .. وأحس بأن اللحظة تقترب ، لابد أن تشرف نفسك ياإيدومينياس !

ونظر حوله ـ كان يريد أن يختار بمحض إرادته الأسلوب الذى يموت به . لم تكن هناك أسلحة معلقة فوق الحوائط ، فلم يكن يحتاج اليها . لقد كان يناضل بعقله وليس بالسيف . كان القلم هو سلاحه . واتخذ قراره : "سوف أبقى ثابتاً هنا فى موقعى" .. ثم ضرب المائدة بقبضة يده "هنا سوف أحارب ، هنا سوف أموت !"

ثم جلس .. وأمسك بالقلم ..

واقتحم عليه الأتراك الباب ... ثم مالبثوا ان وقفوا ذاهلين ، فقد وجدوا "إيدومينياس" منحنياً فى هدوء فوق ورقة ملوثة بالدماء .

وصاحوا :

ـ ياكافر ! ... أين تخبىء أموالك ؟

ورفع "إيدومينياس رأسه وأشار إلى جبهته .. ثم قال بهدوء :

ـ هنا ...

وضحك واحد منهم :

ـ وهل رأسك خزانة نقود ؟

وصرخ اخر :

ـ فأقسمه إذن نصفين يابرايناس ـ حتى نرى مابداخله .

وقبل أن يتمكن "إيدومينياس" من الرد ، كان التركى قد ضرب الراس بسيفه .. فشقه من الحاجب إلى الحلق .

واندفع الجمع كالعاصفة داخل حجرات البيت ، وطوح بالملابس القديمة والمهلهلة ... وبالمقاعد والموائد والحشايا .. إلى الشارع .

وعندما أصبح الجمع عند ركن الدار ، التقى به سليمان العربى الذى كان مع عشرة من الدهماء حفاة الأقدام فى طريقهم إلى بيت الكابتن "ميخايليس" ، وسأل سليمان وقد توقف يلهث :

ـ من أين أنتم قادمون ؟!

ـ من بيت إيدومينياس .

ـ دعوا الكابتن "ميخايليس" ولا تقربوه ، وإلا شربت من دمائكم . إنه محجوز لى أنا !

ثم اتجه إلى النافورة .. ورش جسده بالماء . وشرب بشراهة وكأنه ثور استبد به العطش . كما شرب رفاقه العطشى . ونظر أحدهم من خلال الباب المفتوح على مصراعيه فرأى إمرأة عجوز ملقاة فوق أرض ساحة الدار تنتحب وتندب الميت وتشد شعرها ، وسأل باقى الرفاق :

ـ هل نقتلها ؟

ـ إنها إمرأة كئيبة يامصطفى !

وصاح العربى :

ـ هيا بنا ... !

واندفعوا يطوحون بسيوفهم فى غرور وغطرسة .

وخلف الباب ، كان الكابتن "ميخايليس" ينصت إلى الجماعة وهى تقترب ويميز من بينها صوت سليمان الوحشى .

وقال لنفسه :

ـ إنهم قادمون من أجلى !

وركع خلف حوض الماء مستخدماً اياه كساتر ، وجذب ثاراساكى ليركع إلى جواره .. ثم همس وهو يرسم علامة الصليب :

ـ المسيح سوف ينتصر ..

ثم استدار إلى ولده وقال :

ـ تشجع ياولدى ..

وكانت أول مرة يسمع فيها ثاراساكى أباه وهو يتكلم برقة .. ويناديه بـ"ولدى" ! ... واحمر وجهه من فرط السعادة .

وكان الجمع قد أصبح أمام الباب تماماً ، وأخذ سليمان يصدر توجيهاته :

- رجل يتسلق الجدار معتلياً ظهور زملائه ليقفز إلى داخل ساحة البيت .. بينما يقتحم الباب رجل آخر : ولكن .. حذار أن يمس أحدكم الكابتن "ميخايليس" .. إنه ملكى أنا ! لقد أهاننى ... وسوف أنتقم منه - سوف أسحبه سحباً إلى الشجرة العارية ، وأمزقه إرباً إرباً ... وأقذف بلحمه إلى كلاب ميجالوكاسترو !

وسمع ثاراساكى ذلك التهديد .. ونظر الى والده الذى كان فى نفس اللحظة يصوب بندقيته بإتجاه أعلى الجدار .. وسأله :

- هل سمعت يا أبى ؟

وهمس الكابتن "ميخايليس" من بين أسنانه .. دون أن يلتفت :

- صمتاً ... !

وفى الخارج ساد الصمت بضع لحظات .. وسمع صوت حفيف على الجدار .. وأنفاس ثقيلة . كان أحدهم يتسلقه ، واختفى الكابتن "ميخايليس" تماماً خلف حوض الماء ، ولم تظهر سوى ماسورة البندقية وبيده اليسرى دفع ثاراساكى إلى الخلف منه .

وفجأة برز رأس كث الشعر من أعلى الجدار ، وبين أسنانه يلمع سكين عريضة النصل . ونظر الرجل من مكانه متلصصاً . وإمتدت يد .... وضغط الكابتن "ميخايليس" على الزناد .. واستقرت الرصاصة فى الراس بين الحاجبين تماماً .

وكانت زوجة الكابتن متقوقعة فى غرفة النوم خلف النافذة ترضع طفلها ، بينما كانت رينيو تراقب أباها وأخاها ثاراساكى وهما فى الساحة .. وعندما رأت رأس التركى تختفى ، إرتعشت بالفرحة .. وهمست فى إعجاب بالغ :

- بوركت يداك يا أبى !

وقالت زوجة الكابتن :

ـ رينيو .. ياطفلتي المسكينة .. حياتنا الآن معلقة بشعرة .. هل تعرفين فيم يفكر أبوك الآن ؟

ـ إذا دخل الاتراك فسوف يقتلنا بيديه .. وهذا عين الصواب .

وقالت الام وهى تنظر إلى ابنتها فى فزع :

ـ الا تخافين ؟!

ـ الموت حق يا أماه .. كلنا سنموت يوما ما .. فلنمت الآن دون أن نلوث شرفنا ..

وانتهى حديثهما ، ولكن ما الذى كان يحدث فى الشارع فى تلك اللحظات ؟ اندفاع عنيف هنا وهناك . مزيد من الطلقات ومزيد ايضا من اللعنات .

وقالت "رينيو" وهى تفتح الشباك بحذر : .

ـ اليس هذا هو صوت "افنديناّ" ؟! .

وكان هو صوت افنديناّ بالفعل .. حين رأى الجمع العرى الهائج يندفع فى اتجاه بين "الكابتن ميخايليس" ، احس بقلبه ينخلع .. كان يحب "الكابتن ميخايليس" رغم انه كان يرغمه مرتين كل عام على أن يرتكب المعصية . بل ربما كان يحبه من اجل ذلك بالذات ! وكيف يمكن أن تكون حياة "افنديناّ" بدون هذا الوحش اليونانى ؟! "أى سعادة أو لذة فى الدنيا يمكن أن احصل عليها انا البائس التعس ؟! إن أمى تضربنى ، وسكان "ميجالو كاسترو" كلهم ـ اتراكا ومسيحيين ـ يرجموننى بقشر الليمون ، ولست املك نقودا .. ولا زوجة ، ولست املك شجاعة الابطال .. لاشىء ، لا شىء سوى "الكابتن ميخايليس" ، إننى لأعد الايام والشهور انتظر المتعة حين تعود فتجىء كل ستة أشهر .. وأنتظر معها المعصية والخطيئة .. ومن يدرى ؟! إن الله واسع الرحمة ، وهو سبحانه عظيم السخاء . ربما اصبح انا الآخر ـ بعد موتى ـ وليا من الأولياء ، فيشيدون لى ضريحا الى جوار

ضريح جدى .. بارك الله "الكابتن ميخايليس" ! أكانت ستسنح لى الفرصة كيما اصبح وليا .. لولا "الكابتن ميخايليس" ؟! .

ونبض قلبه بالغضب :

"لا .. لا .. لن ادعهم يقتلون "الكابتن ميخايليس" ! كم هو نبيل وهمام ! وما اروع خمره وكعكه ! وما احلى المقانق عنده ! وما ألذ الدجاج والخنازير السمينة !" .

وأحس برأسه كاد يحترق ، فقفز مندفعا فى اثر العربى .

ونسى أن الشوارع تصبح امامه كالترع ، واجتازها دونما تردد لينقذ صديقه ، واعترضه عند "الشارع العريض" جماعة من الاتراك يحملون الاسلاب .

- إلى اين يا أفندينا ؟! .

وكونوا حاجزا يعترض طريقه .

وتوقف "افندينا" لاهث الانفاس .. فى حيرة لا يدرى ماذا يقول أو يفعل ، لابد ان العربى الآن قد وصل الى البيت - ولعله الآن يحطم باب البيت .. بل لعله يقتل "الكابتن ميخايليس" .

وصاح "افندينا" منتحبا : .

- الا تعرفون ربا فوقكم ؟! دعونى .. انا فى عجلة من امرى يا أخوتى ! .

ومرقت بخاطره فكرة .. ونظر من فوق اكتافهم ، ثم صاح :

- القديس ميناس ! .

وانفجر الاتراك ضاحكين .

- ايها الملحدون .. لماذا تضحكون ؟! ألا تسمعون وقع حوافر جواده ؟!

لقد رأيته يخرج من الكنيسة : ففزعت . الا تسمعونه ؟! ها هوذا .. ! هاهو ذا ! .

وقف شعر رؤوسهم . هل سمعوا حقا صليل عده الفرس ؟! أكان هناك حقا فارس يقترب ؟ .

ـ هذا هو ! .

ولكن الاتراك لم يستديروا لينظروا ، فقد اطلقوا سيقانهم للريح .. وعندما رآهم "افندينا" يعدون ! وقف وقد استبد به الفزع .. ابلغ من قوته وتأثيره ان جعلها حقيقة واقعة ؟! .. ما اعجب ! . ولكن ؟ ألم يره حقيقة فى الانتفاضة الاخيرة وهو يطارد الاتراك الذين كانوا يحاولون اقتحام الكنيسة عنوة ؟! .. واحس بالعرق البارد يتصبب من جسده .. الآن يستطيع بوضوح أن يسمع وقع الحوافر .

وصاح وهو يلم اطراف ثيابه ويندفع عدوا .

ـ الله .. الله ! .

وعندما اصبح بحذاء نافورة "إيدومينياس" رأى جمع الفوغاء على وشك أن يدفعوا باب البيت ليقتحموه .. فاندفع نحوهم وهو يصيح : .

ـ انتبهوا يا أولادى ! سوف يلتهمنا ! .. انه قادم على ظهر جواده ! وصاح العربى هادرا : .

ـ من تقصد ايها الأبله ؟ .

ـ الجار .

ـ اى جار ؟ .

ـ القديس ميناس .. ها هو ذا ! .

واستدار الجميع .. وبدا كل شىء يتراقص امام اعينهم .. ولم يعودوا قادرين على تمييز الأشياء .

وصاح "افنديناً" وهو يتشبث بباب بيت "الكابتن ميخايليس" وكأن به مس .. وكما لو كان يريد أن يختبىء حتى لا تقع عليه عينا القديس القادم بجواده .. لابد أن يكون قد مرَّ بنافورة "إيدومينياس" إنه لقادر على ان يميزه بوضوح بمرآة الذى لا يتغير والذى يبدو فى صورته المرسومة فوق الايقونة : وجه لوحته الشمس ، وشعر ابيض ولحية بيضاء .. فوق ظهر جواد احمر ـ ارجوانى ذى سرج ذهبى .. ان الفضاء كله حول نافورة "إيدومينياس" ليمتلىء تماما بذلك الشعر الأبيض .. والجواد الاحمر والسرج الذهبى .

وهمس فى ذعر .. وفكاه يرتعشان : .

ـ ها هو ذا .. انه ملء البصر .

ـ اين هو؟! إننى لا اراه بوضوح ! .

ـ احقا لا تراه ؟! هاهوذا ! اسود ذو شعر ابيض فوق صهوة جواد احمر .. لقد وقع بصره علينا ، إنه قادم نحونا ! .

وقفز بعيدا عن الباب مندفعا فى اتجاه الميناء .. وخلفه اندفع الباقون يلهثون بأقصى ما يستطيعون من سرعة ، هم ايضا سمعوا صوت الجواد ـ وانه ليعدو خلفهم ـ اما العربى سليمان ، فقد استدار لحظة .. واستطاع أن يميز جوادا .. وفارسا .. فصاح : .

الفرار يا أولاد .. الفرار .

وانزلق "البرنس" من على كتفيه وسقط فوق الأرض ، ولكنه لم يجد الوقت ليلتقطه ! .

وحين وصلوا الى الميناء .. لا هثى الانفاس ، خففوا عرقهم وانكمشوا فى الظل وقد تدلت السنتهم وأخذوا ينخرون كالكلاب .. بينما تهاوى "افنديناً" إلى الأرض ووجهه الى الأرض . وهو يتلوى .

بدأت "ميجالو كاسترو" تئن تحت سكاكين الاتراك ، ورفع المسيحيون ايديهم الى الله فى توسل .. ورسم المطران علامة الصليب ، فلم يعد

يستطيع أن يظل جالسا هكذا يستمع الى أنين رعيته وسط المذبحة ، ونهض واقفا وهو يغمغم : "الله معى" .. ثم صفق بيديه ، فظهر "موروزوفلوس" .

وقال المطران : .

ـ سوف اذهب الى الباشا ، احضر لى روائى العظيم .

فسأله "موروزوفلوس" : .

ـ وتخرج الى الشوارع ياسيدى ؟ إن الاتراك فى هياج . انا قادم إذن معك ؟ .

ـ سوف اذهب وحدى يا"موروزوفلوس" ، فساعدنى على أن اضع الرداء .

وثبت الرداء على كتفيه ، ووضع القلنسوة فوق رأسه الذى يشبه رأس الأسد ، وامسك بعصاه الطويلة .. ذات الانشوطة المجدولة .. وقال "باسم الله" .

وظل "موروزوفلوس" يحدق فيه ببصره فى اعجاب بالغ : هذا المظهر الرائع ، والجسد السامق ، واللحية البيضاء .. وهاتان العينان البراقتان المليئتان بالخير .. هذا هو النموذج الذى سوف يكون امامه حين يرسم لوحة الله .. الأب ، تحيط به سحائب ذهبية وهو يهبط فوق "ميجالو كاسترو" ليضع نهاية للمذبحة .

وفتح باب مقر المطران .. وكان ثمة كلمات مكتوبة بحروف سوداء ضخمة فوق الرخام الذى يعلوه : "فى هذا المدخل ، شنق الاتراك مطران "ميجالو كاسترو" عام ١٨٢١ . تقدست ذكراه إلى الأبد" .

وغمغم المطران وهو يجتاز عتبه الباب : "تقدست ذكراه الى الأبد" .

وجالت الدموع فى "موروزوفلوس" وهو يقول فى صوت مرتعش :

ـ الله معك .. والقديس ميناس معك ياسيدى .

واجابه المطران وهو يشير الى الكلمات المكتوبة :

ـ لا تبتئس يا"مورزوفلوس" : لست الاول .. ولن اكون الأخير .

وعبر ساحة الكنيسة .. واحنى رأسه تحية "للقديس ميناس" ، حين مرَّ ببابه ، ثم اوسع الخطى فى اصرار متجها الى مقر الباشا .

وتابعه "مورزوفلوس" ببصره وهو يتجه وحيدا الى معركته مع الموت .. وأحس بالخجل لأنه تركه يمضى وحده : "هذه هى اللحظة التى ترى فيها يامورزوفلوس ما اذا كان هذا الذى بداخلك روح .. ام مجرد معده "" .

ورسم علامة الصليب . وانسلّ فى اثر المطران .

كان الطنين يلف المدينة : المسيحيون يصرخون ، والاتراك يتهدرون ويضحكون ، ومن خلال هذا الطنين كان بمقدور المرء أن يميز اصوات النحيب فوق جثث الموتى .

وتابع المطران السير وقلبه ينفطر لما يسمع .. وظل يتنهد : "إلى متى يظل الهليتيون مشدودين الى صلبانهم ؟ نحن بشرا ياأيها المسيح .. ولسنا آلهة ! لا قبل لنا بهذا العذاب .. فهات القيامة إذن !" .

كان بوسعه أن يحس بالمدينة بكل جدرانها وبيوتها وبكل البشر فيها .. وكأنها هى ذات جسده .. وبأن قلبه يتمزق مع كل باب فى المدينة يتهاوى ومع كل امرأة تضرب صدرها تنعى قتلاها .

وكان ثمة جمع من الاتراك السكارى الذين لوثتهم الدماء . يقتربون قادمين من ساحة السوق .. وحين وقعت ابصارهم على المطران بثيابه المذهبة توقفوا فى ذهول وهم يصيحون : "من يكون هذا الوحش القادم هناك ؟ إلى اين هو ذاهب ؟! .. ابتعدوا عنه .. الله المستعان عليه ! الا يطأنا بأقدامه" .

وكان المطران يسير الى الموت فى خطوات ثابتة وعيناه الممتلئتان بالأسى والغضب واللهفة على الأستشهاد لا تكادان تبصران شيئا حوله :

لا الشوارع .. ولا الناس ولا حتى ـ إلى اليمن منه واليسار ـ دكاكين اليونانيين ثمة شىء واحد كان يحتل تفكيره . "يالسعادتى ، حين اقتل فى سبيل ان يتحرر قومى !" .. هذه الكلمات التى نطق بها المسيح وهو فوق صليبه .. كلمات الألم والمعاناه ؟! .. "إلى .. إلى !" .. إنها لتعنى بلهفة الفداء "السعادة ! .. السعادة" .. وهمس المطران بذات الكلمات وهو يوسع الخطى أكثر كلما اقترب من الحرم الباشوى ، وخلفه كان يسير "مورزوفلوس" كالكلب .

ووصل المطران الى حيث تنتصب الشجرة العارية ، مهيبة وسط الخضرة الرطبة وحفيف الاوراق ، وجذعها يبدو مرقشا كجلد الفهد .. وتراقصت عينا المطران وكأنه يرى ألف مسيح يتدلون من اغصانها .

واعترضه عند بوابة الحرم الباشوى جنديان .. واسرع "مورزوفلوس" الذى كان يجيد اللغة التركية وتحدث اليهما فسمحا للمطران بالدخول .. واسرع "مورزوفلوس" ليفتح الابواب .

وعندما وقعت عينا "الباشا" على المطران : تجهم وجهه ، لقد كان مستندا الى النافذة يسمع نجيب "ميجالو كاسترو" على موتاها .. كان هو ايضا ـ رغم كونه اناضوليا طيب الأصل ـ قد اصبح متوحشا ، ربما كان ذلك بسبب الظمأ التركى الازلى لدماء اليونانيين .. ربما كان هذا هو الذى ايقظ فيه وحشيته ، ورغم ذلك ؟ فقد كان يحس بالخجل من انه ـ وهو الباشا ـ لا يجد فى نفسه الشجاعة على أن يأمر بوقف المذبحة .. وأن يستل المدى والخناجر من ايدى الاغوات .

ووقف المطران يملأ فتحة الباب .. وصاح : .

ـ ألا تخاف الله يا باشا ؟! .

ورد الباشا فى غضب : .

ـ لماذا أرتديت هذه الثياب ياقسيس الكفرة ؟ هل تظن أنك تفزعنى بها ؟! .

وعاد المطران يصيح وهو يشير باصبعه الى السماء : .

ـ الا تخاف الله ؟! الا تهمك هذه الدماء المسفوفة ؟ أتعرف علام ستقع هذه الدماء ؟! .. على رأسك انت ! .

ـ اسمع يا مطران .. لا تصرخ هكذا .. وتذكر أن الشجرة العارية ليست بعيدة عنك ! .

ـ والله ايضا ليس بعيدا عنى ياباشا .. لست خائفا .

واستدار نحوه الباشا مبتعدا عن النافذة . واخذ يذرع ارض الحجرة جيئة وذهابا .. ثم توقف فى مواجهة المطران وهو يتفحصه من قمة رأسه الى اخمص قدميه دون أن يعرف كيف يتعامل معه ، وتصوره لحظتها بكل هذه الثياب اللألاءة معلقا فى الشجرة العارية .. ولكن الرعب منعه ، ولكن يبقى أن هذا الفم اليونانى الوقح لابد أن يوقف عند حده ! فهو لا يحتمل ! .. وصاح هادرا : .

ـ لا تجعلنى افقد اعصابى . اخرج ! إننى اقولها لك من مصدر الرحمة بك . أنا لا أخاف احدا ! .

واضطر المطران الى أن يدع "الله" جانبا . وأن يحل "السلطان" محله ! .

ـ حسن .. أنت لا تخاف الله ، ولكن .. ماذا عن السلطان ؟! انت تعرف جيدا أن كريت تسبب له القلق دائما ، وانه يريد أن يسودها السلام .. ولعله من أجل هذا قد بعث بك إلى هنا . فما فعلت انت ؟! سمحت بأن تحدث مذبحة ! والمذبحة سوف تؤدى الى ثورة .. والثورة سوف تلفت انتباه موسكو .. معذرة يا"أفندينا الباشا" . ولكننى استطيع أن أرى رأسك على وشك السقوط .

وجمد الذعر الباشا .. فهو ايضا رأى رأسه على وشك السقوط ..

وتساءل فى خوف : .

ـ وماذا استطيع أن افعل ؟! .

ـ لا تضيع لحظة واحد .. مر الجنود بأن يدقوا طبولهم إشارة بوقف المذبحة اصدر اوامرك ! .. هدد ! أنت الباشا ؛ فأثبت ذلك إذن ! .

وضغط الباشا رأسه بيديه كما لو كان يحتاج الى من يسنده ، ثم ما لبث ان صاح : .

ـ لعن الله الساعة التى وجدت فيها نفسى فوق هذه الجزيرة الشيطانية ! .

ثم نظر متضرعا الى المطران : .

ـ سيدى المطران : "لماذا تقفون هكذا على عتبة الباب ؟! تفضلوا واجلسوا حتى نرى سويا ما ينبغى أن نفعله لوضع نهاية لهذا الامر .

وبينما نتناقش ونتكلم .. سيكون هناك مزيد من المسيحيين الذبائح ! أنا لا استطيع أن أجلس .. استدع جنودك أولا واصدر اليهم اوامرك ! ولن اجلس قبل أن اسمع دقات الطبول .. كما اننى ايضا لن اغادر هذا المكان قبل أن اسمعها .
ـ فليأخذكم الشيطان جميعا .. اللعنة عليكم جميعا ايها الكويتيون .. الصالح منكم والطالح .. جميعا ! .

واتجه فى هياج إلى القاعة المقابلة . وارتفعت صيحاته واقسامه .. كما سمعت اصوات الضباط وهم يهرعون بسيوفهم وحرابهم .

وتنهد المطران فى ارتياح : "إن الله قد رأى أننى لا استحق ان اشنق على باب المقر . لا بأس ؟ يكفى أن ينقذ المسيحيين" .

وعاد الباشا وقد عقد ما بين حاجبيه . وقال : .

ـ سوف تسمع الطبول الآن .. اذهب .. كفانى من هذا الامر ما كان .. ولا اريد أن أرى الآن مخلوقا .. اهى ارضى هذه التى اقف فوقها .. أم برميل بارود ؟ .

وفى نفس اللحظة استدار "الكابتن ميخايليس" الى "تاراساكى" الذى كان راكعا بجوار ابيه يرهف السمع الى ماكان يجرى فى الشارع ـ افنديناً يصيح ، والعربى سليمان يسب ويلعن ، وخطوات الرجل تبتعد .. ثم سكون مفاجىء ساد الحى بأكمله إلا من النحيب فى بيت "إيدومينياس" .

ـ هل انت جائع يا كاراساكى ؟! .

ـ نعم .. انا جائع يا أبى .

ـ فأطلب إذن من امك ان تنزل وتعد لنا طعاما .. اعتقد ان الحكاية انتهت بالنسبة لهذا اليوم .

واسند بندقيته الى حافة الحوض وتناول صندوق الدخان واعد لنفسه سيجارة .. وحين عاد فسمع النحيب ؛ توقفت اصابعه عن الحركة .. وارهف السمع .. "لقد قتلوا إيدومينياس ، وهذه خادمته العجوز تنحب" .

وهز رأسه . وهل كان إيدومينياس رجلا ؟! أيمكن أن يكون قد ابدى ادنى مقاومة ؟! لاشك أنه استسلم للذبح كما يستسلم الحمل فى عيد الاضحى .

وحين وضع السيجارة بين شفتيه ، سمعت دقات الطبول .. وبدأت تتناهى اصوات خطوات منتظمة .. ووقف "الكابتن ميخايليس" وفتح الباب فى حذر ورأى قرابة العشرين جنديا يمرون فى الشارع واسلحتهم فوق اكتافهم فى دورية وامامهم مناد يصيح : "السلام .. السلام .. اخرجوا من بيوتكم ايها المسيحيون" ! .

وفى اليوم التالى اصدر الباشا امرا : "ماحدث .. فقد حدث وانتهى .. إن الغدر شاء أن يموت ذلك ؛ ولكن السلام يجب أن يسود الآن ، لن يخدش الآن انف واحد ! وسوف تفتح بوابات القلعة ، ويستطيع المسيحيون من ثم أن يعودوا من القرى .. ويستطيع الفلاحون المسلمون ان يعودوا الى القرى . ويجب على هؤلاء الذين خرجوا الى القرى لقاوموا .. أن يضعوا اسلحتهم ويعودوا الى اعمالهم ولن تمس شعرة واحدة منهم ! السلطان

رحيم يعفو .. ايها المسلمون .. ايها المسيحيون . استمعوا جيدا إلى كلمات الباشا ، فالشجرة العارية لاتزال فى مكانها .. "الانشوطة تنتظر اعناق العصاه !" .

ومسح الأتراك خناجرهم .. وعادوا يجلسون فى مقاهيهم يدخنون النرجيلة ويستمعون بعيون ناعسة إلى الصبى التركى غليظ الرأس وهو يطلق غناءه ذا الألحان الرتيبة ، فى صوت نسائى ، وخرج المسيحيون من بيوتهم وبدءوا يجمعون جثث قتلاهم ، وبعثوا فى طلب "كوليفاس" من قرينه ، واشترك "مورزوفلوس" و"كاچاييس" و"ڤيندوسوس" و"فوروجاتوس" وآخرون بمعاولهم فى حفر خندق عميق بأرض المقابر بالقرب من بوابة "كاينا" .. بينما حفر آخرون قبورا لموتاهم فى ساحة كنيسة سيناء للقديس "ماثيو" .. بالقرب من البيرڤولا .

وبدا الأب "مانوليس" يجمع الموتى خمساً فخمساً .. وقد شمر عن ساعديه .. وبعث بهم الى السماء فى صلوات قصيرة متعجلة .

وعلى ثلاثة ايام كان الرجال يحفرون القبور .. وكانت النساء ينظفن عتبات الدور وغرف النوم من آثار الدماء .. وينتحبن فى صمت حتى لايسمعهن الأغوات فتثور ثائرتهم من جديد .. حيث كان لايزال فى نظراتهم ماينم عن رعشة مابعد المذبحة .

وفى اليوم الرابع : استدعى "الكابتن ميخايليس" ابنه "ثاراساكى" إلى غرفته الصغيرة وقال له :

ثاراساكي .. لقد حان وقت الثورة ! فليقل الباشا ما يريد ، فهو اناضولى لا يفهم شيئا ! كريت حينما تشتعل فيها النار .. فليس من السهل بعد ذلك اخمادها .. هل تفهم ؟! .

ـ افهم ياوالدى .. ليس من السهل بعد ذلك اخمادها .

ـ أول شيء تفعله فى الغد ، أن تخرج النساء والأطفال من ميجالو

كاسترو .. وسوف اكون انا فى المقدمة ، وانت ستكون فى المؤخرة .
مفهوم ؟ .

ـ وهل احتفظ بقدراتى ؟ .

ـ ماذا ؟! وهل تتصور اننا لن نكون مسلحين ؟! نحن ذاهبون الى بيت جدك ، فأخبر امك بأن تستعد .

وفى المساء ، امتطى "الكابتن ميخايليس" صهوة جواده متجها الى بوابة المستشفى حتى وصل إلى فندق الأرملة ، فترجل وأرسل فى طلبها .. فأطلت سمينة .. منحنية .. تتعثر .

ـ سوف اترك مهرتى هنا هذه الليلة .. اطعمها جيدا وسوف اعود لآخذها . فى صباح الغد . واعدى لى ايضا ثلاثة حمير .

وقالت الأرملة فى بطء وهى تشد وسطها فى دلال : .

ـ معنى هذا أن المذبحة لم تنته بعد ؟! .

فأجابها وهو يستدير بلا ابطاء متخطيا الحائط : .

ـ بل انها تبدأ الآن .

ثم اوسع الخطى نحو باب القلعة الذى كان لايزال مفتوحا .

كان الوقت ضيقا ، وثمة ريح جنوبية تهب قادمة من الصحراء الليبية ، تثير الغبار الذى يعمى الابصار ، واتجه "الكابتن ميخايليس" صوب البحر ليبترد قليلا ، واستطاع من مكانه على الشاطىء أن يرى جزيرة "ديا" المهجورة .. عارية تماما .. حمراء اللون .. تبدو وكأنها سلحفاة بحرية تسبح فى مياه البحر ، لقد ابحر اليها يوما من الايام عندما احس بالضيق .. استقل ذورقا واتجه إلى الجزيرة فوصلها بعد بضع ساعات .. وحده .. وهناك القى مراسيه عند ميناء "كل القديسيين" الصخرى الصغير ، وتسلق ارض الجزيرة صوب الجهة الاخرى منها تحت وطأة

الشمس المحرقة .. والصخور امامه تلمع .. والهواء يرقص .. ورأى ثمة خليجين صاخبين يمتدان منحدرين فى روعة .. والارانب الجبلية تمرح بين الشقوق وتحدق فيه بعيونها .. واتجه "الكابتن ميخايليس" الى القمة ورمى ببصره : سكون شامل .. الجزيرة كومة من الصخور يحيط بها البحر من كل جانب داكن الزرقة وحشيّ الامواج . والهواء نقى لم تلوثه انفاس بشر .. ولحظتها قال لنفسه : "هنا اتمنى أن اعيش .. فوق هذه الصخور .. لقد سئمت الماء العذب والحشائش الخضراء والبشر جميعا" .

وحث الخطى عائدا الى بوابة القلعة واجتازها ، وكان ثمة بضع جثث لا تزال ملقاة فى الأزقة ورائحة العفن تتصاعد منها ، وتوقف عند بين "فوروجانوس" الصغير ، ودفع بابه ودخل "الزريبة" التعسة وجال ببصره وهو ينادى : "هل هناك احد ؟!" .

وتناهى اليه من احد اركانها صوت ضعيف كأنه صوت طائر من الطيور .. ومن خلف جذع شجرة غليظ منتفخ .. برز "پيترودولوس" عارى الرأس .. مذعورا .. يسأل كما لو كان لايرى احدا .

ـ من هناك .. من هناك ؟! .

ـ لا تخف ياسيد بيترودولوس .. إنه انا .

عرف الرجل "الكابتن ميخايليس" .. وعاد قلبه إلى مكانه ، فتقدم نحوه رافعا يده كما لو كان سيرفع قبعته تحية له .

ـ مرحبا بسيدى النبيل ..! .

ـ هل انت مريض ياسيد پيترودولوس ؟! اسنانك تصطك ، هل اصابك برد ؟! .

ـ كلا يا كابتن .. انما انا مذعور .

ـ الا تخجل من نفسك ؟! .

ـ كلا يا كابتن ..

ثم تدثر بمعطفه وجلس مستندا إلى الحائط ، ورسم علامة الصليب وهو يقول : .

"كيرى إليسون" ! لقد مر بخاطرى سؤال .. كيف يمكن لانسان ان يرفع سكينه ليقتل انسانا آخر ! لا استطيع أن افهم .. إننى لا اقوى على ذبح حمل ، هل قلت "حمل" ؟ .. لا .. هل تصدق ياكابتن أن قطع خيارة .. يجعلنى ارتعد ؟! .

- اين "فوروجاتوس" ؟! .

- يحميه الله ياكابتن .. ماذا اقول ؟ انه قلب من ذهب . عندما بدأت المذبحة جاءنى يبحث عنى واخذنى معه ، لم اكن استطيع السير من شدة الرعب ، فحملنى بين ذراعيه ، ووضع قيثارته فوق كتفه وخرج الى الشوارع التى امتلأت بغوغاء الأتراك ، اى شوارب ياكابتن ! واية اقدام ! خبأت وجهى داخل عباءتى حتى لا أرى شيئا .. ولم ينزلنى هو من فوق ذراعيه إلا عندما وصلنا الى بئر الماء فى الساحة حيث اندفعت زوجته نحونا ثم صاحت عندما وقع بصرها على : "إنهم يحاولون قتلنا وانت تحمل القيثارات ؟" .. لقد عدتنى انا ايضا من القيثارات ! ولكن الله كان رحيما بنا ، فقد هربت فى اليوم التالى الى قريتها فتخصلنا منها .

وظهر "فوروجاتوس" .

مرحبا "بالكابتن ميخايليس" فى هذه الحظيرة البائسة .. انا اعرف ماتريده منى ؟ فقد جئت لتوى من بيتك . متى ؟! .

- غدا .. وادع "فيندوسوس" و"كاچابيس" ايضا ان الحرب هى ايضا وليمة وانا ادعوكم اليها .

وقال "فوروجاتوس" وهو يشير الى بيترودولوس : .

- حسن يا كابتن ، ولكن ماذا عنه ؟! .

وكان "بيترودولوس" يستمع وعيناه مفتوحتان جيدا ، وفهم فيم يتحدث

هذا الكريتيان : فى البنادق والجبال واماكن الاحتباء ، وبدأت اسنانه تصطك من جديد .

ونظر "الكابتن ميخايليس" الى الرجل العجوز ذى الأصل الطيب ، والذى كان قد اخفى نفسه تماما داخل عباءته ، وقال .

ـ سوف نأخذه معنا هو ايضا .. رجل واحد لن يضرنا ، سوف يكون ضيفنا ، اطل الكونت براسه وقد وقفت الشعرات الخمس أو الست المتبقية فى رأسه ، وصرخ :

ـ فى الجبال ؟! والبنادق ؟! .

وقال الكابتن :

ـ لا .. بل مع النساء والأطفال .. تنسيهم كل شيء بحكاياتك وثرثرتك .. ثم اتجه نحو الباب وهو يقول :

ـ حتى نلتقى مرة أخرى .

وسأله "فوروجاتوس" :

ـ واين سنلتقى ياكابتن !! .

ـ هناك فى "سيليتا" اعلى "پيتروكيفالو" فى حظيرة اغنام "سيفاكاس" .. وخرج يسير ببطء وسط الأزقة ، بينما كان "باربايانيس" متجها الى بيته وهو يحمل صفيحته البرونزية الفارغة مجهدا مهموما ، وعندما رأى "الكابتن ميخايليس" توقف وقال :

ـ يا كابتن .. لقد سالت دماء كثيرة .. فلنفكر إذن كيف ننتقم لها .

ولكن الكابتن ازاحه بيده ، فلم يكن يميل إلى البلهاء ، وانصاف البلهاء ، وتابع سيره مارا للمرة الثانية ببيت الكابتن ستيفابيس ، وكان هذا القبطان المعتد برأيه يجلس وحيدا فوق اريكة صغيرة يرتق ثيابه ، فقد كان ـ كفارس قديم ـ يجيد كل اعمال النساء ، وكان يكنس بيته الصغير كل صباح

كما لو كان البيت سطح سفينة .. ويملأ مصباح "القديس نيكولوس" بالزيف بالرغم من أن القديس لم يعره النفامة حين غرقت السفينة "داردانا" وهبطت الى قاع البحر .. "المسكين ! .. إنه لايستطيع - بالقطع - أن يهرع لانقاذ كل السفن التى تصادفها المتاعب فى البحر . ومن حقه على أية حال أن ازود مصباحه دائما بالزيت . ذلك ماكان يقوله كل صباح وهو يملأ المصباح كل صباح .. وحتى حافته ! .

رفع رأسه من فوق الأبرة ، وقال وهو ينحنى :

- مرحبا "الكابتن ميخايليس" ، أى ريح وحشية ألقت بك هنا ؟! .

وحدق فيه "الكابتن ميخايليس" فى صمت .. فقال "ستيفانيس" .

- فهمت .. انت تستعد للخروج الى الجبال وقد جئت لتصحبنى معك . ولكن إذا كنت نفكر فى اضافتى الى قائمك ، فلا تفعل .

أنت ايضا تريد أن تخرج الى الجبال .. هذا ما اعتقده . فتعال إذن معى ياكابتن "ستيفانيس" .

- قلت لك اخرجنى من قائمتك .. أنا لا اصلح فوق الأرض .. فالأرض تتطلب سيقانا .. وانا كما نعرف .. اعرج .. انا ذاهب الى "سيرا" . الى "اللجنة الكريتية" .. فسوف احصل منها على سفينة . ثم استدار الى الأيقونة :

- هل تسمعنى ياقديس نيكولاس ؟ لا تخدعنى هذه المرة .. كما فعلت فى آخر مرة ! .

- الى اللقاء إذن ياكابتن ستيفانيس .. واغفر لى إذا لم ارك مرة ثانية .. وعسى الله أن يغفر لك .

وضحك ذئب البحر :

- هذا بالضبط ماقاله لى بوليكسيجيس قبل يومين ، ايها الأحمق ، انا لن اموت فلا داعى للوداع إذن .

ثم برقت عيناه العجوزان الساخرتان وهو ينادى "الكابتن ميخايليس" الذى كان فى طريقه الى الباب .

ـ كابتن ميخايليس ! لقد سبقك اليها بوليكسيجيس ، فقد رفع اللواء واعد مقر قيادته فى قرية تركية تدعى "كاستيلى" ، واصطحب اليها معه ـ كما يقولون ـ احدى الهوانم الصغيرة .

وتوقف "الكابتن ميخايليس" وقد تجهم وجهه وتراقصت الدنيا امام عينيه وحوله ، وشدد قبضته على المزلاج الحديدى حتى تهاوت المسامير التى تشده الى الباب ، واحس كأن البيت يتهاوى قبل أن يقفز مندفعا الى الطريق .

ـ هيه .. كابتن ميخايليس .. ايها الأب المفترس ، بحسبك أن تنادى : "امينة !" .. وسوف تخرج اليك على الفور .

وبدأ الثلاثة فى الصباح الباكر من اليوم التالى : سار الكابتن ميخايليس فى المقدمة وغدارته وخنجره سارت زوجته منتصبة القامة بلا خوف وقد حملت طفلها بين ذراعيها والى جانبها ابنتها "رينيو" وبيدها قطعة من القماش تضم فيها احسن ثيابها وحلى امها ، وفى المؤخرة سار "ثاراساكى" وهو يشرئب بقامته ليبدو اكثر طولا ، اما على اغا فكان قد سبقهم يتقدمهم بساعة من الزمن .. يقود حمارين ينتظر بهما عند الاقباء الثلاثة .

وكان الجنود يقفون بوجوه متجهمة يراقبون بوابات القلعة وقد وضعوا اسلحتهم فوق اكتافهم ، بينما جماعات من الفلاحين يجتازون اقباء البوابة يحدثون ضجة وجلبة كثيفين الى جانب صهيل ونهيق حيواناتهم ، ورفع "الكابتن ميخايليس" عباءته ووضعها امام وجهه كما لو كان يتقى الغبار المتصاعد ، ثم انسبل ليتوه وسط الزحام بينما صاح "ثاراساكى" فى النساء : "اسرعن ! اسرعن" .. ثم اندس هو الآخر بين الجموع يلعب ويغنى ويصفر بفمه فى لامبالاة .

وقرب المساء ، وصل الجميع إلى المزرعة الأم .. مزرعة الكابتن "سيفاكاس" الجد .

وامام ساحة الدار رأوا جمعا كثيفا من الاحفاد من الذكور والاناث ، كانوا قد توافدوا على المزرعة خلال الايام الدامية فى "ميجالو كاسترو" ليجمعوا محصول العنب ويضعوه داخل معصرة ضخمة داخل الساحة ، وكان ثمة شباب اقوياء عراة حتى خصورهم يعطرون العنب باقدامهم وقد انتشوا برائحة العصير .

وارتعشت خياشيم "الكابتن ميخايليس" فى بهجة وكأنما هذه الرائحة هى فى عذوبة الدم بالنسبة اليه . وصاح : "تحياتى ايها الاحفاد" .. واستدارت زوجته نحوه فى دهشة .. فقد بدا لها ـ لأول مرة ـ ان صوته يحمل رنة البهجة .

وسار الاثنان فى وسط الساحة بينما تقدم الجد نحوهما مرحبا وهو يمد ذراعيه يا اولادى ويا احفادى .. كلوا واشربوا .. فكل شيء لكم .

وقال "الكابتن ميخايليس" :

ـ سوف اسلمك زوجتى واولادنا .. فأنا ماضٍ الى الجبال .

لا بأس ياميخايليس ! لقد كنت دائما مهرا نافرا منذ طفولتك .. ولم تعرف الحذر حتى اليوم .

ـ سوف اعرف الحذر .. فقط . عندما تتحرر كريت .

فقال الجد مازحا : .

ـ من الأفضل إذن ألّا تتحرر ، فلو انك اصبحت حذرا ، فسواء إذن ان تحيا أو أن تموت .

وهكذا ـ فى عاطفة خياشه ـ كان حديثهما حتى وضعت المائدة الضخمة داخل البيت .. وتركه بناته واحفاده مع ابنائه الأحياء منهم

والاموات ، وتحركوا هم فى كل مكان حتى امتلأت بالاسرة ارض المنزل والساحة وغرف النوم فى الطابق الاعلى والأسطح ، فقد تجمعوا فى تلك الايام الخطيرة قادمين من القرى المجاورة كيما يعيشوا فى كنف العجوز الشهم وحمايته .. ومعهم حميرهم وبغالهم ومواشيهم وكلابهم وقطعان اغنامهم ، وانضم اليهم اخيرا فرس "الكابتن ميخايليس" .

ولقد اثار مقدم "الكابتن ميخايليس" القرى المجاورة ، وفى اليوم التالى امتطى هو صهوة فرسه ، فى جولة قيادته لتحريك الثورة ، وكان يصيح فى وسط كل قرية :

ـ يا أخوتى .. لقد سال دم غزير فى "ميجالو كاسترو" دم غزير .. إن الشرف ينادينا بأن ننتقم له .. إلى الامام ! الى السلاح" . ثم غادر القرى ساعدا جبل "سيلينا" حيث غرس رايته امام حظيرة ـ ابيه ـ قطعة من القماش الأسود كتب عليها باللون الأحمر : الحرية أو الموت ، ثم بعث بفارسين إلى قمة الجبل ليشعلا نارا ، ولم يعد الفارسان إلا بعد أن بعثوا بالاشارة الى مختلف القم فى الشرق والغرب حتى انتشرت الرسالة .. وانتشرت النيران .

وسمع "تيودورس" من حراسه ان عمه قد وصل ، وعندما قابله بادره بأن قبل يده .

ـ ايها المجنون "تيودورس" ! .. ألم اقل لك ان تلزم عشك ؟! ولكنك تعجلت وعصيت امرى ، انزل رايتك وخبئها فى صدرك ، ولا تخرجها الا اذا انا قتلت .

ورأى الفرسان فى شرقى كريت إشارة الخطر ، وادركوا مضمون الرسالة .. وتجمعوا فى حظيرة العجوز سيفاكاس .. وبعث "ميخايليس" إلى ابيه يسأله أن يأذن له فى ذبح خرافه لاطعام القادة .. واجابه ابوه :

ـ إنه لحظ كبير لخرافى أن تكون طعاما للقادة .. ولكن لا تقرب الكبش الاسود ذا الجرس ، فإننى ابقى عليه ليذبح عند موتى ! .

في الخامس عشر من أغسطس ـ موعد الاحتفال الملكى برؤية العذراء ـ جلس الفرسان معا فى صفٍ واحد فى ساحة الحظيرة بينما كانت الخراف تدار على السفافيد ، وصعد الجد إلى الجبل ليشارك فى الاجتماع الوطنى .

كانوا اربعة عشر فارسا لكل منهم تاريخه الذى يحيط به كأزيج الزهور ، وكان ثمة ثلاثة خالدون بينهم أعد لهم خصيصا عرش مرفوع من اريكة مغطاة بفراء الاغنام ، وجلس إلى اليمين واليسار منهم الشباب الأصغر ممن هم تحت سن السبعين .

جلس الجد فى منتصف الاريكة : رجل فى المائة من عمره كالأسد العجوز ، بلحيته المسدلة التى تغطى صدره المكسو بالشعر والملىء بآثار جراح الثورة الكبرى ، وحاجبيه الكثيفين المنتفشين الذين يظللان عينيه ـ حتى انه ليزيحهما بيده حين يريد أن يرى شيئا ـ وعلى الرغم من اعوامه المائة ، فإن خديه كانا فى حمرة اللهب ، وكان الدم يكاد يتفجر من صدغيه عندما يغضب ، كانت شرايينه قد اصبحت بيضاء كالطباشير ، وهى تسقى ذلك الجسد العجوز ، ولكن هذا الجسد كان دائم الظمأ .. نهما الى أن يشرب ويرتوى وكأنما لم يشبع من الدنيا ، كان يلمسها ويراها ويسمعها ويشمها ويتذوقها بنفس الاشتياق الذى لدى شاب فى العشرين من عمره ، وكان يرى الرجال والنساء مخلوقات ضئيلة تجوس حول قدميه .. ويأسف لحالهم ويرفع يده فوق رءوسهم ليثبت الشجاعة فى صدورهم ، ولم يكن يسعده أن تسيل الدماء البشرية ، ولكن الضيق كان لايلبث أن يضطرم فى عينيه عندما تتطور الأمور إلى القتال .. وينسى أن الاتراك هم ايضا من البشر ـ فلا تتعب يداه بعد ذلك من ذبحهم .

كان الفلاحون يكرمونه كسنديانه شامخة ، ويجتمعون فى ايام الاحاد والاحتفالات فى ساحة القرية ليجلسوا عند قدميه ، فكأنه ـ بسنيه المائة ـ يشبه واحدا من الالهة القديمة الخالدة ، وكانوا يحيطون به عندما يتداولون فى امر الحرية او الموت .. وعندما يبدأ واحد من فرسانهم فى الحديث كان يوجه الحديث اليه هو .. لا يحول عنه بصره .

وعلى يمين الجد - فى هذا الاجتماع - جلس وحشى آخر آدمى هو الكابتن "مانداكاس" بشعره ولحيته القصيرتين وعنقه الغليظ وقوامه الفظ ووجهه الملىء بآثار سيوف الاتراك ، كانت احدى اذنيه مفقودة ، فقد قطعها احد الاتراك فى سنة ١٨٢١ ، وكان ثمة اصبعان مفقودان من يده اليسرى ، قطعهما هو بالفاس حينما لدغتهما حية سامة ، وكانت سعادته الكبرى فى ان يرى دماء الاتراك تسيل ، وكان يندفع كالاعمى نحو الجنود الاتراك كلما حملت كريت السلاح من جديد ، وتقتحم القرى التركية كالعاصفة يسلب وينهب ويحرق .. ثم يهرب ، وكان يقتل النساء التركيات ايضا ، ولكنه لم يكن يمسهن رغم انه اشتهر بأنه زئر نساء ، فقد كان يفرض على نفسه ان يبتعد عن النساء ايام الحروب .. حتى امرأته ، لم يكن يلمسها طالما كان يحمل بندقية ، وكان اذا ابصر بها قادمة من بعيد تحمل اليه الطعام أو الذخيرة صاح فيها : "لا تقتربى يلعنك الله ! لا تثيرينى ! ضعى كل شىء فى طبق وانصرفى انت!" وما إن تنتهى ايام الحروب ، حتى يندفع فى هذيان ممتع من قرية الى قرية ، ومن حضن الى حضن ! .. والآن ، وقد اصبح عجوزا ، فإن المتعة الوحيدة التى بقيت له ، كانت فى ان يسير مختالا فى طريقه الى اجتماع لبعض الفرسان وهو يزهو بفدارتيه الفضيتين وبآثار الجراح فى صدره .

والى اليسار من الجد جلس الكابتن "كاتسيرماس" القرصان .. طويلا نحيلا مثل صارى السفينة ، حليقا ، لوحت الشمس وجهه ، ولم يكن يحظى بالمظهر الملوكى كالجد .. ولا ببطولات الكابتن مانداكاس . كان رجلا صعب المراس يتهم الله كثيرا .. وبمرارة ، وقد تعود طوال حياته ان يعمل منفردا يعتمد على نفسه فحسب ، ولكن قوته الآن كانت قد ذهبت .

اما الفرسان الأحد عشر الآخرون ، فقد جلسوا فى صف واحد فوق الصخور ، كانوا لا يزالون صغارا - فى السبعين فقط أو اقل - وكان احدهم راهبا فى دير السيد المسيح .. ذا عينين زرقاوتين ولحية مرسلة ، وكان من بينهم ايضا مدرس من بلدة "إمبارو" : مسخا مشوه الجسد لا يملك الناظر اليه إلا ان يتساءل "وماذا يفعل هذا الأرنب وسط هذه الوحوش الضارية ؟!" .. ولكن ، على هؤلاء أن يروه فقط اثناء المعركة حينما تلتهب

روحه .. او فى مجلس شراب عندما يلعب بقيتارته فيجعل الصخور ذاتها ترقص ، ويجعل السامعين يبتهلون الى الله "هبنى عشرة آذان كيما اسمع عزفه كما ينبغى !" .

وكان الكابتن "پوليكسيجس" هو الآخر موجودا وسط الجمع : سعيدا متألقا ، بقدارتيه الفضيتين ووشاحه الحريرى الذى ينضح برائحة المسك والذى كان هدية له من "امينة" ، وجلس الى جوار "الكابتن ميخايليس" ، وتلاقت عيناهما . دون أن يبادل احدهم الآخر حديثا .

وقال البعض : إنه كان ينبغى ان يدعى "تيتيروس" الى حضور هذا الاجتماع ، فقد اصبح هو الآخر وحشا مفترسا ، لقد هجر الكتب وبدا يسيح فى القرى ليتحدث الى الناس فى الكنائس ايام الاحاد ، ويلهب النار فى صدورهم ، ولكن الجد كان لايزال يقول : "إنه لن يفعل شيئا فى حياته سوى الكلام" .. وكان يقول ايضا : "إن عمل الفرسان شاق ، ثم إن هناك امرا آخر يحسم الموقف بالنسبة له ـ فهو لا يزال صغيرا" .

واتجهت الانظار الى الجد ، فوقف مادا ذراعيه النحيلتين فى اكمامهما البيضاء ، وارتفع صوته المتهجم :

ـ مرحبا بكم فى جبالى ، هناك شيئان يملكهما الكريتى ولا يملك سواهما : الله ، والبندقية ، فباسم الله وباسم بنادقنا نفتتح هذا اللقاء ، وعلينا مرة أخرى أن نتحدث عن كريت ، فلينهض إذن كل واحد منا ليقول رأيه فى حرية ، وليكن أول المتحدثين .. راهب السيد المسيح ، ليمنحنا البركة .

وكان الراهب قد ارتدى ثيابه الكهنوتية ، ووقف فوق صخرة مرتفعة امام الجمع كانت لا تزال فى حناياها بقايا مياه الامطار ، وانحنى قليلا وقطع عسلوجا من السعتر رش به الماء المقدس ، ثم بدأ يتلو صلواته ، ووقف الجميع وقد رفعوا رؤوسهم عن الطرابيش وعصابات الرأس ، يستمعون دون أن يفهموا تماما كلماته باللغة الكنسية : الله ، والنصر على البرابرة ، والعدل والرحمة ، لم يكونوا فى حاجة الى مثل تلك الافكار ، لانهم كانوا

يرون "كريت" داخل حظيرة الكابتن "سيفاكاس" ـ رأى العين : أما تنوح ، عارية القدمين ، جائعة : دامية الجسد ، ورفعوا ايديهم الى السماء وهم يبتهلون من اجل اولادهم .

ورسم كل واحد منهم علامة الصليب ، ثم عاد يجلس فى مكانه ، وساد الصمت لحظات ، وكل منهم يحس بأن حلقه منتفخ ، وأن الكلمات لا تريد أن تنطلق ، ومرة اخرى كان الجد اول من رفع يده وهو ينظر الى يمينه ويقول :

ـ كابتن "ماندا كاس" انت كنت تطعم البارود بملعقتك وأنت لا تزال طفلا ، انت قاتلت طوال جيلين اثنين ، وربما كانت زوجك فى البداية طائشة ، ولكنها ازدادت ثباتا واستقرارا مع السنين ، تكلم إذن ، ودعنا نرى ما نريد أن نقول .

ـ ينبغى أن يتكلم فى البداية من هم اصغر منى .

واستدار الجد الى اليسار :

ـ ماذا عندك لتقوله يا كابتن "كاتسيرماس" ؟ أنت ايضا كما قاتلت طوال جيلين اثنين رايت خلالهما وعانيت الكثير ، أن رايك ذو ثقل واهمية ! فتكلم إذن .

جاء الجواب فى اكتئاب :

ـ ليس لدى ما اقوله ، فليس لدى المرء مايقوله حين تذهب قوته ، الصغار اقدر إذن على الكلام .

وصاح الجد وقد بسط يديه فوق غدارتيه متهيئا للاستماع .

ـ حسن .. فلتتكلم الصغار إذن .

نهض راهب "السيد المسيح" بقامته القصيرة الربعة ، وقد ظهرت اثار الطلقات والسيوف فوق خديه ، وجبهته وذراعيه المفتولتين ورقبته ، واتجه ببصره نحو "الكابتن ميخايليس" قائلا :

كابتن ميخايليس اعتقد أنك انت الاحق بالكلمة الاولى ، فأنت الذى جئت بنا ، وانت الذى استطعت أن تهرب من المذبحة ، وانت الذى وجهت الينا الدعوة ، فماذا لديك إذن لتقوله لنا ؟ .

ونهض "الكابتن ميخايليس" ودماؤه تغلى ، واستند الى بندقيته :

ـ يا أخوتى الفرسان ، انتم تعرفون جيدا أننى لا اجيد تدبيج الكلمات ، لهذا ، فسوف تكون كلماتى جافة وجريئة ورزينة ، فمعذرة ، مرة اخرى تضيق الانشوطة حول عنق كريت ، لقد قدم الجنود والدراويش بالسفن ، وازدادت ضراوة الاتراك وبدءوا يذبحون اخوتنا فى "ميجالو كاسترو" نحن لسنا قطيعا من الحملان ، إن دماء القتلى تصرخ فينا ، ثوروا ايها الفرسان ، الحرية أو الموت . ثم جلس .

وهز الفرسان رؤوسهم ، وبدءوا يتداولون حول كلماته فى جماعات من اثنين أو ثلاثة ، ونهض العجوز "كامباناروس" اكبر الباقين ، وساد الصمت ، كان "كامباناروس" معروفا بتعقله ، وبأنه يقيس الامور فى ترو .. وما إن نهض واقفا حتى قطب كل ذى رأس جار جبينه وهو يتوقع الماء البارد الذى سوف يقذفهم به .. بينما عاد الثلاثة الكبار الموقرون .. يتنهدون .

وصاح "كامباناروس" وهو يحرج "الكابتن ميخايليس" بنظرة قاسية :

ـ اقتل الملك .. ولكن لا تهدده ! متى بحق الله نتعلم الفطنة ؟ كم مرة هددنا وتوعدنا دون أن نجد القوة على أن نحقق تهديداتنا ونطرد السلطان من كريت ؟! اللعنة عليه ! ولكن .. نحن فى النهاية الذى ندفع الثمن . الرجال والنساء وحقول الكروم .. كلها تدفع الثمن فى كل مرة تثور فيها النار داخل صدورنا ، والزعماء هم الذين يتحملون مسئولية آلاف الارواح ! إلام تهدف هذه المرة ايضا "ياكابتن ميخايليس" ؟! هل نقذف بكريت مرة اخرى الى حمام من الدماء ؟! انت رجل زكى ، فقل لنا إذن : كم شحنة سفينة من البنادق والذخيرة والطعام والخيام والخيول .. حصلت عليها ؟! كم مدفعا تقتحم به القلعة ؟ قل لنا من فضلك : هل تفاهمت مع اليونان

وموسكو حتى ننقض جميعا على السلطان بضربة واحدة ؟ اعطنا حقائق يا"كابتن ميخايليس" : وأكشف لنا عن اسرارك حتى تبعث البهجة الى قلوبنا !

واستدار الجميع نحو "الكابتن ميخايليس" ، ولكنه لم ينهض من مكانه ليرد على ما قاله "كامباناروس" ، وظل جالسا وهو يمضغ شاربه ، اى اسرار هذه التي يريد هذا الرجل العجوز أن يكشفها له ؟! إن الموسكوف لم يبعثوا اليه بشيء ، ولا اليونان ! هو الذى جاء بنفسه ، وهو وحده الذى قرر أن يجيء "كريت" وحدها هي التي ارسلته ، باكية معولة فى حنايا صدره .

وقفز المدرس .. وبدأ يهدر :

ـ إن الكابتن "كامباناروس" يطلب حقائق ثابتة قبل التحرك : سفن ومؤن وسلاح ، وجنود يرسلها الموسكوف لتدمى وجوههم ، وان تشترك معنا امنا المسكينة "هيلاس" بفرقها العسكرية الثلاث ! ولكن متى كانت الاعمال العظيمة تحدث فى الدنيا بالضمان والحقائق الثابتة ؟! ومتى كانت "الفطنة" هى التى تحفز الرجال الى هجر بيوتهم وممتلكاتهم وإلى اللجوء الى الجبال بحثا عن الحرية ؟! .. تلك هى حرفة الفرسان : إن يثوروا بلا ضمان . إن روح الرجل ، ياكابتن "كامباناروس" ليست محاسبا .. ولكنها مقاتل ، نحن ـ ابناء كريت ـ مقاتلون ولسنا اصحاب حوانيت ، إن قلب كريت سفينة محملة "بالبارود" .. ننطلق نحو اسطول السلطان لننسفه نسفا ، الى الامام إذن على بركة الله ، وراء "الكابتن ميخايليس" . إلى السلاح يا اخوتى ! .. هذا ما اردت أن اقوله لكم ايها القواد ، فليسمع من كان له سمع ! .

وغمغم الراهب وهو يرفع يده اليمنى باتجاه المدرس كما لو كان يباركه .

ـ بركاتى يامدرس .. بركاتى لك ، إن روح الرجل لا تحمل كفتى ميزان ، بل تحمل سيفا ، انت على حق .

وقال الكابتن "تريالونيس" من "چيراپترا" ناصحا :

- إن ساعة واحدة من الحياة فى ظل الحرية ؛ افضل من اربعين سنة من العبودية والسجن .

وهزّ "كامباناروس" العجوز رأسه الملىء بالفطنة .

وكان الفرسان قد نهضوا واقفين جميعا وقد استثارتهم الكلمات والكلمات المضادة ، وبدءوا يثرثرون ويتجادلون فى جماعات اثنين وثلاثة وخمسة .. كان الحذرون اصحاب الفطنة ، هم الأقلية ، وكان الفرسان - اولئك الذين يجازفون بكل شىء - يفوقونهم عددا ، واخذ الكابتن "كاتسيرماس" يراقب فى غضب .. عصبة الفرسان الذين يرغبون ويزيدون حوله كالبحر ، بينما كان الكابتن "مانداكاس" يتنهد وهو يتذكر ايام الشباب : "آه" ! هؤلاء الناس يمسكون بالورقة وبالقلم ويحسبون المكسب والخسارة .. وكنا نحن على اسمنا لا نعرف إلا صيحة واحدة : "الحرية أو الموت" .. وكانت عقولنا تدور مثل البكرة ، وكنا نهاجم اسوار "كاسترو" لنحدث فيها الثغرات ، لقد تلف الرجال وتضاءلوا ياكابتن "سيفاكاس" ولكن الجد كان ينظر فى تعاطف حار الى الرجال الاصغر سنا الذين كانوا يحيطون به ، ثم يبتسم ويقول لنفسه : "كل شىء على مايرام ؛ وانا على ثقة من ذلك ، إن التراب يوارى القديم" ثم يعود مرة اخرى خارج التراب وقد اصبح خلقا جديدا ، إن كريت خالدة لا تموت .

ثم نهض واقفا وصاح :

- يا اولادى ، هذا اجتماع كبار ، وليس مدرسة يهودية ، اجلسوا ودعونا نصل الى قرار ، الكابتن "كامباناروس" فى جانب ، والمدرس الكابتن فى الجانب الآخر ، هناك طريقان ، ولقد التقينا اليوم فى هذه الجبال لكى نقرر اى الطريقين نختار .

ونهض الكابتن "بوليكسيجيس" وهو يفتل شاربه الأشقر الذى تفوح منه رائحة المسك ، وانحنى محييا الثلاثة الكبار وكان قميصه مفتوحا يكشف أثراً أحمر فى رقبته البيضاء .. لعضة من فم امينة ! ونظر الى الفرسان فى برود ، وتوقف لحظات وهو يتطلع الى "الكابتن ميخاليس" الذى وقعت عليه نظراته الحادة كنظرات عجل من الفحول .

وقال "بوليكسيجيس" :

ـ ايها الاخوة الفرسان ، ياقادة كريت الشرقية ! إن على من يتكلم فى حضرتكم أن يزن جيدا ما يقول ، ولقد حرصت انا على ان ازن كلماتى هذه استمعوا الىّ ايها القادة ، نحن اذا انتظرنا ياكابتن "كامباناروس" .. حمولات السفن التى تتحدث عنها ، وانتظرنا "الرب" حتى يحرك ساقيه ويبعث الينا بالعون من الشمال ، إذا نحن فعلنا ذلك فلن نحرر انفسنا ابدا ، ليس هذا فحسب ، بل اننا سنكون ـ والله يسامحنى على ما اقول ـ غير جديرين بالحرية .. وإذا كان لى أن اتحدث بواقع خبرتى فى السنوات القلائل التى عشتها وتمنطقت فيها بهذا الحزام .. فإننى اقول إن الحرية ليست ابدا كعكة تهبط إلى افواهنا من السماء فنبتلعها .. ولكن الحرية قلعة لابد من أن نقتحمها بأسيافنا ، إن الذى يتلقى حريته من الآخرين ، يظل عبدا الى الأبد ، فليكن ان النار ستلتهم القرى ، وان الفئوس ستقتلع الأشجار .. وأن الرجال سيسقطون فى ساحات الحرب وأن انهارا من الدموع والدماء ستسيل ! وليكن اننا سوف نتساقط .. وأن جماجمنا ستسحق سحقا ، ثقوا ان رجالا أخرين سوف يأخذون اماكننا ، إن على "كريت" أن تنتظر اياما طويلة من الأسى والنحيب ، ربما مائة سنة أو مائتين . أو حتى ثلاثمائة .. لا ادرى ، ولكن : يوما ما ـ لن يكون هناك طريق أخر .. لا تستمعوا الى اناس مثل الكابتن "كامباناروس" ، واقسم بهذه الشمس التى تغمرنا بأشعتها إننا ـ يوما ما ـ سوف نرى الحرية .

وكان الكابتن "بوليكسيجيس" قد رفع طربوشه وبدا شعره الأشقر متوهجا تحت اشعة الشمس ، واثارت كلماته أكثر الفرسان الحاضرين فصاخوا فى حماس : "الحرية أو الموت" ! .. واتجه "الكابتن ميخايليس" الى "بوليكسيجيس" ومد اليه يده بقلب مفتوح هادر :

ـ كابتن "بوليكسيجيس" : ثمة شيطان كان بيننا يحاول أن يفرقنا ، ولكن كريت هى الباقية ! .. هذه يدى ! .

واجاب الآخر :

ـ اخى .. "كابتن ميخايليس" .. وهذه يدى انا ايضا ، وليذهب الشيطان الى الشيطان .

وارتفعت ضحكته ، ولكن "الكابتن ميخايليس" كان قد احس بالندم ، وعاد يجلس حيث كان يجلس ، وقد تغيرت اسارير وجهه مرة اخرى .

وامتد الاجتماع ساعة اخرى ، ناقش فيها الجميع مكان اللقاء واين وكيف ، حتى يحتلوا مفارق الطرق ويحاصروا القرى التركية . ويجمعوا الجماهير فى الأديرة القائمة فى قمم الجبال .

وادبرت الكئوس ، ورشت الخمر فوق الارض ، واقسم الجميع ، وتنهض الثلاثة الكبار .. وكانت الشمس تغيب وراء الافق مع نهاية اللقاء .

باسم الله ! تفرق القادة كُلٌّ الى مملكته ليصدر اوامره الى اتباعه : وأخذ الصغار والكبار يخرجون اسلحتهم من تحت الأرض او من الأسقف .. تشكيل من اسلحة عام ١٨٢١ .. بدءوا ينظفونها ويزيلون الصدأ من فوقها ويهيؤنها للاستعمال ، وبدأ الفقراء منهم يصنعون الهروات ويضعون الخطط لاصطياد الجنود الاتراك وسلب اسلحتهم .

وفى ساحات الأديرة : اخذت الفتيات والنساء يمزقن الاوراق القديمة والمخطوطات ليصنعن منها صناديق للذخيرة ، وبدأ الرهبان الحاذقون فى طحن واعداد المراهم والأدوية لعلاج الجراح ، أو فى إذابة رصاص ابنية الكنائس لصنع طلقات الرصاص ، وتحولت "كريت" كلها الى مصنع يعمل للحرية .. ليلا ونهارا .. وبزغ قمر اغسطس ؛ وبدأت حرارة الشمس تخف ، وبدأت اشعتها تمس كريت فى حنان ، وتمنح الحياة للحنطة ، والشعير ، والأرز ، والعنب .. وبدأت كريت تترقب المطر مع تجمع السحب فى بداية الخريف ـ بيضاء مثقلة تدفعها رياح خفيفة حتى اذا تجمعت ألقت حملها رفيقا ليكسو وجه كريت .

كان العصير يتخمر فى الدنان ، ولكن من ذا الذى يشربه ؟! وكان الكريتيون يسألون انفسهم : من الذى سيعد الخبز من محصول هذه السنة ؟ من الذى سيقدر له أن يعيش ليحتفل برأس السنة ؟! كانت الامهات يحدقن فى أبنائهن الابطال ، وكانت الزوجات يطلن النظر إلى ازواجهن ، والشقيقات الى اشقائهن .. إن ملك الموت ليحوم الآن حول

اكتافهم ، ولكنهن لم يكن يقلن شيئا ، كن يعلمن جميعا أنهم كريتيون ، وانهم ولدوا من اجل أن يموتوا فى سبيل كريت .

وكانت "امينة" هى الأخرى تشارك الكريتيين وتساعد فى صنع طلقات الرصاص فى ساحة كنيسة "كاستيلى" وهى سافرة الوجه مثل النساء المسيحيات ! .. وكانت تجمع صناديق الذخيرة ، ولكن افكارها كانت تسرح بعيدا .. لم يكن يهزها فى قليل أو كثير مصير كريت ، أو الكابتن "بوليكسيجيس" ، أو المسيح أو كل القديسيين .. وانما كانت تحلق فى الجبال مع الرجل الذى نذر نفسه للصيد هناك ، وكان تعميدها سوف يتم فى خلال اسابيع قليلة ـ فى الرابع عشر من سبتمبر ـ يوم الصليب المقدس ، وكانت "كريسانثى" تتحرك فى تثاقل داخل اقطاعية "على انما" التى استولى عليها الكابتن .. تعد اللحوم المحمرة استعدادا لليوم العظيم الذى تتحول فيه امرأة مسلمة الى المسيحية .

حتى الفرسان ؛ كانوا سيحضرون فى رفقة اتباعهم بصفتهم عرابيين ، ولابد أن "تيتيروس" سوف يلقى خطابا فى المناسبة ، وأن ابناء القرى المجاورة سوف يحضرون فى جماعات ليشهدوا بأعينهم تعميد زوجة "نورى" فقد كانوا يرون فى ذلك فألا طيبا ـ أن تتحول تركيا الى اليونان ! .. وكان الجميع سعداء بأن يشبعوا المرأة المسيحية الجميلة الجديدة أما "امينة" فكانت تتقبل كل شىء بإبتسامة .

ويوم ان اجتمع الكبار ! .. كانت "امينة" تجلس بالقرب من النافذة تنتظر عودة صديقها بعد ان استحمت ومشطت شعرها وصبغت حاجبيها المقترنين ، كم كانت تود لو انها كانت معه لتلقى نظرة على هؤلاء الفرسان الاربعة عشر كالنسور فوق القمم ! ولتقابل ذلك الفارس المتوحش غليظ العنق .. "الكابتن ميخاليس" ! .. وحين وصلت بخيالها الى هذا الحد ، اهتز جسدها فى اشتياق ، لماذا بحق الله كانت تفكر فيه ؟! ما الذى كانت تجده فيه ؟! لم يكن رجلا . بل كان وحشا مفترسا ، وحيدا ، قبيحا ـ وإنها لتكرهه ! ولقد احسنت حين اختارت الكابتن "بوليكسيجيس" ذلك الرجل الرقيق المثير والمتحدث اللبق العذب ، وبالرغم من ذلك ، فكم كانت تشتاق الى أن ترى "الكابتن ميخاليس" هناك فى الجبال .. ولو للحظة واحدة !! .

ورفعت عينيها المائلتين الى قمم "سيلينا" الوردية ، كان "نورى بك" قد اختفى تماما من ذهنها ومن جسدها كما لو انه لم يكن حيا فى يوم من الايام ، أو كما لو انه لم يكن عظيما كالأسد .. وكما لو لم يضمها ابدا الى صدره ، كان جسدها مثل البحر ، تستطيع السفينة أن تنساب على صفحته تخدشها للحظة ثم تعود لتلتئم .. وكيف لها أن تظل وتتذكر ذلك الباشا المشوه العليل الذى اشتراها من ابيها ؟! كانت تلك تجارة ابيها التى يتعيش من ورائها .. لقد انجب اجمل البنات ، فأطعمهن وسمنهن ، ثم عرضهن ، وباعهن .. بل وكيف كان لها أن تذكر ذلك الفارس الشركسى الشاب الذى هبط عليها ذات ليلة من ليالى الصيف وهى فى حديقة على ضفة النهر ، ثم طرحها ارضا وسط زهور عباد الشمس الباسقة ؟ كانت تظن لحظتها انه يريد أن يقتلها .. فقاومته ، ولكنه لم يفعل ، فقد اصبح وديعا بعد العناق وهو ينحنى فوقها ويبتسم لها ويسألها : "ما أسمك" ؟ .. "اسمى هو" .. وكيف يمكن أن تتذكر اسم ؟! كل هؤلاء الرجال ـ وغيرهم كثيرون ـ قد انسابوا فوقها وقد غابوا عن الوجود ، والدور الان دور الكابتن "بوليكسيجيس" ! إنه هو الذى ينساب فوقها الآن .. ولكن واسفاه ! .. انها لتحس ذلك من الآن .. لسوف يبتعد عنها فى ذات يوم عرسها .. ولسوف تبرز فجأة من وراء الافق سفينة قراصنة ذات صوار ثلاثة واشرعة سوداء !

وبينما كانت امينة تتنهد ، وهى تحدق من خلال النافذة ، كان "الكابتن ميخاليليس" ممتطيا صهوة فرسه وحيدا .. فى طريقه الى بيت ابيه ، وقلبه يدق بعنف ، والخجل الغاضب يأخذ عليه كل جسده : "ايها الاحمق ، انت تحارب فى سبيل الحرية بينما انت لا تزال عبدا .. ان شفتى تقولان شيئا ، بينما اليدان تقولان شيئا آخر وقلبى يقصد شيئا ثالثا ! .. لماذا تثرثر يا "كابتن ميخاليليس" .. ايها المنافق ؟ ولماذا تخنق قلبك من اجل كريت ؟! ان شيطانا قد انشب مخالبه فى حنايا صدرك ، وملك عليك امرك .. انت ايها الرجل الذى فقد شرفه ! .. وحتى لو انك سقطت صديقا فى المعركة .. وحتى لو انك اقتحمت "ميجالو كاسترو" وحررت كريت ، فسوف تظل بلا شرف ، إن قلبك موصول بشىء آخر مختلف تماما .. وإن اغراضك تكمن هناك .. فى مكان آخر!" .

كان قد ارسل احسن فرسانه : "تيودورس" ؛ يحمل الراية بينما استغرقه هو جوار داخلى مع ذاته ، لقد رأى "بوليكسيجيس" مرة أخرى .. والتقط انفه رائحة ذلك المسك التركى الملعون ، واستطاع أن يلمح تلك العضة الحمراء فوق رقبته ، ولحظتها ثارت الدماء فى عروقه : "اللعنة عليه .. اللعنة على الكلبة " إننى افتقد شرفى طالما هى على قيد الحياة" وكانت ثمة صورة لا تريد أن تفارق مخيلته ، صورة العريس وهو يبحث عن الغرابين اثناء الاجتماع ، ثم وهو يدعوهم لحضور يوم الاكليل .. ثم وهو يقترب منه ثم يرتد امام نظرته ، ووجد نفسه يصيح : "لم اعد احتمل .. هذه ليست حياة ، .. ولابد أن اضع لها حدا" .

كان الكابتن "بوليكسيجيس" لايزال مع "أمينة" و"كريسانتى" الى المائدة يتناولون جميعا طعام العشاء ؛ حين دق الباب .. ودخل "تيتيروس" ودهش "الكابتن بوليكسيجيس" ، فهو لم يكن قد رأى المدرس منذ ذلك اليوم الذى لقى فيه ابن اخته "دياماندیس" وابنة اخته "ڤانجيليو" ميتتهما السريعة ، ولقد كان غاضبا منه فى البداية لأنه كان يشك فى انه هو الذى دس السم لدياماندیس بدافع الغيرة ، ولكنه ما لبث أن غير رأيه ، فلم يكن من المعقول ـ فى تصوره ـ أن يقدم هذا الحمل على قتل احد ومن ثم فقد ألقى التبعة على القدر والمكتوب .. ولم يعد هناك إذن ما يص عن المدرس ، وإنه ليسمع الآن عن سفراته ورحلاته فى القرى ليذ الحماس فى صدور الرجال ، لقد نسى تلك الحكاية إذن تماما ، واسعده ا يراه الآن بلا انتظار ، وصاح وهو يتحرك ليفسح له مكانا :

ـ مرحبا يا مدرس ! .

وحياه المدرس فى ابتهاج وهو يجلس القرفصاء ، فيسقط ضوء المصباح على وجهه ويتطلع اليه "الكابتن بوليكسيجيس" فى دهشة وهو لا يكاد يصدق عينيه ، اهذا هو "تيتيروس" ـ العليل ذو العوينات والسراويل الضيقة والظهر المحدوب ؟! إن الذى يجلس الى جواره الآن رجل مختلف تماما ! .

والحق أن "تيتيروس" اصبح بالفعل خلقا آخر ، فمنذ ذلك اليوم الذى

اغتال فيه ذلك المخلوق الفظ ، .. بدأ يتحول فى صورة واضحة ومطردة .. فقد اصبح اكثر جراة وشجاعة .. وادرك ان سر الرجولة كله لا يكمن فى قوة الجسد فحسب .. بل فى قوة الاصرار والعزيمة ! إن ذبابة ذات اصرار وعزيمة تستطيع أن تصبح فى قوة الثور ، إن الرجولة هى الروح وليست الجسد .. ومنذ ادرك هذه الحقيقة ، بدأ يتحول الى رجل مختلف تماما ، بل ان جسده ايضا بدا يكتسب القوة شيئا فشيئا ، فلم يعد محدوبا .. وكان يأكل فى شهية ويشرب بشراهة .. وبدا اللون الأحمر يجد طريقه الى خديه ، ليس هذا فحسب ، بل انه ـ وهذا اغرب مافى الامر ـ اصبح يحس بالنار فى جسده فيجرى خلف النساء ! وها هو ذا يحمل جواله على ظهره وينتقل من قرية الى اخرى يتحدث عن الوطن الأم ويجعل من نفسه عرابا لأطفال كثيرين ، ويعقد صلات وثيقة بعائلات هؤلاء الاطفال ، ولقد حدث أن واحدة من هؤلاء الاقارب الجدد كانت زوجة لرجل غائب .. وكانت مرحة ولعوبا ، وفى احدى الليالى ، وبعد حديث مرح ؛ وجد الاثنان ـ دون أن يدريا كيف حدث ذلك ـ أنهما اصبا معا فوق الفرش وقد احتضن كل منهما الآخر ! .. ومنذ تلك الليلة ! .. اصبح "تيتيروس" يزور "كاستيلى" كثيرا .. وينام الى جوار قريبته الجديدة التى كان يرجو من الله ان يحميها ! .

وقال "الكابتن بوليكسيجيس" وهو يملأ له كأسا :

ـ سمعت انك انت ايضا اصبحت تحارب ! إن دراستك ياكابتن قد بدأت تتحول وتحمل معها راية مطرزة بحروف الهجاء ! .

واجاب المدرس ضاحكا :

ـ وآمل ان استطيع قريبا حمل البندقية ، إن حروف الهجاء ليست اكثر من مشهيات ، اما الطعام .. فهو تركيا ! .

واسندت "امينة" خدها التفاحى الى يدها وهى تحدق فى المدرس وتتأمل : "هذا هو شقيق الكابتن ميخاليليس .. مدرس .."" وحاولت عبثا ان تكتشف فى وجهه تلك الملامح العابسة القاسية التى عرفتها فى الآخر .

ونهضت "كريسانثى" وخرجت ، فلم تكن تحتمل النظر اليه ، فقد كان ثمة جثتان تنهضان من تحت التراب ، وتقفان الى المائدة فى مواجهتها وعاد "الكابتن ميخايليس" يتساءل : .

ـ لعلك تتلطف يا مدرس ، فتحضر حفل التعميد يوم الاكليل ؟ سوف نعمد "امينة" ويصبح اسمها "إلينى" ، وسوف يكون عرسنا فى نفس المساء .

ـ ذلك هو بالضبط ما جئت من اجله ياكابتن ، لقد كان العجوز "مافروليياس" يحفر فى حقله بالقرب من "كاستيلى" فعثر على حوض من الفخار الرائع وطلب منى أن ألقى عليه نظرة ، وهو يعتقد أنه اناء اثرى ، والحق ان الله وحده يعلم كم الف سنة مرت وهو مطمور تحت الأرض ، وثمة نقوش فوق جداره من الخارج ـ نقوش لاعناب من الصدف لا أعرف ما تعنيه على وجه اليقين .. ولقد عثرت فى قاعه على حفنة من الفول المصرى تحولت من الزمن الى ما يشبه الفحم .. واكاد أجزم بأن هذا الاناء يعود الى ايام الملك "مينا" ! .

وتساءل "الكابتن ميخايليس" : .

ـ حسن .. ثم ماذا ؟! .

ـ ألا ترى معى يا كابتن ؟ إنه حوض المعمودية ! إن القسس لم يصل بعد الى رأى بالنسبة للاناء الذى سيجرى فيه تعميدها ! إن حوض الكنيسة صغير الحجم ، وها قد وهبنا الله ـ وفى اللحظة المناسبة ـ حوضا رائعا يُبرز لنا من تحت الأرض ، ولعلها تكون فألا طيبا ياكابتن ! واقسم بدينى ، أن القسطنطينية سوف تعود مسيحية مرة أخرى ! .

ثم وقف .. فقد كان فى عجلة من امره ، لقد كانت شقيقته فى العماد تنتظره على احر من الجمر .. وقد هيأت له المائدة ! .

وقال "الكابتن بوليكسيجيس" ضاحكا :

ـ إن رأسك حبلى يا مدرس ! تلد الافكار النيرة ، ما رأيك يا امينة ؟!

ولكنها لم تقل شيئا ، ظلت فقط تحدق فى المدرس .. بينما روحها تتحرر من جسدها وتسبح بعيدا .. بعيدا عن المسيح .. وعن الأخوان .

كانت المرأة قد أعدت المائدة وملأت زجاجات النبيذ ، وجلست تنتظر اخاها في العماد ! كانت امرأة مسترجلة ، ربعة الجسد .. اسنانها طويلة بيضاء .. ذات شارب اسود كثيف ! وكان وجهها العريض مليئا بأثار الجدرى ، ولقد كان قبحها هذا هو ذاته الذى شد اليها المدرس ، عالم غريب حقا : لو لم يكن هذا النمش فى وجهها لما استطاعت أن تلهب دماء المدرس .. ولظل زمنا طويلا اخجل من أن يضم الى صدره امرأة ! .

وحياها المدرس تحية المساء ، وكان ابنه بالعماد طفلا صغيرا لايزال نائما فى مهده ، وكان ثمة طفل آخر ينام فوق اريكة صغيرة ، اما الزوج فقد كان بائعا متجولا يجوب القرى .. كان وحدها مع "تيتيروس" .. وكانا فى عجلة من امرهما ، سرعان ما افرغا زجاجات النبيذ ، ثم رسم كل منهما علامة الصليب ، وغطيا الايقونات المقدسة المعلقة حتى لا تنظر اليهما .. وقذفا بنفسيهما فوق الفراش .

وفى صباح اليوم التالى اصطدم المدرس بجمع فى ميدان القرية امام اشجار الحور الثلاثة الملتفة . وكان الفلاحون يندفعون خارج بيوتهم حفاة الاقدام وقد تناهت الى اسماعهم صيحات هذا الجمع . ثمة راهب كان قد وصل لتوه عارى الصدر لاهث الانفاس ، تسيل الدماء من قدميه . واخذ يصيح :

– ايها الأخوة .. لقد ارسلنى آباء دير المسيح ، إن القائد "حسن بك" خرج زاحفا من "ميجالو كاسترو" على رأس قوة من الجنود الاتراك ، ولقد حاصروا الدير ! اين قائد هذه القرية ؟! .. النجدة يا اخوتى ! إلى السلاح .

وكان "الكابتن بوليكسيجيس" لحظتها بين احضان الشركسية ، وحينما تناهت الاصوات الى سمعه قفز لتوه ، ولم يكن من المقبول – وهو الفارس – أن يخرج بدون سرواله ! .. ومن ثم فقد ارتدى ثيابه ودس غدارته فى

حزامه الجلدى ، واندفع ناحية الضجة .. ثم امسك بالراهب من ذراعه وهو يقول :

ـ لا تصح هكذا ! لا تزعج رجالى !

ثم جذبه جذبا حتى ادخله البيت واغلق الباب .. وقدم له بعض الطعام والشراب .. واسترد الراهب انفاسه .

وقال الكابتن "بوليكسيجيس" فى لهجة آمره : .

ـ الآن تستطيع ان تتكلم ، ولكن حذار أن تعود الى هذا النحيب ! ليسوا كثر من اتراك ايها الراهب الأحمق ، ولسوف يتخطفهم الشيطان ! .

الفصل العاشر

وأطلع الله النهر ، ولمست مشاعل الضوء المرتفعات ، وانحدر الضوء الى السفوح حتى انصب فوق جسد كريت المعذب ، ولو ان الله لحظتها شاء أن يلقى نظرة على كريت ، لأحس بالأسى والاشفاق لمرأى البيوت المحترمة والنساء اللائى يعولن ، والاطفال اليتامى عند اقدام الجبال العارية الجوعى ، والرجال ـ الذين صرفتهم القساوة عن الصلاة ـ وقد لزموا الممرات ، والقمم وهم يحملون مزقا من القماش طرز عليها رسم الصليب ، واندفعوا الى المعركة عارية اقدامهم ، بلا خبرة ولا ذخيرة ولا شىء سوى بندقية بائسة ، كم مرة ـ وعلى مدى اجيال طوال ـ رفعوا ايديهم ضارعين الى الله فلم يتلفت ليسمع ضراعتهم ؟! كانت السماء صماء ، وكان الله قد بدل المقادير .. ومن ثم فقد امتدت ايديهم هذه المرة الى بنادقهم .

ومع اشعة الصباح الاولى كان الكابتن "بوليكسيجيس" مشغولا بالخروج الى الحرب . يسرج فرسه ، وكان قد بعث برسول فى المساء السابق الى "الكابتن ميخايليس" يحمل آخر الانباء : الأتراك يحاصرون الدير المشهور ، فلترتفع الآن الراية ، الحرية أو الموت ! لم يعد هناك مكان للكلمات والخطب : .. الذى يجب أن يتكلم الآن فقط هو فم كريت الحقيقى : البندقية .

ولقد اضاف الى رسالته : "الآن ياكابتن ميخايليس الى الجحيم كل حزازاتنا واهتماماتنا الصغيرة ، فقد اكلت منا بما فيه الكفاية ، إن احدهم سأل الأسد يوما : ما الذى يخفيك اكثر ، الفيل ؟! النمر ؟! الثور ؟! .. فأجابه قائلا : بل القملة هى التى اخافها ، ان القملة قد عضتنا كلينا

ياكابتن ميخايليس ، وكنا نسميها السعادة مرة .. ومرة اخرى كنا نسميها الحرص ، ولكنها كانت القملة دائما ، فلتذهب الى الشيطان فإن كريت تنادى ، مد الينا يدك يا اخى !" .

وخرجت "امينة" واستندت الى قائم الباب ، وقد احاطت عينيها هالتان من الزرقة وبدت شفتاها متورمتين ! واستدار اليها الكابتن وهو لا يزال يفكر فى الكلمات الرفيعة التى بعث بها مساء امس الى "الكابتن ميخايليس" .. ووجهه يحمل الجد والقسوة .

وسألته الشركسية فى ضراوة : "اين تسرح افكارك ؟ إننى اقف امامك دون أن تعيرنى ادنى اهتمام" .

وكان هو لايزال يعلق بالسرج حقيبة ذات جانبين مطرزة بمختلف الألوان وقد ملأ جانبا منها بذخيرة بندقيته ، وبمزق القماش المبلل بالزيت ، وبالمراهم ، ووضع بالجانب الآخر رغيفا من الخبز وقطعة من الجبن الطرى وزجاجة نبيذ بماذا ياترى يجيب هذه المرأة التى تقف بالباب وترقبه وهو يتهيأ للرحيل ؟! انه منذ أن كتب تلك الكلمات مساء امس لرفيق السلاح الوحشى وهو يدرك جيدا ـ وكما لم يدرك يوما فى حياته من قبل ـ الى اين تنتمى النساء .. والى اين تنتمى كريت ، وماهى الواجبات الحقيقية للرجل .

وعادت الشركسية تتكلم : "لابد أن اكشف لك سرا" .. ثم اتجهت نحوه ، وربتت على عنق الفرس وقد احنت رأسها حتى تهدل شعرها فوق عنقها كمعرفة الفرس ذاته ويكاد يلمس الارض .. بينما غمرت الفناء رائحة المسك .

وتوقفت يدا "الكابتن بوليكسيجيس" وظلت فى الهواء بلا حراك وهو يسأل :

ـ سر ؟! .

ـ بلى .. وانا الآن اقوله لك حتى لا تدعى بعد ذلك اننى لم اكشفه لك ..

إننى اتلقى فى بعض الاحيان اخبارا من "ميجالو كاسترو" ، إن اقرباء "نورى" سوف يهبطون على "كاستيلى" .. يوما ومعهم الجنود ليأخذونى ، وإن انا لم اعد الى دينى فسوف يقتلوننى .. فأذهب انت اذن الى دير السيد المسيح ولكن .. فكر ايضا فى زوجتك ياكابتن "بوليكسيجيس" ! .

وظل الكابتن واقفا للحظة فى حيرة بينما تناهت ضجة من الخارج حيث الزوجات يودعن ازواجهن ، والنساء العجائز يبكين والرجال يخلصون انفسهم من احضانهن وهم يصيحون "الى اللقاء" .. ثم يتجمعون الى القرب من شجرة الحور فى قلب ميدان القرية .. حول راية "الكابتن بوليكسيجيس" .

وعندما رأته الشركسية صامتا ، قالت : "إن المرأة هى ايضا قلعة .. لابد من الاستحواذ عليها" .

واجابها الرجل فى النهاية : "ولست انسى ذلك .. الى اللقاء" ثم احتواها بين ذراعيه فأحس بجسدها القوى واهتاجت مشاعره ، إن الدنيا كلها تصبح كئيبة لولا ان هذا الجسد المثير بين ذراعيه ! واغلقت المرأة عينيها واشرأبت فى رقة تحاول أن تصل الى شفتيه .. وتهاوت لحظتها ركبتاه ! وصهل الفرس ، وافاق الكابتن من غيبوبته واستند الى قائم الباب ، وابعد المرأة فى رقة وحرر نفسه من شفتيها ، ثم امسك بعنان الفرس ، وفى قفزة واحدة اصبح فوق صهوته .

وقال : "إلى اللقاء" .. ثم انطلق عبر الباب الخارجى دون أن يدير رأسه .. واتجه الى ميدان القرية .

وفى ذات الصباح الباكر ، كان "الكابتن ميخاليس" ـ محوطا بأفضل فرسانه داخل ساحة الجد الفسيحة فى بتروكيفالو ـ يعهد الى "ثودورس" برايته قطعة القماش الاسود وقد علتها الكلمات باللون الاحمر ، وكان يقف الى جواره فى سلاحهم صحبة الشراب : "كاجابيس ، وفوروجانوس" ، اما فينروسوس فكان قد ذهب ليعد امور اسرته ، بينما بقى "بيترودولوس" الى جوار زوجته ، واستدار "الكابتن ميخاليس" الى زوجته التى كانت تقف عند المدخل وقد بسطت ذراعيها :

ـ الى اللقاء ايتها الزوجة .

ـ الله معك ياكابتن ميخايليس .

ثم اضافت وعيناها ترمقان فى حنان رفاق السلاح الشباب المحيطين بزوجها "الله معكم يافرسان !" .

وخرج الجد وقد اكتسحا خداه بالحمرة مع اشعة ذلك الصباح الباكر ، وصاح وهو يرفع مخلبه الثقيل :

ـ الى الامام يا اولادى ومعكم بركاتى ! الله يبارككم ! انكم تحاربون من اجل كريت وليس ذلك بالهزل ! سعيد هذا الرجل الذى يهب حياته لخدمة كريت ! .

ثم صمت لحظة : وعاد يقول :

ـ وفى هذا اليوم ينبثق الآن صباحه ، فإننى احس ـ ولا ادرى لماذا .. بأنه افْضَلُ لى أن أُقْتَلَ فى خدمتها من أن اعيش فى خدمتها ! .

وتناهت الضجة الى "كاراساكى" النائم ، وادرك ان اباه يخرج فى تلك اللحظة للحرب .. فقفز من فراشه ليظهر فى لحظة عند عتبة الدار وقد تدثر بسجادة حمراء مطرزة ، ونظر ابوه الى الصبى الذى كان لايزال نصف نائم وهو يتعثر بين جده وامه ـ واستغرق فى الضحك ثم قال وهو يقفز الى ظهر فرسه :

ـ الى اللقاء ياثاراساكى ، الى اين تكبر فيما فيه الكفاية ! .

ثم رسم علامة الصليب وهو يقول : "باسم الله" ! .

وتحركت الراية فى المقدمة .. وخلت القرية من الرجل .

كان دير السيد المسيح قد تأسس فى الأزمات القديمة قبل أن تسقط القسطنطينية وقبل أن يجىء البنادقة ألى كريت .. وايام كان الاباطرة البيزنطيون لايزالون يحكمون الشرق وجانبا كبيرا من الغرب .

وتقول الروايات إن الذى بنى الدير هو الامبراطور نيكيفوروس ـ ذلك الانسان الاسود الروح الذى اغواه جسد جميل لأمرأة .. والذى افلت من الجحيم بمقدرا شعرة ، ولكنه تشبث برحمة الله ، وغفر الله له واحله منزلة فى الجنة مع غيره من الاباطرة الخاطئين والذين عذبوا ابشع عذاب .

وكان نيكيفوروس هذا يفرض سيطرته على الدنيا .. ونزل "كريت" حيث هزم العرب واسقط الهلال وركز فوق الحقول المحروقة والمدن المنهوبة رايه المسيح ، وفى احدى الأمسيات ـ هكذا تقول الروايات ـ كان يسير فى احد الوديان حين نام تحت شجرة ليمون ، وحين اصبح عليه الصباح تابع السير فى اتجاه "شانداكا" (وكان ذلك اسم ميجالو كاسترو آنذاك) ، وكان ذلك فى مايو : والقمر فى تمامه والفضاء ترن فيه انغام عندليب يغنى ، ورأى الامبراطور السيد المسيح يقترب ، وقدماه عاريتان يكاد أن يغمى عليه من نصب السير الطويل ، توقف عند شجرة الليمون دون أن يرى "نيكيفوروس" ، وتمدد فوق الأرض وهو يتنهد ، ثم اتخذ وسادة من حجر .. وقال : "كم انا متعب" ثم طوى ذراعيه .. واغلق عينيه .. وراح فى سبات عميق .

واحس الامبراطور طوال الليل بسعادة حلوة لا توصف ، ولم يكن ذلك لأن القمر كان فى تمامه .. ولا لأن العندليب يغنى . ولا لأنه ارتاح فى نومه ؛ ولكن لأنه كان قد دخل الجنة ! .

وعندما استيقظ "نيكيفوروس" مع فجر اليوم التالى .. قال : "هذه الشجرة ، حيث نام المسيح ، قد تقدست" ثم امر بأن يبنى ديرا حولها ، وهكذا ـ كما يقولون ـ تأسس دير السيد المسيح .

ومات الامبراطور البيزنطى ، واستولى الاتراك على القسطنطينية وعاد البنادقة الى كريت .. ثم احتلها العثمانيون ، وتحطم "السيد المسيح" .. واعيد بناؤه من جديد .. ثم تحطم مرة أخرى .. وهاهو ذا الآن محاط بالاتراك من كل جانب .. واجراسه تدق فى أنين وتصيح باعثة بالرسائل الى ارجاء كريت : "ياكل المؤمنين .. هلم ساعدونى !" .

وكان رئيس الدير يسلح نفسه داخل الكنيسة ، بينما الرهبان يحفرون ما تحت المحراب المقدس ليخرجوا بنادقهم .. وركع رئيس الدير امام ايقونة المسيح وصاح بصوت مرتفع ليسمعه الجميع .

ـ يا سيدى المسيح .. اغفر لى خطأى ، انا وحدى الملوم ! وها قد اقبل الكلاب ليثأروا لدمهم .

وكان فى الحقيقة هو الملوم وحده ، ففى اليوم الأول من سبتمبر ـ بداية السنة الاكليريكية ، كان فى طريقه عائدا من "ميجالو كاسترو" بعد أن القى بأعترافه امام المطران ، وبعد ان ركع امامه وهو يقدم هبات الدير السنوية ، وسأله أن يشمل الدير بحمايته ! فيتفضل باستخدام نفوذه مع الباشا ليمنع الاتراك من مهاجمته مرة أخرى ، كم مرة اخرى سوف يحرقون هذا الدير ؟! "ارحمنا ! لقد امتد بى العمر ياسيدى المطران ، وجراحى اصبحت تؤلمنى ، ولم يعد فى مقدورى بعد أن ادافع عنه !" .

واجابه المطران ضاحكا :

ـ وهل تظن أن العمر امتد بالله ؟! ومع ذلك فإنه لايزال يلقى باعباء جديدة على كواهل عشرة من القديسين ! اذهب مصحوبا ببركاتى ولا تقلق .

وحمل رئيس الدير بركات المطران معه فى الطريق الى بلده ، وقاد بغلته عبر بوابة المستشفى خارجا منها ، وتحت الشمس الغاربة اخذ يتطلع الى زرقة الجبال المتوهجة امامه والى الحقول بعد حصادها والكروم الغنية بالعناقيد واشجار الزيتون المثقلة بخيراتها حوله ، .. والى البحر .. واحس بقلبه يقفز من بين ضلوعه .. وغمغم يقول :

ـ جميلة هى هذه الدنيا الزائفة .. كم هى جميلة كريت ! إن كريت هى الله .

والتزم الشاطىء فى طريقه ، واخترق الرمال الحمراء على ضفاف النهر ، وشرب "الراكى" فى فندق الأرملة .. ثم اتجه نحو "الجبل

القاسى" ، واخذت البغلة تسير فى حذر فائق ممر الماعز الضيق على طول حافة الجبل وقد بدأت تهب نسمات رقيقة باردة بينما كان يرى البحر الى يساره عند السفح يزداد ظلمة وسوادا ، ورسم علامة الصليب ، وعاد يقول بقلب مفعم بالسعادة : .

- انها لجميلة هذه الدنيا الزائفة .. كم هى جميلة كريت ..

ولم يكد يفرغ من الجملة حتى رأى ثلاثة من الشباب الاتراك الأقوياء يخرجون إليه من وراء صخرة كانوا يتربصون به من خلفها .. ويندفعون نحوه وقد شهروا خناجرهم ، وكان الاتراك قد اقسموا ان يثأروا لآبائهم من هذا القاتل الذى ترملت على يديه كثير من الهوانم وييتم كثير من الاطفال فى ثورة ١٩٦٦ ! .

وجفلت البغلة ، وكادت تلقى رئيس الدير من فوقها ، ولكنه نسى لحظتها انه رجل عجوز يكسوه اربعون جرحا .. وقفز الى الأرض فى خفة القطة المتوحشة .. وصاح وهو يستل خنجره : "باسم المسيح" .

وماجت ارض الممر الضيق بأربعة اجساد تدور وتدور ، ومن بينها جسد رئيس الدير الضئيل بارز العظام .. وخفيف الحركة فى ذات الوقت والذى اتقى المهاجمين بقبضتى يديه .. وثارت دماؤه .. واحس بشبابه يعود وبأن كل اسلافه واجداده الذين سقطوا فى المعارك ضد تركيا ينهضون داخل جسده ، ولم يعد هو وحده الذى يضرب .. ولكن كريت كلها كانت تضرب معه .

وكان الليل قد اوغل .. والبحر تحتهم مظلم داكن الظلمة ، وكانت النجوم فوقهم فى قبة السماء جذلى فى وحشية .. وثمة طائرة يحوم فوق صخرة وهو يرقب رقصة الموت من اربعة اجساد .. ويغنى ! .

وصاح رئيس الدير مرة أخرى : "باسم المسيح" .. وجاهد بكل قوته ليخلص نفسه من مخالب الاذرع الستة ، ثم اندفع بجسده نحو الثلاثة .. معا ليسقطوا على الأرض .. على حافة الممر ، ثم ليبدءوا معا فى التدحرج وهم يحاولون فى البداية أن يتشبثوا بالصخور ، ولكن دفعة أخرى قوية منه

افقدتهم آخر محاولة للمقاومة .. وسقط الاتراك الثلاثة يصرخون فى الهاوية إلى البحر .

واستند رئيس الدير الى الجبل ورسم علامة الصليب والدماء تنزف من رأسه وصدره وقد تمزقت ثيابه ، وضمد جراحه بشريط من القماش ونادى بغلته .. ثم قال :

- امنحنى القوة ايها المسيح على أن اصل الى الدير ، وبعدها افعل ماشئت .

وضغط على اسنانه بقوة وهو يغالب الألم .. ويقفز الى سرج البغلة ، ثم استأنف سيره وهو يقول : "الله عظيم" .

وفى اليوم التالى : كانت "ميجالو كاسترو" تتحدث عن الفعلة الجديدة التى ارتكبها رئيس الدير قاتل الاتراك ، وخرجت ثلاث نساء عجائز يبكين اولادهن ومعهن عدد كبير من الاتراك ، واتجه الجميع الى مكان السقوط ، وهبطوا الى الشاطىء القفر والتقطوا الجثث الثلاث ودفنوها فى الرمال ، وغرس الرجال خناجرهم فوق شاهد القبر وهم يقسمون ان يبنوا لأصحابه ضريحا على انقاض الدير الملعون ، وهكذا ، امتلأ الوادى امام "دير السيد المسيح" ذات صباح بالطرابيش الحمراء .

وفى ذات الصباح خرجت عصابات اخرى واتجهت نحو بوابة المستشفى فى طريقها لتعزيز الحصار حول الدير والى قرية "كاستيلى" التركية الكبيرة والتى كان "الكفار" قد احتلوها ، وكان فى المقدمة منهم جميعا اقارب نورى بك ، وعلى راسهم المؤذن المتوحش والجنون يتملكهم جميعا ، اما فى داخل "ميجالو كاسترو" ؛ فإن المسيحيين كانوا يتطلعون من خلف النوافذ المغلقة الى الأتراك وهم يندفعون نحو بيوت اليونانيين والغداوات والخناجر والمدى فى ايديهم .

وفى ذات الصباح ايضا .. وعلى الجانب الآخر من البحر ، استيقظت "اثينا" .. كان ضوء الشمس ينحدر تدريجيا ابتداء بأعمدة "الباريثنون" .. الى السهل حيث المدينة التى اشتهرت بالفكر والجمال

والتى كانت قد بدأت تتمطى وهى تستيقظ من نومها بعد سبات عميق على اصوات باعة اللبن والصحف والخضراوات .. وبدأ يخرج من مبنى مدرسة مهجورة - من حجراتها ومخازنها - اللاجئون الكريتيون وهم يحملون فى ايديهم علب الصفيح ويقفون امام باب مفتوح يمكن للمرء أن يرى خلفه ساحة اقيمت فوق ارضها بعض الحواجز الضخمة ، وينتظرون ساعة أو بعض الساعة ليحصلوا على بضع ملاعق من حساء العدس ، كانوا فى البداية يحسون بالخجل لأنهم لم يعتادوا من قبل أن يمدوا ايديهم بالسؤال : ولكن الجوع بعد ذلك كان كفيلا بأن يذهب الخجل .

كانت هيلاس الأم - والموت يذلها هى الأخرى - تقتطع لقيمات تعطيها للكريتيين الجوعى ، وفتحت ربات البيوت التعيسات البائسات اكياس النقود .. وضحى الأزواج الجدد بهدايا اعراسهم ، ورفع القسس ايديهم الى السماء فى ابتهال ، وخرجت سفن من اماكن مختلفة على الساحل تهرب الذخيرة والطعام والمتطوعين الى كريت .

وفى ميناء "سيرا" ، كان الكابتن "ستيفانيس" يذرع الأزقة الخلفية الصغيرة للمدينة وهو يعرج فى سيره ، ويمد يده فى توسل :

- سفينة من اجلى ايها المسيحيون ! سفينة من اجل كريت ! .

وفى ذات اليوم ، هيأ الله له امرا ، فقد كان ثمة اثنان من الزعماء ممن كانوا اصدقاءه - يوما ما - يتجهان إلى دير السيد المسيح ، واستطاع "الكابتن ستيفانيس" أن يقفز الى ظهر سفينة عهد بها اليه ابطال "سيرا" محملة بالدقيق والأحزمة والضمادات وذخيرة البنادق .

ورسم الكابتن "ستيفانيس" علامة الصليب وأخرج ايقونة "القديس نيكولاس" وثبتها فوق مقدم السفينة وهو يهمس لها : "إننى اضعك فى مقدمة السفينة فإلى الأمام إذن ياقديس نيكولاس ، فان عينيك تريان افضل ماترى أعين رجلين معا ، لا تقل بعد ذلك إنك كنت داخل السفينة لاترى شيئا" ! ونظر اليه قديس البحر ذو اللحية القصيرة .. فى سكوت ، ثمة سفينة كاللعبة على سطحها رجال صغار .. هى فى قبضة يده التى اكلها

الملح .. وكان يبتسم ! وانحنى فوق الكابتن ستيفانيس .. وقبله .

ولاحت سحابة صغيرة فى السماء الى الجنوب وكأنها سحابة من الدخان مالبثت ان تتبعها سحائب صغيرة اخرى كأنها اغنام تأخذ طريقها خلفها تدفعها ريح جنوبية ساخنة ، وكان راعيا هو الذى يرفعها ، وعند الظهيرة كانت السماء قد غطتها السحب ، وبدأت قطرات اول امطار الخريف تهطل ، وبدأ اول هزيم الرعد يصفق .

وأدار الكابتن "ستيفانيس" عينيه البراقتين فى اتجاه الجنوب وابتسم وهو يقول : "هبى يارياح الجنوب ياسيدة البحار ، وصبى فيضك حتى لا تظهر الشمس ولا يلوح القمر .. وحتى ألج ابواب كريت الى ارضها فى سواد كسواد القار" .

وسمع "فيندوسوس" بدوره هزيم الرعد فتسلق الجبل ، وراعه ما رأى فرفع رأسه الى السماء المظلمة حوله وغمغم يقول : "انتظرى ايتها السماء حتى اصل الى ابى بالمعمودية .. چورچاروس .. ثم افعلى بعدها ما تشائين" ! .

وحث الخطى فى طريقه الى "اناپولى" القرية الجبلية ليسأل اباه المعمودية أن يعتنى بزوجته وبأبنتيه حتى يسود السلام "كريت" من جديد .

ووصل الى القرية فى الظلام الحالك ، وقرع الباب ولا من يجيب ! وعاد يقرع الباب من جديد حتى فتح له ابوه بالعماد وعيناه حمراوتان وشعره اشعث ووجهه اصفر شاحب ، وقال "فيندوسوس" : "سلامى يا أبى "چورچاروس" : هل استطيع أن ابيت عندك الليلة ؟" وقال الأب : "سلنى رأسى اعطها لك .. مرحبا !" .

ودخل "فيندوسوس" ولم تظهر الزوجة بينما تناهت من اعلى ـ فى غرفة النوم ـ اصوات حزينة خافتة مالبثت أن اختفت .

وسأل "فيندوسوس" :

ـ واين امى ؟! .

- اعذرها ياولدى "ڤيندوسوس" ، إنها لم تكن على مايرام فى الايام الأخيرة ، انها تبعث اليك بتحياتها وترحب بك .

واعد الاب بالعماد .. المائدة .. واحضر الطعام والنبيذ واشعل مصباحا آخر ، ثم قال :

- اغفر لى ياولدى ، ليس عندى الكثير لأقدمه ، فلم اكن اعرف انك ستمنحنى شرف حضورك هذه الليلة ، غدا اذبح لك دجاجة بإذن الله .

وعصفت الريح الجنوبية .. وهطل المطر بشدة .. وقال "ڤيندوسوس" :

- غدا سوف اعود يا ابى بإذن الله ، فقد وعدت "الكابتن ميخايليس" ومن العار أن اخلف وعدى ، لقد جئت فحسب لأسألك معروفا" .

وهز "چورچاروس" رأسه وهو يقول :

- كل مافى وسعى .

- عسى أن يكون عندك مكان لأسرتى .. حتى يصمت السلاح .

وعبَّ "چورچاروس" جرعة من النبيذ وكان حلقه فى حاجة الى مزيد من الاتساع ، وقال وقد خفض رأسه :

- لقد خلت غرفة بالصدفة .. فى الايام القليلة الماضية فقط ! .. خذها يا"ڤيندوسوس" ياولدى ! .

ثم نهض واقفا ، وفتح الباب .. وخرج الى الفناء ، ثم مالبث ان عاد وقد بلله المطر .

- الشكر لله ، إن السماء تمطر وسوف تكون الأرض مهيأة للحرث .

ثم ازاح المائدة جانبا واعد لابنه سريرا .

- نم ياولدى فطريقك كان طويلا .

وفى صبيحة اليوم التالى جاءه "چورچاروس" بوعاء من اللبن ، ورغيف

جاف وقطعة كبيرة من الجبن ، وكانت السماء صحوا والديكة تملأ جو القرية صياحا وهى فوق اسطح بيوتها ، وقال "ڤيندوسوس" :

- صباح الخير يا أبى ، كيف استطيع أرد جميلك ؟! الله وحده يكافئك .

- الله يكافىء عما يستحق المكافأة ياولدى ، فلا تشغل بالك .. الى اللقاء يا"ڤيندوسوس" .

وبدت الصخور المغسولة بالمطر .. لامعة فى ضوء الصباح ، وبرقت حبات المطر فوق اغصان الاشجار ، وهرول "ڤيندوسوس" هابطا الجبل وهو يصفر بفمه فى سعادة ، فقد وجد الحماية لأسرته فانزاح عن صدره كابوس ثقيل الامر الذى يجعله الآن يمضى فى طريقه عائدا الى "الكابتن ميخايليس" و"كاچابيس" ، و"فورو جاتوس" .

وفتح باب لبيت من بيوت القرية وبرز رجل عجوز على عتبته فعرفه "ڤيندوسوس" على الفور - انه العجوز الحاذق "زخارياس" عم "چورچاروس" والذى يقلم الأشجار ويداوى الرجال والنساء ، والذى يحمل فى ايام السبت وعاء من الفخار وبعض الصابون وزوجا من الشباشب ! وموس حلاقة ثم يتخذ مكانه بالقرب من الكنيسة جالسا فوق مقعد صغير ليحلق من الرءوس مايتيسر له ، والى جواره جوال صغير يملؤه له زبائنه بالخبز والخضراوات والعنب والزبيب ، وجرتان إحداهما للنبيذ والأخرى للزيت ، فإذا ما انتهى من اعمال الحلاقة جمع الشعر المتخلف فى كومة واشعل فيه النار فأرتفع الدخان وغطى المكان حوله ، وناداه "ڤيندوسوس" وقد توقف :

- طال عمرك ياعم "زخارياس" .

وا[illegible] العجوز :

- مرحبا بعازف القيثار ! ما الذى يجرى فى هذه الدنيا ياولدى ! وإلى اين هل تمضى ؟ .

- لا تهتم ياعمى ! .. الى الشيطان هذه الدنيا ! .

- وأنت ؟! .

ـ انا ذاهب معها . وهل فى مقدورى أن افعل غير ذلك ؟ لقد امضيت الليلة الماضية عند ابى بالمعمودية "چورچاروس" ولقد تحدثنا سويا حديثا طويلا .. وهاأنذا عائد ادراجى .

ورفع العجوز يديه الى السماء وهو يغمغم :

ـ عند "چورچاروس" ! اللهم ارحمه ! من اجل ذلك إذن ارسل يطلب منى ألّا يذهب احد الى بيته لينوح على الميت ؟! .

ـ ماذا تقصد ياعمى ؟! ينوح على اى ميت ؟! .

ـ الم تلاحظ شيئا ؟! . .

وما الذى كان يمكن أن ألاحظه ؟! .

ـ لقد قتل ابنه صباح امس ، وكان جسده فى حجرة النوم ! .

وغطى "ڤيندوسوس" وجهه بيديه ولم يقل شيئا .

وصاح العجوز : .

ـ لا تبك يا"ڤيندوسوس" ياولدى ! الوداع .. كلنا سنموت ! .

وكانت السماء قد امطرت طوال الليل ابدا حيث دير السيد المسيح . وبدت وجوه الرهبان منتعشة برغم ان ثلاثة ايام مرت ، وهم راكعون خلف متاريسهم ينتظرون الاتراك كان ثمة اثنان وثلاثون منهم ، ومعهم قرابة العشرين من الفلاحين الذين خجلوا من التخلى عن "السيد المسيح" وسط ذعرهم ، فعندما سمعوا دقات الاجراس العاصفة هرعوا بزوجاتهم واطفالهم الى كهف مرتفع جعله الله قلعة من القلاع ، ثم زودوا الدير بالمؤن ـ خراف وماعز وجوال مملوء بالبسكويت .

وكان الوقت من الظهيرة قريبا عندما وصل الكابتن "بوليكسيجيس" بفرسان الى قمة الممر وبدأ يقترب من الدير عبر الوادى ، وتناهت اليهم من

بعيد اصوات طلقات الرصاص ودقات طبول الاتراك الذين اسرع بعضهم باتخاذ مواقعه فى قمة الممر ليحمى مؤخرة الباقين .

ووقف الكابتن "بوليكسيجيس" وقدماه فى الركاب .. واطلق طلقة من غدارته وهو يصيح : "ادوا لهم التحية يا اخوتى !" .. ثم استدار الى اصحابه الذين كانوا يلهثون وراءه وقال : "فليتلقوا الآن تحياتكم يا أولادى ! ولكن لا اريد أن تخرج طلقة واحدة هباء !" .

ثم اشار الى كتلة ضخمة من الطرابيش الحمراء الملعونة تحوم بالقرب من الدير ، وانطلقت فجأة خمسون رصاصة نحو الاتراك من الخلف ، وسقط قرابة العشرين جسدا وهم يعدون .

وردد الدير صدى صيحات الترحيب "مرحبا يا أولاد !" وتشبث "ايلاريون" العجوز بحبل الجرس وبدأ يدقه فى حماس .

وثار الاتراك ، واتجهوا بأبصارهم ليروا وسط الضباب أن قمة الممر قد احتلها اليونانيون الذين يحتمون بالصخور ، وعلا هديرهم : "الله .. الله !" .

وظل الجانب الاكبر من الاتراك فى مواقعه ليحكم قبضته على الدير ، بينما اندفع الاخرون نحو الممر .

وبدأ المطر يهطل بعنف ، واختفت قمة الممر وسط السحاب بينما المطر يضرب وجوه الاتراك ويحجب عنهم الرؤية وصاح "بوليكسيجيس" :

ـ الله معنا .. اعطوهم زخة أخرى .

واعادوا الكرّة .. واطلقوا غداراتهم فارتفعت الصيحات واللعنات ، ولكن السحابة كانت قد هبطت واصبحت تخفى الاتراك ايضا فلا يكاد يبدو منهم سوى لون طرابيشها وحراب بناديقهم .

وعندما لاحظ رئيس الدير أن الأتراك قد انقسموا ، صاح فى رفاقه :

ـ إلى الامام يا اولادى ! لقد انقسم الاتراك ، فلنهجم إذن عليهم لنخفف من قبضتهم .

وقفز الرهبان والفلاحون بينما دق العجوز بجرسه دقات الهجوم .. وتجمع الكل فى الفناء .. وانطلق رئيس الدير امامهم يفتح الباب الكبير ، وانطلقوا جميعا خلفه وهم يصيحون .

واصابت الحيرة الاتراك للحظات نتيجة الهجومين المفاجئين ، وحاول بعضهم فى هجوم مضاد أن يردوا الرهبان على اعقابهم داخل الدير ، ولكن الاوامر مالبثت ان صدرت اليهم وهم فى منتصف الطريق ، بالانسحاب بعيدا الى الوادى يتعقبهم الرهبان .

وفجأة ارتفعت دقات احدى الطبول ، وتوقف الاتراك ، وفجأة دقت من خلف الرهبان طبلة اخرى .. وصاح احد الرهبان لقد احاطوا بنا .. لقد وقعنا فى الفخ ! إلى الخلف ياسيدى ! .

وصاح راهب آخر : "لقد اقتحموا الدير" !
ودس رئيس الدير غدارته فى حزامه ، واستل خنجره دون أن يتكلم واسرع نحو باب الدير .

وأدرك الكابتن "بوليكسيجيس" على الفور طبيعة الخطر الجديد ، فاندفع بفرسانه كالعاصفة بينما اشتد هطول المطر ، واختفت الشمس تماما خلف السحب واتسع افق الشفق .

وكون كل من الاتراك عقدة ضخمة من الرجال المحاربين ؛ كل يهاجم ويدافع فى نفس الوقت ، وصاح رئيس الدير : "اتبعونى !" .. كما حث الكابتن "بوليكسيجيس" هو الآخر رجاله واندفع بهم نحو الباب .

وكان ثمة عدد قليل من الاتراك قد اقتحم بالفعل فناء الدير متجهين نحو الكنيسة وهم يقذفون بمزق القماش الملتهبة فى كل اتجاه .

وارتفعت اصوات عاصفة خلفهم "ايها الكلاب الملاعين !" .. وكان

رئيس الدير مع الكابتن "بوليكسيجيس" قد اجتاز عتبة الباب واندفعا نحو الاتراك بينما اجبر بعض هؤلاء ممن جاءوا بعدهم على التقهقر الى حائط الكنيسة حيث ذبحوا بأيدى الرهبان والفرسان الذين كانوا قد اقتحموا الدير بدورهم .

وأمكن تفادى الخطر حين اعيد غلق باب الدير مرة أخرى ، وهبط الليل وانفصل المتحاربون .. وساد الصمت . وصاح "بوليكسيجيس" :

ـ فلنعد الى الممر ! وسيكون الله معنا ايضا فى الغد .

واحصى المسيحيون خسائرهم : ثلاثة قتلى وعديد من الجرحى من بين الرهبان الفلاحين ، اما ايلاركوس قارع الاجراس فقد كان مفقودا ، اما جماعة الكابتن "بوليكسيجيس" فقد قتل منها اثنان وجرح الكثيرون ، وتم دفن الموتى اثناء الليل عند قمة الممر : فارسان باسلان من "كاسنيلى" ، عم وابن اخيه ، والتقط الكابتن "بوليكسيجيس" لمصورين جعل منهما صليبا غرسه فوق قبرهما ، ثم غمغم وهو يستدير نحو اصحابه :

ـ سوف نعود .. والآن يا اولاد ! فلنأكل .. فلا زلنا احياء ، ونحن جائعون ! واوقدوا نارا .. وطبخوا .. وأكلوا ، وكانت المعركة المثيرة تحتل مكان الصدارة فى حديثهم ، ثم قام بعضهم بالحراسة طوال الليل بينما تمدد الباقون فما لبثوا ان غرقوا فى النوم من فرط التعب .

والى اسفل منهم كان الضوء يلوح من الكنيسة حتى منتصف الليل حيث كان الرهبان يمجدون الرب الذى بسط يديه وانقذ الدير من النار والموت بينما انهمك العجوز "فوتيوس" فى مزج المراهم وتنظيف الجروح والعناية بالجرحى طوال الليل .

وبين الجانبين من المسيحيين ، كان الجنود الاتراك يدفنون هم ايضا موتاهم ويداوون جرحاهم ويفكرون وهم يحدقون فى صمت حول نيران المخيم : فى زوجاتهم واطفالهم هناك بعيدا فى الاناضول ، من ياترى يحرث الآن حقولهم هناك ويجمع الكروم ويوفر الخبز لأسرهم ؟ كانوا هم ايضا آدميين .. ولم يكونوا ابدا كلابا كما يصفهم المسيحيون .

ومع اول ضوء لاح فى السماء : هرع الجانبان الى اسلحتهما ، واخذ اثنان من الدراويش ـ احدهما يحمل طبلة والآخر نفيرا ـ يقفزان هنا وهناك بين جماعات الجنود ليبثا فى صدورهم ويؤججا النيران .

وكان الرهبان بدورهم قد اتخذوا مواقعهم ، وكان رئيس الدير قد عصب جرحه الذى كان لا يزال يسيل دما يتساقط فوق لحيته البيضاء ، وعلى الرغم من ذلك فقد ركع امام الكوة وظلت عيناه تحومان كعينى نسر حول مواقع العدو وهو يطلق رصاص غدارته على كل رأس يرتفع فلا يخطؤه .. بينما يقول لنفسه : "إنه الشر بعينه أن تقتل رجلا .. ولكنه ليس خطأنا .. يا الهى . حررنا حتى نعيش فى سلام" .

وعند قمة الممر ، كان الكابتن "بوليكسيجيس" يتفقد الرجال ويصدر الأوامر بينما اخذ كل منهم مكانه خلف ساتر وهو يصوب بندقيته الى طربوش احمر ، ولكن الكابتن "بوليكسيجيس" كان اكبر من أن ينحنى ا فقد ظل منتصبا يتنقل من رجل الى رجل بينما رجاله يصيحون فيه :

ـ استتر ياكابتن وإلا اصابوك ! .

وكانت الرصاصات قد بدأت بالفعل تصفر حول رءوسهم ، ولكن الكابتن "بوليكسيجيس" ضحك وهو يقول :

ـ اود بالفعل لو اننى استترت ، فانا ايضا خائف ـ يعلم الله ـ ولكننى احس بالخجل حين اقول لنفسى : الست تريد أن تلعب دور القائد ياكابتن "بوليكسيجيس" فادفع الثمن إذن .

وصاح فتى طويل ذو لسان حاد :

ـ انت تحمل معك شنطة من الصليب المقدس ، ولهذا فانت لا تخاف .. واغضبت الكلمات الكابتن "بوليكسيجيس" فصاح :

ـ ايها الاحمق "نيكولوس" : إن شظية الصليب المقدس هى روح الرجل ، ولست اعرف غيرها .

والى اسفل من الممر ، كانت المعركة قد بدأت تحتدم ، فقد اخذ الاتراك يتقدمون واصبح الدير مرة اخرى فى خطر .

وصاح الكابتن "بوليكسيجيس" :
ـ انهضوا ! انهضوا ! .. المسيح سوف ينتصر ! اهبطوا نحو الاتراك وقفز الفرسان من مواقفهم خلف الصخور واندفعوا هابطين الجبل والحجارة تهوى خلفهم ـ وبدا كأن الجبل كله يتحرك .

وبعد ان قالت البنادق كلمتها ؛ بدأت الخناجر تؤدى دوها .. يدا ليد ، كذلك خفقت اصوات البنادق داخل الدير : ولم يعد ممكنا التمييز بين المقاتلين ، واصدر رئيس الدير اوامره الى حفنة من رجاله الأشداء بالتجمع وسط حلبة القتال المتلاحم بينما ظل الباقون خلف المتاريس يحرسون الدير ، ولكن الاتراك كانوا فى اعداد فائقة : سبعة منهم مقابل واحد من المسيحيين ، وأخذ رئيس الدير هو و"الكابتن بوليكسيجيس" يثيران حماس رجالهم .. ولكن موجة تلو اخرى من الاتراك المهاجمين كانت تهبط عليهم حتى بدأ الارهاق يستبد بهم عند الظهيرة . وبدت الشمس كأنها مثبتة مكانها فى كبد السماء .. وبدا كأن الليل المنقذ بعيد بعيد ! وظل المهاجمون يواصلون ضغطهم فى قوة متزايدة .. وتبادل رئيس الدير النظرات مع "الكابتن بوليكسيجيس" دون أن يقول أحدهما شيئا ، ولكن كلا منهما رأى فى نظره الآخر ان الدير سيحترق .

وفجأة ، دوت دفعة واحدة من الرصاص فى الوادى .. ورأى المسيحيون وسط دهشتهم ، راية سوداء ترتفع شيئا فشيئا ليبدو معها فيما بعد حشد من الفرسان الهادرين ينقذون من ثنية وسط الصخور الى اخرى ، وعلى رأسهم "الكابتن ميخايليس" بعصابة الرأس السوداء ، وهو يطلق غدارته ويصيح فيهم :

ـ مرحى يا أخوتى ! .

ثم استدار نحو الاعداء وقال .

ـ آخيرا وقعتم يا كلاب ! .

وفى ذلك اليوم .. وفى اليوم التالى : ظل الجرحى من الجنود الاتراك ومن غيرهم من الاتراك المتطوعين يغدون الى "ميجالو كاسترو" فى تتابع سريع .

صاح الباشا وهو يشد لحيته فى قهر :

- ماذا حدث للدير؟! ألا يزال قائما ؟! الا تخجلون ؟! .

- كان كل شىء يسير على مايرام يا افندينا الباشا : حتى هبط علينا هذا الملعون "الكابتن ميخايليس" .

كانوا متعبين يستبد بهم العطش ؛ فطلبوا شرابا من "باربايانيس" .. كما بدأ "افندينا" يتلو آيات من القرآن لتخفف من آلامهم ، وهناك من غصن بالشجرة العارية كان يتدلى قارع الجرس الأصم المسكين "ايلاريون" الذى اخذه الاتراك حيا قبل يومين ، وكان لا يزال ممسكا فى احدى يديه بقطعة من حبل الجرس رفض أن يتخلى عنها مما اجبر الاتراك فيما بعد على أن يفصلوا قبضته عن ذراعه .

وفى المطرانية : كان المطران يرفض خلع ثيابه الكهنوتية بالليل أو بالنهار ، فقد كان يتوقع فى كل لحظة أن يقتحم عليه الاتراك المكان ويقتادوه الى المشنقة ، ولم يكن يريد أن يقوم بهذه الرحلة وهو بثياب النوم عارى القدمين ، وكان قد بعث الى "باشوميوس" الزاهد يستدعيه من دير "كادوماس" القائم على شاطىء البحر الليبى كيما يدلى امامه باعترافه ، فقد كان حريصا كل يوم على أن تكون روحه مستعدة فى آية لحظة ، وكان "مورزوفلوس" يقبع الى جواره لا يغادره كالكلب الامين .. فإذا نام .. نام عند عتبة باب حجرة النوم حتى لايفصل بينه وبين سيده شىء إلى أن تمضى روحاهما الى خالقهما .

واخيرا هبط الليل على الدير ، وافترق الطرفان : المسيحيون اوقدوا النيران على حافة الجبل ، والاتراك اوقدوها على مقربة من حوائط الدير ، بينما الدير ذاته غارق وسط ظلام عميقٍ ، والتقى "الكابتن ميخايليس"

بـ "الكابتن بوليكسيجيس" ليناقشا الموقف ؛ وانتهيا الى قرار بالنسبة لمكان واسلوب هجوم الغد .. ثم افترقا دون أن يتبادلا كلمة رقيقة واحدة .

وتقوقع "الكابتن ميخايليس" وحده قريبا من واحدة من النيران الموقدة غارقا فى حوار عميق فى نفسه .. ولف سيجارة وهو يحس بالانقباض ، لقد كان يقاتل ويقتل ، ويواجه الموت فى كل لحظة من اجل كريت ، وبرغم ذلك فإن عقله لم يكن مع كريت ، وعندما امتطى صهوة فرسه ، واندفع الى الامام وهو يصيح "اتبعونى أيها الزملاء !" كان هو ذاته يشك فى ايمانه فى قرارة نفسه ، وعندما هبط الليل وانفرد بنفسه لم يكن يفكر فى حرية كريت كما كان يفعل فى الماضى .. ولكن روحه كانت تحوم حول مكان آخر ، وبصق على النيران وهو يغمغم :

- "ياللعار ! أى حضيض انحدرت اليه ياكابتن ميخايليس ؟" .

وفجأة - ووسط مزاجه الممرور - سمع وقع خطوات خفيفة خلفه .. وسعالا ، واستدار فرأى "ڤيندوسوس" الذى لم يكن قد اشترك فى المعركة الذى كان قد سمح له بأن يذهب ليؤمن اسرته ، هاهو ذا الآن يعود لاهث الأنفاس ، ووقف "الكابتن ميخايليس" وسأله : .

- ماذا حدث يا"ڤيندوسوس" ؟! .

وهمس "ڤيندوسوس" فى اذنيه وهو فى شك مما يعتمل فى صدر الكابتن : .

- كابتن .. كابتن ! أمينة ....

وانتبه الكابتن ، وجذب "ڤيندوسوس" من ذراعه يقربه اليه : .

- أخفض صوتك ! .

- لقد هاجم الاتراك "كاستيلى" هذا المساء ، وحملوها معهم .

وبسط "الكابتن ميخايليس" يديه فوق النار وهو يبحث عن ألم محرق ثم

استدار بعد لحظة صمت قصيرة :

- إلى أين ؟! .

- فى اتجاه "ميجالو كاسترو" .

- متى ؟! .

- هذا المساء بعد الغروب .

وانفجر "الكابتن ميخايليس" : .

- هلم معى وكن هادئا .

ولكن "ڤيندوسوس" قاوم : .

- لعلك لا تعنى انك ستترك موقعك ؟! هب أن الاتراك قاموا بهجمة ليلية .

- اغلق فمك ! .

ثم انتقى عشرة من أشد فرسانه حماسا : .

- هلموا معى ! سوف نقوم بغاره .

ثم استدار الى باقى رفاقه وقال : .

- سوف اعود قبل الفجر ، فخذوا حذركم حتى اعود .

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل ، وكان المسيحيون المجهدون على اطراف الموقع قد غرقوا فى نوم عميق ، بينما انحنى الرهبان المسنون وداخل الدير أو المحراب يدعون اليه أن يبسط على الدير يد حمايته ، اما رئيس الدير فكان قد ضمد جراحه بقطعة من القماش مبللة بالزيت وظل متكوما فى موقعه وهو يراقب الجنود من المزغل الضيق وهم جالسون حول النيران ويكاد يسمح قرقعة اسلحتهم : "لم ينم الكلاب بعد ! انهم يضمرون شرا !" .

كانت السماء صافية تماما والنجوم تبدو متألقة والنسمات الباردة الحادة تهبط من الجبال لتلهب الرجال .. وكان ثمة شهاب قد لمع فى السماء .. فرسم رئيس الدير علامة الصليب وهو يغمغم : .

ـ لابد ان مأساة رهيبة تقترب ياإلهى ! . لعلها تكون بعيدة عن الدير ! .

وبينما كانت عيناه متجهتين الى السماء فى ابتهال ، دقت الطبول فجأة .. وارتفعت الصيحات "الله .. الله" ! وانحدرت موجات كثيفة داكنة من الرجال تهاجم الدير ، بينما انحدرت موجات اخرى عبر الممر لتهبط فوق المسيحيين النائمين .. وفى ذات اللحظة كان ثمة جنود آخرون يضعون السلالم الى حوائط الدير .

وجمع رئيس الدير رهبانه معا :

ـ ايها الاخوة ، لقد انتهى الدير ، انصتوا الىَّ جيدا ، اننى انا وحدى الملوم ، انهم يريدوننى أنا ليثأروا لدمائهم ، ولذلك فقد قررت أن اسلم نفسى اليهم ، فوداعا ! .

وصاح "فوتيوس" الراهب المداوى :

ـ ايها الاب المحترم ، سوف يقتلونك .

ـ وماذا بوسعهم أن يفعلوا اكثر من ذلك ايها الاب فوتيوس ؟! بالطبع سوف يقتلوننى ، ولكن ذلك سيحمى الدير نفسه .

ـ سيقتلونك ولكن الدير لن يفلت ايضا .. إن الاتراك غدارون يا ابى .

ـ ولكننى سأفعل ما يمليه علىَّ واجبى وليكن مايكون ! إن الله فوقنا فلتكن مسيئته .

وامسك بعصاه وربط قطعة من القماش الأبيض ، واتجه نحو الحائط ملوحا بها وهو يصيح بصوت مرتفع ، وصاح فيه تركى كريتى .

- ماذا تريد ايها الراهب الشيطان ؟ .

- من قائدكم ؟ اذهب اليه وقل له ان رئيس الدير سلم نفسه ، وإنه يستطيع أن يفعل بى ما يشاء ، بشرط أن يعد بالأ تتعرض بسوء للدير .

وترددت الاصوات من الجانبين .. وانتظر الطرفان .. وعاد الصمت من جديد لا تتخلله سوى صيحات الديكة فوق اسطح الدير .. كان الصباح يقترب ثم مالبث أن تناهى صوت القائد التركى "حسن بك" .

- ألقوا جميعا بأسلحتكم واخرجوا - وسوف لا يتعرض الدير لسوء .

وصاح فيه رئيس الدير : .
- اقسم .

ثم اشار بيده الى السماء فى اتجاه الشفق الذى كان قد بدأ يتألق .

- بلى اقسم بمحمد .

وهبط رئيس الدير من فوق الحائط ؛ والتف حوله الرهبان وهم يربتون على كتفه مودعين ، بينما الآخرون يقبلون يديه .

- وداعا .. وداعا ايها الشهيد العظيم ! .

واقترب رئيس الدير من الكنيسة وانحنى يقبل عتباتها وهو يهمس : .

- وداعا ايها المسيح .

ثم جال ببصره حول الفناء ، والكنيسة ، والصوامع والمخازن والاسوار ورفع يده بها جميعا :

وداعا .

ثم اختار عتبة الباب الخارجى فتلقفته ايدى الاتراك وما لبث أن اختفى وسط زحامهم ، وفى نفس اللحظة اندفعت جموع الاتراك الى الداخل، وهى تصيح .

وصاح الكابتن "بوليكسيجيس" :

ـ لقد اشعل الكلاب النار فى الدير ! .

وكان ثمة جراح في رأسه من اثر بلطة تركية .. لفها بضمادة .. وبجهد شديد غالب آلامه وهو يصيح : .

ـ اين "الكابتن ميخايليس" ؟! .

ثم وكز فرسه منحدرا نحو الدير .

ولكن "الكابتن ميخايليس" لم يكن قد عاد بعد ، وكان "ثودورس" قد اخذ مكانه فى العيادة .. واندفعوا جميعا يهاجمون الاتراك من الأطراف بينما كانت ألسنة النيران تتصاعد من الدير ، ومزيد من فضائل الاتراك بطرابيشهم الحمراء يقتحمونه وسط غبش الفجر .

وقذف الرهبان الصغار بأنفسهم من فوق حوائط الدير واندفعوا مع الجماعات المتقهقرة الى الجبل .

وعاد "الكابتن بوليكسيجيس" يصيح : .

ـ اين اختفى "الكابتن ميخايليس" يا"تيودورس" ؟ .

وكان قد وصل الى قمة الممر وقد اكتسى وجهه وصدره ورقبته بالدماء .

ـ لست ادرى ؛ لقد خرج فى غارة قرب منتصف الليل .

ـ غارة ؟! اين .. ؟! .

ـ قلت لك لست ادرى .

ووقف المسيحيون عند قمة الممر يتطلعون الى الدير تلتهمه النيران ودخانها يتصاعد ويحجب الشمس .. وقف "الكابتن بوليكسيجيس" معهم وقد تمتلكه حيرة شديدة ، كان قد نسى آلامه تماما : فلم يعد يهتم بأن يمسح الدماء عن وجهه .. وكانت الدموع تنحدر من عينيه .

وقال واحد من الفرسان :

ـ فلننسحب ياكابتن : انت مصاب : فلا تظل واقفا هكذا تنظر الى الدير ، لقد انتهى كل شىء وتلك مشيئة الله ، ونحن قد قمنا بواجبنا .

ثم تنهد فى حسرة : .

ـ فقط .. لو كان "الكابتن ميخايليس" معنا .

ثم جذبوه بالقوة بعيدا ، واتجهوا نحو "كاستيلى" .. اما جماعة "الكابتن ميخايليس" فقد اتجهت نحو "پييتروكيڤالو" تستقبلهم انباء مريرة ، حتى اذا وصلوا كان العويل على الموتى فى انتظارهم .

وكان ثمة كشاف قد تركوه فوق الممر ليرقب ما يمكن أن تفعله الفصائل التركية ، وعاد الكشاف مع جماعة "الكابتن بوليكسيجيس" قرابة الظهيرة ، وتمدد فوق ارض قاع نهر جاف تحت مجموعة من الاشجار العارية يستريح فى ظلها بينما الراهب المداوى "ڤوتيوس" ينظف جراحه ويسأله : .

ـ ماهى الانباء يا"چاكوميس" ؟ .

كان "چاكوميس" قزما لوحت الشمس وجهه ، ساقاه رفعيتان وعيناه جاحظتان شهدتا الكثير من الميتات العنيفة واستمتعتا بالكثير من الولائم وابصرتا الدنيا احيانا تقف على رأسها ، حتى لم يعد هناك شىء فى هذه الدنيا يمكن أن يرتجف له بدنه أو يبتهج له قلبه ، وكان دائما يقول : "الدنيا عجلة ! .. عجلة دائمة الدوران !" .. وحين كان البعض يسأله : "ومن يديرها ياچاكوميس ؟" كان يقول : "الله احيانا .. والشيطان احيانا أخرى ، فالاثنان متحالفان ، احدهما يخرب والآخر يبنى .. ولن تجد واحدا منهما إلا وهو مشغول بعمله" .

وقال "چاكوميس" :

ـ عسى أن تلتئم جراحك بسرعة .. لا تبتئس .. لقد سقطنا هذه المرة ،

وسوف نصعد فى المرة القادمة .. لا تقلق فالعجلة دائمة الدوران .

- ماذا حدث للدير ؟ .

- وماذا كنت تتوقع ؟! .. لقد اخذه الشيطان .

وصاح الأب ""فوتيوس" وهو يرسم علامة الصليب :

- يبس الله لسانك ايها الملحد .

- كنت اعنى فحسب انه اصبح كما كان عليه قبل أن يبنى .. رمادا ! .

- والكلاب ؟ .

- اخذوا رئيس الدير معهم ، وانتبه الى كلامى جيدا - سوف يجعلون من جمجمته صندوقا للطباق ! .. هؤلاء المذنبون المساكين بدءوا بداية طيبة .

والحق ، انه بينما كان الكشاف يتكلم ، كان الجنود الاتراك يدفعون رئيس دير السيد المسيح بحراب بنادقهم نحو "ميجالو كاسترو" يحيطون به حتى يمنعوا المواطنين المسلمين من الفتك به فى هياجهم طلبا للثأر ، وكانت الاوامر قد جاءتهم بضرورة احضاره الى الباشا حيا .

وكانت الشمس لا تزال فى الافق ، عندما دخل الجنود "ميجالو كاسترو" بطبولهم ، وخرج الباشا فى سعادة الى الشرفة وهو يحييهم بينما رئيس الدير امامهم .

وصاح الباشا : .

- اركع ايها القس الكافر ! .

وكانت الدماء الغزيرة تسيل خلال لحية رئيس الدير ، ولكن عينيه كانتا متألقتين وهو يحدق فى الباشا وفى الاتراك الصاخبين حوله والسماء فوقهم جميعا .. والشمس تميل الى المغيب .. واحس لحظتها بجسده خفيفا ، وبأن وخزا يشتد بكتفيه وكأنما جناحان يحاولان أن يخرجا منهما ويرتفعا

به الى ما وراء هذه الدنيا .

وصاح الباشا :

ـ ألست خائفا ؟ لماذا يضىء وجهك هكذا ؟! ما الذى يدور بخلدك ؟ .. اين تحملك افكارك الآن ؟! .

واجاب رئيس الدير :

ـ الى الجنة .

واشتد هياج الباشا ، فلم تكن اول مرة يرتطم فيها بصخرة من كريت وترتد سكينة فوقها ، فصاح هادرا : .

ـ انت لست فى الجنة ايها الراهب الشيطان ، انت تواجه الشجرة العارية ! .

وقال رئيس الدير : .

ـ المعنى واحد ياباشا .

وصاح الباشا والزبد يخرج من فمه :

ـ خذوا هذا الكافر الى الشجرة العارية .

وجذبه العربى وآخرون من الجنود واخرجوه من الساحة ، بينما كانت جموع الدهماء تملأ الشوارع وهى تصيح ، ولم تكن الشجرة بعيدة عن مقر الباشا .. بل كانت قريبة ؛ تقف قاسية على مقربة من النافورة الفينيسية واسدها المصنوع من الرخام .

وقبيل الغروب مباشرة ، كان ثمة سرب من الطيور قد حط فوق اغصان الشجرة العارية ليخلد اليها طوال الليل .. وارتفعت شقشقته المرحة .

وجىء بقاعدة خشبية اوقفوا رئيس الدير فوقها ، ثم استدعوا الحلاق التركى الذى مالبث أن حضر يحمل الموس والمقص والحوض النحاس ..

وعندما رأى رئيس الدير صاح ضاحكا :

- أنت فارس شجاع ، وسوف احلق لحيتك بلا رغوة ! .

ثم جذبه من شعره ، وبدأ ينتف له لحيته ، وهو يعض شفتيه حتى لا يصرخ من شدة الألم بينما الاتراك المحتشدون حوله يضحكون ، اما سليمان فكان قد اعد الجبل وبدأ يشحمه .. وفى نفس تلك اللحظات كان ثمة مسيحيون يختبئون فى دورهم المواجهة ويتابعون المشهد من خلف نوافذهم المغلقة وقد حبسوا انفاسهم ، وكان الباشا قد غرق فى مقعده الوثير يراقب ما يجرى .

وعندما انتهى الحلاق من عمله ، ظهرت آثار الجراح القديمة على جبهته ، فقد ازال الحلاق شعر رأسه من جذوره .

وصاح الباشا :

- ايها الكافر .. لقد تم تشحيم الحبل ، والعربى ينتظر ، اعترف بالاسلام تنقذ حياتك .

وخطا رئيس الدير خطوة فوق المنصة الخشبية ، وجذب الحبل من يد العربى ، وجعل من نهايته انشوطة لفها حول عنقه .

وقفز الباشا صائحا :

- ألا تجيب ؟! .

وقال رئيس الدير وهو يشير الى الأنشوطة حول عنقه :

- لقد اجبت ! .

وصرخ الباشا وقد صار وجهه ازرق من الغضب :

- اللعنة عليكم ايها الكريتيون .. اشنقوه ! .

وخطا رئيس الدير بنفسه فوق المنصة ، وشد العربى الحبل الى غصن غليظ فى الشجرة .

ورسم رئيس الدير علامة الصليب ونظر حوله فرأى جماعة من الآباء القدامى الذين سقطوا وهم يناضلون ، رآهم ـ مثل المسيح ـ وفوق رءوسهم تيجان الشوك يحيونه بعيون مرحة ، فصاح فى ابتهاج :

ـ هاأنذا قادم اليكم ! .

وركل المنضدة بقدمه .. فتدلى جسده فى الهواء .

عندما عاد "الكابتن ميخايليس" الى الدير قرب الظهيرة ليستأنف القتال الى جوار رفاقه ، لم يجد الدير .. ولا وجد فرق .

كان دير السيد المسيح يحترق ، وكانت قبة الكنيسة قد هوت ، وكان المحراب والثياب والمزامير والايقونات قد اصبحت رمادا .. وكان الدخان لايزال معلقا فى سحابات كثيفة فوق الوادى .

وشد "الكابتن ميخايليس" لحيته وهو يحدق فى المشهد امامه دون أن يقدر على أن يحول بصره عن السنة النيران .

وأخذ يشد شعيرات لحيته وهو يئن .

ـ كيف استطيع أن ابتعد ؟ .. كيف استطيع أن ابتعد ؟ .

ومر بخاطره ما حدث فى الليلة السابقة : المطاردة العنيفة بلا توقف ، رفاقه يحثون السير وراءه سائرين على اقدامهم ، ثم اخيرا ـ وعند الفجر ـ قاع النهر الجاف العريض ، وثمة عشرون من الاتراك يسيرون خلال الصخور الطباشيرية البيضاء ويسوقون امامهم فرسا تمتطيه سيدة أرخت الخمار على وجهها .

واقتربوا .. ثم اندفعوا نحوهم وخناجرهم فى ايديهم .. وارتفع الصراخ والعجيج ـ كم استغرق من الوقت ؟ ساعة ؟ ساعتان ؟ .. لقد خيل اليه ان كل شىء انتهى فى مثل لمح البصر ، كان الوادى يتراقص حوله وقد تحول الى غبار مثار تقف وسطه شجرة من اشجار السنط تحتها تلك المرأة ذات الخمار رافعة الرأس جالسة فوق فرسها بلا حراك .. تنتظر النتيجة ومن

يكون المنتصر لتمضى معه فى النهاية .. كانت قد ادرات رأسها تماما .. بعيدا عن الرجال .

وفجأة ، كان الاتراك المهزومون يجرون بعيدا عن ارض المعركة وقد القوا غداراتهم وخناجرهم واندفعوا فى اتجاه "ميجالو كاسترو" وهم يصيحون : بينما ادار "الكابتن ميخايليس" رأسه بعيدا حتى لا يرى المرأة المضمخة بالمسك .. وقال لـ "فيندوسوس" :

ـ خذ هذه المرأة الى عمتى العجوز "كاليو" فى "كوراكيس" ، وقل لها ان تقدم لها الطعام والشراب حتى نرى ما يكون .

وسأله "فيندوسوس" وهو ينظر اليه فى خبث :

ـ ألا اعيدها الى كاستيلى ؟! إن "الكابتن بوليكسيجيس" المسكين سوف يقتل نفسه ! .

ـ دعه يقتل نفسه .

وهاهو ذا الآن يقبض على عنان فرسه وهو يشعر بالحيرة هل يعود ادراجه ؟! انه لايريد أن يقوم .. بل انه لا يستطيع أن يقرر ، ولكنه ما لبث فجأة ان ضغط فكيه يطحن اسنانه ـ فقد اتخذ قراره ، وألهب فرسه واندفع كالعاصفة نحو الدير وظل يحدق فى ألسنة اللهب وهو يئن ويشعر شعره إثر شعرة من لحيته .

ـ كان يجب الا اغادر موقعى .

ثم ترجل .. والتقط حفنة من الرماد الحار وهو يشعر برغبة شديدة فى ان يلوث وجهه ولحيته وشعره بها .. ولكنه تماسك .. وبسط راحته فتساقط الرماد الى الأرض وهو يغمغم :

ـ فليحترق ويهلك الملوم .. ويصبح كهذا الرماد .

ثم قفز الى صهوة فرسه ووخزها بمهمازه حتى ادنى بطنها .

واندلعت النار فى كريت من اقصاها الى اقصاها .. وعادت الجبال والوديان ومفارق الطرق لتضج بأصوات طلقات الرصاص والصياح ، وعاد الرجال يهدرون وينهشون كالوحوش المفترسة ، وعاد كبار السن منهم وخطر المشيب شعرهم ليذكروا ايام شبابهم ، وانطلقوا بدورهم الى الجبال : بعضهم يحمل السلاح ويشارك فى القتال .. والبعض الآخر ممن منعته الشيخوخة واضعفته الجراح القديمة ، يكتفى بتقديم المشورة للفرسان الجدد فى مخابىء سرية ، كانوا يعلمونهم الخدع والمكائد التى كان القدامى يستخدمونها من قبلهم ـ كيف يبعثون بالجواسيس ـ وكيف يلتفون حول الاتراك وكيف يقتحمون القرى التركية بالليل .

وجاء ايضا الكابتن "الياس" على ظهر بغل عجوز واجتاز الجبال واحدا بعد الآخر ، واختبأ فى مكامن الفرسان ، وكان يتنهد وهو يقول : "إن الزمن القديم يعرج يا اولادى ، ولست بقادر الآن على القتال بالسلاح ـ ولكننى سأقاتل براسى حتى يسقط هو الآخر الى الأرض ويتحول الى تراب !" .

وكان قد وصل فى ذلك اليوم الى قرية "فريسيس" المثمرة الغنية بالمياه ، وكان يجلس الى جذع شجرة عجوز جوفاء يتحلقه الصبية والنساء والشيوخ يستمعوا اليه وقد فغروا افواههم ، قال لهم وهو يمر بذراعيه الكليلين على الأوراق الخضراء :

ـ لقد طالما ظللت هذه الشجرة فرسانا حين كان المرء لايصدق إلا انهم عصاة على الموت .. ولكنهم ماتوا .. من كان يصدق ذلك ؟! عادوا الى تراب كريت واصبحنا نطأهم بأقدامنا .

ثم تنهد .. كان يحس بالضيق فى ذلك اليوم بعد أن طار نبأ احراق الدير كغراب السوء ناعبا من قرية الى قرية حتى وصل الى "فريسيس" قبيل الظهر .. وهز الرجال رءوسهم وغمغموا .. وبكت النساء .

وتظاهر الكابتن "اليساس" بانه لم يرد ولم يسمع .. كان يريد أن يصرف اذهانهم عن النكبة الكبرى بالحديث عن المآسى المقبضة فى الماضى .

وفجأة سمع وقع حوافر سريعة : والتفت الجميع ينظرن خلال اسجار لزيتون والدلب ليرى بعضهم بوضوح والبعض الآخر فى غير وضوح ـ ارسا بعصابة رأس سوداء : "الكابتن ميخايليس" .

وصاح الكل فى هياج عنيف : "الكابتن ميخايليس" واحنى الكابتن "الياس" رأسه .. وضرب الأرض بطرف عصاه .

وصرخت احدى النساء ـ وكانت قد انتهت لتوها من ارضاع طفلها إخذت تلملم اطراف ثوبها على صدرها : "انه يعود ادراجه وحيدا . اين زواجنا .. اين زوجى ؟! .. لقد تخلى عنهم الدب المفترس !" .

وصاحت امرأة أخرى وهى تستدير مبتعدة حتى لا تراه : "لقد ترك لدير وقت الخطر .. يجب أن يحرق حيا !" .

وقال رجل عجوز : "لا تدعوه بلا جزاء ياكابتن الياس ، فلا احد يترك وقعه كما فعل ! عاقبوه ، فأنتم الكبار المحترمون ، اما نحن فتحت تهديده لا نستطيع أن نقول له كلمة واحدة .. انتم تستطيعون !" .

ورفع الكابتن "الياس" عصاه وصاح فى غضب :

ـ كفى .. لست فى حاجة الى مشورتكم .

وهمس الكل وهم يلتصقون بعضهم بالبعض الآخر : "هاهو قد وصل !" إفسحوا للكابتن "الياس" .

وظهر "الكابتن ميخايليس" بملامحه الهادئة وهو يتصبب عرقا ، وعيناه ختفيان تحت رموشهما وحرارة الجو تلهبه هو وفرسه .. وعرف وجه لكابتن "الياس" بين الجمع تحت شجرة الدلب فود لو عاد ادراجه . ولكن لك كان مستحيلا ، فترجل وهو يهيىء نفسه لموقف صعب معه .

قال وهو يمد يده مصافحا:

ـ طاب يومك ياكابتن الياس .

وتظاهر الفارس الأشيب انه لم ير اليد الممدودة اليه .. وعاد ينكت

الأرض بعصاه من جديد .. ثم اجاب :

- فلنصفه إذن بأنه يوم طيب حتى ولو لم يكن كذلك يا"كابتن ميخايليس" .. .

وغلا الدم فى عروق "الكابتن ميخايليس" ، فقبض على زمام فرسه وبدا كما لو كان يريد أن يمتطى صهوته ويتابع الطريق ، فلم يكن من طبعه أن يسمح لمخلوق بأن يلقى الاحجار امام قدميه ، وتطلع الى وجوه الكل حوله وأدرك على الفور أنهم عرفوا كل شىء .. فإزدادت ملامح وجهه ضراوة ووحشية .. وجذب بضع ورقات من شجرة الدلب ، وقذف بها الأرض وهو يقول :

- هذا يحدث كثيرا فى الحروب ياكابتن "الياس" ، وانت تعرف هذا جيدا ، فلطالما حدث ذلك للمسيحيين فى ايامك ، تذكر ماحدث فى "اركادى" .

وصاح الكابتن العجوز وعيناه - حتى العين الزجاجية منهما ! - ترسل الشرر :

- حذار أن نتحدث عن "اركادى" ، هل حرقنا فى أركادى ام تحولنا الى آلهة ؟! .. اما ما حدث بالنسبة لدير السيد المسيح - واغفر لى قولى هذا :

ثم توقف فجأة .. وأدار رأسه للنساء والشيوخ وهو يقول :

- دعونا وحدنا .. اذهبوا الى بيوتكم .

ووقف الكل فى سكون .. وبدءوا يغادرون المكان : الشيوخ منهم يجرحون "الكابتن ميخايليس" بنظراتهم ؛ والنساء يصببن اللعنات الخافتة وهن يتحاشينه ، أما الأم الشابة التى كانت ترضع طفلها فقد ظلت واقفة فى مواجهته .. وسألته بشراسة وهى تنظر مباشرة الى عينيه :

- ماذا حدث لأزواجنا ؟ أجب عنهم امام الله ! .

وصاح الكابتن "الياس" :

ـ ابتعدى عن هذا المكان ! واصمتى ! .

وعندما اصبحا وحدهما ، استند إلى عصاه لحظة ثم انتصب وقال :

ـ اسمع ياكابتن ، حين وصلت .. مددت الىَّ يدك ، فرفضتها . لقد لطخت اسمك يا"كابتن ميخايليس" .

وقال الكابتن هادرا :

ـ حتى لو كنت اكبر منى سنا ، وحتى لو كنت مقاتلا منذ عام ١٨٢١ ، فلدى كلمات اود ان اقولها لك ، وانتبه اليها جيدا ! إن من يتحدث الىَّ يجب أن نرى كلماته جيدا ياكابتن "الياس" !

ـ وانا ايضا لدىَّ كلمات أريد أن اقولها لك ، لقد لطخت اسمك اليوم يا"كابتن ميخايليس" .

وتراقص الشر فى عينى "الكابتن ميخايليس" ، ولكن الرجل الذى كان يقف أمامه رجل عجوز .. عجوز مثل تلك التلال ، اثر من آثار ١٨٢١ ، بقية من اطلال "اركادى" لم يكن يستطيع أن يمسه بسوء .

واستدار بعيدا .. وظل يسير تحت شجرة الدلب .

ـ لماذا ركبت فى الليل وغادرت الدير وتخليت عنه ؟ .. انت لا تجيبنى ؟ وإلى اين ذهبت ؟ لم تكن تعرف أن الاتراك يخشونك ، وانهم سيهاجمونك بمجرد أن يعرفوا أنك تخليت عن موقعك ؟! .. ولقد عرف الكلاب ذلك ، ولست ادرى من ذا الذى نقل الخبر اليهم .. وهكذا فقد الدير ، وانت وحدك الملوم ! .

واحس "الكابتن ميخايليس" بأن جسده سينفجر ، واحنى رأسه وقال فيما يشبه الهمس :

ـ لست انا الملوم .

وسأله الكابتن "الياس" وهو يستند الى جذع الشجرة :

ـ فمن تكون إذن ؟! .. من ؟! .

ولم يجب "الكابتن ميخايليس" .. فعاد يسأله فى اصرار :

ـ إلى اين ذهبت ؟! ولماذا ابتعدت ؟! تقول إنك لست الملوم ، فمن يكون الملوم إذن . وقال "الكابتن ميخايليس" فى جهامه :

ـ لا تسأل ياكابتن "الياس" ، هذا شأنى انا وحدى ، ولست مذنبا بالتفسير لأحد .

ـ بل أنت مدين ياميخايليس ! .. مدين لأسلافك .. مدين لأسلافنا ، الست كريتيا ؟! الست من تربة هذه الارض ؟! ماذا يعنى إذن بهذه الكلمات المشرقة : انا لست مدينا بالتفسير لأحد ؟! .. ألا تخجل من نفسك .

وغرس "الكابتن ميخايليس" مخالبه فى جذع الشجرة ؛ فقد كانت تلك اول مرة يسمح فيها آدميا يكلمه بهذه الجرأة وبهذا الاسلوب المهين ، ربما كان العجوز على حق ؟! ولكن "الكابتن ميخايليس" لا يسلم بسهولة .. عاد يكرر فى تحد :

ـ أنا لست مدينا بالتفسير لأحد .. انا مدين لنفسى فحسب ، الى اللقاء ياكابتن الياس ، أريد أن أكون وحدى لأصل الى قرار .

ـ ومن خلال القرار الذى ستتخذه ، سوف نعرف كم تبقى لديك من روح .. وأى نوع من الروح هى يا"كابتن ميخايليس" ، اذهب .. تصحبك بركات السيد المسيح ولعناته .. شىء واحد مازلت اريد ان اقوله لك ـ وفكر جيدا فيما اقوله لك ـ يا"كابتن ميخايليس" ؛ إن كريت لاتزال فى حاجة اليك ! ولعلك فهمت ما اعنيه .

فقد خشى الكابتن "الياس" فجأة أن يقدم الرجل على الانتحار فتفقد كريت بذلك احد اعمدتها .

واجابه "الكابتن ميخايليس" :

ـ لقد فهمت ...

ثم اصبح فوق صهوة فرسه دون أن يلمس الركاب .

وبدلا من أن يستدير الى اليمين فى اتجاه "پيتروكيفالو" كما كان قد قرر من قبل ؟ استدار الى اليسار فى اتجاه "سيلينا" وكانت الشمس قد غربت ! وانبثق الليل من التربة .. وهبت ريح منعشة آتية من المرتفعات ، عرى "الكابتن ميخايليس" صدره المحموم ليبترد .

وفجأة توقف وهو يغمغم :

- هى الملومة ، هى .. هذه المرأة المجللة بالعار .

ورفع العصابة السوداء عن جبهته وجفف عرقه وتنفس بعمق وهو يحس بأن ذهنه يطفو - لقد فهم - لقد عرف الآن الى أين هو ذاهب وعن اى شىء يبحث ، ولماذا يتجه الآن الى سيلينا بدلا من بيتروكيفالو ، واحس لحظتها برغبة شديدة فى أن يعود ادراجه ليشد على يدى الرجل العجوز - هاتين اللتين اذاقتا الأتراك السم - ويقبلهما ، هكذا ينبغى أن يكلم الرجل الرجل ، هكذا . وبلا رحمة ! .

ومر لحظتها عجوز يحمل جوالا فوق ظهره ويمسك بعصا رعى طويلة ، ولم يتعرف الرجل عليه وسط الغبار المثار .. وناداه الرجل :

هل سمعت ماحدث ياولدى ؟ لقد احرقوا دير السيد المسيح .. نعم .. احرقوه .

ثم وكز الفرس حتى يتجنب المناقشة .

وصاح العجوز رافعا عصاه الى السماء :

- اللعنة على الملوم .

وردد "الكابتن ميخايليس" الكلمة وسط الظلمة : "اللعنة" .. وكان القمر نصفا رقيقا ، والنجوم فى قطعان تحيط بالنجم القطبى الذى لا يتحرك وكأنه راع يقود غنمه .

ولكن "الكابتن ميخايليس" لم يرفع بصره الى السماء ، وابقى عينيه

مثبتتين على سفح الجبل حيث كانت ثمة اضواء خافتة تلوح ، لقد كان يقترب من قرية "كوراكيس" .

كان منزل عمته "كالبو" يقع عند مدخل القرية ، ولابد أن المرأة العجوز نائمة الآن ، فقد اعتادت طوال حياتها على أن تستيقظ مع صياح الديكة وأن تنام حين يهجع الدجاج ، كانت قد تزوجت وانجبت اولادا ، جاءوها بأحفاد تزوجوا وانجبوا هم ايضا .. واصبحت الآن عجوزا فانية محدودبة الظهر صماء .. وإن كان لايزال فى عينيها اثر من قدرة على الابصار .. لقد نسيها ملك الموت طويلا ! .

وترجل "الكابتن ميخايليس" ، وجلس فوق صخرة على حافة الطريق وقد ضغط رأسه براحتيه ، كانت كلمات "الكابتن الياس" تعمل فى قلبه كالسكاكين "لقد لطخت اسمك يا"كابتن ميخايليس" ! وظل يكررها لنفسه مرة بعد مرة حتى يمنح نفسه الشجاعة فى مواجهة ماهو مقبل على فعله ، وكان كل شىء هادئا فى القرية إلا من كلب ينبح نباحا هو النحيب اقرب وكأنما يرى ملك الموت عن كثب وغمغم الكابتن : "ليس لعمتى كلب فى فناء بيتها ، ولن يسمعنى احد .. لا احد سيشعر بى .. لا احد" .. ولكن عقله فى الحقيقة لم يكن يفكر فى عمته .. او فى الكلب وتنهد بعمق .

ونهض واقفا واتجه ببصره الى القرية وكانت ثمة مصابيح قليلة لا تزال مضاءة ، ولكن ما لبثت ان اطفئت واحدا بعد الآخر ، وغرقت البيوت والناس فى النوم ، وقفز فوق صهوة فرسه ثم رسم علامة الصليب وهو يغمغم "باسم الله" .. ثم اسرع باتجاه "كوراكيس" .

وربط فرسه الى حلقة بباب البيت ، ودلف الى الفناء ، وكان يعرف تفاصيل المكان جيدا ، الى اليمين تقع معصرة النبيذ والدناك وأوانى حفظه ، والى اليسار تقع حظيرة لبغل وحمار كانت تملكهما عمته ، وحظيرة اخرى لزوج من الثيران .. ولكن هذه الحيوانات كانت قد ماتت كلها ، وقسمت حقول الكروم بين الابناءً والبنات ، واحس الكابتن وسط الظلام برائحة البلى والفناء .

وتابع السير ودس يده فى فتحة بالجزء العلوى من الباب الرئيسى ، ودفع المزلاج فى حرص فانفتح الباب ، وارهف السمع وقد حبس انفاسه ، واستطاع من مكانه أن يسمع صوت انفاس رتيبه آتية من غرفة صغيرة ، وكان ثمة شخص ينام فى جانب منها ، واختلج قلب "الكابتن ميخايليس" ، من عساه يكون هذا النائم !؟ .

واقترب أكثر فى خطى كخطى اللص وقد وضع يده فوق حزامه وقبض على خنجره ، وارتعشت خياشيمه .. لا أثر لرائحة المسك : "لابد أن عمتى العجوز !" .. وعادت ضربات قلبه تنتظم ، وانحنى قليلا وتحقق من الشعر الأبيض والوجه المغضن .. ثم تراجع الى الخلف .

"لابد أنها فى الغرفة الوسطى ، افضل غرف البيت .. تلك التى بها المذبح" .. وعاد قلبه يخفق كموجات البحر .

ومد يده ودفع الباب الصغير للغرفة الوسطى التى كانت مضاءة بمصباح خافت الضوء امام المذبح القديم لكل القديسيين وعلى جانبيه صورتان لميخائيل كبير الملائكة ، ولاستشهاد القديسة كاترين .

واستند الى حافة الباب ، واستطاع أن يميز جسدا نائما تحت الغطاء فوق سرير عمته الحديدى القديم ، وكان بمقدوره وهو فى مكانه ان يميز ذلك الشعر الاسود منسدلا فوق الوسادة .. وان يشم رائحة المسك .

واحس لحظتها بعينيه تغيمان ، فتنفس بعمق ولكنه لم يستطع السيطرة على قلبه ، وبقفزة واحدة اصبح داخل الحجرة وهو يقبض على خنجره ذى القبضة السوداء وحبس انفاسه وهو يسير على اطراف اصابعه .. ورفع الغطاء بيده اليسرى فلمع جسدها ، ولمعت عيناه لمرآة للحظة ، ولكن ما برأسه كان الدم فحسب .. فى امواج متلاحقة .

وتململت المرأة النائمة وتنهدت ، وهمست شفتاها بكلمات غامضة ، ثم ابتسمت .

وانحنى "الكابتن ميخايليس" ؛ وبرق ضوء المصباح الصغير فوق نصل

الخنجر الذى مرق فى الهواء .. ثم انغرس بعنف قاس فى الجسد الابيض .

وصرخت "امينة" ، وفتحت عينيها ، واستطاعت أن تتعرف على "الكابتن ميخايليس" .. وارتسم فى النظرة الاخيرة لهما : الدهشة والنشوة والألم والعتاب معا ! .

وأن الرجل آنينا ، وجسده كله يهتز بالألم .. واستل الخنجر حتى يجنب الجسد الموت .. ولكن بعد فوات الاوان ، لقد تحجرت عينا "امينة" ....

الفصل الحادى عشر

جلس الجد فى فناء البيت تحت شجرة الليمون العجوز ، وقد وضع فوق ركبتيه لوحا وطباشير وظل يحدق فى الجبل خلال الباب المفتوح .. ويفكر . كان الجبل يبدو متألقا وسط ضباب الغسق ، وثمة ريح جنوبية رطبة تعلن الأرض بقرب سقوط الأمطار . وكان الجو باردا .

وتنهد الجد وهو يقول : «الشتاء على الأبوب» ..

كان يفكر فى النساء والأطفال الذين أخرجهم الأتراك من بيوتهم فتسللوا إلى الكهوف بلا طعام أو ثياب .. وبلا رجال يحمونهم ، وكان يفكر فى كريت التى عادت مرة أخرى تهز اغلال عبوديتها ولا تدرى إلى أين تمد يديها طالبة العون . هؤلاء الافرنج الكلاب .. بلا قلب ، أما اليونان ـ الأم التعسة المتسولة ـ فقد كانت بلا حول ولا قوة ، وأما الثوار الكريتيون فقد كان عددهم لا يزال ضئيلا وكان ما بأيديهم من سلاح وطعام أكثر ضآلة .. فكيف كان بمقدروهم اذن أن يصمدوا ؟ وفوق ذلك كله ، فان الله يبتليهم بالشتاء وكأنه يأخذ فى الصراع جانب الأتراك .

وغمغم العجوز وقد أغلق عينيه : «أنت كريتى ... وسوف تلقى جزاءك» .

إن الجزيرة كلها بكل ما فوقها من جبال وفاكهة وناس ، لتبدو معلقة فى الفراغ ما بين صدغيه . كم كانت انتفاضة لها عاشها ؟ كم مرة أحرقت بيوتها وانتزعت أشجارها وانتهكت نساؤها وقتل رجالها ؟ ... ورغم ذلك ، فإن الله رفض دائما أن ينظر إلى كريت بعينى عطفه ..

وصاح الجد العجوز «هل هناك عدالة ورحمة فى أى بقعة فوق هذه الأرض ـ بل هل هناك اله ؟» .. ثم ضرب اللوح بقبضة يده ويقول : «أم أنه سبحانه ـ أصم لا يعرف الرحمة ؟ » .

ولكن حفيده «تاراساكى» قدم فى تلك اللحظة خارجا من البيت ، فأضاءت ملامح وجه الرجل العجوز . كان «تاراساكى» هو اجابة الاله .. كل شيء سينتهي على مايرام ، فارتح بالا أيها العجوز : وفكر فى حفيدك ..

وكانت الشمس قد لوحت وجه تاراساكى فى الشهور القليلة التى أمضاها بالجبل والتى حولته الى حيوان مفترس وجعلته يقترب حثيثا فى الشبه من أبيه : عينيه ، وحاجبيه وشفتيه - واعتداده بنفسه ، اتجه نحو جده وتناول اللوح من يده ونظر اليه عابسا وهو يقول فى حدة : « أنت لم تكتب الأبجدية بعد » .

كان يحاول طوال شهر كامل أن يعلم جده الابجدية بعد ان قرر هذا - بعزيمة قوية لا تحسب للسن حسابا - أن يتعلم بضعة حروف حتى يستطيع - كما يقول - كتابة اسمه . والحق أن هدفه كان ابعد من ذلك ، ولكنه لم يفض به إلى حفيده .

بيد أن العقل العجوز تأبى على تلك الحروف ، كما تأبت اليد الثقيلة التى لم تألف سوى المعول والبندقية .. على أصابع الطباشير التى كانت تتحول هى واللوح أحيانا إلى قطع صغيرة حتى ليجز «ثاراساكى» اسنانه من الغضب .

وكان الجد يضرب رأسه بيده ويقول : «كان لدى مايشغلنى يا ولدى ، ولم أستطع .. فلا تؤنبنى » ..

- وما هذا الذى كان يشغلك ؟ لقد كنت تجلس عند مدخل البيت طوال اليوم ، وقد رأيتك بنفسى وأنت «تشغل» نفسك بالنقاش مع كل عابر : أنا أعرف أنك تضع اللوح والطباشير فوق ركبتيك ، ولكن أين الخطوط ؟ بهذا الأسلوب أنت أبدا لن تتعلم .

- لا تؤنبنى يا ثاراساكى يا ولدى ، فالأمر صعب بالنسبة لى . إن يدى لاتطاوعنى ، كيف أفسر لك الأمر ؟ أحاول أحيانا أن أتجه بالحرف إلى اليمين فاذا بيدى تنحرف إلى اليسار ، وأضغط على الطباشير برقة ، فاذا هو ينكسر . هل ترى ؟

- كل ما أراه أنك ابدا لن تتعلم الكتابة .

وهز ثاراساكى رأسه وقال :
- هات يدك حتى أوجهها .
ولكنهما سمعا فى تلك اللحظة وقع اقدام ، والتفت الجد سعيدا للغاية بأنه سيتخلص من الكتابة . واقترب شخص غريب مرهق من اللون يرتدى الملابس الافرنجية ويحمل فى يده مظلة قديمة مربوطة بالخيوط .

وناداه الجد :
- طاب يومك يا صاحبى ، إلى أين؟ أجلس وارتح قليلا واشربماينعشك .. وتوقف الغريب مستندا إلى مظلته ولم يقل شيئا .

وعاد الجد يسأله :
- إلى اين أنت ذاهب ؟
- أتمشى .
وصاح الرجل العجوز فى دهشة :

- تتمشى ؟ .. بحق المسيح .. ألم تسمع أصوات الطلقات ؟ .. إن الدنيا تتمزق حولك وأنت تتمشى ، ضع مظلتك والتقط سلاحك يارجل .. ألست كريتيا ؟

- بلى ...
- فماذا تنتظر اذن ؟ .. الق بهذه المظلة بعيدا .
وتطلع المسافر الى السماء المثقلة بالغيوم ، ثم قال وهو يقرب المظلة اليه :
- سوف تمطر السماء .
وكان «ثاراساكى» يتمعن لحظتها فى وجه المسافر .. ثم مالبث أن صاح فجأة :
- ألست السيد ديميتروس ؟ السيد ديميتروس لينبوتوم ، جارنا ؟ .. ان زوجتك المسكينة «بينلوب» تكاد تجن لأنها لم تعرف إلى أين ذهبت .

وسأله ديميتروس فى ضيق : «وأين هى .. الآن ؟ » ..
- وكيف لى أن أعلم ؟ لعلها تجوب القرى كلها بحثا عنك ..

وبدأت تتساقط قطرات ثقيلة من المطر ، وفتح ديميتروس مظلته وتهيأ للانصراف ..

وصاح الجد :

ـ بحق المسيح .. انتظر واشرب كوبا من «الراكى» .. إلى أين تذهب ؟ إن السماء بدأت تمطر .

ثم سار دون أن يلتفت .. حتى غاب عن النظر .

وتساءل «ثاراساكى» :

ـ ماذا دهاه ؟ ما الذى يجعله هكذا متعجلا ؟ وأجاب الجد العجوز :

ـ زوجته .. لقد فاض به الكيل منها .. واكتفى .

وبرز «بترودولوس» من داخل البيت بعباءته الصغيرة وقيثارته معلقة فوق كتفه كان قد افطر «بسكويتا» مغموسا فى الخل والزيت وقطعة من الجبن ، علاوة على كمية من النبيذ ، وأحس من ثم بالبهجة حتى ليخرج الآن وعيناه تتراقصان ليستنشق بعض الهواء النقى .

كان قد تعب من الحبس داخل البيت مع النساء والأطفال ، يعزف لهم على قيثارته لكى يحول أفكارهم عن رجالهم الذين يحاربون فى الجبال . وكانت أصوات الطلقات الهادرة تتناهى من بعيد مع الريح المواتية ، فتصعد النساء إلى السطح لينصتن ، وتهرع أرواحهن طائرة الى الجبال .. حيث أزواجهن ، وكان «بيترودولوس» هو راحتهن الوحيد حين يلعب بقيثارته ويغنى أغنيات الـ «كانزونا» التى اشتهرت بها «زانتى» ، فيبعث فى نفوسهن بقليل من الطمأنينة ، ولقد قالت له أول امس فتاة حديثة الزواج هى «كريستينيا» ابنة القس : «ان الأغنية تشبه الرجل ، فكلاهما يريح المرأة التعسة» ولحظتها ، شد الرجل الطيب قامته فى خيلاء . اصحيح أن الأغنية تشبه الرجل ؟ .. وكل هذه الأعوام التى انقضت من عمرى وأنا أجهل هذه الحقيقة .. أنا أيضا ينبغى أن تكون لى زوجة وأولاد وأن أحيا كانسان ، وسأل السيدة الصغيرة «ماذا تعنين بهذا ؟ » .

وقالت وهى تضحك فى خبث :

ـ وكيف أستطيع أن أوضح لك الأمر ياصغيرى بترودولوس ؟ نحن النساء فقط نفهم مثل هذه الأمور ، ولو كنت مكانك لما اقحمت نفسى فيها . اقترب « بترودولوس» من الجد وعلى فمه الصغير الحاد ابتسامة ساخرة :

ـ ألم نتجاوز حرف «الألف» ياجدنا الصغير ؟ .. ألم نصل الى «الباء» ؟ أى صخور غارقة لاتزال أمامنا لندور حولها ؟ ..

وقال الجد وهو يلتفت الى حفيده :
- إذا كنت تريد بركاتى فلا تدع هذا السيد يجعل منك مادة للسخرية بأن يعطيك دروسا فى العزف على القيثارة .. فذلك أمر تصلح له ، «البريمادونا» وحدها .

وتنحنح «بترودولوس» ولكنه لم يقل شيئا . وكيف يجرؤ ؟ منذ أيام قليلة مضت حدث أن جرؤ على الرد عليه . فاذا بالرجل العجوز يمسك به على الفور من تحت أبطيه ويطوح به عاليا ليستقر فوق أعلى صخور الحائط . ولقد صرخ لحظتها بينما استبدت البهجة بالنساء وتجمعن حتى أنزلنه بالسلم . وهكذا ، فقد اكتفى بأن يتنحنح .. ويتقوقع جالسا خلف الجد وقد أخفى قيثارته وراء ظهره .

وقال الرجل العجوز :
- تعال يا «ثاراساكى» وسوف أدربك على التصويب الجيد ، فهو لعبة الرجال .. أحضر جهاز التعمير .
ولم يكد ينتهى من كلماته حتى كان «ثاراساكى» قد جاء به ووضعه خلف الباب .

هاهوذا .. لقد أمضيت الأمس بطوله وأنا أنظفه ..
- انى أمنحك بركاتى ، ولسوف تصبح أفضل من أبيك نفسه . لماذا تحدق فى ؟
هذا هو المطلوب .. تبا لنا أن لم يصبح الابن افضل من الأب . إن العالم ليصير مزقا ان لم يحدث ذلك .

ثم وضع يده فوق رأس حفيده وقال :
- يجب أن تفوقنا نحن جميعا ياولدى ، فنحن الكريتيين لسنا كسائر الناس . إن عملنا ضعف أعمالهم . فى باقى الدنيا - وحين يكون المرء راعيا - فانه لا يفكر إلا فى أغنامه ، وحين يكون حراثا فانه لايفكر إلا فى ثيرانه وفى المطر والمحصول ، وحين يكون تاجرا فانه لا يفكر الا فى البضائع . ولكن الكريتى يفكر - بالاضافة الى هذا كله - فى كريت . وكريت طاعون عظيم . طاعون يأخذ كل ما لديك .. وهو دائما على حق ، وانه ليطلب منك حياتك ذاتها فتمنحها له وأنت سعيد .. ان كريت طاعون عظيم .. وانتبه جيدا الى كلماتى هذه .

ثم وضع سلاحه فوق ركبتيه وأخذ يتحسسه كما لو كان كائنا حيا حبيبا الى القلب ، وبدأ يعمره فى اهتمام فائق وهو يقول :

ـ هذا هو حياتى .

ثم عاد يقول :

ـ اختر لنفسك الآن هدفا . هناك ، هذا الغراب فوق قمة شجرة السنط ـ هل رأيته ؟ حسن . ضع الفتاه العجوز الى كتفيك .. وصوب .

وأغلق «بترودولوس» عينيه وسد أذنيه ، وهدرت الطلقة كالرعد واندفع الدخان من القربينة فى دوائر .. وهوى الغراب من بين أوراق الشجر إلى الأرض .

وقفز «ثاراساكى» فى بهجة ، وأسرع ليلتقط الطير الميت ، ثم القى به عند قدمى «بترودولوس» ليفزعه . وتراجع الكونت المسكين فزعا ، وأمسك بقيثارته وعاد الى النساء بشفتين ترتعشان .

وكانت زوجات أبناء الجد ، وزوجات أحفاده قد تجمعن فى تلك الأبنية المتجاورة بالاضافة الى جارى الكابتن «ميخايليس» : «ماستراباس» و «كراسوجورجيس» السمين الذين انضما اليهن مع عائلتيهما بعد أن احتل الأتراك قراهم .. وكانوا قد هربوا لتوهم فوق ظهور دواب الحمل . والى اين يذهبون ويجدون الأمان ؟ فكروا فى والد الكابتن ميخايليس الذى اشتهر بيته بأنه قلعة منيعة وبأنه هو ذاته رجل كريم لا يرد عن بيته أحدا وعندما أصبحوا عند الباب الخارجى ، رفع «كراسوجورجيس» يديه الى صدره ـ وهو المتمرس بالنفاق ـ وحيا الجد الذى وقف مرحبا بهم ، وقال :

ـ أيها النسر الملكى الأشيب ، انا ، وماستراباس : صانع الأجراس ـ جارى ابنك الكابتن ميخايليس ، والمطاردين من الأتراك ـ جئنا نحتمى بجناحيك . أيها النسر الملكى الأشيب .. لا تردنا خائبين .

وأجابه الجد الذى لا يعرف النفاق ـ وان كان يحب أن ينافقه الناس .. أجاب مبتسما ..

ـ جناحاى عريضان ادخلا .

وظهر «بترودولوس» هو الآخر فى الفناء وحيا القادمين الجدد بترحاب زائد ، بينما قال «ماستراباس» :

- تحياتي يا كابتن «سيفاكاس» ، لقد أصابوا عندما قالوا ان بيتك دير .

ولكن الرجل العجوز رفع يده وقال :
- مرحبا .. ولكن بشرط واحد : كلاكما هنا ليحمل السلاح . فاختارا من السلاح ما تشاءان واذهبا الى حيث يقف الرجال .. أنا لا أمنح طعامى لمرتعش أو جبان . أنا أرعى النساء والأطفال ، فلا تقلقان عليهما .

ثم أضاف ضاحكا :
- لا تشيرا الى السنيور بترودولوس ، انه امرأة وطفل .. انه الاثنان معا ..
وضحك الجميع .. ولكن كراسو جورجيس وماستراباس كانا برمى الوجهين ... وتجرأ أولهما ليقول :

- نحن لا خبرة لنا بأمور القتال ، فاذا وصل الأمر الى حد القتال فقد ضعنا .
- حسن ؟ فلو أنك لم تذهب ، ألن تضيع يوما .. وبصورة من الصور ؟
- كلما تأخر ذلك كان أفضل يا كابتن .
- حظك سيىء .
وقفز «كراسوجورجيس» :
- لا بأس ، ولاتغضب يا كابتن سيفاكاس ، فسوف نذهب ... وكان الله فى عوننا .

وأنزل الاثنان حمولة الدواب ، ونزل النساء من فوق ظهورها ، وجاءت النسوة الاخريات ليساعدنهن ويقدنهن الى البهو الأمامى الكبير حيث اعددن لهن موقدا .. واجتمع الكل فى المساء الى المائدة الكبيرة .. وفى صباح اليوم التالى أخرج الجد بندقيتين من الدولاب وأعطاهما لكاسوجورجيس وماستراباس ورافقهما الى أقصى حدود القرية ، وهناك ، اسلمهما لراعى غنمه العجوز «شاريديموس» وقال له :

- عمت صباحا ياشاريديموس . اصحبهما من فورك عبر الممر الى حيث مخبأ الكابتن ميخاليس ، وخذ حذرك ، فالاثنان جديدان فى اللعبة ، فلا تقدهما الى قرية مليئة بالأتراك .

ثم استدار الى المقاتلين الجديدين .. ومد يده مصافحا .

ـ اذهبا على بركة الله وأديا واجبكما ، كونا رجلين ، وأنا المسئول عن عائلتيكما .. أتمنى لكما حظا سعيدا : ولا تنسيا أن تحييا عنى الجبال .

وبعد أيام قلائل ، وبينما كان الجد والحفيد يتبادلان الحديث .. أولهما يعطى الثانى عصارة تجاربه وخبرته ، تناهت أصوات وقع أقدام دواب قادمة من الممر الجبلى ، ولاح قرابة عشرة رجال فوق ظهور دوابهم يهبطون المنحدر فى سرعة . ووقف ينظر وقد حمى عينيه بكلتا يديه ولكنه لم يستطع ان يميز شيئا وسط الضباب . ومر به لحظتها منادى القرية العجوز «مافرودس» فناداه الجد وسأله :

ـ ماذا لديك من انباء يا طائر السوء ؟ من هؤلاء القادمون ؟

ـ يقولون ان سفينة الكابتن «ستيفانيس» قد وصلت الى مرفأ «آجابيلاجا» تحمل الذخيرة والطعام .

ورسم الجد علامة الصليب وغمغم قائلا :

ـ أيها الوطن الأم المسكين .. انت تحرم فمك من أفضل اللقيمات وتبعث بها الينا .. هه .. ثم ماذا ؟

ـ ثم ان رجال ولدك فى طريقهم بدوابهم ليعودوا بالكنز ، هاهم أولاء ، فاستقبلهم اذن أحسن استقبال .

وقال الجد وهو يفتح الباب على مصراعيه : «مرحبا بهم» .

وكان «فيندوسوس» دليل القوم ، فقد قال له الكابتن ميخايليس :

ـ أنت لا تصلح للقتال ، ولكنك تعرف هذه النواحى جيدا ، كما أنك ماكر .. وسافاك سليمتان ، ومن ثم فسوف أجعلك عداءنا .

وصاح «فيندوسوس» وهو يقفز الى الأرض :

ـ تحميه يا كابتن سيفاكاس ، اذا لم يكن هذا يزعجك ، فسوف نقضى اليوم فى بيتك ثم نمضى غدا ان شاء الله عند أول خيوط الفجر .

وقال الرجل العجوز وهو يمد يده للقادمين الجدد :

ـ مرحبا بكم يا أولادى . اشربوا أولا فقد تعبتم .

ودخل الفرسان إلى الفناء وقد بدا عليهم الارهاق وكساهم البارود ، وأسرعت اليهم النسوة يسألنهم عن أزواجهن ، وأوقدت النار .. وصفت المائدة . وأوقدت الشموع عندما بدأ الظلام يرخى استاره ، وتجمعت

الوجوه الجادة بارزة العظام .. على ضوئها وحول المائدة الحافلة . وأكل الجميع كالوحوش المفترسة ، وشربوا كالجاموس ، وطحنت افواههم الطعام طحنا .. وانتشرت رائحتهم الرجولية الحادة خلال البيت كله ، واحاطت بهم النساء عن بعد وقد حبسن أنفاسهن وهن يقمن على خدمتهن فى بهجة ، ووقف الجد هو الآخر قريبا منهم ينظر اليهم فى اعجاب دون أن يتكلم .

وعندما انتهوا من طعامهم وشرابهم ، ورسم كل منهم علامة الصليب ، قال لهم :

ـ الآن تنامون وتريحون اجسادكم المرهقة .. آه .. آه .. لو اننى كنت صغيرا لأحمل معكم هذا الارهاق ، ولكننى أصبحت كما ترون .. هذا الشىء المثير للاشفاق .. اننى أنام فوق سريرى كل ليلة ، وآكل واشرب فى الصباح والظهيرة والمساء .. ولم أعد سوى أكول لا فائدة منه ، لايحمل السلاح ولا احد يطلق الرصاص نحوى ، اننى لا أرجو ـ حتى لأعدائى ـ أن ينتهوا الى ما انتهيت انا اليه .

وقال «فيندوسوس» ضاحكا :

ـ ندعو الله أن ننتهى الى هذا الذى انتهيت اليه يا كابتن سيفاكاس .

وقال الرجل العجوز :

ـ أنت دليلهم يا «فيندوسوس» ، وسوف تكون آخر من ينام مهما كنت مرهقا وسوف نتبادل بضع كلمات معا .

فقال «فيندوسوس» وهو يغالب التثاؤب :

ـ تحت أمرك يا كابتن سيفاكاس ، فلم أصبح دليلا للا شىء .

وتمدد الفرسان واحدا الى جانب الآخر بملابسهم وسلاحهم ، وقبل أن تنظف النساء المائدة كان صوت شخيرهم يملأ البيت .

وأوقدت النساء النار للتدفئة بينما جلس الجد فى مواجهتها والى جواره عازف القيثارة ، وأخذ الرجل العجوز يحدق صامتا فى لهب النار وحاجباه يختلجان فى شغف .. ولم يعد فى النهاية قادرا على أن يظل صامتا فقال فى همس :

ـ هناك شىء واحد أريد أن نتبادل حوله الحديث يافيندوسوس : شىء ينزف له قلبى . قل لى ـ كرجل ـ كل ماتعرفه ، ولاتكذب ، فقد بلغت من العمر مائة سنة فلا احتمل معها الكذب .

وحدس «فيندوسوس» السؤال مقدما .. وبدأ يفكر .. ثم قال فى النهاية :
ـ سوف أقول الحق .. كل الحق .
وخفض الجد صوته أكثر :
ـ لماذا غادر الكابتن ميخايليس موقعه فى تلك الليلة التى أحرق فيها الدير ؟
وأخذ «فيندوسوس» يقلب النار ، ثم رجع بجسده إلى الوراء ..

وعاد الجد يقول :
ـ دع النار فى حالها ..
ثم أمسك بذراعه وقال :
ـ إلى أين ذهب تلك الليلة ؟
وابتلع «فيندوسوس» ريقه ، لو أنه أطلق العنان للسانه الآن ، فلسوف يكشف كل شىء .. وذلك مايخشاه .
ـ كابتن «سيفاكاس» .. ذلك .. ذلك ليس من شأنى .

وصاح العجوز آمرا وهو يهزه من ذراعه :
ـ تكلم .. قل كل شىء ولاتحاول أن تخدعنى لماذا غادر موقعه ؟ وإلى أين ؟ لقد جلب لى العار ، ومن أجل ذلك فهو يخجل من مواجهتى لأنه يخشى أن أسأله ولكن أقسم بروحى أننى قادر على أن أمضى يوما ـ نعم .. غدا .. لأبحث عنه فى مخبئه ، ولأجمع فرسانه وأوجه اليه اتهامى امامهم . واذا أنت لم تجب على الآن يا فيندوسوس ، فسوف أفعلها .. نعم ، وبحق هذه النار سأفعلها ، وليحاول أن يظل فارسا اذا كان هذا الأسد المفزع يستطيع حقا أن يفعلها .. وأحس بالرعشة ، ثم قال :

ـ لاتثر يا كابتن سيفاكاس ، سوف أقول كل الشىء .. ومن البداية ، فاصبر .
ـ أنا صابر .. فتكلم .
ـ أنت تعرف أن نورى بك كان له زوجة شركسية ..

وقال الرجل فى أنين ، وهو يضرب صدره بقبضة يده :
ـ آه .. ياللعار .. اذن ففى الأمر امرأة .

وقال فيندوسوس ـ وقد قرر أن يبوح بكل شىء :

ـ نعم .. فى الأمر امرأة .. أنت تريد كل الحقيقة ، فهذه هى الحقيقة اذن ..

ـ نعم .. أنا أريد الحقيقة ، ثق من ذلك ، ولكن اخفض صوتك ، فالنائمون لهم أيضا آذان ، فلا تدعهم يسمعوننا . هه ؟

انها تدعى «أمينة» ، وقد رآها الكابتن ميخايليس فى احدى الأمسيات عند نورى بك فى ضيعته وجن بها جنونا ، وبعد ذلك بأيام ـ وبالتحديد يوم حدث الزلزال ـ رآها الكابتن بوليكسيجيس أيضا وحدث معه نفس الشيء ، وظل يحوم حول المكان حتى فقد كل كرامته ، ثم مالبث فى النهاية أن اقتحم بيتها وصارحها بما فى قلبه ونام معها على فراشها وصمم على أن يتزوجها ، وكان لابد أن تتنصر ، وكان المفروض أن يتم تعميدها وعرسها معا بعد غد فى ذكرى يوم الصليب المقدس .

ـ استمر .. استمر .. وما علاقة ذلك كله يابنى ؟

ـ سوف تفهم حالا فليسامحنى الله .. ولكننى واثق من أن جمال هذه الشركسية قد سحر الكابتن ميخايليس بأكثر مما سحر الكابتن بوليكسيجيس . لقد جئته ليلة أن كان يقاتل أمام دير السيد المسيح ، بأنباء تقول أن اقرباء «نورى بك» قد اقتحموا «كاستيلى» وحملوا معهم الفتاة الشركسية .. وعلى الفور امتطى صهوة فرسه واصطحب معه عشرة منا ، وانطلقنا جميعا خلف اللصوص حتى أدركناهم عند «الجبل القاسى» ، وهناك ، هبط عليهم ولدك مثل السبع الضارى وبشكل بطولى لم أر مثيلا له طوال حياتى يا كابتن سيفاكاس . أن الفضل كل الفضل لك أنت يا من انجب هذا الابن .. أما الأتراك فقد تركوا المرأة وركنوا الى الفرار ..

وغطى الرجل العجوز وجهه بيديه وصاح فى ألم :

أواه . ذلك اذن ما حدث : من أجل امرأة .. غادر موقعه مثل رجل بلا شرف .. يااللعار وتسمى ذلك عملا بطوليا .

ـ لا تلعنه يا كابتن سيفاكاس . أقسم بصلب ابى أن ولدك لم يرفع رأسه مرة لينظر الى الفتاة الشركسية . لقد قال لى : فيندوسوس ، خذ هذه المرأة واوصلها الى عمتى فى «كوراكجيس» .. واطلب منها أن تقدم لها الطعام والشراب حتى نرى ماذا نفعل بعد ذلك .

ثم سكت .. وأخذ يحدق فى النار الموقدة ، وبعد لحظة صمت عاد يقول :

- اما ما حدث بعد ذلك يا سيفاكاس العجوز ، فينبغى لك أن تعرفه .

ولكن الرجل العجوز لم يتكلم . وكان وجهه قد تحول إلى كتلة فى الشمع .. وبدأ هذا الوجه فجأة وكأنه استحال الى جمجمة .

وهمس «فيندوسوس» :

- لقد وجدت ميتة ذات صباح .. وثمة خنجر مغروس فى قلبها .

ومد الجد يديه وأمسك بزجاجة نبيذ عب منها وقد أحس بشىء من الراحة . ثم سأل فى همس حتى لقد بدا صوته وكأنه صادر عن كهف عميق :

- ومن الذى قتلها ؟

وأحنى فيندوسوس رأسه . هل يقوله ذلك أيضا ؟ .. كان رأيه قد استقر على ما سوف يقوله فى هذا الصدد ..

- لابد أنها هى التى قتلت نفسها .. لقد كانت هى نفسها تمسك بالخنجر .. هذا ما يقوله الناس .

- دع الناس يقولون مايقولون .. من الذى قتلها ؟

ورفع «فيندوسوس» رأسه وهو يقول لنفسه «لو أنك وجهت فوهة غدارتك إلى صدرى يا سيفاكاس العجوز ، فسوف تسمعها» :

- ولدك يا كابتن سيفاكاس .

- لمـــــاذا ؟

وكان فيندوسوس قد القى الآن ثقله عن صدره ، وأحس بأن قلبه قد استراح . ولم تكن هناك حاجة اذن للهرب امام التفصيلات الاخيرة ، فأجاب على الفور :

- بدافع الغيرة .

ورفع الرجل العجوز قطعة من الخشب من فوق الأرض ، وغذى بها النار ، واستغرق فى التفكير ... واخيرا قال :

- ولقد فعل خيرا . البداية سيئة ، والنهاية طيبة . لقد كان ثمة ثعبان لينغص عليه أمره .. ولقد فعل اذن خيرا ..

- فأنت لماذا تلومه يا كابتن سيفاكاس ؟

ـ انه يلام فقط لتركه موقعه ، ولكنه دفع الثمن .. ولايزال يدفعه ، ولسوف يتحرر يوما ما .. اننى أثق فى دمى .

ـ ولكن ، ماذا فعلت المرأة لتستحق ما ارتكبه ؟

ـ وهل تظن أن المرأة تهم ؟ كريت وحدها هى التى تهم يا عازف القيثار . قم الآن لتنام وأغلق فمك . لاتبح بشىء من ذلك كله . فلو أنك فعلت ، لقتل كل من الفارسين الآخر ، ولن يكون ذلك فى صالح كريت . طابت ليلتك . قم أما أنا فسأبقى إلى جوار النار .

وحين لاحت تباشير الصباح ، كان الجد لايزال فى مكانه .. وكانت النار قد خبت : كان قد أحنى رأسه إلى صدره واستغرق فى النوم . أما فيندوسوس وجماعته فكانوا قد التهموا الكعك وشربوا بضعٍ أباريق من النبيذ ثم انصرفوا .. وعندما فتح الجد عينيه لم يكن هناك سوى رائحة سجائرهم وأحذيتهم وأنفاسهم المثقلة برائحة النبيذ .

وعندما انتصف النهار أو كاد ، وانتهت النسوة من اعداد الخبز ، واستطاع الجد فى النهاية أن يكتب أول الحروف ، الألف والباء والجيم على اللوحة التى كان يتشوق الى أن يراها حفيده .. لاح عند الباب الخارجى محارب صغير قادم من خارج مريت يرتدى «فوستانيلا» «معطف طويل» طويلا كثيف الزر ، ويحمل على كتفه بندقيته ، وسترة ، وحذاء مدببا ، ويضع فوق رأسه طربوشا ويثبت حول صدره كيس ذخيرة . ومسح المكان بنظرة كالنسر .

وصاحت النسوة وقد امتزج فى صياحهن الخوف والفرح :

ـ يونانى .... يونانى

ورفع الجد رأسه وقال :

ـ مرحبا ، هيللين ، أدخل أيها النسر الصغير ..

ورفع الرجل ذو المعطف ساقا نحيلة رشيقة واجتاز المحتل ، وتجرأت النساء فاقتربن أكثر وهن مأخوذات بجسده الممشوق وهمست احداهن :

«يا بهجة عينى أم هذا ولدها ، إنه يبدو كما لو كان كريتيا» .

وتوقف البطل الصغير أمام الجد وقال محييا :

ـ وهل أنت يا سيدى هو الرجل الذى يسمونه كابتن سيفاكاس العجوز ؟
ـ أنا هو من قمة رأسه إلى اخمص قدمه ، كل مافى الأمر أننى كنت «كابتن» يوما ما .. أما الآن فأنا سيفاكاس العجوز فحسب ، وأنت ، أى ريح طيبة حملتك الى بيتى ؟

ـ أنا قدم من سفينة الكابتن ستيفانيس ، واسمى «مستروس» .. وبلدى «روميليا» ولقد سمعت أن كريت تحارب فجئت أنا أيضا لأحارب معها . وحين كنت فى «سيرا» قابلت رجلا يرتدى الملابس الافرنجية ويقول انه حفيدك .. وقد حملنى رسالة اليك .. فمد يدك لأعطيها لك .
هكذا أقدم لك نفسى .

ومد الجد يده وتناول الرسالة وتحسسها فى سعادة غامرة .. انها جاءته من حفيده الاثير الى نفسه .. الابن الاول لاكبر اولاده « كوستاروس » واول حفيد اجلسه فوق ركبتيه .. واول من ناداه بكلمة جد ..

وقال وهو يدس الرسالة داخل قميصه :

ـ شكرا ايها البطل الصغير على المشقة التى عانيتها ..

ثم نظر الى ثاراساكى وقال ضاحكا :

ـ سوف اعطيها لحفيد اخر من احفادى .. حفيد متعلم يستطيع ان يقرأها ، ولكن ليس الآن .. ايتها النساء ، اعددن المائدة فقد جاءنا ضيف من سلالة نبيلة : يونانى اصيل ، واحضرن له المقعد الافضل ليجلس فوقه ..

واحضر له المقعد القديم الذى حفرت فوق ظهره صورة نسرين ، وجلس الجد فى وسط الفناء ووجهه يضىء بالسعادة ، وجلس فى مواجهته الشاب القادم من روميليا مأخوذا بمرأى الرجل العجوز الاشيب والذى بدا له وكأنه اله خالد لا يموت ..

وامسك بيد الجد وقال :

ـ ايها الجد .. لقد سمعت انك عشت مثل شجرة السنديان ، وانك

تنفست العواصف ، وعانيت وانتصرت وناضلت وعملت طوال مائة عام . فكيف بدت لك الحياة خلال تلك المائة من السنين ؟

واجاب العجوز :

ـ مثل كوبة من الماء البارد يا ولدى .

ـ ومازلت عطشان يا جدى ؟

ورفع العجوز يده حتى انحسر كمه عن ذراع معروقة حتى الكتف ، وصاح وكأنه يلعن ويسب :

ـ الويل لهذا الذى سقى ظمأه ..

وساد الصمت لحظة ، وبدا الاثنان فى تأمل متبادل بينما وقف ثاراساكى بينهما يحدق فى اعجاب بالغ فى الجد وفى الشاب .. وحولهما وقف النسوة وقد ثبت لكل منهن ذراعيها ..

واخيرا تكلم الجد .. تساءل وهو يشير الى السماء باتجاه الشمال :

ـ وماذا حملت لنا ايها المحارب الصغير من انباء اليونان ؟ لم يعد عندكم اتراك الان ايها المتسولون المحظوظون ..

وكان لايزال يجلس مكانه .. ويتنهد بينما الشاب يجلس فوق المقعد ذى الظهر المنقوش .. اما ثاراساكى فقد كان لايزال واقفا بالقرب من الجد وهو يحدق فى الشاب ذى المعطف الطويل ..

واجاب ميتروس :

ـ ليس عندنا اتراك ، ذلك امر مؤكد .. ولكن عندنا ملاك كبار .. وشرطة .. وسياسيون ولا تسلنى عنهم ايها العجوز ..

وتناهت من الفناء رائحة خبز ساخن واحس الشاب بما يشبه الاغماء .. فقد كان صائما طوال اليوم .. والقى بنظرة شغوفة الى الكعك الساخن ، ولمح العجوز تلك النظرة فضحك وصاح :

ـ اسرعن يا نساء ، فلم يعد لدينا قوة لنتحمل ، احضرن بعض الخبز الساخن والجبن وابريقا من النبيذ حتى نعيد القوة الى قلوبنا ..

ثم دار ببصره عبر الفناء مستعرضا المخازن وحوض الماء الذى تشرب منه الجياد والباب الخارجى ومعصرة النبيذ ، حتى استقرت نظرته مرة اخرى فوق الشاب .. وهو يضحك مرة اخرى ويقول :

ـ اتعرف لماذا اضحك ايها الشاب ؟ اقسم ان ذاكرة الرجل تصبح اشبه بالمقبرة عندما يمتد به العمر ، ولكن .. يحدث رغم ذلك ان تتحرك حجارة هذه المقبرة احيانا ويخرج الموتى من داخلها .. بلى .. فاننى وانا ارى الفوستانيللا فى هذه اللحظات ـ ومرة اخرى داخل هذا الفناء ـ اتذكر فجأة عام ١٨٦٦ ، وكيف انه فى داخل هذا الفناء ذاته ، وفوق هذا المقعد ذاته .. جلس يوما ما فارس يونانى (يرحمه الله) بينما كانت زوجتى وحماتى (رحمهما الله) تخرجان الخبز من الفرن .. كان الوقت خريفا مثلما هو الان ، وكان اليوم يوم القديس جورجيس السكير .. وكان الجميع يهيئون النبيذ فى القرية ويفتحون الدنان ويتذوقون المحصول الجديد ، وفى تلك اللحظات ظهر كاستانياس (رحمه الله) احد الرجال الذين كان بمقدورهم ان يسابقوا الخيل ، وكان بصحبته سورميليس (رحمه الله) قبطان الباخرة بانديليس الشيطان الشهير (يرحمها الله) وقلت لولدى الاكبر كوستاروس (رحمه الله) بارك الله فى شبابك ياكوستاروس .. هلا احضرت لنا ابريقا صغيرا من النبيذ حتى نفرغه ؟.. وبينما كنت اتكلم ، لاح قادما من اتجاه الجبل جورجيس الخنزير (رحمه الله) ـ وكان اسمه ملائما له ـ وكان ابى بالمعمودية ومالكا لقطعان عديدة من الماشية وكان يحمل فوق كتفه كبشا مذبوحا ، وكانت زوجته انجيليكو ذات العيون السود (رحمها الله) تسير خلفه وهى تحمل بين يديها الجبن الطرى ، وصاح الجميع : مرحى .. لقد وجدنا شيئا طيبا نأكله ، ثم انفجروا جميعا (يرحمهم الله) بالضحك .. وسمع ضحكاتنا فى تلك اللحظات مانيلاوس المدرس (سامحه الله) والذى كان يمر قريبا من المكان ، ففتح الباب ودخل ، وقلنا له : اجلس وانظر فى اوراقك وكراريسك ريثما نأكل نحن ونشرب ، فاجاب يقول : الى الشيطان مهنة التدريس ، لسوف اكل واشرب

معكم ولسوف ارسل فى طلب (مالياريو) الزجال حتى يمتعنا بازجاله وبقفزة واحدة اصبح خارج البيت ليبحث عن مالياريو (رحمه الله) وقيثارته ، بالاضافة الى اندروليس من سفاكيا (رحمه الله) الذى كانت الحجارة تهتز حين يرفع عقيرته بالغناء .. اه .. يرحمهم الله جميعا .. ماذا بقى من شفاههم وحلوقهم وايديهم ؟..

ونهضت واقفا ، واخذت الأنبوب الذى كنت استخدمه فى ملء دنان النبيذ ، وادخلته فى فوهة احد الدنان ، وصحت قائلا : ايتها الوحوش المفترسة وماذا تضير الاكواب؟.. وهل تشرب الثيران من الأكواب ؟.. سوف نشرب من الدن مباشرة ـ كل واحد منا يجذب نفسا .. وانت الذى ستبدأ يا كابتن ليابيس .. فانت اكبر سنا ولم اكمل عبارتى حتى كان هو قد امسك بالانبوب وبدأ يشفط النبيذ الذى اخذ يكركر داخل الدن مثل النرجيلة ، وظل رحمه الله يشرب ويشرب ـ وبدأنا نخشى ان يشرب الدن كله ، فجذبنا الانبوب من يده وبدأ كل منهم (يرحمهم الله جميعا) يأخذ دوره .. وانا ايضا .. والحمد لله ..

وما كان اروعه من عيد .. وكم اكلوا وشربوا يرحمهم الله جميعا .. وكم ملأوا ايديهم بالجبن وبينما نشرب ونأكل الجبن ، كان الكبش يشوى وامسك ليابيس (رحمه الله) بالأنبوب من جديد بينما جاء صوت من الخارج يبدو انكم تستمتعون بوقتكم ايها الاصدقاء ، وكان صوت الاب نيختاريس (رحمه الله) ومعه رئيس دير السيدة العذراء (رحمه الله) وكان كلاهما اشبه بالاسفنجة من كثرة ماشربا ، وبدءا يرقصان فى الفناء ويرفعان ارجلهما عاليا ويجأران بغناء اللحن الجنائزى : تعال الى التحية الاخيرة .. وفى كل مرة يصلان الى كلمة التحية الاخيرة .. كانا يقبلان الانبوب ويجذبان النبيذ فى شفطة من داخل الدن حيث كانت تكركر اخر قطراته ، رحمهم الله جميعا .. ما اكثر ماضحكوا وغنوا وسخروا من الموت وهم يصيحون : ثبتوا اقدامكم جيدا فوق الارض التى سوف تأكلنا يوما ما .. ويثبتون اقدامهم فى قوة فوق الارض ـ عارية او تنتعل حذاء ، وقد رفعوا سراويلهم الى اعلى فبدت سيقانهم ، واى عظام .. بل اى ثيران .. واى شعر فوقها ـ كأنه الشوك حقا ..

ثم سكت الجد .. وامسك بلحيته واستغرق فى التفكير وعيناه الصافيتان تحدقان فى الفضاء وكأنما تسترجعان كل تلك الصور .. واحس الشاب ذو المعطف الطويل بشىء من الفزع وهو ينصت الى الكريتى الاشيب الذى ملأ الفناء بالراحلين .. حتى لكأنه يسمع الآن وقع اقدامهم فوق الارض ويرى اجسادهم ووقفت النسوة على مقربة يبتسمن ، بينما ثاراساكى يضرب الارض فى سعادة بقدمه الصغيرة .. ويضحك متحديا ملك الموت .. اما بيترودولوس المسكين ، والذى كان قد انضم اليهم ليتطلع فى اعجاب الى الفوستانيللا .. فقد انسحب الى الداخل بمجرد ان تجسدت امام مخيلته صور الراحلين ..

وعاد الجد يتكلم وقد اغرورقت عيناه بالدموع ..

لقد بدأت حديثى ضاحكا .. ولكننى الان ـ وبعد ان تذكرت كل هؤلاء الذين طوتهم الارض ـ احس بالحزن .. لا .. ليس الحزن ، بل الغضب نعم ، الغضب .. هناك شىء ما غير صحيح فى هذه الدنيا ، ان الله اكمل كل شىء صنعا فيما عدا هذا الشىء ـ سامحنى الله سبحانه .. هناك رجال لاينبغى ابدا ان يموتوا .. لماذا لا تموت الجبال ؟ هؤلاء ايضا ينبغى الا يموتوا ، بل ينبغى ان يظلوا فوق الارض كأعمدة تسند السماوات وهاانذا .. هاانذا اثبت اقدامى فوقك ايتها الارض الملعونة .. فلتبتلعى من تشائين من الحمقى والمقعدين والخبثاء .. ابتلعتهم جميعا .. تخلصى منهم جميعا .. ولكن .. ما كان ينبغى ابدا ان تفعلى ذلك بالكابتن ليابيس .. وبكاستانياس وبرئيس دير السيدة العذراء .. وبولدى الاكبر كوستاروس ..

وضرب الجد الارض بقدمه .. وانحدرت دمعتان ثقيلتان من عينيه ..

وصاح ثاراساكى وهو يمسك بيده :

ـ هيا يا جدى .. المائدة جاهزة ، واليونانى جائع ..

ونظر الجد الى حفيده واحس بيديه الباردتين الصغيرتين فوق يده البارزة العظام واصابعه الملتهبة .. فعاد مرة اخرى الى رحاب الله ..

ـ سامحونى يا اولادى : كنت اتذكر الراحلين .. ففقدت احتمالى .. ولكن .. نحن مازلنا احياء . فالى الامام اذن .. الى المائدة .. كل الاحياء ..

وبهذه الكلمات ، جلس فوق الارض وجذب المائدة لتكون بينه وبين الشاب اليونانى ، واجلس ثاراساكى بالقرب منه ، ثم قال وهو يملأ طبق الضيف بالطعام :

مرحبا بك .. باركنا الله جميعا وقرب مابيننا ..

وفى تلك الاثناء كان فيندوسوس وجماعته يقتربون من الشاطىء ، وبدأ نسيم البحر يضرب وجوههم فتتطاير معه ذؤابات عصابات رءوسهم ، وكانت الفرحة كأنما قد اعطتهم اجنحة يطيرن بها : هاهم اولا ، سوف ينزلون السلاح من السفينة ، ويثقلون ظهور بغالهم بالمؤن ليغذوا بها جميعا ثورتهم ، وكل هذا الذى سوف يفرغونه هو ملك خالص لهم ارسلته اليونان من اجلهم ، ومع ذلك ـ فهل هناك غضاضة فى ان يتلقى المرء شيئا مافى امان ، ليتقاسمه مع الاخرين فى عدالة وانصاف ؟ وما الذى يفعلونه مع الزوجات ؟.. ان الاباء يتفقون .. فتتهيأ العروس ، وتبسط الموائد .. ولكن ذلك لايمنع من السرقة .. ان العريس ليقتحم المكان ممتطيا صهوة جواده ويختطف عروسه التى تتظاهر بالمقاومة ، ثم هو يحملها امامه ويندفع هاربا بها كالسهم وهو يطلق الرصاص فى كل اتجاه .. ويصرخ عاليا . وينطلق الى بيته ..

وكانت سفينة القراصنة مياوليس التى قادها الكابتن ستيفانيس قد قررت ان تخدع دوريات الحراسة التركية وسط الظلام ، ونجحت فى ذلك .. والقت مراسيها فى مرسى اجابيلاجا الصغير المعزول وتحت صخوره الضخمة ، وكان البحر هادئا ، ولم تنتبه القرى المجاورة الى ان هناك سفينة محملة قد القت مراسيها هناك على الشاطىء ، وبالتالى فان الكابتن ستيفانيس وجد امامه الوقت الكافى لكى يفرغ حمولته بلا مضايقات ، وان ينشرها فوق الصخور ..

وكانت الشمس خريفية فى ذلك اليوم ، واخذت الطيور تحلق فوق السفينة او تنتشر فوق الصخور وتنظر .. وكان الكابتن ستيفانيس قد نزل

الى الشاطىء يتعثر فوق حنايا الصخور وقد حمل معه تمثال القديس نيكولاس .. ووضعه فوق الصخور ووجهه الى السفينة .. يتشمس .. وفى نفس الوقت ، يراقب ويحرس ..

وصاح فى البحارة :

- هيا يا اولادى ، لا تدعوا فرصة للاتراك كى يمسكوا بنا ، ولا تدعوا للمسيحيين ايضا فرصة لينتبهوا الينا ويعطلونا .. والحق اقول : انى اخاف منهم اكثر مما اخاف من الاتراك ، واسرعوا اذن يا اولادى .. ان فرسان الكابتن ميخايليس سوف يجيئون ايا كان مكانه هو ..

وصاح « ناضورجى » السفينة الصبى ، والذى كان قد تسلق الصارى الى قمته ، وهو يشير الى عشيرة من الفرسان يهبطون التل فوق ظهور البغال :

- هاهم قد وصلوا ..

واستدار الكابتن ستيفانيس واستطاع ان يلمح فيندوسوس على رأس القادمين .. فصاح وهو يضحك :

واجابه فينوسوس وهو يقفز من فوق ظهر البغل الى الأرض ويحتضن الكابتن :

- ذلك قدرى .. لقد وصلت فى الوقت المناسب تماما ، لم يعد لدينا بارود .. كما ان الجوع بدأ يقلقنا .. مرحبا بك الف مرة يا كابتن ستيفانيس ..

ولكن البحار كان فى عجلة من امره :

- ساعدونا اذن على تفريغ الحمولة .. وحتى نستطيع الاقلاع بمجرد ان يهبط الليل .. لقد امسكوا بى مرة .. وهى تكفى .. هيا .. تصور انك تسرق السفينة حتى تحس بالمتعة ..

وامسك به فيندوسوس من ذراعه وانتحى به جانبا وقال فى صوت منخفض

ـ الكابتن ميخايليس يحييك .. واذا كانت لديك اية رسالة ..

وقال الكابتن ستيفانيس وهو يحك رأسه :

ـ اية رسالة ؟

ـ ثق بى ، فلا احد سيعرف بمضمونها سوى الكابتن ميخايليس ..

وانحنى الكابتن ستيفانيس ، والتقط حصاة كبيرة طوح بها الى البحر .. ثم اتبعها باخرى دون ان يتكلم .. واخيرا واتته الشجاعة فقال :

ـ فيندوسوس .. انت عازف جيد ، ولكنى ـ واغفر لى ما سأقوله ـ لا اثق بلسانك هذا الصغير فبمجرد ان تشرب ..

وتنهد فيندوسوس ..

ـ واين ترانى اجد هذا الشراب ؟ لا تقلق ..

ونظر اليه الكابتن ستيفانيس فاحصا .. لقد لوحته الشمس .. واصبح جسده اكثر صلابة واختفى ذلك الدهن فى عنقه وخديه ، واصبحت عيناه اكثر بريقا .. بشىء اخر غير الخمر ..

وقال ستيفانيس فى صوت منخفض ..

ـ فاعرنى اذن سمعك يا « فيندوسوس » وانقل الى الكابتن ميخايليس كلماتى بحذافيرها .. هل تفهم ؟ لاتنقص منها ولا تزد عليها ..

ـ لست محتاجا الى ان تؤكد على ذلك .. تكلم ..

ـ لست لدى انباء طيبة ابعث بها اليه ، لقد طرقت بعض الابواب المهمة ، وتحدثت الى بعض القادة والزعماء .. وطلبت منهم ان يقولوا لى الحقيقة : هل لديهم امل فى ان تحرر كريت ، ام انهم يرون ان كل الا منا سوف تضيع ادراج الرياح ، بعضهم حدثنى حديثا غامضا فيه لف ودوران ، والبعض الاخر القى خطبا عصماء مليئة بالعبارات الطنانة التى لا

طائل من ورائها ، ولكن رجلا واحدا فحسب هو الذى تحدث الى فى امانة وشرف .. هل تحزر من يكون ؟ انه كوزماس ابن اخ الكابتن ميخايليس الذى كان قد وصل لتوه الى سيرا قادما من ارض الفرنجة لقد قال لى : يجب ان تكون شجاعا يا كابتن ستيفانيس كريت لن ترى الحرية هذه المرة ايضا ـ وسألته انا : ـ اذن فدماؤنا سوف تضيع سدى ؟ واجابنى : الدماء ابدا لا تضيع سدى ، الا تعرف ان الحرية بذرة .. وان هذه البذرة لا تنمو بالماء ، وانما بالدماء وحدها تنمو وتترعرع ، ومن ثم فاننا نبذل دماءنا الان فى مكانها تماما .. لانه من المؤكد ان هذه البذرة سوف تنمو يوما ما .. ولكن هذا اليوم لم يحن بعد .. ثم اخرج من جيبه رسالة واعطانيها وهو يقول : ابعث بها الى جدى ـ سيفاكاس العجوز ـ بواسطة رجل تثق فيه ، ولقد ارسلت اليه قبل ذلك رسالة مع شاب يونانى كان معى على ظهر السفينة ، ويستطيع الكابتن ميخايليس ان يعرف الباقى من تلك الرسالة ..

واستمع فيندوسوس وقد احنى رأسه بينما اخذ يضرب الحصى بقدمه فى عنف ، وعندما انهى الكابتن « ستيفانيس » كلماته .. انفجر يقول :

ـ فليس هناك اله اذن ؟ ما رأيك انت يا كابتن ستيفانيس ؟

ـ وما الذى يمكن ان يراه مسكين تعس مثلى ؟ اننى لا اكاد اعرف ان كان هناك حقا قديس اسمه نيكولاس .. وانت تسألنى عن الله .. ان القديس نيكولاس يكون موجودا احيانا حيث لا يطلب .. ويختفى حيث تشتد الحاجة اليه .. لقد عرفت ذلك جيدا خلال تلك السنوات الطويلة التى صارعت فيها البحر وصارعنى .. فلنكف اذن عن الحديث عن الاله ، ونرى مايحدث فحسب ..

وكان البحر قد بدأ يكتسى قتامة مع الشمس الغاربة ، وكانت السفينة قد افرغت تماما من البنادق والذخيرة والمهمات الجلدية والدقيق والسمك المملح .. ووضع ذلك كله فوق ظهور البغال .. هدية من الله الى ابناء كريت ..

وصاح الكابتن « ستيفانيس » وهو يحيى القراصنة العشرة :

ـ سوف احضر لكم مزيدا من البارود والطعام وحين هم بأن يقفز الى ظهر السفينة ، تذكر ايقونة القديس نيكولاس ..

ـ يا الهى .. لقد نسيت القديس نيكولاس ..

ثم انطلق يعرج فوق الصخور .. وحمل الايقونة وغمرها فى الماء لينعشها ، ثم قبل يدى القديس اللتين كانتا لاتزالان تقطرن بماء البحر الملح وقال :

ـ لقد احسنت فى هذه الرحلة يا نيكولاس يا قائدى .. حظا سعيدا .. ولاتخيب رجاءنا فى رحلة العودة ، واقسم لك بالبحر اننى سوف امر بان يصنعوا لك ايقونة جديدة فى جبل « آثوس » المقدس : بسراويل قصيرة وطربوش اسود وبمنظار مقرب فى يديك مثل « مياوليس » بطلة البحر .. ان مياوليس ونيكولاس واحد ـ ذلك هو الأضمن ..

ثم قفز الى ظهر السفينة ، كانت السحب تتجمع فى السماء : والظلام بدأ يلف الكون .. والنسمات تهب من البر .. والمد يرتفع .. والتقط الكابتن ستيفانيس منظاره المقرب .. ورأى كل شىء على مايرام ، فرسم علامة الصليب وقال :

ـ باسم الله .. ارفعوا الخطاف يا اولادى .. ايها القديس نيكولاس .. لقد بدأنا الرحلة .. بعد ان اكل الشاب اليونانى وشرب ، استند الى الباب واخلد الى النوم .. كان البحر الهائج قد قلب معدته فقد كانت تلك اول مرة يهبط فيها جبال بيندوس ويسافر على ظهر سفينة ، ولقد ذابت شجاعته البطولية عندما تلوث معطفه الطويل ، وحتى هذه اللحظة ، كان لايزال يحس كما لو ان الارض تتأرجح تحت قدميه وكأنها ظهر تلك السفينة ، ولم يحس بشىء من الراحة الا عندما شم رائحة روث الخيل .. وكان على الراعى العجوز « شاريديموس » ان يأخذه فى الصباح الباكر الى قلعة الكابتن ميخايليس .. وهو الان يستسلم للنوم وقد احس بالامان ..

وعندما سمع الجد شخير الشاب اليونانى اشار الى « ثاراساكى »

وجلس معه تحت شجرة الليمون العجوز فى منتصف الفناء ، وكانت النسوة قد انهين الخبيز ودلفن الى داخل البيت فساد السكون الفناء ، واصبحت الفرصة مواتية لقراءة الخطاب ، وكان الجد يتوقع انباء سيئة ، لان حفيده « كوزماس » عوده الا يكتب اليه الا اذا كان ثمة شىء مهم .. واخرج الجد الخطاب وفتح المظروف وقال :

ـ هيا يا ثاراساكى اقرأه ببطء ، كلمة .. كلمة ، حتى افهم ..

وكانت الكتابة واضحة .. وبدأ ثاراساكى يقرأ دون اضطراب او تعثر :

ايها الجد المعظم ، لقد عدت الى الأرض المقدسة ، وقد اصل قريبا الى كريت ، واقبل يديك الكريمتين ..

وغمغم العجوز وهو يهز لحيته الكثيفة البيضاء :

ـ انه يجيد المراهنة .. ولكن اى صنف من الرسائل هذه الرسالة ؟ انه لايبدأها سائلا عن صحتنا .. حسن .. اكمل يا ثاراساكى ..

ـ ولكن ، قبل ان اسعد بهذا ، اجد نفسى مضطرا الى ان اكتب لك هذه الرسالة التى ارجو ـ بعد ان تقرأها مباشرة ـ ان تبعث بها الى عمى الكابتن ميخايليس ، فقد سمعت انه رفع لواءه .. وانه عاد يحارب فى الجبال ضد الاتراك ، ولعله من المناسب ان يعرف كيف تجرى الامور حتى ينجلى كل شىء امامه .. وبعدها .. فليفعل مايلهمه الله به ..

ـ غزل طويل .. استمر .. ولكن ببطء ياثاراساكى .. هذا كلام شاب طيب ..

ـ وهكذا .. فانه لا امل ينبغى ان نعول عليه بالنسبة لليونان ، انها هى ايضا ضعيفة .. بلد مسكين متسول بلا اسطول .. والاشد مرارة من ذلك ـ بلا ادنى دعم من الافرنج . ان كريت لقمة طيبة .. والقوى العالمية يهمها ان تبقى فى طبق السلطان ، فاذا دالت دولة هذا السلطان .. واصبحت تركته نهب التقسيم .. فان كل قوة من هذه القوى تأمل فى ان تكون كريت

من نصيبها .. وان لم يحدث ذلك .. وتوحدت كريت واليونان ، فانه لا الله ولا الشيطان بقادرين على ان يفصلا بينهما مرة اخرى ..

وقال العجوز وهو يئن :

ـ اوه .. حفيدى هذا قد تعلم كثيرا .. استمر ..

ـ فلتدرك اذن .. ان كريت .. محكوم عليها بان تفشل هذه المرة ايضا .. اننا نستطيع ان ننجح عن طريق شىء واحد فقط : ان نبدأ فى العمل على ان يمنحنا السلطان مزيدا من الحقوق .. وقد يكون هذا مجرد عظمة .. ولكنها على اية حال تحمل فوقها بعض اللحم .. فلنمضغها الان حتى تجىء اللحظة المناسبة ..

ـ اه .. اصبحنا كلابا .. والناس يرمون الينا بالعظام .. استمر ..

ـ لقد تحدثت الى كثير من الرسميين سواء من الفرنجة او من اليونانيين وسوف اذهب غدا الى اثينا لمقابلة بعض كبار الشخصيات ، واذا وجدت ذلك ضروريا فسوف اجىء الى كريت لاساعد فى انقاذ مايمكن انقاذه .. ولكننى اقولها : هذه المرة ـ من سوء الحظ ـ سوف يكون القلم ابعد تأثيرا من السيف .. ان حملة السيوف قد ادوا واجبهم ومهدوا الطريق ، ولكنهم لن يدركوا الهدف .. الان اذن يؤدى حملة القلم واجبهم ـ لا تغضب منى ياجدى ..

وصاح الجد وهو يبصق :

ـ هؤلاء المتحذلقون الكتاب .. اصحاب العوينات والسراويل « المحزقة » والقبعات والارداف المنتفخة والجوارب .. اف ..

ثم بصق مرة اخرى والتفت الى ثاراساكى .. وقال :

ـ انتهى ؟.. ام ان هناك جديدا ؟

ـ جملة واحدة ياجدى : اننى اقبل يديك بوافر الاجلال والاحترام .. وارجو ان تمنحنى بركاتك .. حفيدك : كوزماس ..

واحنى الجد راسه .. كان قلبه يضطرم غضبا .. واغلق عينيه .. ورأى امامه فى وسط الفناء .. كريت : حيرى دامية .. اهذه كريت حقا ؟.. ام انها السيدة العذراء تخرج من صليب ابنها ؟ وتساقطت حبات مطر ثقيلة ..

واخيرا قال الجد :

ـ ثاراساكى .. ياصغيرى : لقد عرفت الان سرا ، وانت رجل .. فلا تفش هذا السر ..

ـ لا تقلق يا جدى .. لن يعرف به مخلوق سوانا نحن الاثنين ـ والثالث ابى ..

ـ والله رابعنا .. ذلك يكفى ..

وبينما كان الجد وحفيده يتبادلان الحديث ، ظهر « تيتيروس » عند المدخل وفى يده عصاه ، وفوق كتفه جوال .. وقد احمرت وجنتاه ، وكان الجد يجلس فوق جذور شجرة الليمون وقد بلله المطر وتألقت حباته فوق لحيته .. وبدا هو الاخر كجذع شجرة عتيقة تتلقى رخات المطر دون ان تتحرك .. وكانت يداه النحيلتان تتألقان .. وظل لحظات لا يكاد يتعرف على ولده الذى اصبح اكثر قوة .. والذى كانت الشمس قد لوحته .. ولم يعد محنى الظهر ..

وسأله وهو يرفع رأسه ليرى جيدا :

ـ اهذا انت يا « ياناكوس »؟.. لقد تغيرت والحمد لله ، الم تعد تعمل مدرسا ؟.. ادخل ..

وسأله المدرس فى بهجة :

ـ الا تعرفنى يا ابى ؟

ـ وكيف كان لى ان اعرفك ؟.. انا ايضا حاولت جاهدا ان اتعلم حروف الهجاء اللعينة هذه .. ولكنها طريق صخرى .. عذاب .. تعثرت من حرف لاخر .. ولكن لى هدفا معينا .. هه .. كيف حالك انت ؟

وضحك « تيتيروس » وهو يجذب يد ابيه ويقبلها .. وقال مداعبا :

ـ ابى .. لقد كان خطأك انت اننى اصبحت مدرسا .. هل تتذكر ؟

ـ بالطبع اتذكر .. ام انك تظن اننى قد خرفت ؟ انت لم تكن تصلح لشىء اخر .. ولكنى اقول الحق .. لقد كنت مخطئا ..

ونظر العجوز الى « تيتيروس » يمينا ويسارا وقرصه فى ذراعه .. وضغط على يده ، وازاح شفتيه عن اسنانه كما يفعلون بالماشية .. ليختبر هذه الاسنان .. وسره ما رأى فقال :

ـ اقسم ان هذا الرجل قد بدأ يصبح شيئا يسعدنى ، لقد كنت ولدى بالطبع ، وكنت شغوفا بك .. ولكن كيف اشرح لك ؟ لم تكن تسعدنى .

كنت بالنسبة لى اشبه برغوة الصابون بكل هذا الانكباب على الكتب .. وبانحناء ظهرك .. انت لم تكن تلائم اسرتنا .. ان اباءنا جميعا ارتدوا سراويل واسعة وانتعلوا احذية برقبة .. وحملوا البنادق ، اما انت فكنت ترتدى ثيابا على الطريقة الافرنجية وتضع العوينات فوق انفك وتحمل القلم « هذا الدم ـ كما ارى بدأ يذهب الى الشيطان .. انت بدأت تعود الان الى طبيعة الرجل الحق ، واحمد الله على ذلك .. ولن اكون « سيفاكاس » حقا اذا انا لم اعطك سراويل فضفاضة وحذاء برقبة وان لم اعلق على كتفك بندقية .. هل سمعت ماقلت ؟.. لماذا تضحك ؟

ـ هل انت نبى يا ابى ؟ هل تقرأ ما براسى ؟.. هذا هو بالضبط اجئت من اجله اليوم .. واقسم لك .. فلابد ان تكون لديك حلة بين ثيابك انت او ثياب واحد من ابنائك الذين قتلوا ، ولابد ان فى مخازنك بندقية .. وسوف نحرق الملابس الافرنجية هنا فى الفناء ـ سويا ، تماما كما احرقوا يهوذا ، وسوف ارتدى كما يرتدى الكريتيون ، ثم احمل البندقية على كاهلى وامضى الى الجبال ، ان لدى انا الاخر هدفا اريد تحقيقه ..

وشد الرجل العجوز على ولده ، وضمه الى صدره وهو يقول :

ـ انى اباركك .. وسوف اذبح اليوم عنزة على شرفك .. ثم نحتفل فى

المساء .. كنت اظن اننى فقدتك .. مرحبا يا ناكوس .

ونسى العجوز احزانه من خطاب حفيده ، وبدأ يفتح صناديقه القديمة .. واخرج اجمل حلة فيها : سترة مطرزة ، وسروالا فضفاضا من الصوف الثقيل .. وحزاما من التيل المطرز بالحرير ، وطربوشا تونسيا .. واختار حذاء برقبة من المقاس الصغير ، ثم اخرج بندقية من المخزن .. ووضع ذلك كله فوق احد الصناديق كيما يخرج بها ولده فى اليوم التالى وكأنه عريس فى ليلة زفافه .

وعمت البهجة البيت ، ذلك ان اشاعة كانت قد سرت مفادها ان المدرس قد وقع فى قبضة الاتراك بسبب تجواله بين القرى ، وانهم مزقوه مثل حمل عيد الفصح .. وهاهوذا سليم معافى يمزق مع ابيه عنزة صغيرة ، ويشرب النبيذ من الابريق .. والى جوارهما يقف « ثاراساكى » وهو يحس بانه صغير .. صغير .. انه لايكاد يقدر على مشاركتها الطعام .. وهو يكتفى بان ينظر فى دهشة الى المدرس .. اهذا هو نفس الرجل الذى كانوا يطلقون الرصاص تحت قدميه فيسقط على الارض وتتحطم عويناته .. اهذا هو نفس الرجل الذى كانوا يطلقون عليه فأرا فيجعله يرتعش ؟

وقال الجد :

ـ اخرج يا ثاراساكى .. الى النوم .. هناك امور احب ان اقولها لعمك .. ثم .. حذار ان تناديه بـ « مدرس » مرة اخرى .. هل تفهم ؟ هو الان ، ودائما : عمك يا ناكوس ..

وعندما اصبحا وحدهما .. وجلسا على الاريكة المنخفضة ، سأله :

ـ ما هى الحقيقة وراء هذا الذى فعلته زوجتك ؟ لماذا اشنقت نفسها ؟ هل تستطيع ان تفسر الامر ؟ لقد سألت الاخوين ، ولكن احدا لم يقنعنى ..

ـ يرحمها الله ، كانت المسكينة مريضة بالخوف .. وهربت ..

ـ لقد احسنت صنعا ، ان الامر يحتاج الى شجاعة ، ثم انها كانت تهرب

منك انت ايضا .. ولاشك ، والان ما الذى تنوى ان تفعله ؟ الن تتزوج مرة ثانية ؟ الن تنجب لى حفيدا صغيرا ؟ اخر احفادى ؟ لابد ان تتعجل ذلك فان ايامى فى هذه الحياة معدودة ..

واشرق وجه المدرس وهو يقول :

ـ اى معجزة يا ابى .. كلما اقتربت من الموت اصبحت اقرب الى الخلود ، نعم ، فانت قد اكتشفت الهدف الثانى الذى جاء بى الى هنا ..

ـ حسن .. فقل لى اذن يا ناكوس .. هل ثمة فتاة قد سحرت عينيك ؟..

ـ نعم يا ابى ، ارجو ان تباركنى ..

ـ من تكون بحق القديس اونوفريوس ؟ هل هى ممتازة ؟ عظام قوية .. وارداف عريضة وعائلة طيبة تملك الكروم والحقول ؟ هل اسنانها كاملة .. اثنتان وثلاثون ؟

ـ انها ممتازة .. واسنانها كاملة .. بل اكثر من اثنتين وثلاثين ..

ـ لا .. ليس اكثر .. فذلك ليس امرا طيبا .. لانها .. هكذا يمكن ان توكيك .. ان الشىء غير الطبيعى .. هو ضد ارادة الله ، اثنتان وثلاثون تكفى .. ولكن من تكون ؟ من يكون ابوها ؟

ـ انها حفيدة الكابتن « الياس » واسمها « بيلاجا ».. وقد جئت اسالك البركة ..

ـ اه .. برافو .. ياناكوس .. انى اباركك فذلك فرع مثمر بالاولاد والاحفاد والكروم والحقول .. وهل رضيت بك ؟

ـ لقد رضيت .. وقد حدثت اباها فقال لها : سوف نسأل الرجل العجوز .. انه كبيرنا ، ثم سألوه .. وقد نظر اليهم الكابتن « الياس » فى البداية نظرة حادة وقال « مدرس .. اننى اعرفه هذا المهزول الضعيف .. ان عائلته طيبة تماما .. مثمرة .. بالاولاد والاحفاد والحقول » ـ ان ماتقوله

عن العائلة صحيح ـ حسن دعونى افكر في الامر ولكن الفتاة كانت تتعجل فتحدثت فى رقة وكسبت الجد الى جانب زواجنا فقال : حسن .. انى اباركك ، لكن بشرط واحد .. وانا اصر عليه كل الاصرار : لابد ان يخلع هذا الثوب الافرنجي ويرتدى مثلما يرتدى الرجال ..

وصفق سيفاكاس العجوز وهو يقول :

ـ رعاك الله ايها العجوز الياس .. لقد كان الامر نفسه يقلقنى ، ولكننى لم اقل شيئا . اما الان .. فالى النار هذه الثياب ، ذلك اول شيء نفعله غدا ..

ونام المدرس نوما عميقا بالقرب من الصندوق الذى تعلوه ثياب العرس .. وزارته « بيلاجا » فى احلامه فود لو ظل نائما ، ولكن الجد لم يغمض له جفن ، وظل يراقب النافذة ويترقب ضوء الفجر نافد الصبر .. حتى ارسل الله للغسق وصاح الديك الاسود .. ثم تلاه الديك الابيض .. وبدأ النهار ، وقفز العجوز ، ووكز « تيتيروس » وهو يصيح :

ـ قم .. الثياب فوق الصندوق .. عسى ان تمنحك السعادة .. وهات تلك الثياب الافرنجية الى الفناء فسوف اشعل النار .

كان يكره الفرنجة .. وبعد رسالة حفيده اليه ، اصبحت الكراهية اشد ، وهبط الدرج ، ولم تكن النساء قد استيقظن بعد ، واشعل النار ، ثم ذهب ليوقظ « ثاراساكى » وكان ينام داخل حوض كبير اشبه بالمهد ، وهزه ليوقظه :

ـ انهض ياثاراساكى ، تعال الى الفناء فسوف نحرق يهوذا .

وظهر المدرس : كريتيا من أخمص قدمه الى قمة رأسه وسط الفناء ، وصبوا فوقها البترول حتى يتخطفها الشيطان بسرعة ، وقدم الجد الى حفيده قطعة من الخشب المشتعل وهو يقول :

ـ هيا يا ولدى .. ابعث بها الى الشيطان .. الفرنجة احرقونا .. فلتكن اذن النار بالنار .. والريح بالريح ..

وامسك « ثاراساكى » بقطعة الخشب المشتعلة والقى بها فوق كومة الثياب ، فاشتعلت النار على الفور ، وود الجد لحظتها ان يرقص ، وحينما أدت النار عملها ، امسك بقبضة من الرماد ، وفتح الباب الخارجى .. ووقف فى وسط الشارع .. ورفع يده مطوحا بالرماد فى الهواء .. وصاح فى احتقار بالغ :

ـ ايها الفرنجة .. ادعو الله ان تعيش عيون اولادى او اولاد اولادى لترى اليوم التى تحترق فيه بيوتكم ومصانعكم وملوككم وقصوركم .. وتذروها الرياح مثل هذا الرماد عسى ان تحترقوا أيها الفرنجة .. كما احرقتمونا ..

قرب الظهيرة ، وصل ميتروس الرجل ذو المعطف الطويل الى مقر قيادة الكابتن ميخايليس ، وقد تصبب عرقا من تسلق الجبل ، وعلى قمة اعلى هضبة فى الجبل ثمة قرابة المائة محارب يتجمعون فى بضعة اكواخ من الحجارة .. واسفل منهم بعيدا فى الوادى المحفوف بالجبال .. كانت القرى تبدو وكأنها قطعان من الخراف البيضاء ، وكان ثمة اثنتان منها تحترقان ، والدخان يغطيهما وسط السكون وكأنه سحابات صديقة تبسط عليهما الحماية ..

وكان الكابتن « ميخايليس » يقف ممسكا بمنظار ميدان اعطاه اياه احد الفرنجة المتعاطفين مع اليونانيين .. كان قد صعد الجبل قبل شهر ولم يطاوعه قلبه بعد ذلك على مغادرته ، وقال للكابتن ميخايليس : « والى اين اذهب ؟ لماذا اعود الى المدن مرة اخرى ؟ اننى احببت هذا المكان .. لقد اكلت فيه طعاما افضل .. وشربت ماء خالدا .. ورأيت رجالا كهؤلاء اليونانيين القدماء .. انا لن ادعوك بالكابتن ميخايليس ، ولكننى سأسميك .. اخيل .. وانا ادعى ايريكوس .. وكان يضع فوق رأسه قبعة تشبه خوذة من الخوذات القديمة .. ويملأ جيوبه بالاوراق والاقلام ، ويثير النقاش والحوار مع الكريتيين برطانته اليونانية الحديثة .. ويدون الملاحظات طوال الوقت .. وكان الكريتيون يضحكون ويقول قائلهم : انه فشار ويقول اخر انه يكتب للصحف .. ويسألونه : انت يا مدنى .. ماذا

تراك تفعل فى كريت بدون سلاح ؟ اين بندقيتك ؟.. وكان هو يشير الى قلمه ويقول : هاهى ..

وكانت لحيته شقراء مدببة ، واثنتان من اسنانه الامامية من الذهب ووجنتاه موردتين ، وثمة ذؤابة نافرة من شعره مثل عرف الديك وعندما كان الكريتيون يسمعون اسمه ـ اريكوس ـ كانوا يتذكرون الذؤابة من الشعر فيقلبون اسمه الى كوكوريكوس ..

وفى يوم من الايام خاض فرسان الكابتن ميخاليس معركة مع بعض الجنود الاتراك .. وهبط هو معهم الى السهل بدون سلاح .. وهو يصيح مشجعا .. الى الامام يا اخيل .. وظل واقفا طوال الوقت يكتب ملاحظاته فى انفعال .. وفجأة اندفع نحوه كريتى متوحش كان شديد الاعجاب به ، وهو يحمل رأس تركى يمسك به من شعره ويقدمه هدية له .. وكانت الدماء لاتزال تنزف من الرأس .. وما ان نظر كوكوريكوس الى الرأس حتى صرخ صرخة عالية وارتمى على الأرض مغشيا عليه .. وضحك الكريتيون ياله من رجل محشو قطنا ، ثم ألقوا ماء فوق وجهه ليفيق من اغماءته ، وعندما رأى الكابتن ميخاليس ذلك المشهد ، صاح فى غضب هل تظنون ان الرجال كلهم كريتيون ؟ كفوا ، ثم استدار الى فوروجاتوس وقال : خذ هذا المسكين تحت الحراسة وعاونه على تسلق الجبل ..

واصابت الحمى كوكوريكوس منذ ذلك اليوم ، وشحب لونه .. ولم يعد يستطيع تذوق اللحم وبدأت تراوده الاحلام المزعجة .. وبدت الحياة مع اليونانيين القدامى .. قاسية بالنسبة اليه ، فقرر ان يعود ادراجه .. وفى صباح يوم شاحب ممطر ، ودع الكابتن ميخاليس :

هؤلاء اليونانيون القدامى .. رائعون حقا يا كابتن اخيل ، ولكن من العسير ان يحيا المرء حياتهم ، اننى استاذ ـ مدرس ـ رجل طيب ، ولكنه من ورق .. اما انتم فمن لحم ودم ، وليس فى مقدورى ان اجاريكم ، الى اللقاء ، وخذ هذه لتتذكرنى ..

ورفع المنظار من حول عنقه واعطاه للكابتن ميخاليس وهو يقول :

ـ انت فارس ، وانت القائد .. ويجب ان ترى ابعد مما يراه فرسانك ..

وهكذا .. يقف الكابتن ميخايليس ممسكا بالمنظار يفحص السهل ، وبدا كما لو كانت هناك تحركات لطرابيش حمراء خلف سحابات الدخان فوق القرى المحترقة .. لابد ان فصائل تركية جديدة قد جاءت من ميجالو كاسترو ، ولابد انها تهيىء نفسها الان لمهاجمة المرتفعات .. وغمغم الكابتن : هؤلاء الكلاب لايضيعون الوقت .. ان موقعنا محدود ، وعددنا قليل ، ومازلنا ننتظر الكابتن بوليكسيجيس .. لابد ان ابعث اليه برسالة جديدة ..

وعندما انزل المنظار ، واوشك ان يسأل عما اذا كان فيندوسوس قد عاد من الشاطىء وقع بصره على ميتروس يرتدى الفوستانيلا ويحيى .. وفى يده الرسالة :

– تحياتى يا كابتن .. انا رسول من طرف سفينة الكابتن ستيفانيس ..

وقال الكابتن ميخايليس وهو يشد على يده محييا :

مرحبا بك ، اذهب وانضم الى الفرسان ريثما اقرأ الرسالة ..

ثم مزق المظروف فى لهفة ، ووجد بداخله رسالة مفتوحة وقطعة صغيرة من الورق تعرف فيها على خط ابنه « ثاراساكى » فاضاء وجهه الجامد للحظة :

انا – ثاراساكى – ابعث بتحياتى ، واكتب ايضا ما طلب جدى ان انقله اليك ، اقرأ الرسالة وافعل ما يلهمك به الله ان تفعله .. ليس هناك ثمة امل لنا ، فنحن فى هذه المرة ايضا نحرث فى البحر ، فاجعل قلبك دليلك .. واتخذ انت قرارك ..

وزوى ما بين حاجبيه .. وشد شفته السفلى حتى بدت نواجذ الدب ، ودمدم قائلا لنفسه : الله يمنع ، يجب ان اجعل قلبى دليلى ، لسوف ينفجر العالم ويتطاير الى السماء ..

ثم فض رسالة ابن اخيه ، وبدأ يقرأها مقطعا مقطعا .. ويقفز من كلمة الى كلمة وكأنه يتسلق جبلا .. ويتمهل مرة .. ويدمدم اخرى ، حتى اذا وصل الى نهايتها ، مزقها الى الف قطعة واشعل فيها النار ، وقال وهو يطأ الرماد بقدمه :

ـ انا وحدى الذى ينبغى ان يعلم بمضمونها .. ولا احد غيرى ..

لا امل اذن .. الوطن الام ضعيف ، والفرنجة غدارون .. وابناء كريت قليلون .. كلا وبرغم كل شىء ، فلن اتزحزح عن موقعى ، لن اتخلى عن المكان الذى انسحبت اليه .. انه لايكفى ان يتخلى الله عنى ثم يأمرنى بان اتخلى .. ابدا .. لن اتخلى ..

ثم امسك بالمنظار مرة اخرى ونظر من خلاله ورأى مزيدا من النقط الحمراء تتحرك عبر السهل .. ورأى مزيدا من فصائل الجند تملأ الوديان الضيقة .. كان الباشا قد اقسم ان يسحق عصابة الكابتن ميخايليس فى ذات وكر النسر الذى تشبثت فيه بمخالبها ، وكان الكريتيون المرهقون الجرحى يخلدون الى السكينة شيئا فشيئا الا من طلقات متناثرة تسمع هنا وهناك والا من افراد ركبوا رءوسهم واعتصموا بالجبال ورفضوا الاخلاد للطاعة ، وكان السلطن غاضبا : وارسل الى الباشا سفينة محملة بالقيود والسلاسل وامره بان يقبض على هؤلاء الكريتيين ويرسلهم فى الاغلال الى القسطنطينية .. فاذا لم يفعل ، فعليه ان يقيد نفسه هو ويحضر اليه بشخصه ..

واثار الامر الدماء فى عروق الباشا ، واحس بان قبعته لم تعد ثابتة فوق رأسه ، فقرر ان يتخلى الى حين عن حياته المطمئنة فى ميجالو كاسترو وان يخرج بنفسه على رأس جنوده فى طلب الكابتن ميخايليس .. وتناهت الاخبار الى المطران ، فبعث برسالة سرية الى الكابتن .. اهرب .. استقل سفينة واهرب .. ان الباشا قد اقسم على ان ينالك .. ولكن الكابتن ميخايليس قال فى تحد لن اهرب ، ان هناك ذنبا ثقيلا حول عنقى ، هناك دير قد احترق ويحرق قلبى ليل نهار ، ولابد ان ادفع الثمن ولن اغادر هذا المكان حتى لو غادره الجميع ، وافضل لى ان اسكب البترول فوق ثيابى فاحترق كما احترقت انت يادير السيد المسيح ..

ظل يمسح السهل بمنظاره ، ويرى مزيدا من القرى تحترق ، فعاد يغمغم : لقد اخر الكابتن بوليكسيجيس .. ولكنه سوف يأتى .. لقد وعد بان يأتى .. انها الحرب .. وانا اثق فى الحرب ..

كان يحس بان الصداقة القديمة تعود منذ تلك اللحظة الرهيبة التى غرس فيها خنجره فى قلب المرأة الشركسية ، وبأنه اصبح يفكر فى الكابتن بوليكسيجيس بلا شعور بالعداء .. وانما بالود .. كانت اصداء ماحدث تملأ القرى .. ولقد منعه الاصدقاء من ان يقتل نفسه حزنا ، وكان قد ارتدى السواد من قمة رأسه الى اخمص قدميه ، وحيثما كان قتال ، فقد كان يقذف بنفسه فوق الاتراك فى اندفاع اعمى وكأنه يطلب الموت .. كان مقتنعا بان الاتراك هم الذين قتلوها ليمنعوها من التنصر ، واقسم ان يبنى فوق قبرها برجا من جثثهم .

وفجأة ، تناهت الى الكابتن ميخايليس اصوات .. ووقع حوافر بغال .. وبدأ يقفز فى سعادة من صخرة الى صخرة حتى وصل الى الهضبة فى اللحظة التى وصل فيها فيندوسوس اليها ومعه الفرسان العشرة المثقلون باحمالهم واشعل بعضهم النار على الفور .. فقد امضوا اياما بطولها بالخبز الجاف وحده واشتاقوا الى اللحم الساخن ، وانبرى البعض الاخر يحملون المؤن وينقلونها الى كوخ قائدهم ، وصاح فيندوسوس وهو يطلق غدارته فى الهواء : شكرا لك يا امنا .. شكرا لامنا المتسولة التي ترسل الطعام وهى ذاتها جائعة ..

وصاح الكابتن :

ـ فيندوسوس ، لاتضيع الطلقات سدى ، تعال هنا ، اريد ان تفعل شيئا ..

واتجه اليه عازف القيثارة ، وانصت فى اهتمام الى كل ما قاله ، ثم تهيأ لتنفيذ ما طلبه منه ..

ـ هل فهمت يا فيندوسوس ؟ الامر كما ترى عاجل ، وخذ حذرك حتى لا يقتلوك وانت فى طريقك الى هناك .. اما فى طريق عودتك فالامر لايهم ..

وقال فيندوسوس ضاحكا :

ـ لن امنحك هذه السعادة ياكابتن .. ولو حتى فى طريق عودتى .. وبحق

العذراء .. وبحق الكروم .. لاتزال بى رغبة فى الشراب .. ولسوف اشرب ..

ثم يمم شطر الوادى ، ولكن فوروجاتوس امسك به من سرواله حين مر به وصاح :

- فيندوسوس يا اخى ، هل رأيت صديقى بيترودولوس ؟ ماذا يفعل المسكين الان ؟ اتصدق اننى افكر فيه اكثر مما افكر فى زوجتى ؟ شىء عجيب .. اليس كذلك ..

- انه بخير ، فلا تقلق ، لقد رأيته عند سيفاكاس العجوز ، انه باق مع النساء ، وسوف يرتدى جونلة عن قريب ..

- وماذا عن صحبة الشراب فى قبو بيت الكابتن ميخايليس يا فيندوسوس ؟ او احلم بهم فحسب ؟

ولكن فيندوسوس كان قد ابتعد .. ولم يسمعه ..

امسك سيفاكاس العجوز بالطباشير باقصى قدر مستطاع من الرقة حتى لاينكسر ، وقد انحنى فوق اللوح .. وهو يخط الحروف فى لهفة وقلق .. حرفا بعد حرف .. كان يحس فى الايام القليلة الماضية بضعف غريب ، وكأن قواه قد بدأت تخور .. وكأنما يقترب حثيثا من الارض .. كان لون وجهه قد شحب ، ولم يعد يستطيع النوم .. وبدأت ركبتاه ترتعشان .. وبدأ يقول لنفسه :

ينبغى ان اسرع اذا كنت اريد حقا ان اتعلم .. واخذ يبذل جهدا فائقا ليحرك يده فوق اللوح .. واستطاع - بالرغم من كل شىء - ان يكتب حروفا واضحة .. وكان يقول لمدرسه ثاراساكى الذى كان يستحثه :

لا تهمنى الحروف الصغيرة .. استطيع ان اكتب حروفا كبيرة ..

وجلس الاثنان الى مدخل البيت ، وقال العجوز :

- اليوم يا ثاراساكى .. لن تعنفنى : ان الدرس اصبح ملك اصابعى .. انظر ..

وملأ اللوح بالحروف .. وقال فى فخر :

ـ كل حروف الهجاء .. من الالف الى الياء ..

ـ مرحى .. مرحى ياجدى .. اليوم تحصل على الدرجة النهائية .. كيف استطعت ان تفعل هذا فجأة ؟

ـ لان الوقت يمر بسرعة يا ثاراساكى وكان لابد ان افعل .. لقد حان الوقت ياثاراساكى اسمع .. سوف احكى لك سرى .. هل تظن اننى اريد ان اتعلم وانا فى هذه السن .. لكى اقرأ؟.. ولماذا اقرأ .. لماذا ، وقد بلغت من العمر مائة عام ؟ اننى عرف كل شىء .. ولا اعرف شيئا ..

ـ فماذا تريد اذن ياجدى ؟

ـ اريد ان اكتب شيئا واحدا فحسب .. قبل ان أموت .

ـ وماهو هذا الشىء ياجدى ؟

ـ حكمة كريتية ، ضع يدك فوق يدى لتساعدنى .. ثلاث كلمات فحسب ..

ثم همس قائلا : الحرية او الموت ..

وصاح ثاراساكى :

ـ مرحى .. الان فهمت ..

ـ انت لم تفهم بعد يا ثاراساكى ، لا تكن عجولا .. ساعدنى ..

وامسك الطفل بكلتا يديه .. يد الجد المعروقة ، وبدأ يعاونه فى بط وصبر .. حتى ظهرت على اللوح بحروف كبيرة .. كلمات :

الحرية .. او الموت ..

• الفصل الثاني عشر

كانت الريح الباردة تهب من قمم الجبال التى كستها الثلوج ، وتجمدت كريت ، وعلى صخور « سيلينا » اسفل معسكر الكابتن « ميخايليس » كان ثمة كهف كبير فاض على سعته بالنساء والأطفال ، كان الملجأ المعتاد لنساء كريت فى كل الثورات السابقة ، يحتمين به من خناجر الاتراك . وقد لجأ الاتراك اثناء ثورة ١٩١٢ الى قذف فتحته بالاغصان المحترقة حتى اختنق كل من كانوا بداخله وظلت عظامهم تلمح داخل جو الكهف الرهيب .. وبالرغم من ذلك فان النساء والاطفال يملئون الان ذات الكهف ويتمددون فوق العظام القديمة وهم يرتعشون من الجوع ومن البرد ومن خوف القتل على ايدى الاتراك فتترك عظامهم بداخله من جديد ، وكانوا يتسللون خارج الكهف خلال النهار ليجمعوا قبضة من الحشائش أو الجذور أو ثمار البلوط يعيشون عليها كالسوائم ولا يكفون عن النظر الى اعلى حيث بنى الكابتن « ميخايليس » عشة حتى يمنحوا انفسهم بعض الشجاعة : فطالما انه باق هناك يقاوم ، فهم لا يحسون بالخوف .

وكان الجنود الاتراك قد بدءوا يصعدون الجبل حتى اقتربوا من المجرى الضيق الذى يؤدى الى الكهف ، وانتبه الكابتن « ميخايليس » على صراخ النساء والاطفال وعويلهم فاندفع يهبط من وكره ، ونشبت معركة مريرة ، ووجدت بعض النساء الجرأة على ان يندفعن ليساعدن الرجال بالمدى والهراوات بينما ركع الباقون داخل الكهف .. ينتحبن ويعولن ويجأرن الى الله بالضراعة .

كان الاتراك يفوقونهم عددا ويتوالى وصولهم من السهل يوما بعد يوم تدفعهم اوامر الباشا المشاغب الذى اقسم ان يبعث برأس الكابتن

« ميخايليس » هدية الى السلطان فى القسطنطينية محنطا وملفوفا بعمامة .

وبدأ الكريتيون يترنحون .. وكانت الساعة قد اقتربت من الثانية بعد الظهر .. واطلق الاتراك صيحات الفرح التى غطت على اصوات عويل النساء .

وفجأة تدخل الله : ظهر الكابتن « بوليكسيجيس » هو ورجاله عند مؤخرة الاتراك واحدثوا الارتباك والفوضى وسط الطرابيش الحمراء التى كان بعضها قد بدأ يهرب متجها الى السهل .

واخذ القائدان يصطادان الاعداء معا على ظهر فرسيهما وهما جريحان ـ وان لم يفطنا الى ذلك وسط المذبحة ـ وفى المساء ، عاد الاثنان الى قلعتهما وضمدت جراحهما الطفيفة ، وكانا لحظتها يحسان بقسوة الجوع اكثر مما يحسان بوطأة الجراح .. وفتح الفارسان الكنز الذى وصل الى الفرسان مؤخرا صدقة من الله سبحانه : الخبز والزيتون والبصل و الجبن .

وجلس الفارسان القرفصاء جنبا الى جنب يحتفلان داخل الكوخ الصخرى الذى ارتفعت فوقه راية الكابتن « ميخايليس » بينما الريح تصفر من خلال الثقوب فى الحوائط غير المنظمة .. ودخل « ثودورس » وبين يديه حمل من خشب الحريق ، فقد احس بالاسى للرجلين الجريحين المقرورين ، فأوقد من اجلهما نارا ثم خرج وتركهما ، والتقطت اذنه بعض كلمات تحمل من المعانى الكثير ، فادرك انهما لايريدان الان احدا يقترب من المكان .

قال الكابتن « ميخايليس »:

ـ بوركت ياكابتن « بوليكسيجيس »، ان الله ارسلك فى الوقت المناسب ، فقد كان هؤلاء الكلاب يوشكون على ان يطبقوا على اعناقنا .

وكان اثناء حديثة معه ينظر اليه فى اشفاق وتأثر وهو يرتدى ثيابا سوداء ويضع حول راسه عصابة سوداء كذلك ، ويبدو شاحب الوجه قد أسن فجأة ، كان يأكل ولكن افكاره كانت تحوم بعيدا .

وقال الكابتن « ميخايليس » وهو يرفع الى فمه زجاجة :

ـ فى صحتك انت ياكابتن « ميخايليس »..

ـ فى صحتك انت ياكابتن « ميخائيليس » .. أما انا فقد انتهت صحتى .

واحس الكابتن ميخايليس بقلبه ينقبض : لا من اجل المرأة التى قتلها ، فقد كان لابد من قتلها حتى لاتفرق بين الرجلين .. ولقد هدأ قلبه من الليلة التى ارتكب فيها جريمته ، ولم يعد يحس بالمهانة وهو منفرد بنفسه ، لقد تحررت روحه من الشركسية ، واصبح يحارب الان ولاشىء فى عقله وقلبه غير كريت ولكنه كان حزينا من اجل هذا الفارس الطيب فحسب والذى كان يذوب اسى لانه فقد المرأة التى احبها .

وبدأ يتكلم :

ـ « بوليكسيجيس » لدى شىء اريد ان اقوله لك ، واغفر لى اذا قلت لك انه من العار ان يفكر المرء فى امرأة بينما كريت تسبح فى دمائها . واقول لك ـ بشرفى ـ انه لو حدث ان وقفت امرأة فى طريق ادائى لواجبى ، لقتلتها بيدى هاتين .

ورفع يده التى قتلت المرأة الشركسية ..

واجاب « بوليكسيجيس » وهو يلقى بقطعة من الخبز كان يمسك بها فى يده :

ـ كابتن « ميخايليس » .. انت وحش مفترس ، ولكننى انسان ..

واحس لحظتها كأنما انشوطة قد علقت بحلقة ، ثم استدار ينظر الى صديقه وهو يحس بلذعة برد مفاجئة .

واقترب الكابتن « ميخايليس » بدوره من النار ، وظل الاثنان لحظات يحدقان فى اللعب صامتين ، وعاد « تودورس » مرة اخرى ليضع مزيدا من الخشب ، وحين رأى الفارسين غارقين فى افكارهما ، خرج وهو يسير على اطراف اصابعه ..

وفجأة ارتفع صوت الكابتن « ميخايليس » اجوف مختنقا ، يسأل .. كأنما من مكان سحيق :

ـ هل تعرف من الذى قتلها ؟

كان يحس بانه مدفوع بالرغم منه رغبة عارمة فى ان يقامر على كل شىء .. برمية زهر واحدة او بقطعة من النقود : رسم ام كتابة .

وظل الكابتن « بوليكسيجيس » يحدق فيه طويلا ، فلم يجد القوة فى نفسه على ان يسأله : « من »؟ .. فانتظر .

وعاد « ميخايليس » يسأل :

ـ هل تعرف من الذى قتلها ؟

ـ وهل تعرف « انت »؟

ـ نعم ..

وامسك الكابتن « بوليكسيجيس » به من ذراعه :

ـ من ؟

ـ لا تتعجل . لاتثر هكذا فانت لا تستطيع ان تمس منه شعرة . انه فوق الموت ..

ـ من ؟

ـ قلت لا تتعجل .. ينبغى اولا ان افشى لك سرا ـ سرا بالغ المرارة .. فاستمع الى فى هدوء وبعدها ـ واقسم لك ـ سوف تحس بالخجل ولن تفكر مرة اخرى فى النساء او فى قتلهن .. وحتى فى نفسك انت .

وقال الاخر وعيناه تتقدان :

ـ من ؟

ـ لقد تلقيت خطابا ـ مزقته فى حينه واحرقته ـ من ابن اخى « كوزماس » ـ ان مايفعله الان ياكابتن « بوليكسيجيس » يضيع مرة اخرى هباء . وسوف تراق دماؤنا هدرا هذه المرة ايضا . لن ترى كريت الحرية ،

ان اليونان ضعيفة والفرنجة لا شرف لهم ، والسلطان يملك كل القوة .

ولكن الكابتن « بوليكسيجيس » لم يكن ينصت اليه : نهض واقفا وهو يضرب رأسه بالحائط ويصرخ :

ـ من الذى قتلها ؟ من ؟ وبعدها قل ماتشاء .

ونهض الكابتن « ميخاليليس » بدوره واقفا ونظر الى صاحبه نظرة هادئة ثابتة ، وقال :

ـ انا .. انا قتلتها ياكابتن « بوليكسيجيس » واستند « بوليكسيجيس » الى الحائط وقد اقترن حاجباه ، وقال :

ـ لا .. لا .. ذلك مستحيل .. انت ؟ .. انت ؟..

ـ كان لابد من ان اقتلها .. لقد كنت افكر فى كريت أنت محارب فذ . وتحتاج اليك .. من اجل هذا قتلتها وارتاح قلبى ولسوف يرتاح قلبك انت الاخر .. لا تتحسس خنجرك ، واذا شئت اغلقنا الباب واطفأنا المصباح وتقاتلنا هنا حتى يقتل كل منا الاخر . ولكن ، فكر فى النساء والاطفال الذين يحتمون بالكهف ، ان حياتهم امانة بين ايدينا ، وفكر ايضا فى اسلافنا .. فكر فى كريت .. ثم افعل بعد ذلك مابدا لك ..

وترنح الكابتن « بوليكسيجيس » وهو فوق الارض ودفن وجهه بين يديه واخذ صدره يعلو ويهبط فى عنف ، ولم يعد بوسعه ان يكتم دموعه اكثر مما فعل .

وعاد الكابتن « ميخاليليس » يتكلم دون ان يهتم بدموع صديقه :

ـ حين قرأت انه لا فائدة وراء مانفعله احسست كأن شيطانا ينهض بداخلى .. وبدلا من ان اترك له العنان ليضغط على ، احسست بشجاعة وحشية غير مألوفة . ذلك اذن موقفك ايتها القوى الكبرى ـ انت ترفضين ان تمنحى الحرية لكريت : العار لك .. ولكننى ـ انا الكابتن « ميخاليليس » ـ انا القنفذ الكريتى الصغير لست فى حاجة اليك .. وليتخل الله ذاته عن

كريت اذا شاء سبحانه ولكننى لن اتخلى عنها .

ولمس فى هدوء كتف الكابتن « بوليكسيجيس » وقال فى رقة :

ـ يا كابتن .. الا تخجل من نفسك ؟

وكان الاخر قد سيطر على دموعه ، وبدأت كلمات القاتل تنفذ اليه .

ـ منذ اللحظة التى فقدت فيها الامل ياكابتن « بوليكسيجيس » احسست ـ وحق هذه التربة التى نقف فوقها ـ اننى خالد : من ذا الذى يستطيع ان يمسنى بسوء ؟ ما الذى يستطيع الموت ان يفعله بى ؟ حتى لو انقض على الترك جميعا بقضهم وقضيضهم فلن ترتعش شحمة اذنى ، انى ارى نفسى الان مثل « اركادى » ان ثيابى وشعرى واحشائى اصبحت كلها مليئة بالبارود ، وحين ارى انه ليس ثمة ما افعله غير ذلك ، فسوف انسف نفسى لاتطاير ، عاليا فى السماء ، هل تفهمنى ؟

وكانت تلك هى الحقيقة ـ لم يكن بداخله الان مكان لغير الكبرياء وازدراء الخطر .. اكان ذلك شيطانا ، ام الها ، ام كان فكرة وحشية من قبل التاريخ ؟

هو ذاته لايعرف ، كل ماكان يعرفه بوضوح : انه مهما حدث ، فلن يلعن حظه او يندبه ، وانه مهما حدث ايضا فلن يتفق لا مع الشيطان ولا مع الله ولا مع السلطان .. لسوف ينسف نفسه ليتطاير جسده عاليا فى السماء .. مثل « اركادى »

ووقف الكابتن « بوليكسيجيس » وجذب عصابة الرأس فى عنف وقال وهو يحدق فى الفراغ :

ـ لا استطيع ان انام معك فى نفس المكان ياكابتن « ميخايليس » ولا اريد ايضا ان يقتل كل منا الاخر طالما ان بلدنا تحارب ولن اتخلى عنك ساعة الخطر ، ولكننا سوف نصفى حسابنا بعد ان يسود السلام كريت .. فأنت احرقت قلبى ياكابتن « ميخايليس ».

ودون ان يرمقه بنظرة ، خرج من الكوخ ، ترى ، ما الذى حدث للمسيحيين هناك فى اعلى الجبل ؟ صعدت النسوة الى السطح المستوى لينزلن اثقال الجليد الخطر الذى تجمع فوقه ، واخذن يحدقن فى الجبل .. يارب .. ترى ما الذى يحدث الان هناك ؟ .. ومدت « كاتيرينا » هى الاخرى بصرها الى القمم المكسوة بالجليد وهى تفكر فى زوجها الذى لا يعرف الخوف ..

ولكن الشمس كانت ساطعة فى ذلك اليوم .. وكانت السماء بالغة الزرقة والهواء باردا .. وكان الجد يجلس داخل البيت امام الموقد وهو يحدق فى اللهب فى صمت .. كان قد امتنع عن الكلام طيلة بضعة ايام : انه يزداد شحوبا يوما بعد يوم .. ويظل غارقا فى افكاره القاتمة ..

وعندما دخل « ثاراساكى » . نهض الجد واقفا .. لقد احضروا بناء على اوامره علبة من الطلاء الاحمر وفرشاة من « كاستيللى » وقال الجد :

- خذ الطلاء يا ولدى وهيا بنا ، وهات الفرشاة معى ..

- الى اين ياجدى ؟

- سوف تعرف حالا .. اسرع وللننتهز فرصة هطول الثلج .

ووصلا الى الباب المؤدى الى الشارع فتوقف الاثنان وهما يحدقان فى القرية التى تستقر كالجسد الميت بكسوة الثلج المنتظم الذى يجعل كل شىء رغم ذلك جميلا ، ولم يقدر لثاراساكى لحظتها المزيد من الاستمتاع بهذا المشهد الجديد للقرية ، فقد اخرج الجد من حزامه منديلا كبيرا متعدد الالوان وبدأ يمسح به الباب ويزيل من فوقه الثلج ، ثم رفع غطاء العلبة وغمس الفرشاة بداخلها وهو يغمغم قائلا :

- « باسم الله »..

- ماذا تفعل ياجدى ؟

- سوف ترى ..

ثم رفع الفرشاة وبدأ يرسم حروفا فوق الباب باللون الاحمر ، فى اناة وعناية ، بدأ بحروف (ح) ثم (ر) ، ثم (ى)..

وصاح ثاراساكى ..

ـ اه .. فهمت ..

وضحك الجد :

ـ ها انت تعرف الان لماذا تجشمت عناء تعلم الكتابة ، لقد كان ثمة هدف احققه .. سوف اخرج الان الى القرية كلها فلا ادع جدارا دون ان اكتب فوقه « الحرية او الموت » .. حتى برج الكنيسة ومئذنة المسجد .

وكان يبتعد برأسه قليلا بعد كل حرف يكتبه ، ثم يتطلع فى اعجاب الى عمله ، دون ان يستطيع ادراك السر الذى يمكن المرء من ان يضرب بالفرشاة خطوطا ومنحنيات ثم يجعل منها فى النهاية صوتا مسموعا ـ بل جوقة ترتل : كيف يمكن لهذه الرموز ان تتكلم ؟ .. ما اعظمك يا الهى ..

وهكذا تكلم الان باب بيته .. وظل لحظة يتأمله فى اعجاب .. ثم سأل فى قلق :

ـ هل احسنت يا « ثاراساكى »؟ أليس ثمة خطأ ؟

وقال الحفيد ضاحكا :

ـ اننى امنحك الدرجة النهائية يا جدى .. رائع ..

ـ فهلم اذن ..

وعند ركن الشارع ، كان ثمة حائط لا يكسوه الثلج ، ومس الجد الفرشاة مرة اخرى وظل يكتب ويكتب .. ثم تابع السير وقد انتثر الطلاء فوق لحيته وحذائه ولوث صدريته .. ولكنه لم يلحظ ذلك كله ، فقد استبدت به شعلة مقدسة من الحماس وكلما وجد بقعة مسطحة : حائطا كان او بابا ضخما ، توقف ورسم تلك الرموز السحرية فاذا بالحائط الذى كان من قبل ابكم مهملا ، يتحول الى شىء اخر جديد يعلن بقوة عن وجهه المقاتل ..

وبدأت يده تكتسب المهارة فى الكتابة وتصبح اكثر قدرة على الانسياب .. وحين وصل الى ميدان القرية حيث تقوم المدرسة والمسجد والكنيسة وحيث يقع على مقربة منه مقهى القرية ، غمس فرشاته وبدأالعمل فوق باب المدرسة : « الحرية او الموت »..

وخرج عجوزان من المقهى :

ـ مرحى ياكابتن « سيفاكاس » .. منذ متى تعلمت الابجدية ؟ وماذا تكتب ؟ ما الذى دهاك ؟

واجاب الجد دون ان ينصرف عن عمله :

ـ انها تحية وداع تتذكروننى بها .

وهز الرجلان رأسيهما وانصرفا وهما يغمغمان :

ـ لابد ان ملاكا قد زار « سيفاكاس » ان ملك الموت اصبح قريبا ..

ووقف الجد امام المسجد حيث كانت الحوائط قد غسلت حديثا .. وحيث بابه مطلى باللون الاصفر .. وتابع عمله ..

وحين انتهى قال لحفيده :

ـ فلنعد الى البيت الان .. فقد تعبت .. ولندع الكنيسة ليوم اخر ، فلابد لى من سلم لاتسلق برج الجرس ..

ـ لن ادعك تسقط ياجدى ، سوف اتولى انا تسلق البرج ..

على طول وعرض كريت : اخذ الفرسان يمزجون الماء بنبيذهم ويتشاورون ، ويتجادلون بطريقة او باخرى .. دولة « الفوستانيلا » والفرنجة والموسكوف ـ ظلوا جميعا على تحفظهم بمنأى عن كريت .. عدد قليل من الكباتن فقط هو الذى بقى مترددا ، على ان هؤلاء ايضا بدءوا فيما يبدو يميلون اكثر واكثر نحو احناء الرقاب .

بيد ان البنادق لم تصمت عند قمة « سيلينا » حيث لم يستسلم الكابتن

« ميخايليس » وكانت طلقاته ترن فى القسطنطينية فتطير غضب السلطان الذى ارسل الى الباشا فى كريت اوامره : « اقطع رأس الكابتن (ميخايليس) وابعث بها الى ، والا فأقطع رأسك انت »..

وهكذا ، فان الباشا قد قفز كالملسوع يقسم : « بشرفى ، لاسحقن هذا الكافر » .. وتمنطق بسيفه المعقوف واتجه الى النافذة يتطلع من خلالها الى جبال « لاسيثى » اللعينة ، لابد ان هذا الكافر مصمم على ان يقطع الطريق امام امدادات الطعام والماء والذخيرة : ارسل رسالة الى الكابتن ميخايليس رسالة « اذهب ياكابتن ميخايليس انت وفرسانك واسلحتك وراياتك ، واقسم بحق النبى اننى لن امس شعرة لاحد منكم » وعاد الرسول برد الكابتن « ميخايليس » : « لن اذهب ، طالما ان فى صدرى نفسا يتردد .. فلتخضع كريت كلها اذا شاءت .. اما انا فلن استسلم وسأنتف ذقنك »..

وغمغم الباشا وهو يعيد سيفه الى مكانه : « اللعنة على كريت .. وعلى كل ابنائها .. بل اللعنة على حظى انا ونصيبى .. كيف اتسلق الجبال وسط هذه الثلوج لاقتنص حليف الشيطان هذا .. سوف ابعث بالمزيد من الجنود »..

وصفق بيديه .. وبرز خادمه العربى :

- احضر لى بعض الكستناء وشرابا دافئا .. اننى احس اليوم ايض بالقلق .. هل عرفت برسالة السلطان ؟

ودون ان ينطق بكلمة : احضر العربى كوبا من « الراكى » وانحنى يضع صفا من الكستناء فوق الجمرات المتوهجة فى الموقد ، بينما تمدد الباشا فوق الاريكة :

- احك لى ياسليمان بعض حكاياتك الطريفة .. حتى ولو لم تكن صحيحة .. اقسم بالرسول اننى لا اهتم اليوم ..

وبدت نواجذ العربى وهو يبتسم وقال :

ـ اليوم .. وكعادتى يا افندينا الباشا .. استطيع ان انقل اليك اخبارا طيبة تحيل قلبك الى حديقة .

ـ تكلم يا كاذب .. مع بركاتى .. هل القى الكابتن « ميخايليس » السلاح ؟

ـ ليست هذه هى الانباء يافندينا الباشا .. ولكنها افضل .. لعلك سمعت عن العرافة « حميدة » التى بفناء بيتها ولى مدفون ، لقد جعلتها تقذف الحبوب اليوم لتحدثنى عن حظك . وقد جلست القرفصاء فى وسط الفناء ، واحضرت غربالا ، ثم اخرجت حقيبتها الصغيرة وحبوبها واصدافها وبعض الحصى وعقل الاصابع .. وهزتها جميعا فى الغربال ، ثم انحنت فوقها وغمغمت ببضع رقى سحرية ، وفجأة صاحت وقد القت وشاحها عن كتفها وبدأت ترقص وسألتها : « ما الذى رأيته ياحميدة ؟ » ما الذى قالته الحبوب ؟ وعادت الى هدوئها . وجلست مرة اخرى لتحرك الحبوب بأصابعها وقالت :

« ارى طربوشا احمر يغطى كريت كلها : من جاربوسا الى دير توبلا ، ارى الباشا ـ هذا القوقعة الميتة ـ يتلقى فرمانا من القسطنطينية عليه خاتم ذهبى .. بحروف من ذهب ، وشريط من ذهب ، وارى السلطان يبعث اليه بجنيهات ذهبية .. بلى .. اليست هذه ايضا هى ابنته يبعث بها الى الباشا لتكون زوجة له ؟ وحق هذا الولى الذى يسمعنا الان انى لارى ذلك كله : وقلت لها : « اخبرينى بالضبط ياحميدة ، متى تتحقق كل هذه الامور المذهلة ؟ حتى اهرع الى الباشا واخبره فأتلقى منه بقشيشا صغيرا .. وانت ايضا ايتها المرأة المسكينة ؟ وعادت المرأة تنحنى فوق حبوبها وتخلطها ثم ترميها بصورة وباخرى .. واجابتنى تقول : « على ثلاث خطوات زمنية ، فقل للباشا ، لاتقلق » وهكذا جئت من عندها على الفور احمل اليك هذه الاخبار الطيبة »

وكان الباشا يداعب قلادته العنبرية وهو يستمع الى خادمه ، واكتسى وجهه بالرقة والدعة ، واغلق عينيه لحظات وهو يرى بعين خياله رسول

السلطان يدخل « ميجالو كاسترو » تتبعه قوافل من الجمال تحمل هدية السلطان الى زوج ابنته : اكياسا ملأى بالجنيهات الذهبية والزمرد والاحجار الكريمة .. واخرى ملأى بالمسك واللوز والقرفة ، وثمة فتاة صغيرة فى القافلة ـ ابنة السلطان ـ فى ملابسها الحريرية ، تهبط من فوق سنام جمل ابيض ، ثم تخطر فى لين لتصعد درجات السراى وحين كف سليمان عن الكلام ، اجفل الباشا وكأنه استيقظ ، ثم تثاءب :

ـ هل انتهيت ايها الغبى سليمان ؟

ـ انتهيت يا افندينا الباشا ..

ـ فضع الاناء اذن فوق النار واعد لى قهوة .. واحرص على ان تكون ذات رغوة حتى تفيقنى هل نضج الكستناء ؟

ـ الن ترسل بقشيشا الى حميدة المسكينة ؟ ولكن الباشا اغرق فى الضحك :

ـ ايها الغبى سليمان ، علينا ان نأخذ حذرنا اولا حتى لاتنخدع عقولنا .. ولكى نستوثق فسندع خطوتين من الزمن تمران اولا .

وغمغم العربى فى مرارة وهو يضع الاناء فوق النار : « انه ليس بالاحمق الذى ظننت »

حينما اقترب اليوم من نهايه ، وجه المطران منظاره المقرب فى ذعر نحو سطح البحر الهائج المتلاطم على شواطىء كريت ، كان ينتظر رسولا سريا يقدم على ظهر السفينة البخارية التى تصل الى « ميجالو كاسترو » مرة كل اسبوع ، ويحمل معه تعليمات من اليونان ، وكان الفرسان فى الجبال لا يزالون يتفاوضون مع الاتراك ، كانوا قد وصلوا الى قرار ، وأن لم يكونوا قد القوا سلاحهم بعد ، وقال الاكثر تعقلا منهم : « باسم الله .. فلتقس قلوبنا وتصبح كالحجارة ، ولندفن اسلحتنا مرة اخرى ، لنستجمع قوانا حتى تستجمع الامهات النائحات قوتهن من الاخريات ، وبعدها ـ بعد عام او بضعة اعوام ، نستطيع ان نرفع اعلامنا مرة اخرى ، تظاهروا الان باننا

نقبل اليد التى لانستطيع اليوم ان نقطعها » اما الاخرون المندفعون فكانوا يصيحون : « الحرية او الموت »..

ولم تكن اليونان هى الاخرى قد اتخذت قرارا .. كانت احيانا توجه بعض التهديدات المبهمة الى الاتراك ، وكانت احيانا ترتمى عند اقدام الفرنجة ، ولم يعرف المطران الى اى طرف ينحاز ، كان عقله ينصحه « فلنزن الامور جيدا ، ولنصبر ، ولنستسلم » ولكن قلبه بشجاعته المجنونة كان يصيح : « الحرية او الموت »

واليوم ـ والحمد لله ـ سوف يصل من اليونان مايهديه الى الطريق الصحيح ، ولكن الظلام بدأ يهبط ، ولا اثر للسفينة : « الصبر .. الله يأتى بالغد يوما جديدا .. وغدا تصل الانباء اما اليوم ، فقد انتهى »

ثم هبط الدرج الى الكنيسة حيث صلى لله حتى تهدأ صفحة البحر ، ومر الليل ، وهدأت صفحة المياه ، وهبت مع الفجر نسمات اتية من الجبال تحمل شذى الصعتر ، بينما كان « كوزماس » اكبر احفاد العجوز « سيفاكاس » يقف على ظهر السفينة البخارية ويستنشق فى عمق عبير بلاده ، كانت كريت تمتد امامه بصخورها الوحشية واشجارها النائحة المنتشرة هنا وهناك .. وبقمم جبالها التى تبدو من بعيد وردية اللون ، كان يوما ربيعيا فى « عز » الشتاء ، وكأن الله سبحانه قد رق على الطيور وعلى الناس فبسط فوقهم اشعة الشمس ، وظل « كوزماس » مشرئبا بعنقه حتى اكتفى ـ لم يعد فى حاجة بعد لان يمعن النظر فى جسد بلاده وعظامها ، كيف غادرها قبل عشرين سنة وهو لم يزل طفلا ازغب الخدين ازغب الروح ؟ وكيف يعود اليها اليوم ؟ والتفت ، بينما سيدة صغيرة شاحبة تقترب منه وتحدق هى الاخرى بعينين واسعتين مذعورتين ـ فى كريت ..

وقال الشاب ضاحكا وهو يلمس كتفها فى رقة :

ـ كريت ..

وارتعشت المرأة .. ثم قالت :

ـ اجل ..

وصمتت ..

وعاد هو يقول فى رقة :

ـ هنا سوف تنجبين طفلنا .. هذا هو وطنك الان : فانسى الاخر ..

ـ بلى ياعزيزى « كوزماس » .

ثم عاد الى الصمت ..

وفجأة ، امسكت به من ذراعه وهى تضغط عليه فى ذعر وكأنها تريد أن تتأكد من أنه معها .. ثم بدأت تهدأ ..

وبدأت جبال كريت تقترب .. وبدت معالم اشجار الزيتون والحدائق والكروم .. ولاحت « ميجالو كاسترو » فى ضوء الصباح الابيض وهبت رائحة الصعتر اكثر قوة ، وانتشر ضوء الصباح ليغمر كل قمم الجبال والسفوح والسهول ، وبدأت الاشجار تبدو فرادى : حتى الديكة ، بدأت تسمع اصواتها فى لحظات الصباح الحلوة .. كانت الدنيا تستيقظ .

وانحنى الرجل على زوجته ، وقال فى رقة :

ـ ارجوك .. ليكن قلبك ثابتا وانت تدخلين بيت ابى : لا تخافى ، وتذكرى دائما اننى معك .. تذكرى ايضا انك تحملين طفلنا فلا تخافى ان امى امرأة تخاف الله ، وسوف تضعك فى حبة قلبها .. واختى .. يجب ان اخبرك ..

ثم توقف وقد تجهم وجهه :

ـ عندما بلغت الثانية عشرة من عمرها اصدر اليها ابوها اوامره : « لا تتعدى بعد اليوم عتبة البيت الى الشارع ، ولا تظهرى امام احد بعد اليوم اذهبى » .. وبعدها ، ظلت المسكينة معزولة تماما عن العالم الخارجى وعن ابيها نفسه .. كانت تجلس طوال اليوم تخيط وتنسج جهاز عرسها ، وعندما يصل الاب الى البيت فى المساء ، كانت تهرب الى جانب داخلى من البيت

لتختبىء وعندما اصبحت فى العشرين لاحظت يوما بعد يوم ان ثمة شابا يمر امام البيت ويظل يراقبها وجاءتها احدى الجارات ذات مساء تحمل رسالة من ذلك الشاب .. وبعدها زادت الرسائل .. كان يحبها ووقعت هى فى حبه .. واراد ذات ليلة ان يتحدث اليها حتى يعرف كل منهما الاخر ليتزوجها فيما بعد .. واشفقت عليه الفتاة بعد عدة رسائل وقالت لجارتها ذات مساء : « سوف اقف بالباب عند منتصف الليل »..

وتوقف « كوزماس » لحظة وقد انتفخت عروق جبينه ، وبدأ يحس مرة اخرى بأن ثمة امورا قد تمتلكه : خوفه من ابيه .. واعجابه به فى ذات الوقت ، اختفت كريت لحظتها امام ناظريه ، وحل بدلا منها ظل مخيف لابيه يسبح فى الفضاء .

وهمست المرأة :

ـ اهدأ .. يكفى هذا ..

ورفعت يدها لتغلق فمه ، ولكنه تابع الحديث ..

ـ لا .. يجب ان تعرفى كل شىء ، هبطت الدرج عند منتصف الليل عارية القدمين حتى لا تحدث صوتا ، ولكن الرجل العجوز كان يراقبها فتسلل خلفها دون ان يحدث صوتا . وخرجت المسكينة الى الفناء ، وفى اللحظة التى مدت فيها يدها لتفتح الباب ، اندفع ابوها نحوها .. وجذبها من شعرها ، وغرس اظافره فى لحمها ، وطرحها داخل حجرتها وقد اغمى عليها .. ثم اغلق الحجرة ، ومرت سنوات لا تجرؤ فيها اختى على ان تتجه الى النافذة ، وقتل العجوز فى « اركادى » .. ومنذ ذلك التاريخ .. مرت عشرون سنة .. عقل اختى لايزال مهزوزا ، انها تعمل بالبيت طوال اليوم : تغسل ، وتطبخ ، بل وتخيط وتنسج جهاز عرسها ، فاذا كان المساء ، مضت الى فراشها ، وعندما يقترب الفجر ، تفتح النافذة ، وتطل منها ، فاذا مر احدهم بالطريق .. نادته وسألته فى خوف : « هل اقترب منتصف الليل ؟»

وصمت « كوزماس » وارتسمت لحظتها صورة اخته وهى صغيرة الشعر الاشقر ، والعينان الزرقاوان ، وسحرها .. وضحكاتها ..

وسار بضع خطوات وهو ينظر الى عنبر السفينة حيث تمدد الجنود الاتراك .. وغمغم يقول : « كريت ياسيئة الحظ » ثم تحسس بطانة معطفة حيث اخفى الرسالة التى تحمل المعلومات السرية .

وبعد برهة ، قال لزوجته :

ـ ارجوك .. لا تخافى ..

واستطاع « كوزماس » ان يرى بوضوح خلف مدينة « ميجالوكاسترو » جبل « ايوخنا » الشهير بتكوينه القريب الشبه بالبشر : رأس ضخم يستقر فوق الارض بين الكروم واشجار الزيتون ، جبهته عالية جسور ، وانفه حاد وفمه واسع .. وذقنه من ركام الاتربة الصخور المفتتة ، رأس يقف هناك وكأنه اله من الرخام .. ميت شاحب الزرقة ..

وقال « كوزماس » لنفسه : « لم يمت العملاق بعد » ثم ثبت نظرة فجأة على الجبل الساكن .. « طالما انه لايزال فى اعماقى حيا .. فانه لم يمت بعد .. طالما اننى حى ارزق وافكر فيه ، فانه لن يموت .. ربما نسيه الاخرون ولكننى لن انساه لان حياته تعتمد على انا ، انه يسندنى ، وانا ايضا اسنده »

كان يحسّ لحظتها كيف مد ابوه جذوره فى اعماقه حتى لتبقى مستعصية على الفناء ، كان وهو فى وطن اخر .. يتذكره قليلا .. وكان يرتعش حينما يتذكره .. ولكنه لم يحس يوما بان هذا الرجل الميت قريب منه كما هو قريب فى هذه اللحظة ، او لعله يهدده « انه يعرف لماذا اعود الى كريت ، ويعرف بمهمتى السرية ، اب لا يلين ولا يهدأ .. يود لو اغلق فمى »..

واستدار « كوزماس » مرة اخرى الى زوجته وهو يحس بان اباه يسدد نظرات الكراهية الى هذه المرأة الاجنبية ، ولكنه كان يحس بحبه لها يزداد قوة وجرأة حتى فى حضرة ابيه ، لقد ضمها الى صدره .. ودافع عنها .. ولن يدعها تستسلم امام رجل ميت ..

ودخلت السفينة الميناء .. والى اليمين ظهر اسد البندقية يبرق تحت اشعة الشمس يحمل فى مخالبه الكتاب المقدس .. ومرة اخرى كان الميناء غارقا فى الضجة والطنين ورائحة الليمون والزيت واللفت العطن .. وقفز « كوزماس » فوق المرساة وامسك بيد زوجته وهو يقول فى رقة :

ـ بقدمك اليمنى اولا .. انت تدخلين الان غابة .. باسم الله ..

وخطت خطوتها الاولى بالقدم اليمنى وقد تعلقت بذراع زوجها فى اعياء ..

ـ احس بالتعب ..

وكان العرق البارد يتصبب من صدغيها ..

ـ البيت قريب .. تشجعى .. لقد وصلنا وتقدما .. وظل « كوزماس » يحدق فى البيوت والناس والشوارع فى نهم ، كل شىء قد شاخ الشعر الاسود اصبح ابيض ، والخدود تغضنت والالواح شحبت او زالت .. والحوائط تقشرت وتشققت ، والاعشاب نبتت على كثير من عتبات البيوت ، وشد على يد زوجته :

ـ هذه هى بلادى .. ولدت فوق التراب الذى نطؤه الان ..

وانحنت المرأة والتقطت حفنة من التراب تسللت من بين اصابعها :

ـ انها دافئة .. يسعدنى ذلك ..

وكانت لحظتها تفكر فى وطنها البعيد البارد ..

وافترقا داخل الازقة الضيقة ، وترك « كوزماس » يد زوجته واوسع الخطى فى لهفة وقلبه يدق بعنف . وانحرف الى اليمين ودخل شارعا صغيرا ، ورأى على باب بيت ابائه ، كان مغلقا والنافذة العليا ايضا كانت مغلقة ، ولم يكن بالشارع احد ، ولا صوت ، كان اشبه بالحلم ، واقترب من الباب الدائرى القديم ذى الحلقة الحديدية الغليظة ، وكانت ركبتاه ترتعشان ولكنه مالبث ان استجمع شجاعته ودق الباب ..

وسألته فى رقة :

ـ اهذه ؟

ـ اجل .. زوجتى .

واستدارت الاخت تنظر اليها فى فضول .. وانحنت الام على ابنها وقالت :

ـ لماذا تزوجها ؟ اجنبية ..

وقال الابن فى رقة وهو يقبل اليد المتغضنة :

ـ امى .. يجب ان اسالك معروفا ..

ـ انت ولدى الوحيد .. وتسألنى معروفا ؟ اننى رهن كلمة من شفتيك .. مرنى :

ـ اننى اعهد بزوجتى اليك يا امى .. احبيها .. واحبى ولدى ..

واجفلت المرأة ، وحدقت فى ابنها دون ان تتكلم : فى تساؤل وضراعة ..

ـ بلى .. انها حامل فى حفيدك ..

وارتفع الدفء الى حلقها وخديها .. ولكن رعشة مفاجئة تملكتها ، فقالت فى همس :

ـ هل استأذنت اباك ؟.. هل يعرف ؟ هو الذى يقرر .. يجب ان تسأله .. انى اخاف ..

كانت تهمس حتى لا يسمعها الرجل الميت ..

وسألها الابن بينما قلبه يضطرب هو الاخر فجأة :

ـ وماذا بوسعه ان يفعل بنا ؟

ـ وكيف لى ان ادرى يا ولدى ؟.. امازال له جسد فنعرف اين هو ؟ ربما يكون فى الفناء هذه اللحظة بالذات يمنعها من دخول البيت ..

وصاح الابن فى هياج ..

ـ ليس له الحق فى ان يفعل ذلك .. لم يعد صاحب الامر والنهى هنا .. سوف احضرها ..

ثم اجتاز الفناء عدوا وقلبه يدق غضبا وخوفا .. وبدا صوته فجأة خشنا وهو يقول :

ـ « كريسولا ».. تعالى ..

وامسك بيدها واتجه بها الى امه :

ـ امى .. هذه هى ابنتك ..

وانحنت السيدة الصغيرة تقبل يد الام .. ثم وقفت تنتظر ..

وامعنت الام النظر .. ورأت سلسلة ذهبية حول عنقها ، فقالت دون أن تمد اليها يدها :

ـ هل عمدت ؟

وقال الابن :

ـ لقد عمدت .. هذا هو الصليب ، انها تحمل اسمك يا امى .. كانت تسمى « نعيمى ».. واسمها الان « كريسولا »..

وامسك بالسلسلة وجذب الصليب من وسطها .. ولمست الام رأسها بيدها فى تردد وقالت : « مرحبا بها »..

واتجه الجميع الى داخل البيت ..

وسار « كوزماس » مثقل القلب .. وتجول هنا وهناك يتحسس الابواب

والاثاث القديم والساعة الثقيلة والغدارات الفضية الموروثة عن اجداده والموضوعة الى جوار المذبح ..

ـ وكيف حال جدى ؟

ـ فى قريته ، بلغ المائة من عمره ولكنه ممتلىء حيوية ، ملك الموت لايدنو منه ، انه يسأل عنك دائما ..

وجلست المرأتان فوق الاريكة الواسعة العتيقة وظلت الام تنظر الى ابنها كيف نضج واصبح رجلا ، كان يشبه جده الكابتن « سيفاكاس » نفس العينين اللتين تنظران الى الاشياء فى دفء ورقة : نفس الجاذبية ، نفس المنطق الفصيح ، وكانت فى نفس الوقت تلقى بنظرات جانبية بين الحين والاخر الى زوجته :

« ماذا اقول لها ؟.. انها من جنس اخر .. خلقها الله اخر .. لا احبها » ورأت السيدة الصغيرة الفناء الصخرى واصص الريحان وتكاعيب الكروم الشتوية القريبة من الحوض .. والى الخلف من الفناء ـ وراء اسلاك النبات ـ بدت سهول لا حدود لها يكسوها الثلج .. وغابات يكسوها الجليد .. ومدن داكنة مظلمة ، وقوزاق بسيوف مشرعة يقتحمون الابواب ويهبطون فوق اليهود .. والثلج بعدها يذوب تحت حرارة الدم المراق ، والرجال والنساء والاطفال يفزعون ..

واستدارت ، ورأت السيدة العجوز تتفحصها وحاولت ان تبتسم ولكنها عجزت ، وامتلأت عيناها بالدموع ، وتأثرت المرأة العجوز وسألتها :

ـ فيم تفكرين ؟ فى وطنك ؟ اين ولدت ؟

ـ بعيدا .. بعيدا .. من هنا .. فى مدينة قائمة مليئة بالمصانع ..

ـ اى نوع من المصانع ؟

ـ مصانع للمدافع والبنادق والالات ، ولكن ابى :

كانت تريد ان تقول « ان ابى لم يلوث يده بشىء من ذلك ، فقد كان رجل

دين ».. ولكنها توقفت :

ـ ماذا كان ابوك ؟

ـ كان رجلا طيبا ..

وتنهدت : ووقفت الام واتجهت الى الفناء وقطعت غصن ريحان وعادت به الى السيدة الصغيرة ، وسألتها :

ـ أكان فى بلدكم ريحان ؟

ـ كلا ..

ـ لقد نبت فوق قبر المسيح ..

وكانت الانباء الطيبة قد انتشرت : واقبلت الجارات يثرثرن فى سعادة ، وامتلأ البيت وبدأن يتفحصن ويتشممن الفتاة اليهودية من قمة رأسها الى اخمص قدمها وكأنها حيوان غريب .

وظل « كوزماس » ينظر الى زوجته فى اشفاق ، وبدت له لحظتها وكأنها بجعة جريحة وسط جمع من الاوز والبط .

واحضرت « ماريا » صينية ملأى بالحلوى والقهوة ، وكانت تبدو نحيلة متغضنة وتضع حول عنقها منديلا اسود عريضا لتخفى منه التجاعيد ، وظلت تحدق « كريسولا » بنظرات الحسد ، فقد كانت اصغر منها واجمل ، ثم انها هى التى اختطفت منها اخاها ..

ونهض « كوزماس » .. لقد انتهت بالنسبة اليه لحظات الفرح الاولى ، فليس ثمة وقت عنده ليضيعه .

ـ سوف اخرج فى جولة صغيرة احيى فيها « ميجالو كاسترو » مرة اخرى .

ثم اسرع متجها الى مقر المطران ..

وكان المطران يجلس فى قصر الاسقف ينتظر « كوزماس » فقد سمع

فى الصباح الباكر صفارات الباخرة وهى تدخل الميناء ، فرسم علامة الصليب وغمغم يقول :

ـ لك الشكر يارب .. صوت يحمل البشرى للمسيحية .

واسرع « كوزماس » عبر الشوارع وهو ينظر حواليه فى انفعال لقد شاخت المدينة الحبيبة وناءت بأثقالها حتى لتوشك ان تنهار الى التراب الذى تحمله الرياح بعيدا .. ولكنه .. يوما ما سوف تقوم فوقها مدينة جديدة ، ولن تكون كهذه ..

« كريت ، ايتها الحبيبة .. ان العمر يمتد بنا »..

وحين وصل الى « اى ـ ميناس » اوسع الخطى مخترقا الساحة الامامية وهو يحيى شجرة الليمون العجوز حيث يحتفل المطران كل عام بذكرى صعود المسيح تحت اغصانها المزهرة واخذ يجيل البصر حوله .. ولكن : لم يكن ثمة وقت يضيعه .. وبدأ يصعد الدرج صاعدا كل درجتين فى خطوة .. نحو مقر المطران .

نهض المطران فى لهفة وقال :

ـ مرحبا يا كوزماس .. ان الله ارسلك فى ساعة مثقلة .. ماذا حملت الينا ؟

وقبل « كوزماس » يد المطران ، وقال وهو يخرج الرسالة السرية من صدره .

ـ هذا الخطاب يا سيدى ..

وتناوله المطران وفتحه ، وانحنى نحو النافذة بأيد مضطربة ، وبدأ يقرأ فى لهفة ثم عاد يقرأ فى بطء ثم احنى رأسه النبيل الى صدره .. واخيرا ، انتزع نفسه من مكانه القريب من النافذة ، والقى بنفسه منهكا فوق الاريكة وقد دفن وجهه بين يديه .. وقال :

ـ كريت .. يابائسة ..

لم يكن ثمة امل .. هكذا قالت الرسالة : « ان الفرنجة لا يريدون ان يخاصموا السلطان ، والسلطان ازداد جرأة وينوى ان يسحب حتى الحقوق القليلة التى منحها لكريت بالرغم منه ، والقائد الذى ارسله معه من الصلاحيات مايمكنه من استخدام القوة المطلقة من اجل اخضاع كريت ، فادفنوا اذن اسلحتكم ، وتذرعوا بالصبر ، ولاتلقوا باليونان فى مغامرة دموية ، ان اليونان المسكينة تود ان تفعل شيئا ، ولكن الحيلة قليلة »..

ورفع المطران رأسه :

ـ هل تعرف ما بالرسالة يا كوزماس ؟

ـ اعرف يا سيدى ..

ـ سوف ابعث رسالة الى كل الفرسان اطلب منهم فيها ان يلقوا السلاح ، فليس من الحكمة ان نسلم رؤوسنا بأنفسنا ، ولكن هناك فارسا واحدا اخشى منه ـ عمك الكابتن « ميخايليس » ذلك الروح المتمرد مطلق العنان ، لقد بعثت اليه قبل وقت غير قليل احذره ، وطلبت منه ان يخرج باسلحته واعلامه ، وقلت له ان احدا لن يمس شعرة فى رأسه ، فقد اقسم الباشا على ذلك .. فهل تدرى بماذا اجاب ؟ « وهل اتدخل انا فى عملك ياسيدى ؟» فلا تتدخل اذن فى عملى ، لن اركع امام الاتراك ، وسوف انسف جسدى ليتطاير عاليا فى السماء .. انت ياكوزماس الذى ينبغى ان تبحث عنه وتحدثه ..

ـ سوف اذهب اليه ياسيدى ، وان كنت اعرف مسبقا انه لا فائدة ، انه مثل ابى وحش ضار ..

ودقت الطبول بشدة ، وتناهت اصوات صهيل خيول ووقع اقدام جنود ، ونظر المطران الى كوزماس فى قلق ، وقال هذا :

ـ جنود اتراك .. لقد كانوا معى فى السفينة اخذناهم من « كانيا » ولديهم اوامر بابادة كل شىء ..

وعاد المطران يرفع يده الى السماء :

ـ كريت ، يا بائسة ، الى متى ؟

واستبدت الحيرة بالاثنين معا وساد الصمت واخيرا سأله المطران فى محاولة لتغيير دفة الافكار التى تستبد بهما :

ـ لقد عشت فى فرنسا سنين عددا ، مايجرى هناك ؟ ماذا رأيت ؟ فنحن هنا نعيش فى الاحراش ..

ـ اشياء كثيرة ياسيدى ، منها الحسن ومنها السيىء .. متى ابدأ ؟

ـ هل هم مؤمنون ؟

ـ انهم مؤمنون باله ، قائد جديد : صارم قوى .. قد يصبح يوما ما كل شيء ..

ـ اى اله ؟

ـ العلم ..

ـ عقل بلا روح ، ذلك يعنى انهم يؤمنون بالشيطان ..

ـ لقد دخلت فى فترة فلكية ذات دلالات مفزعة ياسيدى ـ فى برج العقرب .. برج الشيطان .

ـ ربما بقية العالم ، اما نحن الكريتيين ، فاننا نؤمن ايمانا عميقا بدموعنا وتضحياتنا وليس فى الانسان ، نحن لم ننفصل بعد عن الله .

ولم يقل « كوزماس » شيئا ، وماذا يقول ؟ كان المطران مؤمنا عجوزا ولا يعرف شيئا اخر غير العقيدة .

وعاد المطران يقول :

ـ لا نحن ، ولا الروس كذلك ، عندما كنت فى « كييف » ، كنت اعرف معنى الايمان ، معنى « الله »وكيف يهبط سبحانه الى الارض ويتجول ويحادث البشر ، وطالما ان روسيا تعيش فاننى لا احس بالخوف ..

ونهض « كوزماس »

ـ سوف انصرف الان ياسيدى وادعك ترسل خطابك الى الفرسان ، لا ينبغى ان نضيع لحظة واحدة ..

ـ بوركت ياولدى ، وعد غدا ، فسوف اجمع كبار السن ، ويجب ان احدث اليهم ..

وعندما عاد فى الليل الى بيت ابائه وصعد الدرج الى حجرة نومه العتيقة التى كانت له ايام شبابه ، وجد زوجته ممددة فوق السرير وهى تبكى ، واخذها بين ذراعيه وربت على شعرها ولمس ذقنها ورفع رأسها المتعب ، فابتسمت له .

ـ ماذا حدث ؟ وماذا فعلوا بك ؟

ـ لا شىء ، لا شىء ، اننى متعبة فحسب .

واسندت رأسها الى ذراعه فى صمت ثم تكلمت :

ـ لقد درن جميعا حولى يتشممنى ، ثم تجمعن بعيدا عنى يتهامسن فيما بينهن ، امك وحدها التى اشفقت على ، فوقفت وقالت : « ياعزيزاتى .. الى اللقاء ، فهى متعبة ، الى اللقاء غدا » ثم صحبتنى من يدى وقادتنى الى غرفتك ، وانحنت نحوى واوشكت ان تقبلنى ، ولكنها غيرت رأيها وقالت : « نامى .. ولاتعيرى اليهن انتباها هيا ونامى » .. وهكذا تمددت هنا انتظرك .

وقبل « كوزماس » شعرها المموج فوق عنقها ، واغلقت هى عينيها وابتسمت ، وارتفع القمر يضىء وجهها ، ففزع لمرأى هالتين حول عينيها وهمس فى اذانها : « نامى .. فأنت مرهقة » وامسكت بيديه وقالت : « لا استطيع النوم وحدى ، نم معى جنبا الى جنب » .. واحاطته بذراعيها ، ودفنت رأسها فى صدره وغمغمت ببضع كلمات من لغتها ثم .. نامت ..

وارتفع القمر اكثر فى قبة السماء .. كبيرا ساكنا يفيض عذوبة ، كان

قمر شبابه في تلك الليالي الحلوة التي كان هو واصدقاؤه يتناقشون فيها حول اسئلة لايجدون لها الاجابة : من اين ؟ والى اين ؟ ولماذا ؟ .. هذه الاسئلة التي تمزق الشباب في الدنيا كلها ..

والقى ضوء القمر ما يشبه ملاءة من الكتان الابيض فوق الفراش ، وانتشر شعر زوجته العسلي الذهبي فوق الوسادة يلمع كأنما يملؤه دود متوهج ، واضاء وجهها كالمرمر ، ومد كوزماس يده ليحتضنها ولكنه ردها بسرعة خشية ان يوقظها ..

« ما اشد ما احب هذه المرأة ، حبي لها يفوق الوصف بقدر ما ان تأثيرها على يفوق الوصف كذلك ، لقد فتحت عيني وعقلي وقلبي ، وعلمتني كيف احب الاجناس الاخرى التي كنت اكرهها .. وكيف اتعلم الافكار الاخرى التي كنت احاربها ، وكيف احس باننا نحن البشر ننتمي الى اصل واحد . ماكان اروع القدر الذي قادها من يدها ذلك المساء وجاء بها الى ؟»... وهز رأسه وهو يبتسم « لم يكن للقدر دخل في ذلك فأنا نفسي الذي امسكت بيدها ذلك المساء ، ولا احد غيري ..

وتذكر لحظتها كيف انه كان داخل احدى المكتبات في مدينة في أقصى الشمال يبحث عن كتاب كان يحبه : اشعار صينية من عهد اسرة « سونج » ويومها لم يجد الكتاب ، وبينما هو يستدير اسفا لينظر الى الشارع ، رأى فتاة ترتدي « بلوزة » برتقالية اللون تمر امام المكتبة وتقف للحظة وكأنما تقف تحت دائرة ضوء كشاف ـ ثم تختفي .. واحس بان شيئا ما قد شده فجأة وحتى اعماقه .. وخيل اليه لحظتها ان هذه الفتاة تملك نوعا من الجمال المبهر المأساوي .. ثم ان لون البلوزة التي كانت ترتديها هو اللون الذي يفضله على كل الالوان ..

وانثالت الافكار كالبرق داخل رأسه « لو اردت لعدوت وراءها وسوف تصبح زوجتي واذا لم ارد ، فسوف ابقى في مكاني ، انا افعل ما اريد ، ولكن ، ترى ماذا اريد ؟ ووجد نفسه على الفور مجبرا على ان يفكر في حكاية ذلك الراعي الكريتي الذي لم يكن قد رأى « ميجالو كاسترو » من قبل تلك المدينة العظيمة كما وصفوها له . كانوا قد صوروها له جنة على الأرض

، فيها كل الاشياء الثمينة فى الدنيا : احذية بيضاء ذات نعال مزدوجة .. بنادق وسيوف .. غرارات ملأى بالحبوب والسمك المملح .. ونساء تفوح منهن رائحة المسك .. وظلت هذه الصورة تستبد به سنين طويلة حتى كان يوم لم يعد يحتمل فيه اكثر مما احتمل ، فعلق حذاءه القديم فوق كتفه حتى لا يبلى من السير فوق الصخور ، وبدأ يهبط الجبل ويقفز من صخرة الى صخرة هابطا فى طريقة الى « ميجالو كاسترو » وظل يسير اكثر من سبع ساعات حتى وصل الى باب قلعة المدينة قبيل المساء ، وهناك توقف وقد اصيب بخيبة امل . ولعله احس فجأة بالخجل لانه لم يقاوم الاغراء ، ورفع عصاه وضرب بها الارض الصلبة وهو يصيح : « اذا شئت فسوف ادخل » واذا شئت ، فلن ادخل .. ولن ادخل » .. واستدار عائدا الى الجبل ..

وغمغم « كوزماس » وهو ينطلق فى اثر الفتاة : « وكنني سوف ادخل » وكانت « البلوزة » البرتقالية تلمع وسط زحام البشر ، واستدارت الفتاة خلفها وهى تنظر فى رعب وهو يقول لها : « فى اللحظة التى مررت بها ، قلت لنفسى : ان اردت ، كلمتها واصبحنا صديقين .. وان لم ارد ، فسوف ادعها تسير .. وقد قررت بينى وبين نفسى أننى اريد »

واجابته الفتاة في نظرة قلقة : « اما انك مجنون ، واما انك شاعر ، ولكن لا وقت لدى ..»

ـ « تعالى معى نتحدث »

ـ « قلت لك لا وقت لدى ، يجب ان اذهب »

ـ الى اين ؟»

ـ وعادت هى تقول : « يجب ان اذهب »

وكان صوتها يرتعش ، وامسك « كوزماس » بذراعها في رقة ، وقال : « لا تذهبى ، تعالى معى » .. وافزعته رنة صوتها ، وهى تقول : « يجب ان اذهب » .. وكأنها تريد ان تصيح « النجدة »..

وفجأة ، اقترن حاجباها الكثيفان المقوسان في نعومة ، واحسست فى تلك اللحظة بأن حياتها كلها فى الميدان « اريد » ـ « لا اريد »..

كان قدرها رهن هذه الكلمات .. وعاد « كوزماس » يقول : « هيا » .. - « الى اين ؟» - « الى اى مكان » - « اين »؟ وكانت تتكلم مثل طفل يخشى العقاب : « فلنمش قليلا .. فالحياة قصيرة .. لنتكلم ، طالما انه لايزال امامنا فسحة للكلام ».. واحنت رأسها العسلى الاشقر وقالت : « لا بأس ، فلنتكلم طالما انه لايزال امامنا فسحة للكلام .. فالحياة قصيرة .. هيا بنا »

ودخلا احدى الحدائق ، وكان المساء قد تحول من اللون الاخضر الذهبى الى البنفسجى الشاحب .. ثم تحول تدريجيا الى اللون الازرق القاتم ، وتكلم الاثنان فى سرعة وهما يلهثان ، وكان « كوزماس » هو الذى بدأ الحديث حتى يشجعها ، حدثها عن كريت : عن الجزيرة الحبيبة المفزعة عن ابيه ذلك التنين المرعب ، وعن امه تلك الشهيدة المقدسة ، وفاض قلب الفتاة وسألته فى قلق : « لماذا تحدثنى هكذا فى ثقة ؟ لماذا ، طالما انك ستذهب بعيدا وسأذهب انا بعيدا وانه ليس امامنا مزيد من الوقت .. فى ظروف اخرى يحتاج البعض الى سنين حتى يصلوا الى النقطة التى وصلنا اليها فى قفزة واحدة »

وكانا قد جلسا على اريكة خشبية ، وسألها : « ما اسمك ؟»

- « نعيمى »

- حدثينى يانعيمى .. انا واثق ان حياتك قاسية . ثقى بى .. انا كريتى »

- كريتى ؟ .. ماذا تعنى ؟»

- « رجل ذو قلب دافىء يانعيمى »..

ولم ينهضا الا عند منتصف الليل ، وقد امتلأ صدر الشاب بالضيق والمرارة ، هذه الفتاة الصغيرة قد شربت بؤس الدنيا كلها ، كانت كلماتها تكشف الرعب والعار والجنون الذى يستبد بهذا العالم .. وكان يستمع اليها وقد دفن رأسه بين يديه وهو يرى بعين خياله الاشياء التى وصفتها له : كيف اقتحم القوزاق المدينة ، واندفعوا داخل الحى اليهودى ، وحطموا الابواب ، وقتلوا الرجال ، وجمعوا الشيوخ والنساء والاطفال معا ، وكيف

سار ابوها رجل الدين فى مقدمة الاسرى يمضى معهم وسط الثلوج ليالى واياما وعددهم يتناقص يوما بعد يوم .. وعلى جانبى الطريق يسقط نساء واطفال ، وبدأت « نعيمى » تبكى ، واحاطها « كوزماس » بذراعه : « كيف هربت ؟»

ـ « لا ادرى . لقد كان كل شيء اشبه بالحلم لا تسلنى » .. ثم عادت تبكى .. وتحسس « كوزماس » شعرها : « لن اسأل ، فاهدئى الان » وساد الصمت وعاد « كوزماس » يسألها : « واين ستذهبين هذا المساء ؟ لماذا انت فى عجالة ؟ ورفعت « نعيمى » رأسها وقالت هامسة : « لقد اتخذت قرارا »

ـ « اى قرار؟»

ـ « صديقة لى اعطتنى هذه البلوزة ، وقد غسلت شعرى وصففته بعناية ، وخرجت »

وصمتت : ثم قالت بعد لحظة .. وفى هدوء : « لاقتل نفسى وارتاح » وقبل « كوزماس » يديها وقال : « هيا بنا »

ـ تعالى معى يانعيمى »

ـ « الى اين ؟»

ـ لماذا تسألين ؟ الا تثقين بى ؟ لست ادرى ما اذا كنت قد احببتك ، ولكننى لن اتخلى عنك ، الكل تخلوا عنك ، ولكننى لن اتخلى عنك ..

واحنت الفتاة رأسها ، ولم يستطع « كوزماس » ان يميز وجهها وسط الظلام ، وظل واقفا لا يتكلم ، كان يحس بأن الفتاة اليتيمة تقلب الامر وتنتظر جواب مشاعرها ، وفجأة رفعت « نعيمى » رأسها وقال فى هدوء واصرار « هيا بنا » .. واعطته يدها ..

واختفى القمر .. وساد الظلام .. وكانت الام وابنتها لاتزالان تتبادلان حديثا هادئا فى الطابق واستطاع « كوزماس » ان يسمع صوت امه الرتيب

الذى يشبه خرير الماء فى الليل ونبح كلب ثم ساد الصمت من جديد وهبت من ناحية الفناء رائحة الريحان التى رافقته طوال شبابه : فقد كان الريحان والاترج والمنثور والياسمين اعز الرفاق القدامى .. وتنفس « كوزماس » بعمق وهو يقول لنفسه :

ـ هذه بلادى ، هذا هو البيت الذى فيه ولدت ، وهذه هى زوجتى ..

وبينما هو غارق فى تأمله ، سمع صوت غرفة اخته وهى تفتح ، لابد ان الليل قد انتصف الان : وارهف السمع ، وتناهى صوت وقع اقدام عابرة بالطريق .. وعلى الفور انطلق صوت ينم عن اللهفة والارتباك معا : « اليس الوقت قد تعدى منتصف الليل ؟.. اليس الوقت قد تعدى منتصف الليل ؟».. وتوقفت الخطوات ، ولكن النافذة اغلقت فجأة فى عنف ، وارتعد « كوزماس » وغمغم والدموع تنحدر على خديه : « يا الهى »

ولم يستطع النوم بعدها ، فظل فاتحا عينيه ينتظر غبش الفجر ، وعندما بدأ يرى ضوء السماء وهو يزداد تدريجيا ، انسل من فراشة حتى لا يوقظ زوجته ، وارتدى ثيابه وهبط الدرج وجلس فوق الاريكة فى ذات المكان الذى تعود ابوه ان يجلس فيه ، وكان يريد لحظتها فى اصرار ان يتحدى الرجل الميت ليطرده من البيت ومن الفناء اللذين يتشبث بهما ، ثم يغلق الباب خلفه حتى لايعود بعدها ابدا فيؤذى زوجته ..

ولكن المخاوف القديمة عادت تستيقظ بداخله لقد حاول عبثا وهو فى فرنسا ان يحرر عقله من المخاوف ، ولكن قلبه لايزال حتى هذه اللحظة كهفا مليئا بالاشباح ..

ظهرت الاخت صفراء الوجه حزينة مكتئبة فى ضوء المصباح ، وعندما رات اخاها جالسا فى مكان الرجل العجوز ، اجفلت فى ذعر كأنما رات اباها الذى تحس بالكراهية له منذ تلك اللحظة التى شدها فيها من شعرها وعزلها عن الرجال .. الكراهية التى تبعته حتى الى قبره .. ولقد كانت تود ان يكون حيا الى هذه الساعة ، حتى تظل تكرهه وتلعنه . انها لتفتح صناديقها كل ليلة وتتفقد جهاز عرسها الذى صنعته بيديها : قميص النوم ذا الاكمام

الواسعة من الدانتيل ، والمناديل المطرزة والملاءات الحريرية ، واحيانا تحس برغبة عنيفة فى ان تلقى بكل شىء فى الفناء لتحرقه وتصرخ « ايتها الاكفان .. صبى عليه اللعنة » وانها لتفتح الدولاب الذى يضم ثيابه وتنتحب مثل الكلبة التى لمحت فجأة جلد ذئب .. ولم تكن تمس هذه الثياب ابدا ، وكانت لا تفتأ تنحى باللوم على امها لانها لم تحاول مقاومته يوما .. لقد كانت تحب اخاها حتى امس فقط ، وحتى عرفت انه تزوج ، واحست بالاشمئزاز من زوجته تماما كما كانت تشمئز من ثياب ابيها .. وحين قالت امها : « الصبر ياماريا » اجابتها فى ضراوة : « اللعنة على الصبر ، افضل ان اقتل نفسى على ان اظل اراها امامى كل يوم »

وعندما حياها اخوها لم تستطع ان تمسك نفسها ، فانفجرت تبكى ، واحطاها « كوزماس » بذراعه وقال :

ـ اهدئى يااختى .. سوف تصبح الحياة غير الحياة ، ولسوف تسعدين انت ايضا ..

وهزت راسها الذى خطه الشيب ، وقالت وهى تدفع اخاها جانبا وتغادر الغرفة :

ـ اجل .. فسوف اتزوج بملك الموت لكى احس بالسعادة ..

وخرج « كوزماس » الى الفناء ليشم الهواء ولكن القلق تملكه فجأة . هل ثمة احد يتنهد فى الغرفة بالطابق الاعلى ؟ واسرع يعدو صاعدا الدرج ليطمئن على زوجته ، وكانت لاتزال نائمة وقد برزت قدمها الرقيقة من تحت الغطاء ، وانحنى ليقبلها وربت على شعرها فى حنان ، وندت عن فمها المفتوح قليلا رائحة القرنفل مع انفاسها الدافئة ..

وفجأة ، وبينما كان يقرب شفتية من فمها احس بان احدا يصعد السلم وبأن ثمة اقداما بطيئة تقترب ، لابد انه الرجل العجوز ، الرجل الميت ، انه ليعرف جيدا وقع خطاه ، وجلس جامدا كالصخر فوق السرير وقد حبس انفاسه وارهف السمع ، كانت الخطى قد وصلت الى نهاية الدرج واقتربت من الارض المواجهة للباب ..

واحس « كوزماس » بالفزع وبسط ذراعيه فوق زوجته ليحميها من « الرجل العجوز » وتوقفت الخطى عند الباب ودق قلب الابن بعنف وهو يحس كأنما البيت كله يهتز .. وود لو صاح : « من هناك ؟» ولكن حلقة كان اشبه بالمسدود ..

وفى تلك اللحظة انتبهت « نعيمى » وصرخت ، وحدقت بالباب والعرق يتصبب من جسدها .. واحاطها « كوزماس » بذراعيه وقال فى رقة :

ـ ماذا حدث ؟ .. هل سمعت شيئا ؟

ـ هناك من صعد السلم .. هناك من يقف خلف الباب ..

وكانت ترتعش ..

ـ اهدئى .. لا تخافى .. لابد انك تحلمين .. انظرى لن ترى شيئا ..

وقفز واقفا .. كان يرتعش ، ولكنه كان يحس بالخجل ، وفتح الباب على مصراعيه : ولم يكن ثمة أحد ، وضحك فى لامبالاة حتى يطمئنها ، ويشجعها ، ثم استدار اليها وهو يغطيها بجسده ويقبل ركبتيها المرتعشتين .

ـ لاتخافى ، هذا بيتك يا « نعيمىُ »

وادارت السيدة الصغيرة بصرها حولها الى المائدة ، والدولاب ، والنافذة ، والمذبح الذى تعلوه ايقونات ثلاث : الخلق ، والصلب ، والقديس ميخائيل ، ثم قالت :

ـ بلى .. هذا بيتى ولسوف اعتاد عليه ..

وحين رآها « كوزماس » تبكى ، احس على الفور بحب طاغ لا حدود له لم يحس بمثله من قبل ، حتى ولا فى تلك الليلة بالخارج ، والتى نالها فيها .. وتعمد ان يترك الباب مفتوحا حتى يؤكد لها انه لايخاف الميت ، واحتواها بين ذراعيه وعانق كل جزء فى جسدها ، من اطراف قدمها وحتى رأسها .

ومر يوم ويومان وثلاثة ، وجلس « كوزماس » الى امه واخته ، وقال كل منهم للاخر كل ما رأى ان يقوله ، تحدثوا عن البيت وعن الاقارب والجيران ، وعن الرجل الميت الذى لايزال يسير داخل البيت ويضيق عليهم ، وعن كريت .. ولم يعد ثمة جديد يقال .. لم يعد سوى العاطفة العميقة تربط بينهم ، وهكذا ساد بينهم الصمت .

وكان « كوزماس » يتجول فى الأزقة الضيقة يتبع ذات الطرق القديمة التي سلكها في شبابه . هنا ، فى هذا الميدان وعند الاقباء الثلاثة ، ينهض قلبه بالحب لاول مرة ، هنا رأى اول فتاة احبها ، فى امسية ذهبية السحب ، وهى تمسك بيدها وردة صفراء اللون وتضع فى شعرها غصن ياسمين ، وكان الجو منعما بشذى المسك .. والفتيات اللائى لم يتزوجن يخطرن فى ملابسهن الحمراء والخضراء والزرقاء ، صدورهن مشدودة وخطوهن سريع وشعورهن مسدلة تتطاير منها الاشرطة .. وهن يختلسن الاشارات .. كن مثل سفائن اشرعت كل اعلامها وانطلقت الى اعماق البحار لتغزو الدنيا كلها ، وكان الفتيان يركضون خلفهن فى خجل وذبول وهم يتظاهرون بأنهم يغيظونهم ويتضاحكون عليهن .. بينما قلوبهم فى الحقيقة تختلج بين صدورهم .. وكان « كوزماس » واحدا منهم فى السادسة عشرة من عمره .

وهاهو ذا الان يجتاز الميدان وقد ثبت نظراته الى الأرض ، حتى لا تقع عيناه او يتعرف على مدبرة بيت تذكره عيناها بتلك الفتاة السمينة المبهرجة التى عرفها فى شبابه فى تلك الامسية الصيفية .

وهناك فى اعلى ، فى « بيتروكيفالو » كان الجد يجلس طوال اليوم ـ وكان يوم احد ـ امام النار المتوهجة فى المدفأة وقد تهدل خداه وارتعشت ركبتاه ، وهو يحدق فى النار ويتأمل فى حياته .

واقتحم عليه المكان راع وحياه :

ـ احمل اليك انباء طيبة يا « سيفاكاس » « كوزماس » اكبر احفادك وصل الى « ميجالو كاسترو » من بلاد الفرنجة ، ويقولون ان معه قلما وورقا وانه يكتب .

وانتبه الجد ، ورفع عصاه :

- وماذا يكتب ؟

ولكن الراعى كان قد ابتعد .

ولم يقل الجد شيئا بعدها ، فقد اعتبر وصول حفيده الاكبر اعلانا سريا عن وفاته ، ونهض واقفا وهو يغمغم : « لقد حانت ساعتى »..

ثم قال :

- « شاريديموس » .. ضع السلم الكبير على كتفك ، ثم تعال معى ..

- الى اين ايها العجوز « سيفاكاس »؟..

- قلت لك الف مرة لا تسألنى .. هيا .. اسرع ..

وحمل « شاريديموس » السلم فوق كتفه ، وسار الجد فى المقدمة وبيده علبة الطلاء والفرشاة وهو يحث الخطى ببغله ، حتى اذا وصل الى ميدان القرية اشار الى برج صغير للكنيسة ، غسل حديثا ، وقال :

- ضعه مستندا الى الحائط ، وامسك به جيدا حتى لا اسقط .. اين « ثاراساكى »؟

- لقد خرج مع اصحابه ومعه البندقية العتيقة ..

- حسن .. بركاتى معه ..

واسند الراعى السلم الى برج الجرس ، وازاح بعض الاحجار من تحته وامسك به فى قوة بكلتا يديه ، وصعد الرجل العجوز السلم وهو يلهث ، بينما استبد الفزع بـ « شاريديموس » فأخذ يرسم علامة الصليب ويغمغم .. « كن رحيما يارب »

ووصل العجوز الى قمة السلم ، والى الزاوية الصخرية الناعمة تحت قبة جرس الكنيسة مباشرة ، وغمس الفرشاة فى العلبة ، ثم مد ذراعه وبدأ

يضع الحروف الى جوار بعضها البعض : « ال ح ر .. وكان قلبه يدق فى بهجة : من كان يستطيع ان يتنبأ لى بأن حياتى سوف تنتهى هكذا ؟ فرشاة وعلبة طلاء وكلمات فوق الحائط ؟».. وعندما انتهى من عمله ـ وكان لا يزال ممسكا بيده بالفرشاة ـ نسى انه فوق السلم .. وانحنى الى الخلف لينظر فى اعجاب الى ماكتب ، فقد توازنه وسقط الى الأرض باسطا ذراعيه .

وصرخ « شاريديموس » واقبل الجيران يعدون ، ورفعوا الرجل العجوز والدماء تسيل من رأسه ، وان ظل مطبقا فمه لاتصدر عنه أنة واحدة .

وقال « شاريديموس » يشرح لجيرانه الامر : لقد عاد حفيده الاكبر الى كريت ، فافقده الخبر السعيد عقله ..

واهتزت القرية كأنما اصاب زلزال عمودها الاساسى .. واسرعت كل النساء بكل ما يعرفن من فنون العلاج ودلكته بالمراهم ، وطار رسول يمتطى بغله الى « ميجالو كاسترو » يبحث عن مصطفى بابا .. الذى كان يعرف كل الاعشاب الطبية والذى كان رجلا طيبا يعالج الاتراك والمسيحيين واليهود بلا تمييز .. والذى كان يقول دائما :

ـ انهم جميعا يمرضون .. مساكين .. حتى ولو كانوا يونانيين او يهودا ..

ووصل مصطفى بابا فى صباح اليوم التالى ممتطيا صهوة بغله ومعه صندوقه الصغير .. وفتح زجاجاته ، واخذ اعناقها المشروخة بين يديه القويتين ..

وفى اليوم الثالث ، فتح العجوز عينيه ، ودار ببصره حوله ، ورأى زوجة ابنه « كاترينا » .. فأومأ اليها ..

ـ ماذا يحدث الان فى الجبل ؟ .. هل سمعت شيئا عن زوجك ؟

ـ انه لا يريد ان يستسلم ..

ـ نعم مافعل .. ضعى خلف رأسى وسادة حتى استطيع الجلوس .. فقد تعبت من النوم .. وابعثى الى « كوستانديس » فى الحظيرة ، فأنا اريده ..

ثم عاد واغلق عينيه ..

وبعد ساعة ، ظهر شخص : نصف رجل ونصف عنزة ، ووقف امام الاريكة الصغيرة التى استلقى فوقها العجوز ، وظل ينتظر وقد اسند ذقنه الى عصاه .. وكانت عينا العجوز لاتزال مغلقتين فلم ير شيئا .. وكان ثمة طنين فى اذنيه فلم يسمع شيئا .. وظل « كوستانديس » صابرا ينتظر وهو يقول لنفسه : « سوف يفتح عينيه يوما ما فيرانى ويقول لى ما يريده منى »

ووقف الاحفاد وزوجات الابناء فى حلقة حول العجوز ووصل « ثاراساكى » بدوره والبندقية العتيقة تحت ابطه .. وكان قد صعد الجبل مرة اخرى يلعب مع اصدقائه لعبة الحرب .. وكان يقف هو الاخر : ينتظر مايمكن ان يحدث لجده ، حتى اذا اطمأن على ان كل شىء على مايرام ، خرج على رأس عصابة من اصدقائه الى احدى القرى التركية وتحدى الصبية الاتراك .
وقال « كوستانديس »:

ـ ايقظه انت يا « ثاراساكي » فانت لا تخاف منه ..

ـ هذا صحيح ، ولكنى اشفق عليه .. دعوه نائما ..

وسمع الجد الهمس حوله ، ففتح عينيه ، وخطا « كوستانديس » نحوه بقدمه الضخمة ، ورمشت عينا العجوز وهو ينظر الى الدائرة الملتفة حوله ، وبدا انه ضاق بالزحام فصاح فى غضب :

ـ لن اموت الان ايها الورثة المساكين ، ابتعدوا جميعا ، واقترب انت يا « كوستانديس » وانحن قليلا ..

واتجه الرجل الاشعث نحوه ، وانحنى يتلقى تعليمات العجوز « سيفاكاس » الذى كان يتكلم ببطء ، وهو يتنفس فى غير انتظام والالم يوقفه احيانا عن الكلام ، وحين انتهى قال :

ـ هل فهمت يا « كوستانديس »؟..

ـ فهمت ايها العجوز « سيفاكاس » ..

- وبعدها .. وبعد ان تحيط كل القرى علما .. اسرع الى « ميجالو كاسترو » واذهب من فورك الى بيت ابنى الاكبر - وانت تعرفه ولاشك - وزوجته « كريسولا » وخذ معك قالبين كاملين من الجبن وحملا صغيرا هدية منى اليها ، لقد وصل حفيدى « كوزماس » كما علمت ، فتأكد من ذلك بنفسك .. انظر اليه بعينيك والمسه بيديك ، هل تسمعنى ؟ .. ثم قل له « اذهب الى بيتروكيفالو فان جدك يموت وهو يريد ان يراك ليمنحك بركاته »... هل فهمت ايها المعتوه « كوستانديس »؟

- فهمت يا « سيفاكاس »

- حسن ، فانصرف اذن .. عدوا ..

وعندما استدار العجوز نحوه كان هذا قد اختفى بالفعل ولم يسمع منه سوى وقع المسامير فى نعل حذائه فوق الارض ..

وفى صباح اليوم التالى ، فتح الباب الخارجى لبيت « كريسولا » العجوز على مصراعيه ، بركلة قدم ، ودخل شخص كثيف الشعر ، يحمل قالبين من الجبن داخل كيس ، وحملا مذبوحا تحت ذراعه .. وسار حتى منتصف الفناء عارى الصدر ، تفوح منه رائحة الثوم والبصل .. ووضع الهدايا فوق الارض واستند بذقنه الى عصاه .. وكانت النساء الثلاث يجلسن فوق الاريكة يحتسين القهوة ، بينما كان « كوزماس » بالطابق الاعلى يتهيأ لزيارة المطران ، وكانا قد اعدا الرسالة معا ، وبعث بها المطران الى الجبال تطلب من الفرسان ان يحنوا رءوسهم لان وطننا الام يرى ذلك .. وجاءه الرد : السمع له والطاعة .. ولكن بقى رد الكابتن « ميخايليس » الذى لم يصل بعد .. فحين تلقى هذا رسالة المطران ارسل فى طلب الكابتن « بوليكسيجيس » الفارس الثانى فى « سبلينا » واغلق الاثنان على نفسيهما الكوخ الصغرى ..

وقال الكابتن « ميخايليس » :

- انا لن استسلم ..

وقال الكابتن « بوليكسيجيس » :

ـ ولكن وطننا الام يطلب ذلك ، فلا ينبغى ان نعترض ..

ـ اى وطن ام ؟ .. انا لا اثق فى الرؤوس التى تحكم هناك ..

ـ وهل انت واثق فى رأسك انت ؟

ـ اهذا وقت المزاح ؟ .. كلا .. ولا فى رأسى انا ايضا ، ولكن فى قلبى ، ان قلبى يقول لى : لا تستسلم .. ومن ثم فلن استسلم .. افعل ما يأمرك به قلبك .

ـ سأفعل ما قررته بالفعل .. سوف اطيع الامر ..

ـ حسن ، فاذهب ، فلن يغير ذلك من الامر شيئا ، دعنى انت ايضا لقد غادرنى رفاق اخرون قبلك ، ولست فى حاجة الى احد منكم ، ارجو لك يافارسى حظا سعيدا ، وريحا مواتية ..

وتردد الكابتن « بوليكسيجيس » ، كان قلبه يتمرد ويثور على التراجع ، ويرفض ان يترك هذا الرجل للموت ..

ـ انت تهلك نفسك بلا هدف ياكابتن « ميخايليس »

وصاح الكابتن « ميخايليس » :

ـ فى الحرب ، لايهلك المرء بلا هدف .. هل تشفق على ؟

ـ لقد كانت هناك مخلوقة واحدة احببتها فى كل هذه الدنيا ، ولقد قتلتها انت من اجلى .. كلا .. لست معجبا بك يا كابتن « ميخايليس » ولكننى لا احب ان اراك تهلك نفسك .. ان كريت ـ تخطفها الشيطان ـ لا تزال تحتاج اليك ..

وصاح الاخر هادرا :

ـ اما انا فلم اعد فى حاجة الى كريت .. قلت لك اذهب ..

ـ الا تفكر لحظة واحدة فى زوجتك ؟ الا تفكر فى « ثاراساكى »؟

وصاح الكابتن « ميخايليس » .. وقد انتفخت اوداجه من الغضب :

- اذا كنت ترى لحياتك قيمة .. فاذهب ..

ثم ضرب بقدمه العوارض التى تسد مدخل الكوخ الصخرى ، ودفع الكابتن « بوليكسيجيس » الى الخارج ، ثم صاح فى « فيندوسوس » :

- وابتعد انت ايضا يا « فيندوسوس » استخدم ساقيك واسرع الى « ميجالو كاسترو » الى مقر المطران ، وانقل تحياتي الى الأسقف وقل له اننى تسلمت رسالته واحرقتها من اركانها الاربعة ، ولسوف اعيدها اليه .. انا لن استسلم ..

وقال « فيندوسوس » وهو يدس الرسالة فى صدره :

- امرك يا كابتن « ميخايليس »

- اسرع ، اذا كنت ترى قيمة لحياتك فلا تعد يا « فيندوسوس » فهنا .. الموت ..

وقال « فيندوسوس » وهو يتنهد :
ش٨ - ان لى اطفالا ياكابتن « ميخايليس .. وعندى ابنة تريد زوجا .. ثم هناك زوجتى والحانة ..

- فلا تعد اذن انت « فيندوسوس » ولست اسالك شيئا ، تصرف كما يتصرف « فيندوسوس » وخذ معك « كاجابيس » « فورد جاتوس » ايضا .. وانضموا هناك الى « بيترودولوس » وافنديتا ..

ودمدم الكابتن « ميخايليس وادار له ظهره .. واسرع « فيندوسوس » يهبط الجبل عبر الممر الخفى متجها الى السهل وهو يتنهد ويلعن « انت فيندوسوس .. فتصرف كما يتصرف فيندوسوس .. كانت الكلمات تلهب ظهره وهو يعدو ، وحين وصل الى المدينة يصعد درج المطرانية ..

فى تلك اللحظة ذاتها .. كان « كوستانديس » يدخل بيت ابوى « كوزماس » ويقف فى منتصف الفناء وهو يضغط بمخالبه على صدره

ويصيح : « عشتم .. عشت ايتها المرأة .. متعك الله بحياتك » .. وكان صوته صوت الرجل الذى عاش حياته كلها بين الخراف والماعز ..

وقالت الام :

ـ مرحبا يا « كوستانديس » .. ادخل اجلس واشرب بعض النبيذ .. اى انباء تحملها الينا من القرية ؟

ـ ان حماك الكابتن « سيفاكاس » يموت يا « كريسولا » ياسيدتى .. لا شىء يمنع عنه الموت الان .. حتى الشيطان نفسه لا يفيده ..

قالها ضاحكا ، ثم استطرد :

ـ وقد امرنى بان احمل اليك هذه الهدايا ..

ثم جلس القرفصاء وهو يضع عصاه فوق ركبتيه العظميتين وهو يقول :

ـ وحق الله لقد عاش حياته كأحسن مايكون : اكل وشرب وقتل الاتراك وملأ بيته اولادا وحميرا وبغالا وثيرانا ، واحال الارض البرية الى ارض محروثة .. وزرع الكروم واشجار الزيتون .. وبنى كنيسة من اجل خلاص روحه .. لقد امن نفسه هناك فى عليين ايضا ، فما الذى لم يفعله اذن فى حياته ؟ .. الان يرفع راية الرحيل ..

وسمع « كوزماس » الاصوات ، فغادر غرفته ونزل وظل « كوستانديس » ينظر اليه فى فضول من رأسه الى قدمه ..

ـ انت الحفيد الاكبر للعجوز « سيفاكاس » ياسيدى ؟ ام اننى مخطىء ؟

ثم لوى عنقه ليراه جيدا ، ثم نهض وبدأ يتحسس بمخالبه : اوامر الجد ..

واجابه « كوزماس » :

ـ انا هو ..

ـ اذن ، فجدك يريد ان يراك ـ ولكن بسرعة ـ حتى تسبل عينيه ، اقول

لك : بسرعة ، اذا كنت تريد ان تراه وهو لايزال حيا ، اقسم بالشمس التى هى فوقنا جميعا ، انه ظل ينتظرك ياسيدى طوال هذه السنين حتى يستطيع الان ان يمنح روحه لكبير الملائكة ، لقد قال لى : « خذ البغلة ليركبها » ثم قال لى « لقد امسكت انا بالفأس وامسك والدى بالبندقية ، ولكن حفيدى كما اخبرونى - يمسك بالقلم ، ومن ثم فلن يقدر على السير ، خذ البغلة وهاته معك الى هنا » .. ان البغال فى « الخان » تنتظر .. فهيا بنا ..

ثم استدار الى سيدة البيت ، وقال :

- هذه هى الانباء ياسيدتى « كريسولا » اما عن النبيذ الذى قدمته - فسوف اشربه حتى لاتغضبى ..

وشرب النبيذ فى جرعة واحدة ، وتناول قطعة من الخبز من فوق المائدة ومسح بها شفتيه وهو يضحك فى رضا .. وقال :

- ثم اسمعى ايضا هذه الانباء .. ان الكابتن « سيفاكاس » بعث يدعو الى وليمة .. وكأنما سيمضى الى العالم الاخر مثل العريس ، انها ليست اول مرة يطلبنى فيها فى هذه الاربع والعشرين ساعة ، لقد كنت راعيه منذ ولدت ، ورسوله .. لقد قال لى اسرع يا كوستانديس خذ عصاك وتسلق هذه الجبال العالية واجمع زعماء الحرب القدامى .. قف فى وسط كل قرية وصح : يا اولاد الكابتن سيفاكاس يموت .. وانتم يا من عاصرتموه وحملتم معه السلاح وهو لايزال حيا - ان الكابتن سيفاكاس يدعوكم الى بيته ، انه لا يريد هدايا فلا تخافوا ، وسوف يجدون الموائد ممدودة ومثقلة ، وسوف تجلسون فوق كراسيه لتأكلوا وتشربوا ، وبعدها فان الكابتن سيفاكاس يريد ان يقول لكم شيئا هاما ، احملوا عصيكم وتعالوا .

وكان كوزماس ينصت اليه فى نهم ، وحين انتهى سأله :

- وماذا يريد ان يقول لهم ؟

وكان يفكر لحظتها فى ان ابطال العهد القديم وحدهم هم الذين ماتوا بمثل هذه الكرامة .. واحس بالفخر لانه من سلالة هذا الرجل ..

وقال الراعى :

ـ ماذا يريد ان يقول ؟ .. وكيف لى ان اعرف ؟ .. لقد كدت ان أساله ولكننى خفت ـ فربما ضربنى بعصاه فوق رأسى ـ لهذا سكت ولم اقل شيئا .. وبقفزة واحدة اصبحت خارج البيت وانطلقت اعدو عبر الجبال وامر بالقرى واصيح ، ولم يخرج اليه سوى ثلاثة رجال من كبار السن ، الكابتن مانداكاس والكابتن كاتسيرماس وهذا المدرس الاعرج من ايمباروس وقالوا لى : قل له ان ينتظر .. لا تسلم روحك قبل ان تصل .. ثم وضعوا فوق رؤوسهم طرابيشهم ذات الذؤابات الضخمة .. وتمنطقوا باحزمتهم ..

وعاد كوستانديس يضحك :

ـ حطام ثلاثة .. مساكين رؤوسهم ملأى بالندوب مثل الغربال ، اقدامهم لا تكاد تقوى على حملهم ، مجموع اعمارهم ثلاثمائة سنة .. اللعاب يسيل من افواههم ، وحواجبهم مهدلة .. تمنطقوا بغداراتهم الفضية وكأنهم ذاهبون الى الحرب ، ثم بدءوا يترنحون وقد استند كل منهم الى الاخر حتى لايسقطوا جميعا .. الا تصدقنى ؟ فسوف تراهم بنفسك اذن عندما تصل الى القرية .

ثم نهض واقفا وقال لكوزماس :

ـ ضع طربوشك فوق رأسك ياسيدى وتعال معى .. ان جدك يموت .. الم تسمع ماقلت ؟ انه يريدك لتسبل عينيه ..

ورسمت الام علامة الصليب .. وقالت فى ثقة ..

ـ مصيره الجنة .. لقد كان رجلا طيبا ..

وقال كوزماس :

ـ وابى ايضا مصيره الجنة ، كلنا سوف نصل اليها ، لاننا قاسينا الكثير فوق هذه الارض ..

وهزت اخته رأسها وقالت بضحكة غاضبة :

ـ ان الله عادل ..

وصاحت الام :

ـ ان الله رحيم ..

ثم ذهبت تبحث عن المبخرة لتوقد بخورا

واستدار كوزماس الى زوجته التى كانت قد نزلت وجلست الى ركن من الاريكة تستمع فى صمت :

ـ سوف تأتين معى يا كريسولا ..

ولكن كوستانديس دق الارض بعصاه وصاح :

ـ وماذا تريد من النساء بحق الله ؟ انهن وباء انت تقول : الى الامام وهن يقلن : قفوا واحيانا يستبد الطموح ببعضهن فيندفعن الى الامام معك ثم ما يلبثن ان يلهثن فيستثرن اشفاقك ، هل تستطيع عندئذ ان تتركهن خلفك فى الطريق ؟ .. هذا خطأ بالغ .. تأخذهن معك ؟ تأخذ معك وباء .. ولكنك انت السيد الامر .. انت الذى تقرر ، ولكننى قلت كلمتى ..

وقالت الام التى كانت قد ظهرت تحمل المبخرة :

ـ كوستانديس على حق .. لا تأخذها معك ياولدى .. ترهقها الرحلة ..

وقالت الأخت فى خبث :

ـ خذها معك .. سوف تتحمل ..

وارتعدت « نعيمى » ان تبقى وحدها بلا حماية فى بيت كهذا البيت ، واحست بثقل الموقف ، فودت لو تحولت الى شىء صغير كالحشرة حتى تختفى تحت اغصان الريحان المزروع فى الفناء .. وقالت :

ـ سوف اذهب معك .. اريد ان اتعرف الى كريت ..

وغمغمت الاخت : « اذهبى .. ولا تعودى »

لم تكن تستطيع ان تتحملها ، وكانت تحبس انفاسها كلما اقتربت منها ..

بل لقد خصصت لها بعض الاكواب والاطباق والسكاكين والشوك حتى لاتختلط بالاخرى ..

وهمست نعيمى وهى تنهض لتستعد :

ـ سوف اتحمل ..

ولكنها حين نهضت ، احست بالدوار ، واحست بالبيت يدور حولها ، فاستندت الى الحائط وقد اغلقت عينيها .. كانت طوال ذلك اليوم تحس بجسدها ثقيلا .. يضطرب ويختلج ..

واحست بمن يلمس كتفها فى رقة ، ورأت زوجها يقف امامها وفى يده كوب ماء ، وابتسمت وهى تمد يدها لتتناوله ، ولكنها تهاوت فى اغماءة ، واسرعت الام تحضر خل الورد تمسح به وجهها وعنقها وهى تقول فى عاطفة صادقة :

ـ انها مرهقة ..

وقالت الاخت فى فحيح :

ـ لا شىء .. مجرد اغماءة .. حتى انا ، يغمى على ..

واعانها كوزماس واتجه بها الى الفراش وحين افاقت نعيمى وجدت الام تنحنى فوقها فقالت :

ـ سامحينى يا امى .. انا مرهقة ..

وقالت الام وهى تربت فى حنان ، لاول مرة ، على شعرها :

ـ نامى يا ابنتى ..

وانحنى كوزماس يقبل عنقها ويقول هو ايضا :

ـ نامى يا كريسولا لا تذهبى معى ، تذرعى بالصبر ، فسوف اعود سريعا ..

وهزت رأسها .. وقالت وقد اغلقت عينيها :

- اذهب .. تصحبك البركة ..

واسرع كوزماس الى المطران الذى كان فى قمة الهياج والغضب ..

- تلقيت الان فقط رد عمك .. هذا البربرى .. انه لن يستسلم كما يقول . انه ليس من حقنا ان نتدخل في شئونه ، ان المسيح سوف يباركك اذا انت ذهبت اليه بنفسك .. قل له ان كريت فى خطر بسبب خطئه .. ادخل بعض التعقل الى جمجمته ، افعل ما تستطيع ، ذلك ضرورى ياولدى سوف افعل مابوسعى ياسيدى .. سأذهب ..

وجلست نعيمى فوق السرير تنتظره وهى ترتدى قميص نومها الاصفر وشعرها الاشقر العسلى ينسدل فى خصلات فوق كتفيها جلست تستند الى ركبتيها وهى تفكر ، ما اقوى الحب ، كيف قادها الحب الى هنا من اخر الدنيا .. الى هذه الغرفة حيث المذبح وحيث صلب المسيح - وهى ابنة رجل الدين اليهودى ؟ .. اه لو لم ار ما رأيت وظلت روحى ورقة بيضاء لم يكتب فوقها حرف .. اى سعادة هناك يمكن ان تكون هنا ؟ وتذكرت الليلة الماضية حين تمددت فوق السرير الحديدى قبل ان تستسلم للنوم ، والريح .. تهب من خلال النافذة المفتوحة تحمل اريج الريحان والاقحوان .. ولم يكن ثمة كلب ينبح ولا خطو انسان .. وكانت الدنيا تبدو وراء النافذة تحت اشعة القمر الناعمة ، لم يكن ثمة صوت الا صوت البحر يتناهى من بعيد كأنه التنهدات الناعمة المتصلة المنتظمة .. البحر الذى لايستطيع مثلها ان ينام ..

ما اعذبها ليلة .. وما اجدره بالثقة هذا الرجل الذى يرقد الى جوارى .. ويرقد داخل قلبى ..

ودخل كوزماس واغلق الباب خلفه ، وجلس بالقرب منها وهو ينظر اليها فى رقة تتناهى عن الوصف .. نظرة طويلة .. كأنها نظرة الوداع .. وسألته نعيمى وهى تتشبث بيده ، وقد احست فجأة بان رأسها يحترق :

ـ هل ستذهب ؟

وقال زوجها فى قلق :

ـ نعيمى .. انت محمومة ..

وقالت نعيمى ، وهى تضحك :

ـ لا.. انها ليست حمى ياعزيزى ، مجرد حرارة عادية فيما اعتقد .. مألوفة فى اسرتى ..

ثم قالت بعدها على الفور :

ـ تبدو كأنما تودعنى ..

وكانت توشك ان تقول الى الابد ..

وارتعشت وهى تكاد تبكى .. وتكاد الكلمات تنطلق من فمها : كيف تتركنى وحدى فى هذا البيت ؟ ولكنها تمالكت نفسها .

ـ سوف اعود سريعا يا حبى .. اريد أن اسبل عينى جدى ..

وامسك بيد زوجته ، وبدت الحياة امامه بسيطة هينة ، الزمن كله تجمع فى هذه اللحظة القصيرة التى امسك فيها بيد دافئة يد الانسانة التى احبها ، كانت تلك اللحظة هى الابد كله ..

وحدقت نعيمى فى زوجها دون ان تتكلم .. ولكن كوزماس هو الذى صاح هذه المرة :

لا تنظرى الى هكذا كما لو كنت اودعك الى الابد ..

ثم انحنى يقبل عينيها ، واحس بحرارة على طرف لسانه ..

وقالت نعيمى وهى ترخى رأسها الى الوسادة :

ـ بل انت الذى تنظر الى كذلك ..

وتناهى صوت كوستانديس من اسفل يرن :

- انت ياسيدى .. ان جدك يموت اسرع لقد ملأت امك الفرارة ، احسن الله اليها .. سوف نأكل ونشرب فى الطريق ونحن ننطلق كالريح اسرع فقد اقترب المساء ..

وانحنى كوزماس وقبل صدر زوجته فى رقة وثقة كما يقبل المرء صورة مقدسة ، وقال :

- وداعا ..

وهمست المرأة وهى تمسك برأسه بين يديها :

- وداعا ..

وظلا هكذا لحظات وهو منحن الى صدرها .. وعيناها مليئتان بالرقة والغفران معا .. وعادت تقول :

- وداعا ..

ونهض كوزماس .. وعاد يريد ان يطبع على فمها قبلة ، ولكنها وضعت يدها فوق فمها وهى تقول :

- لا .. الوداع ..

• الفصل الثالث عشر •

وجه كريت .. عبوس متقلب ، فهى فى حقيقة الأمر تحمل فى ذاتها شيئا ما عتيقا ومقدسا ، مرا ومتكبرا .. منح الحياة لكل هاته الامهات اللائى يعصف بهن ملك الموت ، وكل هؤلاء الفرسان .

خرج الاثنان : «كوزماس» و«كوستانديس» من ميجالو كاسترو ووصلا الى حقول الكروم واشجار الزيتون .. كان الأول يسير فى المقدمة ، والثانى يتبعه وهو يحمل عصا الرعى على كاهله . وكان المساء يقترب .. وصفحة الأرض المنبسطة امامهم مرقطة باللونين الأصفر والأرجوانى مثل جلد فهد ، وجبال «سيلوريتيس» تقف بقمتها الثلجية مؤنسة قوية عطوفة مثل الجد ، وفى المقدمة منها جبال «لاسيثى» مؤنسة هى الأخرى تحت اشعة شمس الشتاء الرفيقة ، واسفل منها تمتد الحقول المحروثة حديثا ، بعضها بنى فى لون القرفة ، والآخر حالك السواد ، وثمة مجموعات من اشجار الزيتون بأغصانها الفضية اللون تنتشر هنا وهناك ، وشجرة سرو وحيدة ، وصف من أشجار الكروم العارية من الأوراق يتدلى منها عنقود او اثنان باعواد جافة .

وحدق «كوزماس» حواليه فى امعان ، ودق قلبه بعنف وهو يقول لنفسه : «هذه هى كريت ، هذه هى الأرض التى انجبتنى .. هذه هى امى» . عندما كان يفكر فى كريت وهو فى اقطار بعيدة ، كان ثمة صوت قاس ملح يدوى بداخله .. ولا يفتأ يسأله : «ماذا فعلت طوال هذه السنين ؟ .. الا تخجل من نفسك ؟ أنت تحارب الهواء وتثير نفسك بالكلمات ، ولكنك تطرح جانبا اللحم والدم .. وتتغذى بالأوهام ، لست احبك» .. وهاهوذا يذرع أرض الجزيرة ، فتمتلىء رئتاه بأريج الصعتر .. الآن لا يستطيع الفكاك منها .. الآن هو مدين لها بالاجابة ، ولكن اى اجابة ؟ انه لم ينجز شيئا ، بل انه هو نفسه لم

يكن شيئا .. أكانت تلك ايدى وافخاذ وصدر ام انها مجرد قطع من اللحم ؟ انه اذن لسبة فى جبين جنس من البشر صلب لا يقهر . والى اين الآن هو ذاهب ؟ ما احط الدرك الذى هبط اليه : انه فى طريقه لكى يدفن عملاقا من اهله ولكى يقنع آخر بالاستسلام .. وأحس بقلبه يخفق بين ضلوعه ، واستدار الى «كوستانديس» كيما يسمع صوت رجل .

ـ كوستانديس .. حدثنى عن جدى العجوز «سيفاكاس» اقترب حتى أسمعك جيدا ..

ثم أعطاه سيجارة وضعها «كوستانديس» خلف أذنه وهو يقول :

ـ وماذا اقول يا سيدى ، نحن احياء ، بينما هو يموت ، اى شىء فى الدنيا لم يفعله ؟ اى طعام لم يأكله ؟ أى شراب لم يشربه ؟ وكم من الأتراك قتل .. غفر الله له . انتبه جيدا الى ما اقول : لقد كان يبتلع كتلة من الجبن فى قضمتين اثنتين حين يجىء الى الحظيرة ، ثم بعدها كان يقتل بعصاه أرنبا بريا ويقول لى : «كوستانديس .. اشو هذا الأرنب لى» .. وكنت اشويه له فينتهى منه فى غمضة عين ولا يبقى منه ولا عظمة واحدة . لقد اكل وشرب كما اراد . حتى فى ليلة عرسه .. قالوا انه حطم ثلاثة اسرة ، لا تضحك يا سيدى ، فهذه هى الحقيقة .

ثم توقف لحظة ، وخلع عصابة الرأس وجفف بها العرق المتصبب من وجهه الداكن .. وعاد يقول وهو يضحك :

ـ هل سمعت بما فعله عندما تزوج من جدتك .

ـ كلا .. احك لى يا كوستانديس .

ـ كان اهلها يرفضون تزويجها منه . فقد كان فقيرا بينما كانوا هم اقوياء أغنياء من علية القوم ، وكان هو شعلة متوحشة لا يختلف عن مكان فيه عراك ولا يتوانى عن اقحام نفسه فى أية متاعب حين تحتدم ، فيحمل بندقيته .. ويندفع الى الجبال . لم يكن اذن من طراز أهل زوجته المسالمين الودعاء . ولكنه على أية حال بعث اليهم يطلب يدها ، كما طلبها له أيضا راعى كنسية السيد المسيح . وكانت الاجابة : لا ، لا .. نحن لا نريده . وكانت اجابة جدك ان قال : «آه .. فهذا اذن صنفكم .. حسن ، فسوف أريكم ايها المواشى ! وفى احدى الليالى ، قفز فوق صهوة فرسه واندفع بها الى قرية عروسه بلا شىء معه سوى صفيحة ملأى بالنفط وعلبة ثقاب بالاضافة الى شىء آخر ، خاتم خطوبة من الذهب ربط الى عصابة رأسه .

واقتحم القرية وهو يرش بالنفط بيوتها واحدا فى اثر الآخر ويصيح «ايها الفلاطون» .. سوف أشعل النار فى بيوتكم» وسمع الكل صوته .. فعرفوه ، وقفز كل واحد منهم من فراشه .. وخرج اهل العروس .. «بحق الرب يا كابتن سيفاكاس ، لا ترتكب مثل هذه الجريمة» وصاح هو «اعطونى لينو» .

- «ألا تخاف الله» .
- «لا تقحموا الله فى أعمالى ، اختاروا .. النار .. او الخاتم !» .
وصاح والد العروس «سوف يعاقبك الله على هذا العمل ايها المجنون» .
وعاد هو يصيح : «النار .. او الخاتم !» .
- «ألا تشفق على هذه القرية ؟»
- «النار .. أو الخاتم !» .

وكان الفلاحون قد تجمعوا فى تلك الاثناء وقد استبد بهم الغضب . اى مجنون هذا الذى يريد ان يجبرهم هكذا .. ؟ «الى السلاح يا أولاد» ولكن راعى الكنيسة جاء فى تلك اللحظات .. وصاح : «خافوا الله يا اخوتى .. وحكموا عقولكم» ثم استدار الى والد الفتاة وقال : «ايها العجوز مينوتيس ، ارسم علامة الصليب ، انه زوج ابنة مناسب ، فأعطها له» ووقف الأكثر حذرا فى صف القس حتى استسلم العجوز وقال : «سوف أعطيها لك أيها المجنون ، ولكن اخرج من هنا الآن على الفور» .

« بل اريدها الآن ، أحضرها الآن » ..
وخرج الأب يلعن وقد أحضر ابنته تتبعها أمها وهى تبكى .
وانحنى جدك ، وحمل العروس تحت ذراعيه وأجلسها فوق عنق فرسه ، ثم أطلق لها العنان .. وتصاعد الغبار تحت سنابكها ، واندفع الفلاحون والقسيس خلفه يلهثون حتى وصلوا الى بيتر وكيفالو عند الفجر . حيث كان الزواج يتم . وصاح فيهم جدك « الآن تعودون أدراجكم ، وسوف نصف الموائد يوم الأحد القادم ونرحب بكم .. أما الآن ، فأنا مشغول ...» .
وتناول «كوستانديس» السيجارة من خلف أذنه وهو يقول :
ثم أشعل السيجارة مستخدما قطعة جافة من «عيش الغراب» كصوفان .
ووصل الاثنان الى واد عميق ضيق تنساب فيه المياه غزيرة فوق الصخور المختلفة الألوان ، وسأله «كوستانديس» :

ـ هل أنت عطشان ؟
ـ كلا .. دعنا نتابع السير ، فالليل قريب .
ـ أما أنا فأحس بالعطش .. قف .

واستلقى فوق الصخور ، ودفن لحيته وشاربه فى الماء ، وبدأ يلعق الماء بلسانه كالنمر ، ، وخيل الى «كوزماس» لحظتها انه لن يبقى ماء بعد فى الجدول . وظل يراقب رجل الجبال المفترس ، وينظر فى اعجاب الى جسده الممشوق والمفتول والى شعره الاسود الفاحم المبلل بالماء .

ونهض «كوستانديس» واقفا فى حركة واحدة ، وجفف لحيته ووضع عصاه على كاهلة وهو يقول :

ـ هنا .. على هذه الصخرة التى استلقيت فوقها وشربت ، قتلت «حسين» الالبانى كاره المسيحيين ، جلل الله عظامه بالقطران ، ولقد اقسمت يومها ان اشرب من هذا المكان كلما مررت بهذا الوادى .. سواء اكنت احس بالعطش ام لا .

وسأله «كوزماس» :
ـ وهل قتلته وحدك يا كوستانديس ؟

وكان « كوزماس » قد عرف بالحكاية من المطران فى اليوم السابق ، تلك الحكاية التى كانت السبب وراء هذه المذبحة التى تعرض لها أهل ميجالوكاسترو ..

وأجاب «كوزماس» :
ـ بالطبع .. أنا وحدى ، وماذا عسى أن يكون غير ذلك ؟ رجل فى مواجهة رجل كما تتم الأمور دائما بين الرجال ، كنت قد عرفت أن الكلب سوف يمر بهذه الناحية بعد ان اشعل النار فى احدى قرانا ـ وسوف تراها ـ فقد اصبحنا قريبين منها .. وكان قد قتل كل الرجال فى القرية ، واقسمت أنا أن أقتله .. فترصدت له هنا .. وقطعت رقبته .

ثم تابع السير وهو يصفر بفمه .

وكانت الظلال قد بدأت تسحب غطاءها على وجه الأرض ، ووصل الرجلان الى القرية المكنوبة حيث لم يكن هناك سوى بيتين او ثلاثة لا تزال حوائطها قائمة . وخرجت من بين الاطلال نساء مهلهلات الثياب .. وفتاة

تحاول اخراج فرع من اناء مملوء بالريحان ظل كما هو وسط الأطلال ، ثم تلقي به الى «كوزماس» وهى تقول «مرحبا» .

ووصلا الى ميدان القرية ، فتجمع حولهما بعض الرجال المسنين وبينهم بضع نساء ما لبثن أن تراجعن بينما تقدم عجوز ضخم بارز العظام فرفع قبعته احتراما وتحدث باسم الباقين فى القرية .

ـ ليس لدينا مقعد نستطيع أن نقدمه لك لكى تجلس فوقه ، وليس عندنا كوب نملؤه لك ماء لتشرب ان كنت عطشان .. وليس لدينا خبز ان كنت جائعا .. فقد أحرق الكلاب كل شىء .. عسى الله أن يحرقهم بناره .

وقالت امراة عجوز :

ـ وليس عندنا ايضا رجل مناسب ليتحدث اليك ..
ثم بدأت فى النحيب والعويل .. وشاركتها امراتان اخريان .. فقال العجوز :

تذرعن بالشجاعة أيتها النسوة .. الم يحدث لنا مثل ذلك فى سنة ١٨٦٦ ؟ ورغم ذلك فقد بقى عدد قليل من الأطفال استطاعوا فيما بعد ان يجدوا الحياة فى القرية .. وطالما ان هناك رجلا واحدا وامرأة واحدة ، فلن تموت كريت أبدا .

ثم استدار العجوز الى «كوستانديس» وقال :

ـ بارك الله يدك أيها الفارس ، وعسى الله أن يدخلك جنته ومعك ذات السكين التى ذبحت بها (حسين) .

واستدار «كوزماس» وقال :
ـ هيا .. الى اللقاء .

فلم يعد يحتمل ذلك الرعب القاتل الماثل أمامه ..
وفى صمت .. اسند الرجال المسنون ذقونهم فوق عصيهم وهم يتابعون الأثنين بنظراتهم .. بينما مسحت النسوة العجائز الدموع ، ووقفت فتاة

امام اطلال بيتها وهى تحدق باعجاب فى «كوزماس» وهو يقفز فى فتوة من صخرة الى صخرة .

وكانت الشمس قد بدأت تغيب حين وصلا الى بقعة صحراوية لا تقف وسطها سوى بضع اشجار من السنديان تنوح ، وضرب «كوستانديس» البغل بعصاه يستحثه على السير .. وقال :

ـ يجب ان نسرع اذا كنا نريد ان نصل الى القرية التالية قبل ان يهبط الظلام . وسوف نتوقف هناك عند «كوبيلينا» العجوز . انها خالتى .. وليس لها منزل ، ولكن قبلها كبير وذلك يكفينا . انك لن تجد بيتا قائما فى تلك القرية كذلك .. فقد اقتحمها الاشرار ، لعنة الله عليهم .

وبرزت امامهم عجوز نصف عمياء تحمل فوق ظهرها حملا من الخشب .. وسألها «كوزماس» :

ـ كيف الحال عندكم يا سيدتى ؟

ـ كما هى الحال مع الكلاب يا ولدى ، آه لو أن الله سبحانه لم يحمل الانسان اكثر مما يحتمل .

ـ هل هاجمكم الأتراك انتم ايضا ؟

ولكن «كوستانديس» اشار الى «كوزماس» فى عنف .. كى يتوقف :

ـ ماذا قلت يا ولدى ؟ .. ان سمعى ثقيل الحمد لله على أية حال .

ـ الى اللقاء يا سيدتى .. فعلينا ان نتابع سيرنا .

ـ هل أنت كريتى ؟

ـ نعم .

ـ باركك الله .. انجب اطفالا يا ولدى . ان كريت أصبحت خاوية ، فأنجب لها أطفالا حتى لا يختفى الكريتيون من الدنيا .. ان كريت سوف تحتاج اليهم ايضا .

وقال «ستانديس» وهو يضرب البغل : «هيا بنا ..» .

وانطلق الاثنان .

ـ من حسن حظنا انها لم تقذفنا بالحجارة ، انها «كوستاندينيا» العجوز أرملة «الحاج» كما يسمونها . حين ترى المسكينة رجلا تفقد اتزانها وتلتقط

الحجارة وتقذفه بها .. انها تظن كل رجل تركيا .
وجمع بعض ثمار السنديان الملقاة على الأرض . فأكلها بينما «كوزماس» يتطلع اليه فى دهشة .

ـ ليست هذه ثمار السنديان .. انها «كستناء» .. على الاقل نحن نسميها كذلك حين يهبط الليل ولا نجد شيئا نأكله ، ثم لا نستطيع أن نميز فى الظلام بين شىء وآخر .

واخيرا انتهيا الى ممر بين الجبال ، فقال «كوستانديس» وهو يشير بيده :
ـ هذه هى القرية ..
ولم ير «كوزماس» سوى أكوام من الاطلال على سفح الجبل ، فقال :
ـ أين هى ؟ انى لا أرى شيئا ؟
ـ أمامك .. هذه الحجارة ، وبعد لحظات ترى الناس .. وهاقد احست الكلاب بنا .

واندفعت بعض الكلاب من وسط الأطلال تنبح وقد برزت عظامها من شدة الجوع . وقال «كوزماس» :

ـ ومن اين لهم بالزيت يا سيدى ؟ أو النفط ؟ انهم يتجمعون كالبوم وسط هذه الأطلال عندما يهبط الليل .
وبرزت خمسة رؤوس او ستة من خلف صفوف الحجارة : «الى أين ؟» .
ـ الى العجوز «كوبيلينا» التى ستعد لنا فراشا وثيرا فى بيتها الملوكى ..

وأجاب «كوستانديس» :
وارتفعت الضحكات .. وقال احدهم :
ـ أمعك قضمة من طعام ؟
ـ نعم .. معنا بعض شىء .
ـ حسن ، فسوف تأكل كوبيلينا العجوز ايضا . ترى هل معكم ايضا بعض الشراب ندفىء به أجسادنا ؟

ـ رذلك أيضا معنا ..

ـ حسن .. فسوف تدفىء كوبيلينا العجوز جسدها هى أيضا ..

وعادت الضحكات ترتفع من جديد ، وقال «كوزماس» فى ذهول :
«انهم يقدرون على الضحك» .. وتوقف «كوستانديس» وبدأ يحصى أكوام الأطلال «أربعة ، خمسة ، ستة ـ آه ، ذلك بيت خالتى . لن نحتاج الى ان نطرق الباب .. فليس ثمة باب» .. ثم صاح :

ـ كوبيلينا .. أخرجى الى الشرفة .
خرجت من خلف الصخور امراة عجوز هشة وسط اسمالها :

ـ أهو انت يا كوستانديس ؟ متى يا ترى تعرف العقل ؟ ومن هذا الذى معك ؟
ـ افتحى الأبواب على مصاريعها ، واذبحى دجاجتين واعهدى بهما الى الخادمة لتنظفهما . نريد احداهما مسلوقة والأخرى محمرة مع البطاطس .. وافتحى صناديقك كذلك واخرجى الملاءات الحريرية واعدى لنا فراشا .. ما اسعدنا بأن وصلنا .. متعك الله بمملكتك .

وأجابت العجوز وهى تتعثر نحوهما :
ـ سيكون كل شىء جاهزا على الفور أيها الريح العاصفة .
ورحبت بكوزماس الذى كان قد ترجل وبدأ يتعثر وسط الانقاض .
ـ مرحبا يا سيدى .. مرحبا يا ولدى . لا تعر سمعك لهذا الأحمق «كوستانديس» لقد فرشت ركنا بالحشائش ـ وذلك افضل ما عندى .. تعال .

وافترشا الصخور ، وجمع «كوستانديس» بعض الأخشاب وأشعل نارا ، بينما فتح «كوزماس» غرارة أخرج منها كل المؤن التى زودته بها أمه ، وجلست العجوز الى جوارهما وبدءوا جميعا يأكلون . ورسمت العجوز علامة الصليب .. وهجمت على الطعام .
ـ تعالوا كل مساء يا أولادى .. كل مساء ، حتى أجد أنا المسكينة شيئا آكله . هل معكم شىء من النبيذ ؟
وأخرج «كوستانديس» زجاجة ما لبثت الأفواه أن تناقلتها ، وظلت العجوز تشرب وتشرب حتى برقت عيناها . كانت جميلة فى شبابها ولا شك ، أما الآن فلم يعد باقيا سوى عينين واسعتين لا معتين بنيتين .

وقال «كوستانديس» الذى كان قد انتشى بالشراب :

- ما رأيك يا عمتى ؟ .. هلا سمحتم لى بأن أغنى ؟
وأجابت العجوز - ضحية ملك الموت القريبة - :
- اذنت لك .. غن ما دمت حيا أيها الأحمق !

وبدأ «كوستانديس» يغنى وهو يمط الأنغام ، بينما خالته تنصت وتقهقة وقد انفرجت شفتاها عن فم بلا أسنان :
فى احدى أمسيات الصيف .
صحبت خالتى ثودورا الى المدينة ..

لقد أغرقنى جمالك فى دوامة ..
آه لو كنت فتاة اخرى ..

أيها الطفل الصغير .. كن رجلا واختر طريقك فسوف أصبح خالتك مرة اخرى .. يوما ما . وأحست العجوز المأخوذة بأن حياة جديدة تدب فى اوصالها ، فبدأت تصفق بيديها و قد أحمر وجهها ، وأخذ «كوزماس» ينظر اليها فى امعان وهو يحدث نفسه : «ياللقوة التى يحملها هؤلاء فى حنايا صدورهم .. هذه هى كريت» .

وصاحت العجوز وهى تضحك : «الفقر أيضا يا ولدى .. ينبغى أن تكون له متعة ، إن المعاناة تستلزم الغناء والشراب حتى لا تتغذى على أجسادنا ، ونحن لن نسمح لهذا «الزبون» الثقيل بأن يجعل من اجسادنا وجبة طعام له .. بل سوف نأكله نحن» .

وعندما تهيأ الاثنان لمغادرتها فى الصباح ، التقطت العجوز قطعة من الحجارة ملطخة بالدماء من ساحة البيت وقدمتها الى «كوزماس» وهى تقول :

«هذه هى الهدية الوحيدة التى أملك أن أقدمها اليك ، احتفظ بهذه القطعة من الحجارة وتذكر معها كريت دائما .. ثم اشارت الى بقع الدماء الحمراء الداكنة وهى تقول : «هذه هى دماء ابنى» .

ومرة اخرى سار «كوستانديس» فى المقدمة وعصاه على كاهله .. يغنى بلا انقطاع ، بينما «كوزماس» وراءه ينظر الى مسقط رأسه الذى يمتد حواليه والذى يمارس الآن ولأول مرة ـ تجربة ادراك معناه الذى غاب عنه طويلا : ثائرة ، قاسية هذه الأرض .. ما أصعب فهمها ، انها لا تتيح لابنائها لحظة واحدة من الراحة او الرقة او الاسترخاء ، وان فيها لشيئا ما غير انسانى ، وان المرء ليحار فى أمرها ، اهى تحب ابناءها أم تكرههم ؟ .. ولكن المؤكد انها تظل تقرعهم حتى تسيل دماؤهم .

واستدار ينظر الى الى اكوام الصخور التى كانت قرية من قبل ، والتى كان يبدو خلالها بعض النسوة والاطفال . وتناهت الى سمعه اصوات وضحكات «اى قوة تكمن هنا ، ويالها من نفوس ، أربعة الاف سنة وهم يكافحون وسط هذه البرية والصخور .. يكافحون الجوع والعطش والتناحر والموت ، ولكنهم أبدا لم يركعوا ، ولم يشكوا ، بل ان الكريتى ليجد العزاء حتى وسط أعمق واقسى حالات اليأس» .

وعندما أصبحت قرية الجلد على مرمى البصر ، كانت الشمس فى كبد السماء تماما وثمة ريح جنوبية حارة تهب آتية من جزيرة العرب والبحر قد بدأت تبين صفحته خلف الجبال .

وكان بيت «سيفاكاس» العجوز يقف على أعلى ربوة فى القرية . متميزا بعصارات النبيذ وعصارات الزيت والحظائر والمخازن التى تمتلىء بالجرار فى صفوف والشرفات الواسعة حيث توضع البسط والوسائد فى اكوام تصل الى السقف فى اثناء الصيف ، وغرف النوم الفسيحة فى الطابق الأول . وكانت الأبواب مفتوحة على مصاريعها ، والناس يدخلون ويخرجون بعد ان يسألوا عن أحوال الفارس العجوز الذى ظل يكفاح ملك الموت سنين طويلة . وكانت زوجات ابنائه .. وكان احفاده ، يصعدون ويهبطون وهم يحصون الجرار ويقيمون ما بداخل المخازن من الدقيق والزيت .. ويتممون على أباريق النبيذ فى قبو الخمور .. ويحصون كل شىء عددا : كم قطعة لحم معلقة فى عوارض السقف ؟ كم قالبا من الجبن ؟ وكانوا يعلنون بصوت مرتفع عن العدد من كل صنف والذى سيرثه كل جانب ، كانوا يرثون الجد

وهو لا يزال على قيد الحياة ، ومن بعيد صاح فيهم العجوز فى غضب : «احملونى الى الفناء حتى لا أسمعكم» .

وأعدوا له فراشا فى الفناء ، فقال : «ضعونى فوق الأرض تحت شجرة الليمون أريد أن ألفظ آخر انفاسى هناك حيث تلمس الأرض جسدى وحيث المس أنا الأرض ، وارفعونى عن الأرض قليلا بما يكفى لأن أرى كل شىء حولى» .

ووضعوا خلف ظهره بعض الحشايا ، وجعلوا عصاه الى جانبه .. وكوب ماء ليشرب «والآن دعونى وحدى .. اغربوا عن وجهى ، لا أريد بجانبى سوى ثاراساكى» وأجال البصر حوله ليرى الحظائر والعصارات والنافوة والأحواض وشجرتى السرو على يمين الباب وشماله . وتنسم الهواء ورائحة

أوراق الليمون .. والروث ، فأحس لحظتها بالبهجة وتحسس لحيته فى ارتياح وسمع تنهيدة الى جانبه فاستدار ليرى شابا منتصب القامة مموج الشعر يقف الى جواره وينتظر .

ـ حسن .. من تكون ؟
ـ كوستانتيس .
ـ ابن من ؟
ـ ابن ولدك نيكوليس .
ـ ولماذا تقف هكذا قريبا منى ؟
ـ موتك يستغرق وقتا طويلا يا جدى ، وأنا فى عجلة من أمرى .. أريد أن أعود الى حظيرة الخراف .. أريد أن أنصرف .
ـ فانصرف اذن ولا تنتظر هكذا بلا فائدة اذهب وأرع خرافك جيدا ، أما أنا فسوف أموت على مهلى .

وانحنى الحفيد وقبل يد جده وهو يقول :
ـ لا .. لن أذهب الا اذا منحتنى بركتك ، اننى انتظر منذ الصباح الباكر من أجل ذلك .
ـ حسن .. فانى امنحك اذن بركتى .. فاذهب ، ولكن استمع جيدا الى ما اقوله : «اذهب الى الداخل اولا ومرهم بأن يحضروا الموائد فى الفناء

امامى حتى يأكل الفرسان الثلاثة هنا وحتى أراهم وهم يأكلون . الا يزالون يأكلون ؟» .

ـ بلى .. لا يزالون .. منذ البارحة مساء ، اعنى منذ وصلوا . اقسم لك يا جدى بأن افواههم لم تعرف الراحة منذ البارحة . انهم ينامون أحيانا للحظات فيسند كل منهم رأسه الى كتف الآخر ، ثم لا يلبثون ان يفيقوا ليستأنفوا طحن الطعام بأسنانهم . والمدرس احضر معه قيثارته ليعزف عليها أمامهم .. والكل لا يكفون عن مضايقة النساء .

ـ ما الذى دهاك أيها الفارغ الراس ؟ .. أصمت .. افعل ما أمرتك به . الموائد تنقل الى هنا حتى أراها ، واذا لم يستطيعوا الحركة فساعدهم أنت يا كوستانتيس . ولا تضحك انهم فرسان ويستحقون الاحترام .. هيا ..

وظهر «شاريديموس» .. وكان جده قد بعث به الى الكابتن ميخايليس يحمل اليه اخبار احتضاره ، ورفع العجوز عينيه ، ورأى شاريديموس :

ـ اى اجابة تحملها الى ؟ هل سيأتى ؟

ـ ايه يقول لك «لا أستطيع ترك موقعى يا ابى ، سامحنى ، ولكننى لا استطيع ان أترك موقعى ، امنحنى بركتك من بعيد .. ووداعا .. وعسى ان نلتقى قريبا» .

ـ انه على حق ، انه اخطأ مرة واحدة ، وقد تعلم منها ، انى امنحه بركتى من بعيد .

ورفع يده يبارك الهواء ، ثم استدار الى «ثاراساكى» وقال :

ـ ثاراساكى يا صغيرى ، هل تفهم ما يجرى ؟

ـ نعم يا جدى .

ـ افتح عينيك جيدا يا ثاراساكي لترى كل شيء بوضوح ، وافتح اذنيك جيدا لتسمع كل شيء بوضوح ، لا يفتك شيء مما تسمع وترى .. الآن سوف يجيء ثلاثة جبال ـ الفرسان الثلاثة .

وبينما كان لا يزال يتكلم ، ظهر «ستافروليوس» النجار بالباب ، وكان الجد قد بعث فى طلبه ليأخذ مقاسات نعشه . واقترب فى بطء وتردد ، وكان الجد قد أغلق عينيه قليلاً وتظاهر بأنه لم يره .. وانحنى الرجل وبسط ذراعية فى حذر ليبدأ القياس ، وتساءل فى محاولة لتهدئه العجوز :

ـ كيف حالك يا كابتن سيفاكاس ؟ انت اليوم على ما يرام والحمد لله . وسوف تهزم ملك الموت ولا شك .

ورأى العجوز كيف يحاول النجار ان يأخذ المقاسات فى حذر وهو يرتعش ، فابتسم فى كمه .. ثم أخذته الشفقة بالرجل فقال :

ـ لا تخف يا ستافروليوس يا أحمق ، وأحضر مسطرتك وخذ المقاسات .

وقال النجار فى ذهول :

ـ ماذا قلت يا كابتن ؟

ـ ايها الغبى ، ابدأ عملك وخذ المقاسات .

وخيل الى الرجل أن العجوز يبحث عن عصاه فأجفل ، واخرج شريط القياس من حزامه ووضعه بحذاء الجسد الضخم . وسأله العجوز :

ـ كم الطول ؟

ـ ستة أقدام تماما يا كابتن .

ـ اذن فقد انكمشت ، قس العرض كذلك .

وقاس «ستافروليوس» العرض .. ثم توقف .

ـ هيا .. واسرع يا تعس ، اريده من خشب جيد ، الديك خشب جوز ؟

ـ بالتأكيد يا كابتن .

واستدار العجوز الى ثاراساكي .

ـ هل تستطيع تمييز خشب الجوز يا ثاراساكى ؟

ـ نعم يا جدى .

ـ حسن .. فتأكد اذن من انه لن يغشنا ، اريده من خشب الجوز .. انصرف .

وكانت النسوة فى تلك الاثناء يحملن الموائد الى الفناء ويضعن فوقها اللحم المشوى والمشهيات واباريق النبيذ وكئوس الشرب النحاسة ، وتحرك العجوز قليلا يراقبهن ، وطنت نحلتان حول رأسه الضخم كثيف الشعر ، وبدأ بعض النمل يجوس فوق صدره الذى يكسوه الشعر فيحس لدغدغته بالمتعة .. وسأل :

ـ اين الفرسان ؟

ـ هاهم قادمون يا جدى .

ولاح الثلاثة يسيرون فى بطء يسند كل منهم الآخر ، وقد انحرفت

رؤوسهم .. وابتلت شواربهم وتهدلت .. وانحلت أحزمتهم العريضة الحمراء ، سراويلهم منتفخة من صوف سميك ، واحذيتهم مهلهلة .. وكل واحد منهم يضع خلف اذنه زهرة اقحوان .

وهمس واحد منهم للآخرين :

ـ فلنتماسك ونحن نسير يا اخوتى ، حتى لا نجلب على أنفسنا العار .

وقال المدرس الأعرج ، وقد اسندوه بينهم :

ـ امسكوا بى جيدا حتى لا اسقط .

كان المسكين في حالة يرثى لها من السكر . وقد تدلت فيثارته من كتفة ، وكأنها حزام خراطيش ، والى يمينه سار الكابتن «مانداكاس» شامخا فى طوله ، بلحيته القصيرة وعنقه القوى وعظامه الصلبة وأذنيه العملاقتين وقد لمعت فى خاصرته غدارتاه الفضيتان ، الى اليسار كان الكابتن «كاستيرماس» القرصان وقد لوح هواء البحر وجهه ، بوجهة الوحشى وعينيه الحولاوين ، وعندما رأوا العجوز .. توقفوا .

وصاح «مانداكاس» وهو يزأر بالضحك :

ـ الا تزال حيا يا سيفاكاس يا اخى ؟ ونحن الذين كنا نأكل ونشرب ونقول : «كان الله به رحيما» .

وقال العجوز :

ـ الن تأكلوا وتشربوا المزيد يا فرسان ، لقد سمعت ان افواهكم لم تسترح منذ البارحة ، فمتى اذن تمتلئون حتى تنسوا المعدة فنستطيع ان نتبادل الحديث كالرجال ؟

واستعد المدرس للكلام ، ولكن الكلمات تدحرجت داخل فمه مثل قطع من حجر الصوان . وغطى «كاستيرماس» وجهه بيديه وقال : «أهدأ ايها المدرس . والا فسيرون الأم آل حالنا» .

ثم اتجه بالحديث الى «سيفاكاس» فى صوت محترم ، وهو يضع يده فوق صدره :

ـ طال عمرك يا كابتن سيفاكاس ، كم نحن سعداء بأن نزورك فى بيتك . لقد اكلنا وشربنا ولسوف نأكل ونشرب المزيد فى صحتك ، وبعدها سوف نتبادل الحديث مثل الرجال كما تريد . فلا تتعجل .

وأجاب العجوز :

ـ لست انا الذى اتعجل ، ولكنه غيرى .

ـ من ؟

ـ ملك الموت .

وقال الكابتن «ماندااكاس» وهو يفتل شاربه :

ـ نحن ثلاث زعماء .. وبك يكتمل عددنا أربعة ، ولابد اذن ان ينتظر :

وتمايل الثلاثة معا مثل وحش ذى رؤوس ثلاثة واقدام ست ، وامسكوا بالمدرس من عنقه حتى لا يسقط فوق الأرض . وكان الاحفاد وزوجات الأبناء قد خرجوا وبدءوا يضحكون بصوت مرتفع لمشهد الأبطال السكارى ، ولكن العجوز «سيفاكاس» صاح فى غضب :

ـ علام تضحكون ؟ انهم فرسان ، رجال اشداء .. امسكوا بهم جيدا حتى لا يسقطوا .

وصاح الكابتن «كاتسيرماس» هادرا :

ـ اذا اقترب احد منى سحقت جمجمته .

وتخلص من زميليه ثم اتجه الى الموائد بخطوات واسعة .

واخيرا وصل الثلاثة ، وجلسوا فوق عروشهم ، وملأوا اكوابهم ، ورفع المدرس قيثارته عن كتفه ووضعها فوق ركبتيه ثم تناول قطعة من اللحم ليقوى بها نفسه قبل ان يداعب اوتارها .

وبينما كان يتناول قوس القيثارة ، وصل «كوزماس» فرآه الجد وزوى ما بين حاجبيه حتى يعرف من يكون .

ـ من هذا الهزيل الواقف عند عتبة الباب ؟

واتجه نحوه «كوزماس» وهو يقول :

ـ حفيدك يا جدى .

ـ اى حفيد ؟

ـ ابن ولدك كوستاروس .. اول الاحفاد وصاح الجد مرحبا وهو يمد يده :

ـ مرحبا . تعال .. اقترب حتى أمنحك بركتى .. أين كنت طوال هذه السنين ؟ ماذا كنت تفعل فى بلاد الفرنجة . ما الذى تعلمته هناك ؟ نعم .. لو كان لدى مزيد من الوقت لاسألك ولتجيب . ولكن زيت المصباح نضب

والدنيا بدأت تظلم .

وانحنى «كوزماس» ليتلقى البركة وظل الجد ممسكا بيده لا يريد ان يدعه ينهض واقفا على قدميه .

ـ يقولون انك تكتب ، فما هذا الذى تكتبه بحق الاله الذى تعبده ؟ سوف تصبح اذن مثل «كرياراس» الشاعر الذى يجوب القرى ويمر على الناس وبيده طبق يجمع فيه النقود .

وبدأ الجد يتفحصه بعينيه الصغيرتين الحادتين . اى صنف من الأحفاد هذا الشاب ؟ اثمة قيمة له أم لا ؟ وكيف اتفق ان بذرته اثمرت مثل حامل القلم هذا ؟

ـ متزوج ؟

ـ نعم .

ـ يقولون انك اخترت يهودية .

وقال «كوزماس» وهو ينظر الى العجوز فى قلق .

ـ نعم .

ـ ليس فى الأمر خطأ ايها الاحمق . ان لهم هم ايضا أرواحا ، والذى خلقنا جميعا اله واحد .. انت اصبت : احببتها فأخذتها مثل فارس ، لا بأس مادامت محترمة وسيدة بيت وحسنة المنظر وتنجب اطفالا ـ لا تطلب فى المرأة اكثر من هذا .

ـ لقد اعتنقت المسيحية ياجدى . ان لها روحا طيبة وسوف تحبها .

ـ وهل هناك ثمة لحم ، يكسو عظامها ؟ .. فماذا ستفعل المرأة بالروح ؟ .. الجسد هو وحده الذى تنمو فيه البذرة . منذ متى تزوجتها ؟ .

ـ منذ عامين ياجدى .

ـ والأولاد ؟ ..

ـ ليس بعد ..

ـ أنت اذن «لست متعجلا» فماذا تفعلان اذن كل ليلة ، ايها

الأحمقان ؟ اننى أريد أولاد أحفاد من الصلب ، عليها أن تنجب كريتيين .. اسمعني جيدا : كريتيين لايهود ، وخذها نصيحة : احذر الكتب .

ـ انها حامل ياجدى .

ـ بركاتي .. فلتسمه « سيفاكاس » ، هل سمعت ؟ هكذا يقوم الموتى مرة ثانية ، والآن اذهب .. تحرك جانبا .

ونظر الى « كاتيرينا » زوج ابنه والتى كانت تقف خلفه بذراعيها مطويتين ، فقال لها :

ـ ضعي وسادة أخرى خلف ظهرى ، أريد أن أجلس مستقيما حتى أتكلم ، وهاتى لى بعض زهور الليمون لأشمها ، وعندما يتكلم الفرسان لا أريد أن أسمع صوتا منكم ، افسحى ، فأنا أريد أن أتحدث الى الكبار .

وكان الكبار فى تلك الأثناء قد انهمكوا مرة أخرى فى الأكل والشرب ، وكان المدرس قد أسند راسه الاسود الى جذع شجرة سرو وبدأ يغنى بمصاحبة قيثارته والدموع فى عينيه :

وراء الحمائم .... دخت طول اليوم نفدت ذخيرتى .

فنظر فى النهاية .. أسعد قلبى .

وقعت ياحمامتى ..

وصفق الجد بيديه وصاح :

ـ والآن يافرسان ، الا تزال بطونكم التعسة تحتاج الى المزيد ؟ الآن كفى ، فامسحوا لحاكم واغسلوا أيديكم وشدوا أحزمتكم واقتربوا .

ثمن كلمات أريد ان اقولها ، فمن أجلها دعوتكم . وانت أيها المدرس ، ضع هذه القيثارة على كتفك ودع الحمائم والذخيرة وكل شىء ، فقد كفانا منها الآن .

ثم استدار الى النساء والأحفاد وقال :

ـ ياأولاد ، احضروا لهم ماء ليغتسلوا ، وبعض الطيب حتى تزول هذه الروائح العفنة منهم . نظفوهم « وهندموهم » يا أولاد قبل أن يقتربوا منى .

وأحضرت الفتيات الطيب ورششنه فوق الرجل العجوز ، وأحضرن خل الورد لكي يستنشقه الرجال فيفيقوا ، وعاونهم حتى اقتربوا من الجد ، وأصبح اثنان منهم الى يمينه والى يساره ، اما المدرس فقد جلس أمامه القرفصاء .

وفتح « سيفاكاس » العجوز ذراعيه يحيى الزعماء كما لو كان يراهم لأول مرة :

ـ الف مرة مرحبا بكم فى بيتى المتواضع .. مرحبا بك ياكابتن « مانداكاس » أيها القرصان الشديد البأس فى أعالى البحار ، وبك أنت أيضا أيها الكابتن المدرس الذى حارب وسط ظلالنا والذى كتب أوراق الثورة .. وكتب ماكان ينبغى كتابته للأتراك والفرنجة ..

وقال الثلاثة وقد وضع كل منهم يده فوق صدره :

ـ التحية لك ياكابتن سيفاكاس ..

وأرهقت الكلمات العجوز « سيفاكاس » ، فتنفس بعمق ، وشرب جرعة ماء ، ثم عاد مرة أخرى ليتكلم :

ـ يا اخوتى ، هل تذكرون كيف أننا كنا نحن الفرسان نجتمع عند كل ثورة تحت شجرة سنديان أو فى أحد الأديرة ونردد الأقسام . ويقبل كل منها الآخر لأننا كنا نخرج بعدها لنلتقى بالموت ؟ .. ان اجتماعنا اليوم شبيه بمثل هذه الاجتماعات وهو كما ترون يتم تحت شجرة ليمون العجوز « سيفاكاس » .. اعلموا أننى كنت منذ أيام وأيام أتهيأ للرحيل ، ولكننى لم أرحل بعد ، لقد أدليت باعترافى .. ولكننى لم أرحل ، ولن أرحل أيها الفرسان قبل أن نتبادل نحن الأربعة الحديث .. هذه أيضا ثورة ، فماذا

سيكون قرارنا أيها الاخوة ؟ .. هل سمعتم ماقلت ؟ هل أذهانكم صافية ؟ هل تستطيعون الاستماع والكلام ؟ أم ترانى أهدر كلماتى وأضيعها عبثا ؟

وقال الثلاثة وهم يضعون أيديهم فوق صدورهم وكأنهم يقسمون :

ـ نستطيع أن نسمع .. وأن نتكلم .

ـ حسن ، فاستمعوا الى اذن ، لقد بلغت من العمر مائة عام ، وأنتم جميعا تشهدون جميعا بأننى حاربت .. وعملت ، وبأننى سعدت وحزنت ، وبأننى أديت واجبى كرجل . وهاقد حانت ساعتى ، فالأرض تفتح لى بابها .. وهى تريد كما يبدو أن تبتلعنى ، حسن ، فلتبتلعنى ولتأخذ منى بثأرها .. ولكنها لن تبتلعنى بأكملى انظروا ماذا تركت ورائى .

ثم أشار الى أبنائه وأحفاده وحفيداته وأبناء أحفاده ..

ـ شعب بأكمله ، من أجل هذا فأنا لا اكترث بالموت ، فقد قهرته . ان الشيطان قد نال منه أفضل مالديه .. ولكن ثمة أمورا تقلقنى .

وتوقف قليلا وهو يتنهد ، ثم قال فى صوت ارتعش لأول مرة :

ـ لى زمان طويل أيها الفرسان وأنا لا استطيع النوم . ثمة دودة تضايقنى ..

وعاد ينظر الى الفرسان واحدا بعد الآخر ، ثم أحنى رأسه وسأل فى صوت مرتفع .

ـ هل سمعتم ماقلته ؟ انتبه . ان عينيك تنعسان أيها المدرس .

وقال المدرس فى غلظة :

ـ اننا منصتون . أى دودة ؟

ـ دودة تنهش فى لحمى ياأخوتى ، انى لا أستعرض حياتى وأنظر الى

موتى .. وأظل افكر وافكر : من اين جئنا يا أولادى والى أين المصير ؟ .. تلك هي الدودة التى تنهش فى لحمى .

وساد الصمت ، وارتعشت شفتاه ، وبدأ القلق يساور الفرسان الثلاثة . وحك المدرس رأسه الأصلع وفتح فمه يتكلم ، ولكنه راجع نفسه .. فلم يكن يعرف بالضبط ما الذى يمكن أن يقوله .

وعاد العجوز يسال :

ـ الم يفكر واحد منكم فى ذلك من قبل ؟ ألم تضايقكم هذه الدودة ابدا ؟

وأجاب الثلاثة :

ـ ابدا ..

ـ وانا ايضا طوال حياتى .. والله يعلم . ولكنى لم أعد أستطيع النوم فى الأيام الأخيرة . لمن كنت سأسرد أحزانى ؟ ان أحفادى صغار ـ فى الخامسة عشرة أو السادسة عشرة ، وعقولهم ليست ناضجة بما فيه الكفاية ، وما كان بمقدورهم أن يفهموا ماأقول . لو كان ولدى البكر « كوستاروس » حيا ، لكان الآن فى السبعين من عمره ولكان قد بدأ يفهم مثل هذه الأمور . ولكنه أصبح رمادا فى « أركادى » . ومن اجل هذا قررت ان أدعو الى هذا الاجتماع وأن أبعث فى طلب رفاق الشباب لأتكلم معهم يامن أيديكم ملأى بالحبوب مثل سنابل القمح أيام الحصاد ، ولعلكم قد توقعتم شيئا ما حين دعوتكم . تكلموا . افتحوا قلوبكم .. ولنتشاور معا ونبحث الأمر فلست أريد أن اموت أعمى . أنت ياكابتن « مانداكاس » الذى ستتكلم أولا ، فأنت الأكبر سنا بعدى . كم كان عمرك فى سنة ١٨٢١ ؟

ـ احدى وعشرون سنة ياأخى سيفاكاس ، هل نسيت ؟

ـ وانا كنت فى الثلاثين تقريبا .. اكبر منك بثمانى سنوات . أنت اذن أول من يتكلم . فتكلم ، فأنت عشت وتمنطقت بالحزام سنين عددا . ماذا تعلمت طوال هذه السنين ؟

ورفع الكابتن « مانداكاس » يده الى فمه .. ثم اخذ يتحسس لحيته الكثيفة فى بطء .. واستغرقه تفكير عميق ، حتى قال فى النهاية :

ـ أمن أجل هذا دعوتنا ياكابتن سيفاكاس ؟ ذلك يعنى متاعب جمة بالنسبة لنا أنت تطلب منا ثمنا باهظا فى مقابل النبيذ واللحم الذى قدمته لنا . مارايك أنت أيها المدرس ؟

وصاح العجوز :

ـ دع المدرس وشأنه .. كلمنى .. ألم تتعلم شيئا من كل السنين التى عشتها ؟؟ لاتلف أو تدور ، تكلم بشجاعة مثل الرجال .

وأخرج الكابتن « مانداكاس » علبة الطباق من حزامه ولف لنفسه سيجارة ، ثم قال بعد هنيهة :

ـ أنت تضع السكين فوق حلقى أيها العجوز سيفاكاس ، ماذا أقول لك ؟ بل وكيف أبدأ ؟ لقد عشت حياتى كلها مثل رجل أعمى ، تماما كما وصفت أنت نفسك .. ولكننى لا أندم عليها : كالأعمى كنت أغشى الكنيسة وأوقد الشموع وأركع أمام المذبح ، وكالأعمى بذرت وحصدت ، وطحنت وأكلت خبزى . والآن أنت تسألنى ـ فهلا منحتنى فرصة أعصر فيها ذهنى بحق الله .. حتى تخرج منه القطرات ؟ .. هل إنت فى عجلة شديدة من أمرك

ـ حسن ، سوف أصبر ، فاعصر ذهنك كما شاء ياكابتن « مانداكاس » ..

ـ ونادى الكابتن « مانداكاس » ابنه بالتبنى والذى كان يقف خلفه

ـ ياناكوس .. أحضر غرارتى .

وانتظر الكل فى صمت ، واستدار الجد الى « كوزماس » وقال :

ـ أحضر مقعدا واجلس حتى لاتتعب . واستمع جيدا . هل تفهم مانقول ؟

- افهم ياجدى ..

- واحضر « ياناكوس » الغرارة ووضعها أمام أبيه بالتبنى ، وبدأ العجوز « مانداكاس » يقلب يده داخلها حتى أخرج اناء زجاجيا واسع الفوهة ومكسوا بالجلد .

وسأله الجد وهو يشرئب بعنقه :

- وماذا تضع داخل هذا الاناء ؟

وضحك الكابتن « مانداكاس » فقال الآخر فى غضب :

- أهذه اجابتك ؟ .. ماهذا الاناء ؟

وقال « مانداكاس » :

- بعض الناس يحتفظون فى غرارتهم بالخبز والنبيذ واللحم عندما يخرجون الى السفر ، وانا افعل مثلهم ، ولكننى آخذ أيضا هذا الاناء الذى تراه ..

- ماذا بداخله ؟ لا أرى جيدا .

ورفع الكابتن « مانداكاس » الاناء قريبا من عينى « سيفاكاس » العجوز وسقطت فوقه أشعة المساء .. فبدا أحمر متوهجا .

- أمازلت لاترى شيئا ؟

وقال الجد :

- قطع من اللحم تعوم فى الماء ..

- انها ليست قطعا من اللحم أيها العجوز « سيفاكاس » ، انها آذان ، وهى ليست فى ماء ، ولكنها فى خمر . فى ذلك اليوم من عام ١٨٢١ عندما

اسقطني أحد الأتراك فوق الأرض وقضم أذنا من أذني الاثنتين ، اقسمت ان اقطع أذنا من أذني كل تركي أقتله ثم أضعها داخل هذا الاناء . ولكي أحكي لك قصة حياتي ياكابتن « سيفاكاس » فانه يكفيني أن أنظر الي أذن بعد أخرى من هذه الآذان المحفوظة في الخمر .. ثم أحكي لك قصتها . هذه الاذن مثلا في أسفل الاناء ـ هذه التي ينبت منها الشعر ـ هي اذن ذلك الوحش صياد الكريتيين « علي بك » كان قد قتل أخي « يانا جيس » ثم عاد الي ضيعته في « ريثيمنو » ليحتفل مع حريمه . ولنفس السبب ابقى المصابيح مضيئة فوق البرج . وفي ذات المساء جلست انا في المقهى التركي ودخنت « النرجيلة » وطلبت من التركي الذي يعد الفحم أن يحضر لي بعض الفحم الملتهب « لأن نرجيلتي توشك أن تنطفيء » .. ثم أسرعت على الفور أضم فم النرجيلة جانبا ، وأعدو خارجا وكأن جناحين استقرا في قدمي ، واندفعت وسط الحقول متجها الي ضيعة « علي بك » .. وصعدت الدرج عدوا .. واندفعت الي غرفة نومه حيث كان يرقد مع زوجته ، وألقيت نفسي فوقه وفصلت رأسه عن عنقه ، ثم قطعت أذنه ولففتها بمنديلي ، وعدت الي المقهى في ذات اللحظة التي كان الرجل التركي يعود فيها حاملا الفحم الملتهب . وامسكت بفم النرجيلة وبدأت أدخن . ولم يلحظ أحد انني غبت عن المقهى . وفي اليوم التالي ـ وعندما انتشرت أنباء مقتل « علي بك » صاح الباشا « لابد انه مانداكاس » ... ولكن الأتراك الذين كانوا في المقهى اقسموا بأن الكابتن مانداكاس كان يدخن النرجيلة في مقهى « حسن » طول المساء .

ثم أشار الي أذن أخرى وقال :

ـ أما هذه الاذن الغليظة الداكنة ذات الحلقة ، فهي لواحد من المغاربة كان يدعى « رمضان » .. وكان هو الآخر جزارا .. جلل الله عظامه بالقطران .. واجهته ذات مساء وهو وحده على شاطيء « تريبيتي » خارج « ميجالو كاسترو » .. وقلت له « يارمضان .. الا تخشى الله ؟ » وأجابني الكلب « بل هو الذي يخشاني ، فأنا رمضان » .. وقلت له وأنا أستل خنجري : « وأنا مانداكاس » .. أخرج خنجرك أنت الآخر » ـ « ولكن خنجري ليس معي ، أنت تهاجمني وأنا أعزل أيها الكافر » ـ « معي خنجران ، فاختر لك واحدا منهما » وألقيت اليه بالخنجر الذي اختاره فرفعه

عاليا ، وبدأ القتال بيننا فوق حصباء الشاطىء .. وظللنا نتقاتل ونتقاتل حتى هبط الليل . وكانت الدماء تسيل فوق أجسادنا والعرق يتصبب منها ونحن نغلى كالبركان . ثم نزلنا الماء حتى نبرد أجسادنا فصار الماء أحمر اللون . ولم نتكلم ، ولكننا فقط كنا نهدر كالثيران . ومر صديق لهذا المغربى أراد أن يساعده ، ولكن الرجل صاح فيه « سوف أقطعك كالسردين اذا أنت اقتربت ، دعنا وحدنا وانصرف » وقلت له لحظتها « مرحى يارمضان ، أنت فارس ولاشك » فأجابنى قائلا « وأنت أيضا فارس .. ونحن الاثنان وحشان مفترسان » ـ « فلابد أن يموت أحدنا اذن » .. واندفعت نحوه من جديد صارخا ، فأجفل ، فقفزت مباشرة نحو عنقه وغرست خنجرى فى قصبته الهوائية كما لو كنت تذبح خنزيرا سمينا ، ثم أخذت اذنه بحلقتها .. وهاهى ذى .

ثم مد أصابعه وقد ادفأته ذكريات أعماله البطولية .. وتابع الحديث :

ـ أما هذه الاذن التى بدأ لونها يتحول الى الأخضر ، فهى اذن الجزار « مصطفى » . وهذه التى فى الوسط اذن رجل البانى .. أما هذه الممزقة فهى لواحد من الائمة .. اللعنة عليه . لقد كان صوته أشبه بالجرس . وكان من الواجب على أن اقطع لسانه وأحفظه هنا ايضا . وهذه الاذن الى جوارها ، والمستديرة مثل المحارة فهى أذن « بيرتيف افندى » ذلك الشاب الوقح .. الأنيق مثل الصورة المرسومة والذى كان يشبه القديس جورج . كان بمقدورى أن أصبر عليه ! لقد كان يمتطى صهوة جواده وينطلق فى أحياء الكريتيين ويغرى نساءهم . ولم تكن هناك واحدة تستطيع مقاومة سحر ذلك الكلب . وكان أمرهن يحزننى ، فاندفعت يوما الى داخل بيته ، وتقاتلنا داخل حجرة نومه . وكان هو هش البناء أضعفته النساء ، فلم يبد مقاومة شديدة .. ومن ثم ، قطعت عنقه الرقيق وأخذت أذنه المستديرة .

ان هذا الاناء الزجاجى يحتوى على ثورات كريت . ولم يكن بمقدورى أن اجمع آذان الذين قتلتهم أثناء المعارك . ولكن .. ها هنا ترون ثورات ١٨٢١ ـ ٣٤ ، ٤١ ، ٥٤ ، ٧٨ .. اننى الآن صرت عجوزا .. فلم تأت الثورة الأخيرة بأذن جديدة تضاف الى هذه الآذان .. والحق أننى كنت وحشا ضاريا .. ارتكبت أفظع الأعمال ، وليسامحنى الله . كنت أندفع خارجا من

بيتى عندما تندلع كل ثورة وأدع أطفالى وحقول الكروم والأرض لم تحرث بعد .. ثم أمتطى صهوة جوادى وألحق بقائدى الكابتن « كوراكس » (تعنى الغراب) .

وعندما تذكر ذلك الاسم الشهير « تنهد فجأة .. واستطرد يقول :

ـ لا أحسب أن الدنيا كلها سيخلق فيها رجل قوى مثله . من نكون نحن بالمقارنة به ؟ مجرد أشكال مضحكة . لم يكن أحد يجرؤ على المزاح أمامه .. ولم يسمعه أحدنا يضحك مرة . كانت عيناه مستديرتين سوداوين قاسيتين مثل عينى نسر ، ولم يكن يخطىء أبدا . لم يكن يشرب .. ولم يكن يسب أو يلعن ولم يكن يجرى وراء النساء .. وعندما كان يخرج الى المعركة ، كان يحرث جسد فرسه بمهمازه ويصب رصاصه فوق الأتراك . ولم يكن يدير رأسه حوله ليرى ما اذا كان أحد يتبعه ، ولم يكن يمعن النظر أمامه ليحصى عدد الطرابيش التركية ، ولم تكن تمسه أية رصاصة .. الحق أنه لم يكن رجلا .. لا .. وليسامحنى الله ، لقد كان ملاكا .

وعاد يتنهد .

ـ .. ولم يكن ينقصه سوى أجنحة الملاك وكان العجوز « سيفاكاس » يسمع وهو يتململ فوق الوسائد ، ولكنه أظهر صبرا محمودا وهو يشم أوراق الليمون . وأخيرا .. لم يعد يحتمل ، فصاح فى غضب :

ـ ضع هذا الاناء فى غرارتك ياكابتن « مانداكاس » فليست هناك حدود لأعمال الرجال الوحشية . أجب الآن على سؤالى : ماذا تعلمت اذن من كل هذه الآذان ؟ والام وصلت ؟ طالما أنك ترى حياتك كلها داخل هذا الاناء ، فقل لى اذن : أكان طريقك الذى سلكته صحيحا أم أنك تندم على كل مافعلت ؟

وصاح الكابتن « مانداكاس » وقد فقد أعصابه :

ـ أندم عليها ؟ لا . ولو أتيح لى أن أبدأ كل شىء من جديد أيها العجوز سيفاكاس ، فسوف أتزوج نفس المرأة ، وأنجب نفس الأولاد ، وأقتل نفس الأتراك ـ وربما المزيد ـ وأرتدى نفس السراويل ، وأضع نفس الحزام

ونفس الحذاء .. لن أغير من كل مافعلت قدر شعرة . واذا أنا واجهت الله غدا ، فسوف أحمل معى هذا الاناء واقول له سبحانه « اما ان تدعنى أدخل الجنة ومعى هذا الاناء ، واما لاتدخلنى الجنة على الاطلاق »

وصاح « سيفاكاس » العجوز :

ـ أمن أجل ذلك كله ولدت ؟ .. كى تقتل ؟ أمن أجل هذا خلقك الله على الأرض ؟

ـ لا .. لاتحاول أن تلوى عنق كلماتى أيها العجوز سيفاكاس . أنا لست شرها للدماء .. كلا ، ولا أقتل حبا فى القتل . ولكننى ..

ثم أخذ يحك فروة رأسه ، وفجأة صاح :

ـ ولكننى كنت أحارب من أجل الحرية .

ثم استطرد وقد أحس بضرورة استكمال حديثه :

ـ بلى .. لقد سألتنى من أين جئنا ، والى أين المصير ، وعندما بدأت حديثى لم أكن أدرك بعد من أين وإلى أين ـ وأقسم بالليل الذى يوشك أن يهبط ويلفنا ـ ولكن بعد أن بدأنا الحديث فتشعب هنا وهناك ، بدأ ذهنى يصفو .. ياكابتن سيفاكاس : نحن جئنا من العبودية ، ونمضى الى الحرية .. لقد ولدنا عبيدا وحاربنا طوال حياتنا من أجل أن نصبح أحرارا . ونحن الكريتيين ، لايمكن أن نصبح أحرارا الا من خلال القتل . من أجل هذا قتلت أنا هؤلاء الأتراك . هذا جوابى .. أنت سألتنى ، وأنا أجبت .. أما الآن ، فقد تقدم بى العمر وأصبحت عجوزا : نحيت خنجرى جانبا .. وفتحت ذراعى ، الآن يستطيع ملك الموت أن يقبل .

ثم نادى ولده بالتبنى :

ـ ياناكوس .. ضع الغرارة مكانها .

وصاح الجد :

ـ هكذا تكون الكلمات .. بارك الله يديك ياكابتن مانداكاس ، لقد درت حولها طويلا ، ولكنك أدركت الحقيقة أخيرا . هكذا تكلمت .. لقد أدركت النهاية وأديت واجبك . ولكن ، هل تعتقد أنه ليس هناك سوى طريق واحد ؟ ثمة طرق أخرى ممكنة كما سترى . الآن تتكلم أنت ياكابتن كاتسيرماس .. أيها القرصان ـ هذا دورك ..

ـ لاتعجبنى هذه الطريقة التى تعاملنا بها ياسيفاكاس .. مطلقا .. لقد دعوتنا الى بيتك هذا ، ولأنك أكبر منا قليلا فى السن ، فأنت تجعل من نفسك قائدا وتأمرنا بأن نجيب ، لا .

ـ لن أقول شيئا .

ـ لاتغضب أيها الأحمق العنيد . أنا لا أمارس معكم لعبة القيادة لأننى أكبر منكم سنا .. ولكن لأننى سأذهب الى باطن الأرض قبلكم فليس لدى وقت أضيعه . من أجل هذا سألتكم . أنا لا أريد أن أموت أعمى . اننى أسألكم العون ياأولادى .. أسألكم ماينير الأمر أمامى . ألا تفهم ياكابتن كاتسيرماس ؟

ـ بلى .. أفهم ، فلا داعى لأن تصرخ . ولكنك لست سفينة وسط الأخطار استطيع أن أتجه اليها وأنقذها بزورقى . لقد ناضلت فى البحر طول حياتى ، وذلك هو المكان الوحيد الذى أعرف طريقى خلاله . ليس فى وسعى أن أساعد أحدا فى غير هذا المكان ، فماذا تتوقع منى اذن ؟

وصاح الجد هادرا :

ـ اننى أغرق أيها القرصان .. والغريق يمسكون به من شعر رأسه .

ـ شعرك أنت ياسيفاكاس وليس شعرنا نحن . أنت تقف الآن على أبواب الجحيم والخوف يتملكك . أنت تسميه دودة .. وأنا أسميه الخوف . من أجل هذا أنت تسأل أصحابك : « ماهذا ياأولاد ؟ الى أين أمضى ؟ الى أين

أؤخذ ؟ » .. كيف لنا أن نعرف شيئا من ذلك الذى يمكن أن يريحك ؟ لقد عشنا حياتنا كما اتفق ، وسوف نموت أيضا كما اتفق ،كسفينة بلا دفة شراعها منتفخ بالهواء . ان الريح لتهب .. ونحن نمضى حيث اتجاهها ، ان الماء ليقتحم علينا السفينة .. ونحن نلتصق بالمضخات نعمل عليها ليل نهار .. ولكن الماء يرتفع .. والمضخات صدئة لاتعود تعمل بعد .. ثم اذا نحن فى قاع البحر . هذه هى حياة البشر مهما صرخت وصحت .. فما واجبنا نحن ؟ .. واجبنا أن نظل لصيقين بالمضخات ليل نهار ، لا أن يبسط كل منا ذراعه ، ولا أن نشكو ، ولا أن نئن . لاينبغى أبدا أن نستسلم ، وانما الذى ينبغى حقا .. هو أن نظل نعمل بالمضخات ليل نهار .. هذا هو الذى تعلمته من الحياة .. ولك أن تقبله أو ترفضه .

ثم استدار بوجهه الوحشى الى الكابتن مانداكاس وقال :

ـ لم أكن مثلك ياسيدى مسمرا بالأرض وفوق عينيك غمامتان لاترى من خلالهما سوى الأتراك والمسيحيين ، فتقتل الأتراك وتقطع آذانهم وتحفظها فى الكحول .. وليس بوسعى أن أحضر الآن اناء أخرجه وأعرضه أمام الجميع وأقول : « هذه هى حياتى » .. لقد قمت برحلات كثيرة ياكابتن مانداكاس وشاهدت الدنيا كلها . لقد نمت فى أحضان النساء من كل صنف ، أوغلت فى افريقيا حيث تنضج الحرارة الخبز .. زرت أكبر الموانىء واصغرها .. رأيت ملايين البشر من السود ، وملايين البشر من الصفر ـ وكانت عيناى تنظران اليهم شذرا .. كنت فى البداية أحسب أن رائحتهم كلهم منتنة ، وكنت أقول لنفسى : « الكريتيون وحدهم هم أصحاب الرائحة الزكية .. والمسيحيون وحدهم من بين الكريتيين » .. ولكنى ما لبثت أن أدركت الحقيقة .. أدركتها شيئا فشيئا : نحن البشر جميعا تنضح رائحتنا بنفس الطريقة ، ان كانت منتنة أو زكية .. فلعنة الله علينا جميعا .

ثم القيت بنفسى الى دنيا القرصنة ، وجدت أن الدنيا لاتخرج عن كونها مجموعة من الأوانى : بعضها من نحاس وبعضها الآخر من طين ، وكلها تصطدم ببعضها البعض . فاذا كنت من نحاس يا كاتسيرماس فأنت اذن حسن الحظ ، والا فانك سوف تصبح شظايا ، وان أنت تحطمت فان شظاياك لن تلتئم مرة أخرى ، سوف تنتهى . وهكذا ، فقد صادقت بعض

الجزائريين ، ورفعنا معا الأعلام السوداء وألقينا مراسينا فى أركان البحر لننقض على السفن التجارية ، نقتل ونسلب وننهب ونهرب ونخفى أسلابنا فى الجزر المهجورة . وقد حدث مرة - وأنتم جميعا تذكرون ذلك - أننى أفرغت فى « جاربوزا » سفينة محملة بالقرفة والقرنفل والمسك ، حتى تطيب رائحة كريت كلها . هل نسيت ياكابتن سيفاكاس ؟ لقد أرسلت الى عظمتك يومها غرارة مملوءة قرنفلا وقرفة .

وقال العجوز :

- أكمل .. انته الى الخلاصة ، علام يشير ذلك كله ؟

- انه يشير الى ماتريد أن تفهمه . لم نكن نخشى الله أو الناس ، كنت أنا مسيحيا وكانوا هم مسلمين ، ولكننا لم نكن نسمح لسفينة بأن تمر بسلام سواء أكانت وجهتها مكة أو القدس ، كنا نهاجمها ونقتل الحجاج جميعا . لقد كنت وحشا ضاريا وسط وحوش ضارية ، وفعلت مثلما كان يفعل الجزائريون حلقت رأسى الا من ذؤابة فى الوسط مثل ذيل خنزير ، وجمعت من الريالات التركى وغير التركى . وكنت أختطف من كل سفينة امرأتين أو ثلاثا أستمتع بهن ثم ألقيهن بعد ذلك فى البحر . كنت وحشا مفترسا كما قلت لكم - أكثر منك وحشية ياكابتن مانداكاس . واذا أنت سألتنى ياكابتن سيفاكاس عما اذا كنت أندم على مافعلت لقلت لك : « لقد عشت حياة غنية مثل الفارس ، ولست أندم عليها . لقد جعلنى الله ذئبا فأكلت الحملان ، ولو كان قد خلقنى حملا لكانت الذئاب قد أكلتنى .. وبالحق كانت ستأكلنى . هكذا خلقت الدنيا ، فهل هذا خطئى أنا ؟ .. انه خطؤه هو سبحانه الذى خلق الذئاب والحملان .

ثم أخذ يدير بصره فى صمت الى أصحابه وكأنه ينتظر تعقيبا ، ولكن أحدا لم يتكلم ، فاستطرد يقول :

- والآن أيها الفرسان تروننى أصبحت عجوزا : لقد تقوس الخشب وتفككت الرباطات وتدفق الماء .. ووهنت المضخات ، وانحدر بى الحال لأعيش فوق اليابسة بالصفات الحميدة . أصبحت آدميا . لماذا ؟ لأننى لم أعد قادرا الآن على أن أفعل شيئا ، لقد غاضت قوتى وسقط شعرى

وأسنانى . واصبح الذئب أجرب يعبث فيه القمل .. أصبحت آدميا . الى هذا الحال انحدرت . لم أعد اقتل ، ولم أعد أعوى .. أصبح صوتى كثغاء الحملان . وعندما أجلس فى القرية أمام البئر وأرى الفتيات يملأن أوانيهن .. تلتهم عيناى الصيد ولكن معدتى تظل خاوية . وأحيانا تملأ الدموع عينى ، وتسألنى الفتيات وضحكاتهن تجلجل : « لماذا تبكى ياجدنا » فأقول لنفسى : « لأننى سوف أموت ـ لعنة الله عليكن ـ وأترك ورائى فوق الأرض هذه الأجساد الجميلة » .. أقسم بالله ، لو أننى كنت ملكا .. أو لو أننى كنت « على باشا » لكنت جمعت لنفسى عددا من أجمل الفتيات فذبحتهن فوق قبرى حتى آخذهن معى .

وصاح الجد :

ـ أنت شره للدماء ياكابتن كاتسيرماس .. أيها الوحش الضارى .. اهدأ .

ـ لقد سألتنى .. وهاقد أجبتك . لقد كان حتما أن افتح الباب .. وقد فتحته ، هل أفزعك ذلك ياكابتن سيفاكاس ؟

وسدد الساحر ذو الفم الخالى من الأسنان .. نظراته الوحشية الى الجد .. ثم صاح :

ـ لقد فتح الباب المغلق وانطلقت الأرواح تسمعها .. « من اين جئنا ؟ » هكذا سألتنى . لقد جئنا من باطن الأرض ياكابتن سيفاكاس . « والى اين نمضى ؟ » هكذا ايضا سألتنى . نحن نمضى الى باطن الأرض ياكابتن سيفاكاس . وماواجبك اذن ؟ أن تأكل ، اذا كنت ذئبا ، وأن تؤكل اذا كنت حملا . واذا أنت سألتنى عن الله : فهو الذئب الأكبر ـ فانه يأكل الذئاب والحملان معا .

وصاح الكابتن « مانداكاس » وهو يبسط ذراعيه :

ـ لاتلحد أيها القرصان العجوز ، لقد ذهبت الخمر بعقلك فلا تدرى ماذا تقول . ان الذئب الأكبر هو ملك الموت وليس الله .

وضحك الكابتن « كاتسيرماس » وقال :

ـ ان الله وملك الموت واحد يابن عمى ، ولكن لماذا أجادلك وتجادلنى ؟ ان عقلك تغذى على البقول ولايعرف غير البقول »

ثم استدار الى الكابتن « سيفاكاس » :

ـ هذا ماكان ينبغى أن أقوله لك أيها العجوز سيفاكاس . وماكان ينبغى لك أن تسألنى . مرهم الآن بأن يملئوا لى قدحا من النبيذ .

وقال العجوز لأحفاده :

ـ املئوا قدحه نبيذا ، لقد اعترف .. فليستُرح الآن .

واحنى راسه فى لحظات تأمل وتفكير ، ثم قال :

ـ أنا لست قاضيا .. ولا أملك اصدار الأحكام . ان الله قد سمعه ، فليكن حكمه هو سبحانه .

ثم استدار الى المدرس الذى كان طوال الوقت يهز رأسه الأصلع المدبب الى الأمام والى الخلف :

ـ تكلم أيها المدرس .. وارفع رأسك هذه .

ورفع المدرس قيثارته من فوق كتفه ، وقال :

ـ طوال حياتى .. كنت أتكلم ، والآن يضايقنى الكلام . لقد سألت عن أمور صعبة ياكابتن سيفاكاس . ترى أى شيطان جعلك تفكر فى هذه الأمور التى ليس لها مكان فوق هذه الأرض ؟

وسأله العجوز وهو ينظر اليه فى غضب :

ـ فهل نبقى صما ؟ أصم ، أعمى ، خصى ، مسالم ، أهذا ماتريده

لنفسك ؟ ولكن هذا يعنى أن يصبح الرجل مجرد راس بهيمة أيها الأحمق .

- لاتغضب ياكابتن سيفاكاس ، ان السؤال ذاته له مكانه فوق الأرض ، فلك أن تسأل ماشئت طالما أنك لا تتعب من السؤال ، ولك أن تصوغ ماشئت طالما أنك لاتتعب من السؤال ، ولكن السؤال شىء والاجابة شىء آخر . وأنت تطلب منى الاجابة .

وأسند العجوز راسه وهو يقول :

- أريد جوابا .

- أنت تريد الجواب ياكابتن سيفاكاس .. حسن ، فسوف يكون لك ماتريد .. سوف أجيبك بقيثارتى فهى فمى الحقيقى . واذا أنت فهمت ماذا تقول فذلك خير المرام ، أما اذا لم تفهم ، فليس فى مقدورى أن أساعدك ، وسوف تموت اذن أعمى كما ولدت أعمى .

وقال الجد وهو يغلق عينيه :

- اعزف على قيثارتك أيها المدرس وليساعدك الله .

وكانت السماء قد أظلمت ، وبدأت حبات المطر تتجمع فوق أوزاق شجرة الليمون .. كما بدأ بعضها يداعب خد العجوز وشفتيه وجفنيه فينعشها ، وكان هو يلعقها بشفتيه فى عطش .

وأمسك المدرس بقيثارته وانحنى بالقوس فوقها فأصبح معهما كلا لا ينفصل ، وبدأ القوس يرقص فوق الأوتار الثلاثة ، وبدأت الأجراس الصغيرة ترن .. وامتلأ الفناء بالضحكات البهيجة كما لو كان فناء مدرسة يلعب فيه الأولاد ويطاردون بعضهم البعض خلال فترات الراحة مابين الدروس ، أو كما لو أن طيورا فوق شجرة كثيفة الأغصان والأوراق تستيقظ عند الفجر وتغرد فى بهجة وهى تستقبل أشعة الشمس .

وظل القوس يقفز ويضحك ويرقص ، وأصبحت قلوب الكبار أطفالا وطيورا وجداول تترقرق ، وبدأ الأحفاد وزوجات الأبناء يقتربون أكثر ، وأخذ

الشباب والفتيات يقومون ويقعدون معا .. وتشرئب أعناقهم رغم حبات المطر المتساقطة وهم ينصتون .

واحس الجد العجوز كما لو كان جسده الثقيل يفقد ثقله ، ويرتفع فى الهواء ويسبح كالسحابة طائرا فوق شجرة الليمون وأشجار السرو كما لم يحدث له الا فى الأحلام ، أو كما حدث له مرة بعد أن عاد من الحرب واغتسل من الدماء وارتدى ثيابا نظيفة ومضى الى الكنيسة يوم الأحد ، وهناك أحس كما لو أن جسده يسبح كالسحابة .. وحين كان فى طريق عودته الى بيته أحس كما لو أن قدميه لايلمسان الأرض على الاطلاق .

ولكن صوت القيثارة ما لبث أن تغير ، أصبح ضاريا غاضبا ، وبدأت أجراس القوس ترن كهذه الأجراس التى تعلق بعنق صقر مدرب وهو ينطلق فى الهواء بحثا عن فريسته . كانت الأصوات الصادرة عن القيثارة أصوات رجال ، وتذكر الفرسان أيام شبابهم والحروب وأنات الرجال وهم يموتون وعويل النساء وهن يبكين موتاهن وصهيل الجياد وهى فوق أرض المعركة مطلخة بالدماء ولا فرسان فوق ظهورها . وكاد « الكابتن كانداكاس » أن يصيح : « أعد لى شبابى أو كف أيها المدرس » ولكن القيثارة مالبثت أن تغيرت أنغامها .. فعادت ناعمة رقراقة ابتسمت لها شفاه الفرسان فى سعادة .

وكان الصوت خلال الجو الندى الرطب أشبه بطنين النحل أو بخرير جدول عميق ، أو بصوت حزين لامرأة عاشقة يتناهى من خلف الجبال .. هناك على شاطىء البحر المزبد ، او بصوت البحر ذاته ومياهه تصطدم بالشاطىء أو تنحسر عنه فى أنين .. أو لعله كان أبعد غموضا وأكثر سحرا . آتيا من وراء الحياة ذاتها . من ضفة أخرى ، يحرر الأرواح من الأجساد فى عذوبة وألم وحب ؟ أو لعله كان صوت الخالق نفسه تخفيه ظلمة الليل الرطب ، حيث سبحانه يدعو ويرفع اليه فى اغراء رقيق ، محبوبه الأبدى : روح الانسان ؟

وظل المدرس يعزف كالممسوس حتى بدا كما لو أن القوس ستصدر عن الأوتار شرارا ، وبدا أنه يغيب أكثر وأكثر وسط الظلام ، وكأن قيثارته هى

الموجود الوحيد القائم تحت شجرة الليمون .. يعزف لحنا جنائزيا ولكنه فى نحيبه يبدو نداء ذا اغراء .

واكتست شفتا الجد العجوز بابتسامة عريضة ، وهب جسده الخفيف الطائر فى وثبة واحدة من تحت شجرة الليمون الى أعلى سابحا فى الهواء ، ليحوم كالسحابة فوق البيت .. ثم ليتحول فى رفق الى حبات مطر تهبط الى الأرض لتغذى البراعم الصغيرة .

وأحس الجد فى أعماقه بأنه الموت قد أقبل .. « انه الموت ، وهذه هى الجنة ، أنا ماض الى الجنة ، بل لقد أصبحت داخلها . لك التحية ياربى »

وفتح عينيه .. ولم ير سوى الظلام . ولكن صوتا رفيقا ناعما ناداه وسط الظلام .. فأجابه : « أنا قادم اليك .. »

وأبقوه طوال الليل ممددا فى الفناء تغسله رخات المطر وكأنه جذع شجرة ضخمة ، وركع « كوزماس » الى جواره وقد أغلق عينيه ، وتقوقع « ثاراساكى » بجانبه ينظر اليه .. ويرى الموت لأول مرة عن كثب . ظل يحدق بعينين راعشتين فى الجد الذى أحبه كأشد مايكون الحب ، وبدا له أن جده اكتسب قوة جديدة قاتمة ومشئومة ، وكأنه ينتظر فحسب كيما ينقض على الرجال ويجرهم معه الى باطن الأرض . وأحس للحظة بالرغبة فى أن يعدو بعيدا عن المكان ، ولكنه لم يجرؤ على الحركة ، فظل فى مكانه وقد صعقه الرعب .

وظلت أسرته حوله تنظر اليه ، وبقى الباب مفتوحا ، واهتزت القرية حين تناهت الأنباء بأن « سيفاكاس » العجوز قد أسلم الروح ، وبدأ الجميع يهرعون الى البيت كيما يودعوه .. وكل واحد منهم بعد الآخر يمر أمامه فيقبل فى صمت يده الممددة فوق الصخور .

وغسلته امرأتان بالنبيذ ، ولففنه فى كفن من قماش أبيض حريرى من بقايا زوجته المتوفاة « لينيو » كانت قد نسجته له من أجل هذه الساعة . ووضعت اثنتان من زوجات أبنائه مصباحا كبيرا بجانب راسه وآخر مثله

عند قدميه ، وبدا وجه الميت على ضوئهما وقد اكتسى تعبيرا رفيقا .

وقالت « كاتيرينا » :

- أليس من الأفضل أن ندخله ؟ ليس من المناسب أن ندعه هكذا فوق الأرض يبلله المطر .

ولكن « كوزماس » عارضها :

- أنه أراد أن يبقى هنا ويغسله المطر .

وهبت ريح جنوبية رقيقة منعشة ، وأحضر الأحفاد بعض كتل الاخشاب وأشعلوا نارا فى وسط الفناء لتدفئهم ، وارتفعت النيران فاجتذبت الحيوانات بضوئها ، وأطل البغل والحماران والفرس وثورا الحراثة برءوسهم من الحظائر وهى تتطلع فى دهشة الى ما يجرى داخل الفناء . أما الفرسان الثلاثة فقد تكوموا فوق الأرض وقد غلبهم الشراب والطعام فأسندوا ظهورهم الى جذرع شجرة الليمون وارتفع شخيرهم .

وصاحت النساء وهن يرفعن عن رأسه عصابته :

- الى الملتقى ياسيفاكاس .. حيوا الميت .

وصاح الكبار وهم يمسكون بيده :

- حتى نلتقى ياكابتن سيفاكاس ، تمنياتنا لك برحلة سعيدة .

وألقت فوقه كل امرأة بعود من الريحان حتى يصحبه معه فى رحلته الى العالم الآخر ، ووضعت أم مكلومة لوح ابنها الميت وطباشيره عند رأسه وقالت : « خذ معك هذا اللوح لابنى » اصنع هذا المعروف من أجلى ، ان اسمه ديمتراكيس ، لقد كان من جيرانك وسوف تعرفه قطعا ، انه يضع فوق رأسه قبعة ذات شرابة .. وقد مات حافى القدمين »

وقامت « كاتيرينا » وضعت غطاء ثقيلا فوق الفرسان الثلاثة حتى

لايصيبهم برد ، ثم أمسكت بيد « ثاراساكى » :

ـ قم لتنام ياولدى ، ان الليل قد انتصف . ولكن « ثاراساكى » رفض وقال :

ـ اننى أحرس جدى ، ان والدى ليس هنا .. وأنا سأبقى مكانه .

وعلى ضوء لهب النيران ، أختلجت عيناه فى تصميم كما يحدث لأبيه وتراجعت أمه دون أن تقول شيئا . ولم يكن ثمة مايشير الى أن المطر سوف ينقطع انهماره ، وأحضرت « رينيو » وبقية الحفيدات القهوة لتعين الجالسين على البقاء مستيقظين . وكان الصمت يسود الفناء أحيانا . ثم لا تلبث اصوات الليل المختلطة العميقة أن تسمع : صغار الحيوانات ، والحشرات ، وطيور الليل ، والكلاب التى لاتكف عن النباح والماشية بأصواتها الخشنة .. وفجأة ، صاحت الديكة .. وانبلج الصباح .

وعندما ارتفعت الشمس الى الأفق ، استيقظ الفرسان الثلاثة ورأوا الميت ممددا فوق الصخور وسط الفناء ، وأدركوا ماحدث .. ولكنهم لم يتحركوا وظلوا فى أماكنهم وقد غلبهم النوم .

وقرب الظهيرة ، أحضر « ستافروليوس » النعش فوق كتفه ، وهرع اليه « ثاراساكى » كيما يطمئن الى أنه مصنوع من خشب الجوز .

وبعد الظهيرة بساعتين ، رفع الأحفاد النعش الذى يحمل جسد جدهم ، واتجهوا به نحو الباب .. ثم خارج الباب . وتحركوا فى بطء وهم يمرون به فى البداية حول بيوت الجيران ليودعها ، ثم توقفوا به عند كل مفترق طرق بالقرية وألقت الفتيات فوق الجسد الريحان والاقحوان كما لو كانت القرية كلها كما لو كانت أسرة واحدة حاسرة الرأس ساكنة ، وكما لو كان هو اله القرية يودعها ، وسارت معه فى بطء حتى تتيح له أن يودعها فى هدوئه المعتاد .. وفجأة ، وحين أصبحوا جميعا خارج القرية قريبين من ساحة القبر ـ فتحت السماء سدودها وانهمر المطر فى غزارة .

وصاح الفلاحون فى سعادة ، فقد ظلوا شهورا يحلمون بالمطر بعد أن

هدد الجفاف المحاصيل . ورفعوا وجوههم التي لوحتها الشمس الى السماء الممطرة يشكرون الله فى لهفة .

وغمغم عجوز :

ـ لقد تحول الجد الى مطر .. انه يعود مرة أخرى الى قريتنا .

وقال آخر :

ـ كان يعلم بما يقلقنا ، لقد تحول الى ماء ليروى عطشنا .

ووصل الموكب الى المدافن التى بللها المطر ، وبدأ اثنان من الاحفاد الأقوياء يحفران القبر ، وكشفت التربة الحمراء الخصبة عن قواقع ومحارات كما لو أن تلك الجبال كانت يوما ما قاع البحر . واستمر هطول المطر ، ثم أهبط الجسد فى سلام ورفق ، وبدأ الجمع المنتحب واحدا تلو الآخر يلقى فوقه بحفنة تراب ، ثم عادوا الى بيوتهم .

كانوا يسرعون الخطى متلهفين الى الجلوس الى الموائد المثقلة ليمزقوا الكبش الأسود الذى كان الجد قد أمر بذبحه عند وفاته .. وليشربوا بعض النبيذ ويطلبوا الرحمة لروحه .

وجلس « كوزماس » فوق الأريكة العريضة وهو يحس بالضيق روحا وجسدا ، وأغلق عينيه يريد أن يستريح قليلا قبل أن يصعد الجبل وكان قد طلب الى « شاريسديموس » أن يبحث له عن مصباح ضد العواصف وأن يعد نفسه للرحلة حتى يصل الى مقر قيادة الكابتن « ميخايليس » قبل صباح الغد . ولم ينم سوى لحظات قصيرة ولكنها كانت كافية لأن يحلم بأبيه الميت ، فقد رآه كأوضح مايمكن أن يكون ، واقفا على سلم البيت يتهيأ لدخول غرفة نومه .. وكان قد رفع قدمه كيما يخطو الخطوة الأولى . وأحس « كوزماس » بالرعب يتسلل الى قلبه فقد كانت زوجته نائمة فى الطابق الأول .. وهاهوذا أبوه الميت يصعد اليها وسوف يفزعها ولاشك . فقفز هو وقال : « الى أين ذاهب ياأبى ؟ واستدار الرجل الميت بشاربه المتدلى والندبة فوق خده الأيمن .. ونظر اليه فى ضراوة . وكان ثمة عصابة للرأس سوداء تحيط بجبهته وتتدلى منها شرابات حمراء ، وكان ثمة

قطن فوق فمه يحبس الدماء من جرح به .

وحدق فى « كوزماس » وهو عابس الوجه .. كان غاضبا ولاشك . فقد كان يجز على أسنانه .. كما كان ثمة لهب أحمر يخرج من فتحتى أنفه وتمتد ذؤابته الى وجهه . وفجأة فتح فسقط القطن . وأصبح الجرح عاركا وصدر عنه أنين وحشى وهو يتحرك فى سرعة ليصعد السلم .

وصاح « كوزماس » : « أبى .. لا تؤذها . انها زوجتى » ثم خطا نحوه فى جرأة وصاح فيه للمرة الثانية : « انها زوجتى .. فلا تلمسها » ومد يده محاولا منع ابيه من متابعة صعود السلم ، ولكن الرجل تحول الى دخان ولم يعد « كوزماس » يسمع سوى وقع أقدام ثقيلة تصعد السلم .

واستيقظ « كوزماس » فى صيحة فزع ، وفتح عينيه فرأى الضيوف على مائدة الجناز ، وثمة طبق كبير يدخل اليهم والكبش فوقه يتصاعد منه البخار وقد وضع على ظهره وبرزت أقدامه الأربع فى الهواء .. كله حتى رقبته ورأسه وقرونه كما لو كان لايزال حيا . وانقض الفلاحون عليه كالصقور يمزقونه ، وجاء الأحفاد بأباريق النبيذ أيضا .. وتحولت وليمة الجناز الى عيد مبهج .. ليس بسبب النبيذ فحسب ، وانما بسبب المطر المنهمر فوق الأرض العطشى ، ولأن ملك الموت . وهو يقوم بهذه الزيارة لم يمس أحدهم بسوء واكتفى بالعجوز وحده ، وهكذا فقد أكلوا وشربوا واستبدت بهم البهجة . وأحسوا بالخدر فى سيقانهم ، وبالرغبة فى الرقص . كما أن النبيذ أيضا لم يظل أصم ، حتى « ستافروليوس » النجار ـ ومطرب القرية ـ نسى نفسه وكاد أن يرفع عقيرته بأغنية حب ، ولكن الجيران أسرعوا يتحلقونه ويغلقون فمه . وبادر القس ـ لكى يمنع الفضيحة ـ فتناول جرعة من النبيذ يمسح بها حلقه .. وبدأ يلقى بترنيمة .

ووقف « كوزماس » وأخذ عمته « كاتيرينا » جانبا وقال :

ـ وهل تفيده الرسائل ياولدى ؟ انه لن يفعل الا مايريد ، حتى ولو علق العالم كله من رقبته . عسى الله أن يهدى يمينه .

ـ ألا يفكر فى ولده ياعمتى ؟

ـ ثق أن « ثاراساكى » هو الشىء الوحيد الذى يحبه عمك فى هذه الدنيا ، ولكن ذلك لن يجعله يدير وجهه ولو لحظة عما يريده . سوف يفعل ماصمم على أن يفعله . وليس ثمة أمل ياولدى فى رجل لم يفكر فى نفسه .

ثم مسحت دموعها ولم تزد ..

واتجه « كوزماس » الى « شاريديموس » الذى كان يشارك فى البهجة وفى يده كلوة الكبش والدهن يسيل من لحيته الماعزية .. وقال :

ـ شاريديموس ، لقد أكلت وشربت بما فيه الكفاية ، واحتفلت جيدا بموت جدى ، فقم الآن اذن ، فنحن ذاهبان .

وعبس الخادم العجوز وقال :

ـ السماء تمطر والسحب مثقلة ، ولن أرى من طريقى الى أبعد من أنفى .

وقال الحفيد الأكبر فى لهجة آمره :

ـ سوف نذهب .. ينبغى أن نذهب .

وتنهد « شاريديموس » وهو يلعن حظه الذى يمنعه من استكمال متعته ، الآن بالذات . وقد أوشك اللهو أن يبدأ .

وقال « كوزماس »

ـ هيا .. هل أحضرت المصباح ؟

وكانت الترنيمة قد انتهت .. وسأل « ستافروليوس » القس :

ـ هل تسمح لى بأن أغنى أغنية عن لص ؟

ودون أن ينتظر الجواب ، رفع عقيرته بالغناء وصوته يطن داخل البيت :

متى ياترى تختفى النجوم ؟

ومتى يجىء فبراير ؟

حتى آخذ بندقيتى .. ؟

• الفصل الرابع عشر والأخير

ألقى "شاريديموس" العجوز الضوء من مصباح العواصف فى يده على ممر الماعز الضيق الذى يتلوى صاعدا الجبل . ولم يكن قد أفاق بعد من خدر النبيذ ؛ كان يتعثر مرة بعد أخرى ، ثم ما لبث فى النهاية ان سقط بطوله فوق الأرض ، وأحس بالخجل ، فنهض وهو يحاول أن يتماسك .. وغمغم يقول لنفسه : «لعنة الله على النبيذ ، والماء أيضا .. الى الشيطان» ثم استدار نحو «كوزماس» و قد كان يتوق الى الحديث معه ، وتوقف فجأة وهو يتصبب عرقا :

– سيدى ، ألن تفتح فمك ؟ انى أكاد أهوى الى الأرض . لعل ذلك هو السبب فى ان ساقى ليستا ثابتتين .

– لا تثرثر ياشاريديموس ، فالسماء تمطر ولابد ان نسرع .

كان يريد ان يصل الى حيث يريد عند الفجر دون ان يراهما الاتراك من أماكنهم فى السهل . واستثمر هطول المطر ، وفاضت شرايين الأرض ، واندفعت المياه هادرة الى الجداول ، وبرقت السماء من حين لآخر .. وتناقلت الجبال اصداء الرعد ، فاذا هى تلاشت سمعت أصوات رخات المطر المنهمر وأمواهه المتجمعة المنحدرة الى أسفل الجبل .

وقال عجوز الجبال وهو يجدد الرجاء : « استحلفك بالله ان كنت تؤمن به ، ان تفتح فمك ياسيدى وتكلمنى ، ما الذى يحدث فى الدنيا هناك ؟ أهم بشر مرضى مثلنا ؟ أم انهم شياطين ؟

ولكن «كوزماس» لم يكن راغبا فى الحديث وظل يواصل التسلق وسط الكلام وتحت المطر مصمما على الا يدنس هذه الساعة المقدسة بحديث تافه وهو يحس بأن ثمة مشاعر جديدة أكثر حيوية أصبحت تتملكه . كان

يتحمل عنف هطول الأمطار في اصرار وشموخ كصخرة من صخور «كريت» وهو يحس في أعمق أعماقه بذات احساس البهجة عند الصخور والتربة وهي ترتوى من مياه الأمطار .

وكانت مياه الأمطار هذه رحمة من السماء بالنسبة للحرائق التي اشعلها الجنود الأتراك في قرى اليونانيين وأديرتهم ، أو تلك التي اشعلها المسيحيون في قرى الأتراك بادئين عملية التخريب . وكان هؤلاء يعودون الى اطلال قراهم ليبدءوا من جديد في بناء بيوتهم حجرا فوق حجر .

وركعت «كريت» مرة اخرى امام الارهاب والعنف وهى تنزف دماءها وتحرق الأرم وكان الفرسان والمقاتلون يتجمعون داخل الكهوف أو في الاديرة ليناقشوا الأمور ، فقد قرءوا منشور المطران مرة بعد اخرى حتى ادركوا في النهاية : أنه صوت اليونان ، وزاد غضبهم وهياجهم فسبوا ولعنوا ورفعوا ابصارهم الى السماء وهم يضمون قبضات أيديهم في وعيد .. ولكنهم ما لبثوا ان خفضوا رءوسهم ودسوا خناجرهم في أحزمتهم ، ودفنوا اسلحتهم .. وعادوا الى بيوتهم وأعمالهم .

وعاد أبناء «ميجالو كاسترو» يفتحون متاجرهم في تجهم وصمت ، وعاد الفلاحون يحرثون الارض ويبذرونها ، وبدأت عجلة الحياة اليومية الثقيلة تدور وتدور . كذلك عاد «الكابتن بوليكسيجيس» من الجبال وقد وضع حول طربوشه عصابة سوداء واتجه الى «القديس ميناس» حامى المدينة ليزوره ويوقد شمعة أمامه ، وليقف أمام مذبحه لحظات في ابتهال ، ثم فتح دكانته بعد ذلك واتخذ لنفسه ركنا قصيا منه حتى لا يرى احدا وهو يدخن نرجيلته غارقا في أفكاره دون ان يغير انتباها الى المزارعين العائدين عبر بوابة «كاينا» حاملين معهم ما استطاعوا انقاذه من الليمون والبرتقال والنبيذ والزيت . لم يكن يريد ان يرى شيئا ، ولم تعد شفتاه تبتسمان ، وانما كانتا تفضحان الغل الذى يعتمل في صدره .. وتكشفان عن الأسف لهذا الضعف الذى أغراه بترك الجبل : «لم يكن ينبغى أبدا ان استمع الى اليونانيين أو الى المطران ، هذا الخنزير الوحش ـ الكابتن ميخاليس ـ على حق . كان ينبغى ان أبقى هناك ، وأن القى مصرعى هناك . اى طعم للحياة الآن ؟ أريد ان الحق به مرة أخرى ؟

ولف أنبوبة النرجيلة حول عنقها واتجه الى عتبة الدكان وهو يتنهد . ومر به فى تلك اللحظة الأب «مانوليس» وثوبه الملىء ببقع الزيت يتطاير مع الريح . ولم يكن قد غادر «ميجالو كاسترو» ، بل ظل داخلها ، يدفن ، ويعمد ، ويبخر بيوت الناس ، ويملأ جيوبه ويضيف المزيد من الدهن الى عنقه . وكان لحظتها يحمل الكأس المقدسة والقبقاب ، وأمامه «مورزوفلوس» هادئا شاحب الوجه يذرع الطريق وهو يحمل مصباحا مضيئا فى عز الظهيرة ، ورسم «بوليكسيجيس» علامة الصليب . كانت قد تناهت اليه الأنباء الحزينة : كان الأب فى طريق عودته بعد مراسم دفن الكابتن «سيفاكس» ، فاطلقت سفينة حراسة تركية قذيفة على قارب التهريب الذى كان يستقله فأطاحت بقدميه الاثنتين وغمغم «بوليكسيجيس» : «بارك الله روحه ، لقد حمل نفسه ما يحمله الرجال» .

وتهيأ للعودة الى ركنه داخل الدكان حين لمح «فيندوسوس» يسير ملتحفا ببطانية وهو يرتعش من البرد ويطوح بيديه ويحدث نفسه . كان طوال يومين قبل اليوم يعدو فى الشوارع كما لو كان يمارس من جديد عمله ؟ أو تراه يلقى خلف ظهره كل شىء مع الريح ، ويعود الكابتن « ميخايليس » ليؤكد له انه هو أيضا رجل وأنه لن يسمح لأحد بأن يزيحه جانبا أو يطأه بأقدامه ؟ لقد قال له قبل يومين وهو يحمله رسالة الى المطران : « لا تعد ، فأنت فيندوسوس ، ولست أطلب منك شيئا اخر ، فتصرف ان شئت كما يتصرف فيندوسوس » .

وظل «فيندوسوس» يفكر فى غضب فى تلك الكلمات . وأحس كأنما ألف شيطان يتحلقونه ، وبأن حاسة الشرف والكرامة تأخذ بتلابيبه ، فقرر العودة الى الجبل ليثبت للكابتن «ميخايليس» ما يريد أن يثبته . ولكنه عاد فتذكر زوجته وتذكر الحانة ، وجعله ذلك كله يضرب فى الشوارع من جديد .

وعندما وقعت عيناه على الكابتن «بوليكسيجيس» واقفا على عتبة دكانه .. توقف . انتبه . هذا فارق مرموق ، ورغم ذلك فانه ويضع ذيله بين ساقيه وأغلق فمه ، لماذا ؟ لأن ذلك فى مصلحة «كريت» ثم تجىء أنت أيها المقفل «فيندوسوس» لتفلسف الأمور وتتصرف وحدك ؟ انتبه أيها

الأحمق ، ولا تحس لحظة بالخجل . ان قيادة المعارك عمل لا يقدر عليه الا الفرسان المقاتلون . ولكن حتى هؤلاء الفرسان المقاتلون يثبتون أحيانا أنهم أعلى من هذه المرتبة حين يأمرون بالقاء السلاح فلنلق السلاح اذن ، ولنتحدث قليلا الى الكابتن «بوليكسيجيس» لكى نبث الشجاعة الى صدورنا .. ان لى أطفالا ، ويجب ان أظل حيا أنا المسكين .

ـ طاب يومك ياكابتن ، لقد جئت من الجبل أحمل اليك «تحيات .. وقال وهو يدلف من باب الدكان :
وأشاح الكابتن «بوليكسيجيس» بيده وقال هادرا فى عنف :
ـ دعنى وحدى فى سلام ، وليتخطفك الشيطان .

كان ظهور «فيندوسوس» كفيلا بأن يحرك كوامنه ، فقد كان يحس بالخجل ، ولكن غضبه اثار هياج «فيندوسوس» لاشك ان هذا السيد العظيم يتصور ان فيندوسوس من الرجال الذين يسمحون للغير بأن يزوجوهم أو بأن يطئوهم بأقدامهم .. أليس هذا ما يتصورونه ؟ .. حسن .. فسوف يريه اذن .

ـ أنا عائد الى الجبل . لن أغادر موقعى هناك ، واذا كان ثمة رسالة تريد أن ..

قالها دون أن يكون قد اتخذ فى ذلك قرارا قالها ـ ببساطة لكى يلذع الآخر .. وصاح الكابتن فى ضحكة مترفعة :
ـ أنت عائد الى الجبل ؟ أنت يا فيندوسوس ؟ .. انه من الجنون أن تفعل ذلك .

ـ نعم ، انه من الجنون ياكابتن . أنا أعرف ذلك ، ولكن . لا حياة بلا كرامة .. طاب يومك .

وقبل أن يجد الكابتن «بوليكسيجيس» الجواب ، خرج من الدكان . خرج بعد أن أصبحت كلماته قرارا حقيقيا : انه لا يعود تظاهرا وادعاء ، وانما هو يعود كيما يخجل ميخاليس وبوليكسيجيس العظيمين ، واذا أراد الله بعد ذلك ، فسوف يعود ليرعى بيته ويزوج ابنتيه .

واتجه فى سرعة الى كنيسة القديس «ميناس» فودعه وأوقد شمعة .

وكانت الكنيسة خالية دافئة تفوح فى أرجائها رائحة البخور . وخيل اليه ان القديس «ميناس» الذى لوحته الشمس ، والذى يمتطى صهوة جواده مترسا بالدروع الفضية من قمة رأسه الى أخمص قدمه .. يبتسم له ويحييه : «ارجو لك رحلة طيبة يافيندوسوس ، أنت سائر على النهج الحق ، فلا تقلق . وسوف أعتنى أنا بزوجك وبأولادك ، وسوف اختار لابنتيك زوجين من أفضل الفرسان . الى اللقاء ياكابتن «فيندوسوس» .

ورسم علامة الصليب والبهجة تغمره ، ثم تناهت اليه أصوات جمع يتكلم ، ورأى من خلال نافذة قصر الأسقف ، القزم السمين «شاريلاوس» ماذا يفعل ياترى فى قصر الأسقف هذا اللص .. تاجر البضائع المسروقة .

ولم يكن «فيندوسوس» يعرف طبعا ما يريده المطران من الرجل ، لقد جاء القزم الى المقر بناء على دعوة منه ، وهما الآن يشربان القهوة معا . وهذا ما كان يريده منه المطران : ان المسيحيين الذين كانوا قد هربوا الى «أثينا» والى «بيريوس» يعودون الآن ليجدوا بيوتهم وقد نهبها الأتراك الذين حطموا الصناديق والدواليب والمقاعد وجعلوها نهبا للنيران . حتى الأبواب أحرقوها ، فلم تبق سوى الحوائط قائمة تنتظر عودة أصحابها .. وأراد المطران أن يدعو هذا المالى الكبير «شاريلاوس» ليثير فى نفسه حاسة الشرف ويقنعه بأن يمنح أصحاب هذه البيوت قروضا بأرباح معقولة لكى يعيدوا بناء بيوتهم . وكان «شاريلاوس» قد جمع آلاف الجنيهات على حساب هذه الثورة باتخاذه جانب الباشا . كما انه جمع الكثير والكثير بالمقايضة على مجرد كسرة خبز .. أخذ الاقراط والقلادات والأحجار الكريمة والنقود الذهبية من المسيحين الجوعى وامتلأت خزائنه وفاضت بما بداخلها من ذهب ومجوهرات .

وحول القهوة ، بدأ المطران فى حذق يدير دفة الحديث الى الله ، ماذا يفيد المرء أن يكسب الدنيا كلها ويخسر روحه ؟ ثم تقدم الى هدفه خطوة اخرى ـ الى الوطن . كم من الأبطال خلدوا لأنهم ضحوا بأنفسهم من أجل الوطن . وهذه التضحية ـ لا ينبغى أن تنسى ـ لا يجب أن تقتصر فحسب على بذل الارواح ، انها يمكن ان تكون متحققةً أيضا ببذل الأموال ، ان هذا الذى يعطى ماله سوف يصبح خالدا هو أيضا .. وسوف يستحق لقب

«بطل» وبعدها يفتح الله السجل لكى يضع اسمه وسط اسماء الأبطال بحروف من ذهب .. وامام هذا الاسم عدد الجنيهات التى وهبها من أجل المسيحيين .

وظل القزم الخبيث يحتسى قهوته رشفة رشفة ، ويدخن سيجارته ويتطلع عبر النافذة الى اطلال البيوت والى صفحة البحر المزبد خلفها . وكانت كلمات المطران تنفذ من أذنه لتخرج من الاخرى بينما هو يقول لنفسه وهو ينفث الدخان من أنفه : «انه يحاول اقتناصى ، انه يحاول ان يغرينى بالشرف ليفرغ خزائنى . اه .. لشد ما آسف له ، فأنا ند لا يستهان به لمحاولاته» .

وأطفأ فى النهاية سيجارته فى الكوب البرونزى على أساس ان المطران قد انتهى مما كان يريد أن يقوله . وقال فى صوت حزين منكسر :
ـ ان كلماتك قدسية ياسيدى ، كل مرة اتهمت نفسى : آه لو كنت ذلك الرجل الذى يستطيع ان يحمل بندقيته ليهب حياته من أجل الوطن . وآه لو كنت على الأقل ذلك الرجل الغنى الذى يستطيع أن يعطى الأرامل ويدعم ولو قليلا قضية المسيحيين .. مادام الله سبحانه قد صب على لعنته وجعلنى كما ترانى ، ولكن الله سوف ينظر الى بعين رحمته يوم الحساب .. ولكننى مفلس ياسيدى .. لقد انتهيت . ان أعمالى توقفت .. وصدقنى ياسيدى حين أقول لك ذلك برغم أن الكثيرين يهينوننى ويصفوننى بأننى أستغل الفقراء .. ان الأرملة أو اليتيمة تجيئنى ومعها خاتم أعرف يقينا انه لا يساوى قروشا معدودة لا غير ، ورغم ذلك فاننى أمنحهما مقابله ضعف ثمنه لأن قلبى يحترق لمرأى حظهما العاثر . اننى أخرب نفسى بيدى .. وانا أعرف ذلك جيدا . ولكننى بشر ياسيدى . أحس بالاسى لهم ، لقد بعت حقل كروم ومزرعة زيتون وضاع ثمنهما على هذا الطريق ياسيدى .. بل انى مضطر الى رهن بيتى الذى أعيش فيه .. والله شاهد . وانى لأسأل نفسى أحيانا : ماذا سيكون مصيرى ؟ لقد حطمتنى طيبتى ، وعندما دعوتنى الى هنا قفز قلبى من البهجة وقلت لنفسى : « ان الله سبحانه عادل ويجازى على خير العمل ، ان الأسقف يكرمنى بعد أن سمع بأعمالى الخيرة ـ وبعد أن سمع أيضا ولاشك بما أعانيه ، لقد ألهمه الله ذلك .. وسوف يمنحنى

بالقطع معونة من صندوق الأسقفية يمنع سقوطى الى الهاوية «.. فقد سمعت ان حصيلة العام طيبة والحمد لله» .

وابتلع المطران ريقه بصعوبة وهو يقول لنفسه : «هذا الوحش الخبيث الملعون» كان مرأى القزم قد أصبح يضايقه ، فاحتسى قهوته في جرعة واحدة وتحسس مسبحته فى عصبية ، وكان «شاريلاوس» لايزال جالسا فوق الأريكة عاقد الساقين ، فنهض واقفا على ساقيه القصيرتين .. ونفض يده وهو يقول : «الجو بارد ، ماذا سيكون حالنا بلا وقود المدفئة وبلا ثياب وبلا طعام كاف ياسيدى المطران ؟ لقد اضطررت الى ان ابيع كل دجاجى ، ولكن ذلك مكننى من أن آكل بيضة كاملة كل صباح . نسأل الله أن يرفق بنا» .

وقبل يد المطران وتهيأ للخروج وهو يقول :

ـ صل من أجلنا ياسيدى . أنصرف الآن بأذنك ، فانى أحس ببعض التعب ـ ولابد ان استريح .

وكان الأطفال لحظتها يخرجون من مدارسهم متدافعين صاخبين يملئون الجو صفيرا ، وكان «تيتروس» قد أبقاهم فى ذلك اليوم طويلا لأن عطلة المسيحيين كانت ستبدأ فى اليوم التالى وكان عليه أن يلقى عليهم درسا أخيرا ، وكان قد أصبح الآن قوى البنية ممتلئا لوحته الشمس ، وكانت الفلاحة التى تزوجها تنتظر مولودها مما بعث البهجة الى نفسه . كان الكل من قبل يشيحون عنه ، وأصبح له الآن اليد العليا ، والويل للتلاميذ الذين يحاولون أن يسخروا منه .

وترك «فيندوسوس» التلاميذ يعدون فى الطريق ، وحين رأى «تيتيروس» يخرج فى اثرهم لم يعرفه لأول وهلة .. ثم مالبث ان صاح :

ـ أيها المدرس .. لقد أكلت فيما يبدو خلاصة تنين فأصبحت أنت أيضا تنينا .

ثم قال فى اعتداد :

ـ أنا عائد الى الجبل ، هل تريد أن تبعث برسالة الى أخيك الكابتن «ميخايليس» .

وسار معه «تيتيروس» وهو يشد على يده :

ـ أنت فارس يا فيندوسوس ، اغفر لى ، فلم أكن ألاحظ ذلك من قبل طوال الفترة التى عرفتك فيها .

ـ أنا لم كن أبدا فارسا فى يوم من الأيام أيها الفارس المدرس . ولكن .. كيف الاصطبار ؟ لقد أصبحت فردا ، ان الذى يجلس مع رجل أعمى سرعان ما ترمش عيناه ، والكابتن ميخايليس هو السبب ..

ـ أنا أيضا أؤدى واجبى . قل له ذلك ، قل له ان هذا هو طريقى .. قل له إن كل أغلال الأطفال الكريتيين تلتف حول عنقى . اننى أوقظ كريت من خلالهم .. وافعل ذلك بأقصى ما أوتيت من قوة ـ لقد تركت الجبل لكى أنفع كريت ، ومن أجل هذا أيضا يجب أن يهبط هو الآخر .. قل له ذلك .

ـ لا تقلق ، فسوف أخبره ، ولكننا لن نهبط ، وانتبه جيدا لما قلته .. الى اللقاء أيها المدرس .

ـ «فيندوسوس» أيها العجوز الطيب .

ثم تابعه بنظراته فى اعجاب وهو يمضى قدما فى شجاعة عبر بوابة المستشفى .

أما المطران فقد نادى الشماس بمجرد أن خرج «شاريلاوس» من عنده وقال :

ـ أيها الشماس ، أنا متعب ، وعلى فى نفس الوقت أن أذهب الى اركوندولا ، فسوف يكون الباشا هناك ، سوف نلتقى مرة أخرى لأول مرة بعد عدة أشهر . انه لن يحضر الى قصر الأسقفية ، وأنا لن أذهب الى مقره الباشوى .. لهذا فقد اتفقنا على أن نلتقى فى بيت «أركندولا» .

وسأله الشماس الذى كان شابا قوى البنية أسود الشعر .. ابن فلاح ، صوته يرن مثل الجرس :

ـ مادمت متعبا .. فهلا أسرجت لك الحمار ؟

ـ وكان هذا الشماس مشهورا بقوته ، وعندما كان يجلس الى جوار المطران ، فكأن ثمة أسدا يحرس هذا الأخير . وكان الشعر الذى يغطى رأسه ولحيته كافيا لأن تحشى به وسادة .

ـ معك حق . باركك الله .. هذا البؤس المفزع أرهقنى .

ووضع الشماس بطانية فوق ظهر الحمار ، ثم بسط فوقها قطعة من القماش ذات حواف مطرزة لأشجار سرو وصلبان ، ثم اقترب بالحمار من عتبة عالية ، وحمل المطران بيديه وأجلسه فوقه .

وكان الباشا قد فرغ لتوه من تناول وجبة طيبة ـ «مصمص» كل عظمة لدجاجة ، وشرب ابريقا كاملا من نبيذ «مالفيسيا» ثم نادى خادمه سليمان :
ـ أيها الأحمق سليمان .. يجب أن أذهب لأرى هذا القس الكافر السمين حتى أظهر للمسيحيين وللأتراك معا أن القتال قد انتهى وأن الذئب والحمل قد غفر كل منهما للآخر ، جهز جوادى اذن ، فالظاهر اننى لن أستطيع الذهاب سيرا على قدمى . وتعال أنت معى ، فقد أكلت كثيرا وأحس بالنعاس .. فأمسك بى جيدا ونحن نقطع الطريق حتى لا أسقط .

ولكنه عندما هبط الدرج وتهيأ لامتطاء صهوة الجواد ، ظهر أمامه كل من «بابايانيس» و«أفندينا» .. وقد تعانقا .. وغابا فى حالة من الوجد يتمايلان ويصيحان ويتناقشان .

كان «باربايانيس» يحتفل باليوم كما لو كان عيدا . ان واحدة من حفيداته قد أنجبت ولدا .. وأصبح يستطيع أن يحمل بين يديه أول أبناء أحفاده .. وكانت مناسبة كافية لأن يشرب . وعندما شرب .. وانتشى ، تذكر «أفندينا» فدعاه وأجلسه وقدم له الطعام والشراب .

وقال «أفندينا» وهو يتشمم الطعام فوق المائدة فى قلق :
ـ فلتقسم أولا بأنك لن تنتهك دينى .
ـ أقسم ياأفندينا .. فلا تخف . ليس هناك لحم خنزير .. وليس هناك نبيذ . ولسوف آكل معك ..

وقال أفندينا :
ـ لا بأس بالنبيذ ، استطيع أن أشربه ، فالكل يشربونه .
ـ أنا لا أريد أن تحملنى أوزارك فتلتف حول عنقى يوم الحساب ، ولذلك فسوف نشرب بعض «السحلب» .

ـ لا .. لا ان السحلب لا يناسب معدتى يا باربايانيس .. سوف أشرب النبيذ فهو لا يسبب لى ضررا . لحم الخنزير فقط هو الذى يسبب الضرر .

وهكذا أفرغ الاثنان زجاجة وانتشيا .
وقال «باربايانيس» فجأة :
ـ ما رأيك ياباربايانيس طالما اننى لن اضطر الى عبور أحد الشوارع ؟
ـ أستطيع ان أحملك فوق ظهرى ، فلا تخف . حسن .. فاستمع الى : أنت تركى ، وأنا مسيحى ، فهل تريد أن تقتلنى ؟ أمامك السكين .. فاذبحنى .

وصاح افندينا :
ـ لا وحق دينى . أبعد هذا السكين ياباربايانيس . أنت تجعل قلبى يكاد يتوقف .
ـ حسن .. فأنا أيضا لابد أن أذبحك . أليس من الأفضل اذن ان يصبح كل الأتراك والمسيحيين مثلنا نحن الاثنين ، يعيشون كالأخوة ؟ ألم تر أحيانا كلبة تمنح ثديها لقطة بين صغارها ؟ حسن .. فهكذا ينبغى أن يكون الحال فى كريت . هل تفهم ما أقصد ؟ .. اريد أن قول إننا ـ نحن ـ الاثنين ـ يجب أن نذهب متشابكى الأذرع الى الباشا لنقول له : « أنظر الينا ياباشا ، أنظر كيف فعل الأتراك والمسيحيون ، أفندينا هو تركيا ، وأنا أمثل المسيحية . وقد صرنا أخوين ، فمر لنا ببعض الشراب » ولسوف ينفجر الباشا ضاحكا ـ هذا الرجل الطيب ، تخطفه الشيطان ـ وسوف يقول : « قدموا لهما ما يريدان ، انى أباركهما » .. وسوف يخرج من دولابه وساما لكل واحد منا ، فننحنى معا متشابكين ـ أنت الذى تمثل تركيا ، وأنا الذى أمثل المسيحية ـ ونخرج بعدها عبر الشارع العريض .. الى الكنيسة لنصلى ثم الى المسجد لنصلى أيضا . وبعدها نمضى الى مقهى حسين أغا حيث يغنى شباب الأتراك وحيث ترتفع روح الرجال فى سعادة . هل تفهمنى ياأفندينا ؟ .. هل توافق ؟

وقال «أفندينا» وهو يحس بالعرق البارد يتصبب من وجهه :
ـ وماذا عن المياه ياباربايانيس ؟

ـ قلت لك لا تخف ، فسوف أحملك فوق ظهرى ، ثم انى تعلمت السباحة ، فانتظر الآن حتى أسلح نفسى ـ أعنى أن أحمل معى سيفى وترسى .

ورفع سيفا معلقا بالحائط ، وبحث فى درج المطبخ عن الترس الذى كان مجرد قطعة من الصفيح كتلك التى يعلقونها بالأشجار اتقاء للعين الشريرة ، ثم قال :

ـ الامام .. باسم المسيح وباسم محمد ، قل نفس الشىء ياأفندينا وسوف يصبح كل شىء على مايرام ياأحمق .

ـ ولكن لابد ان أقدم اسم محمد أولا ، فلنتوخ العدل .

ـ وماذا لو فعلت ؟ حسن .. هيا اذن .

وقال أفندينا :

ـ باسم محمد وباسم المسيح ..

ثم خطا الاثنان عتبة الدار مبتدئين بالقدم اليمنى .

واستدار «أفندينا» فى الطريق وسأل «باربايانيس» :

ـ ما رأيك يا باربايانيس ؟ هل نمر بعلى أغا لنأخذه معنا هو أيضا ؟ انه ليس تركيا وليس يونانيا ، انه مجرد واحد كالآخرين ، فلنأخذه معنا حتى نبرز للباشا كل الأمة .

وصاح «باربايانس» الذى ود لحظتها لو قبل الدنيا كلها من فرط البهجة :

ـ ولم لا ؟

ووصلا الى حى الكابتن «ميخايليس» وقرعا بابا «على أغا» .. وسمعا أصوت ارتطام كتل خشبية داخل الفناء .. وقال الصوت الحاد الصغير من الداخل :

ـ من هناك ؟

وصاح «باربايانس» :

ـ صديقان ياعلى أغا ، فافتح .. لقد جئنا نحمل اليك السعد ..

ـ أنا خائف ياأولادى .. فاذهبا لحال سبيلكما .. أى اصدقاء ؟

وقال أفندينا يقدم نفسه :

ـ انه أنا ياعلى أغا .. أفندينا «روث الخيل» .

وفتح الرجل الضئيل الباب .. وظهر متغضن الوجه . لقد ظل منذ هروب

المسيحيين يروح ويجيء هنا وهناك ؛ المسيحيون لا يثقون به ، والأتراك لا يقيمون له وزنا . وكان يخرج كل صباح الى الحقول ليجمع بعض الأعشاب يأكلها مغموسة بالزيت وينتظر اللحظة التى يتعقل فيها الرجال ويعود فيها الجيران الى بيوتهم حتى تعود زيارات المساء الحافلة بالطعام .

ورأى «باربايانس» الى أى درك من الدنيا هبط «على أغا» ، وأحس فجأة بأنه معجب بهذا التركى .. فقد أفزعه بؤسه الشديد . وسأله وهو يأخذه بين ذراعيه :

ـ ماذا أصابك ياعلى أغا ؟

ـ لقد أصبحت عجوزا يا باربايانيس ، لم أعد أقدر حتى على احناء ظهرى .. لم أعد قادرا على تقليب الأخشاب .

وسأله أفندينا :

ـ هل ستذهب معنا الى الباشا ؟

وصاح العجوز فى فزع :

ـ الى الباشا ؟ وماذا أفعل هناك ، .. لا .. لن أخرج من هنا .

وقال «باربايانس» يشرح الأمر :

ـ انه لصالحك ياعلى أغا ، سوف تحصل على وسام .

وصاح العجوز وهو يغلق الباب بعنف :

ـ استحلفكما بالله ان تمضيا الى حال سبيلكما وان تدعانى وشأنى .

فقال «باربايانس» :

ـ دعه اذن ياأفندينا ، انه اشبه بالميت ، وهيا بنا .

ووصل الاثنان الى الميدان الرئيسى واتجها نحو بوابة الباشا .. وظهر الأحمقان فى نفس اللحظة التى كان الباشا فيها يهبط الدرج .

وصاح الاثنان عندما أبصرا به :

ـ يا أفندينا الباشا ، قف ووفنا حقنا من الاعجاب .

وسألهما الباشا وهو يضحك :

ـ ماذا يجول برأسى الدجاجتين ؟ وما هذه المسخرة ؟

وكان أفندينا قد عقد حواف سروال الخيش الذى يرتديه بعد أن تمزقت

خيوطه بينما وضع «باربايانس» السيف بين ساقيه .. وتقدم الاثنان ، وبدأ ممثل المسيحية يتكلم فى وقار :

ـ ياأفندينا الباشا ، لا تحسبنى الآن «باربايانس» بائع الكعك ، أنا الآن «مملكة المسيح» وهذا الرجل ليس أفندينا روث الخيل كما يسمونه ، وانما هو «تركيا» لقد أكلنا عشب الخصام وأصبحنا أعداء ، ثم أكلنا الشهد فى النهاية وهدأ الحال . وها نحن الآن قد أصبحنا أخوة ياأفندينا الباشا : الا ترى ؟ ان كريت مثل الكلبة التى تستطيع ان تمنح ثديها لصغارها وتمنحه أيضا للقطط الصغار . ان اللبن متوافر للجميع كما ترى .. وبعده ومعه الوفاق والحب والحياة المطمئنة والسعادة ، لقد أصبحت اليوم جدا أكبر ، فلتعمل من أجل الاصلاح اذن ياباشا .

وبعد أن أغرق الباشا فى الضحك صاح :

ـ يا سليمان .. هذا الرجل ليس أحمق . من يصدق الآن انه كذلك ؟ هذان الرجلان أكثر تعقلا ـ وحق دينى ـ من المطران ومنى أنا أيضا . قدم لهما شرابا وطعاما طيبين .

ـ ووساما ياأفندينا . أليست هناك أوسمة ياأفندينا الباشا ؟

وقال «باربايانيس» معموما .

ـ ما هذا ؟ يكفيكما وسام واحد . لقد منحتك من قبل وساما .

ـ وماذا عن أفندينا ؟

وأشار الى صديقه الذى كانت سراويله تنزلق .

ـ أعطه خيطا ياسليمان حتى يثبت سرواله .

ثم صاح آمرا :

ـ كفى .. هذا هو كل ما عندى لكما من أوسمة .. فانصرفا اذن فأنا مشغول .

وعندما وصل الباشا الى بيت «أركوندولا» أسعده ان يجد حمار المطران مربوطا الى حلقة الباب ، فقال :

ـ لقد وصل المطران قبلى ، وهذا يعنى انه يعترف بأننى أنا الكبير هنا .

وأنزله سليمان من فوق ظهر الجواد ، وسار عبر الفناء الواسع الممهد والذى تنتثر خلاله أصص الزهور ، وأقبلت صاحبة البيت العجوز لترحب به

وقد شدت وسطها حتى بدت كمذراة الحبوب .. وبدأ أنفها وسط وجهها المطلى بالمساحيق منفرا مزعجا .

وكان المطران قد قام مرحبا ، وانحنى الباشا عندما دخل الى الحجرة ، ثم جلس فى مواجهته وأخرج مسبحته . وانسحبت العجوز تاركة الرجلين الكبيرين وحدهما يناقشان الأمور المهمة التى تخص البلد .

وساد الصمت لحظة بينما كان المطران يدفىء يديه فوق الموقد البرونزى أمامه ، فقد كاد يتجمد من شدة البرد . وتثاءب المطران بالتالى :

وأخيرا تكلم المطران حتى يفتح باب الحديث :
ـ البرد شديد اليوم يا افندينا الباشا .
وأجاب الباشا وهو لايزال يتثائب :
ـ نعم .. فقد أقبل الشتاء ياافندينا المطران .

ثم انحنى فوق الموقد .. وفتح فمه .. ولكن فى صعوبة بالغة :
ـ سمعت ان دخان الفحم يسبب الدوار . أنا أحس بالدوار فعلا .
وقال المطران وهو يتثاءب بدوره :
ـ نعم .. سمعت ذلك .. ولكن حين لا يكون الفحم كامل الاحتراق .
وساد الصمت من جديد ، وأحس الباشا بالتعب وهو يبقى يديه ممدودتين فوق الموقد ، فأراحهما فوق ركبتيه وهو يجيل البصر حوله الى ساعة الحائط الكبيرة والى الاناء الأخضر الملىء بالورود الحمراء المخملية فوق دولاب رسم فوقه بالحفر ، والى جانبه تمثال لمغربى ذى رأس مفرغ ملىء بأعواد الثقاب ، وفوق الباب صورته هو باللون الأحمر والذهبى والأسود تمثله وهو ينظر فى خيلاء وعظمة .. ولا تكاد الصورة تغفل قدر شعرة من الأصل . وبينما كان يتطلع الى الصورة معجبا بأناقته . أجفل فجأة ، فقد خيل اليه أن زر طربوشه يتحرك ، فقال فى رعشة :
ـ ياافندينا المطران ، خيل الى أن زر طربوشى يتحرك فى الصورة ، أيمكن ان يحدث هذا ؟ ما رأيك ؟

وكان المطران يحس بالارهاق والضيق لأنه لم ينم كعادته بعد الظهر ..

ولكنه استجمع قواه .. وتطلع الى الصورة يفحصها ـ وعاد الباشا يسأل :
ـ أهذا يمكن يا أفندينا المطران ؟
ـ عم تتحدث ياباشا ؟
ـ عن زر طربوشى الذى يتحرك فى الصورة .

وقال المطران وهو يستند بجسده الثقيل الى ظهر مقعده :
ـ لا .. هذا مستحيل ياأفندينا الباشا .

واستند الباشا بدوره الى ظهر مقعده وأغلق عينيه ، وحين رآه المطران أغلق هو الآخر عينيه .

وبرز الديك من ساعة الحائط معلنا الوقت ، وهبت ريح شمالية حركت الشجر بعنف فى الفناء ، ونقر عصفور زجاج النافذة ثم ما لبث ان طار مذعورا حين سمع شخيرا مفزعا . وتسللت القطة الضخمة التى تعيش بالبيت وقفزت الى حجر المطران وتقوقعت تدفىء نفسها ببطنه .. ونامت فى اطمئنان .. وعاد الديك يبرز من داخل الحائط ليعلن الوقت مرة أخرى .

وضعت «أركوندولا» فى قلق .. أذنها الى الباب ، ولم تسمع حديثا ، وانما سمعت أنفاسا منتظمة طويلة .. وشخيرا مطمئنا .. واحد ثقيل كأنه صوت طبلة ضخمة ، والآخر كزئير البوق . فقالت لنفسها : «سوف أعد لهم بعض القهوة لتوقظهما» .

ثم اتجهت الى المطبخ لتضع الاناء فوق النار ، وما لبث الباشا ان سمع صرير الباب ، ففتح عينيه ، ورأى صاحبة البيت العجوز تدخل حاملة صينية مستديرة ، فقال ساخرا وهو يشير الى المطران النائم :
ـ لقد غلبه النوم ، لم يعد المسكين يصلح لهذا الأمر .. لقد شاخ .

وفتح المطران عينيه هو الآخر على رائحة القهوة وهى تتسلل الى أنفه ، وقال وهو يمد يده الى الفنجان :
ـ لك الشكر من القلب أركوندولا ، كنت فى أشد الحاجة اليه ، فبينى وبين النوم قيد شعرة .

ورشف الاثنان قهوتهما بسعادة وبصوت عال ، بينما استدار المطران الى الباشا وهو يقول :

- ان محصول القمح يبشر بالخير هذا العام ياافندينا الباشا .

وقال الباشا فى يونانية ناقصة :

- والشخير أيضا ياأفندينا المطران .

ثم نهض واقفا وهو يقول :

- لقد أمضينا وقتا طيبا اليوم ، فلنكرر هذا اللقاء يوما آخر من أجل مزيد من التداول .

وقال المطران وهو يقف مستندا الى مقعده هو الآخر :

- بكل سرور ياأفندينا الباشا .

وكان ثمة جمع قد احتشد خارج البيت بعد أن عرف أن الزعيمين قد التقيا لأول مرة منذ عدة أشهر للتداول فى كيفية اقرار الوفاق فى البلد . ووقف الجمع ينتظر فى البرد .. وليرى الاثنين وهما يخرجان متشابكى الأيدى .

ومر « كاساباكيس » الطبيب .. وتوقف ، ورأى « أرستوتل » الصيدلى يقف منتظرا فسأله :

- ماذا يحدث ياسيد أرستوتل ؟ هل مات أحد ؟

وقال أرستوتل :

- حذار يادكتور . ان الباشا والمطران بالداخل يتفاوضان حول كيفية اقرار الوفاق فى البلد . وقد رآهم البعض من خلال النافذة والأوراق أمامهما : كان المطران يكتب والباشا يتكلم وهو يلوح بيديه . لعلهما الآن يضعان أختامهما على الورق . كيف حال السيدة مارسيل ؟

وهز الطبيب كتفيه وهو يقول :

- دائما كما هي .. سوف أبعث بها الى أخى « كاتساباس » فى الريف حتى تغير الجو .

وكان يتكلم فى رضا ، لأنه نجح أخيرا فى ابعادها حتى يصبح هو وحده

مع الخادمة .. وبينما كان الجميع يتبادلون الأحاديث ، ظهر السيد « ديميتروس » قادما من القرى لأول مرة بعد سبعة أشهر من التجوال وفى يده مظلة من أجل أن يزيل ـ على حد تعبيره ـ الهم عن قلبه . ولم يكن طوال هذه الشهور السبعة يتكلم الا نادرا حتى ظن الفلاحون أن الجنيات قد سلبته القدرة على الكلام ، وأسبغوا عليه الشرف اذ سلكوه فى عداد الذين مسهم الجن ، وكانوا يمنحونه كسر الخبز فيأخذها ، ويلوكها دون أن يتوقف ، ويتابع السير الى قرية أخرى . وكان يضع المظلة أحيانا تحت إبطه ، ويفتحها أحيانا حسب حالة الطقس .

كان السيد « ديميتروس » يتابع تجواله والقلق يستبد به طوال الفترة التى كانت « كريت » تناضل فيها ملك الموت . أما وقد بدأ السلام يسوده ، فقد وجد السلام أيضا فى أن يعود الى زوجته « بنيلوب » وقد تمزق حذاؤه وتمزقت ثيابه وضاعت قبعته وأصبح سرواله فضفاضا فوق جسده الذى زاد نحولا .. يتطاير فى الهواء مثل « جونلة » امرأة .

ومر بالجمع وهو يعرج مستندا الى مظلته ، وقال الطبيب وهو يضحك :
ـ ما أشد ما هزل جسده .. ان سرواله يكاد أن يكون فارغا ..

وأجابه السيد « أرستوتل » وهو يهز رأسه المدبب كالخيارة :
ـ لا تقلق عليه ، فسرعان ما يملؤه من جديد . أين ما أصابه بجانب ما أصابنى أنا من سوء الحظ !!

وكان يفكر فى بقالته بالشارع العريض ، وفى أنه لم ينجب ولدا يرثه ، وكان يفكر أيضا فى شقيقاته الثلاث العوانس وثقوبهن فى باب البيت ، والتى من خلالها يمارسن متعتهن الوحيدة : رؤية الدنيا .

وقال الطبيب للقادم الجديد :
ـ مرحبا ياسيد « ديميتروس » ، كيف حالك ؟

وقال « ديميتروس » وهو يتابع السير :
ـ الشكر لله .. لقد كسرت قدمى .

وغمغم الصيدلى وهو يتابعه بنظره :

ـ لا يستمتع بالدنيا حقا الا المغفلون . أما العقلاء ، فالويل لهم ، كل الويل .

وصاح الطبيب فجأة :

ـ أوه .. لقد نسيت ، يجب أن أنصرف .

ـ وماذا نسيت ؟ مريضا ؟

ـ نعم .. انها اليهودية التى جاء بها ابن أخ الكابتن ميخايليس ، لقد أجهضت .. فتاة جميلة شقراء ـ هل رأيتها ؟

وقال الصيدلى فى سعادة خبيثة :

ـ فهذه لعبته الآن اذن .

ثم وقف على أطراف أصابعه ليرى ما يجرى فى فناء بيت « أركوندلا » حتى يحكى التفاصيل لشقيقاته . ورأى الجمع المحتشد فى تلك اللحظة المطران الضخم الأبيض اللحية يخطو فى وقار عبر الفضاء بين صفين من أصص الورد متجها الى الباب وقد أمسك بيده يد الباشا ذى اللحية الرمادية الخشنة . وافسح الأتراك واليونانيون الطريق للاثنين بينما الباشا يبتسم يمينا ويسارا على حين كان المطران متجهم الوجه عاقد الحاجبين يستند فى تثاقل على عصاه الرسمية . كان يريد التخلص فى أسرع وقت من الباشا ، وأسرع الشماس يفك رباط الحمار ، بينما هرع سليمان بالجواد .

كان « نعيمى » تتحمل الآلام فى بيت أسرة زوجها . لم يكن قد غمض لها جفن طوال الليلة الماضية حيث ظلت تفكر فى زوجها وفى الجبل الذى لابد أنه كان يتسلقه فى تلك الأثناء ، وتفكر فى وليدها الذى ينمو داخل بطنها ويضغط عليها بقسوة ، وأحست برعب غريب يمنعها من النوم ، ويخطر ما فى الجو يتهددها : جسم غير مرئى ، صوت لا صوت له ، شبح ... أحسست بالعرق البارد يتصبب من جسمها وذلك الخاطر يقفز الى

ذهنها ، فنهضت واقفة حتى لا تختنق وفتحت النافذة فاندفع هواء الصباح المنعش . كان الصباح ينبثق .. وهبطت « نعيمى » فوجدت الأم العجوز منحنية توقد نار الفرن ، فقالت :

ـ أماه .. أحس بالتعب .. سأخرج لأشم الهواء .

وعندما نظرت اليها الأم اجفلت . كانت المسكينة ترتعش من الخوف وقد برزت عظامها وأحاطت بعينيها هالتان سوداوان . وسألتها فى اشفاق :

ـ وإلى أين تذهبين فى هذا الوقت المبكر من الصباح وفى هذا الجو البارد ياطفلتى ؟ سوف تزداد حالتك سوءا .

وترددت « نعيمى » أحست بالخجل من أن يفتضح ذلك الذعر القاتل الذى كان يتملكها .. وان تفضح حالتها حقيقة المكان الذى كانت تريد أن تتوجه اليه ..

وعادت العجوز تقول :
ـ الا تعرفين الى أين تريدين الذهاب فى هذا الوقت ؟

ـ أعرف ياامى . الى الكنيسة لأوقد شمعة .

وصاحت الأم :
ـ هل رأيته فى الحلم ياابنتى ؟
ـ نعم .

ـ ووجهت الأم بصرها الى السماء وذقنها يرتعش . كانت « نعيمى » ولاشك على حق . انه لم يعد بعد . انه لا يزال فى الجو .. يتسلل خلال الأبواب .. انه لا يزال يضمر شرا .

وأخيرا قالت فى صوت خافت كما لو كانت تخشى أن يسمعها العجوز الميت :
ـ اسمعى ياابنتى ، اذهبى الى الكنيسة وأوقدى شمعة من أجله .

وصلى من أجله حتى يشفق عليك . ولكنى أستحلفك بالله ألا تخبريه بأن حفيده ـ بأنك ...

لن أخبره ياأمى ..

ـ خذى هذا الوشاح والتفى به جيدا حتى لا يصيبك برد .

وكانت الكنيسة خاوية وثمة حزم متفرقة من الضوء تتسلل خلال النوافذ الملونة وتوقظ القديسين ، والثريا ، وأعمدة الشمعدان البرونزية ، والى اليمين من أعلى المذبح ، القديس « ميناس » على صهوة جواده ، وتناولت « نعيمى » شمعة من فوق المنضدة واتجهت نحو مذبح السيدة العذراء التى تعلو صورتها المذبح الى جوار « الباب الجميل » ، ولم تجد فى نفسها الجرأة على أن تخاطب العجوز الميت مباشرة ، وفضلت أن تتحدث الى السيدة العذراء .. الأم ... كواسطة بينها وبينه .

وكان ضوء المصباح الفضى فى مواجهة تمثال السيدة العذراء يلقى ضوءه الناعم على ذقنها المترفع وفوق عينيها اللوزيتين ، والعصابة الحمراء حول رأسها .. والمطرزة بالنجوم الذهبية . وركعت « نعيمى » وهى تنظر إليها .. وظلت راكعة لا تتكلم فترة من الوقت طويلة ، وكلما أمعنت النظر .. هدأ قلبها واستقر . كانت العذراء تمسك بابنها فى حرص بين يديها وكأنها تخشى أن ينتزعه أحد : وكانت تسند خدها فى رفق الى خده وتمسك بصليب خشبى أمامه كأنه اللعبة .

ووقفت « نعيمى » وأوقدت شمعة ، وقربت فاها من العذراء وبدأت تحدثها.لم تكن قد تعلمت الصلوات بعد .. فحدثتها كما يمكن أن تتحدث الى جارة طيبة طرقت بابها وهى فى محنة .

ـ « ياأمى » .. أنا نعيمى اليهودية ، جئت من اقصى الدنيا ، تركت دين ابائى وأصبحت مسيحية . أنا فى محنة أيتها الأم .. فساعدينى ، قولى له الا يجيئنى بالليل ليعذبنى .. قولى له الا يؤذينى . أنا لا أرجو لبيته سوى الخير ، انى أحب ولده ، وليس لى فى الدنيا سعادة سواه . ياأمى ، سوف اقول لك شيئا آخر ، ولكن : ارجو الا تنقليه اليه : سوف أصبح أما بعد

ثلاثة أشهر ، وأخشى أن يؤذى طفلى . لا تدعيه يفعل ذلك ، انى أركع عند قدميك ياأم أمهات الدنيا .. كونى رحيمة بى » .

ثم رفعت رأسها : « ورأت العذراء تنظر اليها فى حزن ويأس . وخيل اليها أن عينيها قد ملأتهما الدموع فجأة . وأرتعشت « نعيمى » ، وانتزعت من أذنها القرط الذهبى ـ هدية كوزماس اليها ـ وعلقته فوق المذبح وهى تقول فى همس :
ـ « هذا كل ما عندى أيتها العذراء المقدسة ، هذا القرط لك .. فكرى فى » .

وعندما عادت الى البيت رأتها « ماريا » فأشاحت بوجهها عنها فى عنف بينما اتجهت الأم العجوز نحوها تسألها :
ـ هل أوقدت شمعة من أجله ياطفلتى ؟ هل سمعت صوتا ؟ هل قال شيئا ؟

وقالت « نعيمى » :
ـ أنا ذاهبة لأرقد ياأمى ، فأنا متعبة .

وصعدت الدرج فى بطء وبأنفاس ثقيلة ، وتمددت فوق السرير الحديدى العريض الذى عانق فوقه المرحوم زوجته أيام كان حيا .

كان الجو خانقا ، وكانت « نعيمى » تتنفس بصعوبة وعيناها مفتوحتان ، فقد كانت تخشى أن يقتحم عليها الرجل الميت المكان وسط الظلام أن هى أغلقت عينيها .

ودقت الساعة فى الطابق الأسفل ، ومن قمم المآذن تناهى صوت المؤذن منغما مؤثرا : الظهر . وأحست بمرارة داخل فمها فلم تنزل لتأكل وبقيت عيناها مثبتتين على النخلة التى ترتفع فى فناء بيت « أركوندولا » عالية فوق سطوح المبانى . وهبت ريح عنيفة ، واهتزت ضلف النوافذ ، واصطدمت أوراق النخيل التى تشبه نصال السيوف . وعلى المذبح فى مواجهتها ، ارتعشت ذبالة المصباح الصغير ـ وبدا اللهب الخافت وكأنه

يود أن ينطلق خارج الزجاجة ، ولكن « نعيمى » كانت عاجزة عن القيام لتملأ المصباح الذى يصارع الموت .. بالزيت .

وأرهقتها التحديق المتصل ، فأغلقت عينيها . ولم تدر ما اذا كان النوم غلبها أم أنه قد خيل اليها ذلك ؟ ولكنها على أية حال .. أغلقت عينيها فى ذعر وهى واثقة تماما من أن شخصا ما قد تسلسل الى الحجرة دون أن يفتح بابها .. وبذلت « نعيمى » أقصى ما استطاعت من جهد لتتراجع الى أبعد حافة للسرير .. ثم فتحت عينيها . لا أحد .. ولكنها بالرغم من ذلك[٥] كانت تحس بأن ثمة شخصا يقف أمامها بين قوائم السرير .

وهمست « نعيمى » وقد استبد بها الفزع « أنه هو » .. وعادت تحدق فى الهواء وقد انطفأ لهب المصباح وغرق المذبح فى الظلال . وكانت كلما أمعنت التحديق ، قوى احساسها بأن الهواء أمام السرير يتكثف ويتجسد : فى البداية لمع مسدسان فضيان ، ثم عنق قوى وشارب أسود مصبوغ بالشمع ، وعينان يعلوهما حاجبان كثيفان .. حتى أصبح رجلا تراه العين .

وصرخت « نعيمى » :
ـ أيتها العذراء المقدسة . النجدة . أخرجيه من هنا .

ولكنه رفع يده على الفور ، وجذب الملاءة ونحاها جانبا ، ثم هوى بقبضة يده فوق جسد « نعيمى » .

وندت عن المسكينة صرخة حادة ، وتدحرجت من فوق السرير الى الأرض .. وسمعتها الأم فأسرعت تصعد الدرج لتجد السيدة غارقة فى بركة من الدماء . فصاحت :
ـ ماريا .. الطبيب . بسرعة .

وأبعدت الطفل الذى ولد ساكنا لا يتحرك ، وجعلت تمسح جسد « نعيمى » بالروائح العطرية ، ثم أضاءت المصباح وجلست تنتظر وهى تنتحب فى داخلها على حفيدها الذى ولد بلا حس ولا حركة . وما لبثت « نعيمى » بوجهها الشاحب أن فتحت عينيها والقت نظرة حيرى حولها .

أين هى ياترى ؟ وماهذه الدماء ، ومن الذى وجه اليها الضربة ؟ ومنذ متى يستبد هذا الألم الطاغى بأحشائها ؟ وزمت شفتيها حتى لا تصرخ ، ورأت الأم العجوز تنحنى فوقها مادة اليها ذراعيها ، فهمست تقول :
- الألم شديد ياأمى .

وجلست الأم الى جانبها ترطب جسدها بالعطر وفكرها فى ابنها البعيد . ياترى يعرف ابنها الحبيب بهذه الكارثة ؟ وأين هو الآن ياترى فى هذه اللحظة ؟ أيكون فى صحن دار الجد ؟

ولكن « كوزماس » كان بعيدا جدا عن صحن دار الجد يتسلق الجبل وسط ظلام الليل وتحت الأمطار ، يتبعه فى صمت العجوز « شاريديموس » بجسده المنحنى ، بينما صورة جده وهو يموت والقيثارة تمنحه جواب سؤاله .. تتجسد أمام روحه فى جمال فائق .

وفجأة توقف « شاريديموس » ، فلم يعد يطيق مزيدا من الصمت ، ان الرحلة تعنى الحديث المتبادل والمجاملات .. ولكن هذا الرجل الذى يرتدى الملابس الافرنجية لا يتكلم ولا يضحك .

- لماذا أنت فى عجلة هكذا ياسيدى ؟ لترى الكابتن ميخايليس ؟ عليه اللعنة الأفضل لك الا تراه أبدا . وإذا كان لابد لك من أن تراه فليكن ذلك اذن دون عجلة كلما أمكن .. ولأقصر وقت ممكن . لقد أرسلنى جدك أول أمس لأبلغه أنه يموت وأنه ينتظر حضوره ليودعه . وعندما استدار ونظر الى نظرته الوحشية كدت أن أخرج ما بجوفى .

- لا تنزعج ياشاريديموس ، انه عمى . ان دماءه هى ذات الدماء التى تسرى فى عروقى ، ولست خائفا منه .

- فأنت اذن من القوة بما يمكنك من مواجهته ؟ أراهن أنك لم تكون بالقدر الكافى من القوة .

- بل سوف أكون . فلا تتكلم .. وأسرع .

كان « كوزماس » قد عقد العزم على ألا يدنس بالحديث تلك الساعة من الاجتماع الصامت ، لأنه كان يفكر فى جده ـ ذلك الجذع القوى الضارب فى الأرض ـ ويفكر أيضا فى ذلك الغصن المعقد من هذه الشجرة ـ الكابتن ميخايليس الذى يمسك بين يديه ولاشك بمصير كريت . كيف ياترى يتحدث اليه ، وكيف يتسنى له أن يؤثر فيه ؟ وماذا سيقول له ؟ وأى شيطان يتملكه ؟ لقد قال له المطران : « ان خطأه هو الذى تسبب فى ضياع دير السيد المسيح ، هو الآن يريد أن يمحو هذا العار . هذا هو السبب فى أنه لا يريد أن ينصت الى صوت الصواب . ولعله يريد أن يموت ليدفع ثمن خطئه » .

ويومها سأله « كوزماس » :

ـ فماذا لو كانت مصلحة كريت تقضى بغير مايراه ؟

وظل المطران صامتا لحظات وكأنه يزن الكلمات التى سينطلق بها .. ثم قال بعد تردد :

ـ فليسامحنى الله ، ولكنى أؤمن بأن ثمة شيطانا تملك جسد عمك .. اسمه كريت .

كذلك فان عمه « تيتيروس » استأمنه على سر :

ـ ثمة لحظة سوداء فى حياته . أمر غامض حول الكابتن بوليكسيجيس وامرأة تركية . هناك لغط كثير حول هذا الأمر . ان قلبه قد تحول الى وحش يرفض الانصياع الى ماقد يمليه عقله .

وكان « شاريليوس » القزم قد قال له ساخرا :

ـ انه يغار من أركادى .. من أجل هذا فأن الشرير قد أقنع نفسه بأنه يستطيع هو الآخر أن يفعل شيئا كبيرا ينظم الناس الأغنيات حوله .

« ربما كانوا جميعا على حق » هكذا كان « كوزماس » يحدث نفسه وهو يتابع صعود الجبل تحت الأمطار وينزلق أحيانا فوق الصخور المنحدرة . ترى كيف يستطيع اقناعه بأن يستفيد بوعد الباشا .. فيعود الى حيث يشاء بسلاحه وبأعلامه ؟ هل يركز على أن تلك رغبة المطران ؟ أو أن ملك اليونان

يطلب ذلك ؟ ألن يهز كتفيه بلا اكتراث ؟ ألم يعد يثق فى مخلوق على ظهر هذه الأرض ؟

وظل « كوزماس » غارقا فى أفكاره يقلب كل أوجه السبل فى الحديث الى هذا الوحش الضارى والتى يمكنه أن تهديه سواء السبيل ، وفى ذات الوقت ، كان القلق يمزقه من الداخل . أى نوع من الولد سوف يحمله جسد « نعيمى » الهزيل الذى أودعه تلك البذرة المرعبة لسلالته ؟.. كان التفكير فى هذا الأمر يثير فيه الرعشة .. ومرة أخرى قفزت به أفكاره الى أرض الفرنجة .. الى الظلم والعار والفقر الذى رآه هناك .. واخيرا ، ماذا عن دوره هو ؟ فى أى مكان ياترى يستقر ليخوض معركة حياته ؟ كان ثمة مكان لجده .. ولأبيه .. ولعمه ، أما هو ؟ أين ياترى يحتل مكانه ليقول بعد يملء فيه : « هنا أحارب معركتى ، ولن يزحزحنى أحد » .. ولأول مرة ، أحس بأنه معلق فى الهواء .

وهدأت السماء أخيرا بعد أن ألقت كل أحمالها فوق الجبال ، وهبت ريح باردة تدفع السحب أمامها ، وبزغت النجوم فتوقف « شاريديموس » ونظر الى السماء فاحصا :

ـ لقد تجاوزت الوقت منتصف الليل ، لقد قطعنا مسافة طيبة ، فان كنت تؤمن بالله ياسيدى فلنتوقف قليلا تحت هذه الصخرة . انها بعيدة عن مهب الريح . ونستطيع أن نشعل سيجارة .

ـ هل تعبت ياشاريديموس ؟

ـ نعم .. تعبت .. يجب أن تعرف أننى عجوز . وأن عظامى أصبحت ثقيلة .

والحق أن الخبيث لم يكن قد تعب على الاطلاق ، ولكنه كان يتحرق شوقا الى الحديث . وجلس الاثنان تحت الصخرة ، وقدم له « كوزماس » سيجارة .

والآن ، كيف يبدأ شاريديموس الحديث ؟.. نظر الى السماء أولا . ما الذى يستطيع ان يقوله عنها ؟.. ثم طرحها جانبا .. وفكر فى قريته . وفى « ميجالو كاسترو » وفى كريت كموضوعات ممكنة للحديث . ولكن ماذا

يمكن أن يقول عنها ولا يعرفه هذا الافرنجى معرفة كاملة ؟ موضوعات هى الأخرى لا تجدى . وفجأة ، توقف عند اسم أحد أعمامه « اندروليوس » سوف يحدثه اذن عن هذا العم فى معرض المقارنة به هو .. وفى معرض مقارنة الكابتن « ميخايليس » به . ان الكابتن ميخايليس بالنسبة لعمه هذا ليس أكثر من ذبابة . « وسوف أريه » .

وجذب من سيجارته نفسا عميقا أتى عليها كلها حتى احترقت أصابعه ، ولكنه لم يلق بها .. واستدار الى « كوزماس » :

ـ هل تعرف ياسيدى ماهو أكبر وحش ضار فى هذه الدنيا ؟. قد تقول انه الأسد . أبدا . الرجل .. قد تسألنى : لماذا ؟ ألانه يقاتل ويقتل الأتراك مثل عمك ؟ أم لأنه يخترع الأسلحة بخبث الشياطين ويقتل الأسود ؟. لا هذا ولا ذاك . وسوف أفسر لك الأمر . ان لى عما . انهم يسمونه ـ سامحهم الله ـ « اندروليوس » . وقد نشأ ضعيف البنية فسموه « الوهم » .. لأنه لم يكن يزيد فى حجمه عن الحمصة . وكان يجرى هنا وهناك ـ لا ، لم يكن يجرى ، بل كان يقفز كما يقفز « نطاط الحشائش » ولا يكف عن الأنين والبكاء بسبب ايذاء رفقائه له . وقال الأطباء ان عنده حصاة وأن موته مؤكد . ولكنه بالرغم من ذلك ياولدى ـ صدقنى ـ أصبح شيئا .. أصبح رجلا . كان يحمل فأسه ويخرج ، ويركع على أرض الجبل خارج قرية « فينيراتو » بانج . بانج . بانج .. ويبدأ فى كسر صخور الجبل بفأسه : عاما وعامين وثلاثة . وكان الفلاحون يمرون به ويرونه ، فيهتزون من فرط الضحك ويقولون : « الجبل يااندروليوس » .. وكان هو يجيب دون أن يرفع عينيه عن الفأس : « أجل .. وسوف أكله أكلا » .. وفى العام الثالث بدأ يبنى بيتا فى سفح الجبل : « خذها نصيحة منا يااندروليوس » ، لا تبن بيتا ، فان من يبنى بيتا لابد أن يتزوج » ـ « وسوف افعل هذا ايضا أيها النقانق » . وكان يقول للذين يسخرون منه : « سوف اتزوج وانجب أطفالا يساعدوننى فى قهر الجبل » وكان الفلاحون يضحكون : « ومن هذه المرأة التى ترضى بك يا"وهم" ؟ » .

فكان يجيب :

ـ « عندما يكون ثمة زحام عند دكان الجزار ، فان شيئا من اللحوم لا

يتبقى . وحتى أنا سوف أجد زوجة » .. وأكمل بناء البيت . ومرت به ذات يوم أرملة فلاحة قصيرة وسمينة وقبيحة الوجه ، ولكنها كانت صغيرة . وتطلعت الى الفناء والمخزن والمطبخ وغرفة النوم ، فأحبت البيت . وقالت لأندروليوس وهى تغمز له بعينيها : « ما رأيك ياأندروليوس ؟. وفهم عمى . وبالاختصار تزوجها . ونام معها ، وأحسن استخدام ليلته . ولكنه حين نظر الى الجبل فى صباح اليوم التالى وهو لا يزال أشبه بالنائم حمل فأسه وعاود الحفر : بانج ، بانج ، بانج . وكان يقطع فى كل يوم قطعة منه حتى أقام كومة جديدة من الصخور بنى منها بيتا آخر الى جوار الأول . وبه حجرة نوم أخرى. كما أنه وسع الفناء وبنى حظيرة للحيوانات :

ـ « هل تريد أن تبنى مدينة » ؟.

ـ « نعم .. والا فأين أضع أطفالى ؟ » .

ـ أفلا تحس بآلام فى الكلى » ؟

ـ ما هذا الحديث عن الآلام أيها الجيف ؟ ، لا وقت لدى للألم » .

ومرت الأعوام . وانجبت النساء أولادا : اثنين ، اثنين .. وظل هو يتابع العمل بفأسه . وأصبحت فى الجبل كهوف وحفر .. فقد كان اندروليوس يأكله حقا .. ولم يعد يستطيع مفارقة الجبل . لقد شاب الآن شعره وهزل جسده اكثر واكثر ، ولكن ساعديه أصبحا ذوى قوة خارقة . وأصبحت مخالبه اعرض واطول ـ حتى لتصل الى ركبتيه ـ. ان من يراه لا يملك الا أن يضحك لشبهه بذلك النسناس الذى أحضره الباشا مرة الى « ميجالو كاسترو » . ان من يراه لا يملك الا ان يضحك . نعم .. ولكنه لا يملك الا أن يرتعش أيضا .. ان الفلاحين يحرصون على أن تكون ثمة مسافة بينه وبينهم ، فقد حدث يوما أنه مد مخالبه وقبض على أحد من الضاحكين عليه وعصر عظامه ومن يومها يعرج .. ولقد كبر أطفاله ، وكانوا هم أيضا يلقون بأنفسهم فوق الجبل بفئوسهم ويأكلون منه قطعة فقطعة .. ويبنون .. تزوجوا وانجبوا أطفالا . وشاخ عمى وهرم وثقل .. الفأس فى يده .. وذات مساء أحس وهو فى طريقه من الجبل الى البيت بأن نهايته حانت . أمرهم بأن يدفنوه فى الجبل وفأسه الى جواره ، ثم بسط ذراعيه .. ولفظ أنفاسه الأخيرة .. اذا أنت مررت يوما بقرية « فينيراتو » ياسيدى ، فليدلك الناس على قرية « اندروليوس » .. ان ما بناه عمى أصبح نموذجا يحتذى .

ثم سكت .. واحس بالسعادة لأنه استطاع أن يؤثر فى ذلك الافرنجى . وبرقت عيناه وبسط الظلام فى رضا وانفعال .

– اسمع يا« شاريديموس » انا أعرف وحشا آخر أكثر ضراوة وحجما من الأسد ومن عمك « اندروليوس » .

– ومن هو ؟.
– دودة القبر .
– اللهم احفظنا . لا تفكر فى هذا الأمر بحق الله .

ورسم « شاريديموس » علامة الصليب وهو يغمغم قائلا : « لعنها الله » .

ثم بصق .. وامسك بعصاه وهو يقول فى قلق : « فلنتابع السير ياسيدى » .

مع غبش الفجر ، وصل « كوزماس » الى قمة « سيلينا » يتبعه « شاريديموس » :
– امض أنت ياسيدى .. فاذا انتهيت من اداء ما جئت من اجله .. نادنى . حتى نعود أدراجنا معا . افضل الا أرى عمك فسامحنى .

ولم يكن الكابتن « ميخاليليس » قد نام طوال الليل ، فقد ظل واقفا فى موقعه يراقب دون ان يغمض له جفن ، وعند أول ضوء التقط نظارته المقربة ليرى من خلالها موقعا تركيا فى اثر آخر فى أسفل الجبل كانت ترتفع فى كل ليلة عن سابقتها . وكان واضحا أن الأتراك ليسوا فى عجلة من أمرهم . وأنهم يدركون من الطلقات المتفرقة التى يطلقها المسيحيون ان ذخيرتهم تتناقص باستمرار . ويدركون ايضا ان هؤلاء الذين تجمعوا على قمة الجبل لم يعد لديهم الا قليل من الخبز يتبلغون به . كان الحصار محكما لا يسمح لإنسان أو حيوان بالتسلل الا من ممر لصعود الماعز يعرفه ابن المنطقة ويستطيع عن طريقه أن يصل بالليل الى عش النسر .

وظل الباشا يبعث رسائله الى الكابتن « ميخايليس » ليقنعه بالطاعة . وكانت القسطنطينية قد بعثت اليه تقول إنه سيكون أفضل لتركيا أن يذل المتمردون من أن يقتلوا . لأن ذلك يعنى أن « كريت » ترضخ بمحض ارادتنا ، الأمر الذى تسقط معه كل دعاوى الفرنجة . وقد بعث الباشا فى مساء اليوم السابق برسالة الى الكابتن « ميخايليس » تقول : « انى أمنحك آخر فرصة . استسلم غدا صباحا واعتزل بكل شرفك العسكرى . ولن أمسك بسوء . والا فانى اقسم بمحمد أننى سوف أسحقك سحقا » .

وقد ظل الكابتن « ميخايليس » طوال الليل يقلب الأمر على وجهيه ليرى ماذا يختار ـ ليس لنفسه ـ لأنه كان قد اختار لنفسه بالفعل ولكن من أجل زملائه . لم يكن هناك أمل فى الفوز : ولم يكن يريد أن يتحمل ضميره وزر مصيرهم . فليدع أذن كل واحد منهم يختار طريقه بمحض ارادته . وهكذا ، فقد أحاطهم فى ذات المساء بمضمون رسالة الباشا . فاخبروه بأنهم سيفكرون فى الأمر طوال الليل وسوف يكون جوابهم فى صباح اليوم التالى .

ولم يغمض لأحدهم جفن ليلتها . وعندما كانت الشمس تلمس الجبل بأشعتها عند الصباح . كان كل واحد منهم قد تسلل منفردا الى الكابتن . وهاهم الان ينتشرون حوله شعثا غبرا قد اتسخت وتمزقت ثيابهم وغطتها بقع الدماء . ينتظرون أن يكون هو البادىء بالحديث . ولكنه ظل يحدق فى الصخور حتى يهدأ فى صدره ذلك القلب المثقل وحتى يكون صوته حين يتكلم .. هادئا وليس أشبه بالزئير . كانت الأفكار تتدافع الى أعماقه فى حدة البرق : ثأر « أسا كى » : المرأة الشركسية .. دير السيد المسيح .. وانحنى أخيرا ليلتقط حجرا ،وظل يضغط عليه وهو يلعن .. حتى سالت الدماء من يده .

كانت شفتاه وحاجباه يختلجان وهو ينظر حوله الى رفاقه . ثم أسفل الى الاتراك . ثم الى أعلى .. الى السماء غير المسكونة فوقه . وغمغم وهو يهز رأسه فى عنف « الحرية أو الموت » .. « الحرية أو الموت » .. آه أيها الكريتيون المساكين . بل الحرية والموت . هكذا كان ينبغى أن أكتب فوق الراية . هذه هى الراية الحقة لكل مقاتل : الحرية والموت .. الحرية .. والموت » .

وهدأ قليلا .. فبعد سنين طويلة أدرك الحقيقة واتضحت الأمور أمامه . وأحس بقوة تسرى فى قلبه وهو يستدير فى هدوء الى رفاقه ويقول :

ـ عرفتم ما عرضه هذا الكلب علينا .. وأنتم رجال ، ونحن نناضل من أجل الحرية . ولنكن صرحاء ، ليس لدينا بارود ولا رصاص ولا خبز . ولا أمل . الأتراك أمامكم فى جيش بينما نحن حفنة .. فمن أراد منكم أن يذهب فليفعل : وأقسم لكم بسيفى الذى لن أسلمه الا لله أن ليس فى ذلك أدنى عار . أنا لن أذهب . هذا كل ما أردت أن أقوله لكم .

وساد الصمت لحظات لم يرفع فيها واحد رأسه ليتكلم .. وكانت الشمس قد ارتفعت عن الأفق قليلا عندما بدأت الطبول تدق كان الجنود الأتراك يحتشدون . وعاد الكابتن « ميخايليس » يقول : « تكلموا فى حرية . واحزموا أمركم بسرعة » ..

وقال رجل أسود الشعر شاحب الوجه ربط بندقيته بخيط من الدوبارة :

ـ انتم جميعا تعرفون اننى رجل وانني لا أهرب أمام مخلوق . ولست أخشى الآن أن أوصف بأننى بعيد عن الرجولة . ولكننى أريد أن أوضح وجهة نظرى فى صراحة . أيها الكابتن .. اننا نغرق الآن بلا فائدة . لن نستفيد نحن ولا المسيحية . ولسوف تثور « كريت » عن قريب مرة أخرى ولن نكون يومها أحياء لنسدد ضرباتنا باسمها . ان حياتنا الآن أكثر فائدة لكريت من موتنا . شرف أو عار ، لا يهمنى . فرصة أو دمار لكريت ، ذلك وحده الذى يشغل بالى .

وأنصت اليه الكابتن « ميخايليس » وقد أحنى رأسه ، ثم سأله :
ـ هل انتهيت يا « ناروس » ؟
ـ لقد تكلمت .

واستدار الكابتن « ميخايليس » الى الآخرين :
ـ كل واحد بدوره . وهذا دورك يا « فوروجانوس » .

وتحسس « فوروجانوس » شاربه وهو يدير برأسه بعيدا ويقول :
ـ طوال الليل كان ثمة شيطانان يتصارعان فى أعماقى . أحدهما قال

لى : « ابتعد فليس ثمة أمل فى النصر » .. وعندما جاء الفجر كان أحدهما قد انتصر .

وقال الكابتن « ميخايليس » وهو يجول بعينيه فى عيون الآخرين :
ـ وأيهما ؟.
ـ بالنسبة لك أنت ياكابتن « ميخايليس » ـ فاننى العن الساعة التى عرفتك فيها .
ـ حسن .
ـ لن أذهب .

واستدار الكابتن « ميخايليس » الى باقى الدائرة وحوله :
ـ وماذ عنك أنت يا« كاجابيس » ؟

وقال هذا وهو يتنهد :
ـ انا .. أنا حديث عهد بالزواج ، عندى زوجة لم أجد الفرصة لأستمتع معها بالسعادة . ذلك يحرق صدرى .

وقال الكابتن فى اصرار :
ـ حسن .. دع النساء جانبا الآن .. ماذا يقول الرجل : اننا نسأل الرجل .
ـ لعن الله الساعة التى قابلتك فيها ياكابتن « ميخايليس » أنا أيضا أقولها . انى أريد أن أذهب ولكننى أحس أمامك بالخجل لن أذهب .

واستدار الكابتن الى ابن أخيه الذى كان ينظف بندقيته ويحشوها بينما رفاقه يتكلمون :
ـ وأنت يا« تودورس » ؟.. ماذا تقول أيها الفتى الذى لم تنبت لحيته ؟

واستدار « تودورس » ينظر الى عمه متجهما .. وقد امتلأ غضبا واعجابا وحسدا ، وقال :
ـ أتظن أنك أنت الوحيد الذى تملك الشجاعة . لمجرد أن لحيتك نبتت ؟ لن أذهب .
ـ ولا أنا ..

وصاح اثنان آخران تلوث صدغاهما بالتراب :
ـ ونحن أيضا .

أما الآخرون : عشرون أو يزيدون قليلا ، فقد أحنوا رؤوسهم ولزموا الصمت .

وصاح الكابتن « ميخايليس » :
ـ ليس أمامنا وقت كاف . ان الشمس ترتفع ، تكلموا ، هل تريدون الذهاب ؟ انتم أحرار آذن ، فالى اللقاء .

وهمس « كراسو جورجيس » الى جاده ، ثم وقف وقد وضع يده فوق صدره ..

ـ سامحونى ياأخوتى ، ان لنا أخوات لم يتزوجن ، وأبناء لم يعملن وزوجات وأطفال . وموتنا لن يفيد أحدا . سوف نذهب .

وقال « ماستراباس » أيضا :
ـ سامحونى ياأخوتى .. نحن ذاهبون .

وصاح الكابتن « ميخايليس » وهو ينهض واقفا :
ـ بوركتم .. بوركتم ياأخواتى . الله يشهد انى لست ناقما عليكم . تحياتنا الى الناس أسفل الجبل . ولكن انصرفوا بسرعة ، كل واحد وشأنه ، ولا تدعوهم يرونكم . أسرعوا قبل أن ترتفع الشمس اكثر .

وقال العشرون كأنما نغم واحد :
ـ سامحونا .. وعسى الله أن يسامحكم .

وقال الكابتن « ميخايليس » :
ـ لكم ما تريدون . ويلعن الله رجلا يقول فى حقكم كلمة واحدة ، عود حميد ..
وبقى خمسة ..

ونظر اليهم الكابتن « ميخايليس » واحدا بعد الآخر ثم قال :

ـ نحن اذن ستة . هذا يكفي . بل أكثر من الكفاية . ان العقل يقول : « نريد أن نذهب » .. ولكن القلب ـ والله معنا ـ لا يسمح .. لن نغادر هذا المكان . سوف نموت فداء لكريت . فلتحكم كريت لنا أو علينا : نحن الذين سنموت هنا ، نفعل خيرا مما فعله الذين سيعيشون . ان كريت ليست فى حاجة الى أرباب بيوت .. انها تحتاج الى مجانين مثلنا هؤلاء المجانين هم الذين سيخلدون كريت .

ثم تطلع الى السماء . وكانت الشمس ترتفع حثيثا :

ـ أعدوا بنادقكم . وغيروا مزاغلكم حتى لا يكتشفوا قلة عددنا . باسم الله .

وفى ذات اللحظة التى بدأ فيها المناضلون الستة يتفرقون ، وبينما كان الكابتن « ميخايليس » ينحنى أمام مزغله .. تناثر الحصى خلفه ، ووصل « كوزماس » . واستدار الكابتن « ميخايليس » وأمعن النظر :

ـ من أنت ؟. أخفض رأسك اذا كنت لا تريد أن تخترقها رصاصة .

ـ أنا « كوزماس » . ابن أخيك ياكابتن « ميخايليس » .

وزوى الكابتن ما بين حاجبيه وقد أدرك أى ريح حملته الى هناك فقال فى فظاظة :

ـ زيارة نرحب بها . لماذا قطعت كل هذا الطريق الى هنا ؟. وماذا يريد الثعلب فى السوق ؟

وعض « كوزماس » شفتيه حتى لا تفلت من بينهما كلمة غاضبة ، ثم قال فى ضحكة جافة :

ـ انا لست ثعلبا . وليس هذا سوقا . أنا مثلك رجل ياكابتن « ميخايليس » ، أنا ابن أخيك .

ـ الذى يقاتل هو وحده الرجل . استلق بجانبى وقل لى لماذا جئت . وأوجز ، فأنا مشغول .

ثم عاد يتطلع الى السماء .. كانت الشمس لحظتها تقترب من ارتفاعها عند الظهيرة . وصاح رفاقه :

- استعدوا يا أولاد . احشوا بنادقكم . ولكن انتظروا اشارتى قبل أن تطلقوا النار .

وتناهت صيحات وحشية من أسفل الجبل . وأطل « كوزماس » من خلال فرجة وسط الصخور ورأى كتلا من الجنود الأتراك تتسلق الجبل .

وعاد الكابتن « ميخايليس » يسأل دون أن ينظر الى ابن أخيه :
- تكلم . من الذى أرسلك ؟

.. وظل مسددا بصره الحاد نحو الأتراك . وأجاب « كوزماس » :
- كريت ..

وعندما انفجر الكابتن « ميخايليس » هادرا :
- لا أريد شيئا من هذه الكلمات الضخمة أيها المدرس . تكلم كما يتكلم الرجال . ولا تقل لى إن كريت هى التى أرسلتك . هل سمعت ؟ كريت هى أنا .

وأدرك « كوزماس » على الفور انه فى مواجهة رجل لا يستسلم .. ما الذى يجبره اذن على أن يمتهن نفسه بالتوسل اليه ؟. ان الله نفسه لن يستطيع أن يغير ما بعقل هذا الرجل . لقد اتخذ قراره الحاسم . فلماذا يزحف اذن أمامه ؟ وقفز داخل خفايا صورة ذلك القلب الكريتى المترفع ، وأحس بالخجل من أسلوب الحديث المصنوع .

وعاد الكابتن « ميخايليس » يهدر دون أن ينظر اليه
- حسن . فماذا تريد ؟

وقال « كوزماس » فى يأس :
- لا شىء .

وطرح جانبا كل الكلمات التى أعدها من قبل :
- فقد جئت إذن لتزور عمك ؟.. ألف أهلا .
- جئت لأخبرك بأن جدى قد مات .

ووضع الكابتن « ميخايليس » بندقيته جانبا ، ورسم علامة الصليب وهو يقول :

ـ عسى الله أن يكون كريما معه ، لقد كان رجلا جديرا بالاحترام . كانت أعماله طيبة ، وكانت حياته غنية . والآن يرحل .. ليئام .. أما أنت ، فالى اللقاء نحن هنا في حرب .

ـ أليس ثمة رسالة تريد أن أحملها ؟
ـ اذهب .
ـ لزوجك ، أو لولدك « ثاراساكى » ؟

ونفرت عروق الكابتن « ميخايليس » واضطربت نظرته . ورفع يده الملوثة بالبارود والدماء وهو يضعها فوق فمه .. وصاح هادرا :
ـ باسم الله .. الحرية أو الموت .

وسدد بندقيته ، وأطلقها . وتجاوبت بالطلقة الأصداء في الجبال . وانهالت على الفور رصاصات الاتراك تصفر صاعدة الى أعلى ، وبدأ مدفع صغير يهدر على المنحدر كالرعد ، واستقرت قذيفته خلف الكابتن « ميخايليس » وتطايرت الأحجار .

وندت صرخة ألم . واستدار الرفاق فوجدوا « كاجابيس » وقد تدحرج فوق الصخرة التى كان يقف فوقها ، ليهبط عند قدمى الكابتن « ميخايليس » ، وحين حاول أن يفتح فمه ليتكلم ، انبثق منه سيل من الدماء منعه من الكلام .

وكانت الطبول أسفل تدوى .. وبدأت رؤوس الجنود تلوح وفى مقدمتهم « الدراويش » يحملون الراية الخضراء .

وصاح « تودورس » :
ـ دعوهم يستقبلونها يا أولاد .. اهبطوا الى الكلاب .

وارتفعت أكثر وأكثر أصوات أقدام الزاحفين . وألقى الكابتن « ميخايليس » بنفسه فوق « كاجابيس » ليأخذه بين ذراعيه . واصطدم

« بكوزماس » الذى كان لا يزال مستلقيا الى جواره ، فصاح فيه :
- الأتراك هنا يامدرس ، اهرب بسرعة ولا تختلط بالرجال .

ولكن « كوزماس » لم ينهض . كان ينصت الى قلبه الذى راح يهدر بين جنبيه .. والدماء والبارود يغطى وجهه . وأحس بأبيه .. ذلك القائد المرعب .. يستيقظ داخل صدره . ومعه جده .. وكريت أيضا .. وأحس بأن هذه ليست أول معركة سيخوضها : فمنذ ألف سنة وهو يحارب ، ومنذ ألف سنة قتل وبعث من جديد ألف مرة . وغلت الدماء فى عروقه ..

وتحسس الكابتن « ميخايليس » جسد « كاجابيس » فى سرعة ليفحص جرحه . وبرقت عينا الرجل لحظة ، ثم تجمدت نظراتهما . ومدد الكابتن الجسد على الأرض وصاح :
- تذكروا « أركادى » ياخوتى . ولنمت جميعا كالرجال .

وبدأت أنفاس الأتراك اللاهثة تتناهى أصواتها ، وصاح « فورجانوس » وهو يحس برعشة فى صدره ومعدته : « لقد ضعنا » .

وصاح « تودورس » الذى كانت الدماء تسيل من جبهته وتكاد أن تعمى عينيه : « أغلق فمك » .

ثم مسح الدماء بذراعه ورأى الأتراك أمامه فصاح :
- ياأولاد .. لن تصلح البنادق ، فالى خناجركم .

ثم استل خنجر أبيه ذى القبضة السوداء ، وألقى بنفسه فوق الدرويش الذى يحمل علما ويلوح به فى جنون . ولم يكد يقترب منه حتى سقط الى الخلف وقد استقرت رصاصة فى رأسه .

وارتفع خلفهم صوت هادر على حين فجأة :
- الصحة والسعادة لكم يافرسان . لقد أدركتهم فى اللحظة المناسبة ياكابتن « ميخايليس » .

وصاح الكابتن وقد برقت عيناه :

ـ ماذا ؟.. أهذا انت يا« فيندوسوس » اسحب ما قلته ياكابتن .
ـ انى أسحبه . سامحنى ياأخى . تعال هنا واخفض رأسك .

وخطا « فيندوسوس » خطوة واحدة ، ولكن رصاصة عاجلته . فهوى على الأرض .

ودمعت عينا الكابتن « ميخايليس » وهو ينحنى ليقبل جبهة « فيندوسوس » ثم استدار فرأى « كوزماس » . فرفع قبضته وصاح :

ـ ابتعد ، لا تزال أمامك فرصة . ابتعد .

ـ لن أبتعد ثم انحنى بسرعة ليلتقط بندقية « كاجابيس » وليعلق حزام الذخيرة حول عنقه .. ويخرج خنجره من غمده .. ونظر اليه الكابتن « ميخايليس » فى دهشة :

ـ لن تذهب .

ـ لن أذهب .

وفجأة أدرك الكابتن « ميخايليس » كل شىء . وتهلل وجهه وهو يأخذ رأس « كوزماس » بين يديه :

ـ حياك الله ياابن أخى . فأنت أيضا تريد أن تضحى بنفسك يالكريت الخالدة .

وهبت عاصفة . واكتست السماء باللون الاحمر ، وبدأت السحب تتجمع وتناهت أصوات الطيور الجائعة .

وقفز « فوروجاتوس » وقد أحس بالعار لأنه كان جبانا للحظة . وبدا الموت أمامه لحظتها وكأنه الله الواحد الرحيم الذى يغسل كل عار ورسم علامة الصليب ، واستل مديته وصاح : « الحرية أو الموت » . ثم اندفع تاركا الساتر الذى كان يحتمى به . وألقى بنفسه مكشوف الرأس بلا حماية ، فوق الأتراك . وأحاط به خمسة أو ستة منهم . فألقى بنفسه عليهم فى ضراوة ووحشية ولكنهم طرحوه أرضا ، وجثم أحد الدراويش وذبحه كالحمل .

وعندما رأى الكابتن « ميخايليس » ما حدث ، أصدر أوامره :

ـ لا يغادر أحدكم ساتره .

ولم يكن قد بقي من رفاقه سوى اثنين . احتميا وراء ساترين وظلا يسددان طلقاتهما فلا تخيب منها واحدة .

وكان الكابتن « ميخايليس » يسدد طلقاته هو الآخر الي جبهة كل جندي يظهر أمامه . وأصابت خده طلقة ، وأصابت أخرى جنبه وبدأت دماؤه تسيل دون أن يحس بالألم . وكان من حين لآخر ينظر الى ابن أخيه وهو الي جانبه يطلق الرصاص في حماس : « حياك الله ياابن أخي ، أن أباك ينهض من جديد » . « كوستاروس » ياأخي .. نعم ما أنجبت » .. وصاح الآخر « نعم اللقاء ياعمي » . وأحس بالبهجة ، وبأنه يتحول الي شخص آخر . وتملكته نشوة سوداء مبهمة وهو يحس نفسه كأنما قد خف وزنه وتحرر . أو كأنما عاد في تلك اللحظة وحدها الى بيته ووطنه . واختفت في لحظات كل الأفكار الافرنجية المثقفة . ومعها اختفت أمه وزوجته واختفى ابنه ، ولم يعد باقيا شامخا أمامه الا شيء واحد فحسب : واجبه الأزلي .

وصاح هو الآخر وهو ينظر الي الأتراك :
ـ الحرية أو الموت ..

وهبط ظلام مفاجيء ، وهطلت الثلوج بشدة ، وتخللت أشعة الشمس الغاربة السحب الحمراء في السماء .
وتناهى صوت .
ـ لقاء سعيد ياكابتن « ميخايليس » .

كان صوت مؤذن « ميجالو كاسترو » العجوز بعمامته الخضراء ، وهو يلوح فجأة من خلف الساتر .

وقال الكابتن « ميخايليس » :
ـ لقاء سعيد يامؤذن .

ثم أرسل اليه رصاصة اخترقت منه تفاحة آدم ، وانبثقت الدماء وهوى المؤذن الى الأرض .

وصاح تركى ذو شعر أشقر :
- اقتلوهم .

واندفع الجنود يهدرون.........
وقال الكابتن « ميخايليس » لابن أخيه « كوزماس » :
- لا تتردد يابن أخى ، ليس ثمة أمل ، عاشت كريت .
- صدقت . ليس ثمة أمل ياعمى . عاشت كريت .

واستل كل منهما خنجره واندفع الى الأمام . وكان الثلج قد بدأ يغمر جثث القتلى الممددة فوق الأرض . كما أصبحت الطرابيش بيضاء وانقض نسران نحو الرجال المقتتلين يتفحصان دوائرهم وقد اشرأب عنقاهما .

ووسط خضم القتال المتلاحم بالايدى .. افترق العم وابن أخيه . وأحاط الأتراك بكوزماس ، ورآه الكابتن « ميخايليس » عن بعد . فاقتحم سلسلة الجنود الذين كانوا يحيطون به . واندفع ليخلص ابن أخيه وهو يصيح .
- انتظر لحظة يابن أخى .. أنا قادم اليك . ولكن الوقت كان قد فات .

وصاح واحد من أتراك المنطقة فى سخرية :
- انه قادم اليه بنفسه ياكابتن « ميخايليس » . ثم ألقى عند أقدامه رأس « كوزماس » .

وبسط الكابتن « ميخايليس » يده ورفع الرأس المفصول من شعره وكأنه اللواء ، واكتسى وجهه بهالة من ضوء وحشى يفيض ببهجة لا إنسانية : أكانت كبرياء ، أم تحديا .. أم استهانة بالموت ؟.. أكانت حبا لكريت لا حدود له ؟..

وصاح الكابتن « ميخايليس » هادرا :
- « الحرية أو ...... »

.... ولكنه لم يكملها ، استقرت رصاصة داخل فمه ، واخترقت أخرى صدغيه .. وتناثر مخه فوق الصخور .



نيقوس كازنتزاكيس

- اشهر كاتب يونانى فى القرن العشرين .. عاش بين عامى ١٨٨٥ و ١٩٥٧
- كتب الرواية والقصيدة والمسرحية ..
- درس الفلسفة بجامعة اثينا ثم فى باريس .. ورحل الى بلاد اوروبا لدراسة الفن والأدب .. وعاد الى اليونان ليعمل فى وظائف قيادية فى وزارة الثقافة .
- درس العقائد الشرقية لسنوات طويلة .. وترجم الاعمال الكاملة لدانتى وجوته الى اليونانية .. وأوديسيا هوميروس الى الانجليزية . وتعتبر اعظم اعماله ..
- ذاعت شهرته من خلال رواية « زوربا اليونانى » ١٩٤٦ .. وله روايات اخرى مثل « العاطفة اليونانية .. ١٩٥١ و « الاغراء الاخير للسيد المسيح .. ١٩٥٣ .
- كتب للمسرح « المسيح يصلب من جديد » ..
- تحولت اعماله الى افلام سينمائية عالمية .. وترجمت اغلبها الى اللغة العربية

هذه الروا

صبري

نجح الكاتب اليونانى
كازنتزاكيس أن يصنع من
الروائية نماذج حية ومعروفة ر
شهرته ككاتب . منها على س
شخصية « زوربا اليونانى »
الكابتن ميخايليس فى روايت
« الحرية او الموت » .

هذه ترجمة كاملة وامينة له
الادبى العملاق الذى كتبه ك
وترجمة سعد زغلول نصار .. وه
المع نجوم الأذاعة والترجمة فى
الذهبى ..

نجح الكاتب ان يصنع من جز
الصغيرة عالما رحبا ، بالغ ال
يمكنك ان تقابل فيه كافة النماذ
التى عاشت على صفحات هذه ا
تتصارع فيما بينها . وتحاول
لنفسها ظلا وسط هذه الصراعات
والعنيفة ..

الحرية او الموت

رواية تتنبأ بكافة الصراعات
التى يشهدها العالم فى نهاية
العشرين ..

روايات الهلال تقدم

هاتـــف المغيــــب

بقلم

جمال الغيطانى

تصدر : ١٥ مايو ١٩٩٢

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

رقم الايداع : ٣٠٨١ / ١٩٩٢
L . S . B . N
977 — 07 — 01bo — 2
